



د. منذر الحايك

العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية

الجزء الأول

تقديم أ. د. سهيل زكار

الدكتور مُنذر الحايك

909
H4192A
V. 1
C. 1

العلاقات الدوليّة

في

عصر الحُرُوب الصليبيّة

الجزء الأوّل

العلاقات بين القوى والدُول الإسلاميّة

تقديم : أ.د. سَهيل زَكَار

الأوائل

2006

الكتاب: العلاقات الدوليّة

في عصر الحُرُوب الصليبيّة

تأليف : د. مُنذر الحايك

الحقوق

جميعها محفوظة للنّاشر

النّاشر: الأوائل للنّشر والتّوزيع

سُوريّة . دمشق . الإدارة : ص . ب 3397

هاتف : 00963 11 44676270/1/2

فاكس : 00963 11 44676273/4/5

البريد الإلكتروني : alawael@scs-net.org

التّوزيع : دمشق ص . ب 10181

هاتف : 0096301102233013

البريد الإلكتروني : alawael@daralawael.com

جـوَّال : 00963 93 418181

00963 93 411550

موقع الدّار على الإنترنت :

www.daralawael.com

قرؤوا فوصلوا

لنقرأ حتّى نصل

الطّبعة الأولى

آب 2006م

الإشراف الفنّي: يزن يعقوب

الإخراج الفنّي: فؤاد يعقوب

تصميم الغلاف: عبد القادر إدريس

التّدقيق والمراجعة: إسماعيل الكردي

قروؤا فوصلوا ، لنقرأ حتّى نصل

تنويه هام

من أجل تواصل أكثر مع السادة القراء ، فقد خصصنا آخر (32) صفحة من هذا الكتاب لمنشورات الدار ؛ حيث يجد السادة القراء قائمة بمنشورات الدار ، ولمحة إلى كل كتاب أصدرته الدار .

هذه القائمة تُعطي انطباعاً عاماً عما تنشره الدار من آراء ، كما تُعطي لمحةً عامّةً إلى الخط الذي تنتهجه الدار ، وهذا - بلا شك - سيجعل التواصل أسرع وأقرب وأصدق .

فنرجو من السادة القراء قراءة هذه الصفحات بتأنٍ وتدبر ، ونرجو مراسلتنا بملاحظاتكم واستفساراتكم عن الكتب التي تنشرها الدار .

الإهداء

إلى فراس

الذي تابع السير على الدرب

وحقق كثيراً من الآمال...

صفحات محبة ودليل تفاؤل ..

بأن العزيمة باقية

وأن المضي قدماً لم يتوقف...

أبو فراس

17	تقديم: أ. د. سهيل زكار
23	استهلال
25	حالة الشرق العربي قبيل الغزو الفرنسي:
26	العلاقات الدولية في العصر الأيوبي:
27	دولة صلاح الدين
31	إشكالية التاريخ في عصر الحروب مع الفرنجة:
32	مقاربة حول منهج البحث ودوافعه:
35	الجزء الأول: العلاقات بين القوى والدول الإسلامية
35	القسم الأول: الحياة العامة في العصر الأيوبي
37	الفصل الأول: العلاقات السياسية للسلطنة الأيوبية
37	تمهيد:
39	المبحث الأول: المعاهدات الدولية:
40	قواعد المعاهدات:
42	المبحث الثاني: المراسلات الدبلوماسية:
43	رسائل الحمام الزاجل:
44	الرُّسل والسُّفراء:
48	الرُّسل إلى الممالك الخارجية:
49	خيانة الرُّسل:
51	الفصل الثاني: دور السُّكان في العلاقات الدولية:
51	المبحث الأول: سُكان الممالك الأيوبية:
51	المسيحيون المحليون:
55	الموارنة:
56	اليهود:
58	طائفة العامة:
58	طائفة العبيد:
58	دور العامة:
61	المبحث الثاني: دور رجال الدين في العلاقات السياسية:
62	الدين والسياسة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

64	دور القضاة:
66	المبحث الثالث: دور المرأة في العلاقات السياسية:
68	صبيغة خاتون بنت الملك العادل:
70	غازية خاتون بنت الكامل:
70	الست السوداء:
71	ست الشام:
72	أمة اللطيف:
72	المصاهرات السياسية:
73	المصاهرات السياسية داخل البيت الأيوبي:
73	المصاهرة بين العادل والظاهر:
73	مصاهرات الملك الكامل:
74	المصاهرة بين بيبي حماة وحلب:
75	المصاهرات الأيوبيّة خارج الأسرة:
77	المبحث الرابع: سُكَّان المناطق الفرنجية في ساحل الشام:
78	التقسيمات الاجتماعية للفرنج في سورية:
82	السُّكَّان المحليون تحت سلطة الفرنجة:
83	المسلمون تحت حُكم الفرنجة:
83	الفلاحون المسلمون:
85	المسيحيون المحليون في إمارات الفرنجة:
87	المبحث الخامس: العلاقات بين السُّكَّان عبر الحدود:
87	العلاقات التجارية:
88	المناصفات:
91	القسم الثاني: مراكز القوى الداخليّة ودورها في العلاقات الخارجية:
93	الفصل الأول: دور أرباب السيف ورجال الإدارة في العلاقات الدوليّة:
93	المبحث الأول: طوائف العسكر:
94	أ- الأسدية:
95	أ- المماليك الأسدية:
95	1- سيف الدين يازكوج:

95	2- أبو الهيجاء السمين:
96	3- عز الدين جرديك:
96	4- مرزوق الطشتدار:
96	5- أزكش:
96	ب- أمراء الأكراد:
96	ب- الصلاحية:
96	1- فخر الدين جهاركس:
97	2- فارس الدين ميمون القصري:
97	3- فخر الدين أطنبا الجحّاف:
97	4- ألبكي الفارس:
97	5- زين الدين قراجا:
98	6- علاء الدين شقير:
98	7- أسد الدين قرا سنقر:
98	8- ثبارز الدين سنقر:
98	9- طغرل المهراني:
98	10- آيبك فطيس:
98	11- بهرام الرّومي، وبهرام القارصي:
98	12- عز الدين أسامة الجيلي:
100	الصراع السياسي بين الأسدية والصلاحية:
102	المبحث الثاني: أمراء العسكر:
102	1- أبو الهيجاء السمين:
106	2- ابن المشطوب:
110	محاولة ابن المشطوب خلع السلطان الكامل:
111	مشروع ابن المشطوب:
112	نفي ابن المشطوب من مصر:
113	ابن المشطوب في الشام:
117	ابن المشطوب في الجزيرة:
120	المبحث الثالث: رجال الدولة:

أولاد شيخ الشيوخ:	120
1- عماد الدين عمر: (581- 636 هـ - 1185 - 1239 م)	122
2- معين الدين حسن (588- 643 هـ - 1192 - 1246 م)	124
3- كمال الدين أحمد (584/ 639 هـ - 1188 - 1241 م)	126
4- فخر الدين يوسف:	127
المبحث الرابع: دور بعض الأتباع	137
1- الحاجب علي:	137
2- الخادم صواب:	141
3- الخادم طغريل:	142
الفصل الثاني: العلاقات الخارجية للقبائل البدوية	145
المبحث الأول: سلطة الدولة وقوة البدو	145
المبحث الثاني: المجال السياسي والعسكري للبدو	149
البدو في الدولة الأيوبية:	150
المبحث الثالث: قبائل البدو من غير العرب	152
أ- التركمان:	152
العلاقات بين التركمان والممالك الأيوبية:	153
1- قنغر التركماني:	153
2- ابن دودي التركماني:	154
3- الياوقية:	155
ب- الأكراد:	155
1- القيمرية:	156
2- الشهرزورية:	157
المبحث الرابع: أعراب الشام ودورهم السياسي	158
قبائل الشام العربية:	159
بنو ربيعة:	162
1- آل فضل:	164
2- آل علي:	164
3- آل مرأ:	164

المبحث الخامس: أعراب الشام ودورهم العسكري	166
أهم الأدوار العسكرية التي لعبها البدو في الشام في العصر الأيوبي:	166
المبحث السادس: دور القبائل البدوية في مصر	170
قبائل البربر في مصر:	171
المبحث السابع: العلاقات الدولية لقبائل البدو	173
قبائل العرب والتتار:	173
قبائل العرب والفرنجة:	173
صورة البدو لدى الفرنجة:	178
الفصل الثالث: العلاقات السياسية والعسكرية	181
الفرقة الخوارزمية:	181
المبحث الأول: فرقة المقاتلين المرتقة	181
المبحث الثاني: الصالح أيوب وفرقة الخوارزمية	183
حصار حصص:	186
المبحث الثالث: المنصور إبراهيم يتصدى للخوارزمية	190
المبحث الرابع: الفرقة الخوارزمية في معركة غزة	197
المبحث الخامس: نهاية فرقة الخوارزمية	202
القسم الثالث: العلاقات الدولية لإمارات وممالك الجزيرة الشامية	207
الفصل الأول: الأيوبيون في الجزيرة الشامية	209
المبحث الأول: الجغرافية السياسية للجزيرة الشامية	209
ممالك المدن في الجزيرة:	212
خلاط:	212
شميساط:	212
البيرة، أو جسر البيرة:	212
بالس:	213
بهنسا:	213
قلعة نجم:	214
تلّ باشر:	214
ميافارقين:	214

المبحث الثاني: مرحلة التأسيس الأيوبي.....	215
صلاح الدين يدخل الجزيرة:.....	215
تقي الدين في الجزيرة:.....	216
المبحث الثالث: الملك العادل يُوطِّد الحُكْم الأيوبي.....	218
أ- إقطاع الملك العادل في الجزيرة:.....	218
- الأشرف موسى:.....	218
- الأوحى نجم الدين أيوب:.....	218
- الحافظ أرسلان شاه:.....	218
الأحلاف السياسية والتحركات العسكرية في الجزيرة بعد وفاة صلاح الدين:.....	219
في مُعسكر الحلفاء:.....	219
موقف حلب:.....	220
المبحث الرابع: القوى السياسية في الجزيرة الشامية.....	221
مُشكلة أخلاط:.....	221
الفصل الثاني: العلاقات الخارجية للممالك الأيوبية في الجزيرة.....	225
المبحث الأول: الملك الأفضل في الجزيرة.....	225
المبحث الثاني: الأشرف موسى ملك الجزيرة.....	230
المرحلة الأولى:.....	230
المرحلة الثانية:.....	231
المرحلة الثالثة:.....	231
العلاقات الجزرية للأشرف موسى:.....	233
اتفاق الملك الأشرف والملك الكامل عقب نصر دمياط:.....	236
أصدقاء التحالف في الجزيرة:.....	236
المرحلة الرابعة:.....	241
المبحث الثالث: الملك الكامل في الجزيرة.....	244
1- مرحلة الوفاق الأيوبي والاعتراف بسلطنة الكامل:.....	244
2- مرحلة الانقسام الأيوبي، وحلف الشام ضد السلطان الكامل:.....	247
الفصل الثالث: العلاقات الأيوبية مع مُلوك الأطراف.....	253
المبحث الأول: العلاقات الأيوبية مع الأراقة.....	253

1- ماردن:.....	253
2- آمد:.....	255
3- حصن كيفا:.....	255
4- خَرْتَبَرْت:.....	255
بداية العلاقات بين الأراقة والدولة الأيوبية:.....	256
العلاقات مع ماردن:.....	257
ماردين وسياسة العداء للأيوبيين:.....	258
العلاقات مع آمد:.....	262
العلاقات مع خَرْتَبَرْت:.....	267
الملوك الأراقة في ماردن وحصن كيفا.....	268
المبحث الثاني: العلاقات الأيوبية مع الأتابكة.....	269
أتابكة الموصل والجزيرة:.....	269
العلاقات الأيوبية الأتابكية في عهد العادل:.....	271
الأتابكة وأولاد العادل، نواب الجزيرة:.....	274
الانقلاب في توجُّهات الموصل السياسية:.....	278
وقفة مع تحركات الحلفاء ضدَّ العادل في حصار سنجار:.....	282
العلاقات مع الأتابكة في عهد الأشرف:.....	283
العلاقات الأيوبية مع الموصل بعد زوال حُكْم الأتابكة:.....	285
الموصل تستردُّ سنجار:.....	286
الملوك الأتابكة:.....	288
في الموصل:.....	288
في سنجار:.....	289
في جزيرة ابن عُمر:.....	289
القسم الرابع: العلاقات الدولية للممالك الإسلامية.....	291
الفصل الأول: العلاقات الخارجية لدولة الخلافة العباسية.....	293
المبحث الأول: صحوة الخلافة العباسية.....	293
المبحث الثاني: تنظيم الفتوة.....	296
نظام الفتوة:.....	297

300	من نشاطات الفتوة:
301	التبوية:
302	الخلافة بعد الإمام الناصر:
304	المبحث الثالث: العلاقات الدبلوماسية بين الأيوبيين ودولة الخلافة
313	المبحث الرابع: الملوك الأيوبيون وشعارات الشرعية العباسية
313	1- التقليد:
315	2- التشريف:
316	3- الخلعة:
319	المبحث الخامس: قضية الملك الناصر داود والخليفة العباسي
319	(وجه آخر للعلاقات بين الأيوبيين والخليفة):
326	الخلفاء العباسيون المعاصرون للحكم الأيوبي
327	الفصل الثاني: العلاقات الدولية للفرقة الإسماعيلية
327	المبحث الأول: الدعوة الإسماعيلية
329	أهم أسباب نجاح الدعوة الإسماعيلية في الشرق:
330	حول التقلب الديني للإسماعيلية:
333	تأثير العودة إلى الشريعة على إسماعيلية الشام وعلاقتهم بالأيوبية:
336	المبحث الثاني: الفرقة الإسماعيلية في الشام
337	قلاع الشام الإسماعيلية في العصر الأيوبي:
338	الإسماعيلية والاعتقالات في الشام:
341	المبحث الثالث: التحالف بين السلطنة الأيوبية والفرقة الإسماعيلية
345	المبحث الرابع: العلاقات الإسماعيلية الخوارزمية وانعكاسها على الممالك الأيوبية
345	1- في فارس:
347	2- في الشام:
348	المبحث الخامس: العلاقات السياسية والعسكرية بين الإسماعيلية والفرنجة
351	العلاقات العسكرية مع الفرنجة:
351	الاعتقالات الإسماعيلية لقادة الفرنجة:
352	دور إسماعيلية الشام في صراع الأيوبيين ضد الفرنجة:
355	جدول حكام الإسماعيلية

357	الفصل الثالث: العلاقات الدولية لبعض الدول الإسلامية
357	المبحث الأول: علاقات الشام ومصر مع المغرب الأقصى
361	المغاربة في الشام:
363	المبحث الثاني: العلاقات الخارجية لأمرأء الحجاز
371	الفصل الرابع: العلاقات الدولية لسلطنة المماليك
371	المبحث الأول: طائفة المماليك
373	المماليك الأتراك:
375	الصالح أيوب وفرقة المماليك البحرية:
378	المماليك البحرية في معركة المنصورة:
379	المبحث الثاني: المماليك وآخر سلاطين الأيوبية في مصر
380	ثورانه في مصر:
384	المبحث الثالث: الانقلاب العسكري للمماليك وتوليهم السلطة
385	اغتيال السلطان والاستيلاء على السلطة:
386	نتائج مقتل ثوران شاه في الشام:
386	1- في الكرك:
386	2- في الصبية:
387	3- في دمشق:
388	المرحلة الانتقالية (مرحلة شجر الدر):
390	المبحث الرابع: الرد الأيوبي على انقلاب المماليك
395	المبحث الخامس: صراع المماليك على الحكم
395	مشروع آيبك:
398	المبحث السادس: الصراع العسكري بين المماليك والسلطنة الأيوبية
398	المماليك البحرية في الشام:
400	الخليفة العباسي يسعى في الصلح:
405	سلاطين المماليك المعاصرين للحكم الأيوبي في الشام:
406	الفصل الخامس: العلاقات الدولية لمملكة سلاجقة الروم
406	المبحث الأول: دولة السلاجقة في بلاد الروم
410	المبحث الثاني: بداية العلاقات الأيوبية مع سلاجقة الروم

تقديم: أ. د. سهيل زكار

تعددت مذاهب تحليل التاريخ وتفسيره، وطرائق معالجة أحداثه، وغالباً؛ ما جاءت المذاهب انعكاساً لتيارات العصر السياسي، والاجتماعية، والاقتصادية، وغير ذلك، وانطبق هذا التعامل مع أحداث قرني الحروب الصليبية، ففي عصر الاستعمار الأوربي، ولا سيما الفرنسي، رأى عدد كبير من الباحثين الفرنسيين في أحداث الحروب الصليبية رسالة الأمة الفرنسية، التي جاء الوقت - بعد الحرب الكونية الأولى - إلى إعادة حملها إلى بلاد الشام. ومع قيام مدارس التفسير الاقتصادي، جرى تفسير دوافع الصليبيين بأنها كانت اقتصادية، وفي بعض الأحيان امتزج التفسير الاقتصادي بالتفسير القومي.

وقبيل نهاية القرن الماضي، مع انتهاء الحرب الباردة، وقيام تحكّم القطب الواحد، شهدنا ظهور تيارات جديدة، كان من أبرزها: صدام الحضارات، ونهاية التاريخ، والعولمة، وفكرة الإمبراطورية العالمية الديمقراطية، ومشروع الشرق الأوسط الكبير، وأطروحات أخرى كثيرة، وامتازت هذه المدة الزمانية بظهور التيارات الدينية، أو ما أطلق عليه - أحياناً - اسم: "تيارات اليمين"، ومعها رسخ في عقول الكثيرين في أنحاء العالم أن القطب الواحد هدفه القضاء على الإسلام، مثلما قضى - من قبل - على الماركسية، وسلاح هذا القطب هو التعصّب الكنسي، وهذا ما وضع لدى إعادة انتخاب الرئيس بوش لولاية ثانية، فالرئيس بوش ينتمي إلى حركة المتطهرين الجدد، واستخدم مراراً اصطلاح: "صليبية" في أحاديثه عن غزو أفغانستان، واستخدمه أكثر في أحاديثه عن احتلال العراق. ودفع هذا بقوة القيام بتفسير دوافع أحداث الحروب الصليبية على أنها كانت دينية بالمقام الأول، ولم يقبل بعض الباحثين، ولا سيما بقايا اليسار القومي العربي، بهذا التفسير، وشاهدوا في أحداث أفغانستان والعراق مع أحداث أخرى كثيرة نوعاً من أنواع العلاقات بين الكيانات، ولم تتضح هذه الأطروحة كثيراً بعد.

المبحث الثالث: العلاقات في عهد السلطان كيخسرو	416
التحالف الأيوبي السلجوقي	419
الصراع العسكري بين الأيوبيين والسلجوقيين	422
المبحث الرابع: العلاقات في عهد السلطان كيخسرو	429
بعض سلاطين سلجوقية الروم	433
المبحث السادس: العلاقات الدولية للمملكة الخوارزمية	434
المبحث الأول: الدولة الخوارزمية، وبداية العلاقات مع الممالك الأيوبية	434
الدولة الخوارزمية	434
بداية العلاقات الأيوبية بالدولة الخوارزمية	436
المبحث الثاني: العلاقات بين الملك الأشرف وجمال الدين منكبرتي	440
المبحث الثالث: العلاقات الخوارزمية مع قوى الجزيرة الشامية	446
آخفاء الخوارزمي	446
1- ركن الدين جيهان شاه بن طغرل	446
2- حسام الدين خضر الأصيلي	446
ب- الأيوبيون وخلفاؤهم	447
معركة باصجن 627 هـ	450
نتائج المعركة	453
استتجاد جلال الدين بالأشرف	455
آخر المعارك	457
الخوارزمية ونظرية السد في وجه التتار	458

وأخذاً بمبدأ العلاقات، أقدم د. منذر الحايك على معالجة أحداث الحروب الصليبية، لا سيما بعد صلاح الدين، وطبعاً؛ الصراعات السياسية والعسكرية هي علاقات، لكن المشكلة هنا: هل الصراعات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبي، وتمزيق وحدة الدولة الكبرى - التي أسسها صلاح الدين - هي علاقات محضة؟ أو عبارة أخرى: هل الوحدة التي أقامها صلاح الدين شكّلت حالة استثناء، والتمزق هو القاعدة، لأن دولة صلاح الدين كانت إمبراطورية، وطبعاً؛ هذا أمر خطير، تقبله - الآن - العقلية العربية الراضخة للأنظمة، والتي استبعدت من حساباتها الدعوة إلى الوحدة، ثم الدعوات إلى التآلف وتوحيد الموقف، وهذا واضح تمام الوضوح من المواقف تجاه العراق.

واقع التاريخ يُحَدِّثنا بأن الحملة الصليبية الأولى حققت نجاحاتها بسبب التمزق العربي، ولا سيما على أرض الشام؛ مثلما حدث بعد وفاة صلاح الدين، وأخبار التاريخ تُحَدِّثنا - أيضاً - أن معركة حطين وتحرير القدس جاءت نتيجة للوحدة التي أسسها صلاح الدين، وأنه لولا الوحدة لما تحقّق النصر في عين جالوت، وفي معارك صدّ موجات الاجتياح المغولي، وفي الوقت نفسه؛ تصفية الوجود الصليبي كلياً من على أرض الشام.

أنا لا أريد مطلقاً اتهام د. منذر الحايك بعدم التنبيه إلى هذه الأمور، هو تنبّه لها تماماً، فلدى حديثه عن زنكي، أوضح أن ثمار الوحدة الصغيرة التي حقّقها زنكي كانت تحرير الرها، وإزالة الكيان الصليبي الأول الذي تأسّس في المشرق، وأظهر وعياً مشكوراً تجاه أهمية الجزيرة، فمن الموصل حقّق زنكي الوحدة بين الجزيرة وأعلى بلاد الشام، وبعد اغتياله، تمكّن ابنه محمود من توحيد الشام الشمالي مع الجنوبي، وأحبط خطط الصليبيين في الاستيلاء على مصر، المهمة التي تابعها صلاح الدين بعده، وقطف ثمارها.

وأوضح د. منذر الحايك في دراسته المؤثقة أنه قامت علاقات بين الكيانات الصليبية والكيانات الأيوبية وتحالفات، ذلك أن الصليبيين تورّطوا - منذ أيام الحملة الأولى - في صراعات حُكّام الشام الداخلية، وطبعاً؛ كانت هذه التحالفات ذات دوافع سلطوية، لكن؛ على الرغم من هذا التورط، فالأمر لم يتعدّ الاستثناء، ولم يُشكّل القاعدة.

ومنذ احتلال الصليبيين للقدس أفلقت قضية التمزق السياسي المفكرين، وظهر هذا واضحاً عند السلمي في كتابه عن الجهاد، الذي هو أوّل مؤلّف من نوعه، وقد دعا فيه حُكّام أيامه إلى تأجيل خصوماتهم، وتوحيد جهودهم، إلى أن يتمّ اقتلاع المحتل الصليبي، وتحرير القدس، ومثل هذه الدعوة راتجة هذه الأيام، لكنّها لم تنجح إلا بالاعتراف بإسرائيل، وبمنحها تنازلات متواصلة.

هذا؛ ويلاحظ أنّه عندما تحقّقت الوحدة أيام صلاح الدين، أعادت توحيد العرب، ودفعتهم إلى نسيان خلافاتهم القديمة، من صفّين، إلى كربلاء، فالحرّة، وغير ذلك، وهذا ما نراه عند الوهراني في واحد من مناماته؛ حيث كان الشفّعاء يوم القيامة - بعد النبي صلّى الله عليه وسلّم - الإمام عليّ مع السبطيّين، لكن؛ كان لمعاوية وابنه يزيد دور في منح الشفاعة أيضاً.

وحقيقة الحال إن العمل الذي أقدم له، وأعدّه د. منذر الحايك، من أهمّ ما كُتِبَ بالعربية حديثاً حول الحروب الصليبية، وأشهد أنّه عالِم جَوَانِب هذه الحروب بنجاح ودقّة، ولولا أنّه تملّك في ذهنه - بوضوح - صورة جميع جوانب هذا الموضوع الشائك لما حالفه النجاح. لقد أوضح - منذ البداية - أن قيام الإسلام ونجاح حركة الفتوحات الكبرى، قسّم عالم حوض البحر المتوسط إلى عالمين متصارعين: واحد مُسلم، وآخر مسيحي، وفي العالم المسيحي كان للكنيسة الكاثوليكية نفوذها الكبير، لذلك استجاب الأوربيون لنداء البابا أوربان الثاني في العام 1095م، فحملوا الصليب، وتوجّهوا - على شكل أمواج بشرية - يُريدون القدس. وعندما وصلت مجويع الصليبيين إلى القسطنطينية نجح الإمبراطور ألكسيوس كومينوس في التعامل معها، ونقلها إلى البرّ الآسيوي، وبذل سلاجقة الرّوم جهودهم ضدّ الصليبيين، فأخفقوا، ولم تتوفّر لهم التعزيزات والنجادات، لأن السلاجقة كانت دولتهم تُعاني من التمزق، ومن الصراعات بين أبناء ملكشاه، وحاصر الصليبيّون أنطاكية، وصمدت في وجههم طويلاً، لكن؛ لم يأت جيش كبير للتفريغ عنها، وحين وصل جيش والي الموصل كانت الفرصة قد ضاعت. والمثير للدهشة أن السُلطات التي كانت تتحكّم بالقاهرة قامت بالتفاوض مع الصليبيين، ثمّ التعاهد، فاستولت جيوشها على القدس عام 1098م، القدس التي حُوصرت بعد وقت قصير من قبل الصليبيين، ولم يأت أحد للتفريغ عنها من القاهرة، ولا من غيرها.

وتنبّه د. الحايك إلى أن العلاقات تنشأ عنها معاهدات، واتفاقات، وهُدُن، ولذلك تتوفّر خدمات للبريد، وكذلك سُفراء، ورُسل، ومراسم، وفي حُرُوب الكيانات؛ تنشط المشاريع والأفكار، ولا سيما الزيجات "الدبْلُو ماسيّة"، فهذا وَضَحَ أثناء تصدّي صلاح الدّين للحملة الثالثة، ولكنّه استُخدم أكثر بين الأيوبيّين، وأيضاً؛ بين الصليبيين.

وفي أثناء القرن الثالث عشر، وقت الصراعات الأيوبيّة، ربح الصليبيّون كثيراً من هذه الصراعات، ونالوا - بالمعاهدات، والهُدُن - ما لم يستطيعوا نيله عسكريّاً، وصحيح أن أفراد البيت الأيوبي انغمسوا في صراعاتهم الداخليّة، لكنّ أوضاعهم كانت صعبة جداً، فقد واجهوا ثلاث حملات كبيرة مع عدد من الحملات الفرعية، وكانت أوربا تُرسل - بلا انقطاع - الحُجّاج، والأسلحة، والخُيول، والأعتدة، واضطّر بعض الحُكّام الأيوبيّين إلى الاستعانة بالمرتزقة، وسواهم، خاصّة فئة الخوّارزمية، ونظراً لأن ولاء المرتزقة والخوّارزمية اعتمد على المال، كان هذا مُرهقاً اقتصادياً وسياسياً وعسكريّاً. وقد احتاج الأيوبيّون - مُنذُ أيّام صلاح الدّين - إلى شراء الرقيق من الفتيان، وتدريبهم، وتعاضل هذا أيّام الصّالح أيّوب، وتوفّرت المادة البشرية، ولا سيما من القفجاق؛ بسبب الضربات الشديدة التي تعرّضت قبائلهم لها على أيدي المغول.

وهنا؛ تكرّر حُدُوث ما لا بدّ منه، فبعد اغتيال زنكي في العام 1146، وانقسام دولته إلى قسمين: جزري، وشامي، وجد نُور الدّين نفسه بحاجة إلى الطاقة البشرية، ورأى أن التّركمان ضعف وُجودهم في الشّام الشمالي؛ لانشغالهم في الأناضول، وفي الجزيرة. وكانت أحداث الصراعات التركمانية، واجتياح التّركمان للأناضول قد تسبّبت - ضمن عوامل عديدة - في دَفْع أعداد كبيرة من الأرمن والأكراد على الهجرة، كما أيقظت الكرج، أو الجورجيين، وقاد هذا إلى تأسيس دولة أرمينيا الصّغرى في كليكية، وإلى التحاق أعداد كبيرة من الأكراد بتُور الدّين، ولذلك عندما مات نُور الدّين ورثه صلاح الدّين، والآن؛ بعد وفاة الصّالح أيّوب أثناء التّصدّي للحملة الأولى للقديس لويس، ورث ممالك السُلطة، ووُلدت دولة المماليك.

وكان للكرج أدوارهم في أحداث الجزيرة، وقد قادوا عدّة حملات صليبية خاصّة بهم، ولكن دور أرمن كليكية كان أشدّ حُطُورة في الشّام الشمالي، وعندما قدم المغول تحالف الكرج والأرمن مع

المغول، وشاركوا في جميع حملات المغول ضدّ بلاد الشّام، من عَيْن جالُوت حتّى شقحب، ولُحسن الحظّ أن باحثنا أجاد البحث في هذا الجانب، وغطّاه، كما تعرّض إلى دور الإمبراطوريّة البيزنطيّة.

واستعرض مسألة التحالف بين فردريك الثاني والأيوبيّين، ولا سيما مع الكامل، ثُمَّ ابنه أيّوب من بعده، وهذه قضية خطيرة تحتاج إلى أطروحة قائمة بذاتها، فنحن - مثل جُلّ معاصري الكامل - ساءنا تسليم الكامل القُدس لفردريك الثاني، لكن؛ هل كان لدى الكامل مشروعه الخاص، أو مخاوفه ممّا كان يجري في أورُوبا من تحضيرات لحملة جديدة، فأراد استغلال سُوء العلاقة بين فردريك والبابويّة، وكذلك مع الجنوية، وغيرهم؟

إن العمل الذي قام به باحثنا يفتح آفاقاً جديدة للبحث والتقصّي، خاصّة في الجزء الثاني؛ حيثُ أجد أن عنوان "العلاقات الآسيوية الأوروپيّة" مُسوَّغ تمام التسويغ.

والعمل الذي أقدم له اليوم شكّل لديّ بارقة أمل، أن الضعف اللامحدود الذي ألمّ بدراسات التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق، سوف يجري تداركه في حمص، ورُبّما في حلب، والضعف في دراسات التاريخ الإسلامي هو مأسوي، ومرّدّه إلى أن المُعيدين الذين جرى تعيينهم في العقديّن الماضيين اختيروا للونهم السّياسي، ولم يخضعوا لمعايير الانتقاء الأكاديمي؛ مثل المُقابلات، واستشارة الأساتذة، وبذلت كُلّ جهد مُستطاع حتّى أجعل من هؤلاء الذين هم - الآن - يتحمّلون المسؤولية أكاديميين، فكان النجاح مجزوءاً، وهذا - بالفعل - أمر مُحرزن، لا بدّ من إيجاد حلّ له.

الذي أتمنّاه أن يكون العمل الذي أنجزه الباحث الدّكتور مُنذر الحايك، والذي أقدم له، بداية لمزيد من الأبحاث في ميدان الحُرُوب الصّليبيّة، والميادين الأخرى في تاريخ العَرَب والإسلام، ولا سيما بعد اكتمال مشروع الموسوعة الشاملة، والقادم منها سوف يُعينه إن شاء الله، ويزيد معلوماته.

له أتمنّى التوفيق والنجاح، والحمد لله أولاً، وآخراً، والصلاة والسلام على نبيّه المُصطفى، وعلى آله، وصحبه، وسلّم.

أ. د. سهيل زَكَار

دمشق: الخميس 8 / ذي القعدة / 1426 هـ الموافق 8 / كانون الأوّل / 2005م

استهلال

مُنْذُ أَنْ وُجِدَتِ الدُّولُ بِأَبْسَطِ أَشْكَالِهَا السِّيَاسِيَّةِ كَانَتِ الْعِلَاقَاتُ - فِيمَا بَيْنَهَا - تَشْغُلُ الْحَيَازَ الْأَكْبَرَ مِنْ اهْتِمَامِهَا، فَهَذِهِ الْعِلَاقَاتُ هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ تَوَجُّهَاتِ دَوْلَةٍ نَحْوِ الْأُخْرَى، بِمَا فِيهَا حَالَتِي الْحَرْبِ، وَالسَّلَامِ. وَيُعَدُّ تَارِيخُ الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ الْمُجْتَمَعَاتِ وَالْدُّولِ تَارِيخاً لِلْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا، فَمُنْذُ الْقَدِيمِ تَعِيشُ الْبَشَرِيَّةُ فِي احْتِكَاكٍ دَائِمٍ، وَمُتَنَوِّعٍ، يَشْمَلُ كُلَّ الْمَجَالَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ، وَعَلَى أَسَاسِ هَذِهِ الْعِلَاقَاتِ قَامَتِ إِمْبِرَاطُورِيَّاتٌ اِمْتَدَّتْ فَوْقَ دُولٍ، وَشُعُوبٍ، وَأُخْرَى اِنْدَثَرَتْ، وَتَلَاثَتْ.

وَرَبِّمَا كَانَ أَشْهَرُ مَا فِي الْعِلَاقَاتِ الدَّوْلِيَّةِ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ هِيَ الْعِلَاقَاتُ الَّتِي تَرْتَبِتُ عَلَى مَا سُمِّيَ الصَّرَاحُ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَقَدْ بَدَأَتْ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ فِي وَقْتٍ مُبَكَّرٍ مِنْ تَارِيخِ الْعِلَاقَاتِ، فَفِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ اِنْتَشَقَّتْ أَوْرُوبَا الْهَلْنِيَّةُ عَنْ آسِيَا الْكَنْعَانِيَّةِ الْفَارْسِيَّةِ، فَظَهَرَتْ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ مِنْ خِلَالِ إِثَارَةِ مُشْكَلَةِ الْحُدُودِ بَيْنَ الْفُرْسِ وَالْيُونَانِ، أَوْ بَيْنَ آسِيَا وَأَوْرُوبَا. وَكَانَ كُلُّ هَمِّ الدُّولِ الْمُتَعَاكِبَةِ فِي الضَّفَتَيْنِ كِلَتَيْهِمَا أَنْ تُحَاوِلَ حَلَّ هَذِهِ الْمُسْكَلَةِ، كُلُّ مَتْنَهَا عَلَى طَرِيقَتِهَا الْخَاصَّةِ، عَصراً بَعْدَ عَصَرٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ.

تُعَدُّ الْحُرُوبُ الْمِيدِيَّةُ بَيْنَ الْفُرْسِ وَالْإِغْرِيْقِ بِدَايَةَ الصَّرَاحِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، فَقَدْ بَدَأَتْ بِهُجُومِ الْفُرْسِ عَلَى بِلَادِ الْيُونَانِ، بِتَصَوُّرٍ فَارِسِيٍّ لِحَلِّ شَرْقِيٍّ لِلْقَضِيَّةِ. لَكِنَّهَا اِنْتَهَتْ بِهُجُومِ الْإِسْكَانْدَرِ الْيُونَانِيِّ، وَاحْتِلَالِهِ لِمُعْظَمِ بِلَادِ الشَّرْقِ، فَارْضاً الْحَلَّ الْأَوْرُوبِيَّ بِالْقُوَّةِ، وَلَمَّا ظَهَرَتْ قُوَّةُ الرُّومَانِ، وَتَوَسَّعُوا فِي أَوْرُوبَةِ، وَرَثُوا الْإِغْرِيْقِ، وَحَلَّاهُمْ لِقَضِيَّةِ الصَّرَاحِ مَعَ الشَّرْقِ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا اِحْتَلُّوا الدُّولَ الَّتِي قَامَتْ عَلَى أَنْقَاضِ إِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْإِسْكَانْدَرِ فِي الْأَنَاضُولِ، وَسُورِيَّةِ، وَمِصْرٍ.

وَحَتَّى هَذِهِ الْمَرْحَلَةَ مِنَ الزَّمَنِ بَقِيَ الصَّرَاحُ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ صِرَاعاً عَسْكَرِيّاً وَسِيَاسِيّاً، وَلَمْ يَحْمِلْ أَيْ صِبْغَةً دِينِيَّةً. لَكِنْ؛ بَعْدَ اعْتِنَاقِ أَوْرُوبَا لِلْمَسِيحِيَّةِ بِإِعْلَانِ قِسْطَنْطِينِ الْمَسِيحِيَّةِ دِيناً لِلدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ، بَدَأَ الصَّرَاحُ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ يَأْخُذُ شَكْلَهُ الدِّينِيَّ، وَقَدْ اِنْفَجَرَ هَذَا الصَّرَاحُ عِنْدَمَا بَدَأَتْ نَهْضَةُ دِينِيَّةٍ جَدِيدَةٍ تَعُمُّ بِلَادَ الْفُرْسِ، وَهِيَ الَّتِي دَفَعَتْ الْمَلِكَ الْفَارِسِيَّ شَاهْبُورَ الْأَوَّلَ مِنَ الْأُسْرَةِ السَّاسَانِيَّةِ، فَهَاجَمَ إِقْلِيمَ سُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّ، وَأَسَرَ إِمْبِرَاطُورَ الرُّومَانِ فَاَلْيَرِيَّانَ، وَاحْتَلَّ أَقْصَامَ وَاسِعَةً مِنَ

شرق وشمال سورية، وتابع الملك خسرو - عام 614 م - محاولة إمضاء الحلّ الفارسي، فهاجم سورية من جديد، واستولى على القدس، وأخذ منها خشبة الصليب المقدّس. لكنّ الرّدّ الأوروبي لم يتأخّر، فقد قام الإمبراطور الرّوماني هرقل عام 7 هـ - 628 م بهزيمة الفُرس، واستردّ خشبة الصليب، وفرض الحلّ البيزنطي لقضية الصراع بين الشّرق والغرب⁽¹⁾.

وهنا - أيضاً - لم يتأخّر الرّدّ الشّرقي طويلاً، فقد أعلن الحلّ العربيّ لقضية الصراع؛ بإقامة إمبراطورية آسيوية واسعة، ثمّ الهُجوم على أوروبا من محورين، القسطنطينيّة وجنوب فرنسا بعد احتلال الأندلس.

ومنذُ هذا التاريخ؛ انقسم العالم إلى شرق مُسلم، وغرب مسيحي، ومع أن العداء بين الشّرق والغرب عداء تقليدي وقديم، لكنّ زاده حدّة هذا الانقسام الدّيني، فالخُروب الدّينيّة تكون - عادةً - من أقسى الخُروب؛ لاعتقاد كلّ فريق بأنّه يُنفذ إرادة الإله على الأرض، ويؤدّي واجباً مقدّساً انتدبه الرّب للقيام به. وزيّاً تكون دوافع الحُرب - في الأصل - دينيّة، ولكنّ؛ لا يلبث الناس أن ينسوا الدّين، وتُصبح أهداف الحُرب السيطرة والاستغلال واستعباد الآخرين، والذي لا يتغيّر - فقط - هو العداء الموروث، والجُهود المُستمرّة التي يبذلها كلّ فريق لإذلال الفريق الآخر.

وعلى هذا الأساس الدّيني جاء الحلّ الأوروبي في العُصور الوُسطى لقضية الصراع بين الشّرق والغرب بما عُرفَ باسم الخُروب الصّليبيّة، وكانت هذه الخُروب تمتاز بأنّها حرب جامعة، قام بها الغرب المسيحي ضدّ الشّرق المُسلم، وقد اعتقدت جُمُوع الصّليبيين - وقتها - بأنّها حرب مقدّسة لغرض مقدس، وهي تتمّ بتوجيه من الله، الذي أوكل الإشراف عليها إلى البابا؛ خليفته على الأرض. وعلى الدوام كان الحلّ بالعنف يُؤلّد ردّ فعل عنيف، فالهُجوم الفرنجي أيقظ رُوح الجهاد لدى المُسلمين، وولّد حَرَكة إحياء ثقافية تدعم الجهاد، وتحضّ عليه، كانت إحدى صُورها ظُهور كُتُب الجهاد، وكُتُب فضائل البُلدان، وكُتُب الزيارات⁽²⁾.

1 - للتوسّع راجع: الحضارة في الميزان، أرنولد توينبي، ترجمة: محمود أمين الشريف، 162.

2 - راجع: الخُروب الصّليبيّة وتأثيرها، سوريال عطية، 7.

وكان للخُروب الصّليبيّة في كلّ عصر تفسير ومعاني، فكُتُب عصر النهضة عدّها تعبيراً عن رُوح التعصّب والحماس والغيرة العمياء. أمّا الكُتُب المعاصرون - وبتأثير أفكار المدرسة الاقتصاديّة -؛ فقد وصفوها بأنّها مرحلة من مراحل التوسّع الأوروبي في الشّرق، أخذت في العُصور الوُسطى شكلاً استعماريّاً بسبب زيادة عدد السُكّان في فرنسا، وما جاورها، ونقص الموارد فيها. وهنا يبدو أنّه كلّما لمست أوروبا من نفسها قُوّة هاجمت الشّرق، طمعاً بأراضيها للاستيطان، وبخيراتِه للاستغلال، وبموقعه الاستراتيجي عسكريّاً وسياسياً.

حالة الشّرق العربيّ قبيل الغزو الفرنجي:

في أوائل القرن الرّابع الهجري كانت قوى الإمبراطوريّة العربيّة قد بدأت بالانهيار، وأخذت أطرافها بالانسلاخ عنها شيئاً بعد شيء، وكذلك فقد سقطت الدولة الأموية في الأندلس، لتخلفها دُولات الطوائف المتصارعة التي سهّلت حرب الاسترداد. وبقيام الخلافة الفاطمية، وسيطرتها على مصر أعيد الأمل ببناء قُوّة عربيّة إسلامية خاصّة في البحر المتوسّط، لكنّ الفاطميين سرعان ما أنهكوا في صراعمهم حول الشّام، إضافة إلى الصراعات الدّينيّة والسياسيّة مع الدولة العبّاسيّة.

في الوقت نفسه؛ كان أعداء العرب يستعيدون قُوّتهم، ويحقّقون نجاحات عسكريّة مُتتالية، فقد تقدّم البيزنطيون ليُحطّموا دفاعات تُغور الشّام، ويحتلّوا أجزاء مُهمّة من شِماله وساحله، ولم يُوقف التقدّم البيزنطي - الذي بدا وقتها وكأنّه حرب استرداد مُنظّمة للشّام بأكمله - إلّا تدفّق الشّعوب التّركيّة إلى الأراضي الإسلاميّة من منطقة ما وراء النهر؛ حيثُ تمكّن السُلطان السلجوقي ألب أرسلان من أسر الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديجانس في معركة ملاذكرد قُرب بُخيرة وان عام 463 هـ - 1071 م، بعد إبادة شبه كاملة للقوّات البيزنطيّة. لكنّ السلاجقة لم يستثمروا نصرهم، الذي أربع أوروبا، وانقسموا إلى إمارات مُتصارعة، وصحيح أن بيزنطة تمكّنت من تجاوز محتتها، لكنّها فشلت في صدّ تدفّق التّركمان على الأناضول؛ حيثُ قامت دولة سلاجقة الرّوم الذين اتخذوا من نيقية قُرب القسطنطينيّة عاصمة لهم.

وقام التّركمان - الذين دمّروا المؤسّسات البيزنطيّة، واحتلّوا أرض الأناضول - بالعمل نفسه في الشّام والجزيرة الشّاميّة؛ حيثُ تعطلّ كلّ نشاط اقتصادي، وبلغت البلاد حالة مزريّة من الضعف،

وتحوّلت إلى إمارات وإقطاعات مُتصارعة، لا يهَمُّ حُكَّامها إلا توسيع نطاق السيطرة، والحُصُول على أكبر قدر من المغنم. في هذه الحالة المتردّية للشام، حالة الدمار والفقر الكامل والحُكَّام الغُرباء المتصارعين، فوجئت البلاد بجحافل الفرنجة تحتل أنطاكية، ثُمَّ الرُّها، ثُمَّ بلاد الساحل، وكانت الطامة الكُبرى في احتلالها البيت المقدّس، مع كُلِّ ذلك لم يستفد حُكَّام الشَّام من غفلتهم، واستمروا في صراعاتهم⁽¹⁾.

العلاقات الدّولية في العصر الأيوبي:

تكاد تكون مُعظم العلاقات الدّولية في هذا العصر قد تمحورت حول الحُرُوب بين المسلمين وفرنجة الشرق المدعومين من كُلِّ القوى السّياسيّة والعسكريّة الأوروپيّة، فقد تمثّلت في هذه الحُرُوب مُعظم قوى العالم في وقتها؛ حيث شاركت فيها غالبية الشُّعُوب والدُّول الأوروپيّة، بينما في الطرف الإسلامي نجد أن مُعظم الدُّول الإسلاميّة لم تُشارك في الحَرْب ضدَّ الفرنجة، لكنَّ هذه الدُّول الإسلاميّة واجهت جميعها مُصيبة التَّار. وبذلك نجد إن كان الأمر في الحَرْب ضدَّ الفرنج، أو في الحَرْب ضدَّ التَّار، فقد التقت أُمم الأرض في حُرُوب دامية، وكان أتون هذا الصراع يتركز على أرض الشَّام ومصر.

ويمكن - نظرياً - تقسيم مراحل الصراع بين الفرنج والمسلمين إلى ثلاثة أدوار رئيسة هي:

1 - دور القوّة الفرنجيّة: حيث كان واضحاً ضعف المسلمين، بسبب تجزئة بلادهم، وتبعثر قواهم، وقد تأسّست - خلال هذا الدور - مملكة القُدُس والإمارات الفرنجيّة الأخرى في الشرق.

2 - دور تعادل القوى: بدأه عماد الدّين زنكي بمشروع الوحدة في الشَّام، وتمكّنه من استرداد الرُّها. وأكمل هذا الدَّور نُور الدّين بن زنكي، الذي حقّق الوحدة مع مصر.

3 - دور الضعف الفرنجي: وقد تحقّق عندما تمكّن صلاح الدّين من قلب ميزان القوى بعد نصر حطين، وانشغال أورُوبا عن فرنج المشرق بمُشكلاتها الدّاخليّة. لكنَّ انقسام الممالك الأيوبيّة بعد وفاة صلاح الدّين أجّل إنهاء الحَرْب حتّى عودة الوحدة بين سورية ومصر بقيام دولة المماليك.

1 - راجع: ما كتبه د. شُهَيْل زَكَار في تقديمه لكتاب الإعلام والتّبين للحريري.

دولة صلاح الدّين

في حياة السُّلطان نُور الدّين محمود بن زنكي تمَّ عمل سياسي وعسكري نادر عندما ضمّت مصر إلى دولة نُور الدّين القائمة في الشَّام⁽¹⁾، وقد تحقّق ذلك عبر حملات أسد الدّين شيركوه، التي مكّنته من حُكْمها كقائد أتابكي ووزير فاطمي، ثُمَّ خلفه ابن أخيه صلاح الدّين الذي ألغى الخلافة الفاطمية رَسْمِيّاً، بعد أن كانت مُلغاة فعلياً مُنذُ أيّام الوزراء من آل الجُهمالي⁽²⁾، وحكم مصر حُكْماً مُباشراً نيابة عن نُور الدّين، الذي غدا سُلطان الشَّام ومصر. وبعد وفاة نُور الدّين محمود قام صلاح الدّين حاكم مصر بالسيطرة على كامل الدولة عن طريق القوّة العسكريّة، لكنّه بقي مسكوناً بأخلاقيات نُور الدّين، فأعلن أنّه الوريث الحقيقي له ولمشروعه في الوحدة والجهاد⁽³⁾، وقد أثبتت الأيّام صحّة ادّعائه. وساعد صلاح الدّين على تحقيق مشروعه كونه من رجال العالم الإسلامي القلائل الذين كانوا قادرين على تكوين دولة مركزية، من خلال ضبط وتوحيد عدد كبير من الحُكَّام المُتفرّقين بطبعمهم، وبمصالحهم الشخصية المتنافرة. ومُعظم هؤلاء كانوا من الأسرة الأيوبيّة ذات الأصل الكردي، ولكن الأيوبيّين - في الواقع - كانوا مُختلفين - في كثير من الأمور - عن الحُكَّام السلاجقة، حتّى في خلافاتهم وانقساماتهم، فقد ظلُّوا يرفعون راية الجهاد، ولهم في ذلك، بالرغم من كلّ ما قيل، مواقف لا يُمكن لأحد أن يتجاهلها. ومع أصلهم الكردي، فقد عدّوا أنفسهم عرباً مسلمين، إن لم يكن بنسبهم، فبثقافتهم، وقيمهم، ومُحيطهم، لقد نشؤوا على أرض عربيّة، فتكلّموا لغتها، وأحبّوا آدابها، وعُلُومها، ورعوها، وحفلت مجالسهم بالعلماء والأدباء⁽⁴⁾.

1 - جرت العادة أن الدُّول الكُبرى التي تقوم في مصر تزحف إلى الشَّام، وتضمّها كبلاد تابعة، واستمرَّ ذلك مُنذُ أيّام الفراعنة وحملاتهم على سورية، وحتّى قيام الدولة الفاطمية.

2 - قام أبو علي بن الأفضل بن بدر الجهمالي وزير الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله بالحجر على الخليفة، وقطع الخطبة للفاطميين، وخطب لنفسه، كما ألغى من الأذان شعار العلويين: حيّ على خير العمل، ثُمَّ قُتل أبو علي من قِبَل غلمانِه، فأخرج الحافظ من السجن، وبُيع له بالخلافة. (المختصر، أبو الفداء، 5/3).

3 - السُّلطان نُور الدّين، نيكيتا أليسييف، ترجمة: سليم قندلفت، 410.

4 - وفي ذلك قال الرشيد النابلسي يمدح الملك العادل:

يا آل أيوب الأولى لولا هم عفت العلوم وعيفت الأشعارا

عندما تُوفيَّ السُّلطان صلاح الدِّين في السَّابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، ترك لأولاده دولةً مُوحَّدة مُنتصرة قويَّة، ولم يقسمها بينهم كما قيل⁽¹⁾، بل كانوا فيها ولاةً ونواباً وأصحاب إقطاع، وهو الشائع في حُكم البلاد في ذلك العصر، ويؤكد لنا ذلك ردُّ السُّلطان صلاح الدِّين على أخيه العادل عندما أراد أن يُوليه حلب، فسأله العادل "أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً، ويجعله ككتاب البيع والشراء. فامتنع السُّلطان، وقال: إنَّها تكون حلب إقطاعاً، ولما اجتمعوا قال له السُّلطان: أظننت أن البلاد تُباع؟ أو ما علمت أن البلاد لأهلها المُرابطين بها؟ ونحن خَزَنَةُ للمُسلمين، ورُعاة للدِّين، وحُرَّاس لأموالهم"⁽²⁾. إضافة إلى ذلك؛ فإن اختيار صلاح الدِّين لآل بيته ليتولَّوا إقطاعات الدولة وولاياتها كانت له جوانب عسكريَّة واضحة، فقد اختار الأقوياء الأكفأ؛ ليواجهوا عُتاة قادة الفرنج وأمرائهم، فندب لحمص ابن عمِّه ناصر الدِّين بن أسد الدِّين ليكون بمُواجهة أمير طرابلس، واختار لحماة ابن أخيه تقي الدِّين بن شاهنشاه لمُواجهة الاسبَنتاريَّة في قلعة الحصن، ووضع ابنه الأكبر الأفضل علي في دمشق أمام ملك القُدس في عكا، وولَّى ابنه الظَّاهر غازي على حلب ليكون في مُواجهة أمير أنطاكية⁽³⁾. ومات السُّلطان، ولم يقسم البلاد، ولم يُسمَّى وُلاته من آل بيته بالملوك ما كان حياً.

والمُشكلة - إذن - لم تكن في انقسام البلاد، بل في انقسام الوُلاة، فقد ترك صلاح الدِّين في الدولة، التي جهد أن تكون واحدة، أبناء مُنقسمين، لا يجدر بأيُّ منهم إرث هذا الأب العظيم، كُلُّ منهم كان طامعاً بما بيد أخيه، فشتَّتوا، وفقدوا دولة أبيهم⁽⁴⁾، وآل الأمر إلى عمِّهم العادل؛ حيثُ

1 - يقول أحمد البيسومي في تقديمه لكتاب عُيُون الرُّوضَتَيْن: "إن صلاح الدِّين - بعد أن أكمل إشادة دولته، ووحد أجزاءها - حتَّى شرع في تفتيتها؛ حيثُ وزَّعها إلى إقطاعات على بعض جنده وأهل بيته". (عُيُون الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، تحقيق: أحمد البيسومي، 6/1).

2 - الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار، 18 / 478.

3 - سنا البرق، البنداري، تحقيق: ششن، 322، وسنا البرق، البنداري، تحقيق: نبراي، 163، والكمال، ابن الأثير، أحداث عام 574 هـ.

4 - قال العماد الأصفهاني في مطلع قصيدة له يرثي السُّلطان صلاح الدِّين:

شمل الهدى والملك عمَّ شتاته والدهر ساء وأقلعت حسناته

بالله أين النَّاصر الملك الذي لله خالصة صفت نِباته (الأسس الجليل، العليمي، 1/395).

وكأنَّه كان يتوقع ما سيؤول إليه الحال. وكذلك قال القاضي الفاضل في رسالة يُعزِّي فيها الظَّاهر غازي بفقد أبيه السُّلطان: "إن وقع بينكم اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غيره فالمصائب المستقبلية أهونها موته، وهو الأعظم". (البستان الجامع، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار، 11 / 386)، وكان الأمر الذي خشي منه.

استقرَّت له السُّلطنة. وبالتأكيد؛ كان وَرَثَةُ العادل كحُكَّام وقادة عسكريين أفضل من وَرَثَةِ صلاح الدِّين، لكنَّهم أخذوا من أبناء عُمو متهم الطمع والتآمر والتناحر فيما بينهم، ممَّا صبَّ - في النتيجة - في مصلحة القوى الأخرى، وفي مُقدِّمتها الفرنج.

ولكن؛ لا نستطيع أن ننكر أن الانقسام الذي حصل لدولة صلاح الدِّين بعد وفاته تمَّ وفق توزيعه للولايات بين أفراد أسرته، وهذا التوزيع الغريب غير المنطقي كما يبدو، كان يعتمد على أُسس وأعراف قديمة جداً: فمصر - على سَعَتها، وأهمِّيَّتها، وعظْمَة ثرواتها، كانت لواحد من أبناء صلاح الدِّين، بينما قُسمَت الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة بينهم رُقعاً صغيرة. وهذا ما يدعونا للاعتقاد أن صلاح الدِّين كان يدرك أن مصر لا يُمكن أن تنقسم، أو تتجزَّأ، لطبيعة أرضها، وللتاريخ الطويل من الحُكم المركزي المُوحَّد فيها، فمصر وحدة سياسيَّة وإدارية واحدة مُنذُ أن وحدها الفرعون مينا، وهُنا؛ نجد أن استمرار هذه الوحدة جعل من مصر أكبر قوى الممالك الأيوبيَّة، وانعكس ذلك على مُلوكها، الذين كانوا - غالباً - سلاطين الممالك الأيوبيَّة. أمَّا الشَّام؛ فالأمر يختلف فيها تماماً، فقد حكم فيها الأيوبيُّون - بعد صلاح الدِّين - بنوع من اتِّحاد الممالك، التي كان كُلُّ منها يتمركز حول مدينة يحكمها عُضو من العائلة، وهو يدين بولاء شكلي لأقوى فرد فيها، الذي هو - عادةً - صاحب أكبر مملكة. ونلاحظ هنا أن تقسيم الممالك الأيوبيَّة في الشَّام يكاد يكون تطبيقاً حرفيًّا لواقع ولسياسة ممالك المُدن الآرامية القديمة، فكلُّ مدينة - تقريباً - تُشكِّل دولة مع ما حولها من الأراضي، وقد انطبق ذلك حتَّى على دمشق، مع أنَّه تبع لها قسماً كبيراً من جنوب الشَّام.

وليستمرَّ حُكم هذه الممالك كانت تحتاج إلى المال لدفع نفقات المملكة التي كانت رواتب وأعطيات الجُنْد تُشكِّل قوامها الأعظم، ولانعدام الصناعة، ولتردِّي حال الزراعة في مُعظم الأيَّام كان اعتماد الممالك الأيوبيَّة في تحصيل الموارد يقوم - بشكل رئيس - على التجارة، فلا يُوجد منهم مَنْ لم يحتكر، أو في أحسن الأحوال، مَنْ لم يُوظَّف أموالاً طائلة في التجارة. وبعد المال؛ تأتي الشرعية التي كانت أهون ما يكون على صاحب السُّلطة؛ حيثُ يحصل عليها ببعض الهدايا إلى الخليفة، ويكرِّسها فقهاء وقُضاة يحتاجون إلى العمل في وظائف المملكة، في الإفتاء والتدريس والقضاء.

أما شمال الشام والجزيرة الشامية؛ فقد كانت هناك فُسيفساء من الممالك والإمارات والمدن المستقلة، بل وحتى القلاع المستقلة، منها ما هو تابع للبيت الأيوبي، ومنها ما هو لحكام من خارج البيت، منها ما هو مخالف، ومنها ما هو مُعاد لهم. وقد ساهمت - في تشكيل تلك المنظومة الفُسيفسائية العجيبة - عدة أمور، منها: الطبيعة الجبلية للمنطقة، وخصب أرضها، وموقعها الاستراتيجي، وكونها ممراً للتجارة بين الشرق والغرب، ثم تنوع سُكَّانها العجيب دينياً وعرقياً، إضافة إلى عامل سياسي آخر هو وقوع هذه المناطق بين عدة قوى سياسية وعسكرية كبرى، فالأيوبيون في الشام، ولهم مُمتلكات هامة في الجزيرة، ومملكة أتابكة الموصل التي انقسمت وعاشت على أمجادها السابقة، ومن المُلفت للنظر أنه مع قيام دول إسلامية قوية على الحدود الأيوبية، لكن قواها شكَّلت تهديداً للسلطنة الأيوبية، وتهديداً لعمقها، بدلاً من أن تدعمها في حربها ضدَّ الفرنج، ومنها: الدولة الخوارزمية، وبشكل خاص؛ دولة سلاجقة الروم، الذين كانوا يمدُّون أنظارهم نحو الجزيرة، ورُبَّما عبرها نحو الشام، فكان تدخلهم فيها ليس دفاعياً فقط؛ لتكون حاجزاً ضدَّ الخطر الأيوبي، بل هُجُومياً؛ لضمِّها لدولتهم، والتحرُّك منها نحو الشام.

وكذلك؛ فإن الوضع الداخلي للممالك الأيوبية وعلاقتها مع فرنج الساحل الشامي كان له - بالتأكيد - انعكاساته السلبية والإيجابية على العلاقات الخارجية مع الدول الأوربية بشكل خاص، ودول عالم العصور الوسطى بشكل عام. وكذلك أثَّرت السلطنة الأيوبية وتأثَّرت بالعلاقات والصراعات الأوربية الداخلية، ومن أبرز الأمثلة على ذلك دور السلطنة الأيوبية في الصراع بين البابوية والإمبراطورية الجرمانية المقدسة. لكن؛ بشكل عام، كان الهُجُوم على الشرق الإسلامي هاجساً مُشتركاً لكلِّ الدول الأوربية على كُلِّ ما بينها من اختلافات عرقية ومذهبية وسياسية، بما فيها الدول الإمبراطورية القديمة التي انتقلت من أحلام السيطرة على العالم إلى حقيقة تأكيد وجودها في العالم، ومنها: بيزنطة، الإمبراطورية الجرمانية المقدسة، والدولة البابوية، والدول التي حصلت على تكوين قومي أولي، وأخذت تشعر بوجُودها الدولي، وتريد إيجاد مكان لها في العالم الجديد، ومنها: فرنسا، إنكلترا، ودول أخرى شبه قومية اعتنقت المسيحية بوقت مُتأخِّر، وتريد أن تُبرهن على حُسن إيمانها، مثل: هنغاريا، بينما لم يُشارك الإسبان بقيَّة شعوب أوروبا في حُرُوبهم الصليبية في الشام؛ لأنَّهم كانوا مُنهمكين في حربهم الصليبية الخاصة، وهي حرب الاسترداد ضدَّ العرب المسلمين في الأندلس.

ولا يخفى في هذه العلاقات أثر النُمو التجاري، الذي حقَّقه الجمهوريات الإيطالية، والصراع التجاري فيما بينها، ودور ذلك في العلاقات مع السلطنة الأيوبية، ومُنعكساته على النشاط البحري التجاري والعسكري.

وفي خارج أوروبا قامت دول قومية مسيحية شرقية، ساهمت كلُّ منها على طريقتهما في الحُرْب الأوربية الصليبية، عبر مُحاولات التوسُّع نحو شمال الشام، فقد قامت في كيليكييا مملكة أرمنيا الصُغرى، وعلى مقربة منها كانت مملكة الكرج، والتي كان يجمعها مع الأرمن - عدا الديانة المسيحية - الطمع الدائم بالمزيد من أراضي الجزيرة.

لقد انهارت كلُّ هذه العلاقات الدولية إثر هُجُوم التتار على المنطقة، واجتياحها، وحتى بعد تراجع التتار لم تعد العلاقات كما كانت، ولا الدول كما كانت، فقد بدأ عصر جديد، ورُبَّما كان عالماً جديداً؛ إذ انتهت - إلى الأبد - السلطنة الأيوبية، وقامت على أنقاضها دولة المماليك الفتية، وأصبح الوجود الفرنسي في الشرق والقضاء على دولة الأرمن في كيليكييا مسألة وقت سيُنجزها السلاطين المماليك.

إشكالية التاريخ في عصر الحروب مع الفرنجة:

من المعروف أن مصادر ومراجع دراسة العصر الأيوبي تتوفَّر بشكل كاف لإنجاز أيِّ بحث فيه، وخاصة بعد أن أصدر الأستاذ الدكتور سهيل زُكَّار الموسوعة الشاملة، التي وفَّرت للمكتبة العربية سفراً هاماً، يُحيط بكلِّ جوانب الحروب مع الفرنجة، وخاصة بما قدَّمه من مصادر فرنجية أصيلة كُتِبَها مُعاصرون، أتاحت لنا التعرف على وجهة نظر الآخر. وبذلك؛ لا يُعدُّ توفُّر المادة الأولية هي الإشكالية هنا، فالإشكالية هي في التوفيق بين مصادر مُتنوعة مُختلفة، تختلف في التفاصيل أكثر من اتِّفاقها في العموميات، فاختلاف هويات المؤرخين، واختلاف انتماءاتهم الفكرية والسياسية والمذهبية الدينية، كلُّ ذلك يفرض رؤيا مُختلفة للحدث ذاته بين مؤرِّخ وآخر، ممَّا يفرض - بدوره - مهمة إضافية على الباحث، تقتضي الرُّجوع إلى بيئة المؤرِّخ، وثقافته، ومصادره؛ للتعرف على وجهة نظره، وطريقة تفكيره، ومن ثَمَّ؛ أسلوب صياغته للحدث. كما أننا - أحياناً - نجد أن بعض المؤرخين، من أصحاب الموسوعات التاريخية الكبيرة، تتبدَّل مواقفهم وفقاً للاعتبارات الجديدة الطارئة، كما هي حال شيخ مؤرِّخي العربية ابن الأثير، الذي كان له موقف متحامل على السلطان

صلاح الدين في أول أمره، فقد كان ابن الأثير يعدّه غاصباً لبلاد الأتابكة، الذين كان يعيش ابن الأثير وأسرته في كنفهم، لكن؛ بعد تحاذل الأتابكة، وخلافاتهم، وانتصارات صلاح الدين، وتحريره القدس، نجد أن صورته وصورة أبنائه وخلفائه قد تحسّنت - بشكل كبير - في مرويّات ابن الأثير، بل دافع عنهم، ومدح أفعالهم، مع أنّه لم يكن تحت سلطانهم⁽¹⁾.

كما أن موضوع البحث في العلاقات يحتاج إلى الرجوع لمصادر ومراجع عديدة ومنوعة، وكلّما كانت أكثر كانت الرؤيا في البحث شمولية أكثر، وأقرب إلى الموضوعية والحقيقة. ولكنّها تصبح بحاجة إلى تنسيق غاية في الدقة لفرز ما يحتاجه البحث منها، ثمّ معالجة كلّ نص من نصوصها المختارة، مع عدم إغفال الحيز العام الذي ورد فيه، وعلاقته بما حوله من أحداث، أو ما سبقه، أو ما سيتلوّه. أمّا المراجع الحديثة والمعاصرة؛ فكثير منها قد كتب بإملاء الهوى، أو استحوذت على الكاتب فكرة افترضها سابقاً، فنراه يجول في خضمّ الأحداث لاهثاً خلفها، وقلّما يُدركها، فمع ضرورة الاطلاع على كلّ ما كتبت حول موضوع البحث، هناك ضرورة الانتباه لشرك الإسقاطات السياسيّة والمذهبية الحديثة على الأحداث التاريخيّة.

ومما زاد من صُعوبة الركون لرأي المصادر القديمة أنّها كانت منقسمة بين مدرستين: العربيّة الإسلاميّة، والفرنجيّة الأوروبيّة، فكلّ منها عقائدها، وتراثها، وحضارتها المختلفة، وقد تعمّق الخلاف بينهما عندما عمّد بالدم على أرض فلسطين. فكانت لكلّ منهم وجهة نظره التي دعمها، وسعى لتسويقها. ولكن؛ لا بدّ أن نشهد هنا بامتياز المؤرّخين المسلمين، وموضوعيّتهم، فقد مدحوا الفرنج، وأشادوا بشجاعتهم في كثير من المواطن، بينما كان المسلمون - بالنسبة للمؤرّخين الفرنج على الدوام - براءة همج، لا يستحقّون الحياة.

مقاربة حول منهج البحث ودوافعه:

لقد كانت وقائع العصر الأيوبي مجالاً خصباً، في خصوصياتها، وعمومياتها، لكثير من الباحثين الذين قتلوها بحثاً، وتمحيصاً، حتّى إنّهُ أصبح من النادر أن نجد موضوعاً لم يكن مادّة لأكثر من باحث، لكنّنا قلّما نجد بحثاً رابطاً بين هذه البحوث، شاملاً للعصر من إحدى جنباته، يخرج

1 - راجع ما قاله ابن الأثير عن ملوك بني أيّوب في كتابه: الكامل في التاريخ، 12/ 352.

بنتائج عامّة تصلح لأن تكون أساساً لنظرة عربية حديثة لما مضى من تاريخنا، وهو ما سعيّت إليه من خلال هذا البحث الذي سيكون جديداً في مضمونه، وجديداً في منهجه، فمنهج العمل هنا لم يقيم على كتابة تاريخ للعصر الأيوبي، وما كان هدفه تدوين أحداث متسلسلة، أو متفرّقة، بل كان أساس منهج عمله رصد الأحداث التاريخيّة، والتعرّض لكلّ منها في سياقهِ وفقاً لخطة البحث، التي تُعنى بالعلاقات الدوليّة السياسيّة منها والعسكريّة بين الدّول والقوى المختلفة. إضافة إلى تحليل الحدث التاريخي، والإشارة إلى دلالاته في سياق العلاقات الدوليّة، ثمّ استخلاص نتيجة منطقية بدلالة الأحداث نفسها.

ونظراً لطبيعة البحث وخطة العمل التي وضعتها له، كنتُ مضطراً لأتباع أسلوب مختلف بعض الشيء عما جرت به العادة، فلم يكن هناك تسلسل للأحداث التاريخيّة في البحث بشكل عامٍّ إلاّ بما يخدم خطة العمل، ولكنني حرصتُ على تسلسل الأحداث ما أمكن ضمن كلّ مبحث. ورغبتُ أن تكون ساحة البحث واسعة لتكون الرؤيا شمولية؛ للحصول على نتائج أكثر عمومية بقدر المستطاع، لتتناسب مع شمولية الموضوع، واتّساع آفاقه.

ومن خلال كلّ ذلك عملتُ لتكوين وجهة نظر مُفترضة حول طبيعة العلاقات الدوليّة في ذلك العصر، من خلال العلاقات الدوليّة التي كانت سائدة. إن وجهة النظر هذه ستُمكّننا من المساهمة في تكوين الصّورة العامّة للعصر الأيوبي وفلسفته في الحياة بشكل عامٍّ. كما أن الواقع الذي يعيشه العرب اليوم، في منطقة البحث نفسها، أراه شديد الشبه بذلك العصر، فعسى أن تفيّد هذه الدراسة في استخلاص العبر؛ لثّنيّ لنا درب المستقبل.

وبهذا؛ أرجو أن أكون قد وفّقتُ في اختيار بحوث هذا الكتاب، وفي صنعتي، وأقدّم اعتذاراً سلفاً ليسبق كلّ تقصير حاصل، فالكمال لله وحده.

د. مُنذر مُحمّد الحايك

حصّ الشّام: الخميس 1/ ذي القعدة 1426 هـ الموافق 1/ كانون الأوّل 2005 م

الجزء الأول

العلاقات بين القوى والدول الإسلامية

القسم الأول

الحياة العامة في العصر الأيوبي

الفصل الأول

العلاقات السياسية للسلطنة الأيوبية

تمهيد:

كانت العلاقات السياسية للسلطنة الأيوبية تنقسم إلى قسمين، أولهما: العلاقات السياسية الداخلية، وتشمل العلاقات ضمن المملكة الواحدة، أو ضمن الدولة الأيوبية بشكل عام، وثانيهما: السياسة الخارجية، أو العلاقات الخارجية مع الممالك الإسلامية الأخرى، أو الدول غير الإسلامية. ويبدو - بوضوح - أن السياسة الأيوبية كانت استمراراً لسياسة الأتابكة الزنكيين بخطوطها العامة، فمع أنها كانت تراعي الشرع الإسلامي بشدة، لكن؛ في الوقت نفسه كانت تُدرك أن أحكام السياسة شيء، والشرع شيء آخر، وهذا ما عبّر عنه المقرئ بقوله: "اعلم أن الناس في زماننا يرون أن الأحكام على قسمين: حكم الشرع، وحكم السياسة، فالشريعة هي ما شرع الله، وأمر به، والسياسة رسمت بأنما القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال"⁽¹⁾. ويتضح لنا التطبيق الأيوبي للسياسة الداخلية من خلال وصية السلطان صلاح الدين لولده الظاهر عند مسيره لتولي حلب، فقد قال له: "أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنها رأس كل خير، وأمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك، وأحذر من الدماء، والدخول فيها، والتقليد بها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية، والنظر في أحوالهم، فأنت أمين وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداواة الناس، ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يُبقي على أحد"⁽²⁾. من هذه الوصية نستنتج القواعد الأساسية للسياسة الداخلية التي طبقها صلاح الدين مؤسس الدولة، والتزم بها من جاء بعده من آل بيته، إنها - باختصار - السياسة في ظل الشرع الإسلامي.

1 - خطط الآثار، المقرئ، 3 / 60.

2 - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ابن شداد، 241.

المبحث الأول:

المعاهدات الدولية

لقد أجاز الشرع الإسلامي مبدأ المعاهدات حتى مع الأعداء في حالتي السلم والحرب، وأمضى الخلفاء الراشدون معاهدات صلح عديدة، وحرصوا على الالتزام ببنودها، وحذروا من الغدر بالأعداء، فالوفاء بالعهد صفة ملازمة لإيمان المسلم⁽¹⁾. وقد حُصِّ الإسلام على الالتزام بالمعاهدات، والوفاء بالعهود، من خلال آيات قرآنية عديدة منها: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَارٌ مَسْئُولًا﴾⁽²⁾، ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾⁽³⁾. وقد عد الإسلام أن من يعاهد فهو يعاهد الله، وأن العهد هو عهد الله، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾⁽⁴⁾، وقال: ﴿الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِمَّةَ﴾⁽⁵⁾.

ولطبيعة العلاقات العسكرية التي دامت قرابة القرنين من الزمان بين المسلمين والفرنج، وللعلاقات العسكرية التي - غالباً - ما كانت متوترة مع الممالك والدول الإسلامية، وغير الإسلامية المجاورة للممالك الأيوبية، وأيضاً؛ بسبب العلاقات العسكرية التي لم تكن - دائماً - ودية بين الممالك الأيوبية نفسها، فقد كان من الطبيعي جداً أن يتخلل العلاقات المتوترة فترات من السلام، تنشأ نتيجة لمفاوضات يعقبها اتفاق سلام كان يُسمى غالباً: معاهدة، أو هدنة، أو عهد صلح. وهذه الاتفاقيات كانت في - الأعم الأغلب - ثنائية بين طرفين، مع أننا شهدنا اتفاقيات تنسحب على أطراف أخرى موالين للطرفين، أو لأحدهما. وفي عصر الحروب مع الفرنجة تالتت المعاهدات بين الأيوبيين والفرنج، حتى إنه يمكننا القول بأن سلسلة من المعاهدات بينهما، منذ معاهدة صلاح الدين مع ريتشارد، أو ما يُعرف بصلح الرملة، قد أمنت سلاماً متصلاً دام حوالي أربعين عاماً⁽⁶⁾، وبالتأكيد؛ كانت هناك بعض المناوشات تقطع هذا السلام، لكنها لم تبلغ حد الحرب الشاملة، التي جرت أيام صلاح الدين.

1 - العلاقات الدولية، وهبة الزحيلي، 131.

2 - سورة الإسراء، الآية: 34.

3 - سورة الأنعام، الآية: 152.

4 - سورة النحل، الآية: 91.

5 - سورة الرعد، الآية: 20.

6 - الحروب الصليبية، باركر، 105.

قواعد المعاهدات:

كانت هناك قواعد وشروط لإبرام المعاهدات، منها ما ينطبق على جلسة الإبرام، التي كانت تضم الملوك، أو من ينوب عنهم، ولترفع الملك أو السلطان عن مباشرة تقرير البشود بنفسه كان الأيوبيون يسمون أحد ملوك الأسرة مقرراً لجلسة الصلح، فبعد هزيمة الفرنج في دمياط واتفاقهم مع السلطان الكامل على الصلح، وتسليم دمياط، "كان المقرر لهذا الصلح الملك المجاهد شيركوه باتفاق الملوك"⁽¹⁾، فوقع المجاهد صاحب حصن نسخة الصلح نيابة عن المسلمين، مما اقتضى جلوسه كمقرر على يمين سلطان المسلمين الملك الكامل، ودونه بقية الملوك حسب مراتبهم⁽²⁾. وإضافة إلى المقرر كان يوقع الاتفاقية عدد من الحاضرين كشهود⁽³⁾. ويمكن بحالة عدم الثقة والضمان تنفيذ نص اتفاقية السلام، وخاصة في الاتفاقيات التي تعقب أعمالاً حربية كبيرة، كان الجانبان يسلمان رهائن لتأكيد صحة التزامهم بشروط الاتفاق، وقد سلم السلطان الكامل ابنه الصالح أيوب واحداً من الرهائن للفرنج بعد توقيع اتفاقهم معهم في نهاية الحملة الخامسة، وهم - بالتالي - سلموا رهائنهم، وكان فيهم ملك عكا حنّا برين، والنائب البابوي بيلاجيوس، ودوق بافاريا، وغيرهم⁽⁴⁾.

وكانت هناك شروط وقواعد يلتزم بها الأيوبيون - غالباً - في كتابة نص معاهداتهم، منها:

1 - كان نص المعاهدات يصاغ بالنثر المرسل، ومع إيجاز النص، فقد كان يحرص الكتاب على توضيح الشروط المتفق عليها.

2 - يذكر نص المعاهدة أسماء الملكين المتعاهدين، ويحدد أطرافها، وشروطها، وأسماء الشهود، ومدة المعاهدة، وتاريخ بدء سريانها، وذكر البلاد والممالك التي تسري عليها، ثم نص الأيمان المحلوفة؛ للالتزام بها، وتطبيقها. وعادة؛ كان يبدأ النص بعبارة: "استقرت الهدنة بين..."، ويختتم بعبارة: "وهذا ما وقع الاتفاق عليه، وحلف عليه، والله الموفق".

1 - المنصوري، ابن نظيف، 92.

2 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 611 - 620 / 27.

3 - النظم الدبلوماسي، صلاح المنجد، 174.

4 - مفرج الكرب، ابن واصل، 4 / 98.

3 - عادة؛ كان يورد كاتب المعاهدة بعض الآيات القرآنية في متن النص، وذلك وفقاً لما يناسب مع حالتها، فإن كانت بين طرفين مسلمين كانت الآية: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾⁽¹⁾، وإن كانت بين طرف مسلم وآخر غير مسلم كانت الآية: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾⁽²⁾.

4 - يركز نص المعاهدة على أن الطرفين كليهما كان راضياً عن المعاهدة، مُصمماً على تنفيذ شروطها.

5 - يكون نص اليمين الذي حلف به للالتزام بالمعاهدة، والوفاء بشروطها، جزءاً منها، وأحياناً؛ يكون مفرداً عنها بورقة خاصة، تُرفق بنص المعاهدة.

6 - تُكتب المعاهدات إذا كانت بين المسلمين على نسختين باللغة العربية، وإذا كانت بين المسلمين والفرنج، فتكون نسخة باللغة العربية، ونسخة مترجمة عنها بلغة الملك الفرنجي، ويوقع، ويختتم كل طرف النسخة المكتوبة بلغته، ويسلمها للطرف الآخر؛ ليحفظ بها.

7 - كانت مدة المعاهدات تُحسب بالشهور الشمسية، وتُدون بالقمرية، لذلك كانت كل المعاهدات تتضمن حساب مدتها بالسنوات والأشهر والأيام، ويُذكر بدء سريان المعاهدة وتوقيتها بالتاريخ الهجري، وإذا كانت المعاهدة مع الفرنج يُذكر بعده التاريخ الميلادي.

وكانت هناك شروط شرعية حرص المسلمون في العصر الأيوبي أشد الحرص على مراعاتها في معاهداتهم، منها:

1 - عدم وجود شرط يخالف للشرع الإسلامي، أو يعطل واحداً من حدوده.

2 - التفريط بال المسلمين، أو أرضهم، أو حقوقهم، ما لم تكن هناك ضرورة موجبة لذلك.

3 - أن لا تزيد مدة المعاهدة عن عشر سنوات، وهي مدة معاهدة الرسول ﷺ لأهل مكة في صلح الحديبية⁽³⁾.

1 - سورة الحجرات، الآية: 9.

2 - سورة الأنفال، الآية: 61.

3 - راجع: النظم الدبلوماسي، صلاح المنجد، 174 - 181.

المبحث الثاني:

المراسلات الدبلوماسية

لأهمية الرسائل في العلاقات السياسية للممالك الأيوبية فقد أفرد لها ديوان خاص هو ديوان الرسائل، وله مُتَوَلَّى، أو رئيس، واشترط فيه شروطاً عدة، لأنه يتولَّى الكتابة عن الملك، ولسانه، منها أن يكون: "ذا دين وورع وأمانة، فإنه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة، يتحكَّم بها في أرواح الناس، وأموالهم"⁽¹⁾. وقد اشترط ابن الصيرفي في قانون ديوان الرسائل أن يكون مُتَوَلَّيه مُسْلِماً، ودعم شرطه بالآية القرآنية: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾⁽²⁾، علماً أنه قد تولَّى الوزارة للملوك الأيوبيين عدد كبير من الذميين، خلافاً لشرط ابن الصيرفي. ولطبيعة العلاقات الخارجية المتعددة للدول الأيوبية فقد كانت المشكلة الكبرى لديوان الرسائل هي تعدد اللغات التي ترد فيها الرسائل، فقد كانت من ملوك وأمرء أرمن وفرنجة وروم وغيرهم كثير، فلذلك وُجد في ديوان الرسائل مُترجمون للغات عدة. وتمَّ ضبط موضوع الترجمة، والحرص على عدم التلاعب بها عن طريق آلية دقيقة لعملية الترجمة، فكان يُسَلَّم الكتاب الأعجمي الوارد إلى الديوان إلى مُترجم يفهم لغته، وعليه أن يكتب ترجمة الكتاب "في ظهره، أو على ورقة تُجَعَلُ تلوهُ"⁽³⁾، ثم يذكر اسمه وتاريخ ترجمته، ويُشهد على ذلك شاهدين بأن ما ذكره هو تفسير الكتاب، بلا زيادة، ولا نقصان، ويُقال له إن غيره سيحضر لتفسير الكتاب، فيخاف، ويُؤدِّي الأمانة، وذلك لأن "أكثر من يُترجم على مذهب صاحب الخط"⁽⁴⁾، وبذلك يضمنون صحة الترجمة.

وكانت الرسائل تُرسل إلى الملوك، وترد منهم مكتوبة على طرس، وهو صحيفة كبيرة من الورق⁽⁵⁾، أو على قرطاس من ورق البردي، وهو صحيفة عريضة، أو على الكاغد، وهو صُحُف غلاظ من القنب، وكان كل ذلك قبل ظُهور الورق السمرقندي، وهو صُحُف رقيقة

1- القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 7.

2- سورة المائدة / 51. (القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 7).

3- القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 33.

4- القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 34.

5- رُسُوم دار الخلافة، الصايغ، 126.

لطيفة تُعدُّ أصل الورق الحالي، وكانت الرسائل تُلَفُّ بعد كتابتها، ويُعَقَد حولها شراية ابرسيم سوداء غالباً، ويُخْتَم عليها بالمسك والعنبر مخلوط بطين أسود. ثمَّ يُوضَع الكتاب في غلاف كان يُسمَّى خريطة، وهو من ديباج أسود، "ويُشدُّ رأس الخريطة بشراية أخرى في أشريحة مختومة"⁽¹⁾.

وكانت الرسائل نادراً ما تُتبادل مكتوبة بين الملوك، إلا في حالات خاصة، فغالباً كان الرُّسل يحملون رسائل شفوية، خوف وقوع الرسالة بيد عدو، أو تغير الأحداث بسرعة لا تتناسب مع سرعة وصول الرسالة، فالرسول - بهذه الحالة - يستطيع تلافي الأمر.

رسائل الحمام الزاجل:

كان الحمام الزاجل هو الوسيلة المعتمدة لإيصال رسالة مُستعجلة تُنذر بخطر، أو تُبشِّر بحدث، وكان الحمام طريقة قديمة جداً للتراسل، ففي عصر الدولة العربية الإسلامية استُخدمت هذه الطريقة، ثمَّ توقفت، إلى أن أعاد إحياءها نور الدين محمود بن زنكي، فهو أول من اعتنى بالحمام، ونقله من الموصل إلى الشام، وفي سنة 565 هـ بنى له الأبراج في كل المناطق التي كانت تتبع له في الشام⁽²⁾، وركَّز نور الدين محمود على إقامة أبراج الحمام "على الطُّرُق بين المسلمين والفرنجة، وجعل فيها من يحفظها، ومعهم الطُّيُور الهوادي، فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطُّيُور، فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم"⁽³⁾. فكانت هناك مَسَارِب للحمام الزاجل تُغطي كافة أطراف الشام، فكانت تُطلَق الحمامة، وقد رُبِطت برجلها رسالة من دمشق، فتحتط في أبراج قارة، ومنها تُؤخذ الرسالة، وتُرَبَط برجل حمامة أخرى، تنطلق حتَّى تحط في حصص، وهكذا إلى حماة، أو تنطلق من دمشق، أو حمص، إلى القريتين، ثمَّ منها إلى تدمر⁽⁴⁾.

ورسائل الحمام كانت تُؤمِّن أخباراً سريعة جداً، وربَّما هي أسرع من أي وسيلة في ذلك العصر، ولكن؛ كان لها عدة مُشكلات: فصغر حجم الحمامة وقلة تحملها كان يفرض شكلاً خاصاً للرسائل، فهي تحتاج إلى ورق رقيق جداً، يُكْتَب عليه بخط دقيق، ويُقال إنه لكتابة رسائل الحمام

1- أشريحة أو أمريجة من سَرَج أي شد العرى. (رُسُوم دار الخلافة، الصايغ، 127).

2- صُبح الأعشى، القلقشندي، 90 / 2.

3- حُيُون الرُّوسُتَيْن، أبو شامة، 1 / 369.

4- صُبح الأعشى، القلقشندي، 14 / 393.

الزاجل اخترع خط الغبار. كذلك هناك خطر وقوع الرسالة بين الأعداء، فأوجدوا رموزاً خاصة اصطلموها عليها، يقول العماد الكاتب: أنه في حصار عكا "كُنَّا نكتب إليهم، ويكتبون إلينا، على أجنحة الحمام الزاجل بالترجمة المصطلح عليها سر الأمور"⁽¹⁾. وكان لأبراج الحمام متوليها، من حيث التربية والتدريب، ويكون في كل منزلة معتمدة، حتى إنه قد يرافق العسكر بأقفاص فيها الحمام المدرب لاستخدامه عند الحاجة.

ويبدو أن البريد السريع اتخذ شكلاً آخر في عهد سلطنة المماليك، فقد أوجدوا خيل البريد، وأقاموا لها محطات؛ حيث كانت تنطلق الرسالة من مصر، وفي كل محطة يُبدّل الخيل بأخرى مُستريحة، حتى تصل إلى مقصدها.

الرُّسُل والسُّفراء:

كان إرسال السُّفراء هو الشكل الأعمُّ للاتصالات السياسية بين الدول والممالك والإمارات، ولذلك؛ شكّل السُّفراء عاملاً مهماً في تاريخ العلاقات السياسية الدولية. وقد تفاوت السُّفراء، كُلُّ وفق مؤهلاته الشخصية، وإعداده، وخبرته، في تأثيرهم على العلاقات الدولية في ذلك العصر، فلم تكن السُّفارة لتأدية رسالة فحسب، بل لكشف أحوال البلاد، وصاحبها. كتبت نظام الملك في كتابه سياسة نامه: "يجب أن يعلم المُلوك أن يارساهم السُّفراء لا يقصدون تسليم رسالة، أو نقل سفارة فقط، بل هناك مئات الأغراض يبغيونها، فهم - في الحقيقة - يريدون أن يعلموا حالة الطُّرق، والآبار. وقُوّة الجيش، ومؤنّته. وكيف يعيش الأمير. وأن يعرفوا تنظيماً بلاطه، حتى إذا رغبوا في مهاجمته يوماً، أو أرادوا نقض خطته كانوا مُطلعين مُدركين، يضعون المحاسن والمساوي نصب أعينهم، ويتجهجون بحسبها"⁽²⁾.

لكل هذا حرص مُلوك الأيوبيّة في مصر والشّام على أن تكون رُسُلهم من طبقة القضاة، أو الفقهاء، ممّن يتصفون بالخبرة والدراية بشؤون الحُكم والدول، فكانت رُسُلهم من القضاة؛ مثل القاضي والمؤرخ ابن واصل الحموي، والقاضي محيي الدين بن الذكي⁽³⁾، وقاضي العسكر نجم الدين

1- الفتح القسبي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 13 / 245.

2- النظم الدبلوماسية، صلاح المنجد، 104.

3- الوافي بالوفيات، الصفدي، 4 / 170.

خليل بن المصمودي⁽¹⁾، وقاضي حماة عماد الدين بن القطب⁽²⁾، والقاضي هبة الله إسماعيل بن نبهان بن المقتشع⁽³⁾، والقاضي بهاء الدين مروان بن قابيا⁽⁴⁾، وغيرهم كثير. ومن الفقهاء الذين ترسلوا للمُلوك الأيوبيّة، الكمال بن المهاجر الموصل⁽⁵⁾، وشيخ الشيوخ صدر الدين بن حوية⁽⁶⁾، وخطيب جامع دمشق جمال الدين مُحمّد الدولعي الشافعي⁽⁷⁾، ورُبما كان أشهرهم رسول دار الخلافة الشّيخ نجم الدين البادراني مدرّس النظاميّة⁽⁸⁾، وشيخ الصوفيّة شهاب الدين السهروردي⁽⁹⁾. ومن الوجهاء والرؤساء الذين قاموا بالسُّفارات: الشهاب عبد السلام بن أبي عصرون، الذي ترسل عن مُلوك بني أيوب إلى دار الخلافة⁽¹⁰⁾، ومن كبار موظفي الدولة، ترسل الدكر العادي أستاذ دار الملك العادل⁽¹¹⁾، وكُلّ هؤلاء وأمثالهم لم تكن لتتقصهم الخبرة، أو التجربة، أو العلم، أو قُوّة الشخصية، فالرسول إذا لم يكن يتمتّع بالكفاءة اللازمة والدراية والحنكة، فقد يضرّ مصلحة مخدمه، كما فعل رسول الملك الظاهر صاحب حلب، فقد وردت إلى الملك الظاهر عام 613 هـ 1216م، رسالة عزّ الدين كيكافوس سلطان سلاجقة الرُّوم يطلب فيها خُروج الظاهر بجيشه ليقصدا معاً مملكة الأرمن، فحمل ردّ الرسالة عبد الرحمن المنجي، ويبدو أن الردّ كان شفهيّاً كالعادة، فلمّا أدّى الرسالة، "حرّف فيها، وزاد شُروطاً تضرّ الملك الظاهر وتوافق عزّ الدين كيكافوس، لعدم كفايته"⁽¹²⁾.

كما كانت أهميّة الرسول تُشير إلى أهميّة موضوع رسالته من جهة، وإلى أهميّة المرسل إليه من جهة أخرى، لذلك؛ عندما أرسل السُلطان صلاح الدين يُبشّر الخليفة بنصر حطّين مع مُتطوِّع

1- الجامع المختصر، ابن الساعي، 259.

2- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 5 / 330.

3- بغية الطلب، ابن العديم، 10 / 4581.

4- المنصوري، ابن نظيف، 261.

5- المنصوري، ابن نظيف، 133. الكمال بن المهاجر: توفّي عام 634 هـ راجع ترجمته في: البداية والنهاية، ابن كثير،

13 / 146 والوافي بالوفيات، الصفدي، 4 / 172.

6- دَبَل الرّوضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 20 / 194.

7- دَبَل الرّوضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 20 / 210.

8- دَبَل الرّوضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 20 / 391.

9- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 180.

10- شذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 149.

11- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 180.

12- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 234.

بغداد من العامة اسمه رشيد البوشنجي، غضب الخليفة، وأهان الرسول، وأرسل يعاتب صلاح الدين، وقامت أزمة سياسية فعلية بين الطرفين⁽¹⁾. وبالمقابل؛ كان استقبال السفير يليق بمن أرسله، فكان يحصل على أفضل ضيافة واستقبال وتكريم بالهدايا والعطايا، ولذلك أحدثت وظيفة متأخرة في بلاطات الملوك الأيوبيين، ونمت، وتطورت في عهد الدولة المملوكية، هي وظيفة المهنددار، الذي كانت مهمته استقبال السفراء، وسؤالهم عن موجب حضورهم، وتسليم ما يسدهم إلى كاتم أسرار السلطان، ثم يهيم دُخولهم على السلطان⁽²⁾، وإذا كان السفير قادماً في أمر خطير، أو من قبل ملك، أو سلطان كبير، فإن السلطان، أو الملك، يخرج لتوديعه بنفسه، كما فعل السلطان العادل، بخروجه لوداع المؤرخ ابن العديم قاضي وسفير مملكة حلب عام 637هـ-1240م⁽³⁾. وأيضاً؛ يخرج الملك لاستقبال بعض كبار السفراء، وكانت عادة الاستقبال هذه خاصة لسفراء الخليفة؛ حيث تستقبلهم الملوك الأيوبيّة خارج المدين، ويعودون معهم، فقد خرج السلطان صلاح الدين بنفسه لاستقبال رُسل الخليفة الناصر، وترجل لهم، وقبّل الأرض⁽⁴⁾. وكانت الرُّسل تحصل على منح وجوائز قيمة، فمنهم من يحتفظ بها، ومنهم من يُوزّع جوائزه على الناس، وقد وزّع أحمد بن عبد الرحيم القاضي الفاضل، الذي كان رسول الملك الكامل إلى الخليفة في بغداد، كل ما حصل عليه من الخليفة من جوائز وعطايا قبل أن يخرج من بغداد⁽⁵⁾، أمّا سفير صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ إلى الشام الكمال بن المهاجر؛ "فلم يقبل شيئاً من أحد، ولا أكل طعامه"⁽⁶⁾.

وإذا اقتضت الحاجة، فقد يصطحب السفير معه الرسالة الجوابية⁽⁷⁾. وأحياناً؛ قد يُخطئ السفير، فيسيء إلى مرسله، فيعاقب عند عودته كما حدث مع صلاح الأربلي، وكان أديباً شاعراً، عندما أوفده الملك الكامل إلى أخيه المعظم بدمشق، فاستماله المعظم ضد الكامل، وبلغ الكامل ذلك، فلما عاد حبسه في الحبّ عدّة سنين⁽⁸⁾. وإذا كانت العلاقات السياسية سيئة بين مملكتين،

- 1- الفتح القسبي، العماد الأصفهاني، 184.
- 2- السلوك، المقرئ، 1/ 701. مهنددار: كلمة فارسية من مقطعين: مهان - ضيف، ودار - حافظ.
- 3- الجامع المختصر، ابن الساعي، 262.
- 4- مفرج الكروب، ابن واصل، 3/ 181.
- 5- الوافي بالوفيات، الصفي، 8/ 57.
- 6- المنصور، ابن نظيف، 133.
- 7- الجامع المختصر، ابن الساعي، 62.
- 8- النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 286.

وأوفد أحدهما رسولاً، فقد يُمنع من الوصول، ولا تُقبل رسالته، فعندما أرسل الملك الظاهر صاحب حلب وزيره علم الدين قيصر إلى عمه الملك العادل في مصر، وكانت بينهما وحشة، فمنع العادل السفير من الوصول إلى القاهرة، واحتجزه في بلييس، وطلب منه تسليم الرسالة إلى قاضي بلييس⁽¹⁾.

كذلك قام الملك العادل بالامتناع عن قبول رسالة ابن أخيه الملك الظاهر التي يطلب فيها الشفاعة لصاحب سنجار، ولم يكتف بذلك، بل أغلظ القول للسفراء⁽²⁾، وكان الملك الظاهر قد زوّد سفيره بتعليمات تُنفذ على التوالي، فقد أمرها إذا لم يقبل العادل الشفاعة - ويبدو أنه كان يتوقع ذلك - أن يأمر العسكر الحلبي الموجود في حملة العادل أن يترك الحصار، ويلتحق بحلب، وفعلاً؛ تم ذلك، ولم يكتف الرسولان بهذا، بل نفذا المرحلة الثالثة من تعليمات الظاهر، فقد "دس الرسولان إلى أصحاب العادل دسائس أفسدت أحواله"⁽³⁾، وبالفعل؛ كان لرُسل الظاهر دور هام في إفشال حصار الملك العادل لسنجار، بالرغم من القوى العسكرية الكبيرة التي تجمعت لديه في حصارها.

وكانت أكثر السفارات التي تجوب البلاد الإسلامية هي سفارات الخلفاء العباسيين، فباعتبار الخليفة الحاكم الأعلى للممالك والدول الإسلامية، فقد كانت رسائله ورُسله متواترة إلى الملوك والحكام في أمور مختلفة ومتعددة، منها للإصلاح والتوسط فيما بينهم، ومنها لتبليغهم أمور جرت في عاصمة الخلافة، أو منحهم التقليد والتشريف إلخ... وأشهر من ترسل عن دار الخلافة كان محيي الدين ابن الجوزي⁽⁴⁾، الذي اشتهرت سفارته للصلح بين أولاد الملك العادل: الملك الكامل والملك المعظم عام 629هـ-1232م⁽⁵⁾، وسفارته عام 636هـ-1238م للصلح بين أولاد الكامل: الصالح أيوب وأخيه العادل الثاني. وكذلك كان حال السفير نجم الدين البادرائي⁽⁶⁾.

- 1- السلوك، المقرئ، 1/ 154.
- 2- مفرج الكروب، ابن واصل، 3/ 196.
- 3- مفرج الكروب، ابن واصل، 3/ 197.
- 4- ابن الجوزي: يوسف بن عبد الرحمن بن علي (580 - 656 هـ - 1185 - 1258 م)، أستاذ دار الخليفة المستعصم، ومدرس المدرسة المستنصرية ببغداد، أنشأ المدرسة الجوزية بدمشق، أديب وشاعر وفقيه، قتله التتار شهيداً صبراً، راجع ترجمته في: النجوم الزاهرة، 7/ 66، وشذرات الذهب، 5/ 286، والبدية والنهاية، 13/ 203، والدارس في تاريخ المدارس، 2/ 62، وذيل المرأة، 1/ 332.
- 5- السلوك، المقرئ، 1/ 257.
- 6- البادرائي: 594 - 655 هـ نجم الدين محمد بن الحسن بن عبد الله درس في النظامية ببغداد، وبمدرسته التي أنشأها بدمشق، راجع ترجمته في: ذيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20/ 391.

الرُّسُلُ إِلَى المَمَالِكِ الْخَارِجِيَّةِ:

لطبيعة العلاقات السَّيَاسِيَّةِ بين الدُّولِ الْإِثْيُوبِيَّةِ والممالك الأخرى، وتنوعها، فقد نشطت الرُّسُلُ بينهم، وكان من أكثر الممالك الإسلاميَّة مُراسلةً لِلْإِثْيُوبِيِّينَ مملكة الْخَوَارِزْمِيَّةِ. فقد تردَّدت الرُّسُلُ بين خوارزم شاه علاء الدِّين مُحَمَّد بن تَكش والمَلِكِ الْعَادِلِ، فوصلت رُسُلُ الْخَوَارِزْمِيِّ إِلَى الْعَادِلِ وَهُوَ بِمَرْجِ الصَّفَرِ عام 615 هـ 1218 م، فأجاب الْعَادِلُ عَلَى الرِّسَالَةِ مَعَ رِسُولَيْنِ، لَمَّا وَصَلَا هَمْدَانَ، وَجَدَا التَّنَارَ قَدْ هَزَمَا الْخَوَارِزْمِيَّ، فَاجْتَمَعَا بِوَلَدِهِ جَلَالِ الدِّينِ، فَأَخْبَرَ جَلَالُ الدِّينِ الرُّسُلَ بِوَفَاةِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ⁽¹⁾. ثُمَّ تَرَدَّدَتْ رُسُلُ جَلَالِ الدِّينِ، السُّلْطَانِ الْجَدِيدِ لِلدَّوْلَةِ الْخَوَارِزْمِيَّةِ، إِلَى الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ بْنِ الْعَادِلِ وَإِلَى مُعْظَمِ مُلُوكِ الْإِثْيُوبِيَّةِ فِي الشَّامِ⁽²⁾، وَكَانَتْ عِلَاقَتُهُ مُتَمَيِّزَةً بِالْمَلِكِ الْمُعْظَمِ عَيْسَى صَاحِبِ دِمَشْقَ، وَلَابدَّ أَنْ مُرَاسِلَاتٍ عَدِيدَةً سَبَقَتْ التَّحَالُفَ الْمَشْهُورَ بَيْنَهُمَا.

وَكذلك لَوْجُودِ عِلَاقَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ نَشِطَةٍ بَيْنَ الْمَمَالِكِ الْإِثْيُوبِيَّةِ وَسُلْطَنَةِ سَلَاجِقَةِ الرُّومِ، فَقَدْ تَوَاتَرَتْ الرُّسُلُ بَيْنَهُمَا بِمُنَاسَبَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. فَفِي عام 624 هـ 1227 م، أُرْسِلَتْ مُعْظَمُ الْمَمَالِكِ الْإِثْيُوبِيَّةِ رُسُلُهَا إِلَى سُلْطَانِ سَلَاجِقَةِ الرُّومِ كَيْقُبَازَ، وَاجْتَمَعَتْ عِنْدَهُ⁽³⁾، وَذلك رَدًّا عَلَى مَا حَمَلَهُ رِسُولُهُ كِهَالِ الدِّينِ كِيَمَارِ قَاضِي أَرْزَنْجَانِ مِنْ رِسَالَتِ الْإِبْهَمِ⁽⁴⁾. وَتَكَرَّرَ قُدُومُ رِسُولِ السُّلْطَانِ كَيْقُبَازَ فِي عام 630 هـ 1233 م؛ حَيْثُ عَرِجَ عَلَى مُعْظَمِ الْمُلُوكِ الْإِثْيُوبِيِّينَ، وَأَبْلَغَهُمْ رِسَالَتِ مَنْ مَخْدُومِهِ⁽⁵⁾.

أَمَّا مَعَ الدُّولِ غَيْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَقَدْ كَانَتْ مَمَالِكُ وَإِمَارَاتُ الْفَرَنْجِ عَلَى السَّاحِلِ السُّورِيِّ فِي مُقَدِّمَةِ هَذِهِ الْبُلْدَانِ مِنْ حَيْثُ تَبَادُلِ السَّفَارَاتِ مَعَ الْمَمَالِكِ الْإِثْيُوبِيَّةِ.

وذلك للاحتكاك العسكري والسياسي الدائم بينهما، ويبدو أنه كان لدى الفرنج أشخاص قد تخصصوا بأدوار الرُّسُلِ، فرسول بيت الاستبار سيمون كان مشهوراً ومعروفاً في الممالك الإثيوبية،

وبالتأكيد؛ كان يجيد اللغة العَرَبِيَّةَ⁽¹⁾. واستخدم بعض الملوك الإثيوبية رُسُلًا من الفرنجة في مهمات خاصة لهم في أوربة، كما فعل الملك الكامل عام 629 هـ 1232 م عندما أرسل مسيو ريمون إلى جزائر البحر - أوربا - ليشترى له صقراً⁽²⁾، ويبدو أن مهمة شراء الصقر هي ما أشيع لإخفاء حقيقة سفارته التي قد تكون ذات شأن سياسي كبير يقتضي السَّريَّةَ⁽³⁾. أَمَّا رُسُلُ الْمُدُنِ الْإِيطَالِيَّةِ: جَنُوةَ وَالبُنْدُقيَّةِ وَبِيْزَا، وَرُسُلُ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ الْجَرْمَانِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ؛ فَلَمْ تَكُنْ تَنْتَقِطُ عَنْ أَبْوَابِ سُلْطَانِ بَنِي إِثْيُوبِ⁽⁴⁾، وَذلك لطبيعة العلاقات التجاريَّةِ بَيْنَ دَوْلِهِمُ وَالْمَمَالِكِ الْإِثْيُوبِيَّةِ، وَخَاصَّةً مِصْرَ.

خيانة الرُّسُلِ:

كَانَ أَخْطَرُ مَا فِي الْمُرَاسِلَاتِ هُوَ خِيَانَةُ الرُّسُلِ وَتَحْرِيفُهُمُ لِلرِّسَالَتِ وَفَقًّا لِأَهْوَائِهِمْ، فَمُعْظَمُ الْمُرَاسِلَاتِ كَانَتْ شَفْهِيةً يَحْمِلُهَا الرِّسُولُ فَهَمًّا فِي عَقْلِهِ، وَيُؤَدِّيها مُشَافَهَةً بِالثِّقَةِ وَالْأَمَانَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهُ، لَكِنْ بَعْضُ الرُّسُلِ تَحَاوَزُوا ذلك، وَاعْتَبَرُوا أَنَّ مَهْمَتَهُمْ سِيَاسِيَّةٌ، وَفِي السِّيَاسَةِ؛ كُلُّ شَيْءٍ وَارِدٌ. فَعِنْدَمَا اعْتَقَلَ النَّاصِرُ دَاوُدَ عام 637 هـ 1240 م، الْمَلِكُ الصَّالِحُ إِثْيُوبَ، أُرْسِلَ الْعَادِلُ الثَّانِي صَاحِبُ مِصْرَ يَطْلُبُ مِنْ دَاوُدَ أَنْ يُرْسِلَ أَسِيرَهُ الصَّالِحَ إِثْيُوبَ إِلَيْهِ فِي مِصْرَ، وَبَعَثَ فِي الرِّسَالَةِ عَلَاءَ الدِّينِ النَّابِلِسِيِّ، الَّذِي كَانَ هَوَاهُ مَعَ إِثْيُوبَ، وَقَدْ اعْتَرَفَ الرِّسُولَ - فِيمَا بَعْدَ - بِخِيَانَتِهِ لِلرِّسَالَةِ، فَقَدْ قَالَ: "لَمَّا اجْتَمَعْتُ بِالْناصرِ أَكَّدْتُ مَعَهُ فِي الْبَاطِنِ أَنَّ لَا يُجِيبُ إِلَى مَا طَلَبَهُ الْعَادِلُ"⁽⁵⁾، فَكَانَتْ نَتَائِجُ ذلك فِي مُتْمَتِهِ الْخُطُورَةُ عَلَى الْعَادِلِ الثَّانِي، وَتَسَبَّبَتْ فِي نَزْعِهِ عَنْ مَلِكِ مِصْرَ، فَعَدِمَ انْتِقَاءُ الْعَادِلِ لِرِسُولِ ثِقَةٍ أَمِينٍ أَدَّى إِلَى تَمَسُّكِ دَاوُدَ بِإِثْيُوبَ، وَعَدِمَ تَسْلِيمِهِ، وَبِالتَّأَكُّدِ؛ فَإِنَّ الرِّسُولَ الْخَائِنَ قَدْ أَكَّدَ لِدَاوُدَ عَدَمَ تَمَتُّعِ الْعَادِلِ بِتَأْيِيدِ الْأُمَرَاءِ، وَزَيَّنَ لَهُ - بِالْمُقَابَلِ - اسْتِخْدَامَ وَرَقَةِ إِثْيُوبَ لِلْوُصُولِ إِلَى حُكْمِ مِصْرَ، مُبَيِّنًا لَهُ تَأْيِيدَ أُمَرَاءِ الْعَسْكَرِ لِإِثْيُوبَ، وَاسْتِعْدَادَهُمْ لِتَوَلِيَّتِهِ بِدَلِّ أَخِيهِ الْعَادِلِ، وَهَذَا مَا تَمَّ فِعْلًا.

1- المنصوري، ابن نظيف، 203.

2- المنصوري، ابن نظيف، 248.

3- رُبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَهْمَةُ تَعَلُّقًا بِاسْتِعْدَادِ الْكَامِلِ لِتَنْفِيزِ مَشْرُوعِهِ بِالْإِسْتِيلَاءِ عَلَى مَمْلَكَةِ سَلَاجِقَةِ الرُّومِ، وَنَقْلِ إِخْوَتِهِ وَأَنْبَاءِ عَمِّهِ مُلُوكِ بَنِي إِثْيُوبَ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهَا، لِتَنْفِيزِ بِحُكْمِ مِصْرَ وَالشَّامَ بِكَامِلِهِمَا، وَقَدْ دَفَعْنَا إِلَى هَذَا الْإِفْتِرَاضِ قِيَادَةَ الْكَامِلِ لْجُيُوشِهِ فِي الْعَامِ التَّالِي 930 هـ 1233 م، وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ كِيلِيكِيَا لِتَنْفِيزِ مَشْرُوعِهِ. رَاجِعْ: شَفَاءُ الْقُلُوبِ، أَحْمَدُ الْحَنْبَلِي، 314.

4- المنصوري، ابن نظيف، 248.

5- مُفَرَّجُ الْكَرُوبِ، ابْنُ وَاصِلٍ، 5 / 244.

1- ذَيْلُ الرُّوَضَتَيْنِ، أَبُو شَامَةَ، مِنَ الْمَوْسُوعَةِ الشَّامِلَةِ، شَهِيلُ زَكَارَ، 210 / 20.

2- المنصوري، ابن نظيف، 150.

3- المنصوري، ابن نظيف، 143.

4- المنصوري، ابن نظيف، 141.

5- المنصوري، ابن نظيف، 259.

ودعم هذا الموقف بموقف رسول آخر حرّف الرسالة، وخان غدومه، وعمل لأهوائه السياسية، فعندما قبض داود على أيّوب كان معه قاضي سنجار بدر الدين، وهو من أكثر المقرّبين إليه، فخاف بدر الدين على نفسه، وأثر السلامة، وذهب إلى دمشق، وتقرّب إلى الملك الصّالح إسماعيل، الذي استولى على دمشق من أيّوب، وقام الصّالح إسماعيل بما عُرف عنه من سوء تدبير باختيار بدر الدين، قاضي سنجار ومُستشار أيّوب السّابق، ليؤدّي رسالة منه إلى سلطان سلاجقة الرّوم كيخسرو، "فخان الرسالة، وتحدّث باسم أيّوب، ووفّق بينه وبين كيخسرو"⁽¹⁾، وهذا - أيضاً - ساهم في إنجاح مساعي أيّوب للوصول إلى السّلطنة من قلب محنة السّجن والأسر. وساعد على تقويض جُهود عدوّيه الصّالح إسماعيل صاحب دمشق والعدل الثّاني سلطان مصر. وما كلّ ذلك إلّا بسبب اعتماد الملوك على الرسائل الشفهية التي تقتضي ثقة مطلقة وأمانة تامّة من الرّسل، وهذا ما لم يتوفّر دائماً؛ بسبب عدم تدقيق صاحب الرسالة في مّيول وولاء الرسول، وقبول ما يعرضه من ولاء زائف له.

1 - مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 5 / 251.

الفصل الثّاني

دور السّكان في العلاقات الدّولية

المبحث الأوّل:

سكان الممالك الأيوبيّة

كانت تعيش في البلاد الدّاخلية التي تُسيطر عليها الممالك الأيوبيّة تركيبة عجيبة من السّكان، من حيث الانتماء العرقي والديني على السّواء، فقد كان فيها العرب والأتراك والأكراد والزّنوج، وماليك من كلّ أصقاع الدّنيا، ومهاجرين من المغرب العربيّ، أو من بلاد فارس، أو من القفقاس. وصحيح أن مُعظم السّكان كانوا من المسلمين، لكنّهم كانوا يتوزّعون على مذاهب شتى⁽¹⁾، ومع أن الغالبية تتبع المذهب السّنيّ، فقد كان قسم مُهمّ منهم يلوذ بمذهب التشيع بفرقه المُختلفة، من اثني عشرية، وإسماعيلية، والعلويين النصيرية، وفي حين تركّز المذهب السّنيّ في المُدن الكُبرى، فقد كان الشيعة موزّعين على الجبال والأرياف⁽²⁾. ولا ننسى وجود مجموعة من الدّرّوز تمركزت جنوب شرق جبال لُبنان.

ونتيجة للأوضاع الأمنية، فقد انقسمت المُدن في الدولة الأيوبيّة إلى أحياء شبه مُسوّرة، لها بواباتها التي تحرس ليلاً، وظهرت لها زعامات محليّة⁽³⁾. وكان تأثير هذه الفئات وزعاماتها في العلاقات الخارجيّة، السّياسيّة أو العسكريّة. ولكنّا نستطيع أن نتلمّس بعض الأدوار لبعض الفئات السّكانية التي استطاعت أن تتميّز في علاقاتها ضمن الدولة الأيوبيّة، ومنها:

المسيحيّون المحليّون:

عاش المسلمون والمسيحيّون في الشّرق العربيّ قبل الغزو الفرنجي بحالة فريدة من الانسجام، لا تُعكرها إلّا بعض المواقف الشاذّة، هنا، أو هناك، فطالما عدّ المسلمون والمسيحيّون أنفسهم فرعين

1 - من التاريخ الشّامي، شاكر مُصطفى، 116.

2 - مدخل إلى تاريخ الحروب الصّليبيّة، من الموسوعة الشّاملة، د. سهيل زكّار، 1 / 75.

3 - تاريخ السلاجقة، أحمد إسماعيل، 64.

لحضارة شرقية واحدة، وكان لديهم إحساس واضح بالانتماء إليها⁽¹⁾. وقد كان يُوجد بين سُكَّان الدولة الأيوبية عُنُصر واضح من المسيحيين، يتوزعون على عدَّة طوائف أبرزها: الروم الأرثوذكس، أو الملكانيون، والسرّيان الأرثوذكس، والأرمن الأرثوذكس. وتجدر الإشارة إلى وُجود بعض الفرنجة المستأمنين، وهم - غالباً - من الكاثوليك، وكانوا يُقيمون بشكل شبه دائم خاصّة في المُدن الساحليّة لمزاولة الأعمال التجاريّة، ومنهم مَنْ كان مُستوطناً مَنْ قدم مع الحملات، أو وُلد في الشّرق، وقد فضّل بعضهم الاستمرار في العيش في المُدن المحرّرة، فدخل في عقد الدّمة⁽²⁾، علماً أن الإقامة بين المسلمين والخُصُوع لهم كان أمراً مُحَرَّماً من قِبَل البابا، مع أقسى العقوبات كالحرمان الكنسي، واللعن، والطرد كُلِّياً من الكنيسة⁽³⁾.

لقد سعى الفرنجة - بعد تأسيس إماراتهم في سورية - إلى استمالة المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة، فلمّا استولوا على القُدس، وأبادوا سُكَّانها، حاول بلدوين الأوّل سدّ الفراغ السُّكَّاني باستقدام أعداد من المسيحيين السوريين من شرقي الأردن⁽⁴⁾، ولكن؛ على ما يبدو لم تُثمر عملية استمالة الفرنج لمسيحيّ سورية؛ إذ إن هُناك الكثير من الدلائل على تنامي الكراهية المُتبادلة بين الجانبين⁽⁵⁾، فالتسامح الذي كان يعاملهم به المسلمون كان دافعاً قوياً لمسيحيّ الشّرق؛ كي يُبعدهم عن الفرنجة الذين يتبعون كنيسة غريبة لها طقوس مُختلفة. ويُذكر أنّه عندما حرّر السُّلطان صلاح الدّين القُدس عرض المسيحيّون الأرثوذكس المُساعدة من الداخل⁽⁶⁾، كذلك تلقّى السُّلطان صلاح الدّين تماني حامي الكنيسة الأرثوذكسية الإمبراطور البيزنطي اسحاق أنجيلوس - Isaac Angelus - على استرداده للمدينة المقدّسة.

1 - الشّرق والغرب، كلود كاهن، 256.

2 - الفتح القسبي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 13 / 159.

3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 43 / 1142.

4 - فنّ الحُرْب، سميل، 91 و 55، William of Tyr, p. 55 و 91، A History of deed's done Beyond the Sea.

و Prewar, The Settlement of the Lateens in Jerusalem, P. 497.

Diogil, La Croisades de Luis, P. 314-5.

Runciman, A History of Crusades, P. 465-6.

وبالمقابل؛ نستطيع أن نقول إن المسيحيين في بلاد الشّام لم يتعرّضوا لأي اضطهاد، أو خطر حقيقي على وُجودهم، أو أنّهم مُنعوا من مُمارسة طقوس عباداتهم طوال حقبة العُصُور الوُسْطى من قِبَل إخوانهم وجيرانهم المسلمين، ولذلك نجد أن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، وسائر المذاهب المسيحيّة الشّرقية، قد هلّلت لتحرير المسلمين لمناطق الاحتلال الفرنجي، وخاصّة بيت المقدس. ولقد كانت لهم دوافعهم القويّة في ذلك، فقد جرّبوا التسامح الدّيني للمسلمين، كما لمسوا - بشكل مُباشر، بواسطة الوجود الفرنجي في الشّرق - ما يعنيه العداء بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينيّة. وهذا كُلّه دعا الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس كومنين للسعي وراء تحالف يربطه بالمسلمين ضدّ الفرنجة⁽¹⁾. وممّا يُذكر هنا ما قام به عماد الدّين زنكي عندما حرّر الرُّها من الفرنج عام 539 هـ - 1144م، فمع أنّه لم يرحم الفرنجة فيها فقد عامل المسيحيين المحليّين بمُنتهى الرأفة، وزار كنائسهم، وكانت له علاقة حميمة مع المطران اليعقوبي للرُّها متى الرهاوي⁽²⁾.

وبالنتيجة؛ نرى أنّه على الرّغم من رابط العقيدة الواحدة بين المسيحيين السوريين والفرنجة إلّا أن روابط التاريخ واللّغة والعيش المُشترك مع المسلمين كانت أقوى، فمع أن المسيحيين السوريين لم يُقاتلوا الفرنجة عنوة، ولم يكونوا مصدر إزعاج حقيقي لهم، إلّا أنّهم - أيضاً - لم يستغلّوا الظُّروف الصعبة التي مرّ بها المسلمون، فلم يُقاتلوهم، ولم يُثيروا القلاقل، أو يُشكّلوا عقبات أمامهم. ومع أنّه تمّ طرح كثير من النظريات حول تعاون وثيق بين مسيحيّ سورية والفرنجة، لكنّها - بمُعظمها - تعتمد على أحداث محدّدة وتخمينات وتعميمات، فالنُصوص التاريخيّة تذكر أن قوَّات المُشاة في الإمارات الفرنجية كانت تُشكّل من السُّكَّان المحليّين غالباً، وهذا صحيح، ولكن؛ ليس بالضرورة أن تكون من المسيحيين، فقد كانت تضمُّ أتراكاً وأكراداً وعرباً، وإذا كان جُلُّها من المسيحيين، فهم من الأرمن. أمّا تعاون المسيحيين المحليّين مع الفرنجة، فقد تقتصر أمثلته على ما قام به الموارنة، إضافة إلى حوادث فردية قد تُثير الاستغراب أكثر ممّا تُعدّد دلائل على وجهة نظر محدّدة، ومنها الرواية التي أوردها أبو شامة على ذمّة مَنْ أبلغه، يقول: "بلغني أن النصارى بعبلك سخموا وسودوا وُجوه الصُور في كنيسَتهم على ما جرى على الفرنج، فعلم الوالي، فجناهم جناية شديدة، وأمر اليهود

1 - الحُرُوب الصّليبيّة، أرنست باركر، 84.

2 - فنّ الحُرْب، سميل، 94.

بصفعهم، وضربهم، وإهانتهم"⁽¹⁾، هذا الحدث الذي لا ندري في أي كنيسة تمّ في بعلبك، وقد تكون للموارنة، وربما ليس في مدينة بعلبك نفسها، بل في منطقتها؛ حيث ينتشر بعض الموارنة في غربها، وربما كانت القصة ردّاً لتبرير ما قام به المسلمون في دمشق، فبعد هزيمة لويس وأسرّه في دميّاط عام 648 هـ 1250 م، أرسل المعظم ثوران شاه ملابس الملك لويس الأسير إلى واليه على دمشق جمال الدين ابن يغمور، "فدخل الناس كنيسة مريم بفرحة وسرور، ومعهم المغاني، ويطربون فرحاً بما جرى، وهتفوا بهدم الكنيسة"⁽²⁾، وبما أن أبو شامة مؤرّخ رصين، ولم يُجرب عليه أي تلفيق، ولذلك نميل للاعتقاد بأنّ ما تمّ قد يكون في كنيسة مارونية في جنوب البقاع، فصلاّت الموارنة بالملك لويس كانت وثيقة⁽³⁾.

وبشكل عامّ؛ كان المسيحيون الشرقيون في مصر والشّام يشعرون بارتباط ما بالمسلمين، إن لم يكن للجيرة والمعاملة الحسنة التي يلقونها منهم، فلإحسان المرجو، فقد كان معظم الكتبة في مصر والشّام خلال العصر الأيوبي من المسيحيين، وخير دليل على ذلك هو ابن الميقاط الذي كان يُلقّب بالشيخ أبي الفتوح، الذي كان كاتب جُيُوش الملك العادل، وكان لديه في ديوانه "جماعة من الكتّاب مسيحيين أقباط"، وكان ابن الميقاط في سفره بين الشّام ومصر مُرافقاً للسُلطان العادل، يصحب حاشيته القبطية معه، ويقومون بطقوس عبادتهم في الطريق بكل حرّية، وقد اصطحب معه القسّ داود بن يوحنا بن لقلق؛ ليُصليّ بهم⁽⁴⁾.

ولكن هؤلاء الكتبة المسيحيين بالرّغم من ارتقائهم في مناصب الدولة، وتمتّعهم بالسُلطة والمال والجاه في ظلّ الملوك الأيوبيين، فقد كانوا يدفعون - في بعض الأحيان - ثمناً غالياً لذلك، وخاصّة عندما يموت الملك الذي يعملون في ظلّه، أو يتغيّر عليهم. وربما كان خير مثال على ذلك هو ابن هبة الله، الذي تولّى خزّانة السُلطان المعظم في دمشق، ووليها في عهد ابنه النّاصر داود، وصال

1 - دَبِيل الرّوضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 365 / 20 وقد نقلها عنه: النويري، نهاية الأرب، 92 - 359، وابن كثير، البداية والنهاية، 178 / 13.

2 - دَبِيل الرّوضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 365 / 20. والمختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 223. ثُمَّ يُتابع أبو شامة مباشرة: "وبلغني أن النصارى يبعلبك..."

3 - العدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم يوشف، 67 - 68.

4 - أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 6.

وجال في عهديّها، فقد "تمكّن من المسلمين، وآذاهم، ورفع منار النصارى"⁽¹⁾، ولكن؛ ما إن استولى الأشرف موسى على دمشق، حتّى عزله، وحبسه عام 626 هـ 1229 م، ثُمَّ علّقه على باب كنيسة مريم، وطالبه بأموال عظيمة، مع ذلك؛ فهذا يُعدّ من الحوادث الفردية والعادية في ذلك الزمن، والذي كان يُصيب المسلمين والمسيحيين، ولهذا؛ استمرّ المسيحيون الشرقيون بولاتهم المعلن للممالك الأيوبيّة مُقابل عداء ظاهري واضح نحو الفرنج.

لكنّ الفرنج حصلوا على بعض التسهيلات من قبل أفراد من السكّان المحليّين باعوا نفوسهم بالمال، أو من مجموعات كان لها دوافع عرقية، أو طائفية. فيُذكر أنّه كان لدى مُعظم الإمارات الفرنجيّة متطوعة من السكّان المحليّين في جُبُوشهم، منهم المسيحيون المحليّون والأتراك المسلمون، كما استغلّ البدو معرفتهم بطبيعة الأرض، وخاصّة البوادي والصحاري، فعمل بعضهم أدلاء وجواسيس للفرنجة مُقابل المال والأعطيات. أمّا الدُرُوز المُقيمون في وادي التيم؛ فيبدو أنّهم تصرفوا بدهاء سياسي؛ حيث أرضوا الطرفين من مُسلمين وفرنجة، فقد عملوا جواسيس للطرفين⁽²⁾.

الموارنة:

كان الموارنة يُشكّلون طائفة دينيّة صغيرة في العصر الأيوبي، وقد سكنوا بعض سُفُوح جبال لبنان الغربيّة، وكانوا مُنعزلين - تماماً - عن المسلمين، وعن الطوائف المسيحيّة الأخرى، فهم سريان، لكنّهم لا يتّهبجون العقيدة الأرثوذكسية، وبالوقت نفسه؛ لا يتبعون كنيسة رُوما الكاثوليكية، بل يتفرّدون بمعتقدهم. لكنّ وُصول قُوات الفرنج إلى الساحل الشامي دفع الموارنة - بالرّغم من استعراهم باللّغة - لاعتبار الفرنجة أقرباء لهم، وأنّهم سيكونون مُخلّصين⁽³⁾، فأحسنوا استقبالهم، وكانوا أوّل المُرحّبين بهم. ثُمَّ أرسلوا وفودهم إلى رُوما، وانضمّوا - رُسميّاً، وشرعيّاً - إلى كنيسّتها الكاثوليكية، وكان كلّ ذلك على يد إيمري بطريك اللاتين في أنطاكية، فقد "أعلنوا عودتهم عن الخطأ الذي كان قد استعبدتهم لفترة طويلة"⁽⁴⁾.

1 - دَبِيل الرّوضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 303 / 20.

2 - الشرق والغرب، كلود كاهن، 114.

3 - الشرق والغرب، كلود كاهن، 99.

4 - تاريخ الأعمال المنجزة فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 7 / 444.

واندفع الموارنة لدعم الفرنجة في معاركهم، وكان لهم دور مؤثر أحياناً، يقول وليم الصوري عن الموارنة: "لم يكن هؤلاء الناس قليلي العدد، وقُدِّروا بأنهم أكثر من أربعين ألفاً، وكانوا شعباً قوي البنية، ومقاتلين شجعاناً، قدّموا فوائد عظيمة للمسيحيين في المعارك الصعبة التي كانوا قد خاضوها مراراً مع العدو"⁽¹⁾. وردّاً لجميل الموارنة قام الفرنج أثناء احتلالهم للساحل الشامي "بمنح موارنة لبنان جميع الحقوق الكنسية والمدنية التي كانت لأبناء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية"⁽²⁾. ويُقال إن عدداً من موارنة لبنان قد شاركوا الملك الفرنسي لويس التاسع في حملته على مصر، وكانت جُئوع منهم في استقباله أثناء عودته إلى عكا من الأسر، "وأرسل لهم لويس خطاباً خاصاً يشكرهم فيه على حسن استقبالهم له"⁽³⁾. كما ارتفعت - في ذلك الوقت - أصوات كثيرة في أوروبة تطالب بضمّ الموارنة باعتبارهم جزءاً من العالم المسيحي الغربي⁽⁴⁾.

اليهود:

في العصر الأيوبي كانت توجد جالية بسيطة من اليهود موزعة على المدن الكبرى في الممالك الأيوبية⁽⁵⁾، وهي تتألف من مجموعات صغيرة تتوزع في كل مكان تقريباً؛ وخاصة في المدن، وذلك وفقاً لإحصاء بنيامين التطيلي لأعداد اليهود في مناطق الشام ومصر⁽⁶⁾، ويتضح من ما ذكره بنيامين أن اليهود غير موجودين - تقريباً - في فلسطين والساحل الجنوبي للبحر المتوسط، فأعدادهم في القدس 200 شخص، وفي عكا 200 أيضاً⁽⁷⁾، ومما يلاحظ أنه من الساحل ونحو الداخل تبدأ بالازدياد أعداد السكّان اليهود، لنلاحظ كثافة نسبية في دمشق 3000 ثلاثة آلاف شخص، وفي حلب ألف وخمسمائة شخص⁽⁸⁾، وكلّما توغلنا شرقاً نحو العراق وفارس ارتفعت هذه الأعداد.

- 1- تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صور، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 7 / 444.
- 2- تاريخ سورية ولبنان، فيليب حطي، 2 / 262.
- 3- العدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم يوسف، 67 - 68.
- 4- استرداد الأرض المقدسة، بيري دويوا، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 37 / 144.
- 5- من التاريخ الشامي، شاكِر مصطفى، 117.
- 6- زار اليهودي الأندلسي بنيامين بن بونة التطيلي بلاد الشام ما بين عام 561 - 569 هـ / 1165 - 1173 م.
- 7- رحلة بنيامين، 92، ولا ندرى هل هذا النقص بأعداد اليهود له علاقة بإبغادهم عن مناطق الحروب، فمعظم اليهود تجار وحرثيون، وأعمالهم لا تزدهر إلا في مناطق يسود فيها السلام، أو أن لهذا النقص علاقة بإساءة الفرنجة لهم، وتسخيرهم للقيام بالأعمال الشاقة مع الأسرى (كلستان، سعدي الشيرازي، 144)، أو أن اليهود ابتعدوا تاريخياً عن القدس وفلسطين منذ الفتح العربي لها وفقاً لنصّ العهدية العُمريّة التي أعطاهما عمر بن الخطاب لبطريك القدس عند تسليمها، والتي تنصّ: "ولا يسكن بآلباء معهم أحد من اليهود". (تاريخ الرُّسل والملوك، الطبري، 3 / 609).
- 8- رحلة بنيامين التطيلي، 122.

ويبدو أن المذبحة التي تعرّض لها اليهود في القدس، عندما دخلها الفرنجة وإحراقهم داخل الكنيس، الذي التجؤوا إليه⁽¹⁾، قد جعلتهم يفرّون من مناطق فلسطين والساحل نحو بلدان الداخل الإسلامية، أمّا من بقي منهم، وتمكّن الفرنجة من القبض عليه؛ فقد عُذَّ أسيراً، وأُحيل للعمل الشاقّ في بناء التحصينات، وحفّر الخنادق⁽²⁾.

وقد تمكّنت الجاليات اليهودية في البلدان الإسلامية من أن تحقّق ازدهاراً اقتصادياً وثقافياً كبيراً نتيجة التسامح الإسلامي السائد، ولذلك؛ تألّف اليهود مع الحضارة العربيّة الإسلامية⁽³⁾. وإن أعداد اليهود القليلة في أراضي الدولة الأيوبية لم تكن لتسمح لهم بلعب أيّ دور مؤثّر في الصراع الدائر بسبب الغزو الفرنجي⁽⁴⁾. ولكن؛ بشكل عامّ، فقد "كان اليهود يعدّون أنفسهم رعايا أوفياء للدولة الإسلامية، وأن الحملات الفرنجية على الشرق كانت محنة مؤلمة بالنسبة لهم"⁽⁵⁾.

هذا؛ مع أنّنا نفترض أن اليهود في المشرق العربي لم يتخّ لهم معرفة المذابح التي قام بها الحجاج الفرنجة قبل توجههم إلى الشرق في معظم مناطق أوربة، فقد كانت فكرة الأوربيين في عصر الحروب الصليبية عن اليهود بأنهم "ملعونون إلى حدّ الشقاء، ممقوتون في جميع أنحاء الدنيا، ويُعدّون لشيء"⁽⁶⁾. إن نظرة الفرنج هذه لليهود تُبرّر اندفاعهم لذبّح هذه الطائفة، وتقربهم - بذلك - إلى الله قبل قيامهم بالحجّ، وغزو المناطق المقدّسة في فلسطين، فحملة الحجاج التي عبرت ألمانيا ذبحت اليهود في مدينتي مينز، وكولن⁽⁷⁾. ثمّ قامت الحملة الفرنجية التالية التي انطلقت من بريطانيا بالهجوم على اليهود، وذبحهم في ستامفورد، وسانت آدموند، ثمّ حاصروهم في يورك، فلمّا أيقن اليهود بالهلاك ذبحوا أولادهم وزوجاتهم، وأشعلوا النار، فاحترقوا جميعاً، فما كان من الحجاج إلّا أن نهبوا أموالهم، وانطلقوا في حجّهم⁽⁸⁾.

- 1- الشرق والغرب، كلود كاهن، 115.
- 2- يذكر سعدي الشيرازي أنّه عندما أسره الفرنج قرب القدس، ساقوه إلى طرابلس، وأجبروه على العمل مع اليهود في حفر خندقها. (روضة الورد، سعدي الشيرازي، 114).
- 3- الشرق والغرب، كلود كاهن، 30.
- 4- لم يذكر المؤرّخون ولا الرّحالة المسلمون مثل ابن بطوطة وابن جُبَيْر شيئاً عن اليهود في القدس، أو في فلسطين في عصر الدولة الأيوبية، إنّما يتحدّث ابن جُبَيْر عن مجموعة من اليهود السامرة في مدينة نابلس (الرحلة، 272).
- 5- كلود كاهن، الشرق والغرب، 115.
- 6- جولات ورحلات، فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 43 / 1195.
- 7- وُرُود التاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 44 / 24.
- 8- وُرُود التاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 44 / 352.

طائفة العامة:

تكاد تكون المعلومات نادرة عن وضع العامة في الممالك الأيوبية، ولكننا نعرف أن هذه الطبقة كانت تضم فئات واسعة من المجتمع: جنود، حرفيين، زراع، صغار التجار، والموظفين، وهؤلاء هم دافعوا الضرائب، ومُجندو السخرة، وهم أول من تُصيبه النكبات. وكانت حياتهم - في تلك الأيام - في غاية القسوة، خاصة في أيام الحروب والحصار. وكان معظم أفراد طبقة العامة يعملون حرفيين في محلاتهم، أو أجراء لدى الغير، كما كان قسم آخر من السكان يخرج يومياً من المدين للتجارة التبادلية مع القرى القريبة، أو للعمل الزراعي في بساتين المدين، أو كرومها.

وكانت هناك طبقة تلحق - عادة - بطبقة العامة، لكنها تتميز عنها، وهي:

طائفة العبيد: ويبدو أن هذه الفئة كانت محدودة جداً في المملك الأيوبية، فمعظم العامة كانوا من صغار الكسبة والعمال، وجُلهم من الفقراء، وهم يعجزون عن إعالة العبيد والإماء، فبقي امتلاكهم وقفاً على الأغنياء القلة في المجتمع الأيوبي، وعلى الأسرة الحاكمة. ويجدر الإشارة إلى نقص موارد العبيد في الشام عموماً في ذلك العصر بسبب الحروب مع الفرنجة، التي حدثت - بشكل كبير - من تجارة العبيد. أمّا أسرى الفرنج؛ فلم يكن يصيبهم الرق غالباً، فقد اعتبروا أسرى حرب، كان يتم سجنهم حين تبادل الأسرى⁽¹⁾.

دور العامة:

شهد العصر الأيوبي اضمحلالاً شديداً لدور السكان المحليين في الحياة العامة بشكل عام، وبتأثيرهم بالعلاقات الخارجية بشكل خاص، فتوالي الغزاة والمصائب عليهم، وظلم الحكام وتجبرهم، سلبهم جزءاً كبيراً من شعورهم الوطني، وأوهن عزائمهم، فأتصفت مواقفهم - بشكل عام - بالسلبية، واللامبالاة⁽²⁾. وبلغ الأمر ببعض ضعاف النفوس حد الانضمام إلى الفرنج في هجماتهم على إخوانهم من المسلمين⁽³⁾.

1 - الروض الزاهر، ابن عبد الظاهر، 331.

2 - العلاقات بين العرب والفرنج، زكي نقاش، 78.

3 - دَبِيلُ الرُّوضَتَيْنِ، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَار، 20 / 420.

ومن أهم ما يُلاحظ في العصر الأيوبي غياب التنظيمات الشعبية المحلية التي نشطت وتشعبت في العصور السابقة، فلم نعد نسمع بأي دور فاعل لتنظيمات الأحداث، التي كانت سابقاً قد بلغت شأواً عظيماً، ويبدو أن هذا الغياب كان بسبب وجود دولة مركزية قوية كان حُكمها مباشراً من خلال ملك يترع على العرش في كل مدينة من مدين الشام، كما أن قُوات الدولة النظامية قد حلت مكان التنظيمات الشعبية، التي تظهر - عادة - في غياب سلطة قوية ذات تنظيم عسكري وإداري فاعل.

فالدور المتعاضم لتنظيمات الأحداث في دمشق وصور في العصر الفاطمي وفي حلب السلجوقية زمن الملك رضوان، قد انتهى، ورافق ذلك هُدوء شعبي داخلي، واستقرار اقتصادي ومعاشي قد نراه لا يتناسب - نظرياً - مع مرحلة الحروب والفتن التي شهدتها ذلك العصر، فكانت الحالة في مصر والشام - بالرغم من الفتن والمجاعات وانعدام الأمن - أشبه ما تكون باستسلام شعبي كامل، فلم تُسجل أية ثورة داخلية، أو حتى أي تحرك شعبي مؤثر، مع كل ما كانت تتعرض له العامة من ظلم واستغلال وجشع الحكام، وقسوة الضرائب والسخرة.

وبدا كأن الروح المعنوية للشعب قد ماتت تماماً، ولا ندري هل كان مرد ذلك إلى حالة الجهاد والإجماع الشعبي عليه ضد الفرنجة أولاً، ثم ضد التتار ثانياً؟ أم إلى طبيعة الحياة الجديدة الاجتماعية والاقتصادية التي فرضها النظام العسكري الإقطاعي؟ فلم يعد هناك بطالون يدورون في الأزقة لالتقاط عيشهم، وهم - عادة - عماد الشعب والفتن، وكانوا قوام تنظيم الأحداث والفتيان.

إضافة إلى ذلك؛ فتتظيمات الأحياء الشعبية الجديدة حصرت الفتن بين أهل الأحياء، فكان - غالباً - ما يندلع القتال بين سكان الأحياء⁽¹⁾، وهذا مما فتت قُوة المدين الشعبية، وأطمع الملوك في بسط يدهم بأموال الشعب، فتفتنوا في استخلاص الأموال من الناس⁽²⁾.

ولكن؛ مع كل ذلك لا بد أن تُسجل بعض الأحداث المتفرقة التي شارك فيها العامة بالأحداث السياسية والعسكرية، فعند الحاجة كان الملوك من بني أيوب يلجئون للعامة، ويستنجدون بهم لنصرتهم في حروبهم ضد بعضهم البعض، فقد قام أهل دمشق مع الناصر داود

1 - دَبِيلُ الرُّوضَتَيْنِ، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَار، 20 / 178.

2 - المنصوري، ابن نظيف، 158، والسُّلُوكُ، المقرئزي، 1 / 391 - 349.

عندما حاصره أعيامه الأشرف والكامل عام 626 هـ 1229م، وخرج أهل البلد مع العسكر، وحاربوا⁽¹⁾. وعندما تعرّض الملك الصّالح إسماعيل للحصار بدمشق عام 634 هـ 1237م، خرج بفرقة من العامة يُسميهم ابن العماد الحنبلي: الخرافشة⁽²⁾.

وفي عام 659 هـ عندما توجه التتار نحو حماة، "أراد ملكها المنصور محمد الرحيل إلى دمشق، فمنعته العامة من ذلك، حتّى استوثقوا منه أنّه يعود إليهم عن قريب"⁽³⁾. إن كلّ هذه الأدوار البطولية للعامة لم تُسفر عن أيّ نتائج سياسيّة، أو عسكريّة، فالملك الصّالح ترك دمشق، والنّاصر داود سلّمها للأشرف، وكذلك ملك حماة لم يقف بتراجعهم أمام التتار، حتّى دخل مصر، وترك حماة لمصيرها مع التتار، ممّا يجعلنا نستنتج عدم فعالية العامة، أو حتّى عدم وجود أيّ تأثير لهم في العلاقات السياسيّة والعسكريّة في العصر الأيوبي، وذلك لعدم خضوعهم لأيّ شكل من التنظيم.

المبحث الثاني:

دور رجال الدّين في العلاقات السياسيّة

في ظلّ حكم الأسرة الأيوبيّة، التي كانت تحرص على صفتها الإسلاميّة، لم يكن لرجال الدّين دور بارز في الأمور العامّة، وتجرباتها، وعلى العكس من ذلك، كان لهم تأثير كبير على طبقة العامة.

وكان رجال الدّين من فقهاء وقضاة يحظون برضا الملوك الأيوبيّة طالما اكتفوا بالوعظ الدّيني، ويحصلون على المناصب والأموال إن قاموا بمباركة أفعال الملوك، وتبرير ما يرتكبون من مخالفات للشرع وللمصلحة العامّة. لكنّ، في كثير من الحالات التي تصدّوا فيها لظلم بني أيّوب كانت الولايات والمصائب تحلّ بهم، وأقلّها العزل من المناصب الدّينيّة، التي كانت تعني المال والجاه.

وكان الملوك الأيوبيّون حريصين على إظهار اهتمامهم بالدّين ورجاله، كخضوعهم مجالس الوعظ والإرشاد، التي يعقدها كبار العلّماء، فقد حضر الملك المعظم صاحب دمشق عام 600 هـ 1204م "مجلس الحافظ أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الجماعيلي بجامع دمشق"⁽¹⁾، كذلك حضر المعظم درس القاضي جمال الدّين المصري⁽²⁾ مدرّس المدرسة العادلية بدمشق، ومعه أركان دولته من القضاة والفقهاء⁽³⁾، وهذا يدلّ على حرص المعظم وغيره من الملوك الأيوبيّة على مجالس العلم، واهتمامهم بالعلّماء. وكان الملك الأجدد صاحب بعلبك يحبّ الشيخ عبد الله اليونيني أسد الشّام، وكان يزوره، "وكان الشيخ يهينه، فما قام له يوماً قطّ، وكان يقول له: يا مجيد؛ أنت تظلم، وتفعل، وتصنع، وهو يعتذر إليه"⁽⁴⁾.

1 - دّيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار 20 / 93. راجع ترجمة الحافظ في: دّيل الروضتين، أبو شامة، 46.

2 - هو القاضي جمال الدّين أبو الفضائل يونس بن بدران بن فيروز الشافعي المعروف بالمصري، استقل بقضاء دمشق عام 619 هـ وصار يدعى قاضي القضاة، توفّي عام 622 هـ.

3 - دّيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار 20 / 256. راجع ترجمة جمال الدّين في دّيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار 20 / 258. ومفّرّج الكرب، ابن واصل، 4 / 171.

4 - دّيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار 20 / 241.

1 - السلوك، المقرئزي، 1 / 353.

2 - شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 318.

3 - شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 441.

وعندما ضرب الملك العادل القراطيس بدمشق، قال الشيخ عبد الله اليونيني: "انظروا إلى هذا الشيخ الفاعل الصانع يُفسد على الناس معاملاتهم، وبلغ العادل، فأبطلها"⁽¹⁾.

وكان لابن الجوزي مكانة رفيعة بين علماء دمشق، وتربطه علاقات جيّدة مع أبناء الملك العادل، وخاصّة الملك الأشرف والملك المعظم، لكنّ علاقته بالأشرف فسدت، عندما سلّم الملك الكامل مدينة القدس إلى الإمبراطور فريدريك، فعذّب ابن الجوزي ذلك خيانةً، وألبّ الناس على فعلة الكامل، وحرّضهم بخطبة بليغة في جامع دمشق؛ افتتحها بقوله: "أحسن الله عزاء المؤمنين، يا حجلة ملوك المسلمين"، ثمّ أفتى بشرعية قتال الكامل والأشرف بسبب هذا العمل⁽²⁾.

وفي عام 607 هـ 1210م، عندما خاف الملوك والأمراء من سطوة الفرنج، بلغ من قوّة رجال الدين أنّ سبط ابن الجوزي قام بجمع حملة شعبية من مسلّحي العوامّ ومُتطوّعة المُجاهدين في دمشق، وما حولها، وقادهم نحو مناطق سيطرة الفرنج في فلسطين، ممّا اضطرّ الملك المعظم صاحب دمشق للخروج بجُنده، ودعمهم في غزوهم، حتّى دخلوا بلاد الفرنج، فأسروا، وقتلوا، وأقاموا أيّاماً، ولم يجرؤ الفرنج على التصدّي لهم، ثمّ عادوا⁽³⁾. وفي عام 638 هـ 1241م، عندما سلّم الصّالح إسماعيل صاحب دمشق حصن شقيف أرنون وصفد للفرنج، مُقابل تحالفهم معه ضدّ الصّالح أيوب صاحب مصر، تصدّى له الشيخ عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام، خطيب جامع دمشق الشافعي، وسانده الشيخ جمال الدين أبو عمر بن الحاجب المالكي، فأنكروا على الصّالح فعلةً، وبسّطا لسانيهما فيه، وأكثرَا من التشنيع عليه، فغضب عليهما، ففارقا دمشق⁽⁴⁾.

الدين والسياسة:

كان الأيوبيون رجال دولة ورجال حرب، تولّوا القيادات العسكرية والإدارية هم وأسرهم وأقرباؤهم ومماليكهم، لكنّهم ابتعدوا عن مباشرة الوظائف التي لها صفة دينيّة، كالقضاء والإفتاء والتدريس والخطابة ومشيخة الشيوخ. واعتمد الملوك والأمراء - بشكل كامل - على رجال الدين من

فُقهاء وقُضاة في تولّي المهام الدبّلماسيّة للممالك الأيوبيّة، فكانوا المُفاوضين والرُّسُل والسُّفراء والوسّطاء، وذلك لشعور القادة الأيوبيّين الأوائل بغربة لغوية وثقافية تُعيقهم عن هذه الأعمال، وكذلك لإحساسهم بقُصور المحاربين عن الدهاء السّياسي.

ولكنّ الأجيال اللاحقة للأسرة الأيوبيّة تمكّنت من تجاوز كلّ ذلك، فبرعوا في الفقه والحديث واللغة والشعر، وظهر منهم ساسة مُحنكون، لكنّ رجال الدين كانوا قد سيطروا على بعض المناصب الدبّلماسيّة، واختصّوا بها كالرُّسُل والسُّفارات. وكانت هذه فرصة ليحظى بهذه الوظائف الأكفّاء من أهل البلاد.

وقد انفرد شيوخ بعض المذاهب الإسلاميّة بمواقف سياسيّة مع هذا الملك ضدّ ذاك، فمن المعروف أن الحنابلة بدمشق قاموا بفتح باب السلامة لجيوش الملك الأفضل والملك العزيز المحاصرين للملك العادل فيها عام 635 هـ 1238م⁽¹⁾.

ولعظيم تأثير الفقهاء والقضاة بالعامّة، فقد كان من المُتوقّع أن يتولّوا الدفاع عن هذه الطبقة، لكنّنا لم نلاحظ لهم أيّ موقف من هذا، وكُلّ المواقف التي سجّلت للفقهاء في معارضة الملوك الأيوبيّة هي مواقف تجاوز فيها الملوك حدّ الشرع، وانتهكوا حرّماته. فعندما سلّم الملك الكامل البيت المقدّس إلى فريدريك لم يتصدّد للتشنيع على هذه الفعلة إلّا فقهاء دمشق، لأن ملكها الناصر داود كان مُعادياً للكامل، "فجلس الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزي بجامع دمشق، وذكر فضائل بيت المقدّس"، فاحتشد الناس، وعلت أصواتهم بالصراخ والبكاء⁽²⁾.

ولكنّ؛ يُسجّل للشيخ عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام موقفه من الملك الصّالح إسماعيل صاحب دمشق، الذي سمح للفرنج بدخول دمشق، وشراء السلاح منها، ليدعموه في حربه ضدّ الصّالح أيوب، فقام الشيخ عزّ الدين، وأفتى في جامع دمشق بتحريم بيع السلاح للفرنج، وقطع خطبة الصّالح، فما كان من الصّالح إلّا أن عزله من خطبة الجامع، واعتقله⁽³⁾.

1- دَبِيل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار 20 / 241.

2- النُّوادر السُّلْطانيّة، ابن شدّاد، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار 15 / 7 - 6.

3- دَبِيل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار 20 / 135.

4- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 302 ودَبِيل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار 20 / 334.

1- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 141.

2- السُّلُوك، المقرئ، 1 / 353.

3- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 302، ودَبِيل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار 20 / 334.

إن هذا النوع من رجال الدين المواجهين للباطل، المتصددين لتجاوزات الملوك، لم يكن مرغوباً فيه، رغم ندرته في ذلك العصر. فالملوك كانوا يرغبون في رجال دين لا يهتمون بالسياسة، لذلك انصرف الأيوبيون لتشجيع شيوخ الطرق الصوفية، وبناء الخوانق، والزوايا لهم، فهم لا يتدخلون في شؤون الحياة الدنيا، ويتفرغون للعبادة والتقشف، فغدت الشام في العصر الأيوبي مملكة الصوفية⁽¹⁾.

دور القضاة:

كان القاضي في الممالك الأيوبية من كبار موظفي الدولة، وأعمدتها، ولذلك كان احتكاك القضاة بالملوك الأيوبيين أمراً محتماً، بل وشبه يومي، وتباينت العلاقة بينهما سلباً وإيجاباً، فكان يحظى - أحياناً - بعض القضاة بمحبة ودعم الملك الأيوبي، فيقوى مركزه، وقد تزداد ثقة الملك به، فيُرسله في سفارته، وكانت السفارات كلها من نصيب القضاة تقريباً، وذلك لعلمهم، وإمكاناتهم الشخصية، واختلاطهم بالحكام والملوك، فامتلكوا ميّزات أهلتهم لهذا العمل الدبلوماسي الكبير الأهمية للمملكة وللملك، وبرز منهم قضاة ترسلوا في سفارات كانت ذات أثر بارز في العلاقات بين الدول الأيوبية، وبينها وبين الدول الأخرى.

ونستطيع أن نعدّ القاضي بدر الدين يوسف بن الحسن الزراري من القضاة المقربين من الملوك الأيوبيين، فقد اتصل بالملك الأشرف، الذي نقله إلى قضاء بعلبك، بعد أخذه لدمشق عام 635 هـ - 1238 م، "وكان يسلك من التجمل وكثرة الممالك والدواب وحسن الرّزي ما لم يسلكه وزراء الممالك الكبار"⁽²⁾.

وفي عام 629 هـ - 1232 م قدم قاضي الرقة على السلطان الكامل، وذكر له ظلم الملك الجواد لأهلها، فرفع الكامل يد الجواد عنها، وسلمها إليه⁽³⁾.

وفي سنجار؛ استطاع القاضي بدر الدين أن يحصل على ثقة الملك الصالح أيوب عندما كان في الجزيرة، فولاه قضاء سنجار، واعتمد عليه، فأدّى القاضي إلى أيوب خدمة العمر؛ إذ إنه عندما حاصر الملك الرحيم لؤلؤ سنجار حلق القاضي لحيته، وتدلّى من السور، واجتاز المحاصرين، ولحق

بالخوارزمية، وتمكّن بدهائه من إقناعهم لتأييد الصالح أيوب، فقدموا معه، وفكّوا الحصار عن الصالح بسنجار، وهاجموا لؤلؤاً، ونهبوا جيشه، وهزموه، "وقلّد - بذلك - الملك الصالح منّة عظيمة، كانت سبب سعادته لما ملّك الصالح مصر"⁽¹⁾.

ولكن أشهر قضاة العصر الأيوبي بلا منازع كان ابن شدّاد⁽²⁾، الذي بدأ عهده مع السلطان صلاح الدين، فكان قاضي العسكر، وبعد وفاة السلطان، التحق ابن شدّاد بالظاهر غازي بن صلاح الدين، وعاش عنده في حلب، وعندما قدم ابن شدّاد على الملك الظاهر في حلب، "ولاه قضاءها، ووَقَّوفها، وحلّ عنده في رتبة الوزارة والمشورة"⁽³⁾. وبعد وفاته؛ كان مع ابنه العزيز بن الظاهر، "مُحْتَرماً مُكْرَماً مُتَوَلِّياً الحُكْمَ في جميع ممالك حلب"⁽⁴⁾.

وكان لمنصب القاضي من المكانة السياسية والرفعة الاجتماعية، وارتفاع الدخل ما جعله حلماً يتناول إليه أكابر الأعيان، فبعد وفاة القاضي الفاضل ابن شدّاد "كان كمال الدين عمر بن العجمي، وهو من أكابر حلب وأعيانها، متطاولاً إلى منصب القضاء، فبذل للعزيز ستين ألف درهم، وكُلّ سنة خمسين ألف درهم"⁽⁵⁾.

ولكن؛ لم تكن حياة القضاة كلّها سعادة ورفعة، فقد واجه بعض القضاة مشكلات حقيقية مع الملوك، ففي عام 629 هـ - 1232 م، قبض الملك الأشرف على القضاة بدمشق، وصادر منهم أموالاً عظيمة⁽⁶⁾.

1- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5 / 187.

2- القاضي ابن شدّاد: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، تُوفِّي بحلب عام 632 هـ.

3- رُبْدَةُ الْحَلَبِ، ابن العديم، 2 / 603.

4- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5 / 89.

5- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5 / 92.

6- المنصوري، ابن نظيف، 123، ومُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 4 / 172.

1- ابن جُبَيْر، الرحلة، 256.

2- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5 / 187.

3- المنصوري، ابن نظيف، 244.

المبحث الثالث:

دور المرأة في العلاقات السياسية

لم يكن للنساء المسلمات في عصر الحروب مع الفرنجة أي دور عسكري، وبالتالي؛ لم يكن هنَّ دور سياسي يُذكر. وبشكل عام؛ فإنه لم يكن للمرأة في هذا المجتمع أي دور في الحياة العامة، حتَّى وإن كانت من بنات الأسرة الأيوبيَّة الحاكمة، ونادراً ما كانت تُعرَف إحدى النساء، فإن حصل هذا، فبعدم حصَّته، أو بفضل قدَّمته.

وإذا استثنينا بعض صفقات الزواج السياسي ما بين أميرات وأمراء الأسرات الحاكمة، والتي لم يكن للزوجات رأي فيها، فإننا نجد أنه قد برزت بعض الحالات التي تستحق الوقوف عندها في هذا المجال، فقد كان يتم استخدام بعض نساء الأسرة الأيوبيَّة في استعطاف الملك المُتصّر لتخفيف وقع الهزيمة على قريب له، أو للحصول على بعض المكاسب الإضافيَّة من ملك لآخر، وهذه العادة، مع أنَّها كانت شائعة، وتعددت حالاتها، ولكن؛ نادراً ما كان يُجاب طلب النسوة، أو يُقبل توسُّلهنَّ، وغالباً ما كُنَّ يُردَّنَّ خائبات. ويبدو أن عادة شفاعة النساء كانت عادة تركية قديمة، أخذها الأيوبيُّون عن الأتابكة الزنكيين، فعندما حاصر السُلطان صلاح الدِّين الموصل خرجت إليه نساء البيت الأتابكي، ومعهم بنت نُور الدِّين يستشفعن لفكِّ حصاره عن الموصل، فردَّهنَّ صلاح الدِّين خائبات⁽¹⁾. ولم يطل الأمر، فبعد وفاة صلاح الدِّين انتزع أخوه الملك العادل مملكة دمشق من الأفضل بن صلاح الدِّين، ونفاه إلى الجزيرة، فأرسل الأفضل والدته عام 599 هـ 1203 م، إلى عمِّه العادل، لتشفع له، ليُبقي عليه العادل بعض البلاد، فلم يُجبها⁽²⁾، ويُعلَّق ابن كثير على ذلك قائلاً: "عُوقب البيت الصلاحي بمثل ما فعله والدهم لما خرجت إليه نساء البيت الأتابكي وبنت نُور الدِّين، فردَّهنَّ، فجرى ذلك لابنه"⁽³⁾.

1- الكامل في التاريخ، ابن كثير، 11 / 512.

2- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 104 وزُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 223.

3- الكامل في التاريخ، ابن كثير، 11 / 512.

وفي عام 635 هـ 1238 م، احتلَّ الملكُ الكاملُ دمشق إثر موت شقيقه الملك الأشرف، وأخذ يتجهَّز لقصد حمص، "فأرسل إليه صاحبها الملك المُجاهد بنسائه، ودخلن على الكامل، فلم يلتفت إلى ذلك"⁽¹⁾. وعندما انتهت دولة بني أيوب، وقامت دولة المماليك بقي الملك المُغيث عُمر بن العادل الثاني مُحاصراً في الكرك، وكان يخاف من الظاهر بيبرس سُلطان المماليك، فأرسل المُغيث والدته في عام 661 هـ 1263 م لمُلاقاة بيبرس في غزَّة، فاستقبلها، واستعطفته على ابنها، فوعدها خيراً، وطلب نُزوله إليه، ولما نزل أعدمه⁽²⁾.

أمَّا في مجال الحُكم والسياسة؛ فكانت النساء الأيوبيات بعيدات عنها تماماً، على عادة ذلك الزَّمان، ولكن هذا لم يمنع من ظهور علامات فارقة بينهما، مثل: ضَيْفَةُ خاتون بنت العادل، التي تمكَّنت من حُكم حلب لفترة طويلة وصيَّة على حفيدها الناصر. ومع أنَّه يُفترَض أن كثيرات من بنات الملوك الأيوبيَّة كُنَّ في أوضاع أسرية تُتيح لهنَّ ممارسة السِّياسة لو كُنَّ قد أُعِدَّن لها، فالسُلطان صلاح الدِّين خَلَّف سبعة عشر ولداً ذكراً، ولم يُخَلِّف سوى بنت واحدة هي مُؤنسة خاتون، تزوَّجها ابن عمِّها الملك الكامل بن العادل⁽³⁾، ويبدو أنَّها كانت من بين أصغر أولاده، ولم نسمع أنَّها قامت بأي دور سياسي، أو حتَّى اجتماعي، لا في مملكة أبيها، ولا في مملكة زوجها، مع أنَّها ابنة سُلطان وزوجة سُلطان. كذلك كان للملك الأشرف ابن العادل ابنة وحيدة هي ملكة خاتون، ولم يكن له أي ابن ذكر، ولم يُفكَّر الأشرف في إعدادها للحُكم، ولم يُخصَّص لها شيء من ملكه، واكتفى بأن أوصى لها بهاله، وبيع بعض الأوقاف، ومع وجود المال الكثير لدى هذه الأميرة الأيوبيَّة، وعيشها في كنف أبيها، الذي هو من أشهر وأقوى ملوك عصره، ومن ثَمَّ؛ لدى زوجيَّها: ابن عمِّها الملك الجواد يُونس بن معدود ابن العادل، الذي بعد أن طلقها تزوَّجها ابن عمِّها الآخر المنصور بن الصَّالح إسماعيل بن العادل، وهي أُم ولدَيْه⁽⁴⁾، ومع ذلك؛ فلم تقم بأي دور سياسي، أو اجتماعي واضح، ممَّا يدلُّ على عدم تقبل الملوك الأيوبيَّة لفكرة تسلُّم المرأة لأي عمل سياسي.

1- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 161، وشفاء القُلوب، أحمد الحنبلي، 231.

2- زبدة الفكرة، الدَّوادار، 80، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 216.

3- مُنتخبات التواريخ، صاحب حماة، 309، وشفاء القُلوب، أحمد الحنبلي، 271.

4- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 160.

ولكننا لا نعدم بعض النساء الأيوبيات اللواتي لعبن أدواراً سياسية، أو اجتماعية، متنوعة، ومتفاوتة التأثير لسبب، أو لآخر، ونحن يُشار إليهن في هذا السياق:

صَيِّفَةُ خَاتُون بنت الملك العادل⁽¹⁾:

بعد وفاة الملك العزيز بن الظاهر غازي صاحب حلب عام 634 هـ 1237م، عهد بالملك لولده الناصر يوسف، وكان عمره نحو سبع سنين، فتولت الوصاية عليه جدته لأبيه صَيِّفَةُ خَاتُون⁽²⁾ أم الملك العزيز، فكانت المرجع في الأمور كلها⁽³⁾. ومع أن صَيِّفَةَ خَاتُون حكمت بشكل مباشر، لكنّها فضّلت أن تكون هناك واجهة من الرجال تُمارس سلطتها من خلفهم، فشكّلت ما يُشبه مجلس حُكم لمملكة حلب، مؤلّف من الأمير شمس الدّين لؤلؤ الأميني، والأمير عزّ الدّين عمر بن علي، ووزير الدولة جمال الدّين القفطي، إضافة إلى مُتولي القلعة، التي تضمّ خزنة المملكة، وأموالها⁽⁴⁾. وكان الوساطة بين مجلس الحُكم وصَيِّفَةَ خَاتُون، هو طواشيها جمال الدولة إقبال الخاتوني، الذي "يحضر بينهم للمُشاورة، فإذا اتَّفَقوا على شيء دخل إلى جدّة الناصر، والدة العزيز، وعرفها ما اتَّفَق عليه الجماعة، فتأذن في فعله"⁽⁵⁾. ولم تكتف صَيِّفَةُ، بالإشارة بفعل الأمور واتخاذ القرار الأخير، بل كانت "العلامات على التواقيع والمكاتبات إليها وحدها، فهي التي تمضيها بخاتمها"⁽⁶⁾، "فكانت الأمور كلها منوطة بها"⁽⁷⁾. وأضيفت إلى اسمها الألقاب الرفيعة، فكانت

1 - صَيِّفَةُ خَاتُون: 582 - 640 هـ، توفيت في قلعة حلب، ودُفنت فيها تجاه الصفة التي دُفن فيها ولدها الملك العزيز، ولم تُدفن في التربة التي بنّتها في منطقة الفردوس خارج باب المقام، وهي من روائع الأبنية الأيوبية، وأكبرها، فيها مسجد ورباط. (أحياء حلب وأسواقها، خير الدّين الأسدي، 299).

2 - ممّا يلاحظ هنا أنّه عندما تُوفي زوج صَيِّفَةَ خَاتُون، الملك الظاهر غازي، وترك ابنه الصغير مُحمّد ولياً لمعهده، تشكّل مجلس للوصاية، لم يكن فيه لصيفة وُجود، وتمّ تجاهلها تماماً على العادة السائدة، ولكنّها كانت الشخصية الأقوى والمرجع الأخير في حالة الوصاية على حفيدها، فلماذا لم تأخذ الدور نفسه في الوصاية على ابنها؟! هل كان ذلك لوجود شخصية طغريل القويّة؟! وهو مُتولي القلعة والمتحكّم بالسلاح والأموال، أم لعدم نُضج صَيِّفَةَ بما يكفي لتولي هكذا مهام؟! ونحن نرجّح الاحتمال الثاني.

3 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 158.

4 - زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 677 ومُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 118.

5 - زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 677.

6 - زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 677.

7 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 118.

نُحَاطَب: "بالستر العالي الخاتوني"⁽¹⁾، ولكن تسميتها الشائعة كانت: الصاحبة⁽²⁾، وهي اختصار لصاحبة الستر العالي.

ونستطيع القول إن الصاحبة أصبحت حاكمة حلب الفعلية، فعندما أشار الملك الكامل صاحب مصر بتولية الصّالح بن الظاهر على عسكر حلب، وأرسل إليه خلعة دليل تقديمه له، رفضت الصاحبة تسليمه الخلعة، وأبعدته خارج حلب، فقد استشعرت منه خطراً؛ لأنّه الابن الأكبر لزوجها الملك الظاهر، ولم ترضخ لمشية أخيها الكامل سلطان بني أيّوب وقتها⁽³⁾. وكذلك لم ترضخ لضغط الجار القوي، كيكافوس سلطان سلاجقة الرّوم، الذي سعى ليكون الأفضل بن صلاح الدّين أنابكاً للملك الناصر، وقد أيّد هذا الرأي عددٌ كبيرٌ من كبار أمراء العسكر الحلبّي⁽⁴⁾، لكنّ الصاحبة تصدّت لأمراء العسكر، وشتّت شملهم، ولم تلتفت لطلبات سلطان السلاجقة، ولم ينسّ كيكافوس هذا الرّفص لصَيِّفَةَ خَاتُون، لكنّه أجّل أمرها حتّى تورّطت في الهُجُوم على حماة عام 635 هـ فعندما كانت مُعظم عساكر حلب تُحاصر مدينة حماة، أرسل كيكافوس إليها يطلب إقامة الخطبة، وضرب السكّة باسمه، فلم تقبل الصاحبة، وأرادت أن لا تستجيب له، لكنّ المُستشارين نصحوها بالقبول، فوضّع حلب العسكري في غاية الخطورة، فلم تشدّد في رأيها عندما اقتنعت، ووافقت على طلبات كيكافوس سلطان سلاجقة الرّوم⁽⁵⁾.

وظهرت رباطة جأش الصاحبة عندما هُزمت جيوش حلب أمام فرقة الخوّارزمية، الذين اندفعوا نحو حلب، فتصدّت الصاحبة لتنظيم عملية الدفاع عن حاضرة ملكها، وأعطت تعليماتها إلى مُقدّمي البلد، ووزّعت عليهم المهام لحفظ الأسوار والأبواب⁽⁶⁾. ويبدو أن الصاحبة قد انخرطت في العملية السياسيّة تماماً، وتصرّفت كملكة حقيقية لمملكة حلب، حتّى إنّها كانت في الأزمات تُحلّف

1 - زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 677.

2 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 119 - 190، 428 - 288.

3 - زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 677.

4 - زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 339.

5 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 190.

6 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 284.

الناس والمُلوك المُجاورين "لها ولابن ابنها النَّاصر صلاح الدِّين" (1)، فيحلفون (1). ولم تُسلم صَيِّفة خاتون الحُكم لابن ابنها طوال حياتها، فحكمت ست سنوات، واستمرت في ملكها حتى ماتت عام 640 هـ 1242م، فاستردَّ حفيدُها عرشه، وحكم مُستقلاً، وكان عُمره نحو ثلاث عشرة سنة (2).

غازية خاتون بنت الكامل:

عندما تُوِّفِي الملك المُظفر محمود صاحب حماة عام 642 هـ 1244م، خلفه ابنه المنصور مُحمَّد، وله من العُمر عشر سنين، فتولَّت الوصاية عليه والدته غازية خاتون، التي شكَّلت مجلس وصاية مُؤلَّفاً من سيف الدِّين طغرل، وشيخ الشُّيوخ شرف الدِّين بن مُحمَّد، والطواشي مُرشد، والوزير بهاء الدِّين بن التاج، وكان جميعهم يرجعون إليها (3)، وحفظت المُلك لابنها حتى بلغ أشده، فسلمته مقاليد الأُمور، وكانت من أحسن الناس سيرة ورُحداً وعبادة (4). تُمَّ توفيت في قلعة حماة عام 656 هـ 1258م.

الست السوداء:

وتُعرَف بنت الفقيه نصر (5)، ويبدو أن السواد اسم فقط، ولا يدلُّ على سواد بشرتها؛ إذ لم يُشر أحد إلى ذلك، وهي جارية تزوّجها الملك الكامل، وأنجبت له ابنه العادل الثاني أبا بكر (6)، وكان لها دور كبير في نزاع الصَّالح أيُّوب الابن الأكبر للملك الكامل من ولاية العهد، وتولية ابنها العادل مكانه؛ حيث سلَّطته أبوه في حياته عام 630 هـ 1233م، "وكان الكامل يُحبُّه، ويُحبُّ أمه حباً زائداً" (7). وعندما أرسل الملك العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب القاضي بهاء الدِّين بن شدَّاد إلى الملك الكامل عام 626 هـ 1229م، يطلب منه أن يُزوِّجه إحدى بناته، وافق الكامل على تزويجه

ببنته فاطمة خاتون (1)، وفاطمة أمها الست السوداء (2)، وهذه المُصاهرة لا يُمكن أن تكون بعيدة عن تدبير ومآرب الست السوداء، أحبَّ زوجات الملك الكامل إلى قلبه.

ويبدو أن الست السوداء ظلَّت تتدخَّل في الحياة السَّياسية في أيام حُكم ابنها في مصر، كما كانت تفعل في عهد زوجها الكامل، فعندما أمسك النَّاصر داوُد الصَّالح أيُّوب، واعتقله في الكرك، وهو مُنافس ابنها العادل، وكان مُتوجَّهاً لأخذ مصر منه، عملت والدته العادل وليمة عظيمة، "عمل فيها ألف رأس غنم" (3). وعندما عاد داوُد، وأطلق الصَّالح أيُّوب من سجنه، "عظم ذلك على العادل، وعلى والدته" (4). وبمُقابل الدور الفعَّال للست السوداء؛ نُلاحظ على العكس من ذلك أن أم الملك الصَّالح أيُّوب، وهي جارية سوداء اسمها ورد المني (5)، لم يكن لها أيُّ تأثير على الملك الكامل، وبالتالي؛ لم يكن لها أيُّ ذكر خلال سلطنة ابنها الصَّالح أيُّوب.

ست الشام:

بنت أيُّوب وأخت السُّلطان صلاح الدِّين، كانت مُتزوَّجة من عُمر بن لاجين، وهو من رجال دولة السُّلطان صلاح الدِّين، وقد أنجبت له حُسام الدِّين مُحمَّد، الذي تُوِّفِي في حياتها. وبعد وفاة زوجها عمر طلبها ابن عمِّها ناصر الدِّين مُحمَّد، وتزوَّجها، فأقامت في حمص حتى وفاته. برزت ست الشام بالخدمة الاجتماعية، فقد كانت كثيرة البرِّ والإحسان، بابها ملجأ للقاصدين، ويُعمل بدارها من أنواع الأدوية كلَّ سنة بألوف الدنانير لتُفرَّقها على الناس، كما بنَّت مدرستين بدمشق، وأوقفت عليهما أوقافاً كثيرة. تُوِّفِيَتْ بدمشق عام 616 هـ 1219م، ودُفِنَتْ بترتبتها الحسامية (6).

1- زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 665.

2- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 142.

3- شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 373.

4- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 166.

5- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 180. وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 7 / 367. ويُقال بأنَّها كانت مُولَّدة سمراء، اسمها

ورد الندي. (مرآة الجنان، اليافعي، 4 / 73).

6- ذَيْلُ الرُّوضَتَيْنِ، أبو شامة، 119.

1- مُفَرَّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 288.

2- مُفَرَّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 313.

3- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 173.

4- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 196.

5- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 176.

6- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 142.

7- السُّلُوك، المقرئزي، 1 / 367.

أمة اللطيف:

"الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح الحنبلي"⁽¹⁾، زوجة الملك الأشرف موسى صاحب حمص، وهي إحدى شهيرات عصرها بالعلم، فقد "كانت فاضلة، ولها تصانيف"⁽²⁾، ومن أثارها مدرسة دار الحديث بدمشق، التي وقَّفتها على الخنابلة⁽³⁾. وبعد أن تزوجها الأشرف أخذت منه حمص، فسافر بها إلى تلّ باشر والرحبة، فتوفيت هناك عام 653 هـ 1255م⁽⁴⁾. ورُبما كان زواجه بها له علاقة بأموالها أكثر من علاقته بعلمها، فبعد موتها ظهر لها من الأموال ما يساوي ستّائة ألف دينار، غير الأملاك والأوقاف⁽⁵⁾.

المصاهرات السياسيّة:

يبدو أن عادة التقارب بين الأسر عن طريق المصاهرة كانت تُطبَّق - أيضاً - في عالم السياسة، فكثيراً ما أحكمت العلاقات السياسيّة بعض الزيجات، وينطبق ذلك داخل تفرّعات الأسرة الأثويّة، أو بينها وبين الأسر المالكة التي تربطها بها علاقة محتاج إلى توطيد، وطالما كان عقد الزواج يدلّ على الوُدّ المتبادل بين مملكتين، أو يطلبه ملك من ملك أقوى منه ليضمن دعمه، أو ليتّقي مطامعه. ولم يكن هناك شرط مُحدّد لإتمام المصاهرة بين البيوتات المالكة، وأمرائها، إلّا شرط الإسلام، فكلّ أصهار الأسرة الأثويّة من خارج أبنائها كانوا مسلمين، أمّا إصهار الأثويّة إلى بيوت مالكة أخرى؛ فكان لا ينطبق عليه هذا الشرط وفقاً لتعاليم الشرع الإسلامي. فقد قام الملك العادل بالتفاوض مُطوّلاً مع ملك إنكلترا ريتشارد من أجل الزواج بأخته⁽⁶⁾. وكذلك تزوّج الملك الأوحّد بن العادل صاحب خلاط ابنة ملك الكرج إيواني، وهي مسيحيّة، وبعد وفاته؛ تزوّجها أخوه الملك الأشرف⁽⁷⁾.

1 - البداية والنهاية، ابن كثير، 13 / 182.

2 - الدارس، النعمي، 2 / 63 و 87.

3 - البداية والنهاية، ابن كثير، 13 / 182.

4 - الدارس، النعمي، 2 / 63.

5 - شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 230. ويذكر الحنبلي أن أمة اللطيف كانت مختصة بخدمة ربيعة خاتون بنت أيوب، وحصل لها منها أموال عظيمة، ولما توفيت ربيعة عام 643 هـ وقعت أمة اللطيف بالمصادرة، وحُبست بالقلعة ثلاث سنين، ثُمَّ أُلقيَتْ، فتزوّجها الأشرف موسى صاحب حمص عام 646 هـ، فبيل أخذ حمص منه بقليل. راجع: (شفاء القلوب، 230).

6 - الفتح القسبي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار 13 / 377.

7 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 2001، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 113، وذيل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار 20 / 131 - 146.

المصاهرات السياسيّة داخل البيت الأيوبي:

كان من أشهر المصاهرات التي جرت بين بيوتات الأسرة الأثويّة:

المصاهرة بين العادل والظاهر:

أوثق السلطان صلاح الدّين صلته بأخيه العادل، فزوَّج ابنه الظاهر غازي من غازية خاتون ابنة العادل⁽¹⁾، ولكن غازية خاتون مالبثت أن ماتت، وصادف أن ساءت العلاقة بين الظاهر غازي وعمّه العادل، وجرت بينهما حُرُوب ومناوشات وحصار بدمشق، ثُمَّ استتبّ الأمر للعادل، وبرز كأكبر قوّة أثويّة بعد استيلائه على مصر ودمشق والكرك وبعض الجزيرة، وخاف الظاهر أن يفعل به عمّه ما فعله بأخيه الأفضل صاحب دمشق، ويسلبه مُلكه، فأرسل يطلب منه المودعة، واعترف له بالسلطنة، وكإقرار على صفاء النفوس؛ أرسل الظاهر قاضي عسكر السلطان صلاح الدّين السّابق وقاضي حلب الحالي ابن شدّاد إلى عمّه العادل ليخطب له ابنته صَيِّفة خاتون عام 608 هـ، فوافق العادل "وزوّجها، وزال ما بينهما من الإحن"⁽²⁾.

مصاهرات الملك الكامل:

كان للسلطان الملك الكامل عدداً من البنات، كُنَّ مجالاً رجباً لمناوراته السياسيّة مع مُلوك وأمراء آل بيته، وذلك من خلال تزويجهنّ، أو الوعد بذلك. وكان أوّل مَنْ طلب ودّ الملك الكامل عن طريق مُصاهرته هو الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب، فقد سَيَّر القاضي بهاء الدّين بن شدّاد إلى الملك الكامل وهو على حصار دمشق عام 626 هـ 1232م؛ ليطلب منه يد ابنته فاطمة خاتون، فوافق الملك الكامل، وتمّ عقد النكاح⁽³⁾.

وبعد أخذ الملك الكامل لدمشق من أبْن أخيه الناصر داود بن المعظم سار إلى حماة، وسلّمها إلى الملك المظفر، بعد أن نزع أخيه عنها، وانطلق الكامل إلى بلاد الجزيرة، فلحقه المظفر، وطلب منه

1 - شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 327.

2 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 114، وزُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 20 / 632 - 633، وشفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 328.

3 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 665.

يد ابنته غازية خاتون⁽¹⁾، فوافق الكامل، وعقد له⁽²⁾، وتبدو هذه المصاهرة في ظاهرها نوع من ردّ الجميل، ولكنها - في حقيقة الأمر - تأكيداً لأمر المظفر، ودعماً له بتقريبه من سلطان البيت الأيوبي.

أمّا ابنة الملك الكامل الثالثة؛ فهي عاشوراء خاتون، وكان الملك الناصر داود قد طلبها من عمّه الكامل، فوافق، وكتب له عليها، وعندما كان الكامل في حملته ضدّ سلاجقة الروم شعر أن إخوته وآل بيته من بني أيّوب قد تأمروا عليه، فعاد وقد نغم على داود لاعتقاده بأنّه كان صاحب دور كبير في تأليبهم عليه، فأجبره على طلاق ابنته، فطلقها داود⁽³⁾. ولما اكتمل تحالف ممالك الشام عام 634 هـ 1237م ضدّ الملك الكامل صاحب مصر، بقي الناصر داود متأرجحاً بولائه، فحاول الملك الأشرف زعيم حلف الشام أن يستميله، فعرض عليه أن يزوجه ابنته الوحيدة، وأن يجعله وليّ عهده، لكنّ داود رفض العرض، وذهب إلى مصر، "فُسّر به الكامل، وجدّد عقده على ابنته عاشوراء، التي طلقها منه"⁽⁴⁾.

وهكذا يتضح أن معظم المصاهرات ضمن الأسرة الأيوبيّة كانت نابعة من مصالح سياسيّة وأغراض لمصلحة الأب، أو الزوج، أو كليهما معاً أحياناً.

المصاهرة بين بيتي حماة وحلب:

في عام 643 هـ 1246م، أرسل الملك المنصور صاحب حماة رسالة إلى حلب، يطلب العقد على ابنة خالته عائشة خاتون بنت العزيز محمد بن الظاهر⁽⁵⁾، أخت الملك الناصر الشّاني. وفي عام 645 هـ 1247م، أرسل المنصور رسالة لاصطحاب عروسه إلى حماة، فوصلتها، ومعها أمّها فاطمة خاتون بنت الملك الكامل⁽⁶⁾، وهذه المصاهرة هي تقوية لمركز حماة، فمملكة حلب الأيوبيّة هي - الآن - أكبر قوّة في الشام، وتقوية الأواصر مع بيتها الحاكم فيه الكثير من الدعم لمملكة حماة.

المصاهرات الأيوبيّة خارج الأسرة:

كان أوّل من أصهر إلى الأسرة الأيوبيّة من حكام شمال العراق هو مظفر الدّين كوكبوري صاحب إربل، فقد طلب يد ربيعة خاتون أخت السلطان صلاح الدّين، فزوّجها إليه، وقد أنجبت له بنتاً، تزوّجها - فيما بعد - زنكي بن أرسلان شاه الأتابكي⁽¹⁾. في عام 607 هـ 1210م، طلب صاحب الموصل الأتابك نور الدّين أرسلان شاه يد ابنة الملك العادل، وتزوّجها⁽²⁾.

ويبدو أن زواج الملوك الأيوبيّة من خارج الأسرة، وإصهارهم إلى أسر حاكمة أخرى كان قليلاً جدّاً، أو شبه معدوم، وذلك بسبب سيطرة الأسرة الأيوبيّة على أغنى الممالك، وأقواها. ولكن الخلافات بين ملوك البيت الأيوبي دفعت ببعضهم للتحالف مع أسر حاكمة أخرى، وتقوية هذا التحالف بالتزوّج منهم، كما كان حال الملك المعظم بن العادل صاحب دمشق، الذي تزوّج أخت ناصر الدّين أرتق صاحب ماردين عام 620 هـ 1223م⁽³⁾، والتزواج بين الأسرة الأيوبيّة وبني أرتق يعود إلى عصر السلطان صلاح الدّين، الذي زوّج ابنة أخيه العادل إلى قطب الدّين سقمان بن نور الدّين محمد صاحب ماردين⁽⁴⁾.

ولعدم وجود بنات مؤهلات للزواج لدى السلطان صلاح الدّين، عند تأسيسه لدولته، فإنّه كان يزوّج بنات أخيه العادل من أبناء الأسر الحاكمة التي يريد توثيق الصلة بها، فبعد تزويجه ابنة العادل لصاحب ماردين زوّج ابنة أخرى للعادل إلى قيصر شاه بن قليج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، وذلك عندما قدم على السلطان عام 587 هـ 1191م. وأنجبت هذه الزوجة لقيصر شاه ابناً أصهر هو - بدوره - إلى خاله الملك الأشرف، وكتب له الأشرف عليها بخران عام 629 هـ 1232م⁽⁵⁾، ويبدو أنّه مات عنها، أو طلقها؛ لأنّها رافقت أبيها الأشرف إلى دمشق، وتزوّجت هناك ابن عمّها الملك الجواد يونس بن ممدود.

1 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 121.

2 - ذيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار 20 / 147.

3 - النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 315، والمنصوري، ابن نظيف، 97.

4 - لقد وهم ابن شدّاد في حديثه عن الملك المسعود ركن الدّين مودود بن محمود بن محمد بن قرا أرسلان، عندما قال: "كان والده مزوجاً بابنة السلطان الملك العادل، فلما مات والده أساء إليها". (الأعلاق الخطيرة، 3 / 520)، والصحيح أن قطب الدّين الذي تزوّج ابنة العادل هو عمّه، وليس أباه.

5 - المنصوري، ابن نظيف، 235.

1 - غازية: شقيقة المسعود صاحب اليمن، ووالدة المنصور صاحب حماة، وأخيه الأفضل ابن المظفر.

2 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 145.

3 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 155.

4 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 159.

5 - مفرج الكروبي، ابن واصل، 5 / 357.

6 - شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 422، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 176.

واستمرَّ سلاجقة الرُّوم في طلب مُصاهرة الأسرة الأيوبيَّة، فقد كانت الأسرتان تُشكِّلان أكبر قُوَّتين في المنطقة، فأرسل غياث الدِّين كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم إلى صَيفة خاتون صاحبة حلب يطلب منها أن تزوجه غازية خاتون بنت الملك العزيز، التي هي أخت الملك النَّاصر وليَّ العهد، على أن يتزوَّج الملك النَّاصر أخت غياث الدِّين⁽¹⁾. وفي عام 652 هـ 1254م، تمَّ الزواج. فقدمت ملكة خاتون، بنت كَيْقُبَاز وأخت كيخسرو صاحب الرُّوم، إلى زوجها الملك النَّاصر صاحب حلب⁽²⁾، وهي ابنة خالة والده العزيز⁽³⁾، وبالوقت نفسه وصلت غازية خاتون بنت الملك العزيز مُحمَّد إلى بلاد الرُّوم، وتزوَّجها كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم⁽⁴⁾.

وعندما استمال الملك الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب الخوارزمية، وهو في الجزيرة أراد ربط الأواصر معهم، فزوَّج مُقدَّمهم بركة خان بأخته من أمِّه. ولجأ الخوارزمية إلى الأسلوب نفسه، فعندما خرجوا على أيُّوب، عام 643 هـ 1246م بعد تمكُّله مصر، كاتبوا مملوكه وقائد جيوشه رُكن الدِّين بيرس، واتَّفقا معه، ولتأكيد الاتِّفاق زوَّجوه منهم. كذلك عندما اتَّصل الخوارزمية بالنَّاصر داود بن المُعظم صاحب الكرك، ووافقهم على أن يكون معهم ضدَّ الصَّالح أيُّوب، ولتأكيد التعاون بينهم زوَّجوه منهم⁽⁵⁾.

وبعد أن قامت دولة المماليك بمصر، وقضوا على حُكم الأيوبيين فيها، أراد الأمير فارس الدِّين أقطاي الحمددار، أكبر المماليك، وأقواهم، والمتطلِّع إلى السُّلطة، أن يُصهر إلى الأسرة الأيوبيَّة، ليدعم مركزه في مصر في صراع قدَّر أنه واقع لا محالة من أجل الانفرد بالسُّلطة، وهكذا زواج سيؤمِّن له غطاء شرعياً، سيكون مُنافسوه محرومين منه، فطلب يد أخت الملك المنصور صاحب حماة، وهي بنت الملك المظفر محمود، وتمَّت الموافقة، وخرجت العروس من حماة صوب مصر، "مما جعل المعزَّ أيُّوب مُنافسه على السُّلطة يُعجِّل بقتله"، وعادت العروس إلى حماة⁽⁶⁾.

- 1- رُبَّة الحلب، ابن العديم، 686 / 2.
- 2- المختصر، أبو الفداء، 190 / 3.
- 3- رُبَّة الحلب، ابن العديم، 686 / 2.
- 4- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 422.
- 5- السُّلوك، المقرئ، 322 / 2.
- 6- ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 58 / 1.

المبحث الرابع:

سُكَّان المناطق الفرنجيَّة في ساحل الشَّام

لم تكن الحُدُود السِّياسية في الشَّرق العرَبِي زمن الحُرُوب الصَّليبيَّة لها أيُّ معنى ديني، أو عرقي، حتَّى إنَّه لم يكن هناك خطَّ حُدُود واضح، أو محدَّد على الأرض، وعلى العموم؛ كان الفرنج - في غالبية أيَّامهم - محصورين في شريط ساحلي ضيق ومُتقطع أحياناً.

كما أن الفرنج لم يُشكِّلوا في مناطقهم أكثرية سُكَّانية، فقد كان مُعظم السُّكَّان من المسلمين والمسيحيين المحليين، الذين استمروا في تعاطي أعمالهم السابقة، وخاصَّة زراعة الأرض. بينما عاش الفرنج كسادة إقطاعيين، أو فُرسان مُقاتلين في المُدن والحُصُون، التي شكَّلت نقاط تحكُّم وسيطرة. فعندما لا تكون لهم قُوَّات في الميدان نراهم يعيشون خلف أسوارهم⁽¹⁾.

كان المسلمون يُسمُّون شريط الساحل الشَّامي الطراز الأخضر، وذلك لارتفاع مُعدَّل أمطاره، وخُصُوبة أرضه⁽²⁾، وحتَّى ضمن هذا الشريط، فلم يُكوِّن الفرنج دولة واحدة، بل انقسموا - بعد استيطانهم مُباشرة - إلى وحدات سياسيَّة، فالحملات الفرنجيَّة جمعت جُنُوداً من أُصُول مُختلفة، ظلَّت مُتميزة، وأسست دُولاً مُنفصلة، بل ومُتعارضة المصالح والأهواء في كثير من الأحيان. وصحيح أنَّهم تمتَّعوا بوحدة دينيَّة، لكنَّهم كانوا من عناصر قومية وعرقية شتَّى، لكلٍّ منهم لغته وعاداته، فقد غلب على سُكَّان مملكة القُدُس البرغنديون، وعلى إمارة أنطاكية النورمان، وعلى إمارة طرابلس البروفنسيون، وقد انتقلت خلافات المؤسَّسين إلى أبنائهم، ومن ثَمَّ؛ إلى أحفادهم. ويبدو أن الانقسام والتجزئة بين المسلمين قد انتقلت بعدوى الجوار إلى الفرنجة، حتَّى إنَّ أمراء ومُلوَّك من الفرنجة قد تحالفوا مع أمراء ومُلوَّك من المسلمين ضدَّ حلف مُقابل من فرنجة ومُسلمين.

- 1- فنُّ الحَرْب، سميل، 109 و 486، William of Tyr, p. 486.
- 2- قال الحريري يصف وضع الشَّام قبل معركة حطين: "هذا؛ وسواحل لُشام كُلُّها بيد الفرنج، وهو الطراز الأخضر، وهو ما بين جبل لُبْنان وبحر الرُّوم". (الإعلام والتبيين، 97).
- وقال الوزير العزيزي يُوُسُف بن المُجاور يمدح السُّلطان صلاح الدِّين: هذا الطراز الأخضر استفتحت، فزهى بثوب من علاك مسجف (عُيُون الروضتين، أبو شامة، 178 / 2).
- وُروي - أيضاً - أن أحدهم قال: وسيفتح البيت المُقدَّس بعدما يطوي الطراز، ويقتل قيصراً.
- والطراز هو بلاد الساحل المُصطَفَّة على البحر من الداروم جنوباً حتَّى بلاد أنطاكية شمالاً. (عُيُون الروضتين، أبو شامة، 179 / 2).

ولم يكن الانقسام السياسي للكيانات الفرنجية في الشرق هو الأساس لتوزيع القوى العسكرية فيها، فقد كانت الطوائف العسكرية متعددة ومتنوعة الولاءات، فأَي مملكة أو إمارة فرنجية لم تكن تُسيطر على كل القوى العسكرية المتواجدة على أراضيها، فالملك أو الأمير له قُوَّاته الخاصَّة، وهناك قُوَّات أخرى تُقيم على أراضيها بشكل دائم أو مؤقت، فمن القُوَّات الدائمة الطوائف الرهبانية المُقاتلة؛ مثل: الاسبتارية، والدَّاوية، والتَّبوتون، وغيرهم.

كذلك كانت تُقيم في المُدن السَّاحليَّة الكُبرى الجاليات التَّجاريَّة؛ مثل: البنادقة، والجنوية، والبيازنة، والتي كانت تُشارك في القتال لدعم الفرنجة بشكل فعَّال، لكنَّها كانت مُتصارعة مُتنافسة، بل ومُتحرابة فيما بينها، ولا تخضع لسلطة البلد الذي تُقيم فيه، فقد حمَّتهم الامتيازات والحقوق الخاصَّة، التي - غالباً - ما حصلوا عليها. أمَّا القُوَّات المؤقتة؛ فهم الحُجَّاج المُقاتلون المتدفِّقون فرادى وجماعات، فقد شكَّلوا قوى عسكريَّة لا يُستهان بها في كثير من الأحيان، لها قاداتها، ونُظُمها، واستراتيجيَّتها الخاصَّة، وأهمُّ ميزاتهم الحماسة الدِّينيَّة، والاندفاع للقتال.

كما أن مملكة القُدس لم يكن لها إلا سيادة اسمية على الإمارات الأخرى، إضافة إلى استقلال طائفتي الدَّاوية والاسبتارية عن أي سلطة حتَّى سلطة ملك القُدس، وانتمايتهم إلى البابا مباشرة، وإعلانهم بأنهم لا يخضعون إلا لأوامره، وقد أدَّى صراع هاتين الطائفتين فيما بينهما⁽¹⁾ وصراعاتها على السيطرة التي بلغت حدَّ الاقتتال الداخلي أحياناً، إلى وقوعها في كثير من الانتكاسات السياسيَّة والعسكريَّة، وكانت من عوامل نهاية سيطرتهم في الشرق.

التقسيمات الاجتماعيَّة للفرنج في سُورية:

عندما وصلت الحملة الفرنجيَّة الأولى إلى بلاد الشَّام كانت تضمُّ جمعاً واحداً من الناس، وإنَّ اختلاف أَصُولهم، لكنَّ أهدافهم واهتماماتهم واحدة، ويتعاون كبير وانسجام فائق بينهم تمكَّنوا من احتلال مناطق واسعة من بلاد الشَّام، لكنَّ ما إنَّ أقاموا فيها حتَّى أُصيبوا بعدوى التَّمزُّق من

جيرانهم، وأعدائهم المُسلمين، فانقسموا إلى إمارات، ودُولات، وفئات، وطوائف⁽¹⁾، وقد يكون لطبيعة أرض الشَّام وتباينها الجغرافي دور مهمُّ في هذا الانقسام بين الفرنجة.

وبتقادم الزمن ظهر جيل فرنجي جديد، له صفات خاصَّة، ورُبَّما كان من أهمِّ ميزاته زوال رُوح التَّعصُّب الأعمى، الذي ميَّز رجال الحملة الأولى، ولأن تدفُّق الحُجَّاج المُقاتلين الوافدين من أوروبَّا لم ينقطع، فقد انقسم المُجتمع الفرنجي في الشَّام إلى طبقتين كبيرتين مُتمايزتين⁽²⁾، مع وجود طبقة صغيرة، لكنَّها كانت واضحة، وهي طبقة الفقراء³، والتي لم تكن تهتمَّ - على الأغلب - إلا بتأمين قُوَّتها، وهي خليط من الطبقتين التاليتين:

1- **الوافدون:** وهم القادمون الجدد، وغالباً؛ هم من الحُجَّاج المتأجَّجين بالحماسة الدِّينيَّة، والراغبين في القتال، لكنَّ؛ - في الغالب - تكون إقامتهم مؤقتة.

2- **البلديون:** أو البوليَّانز، وهم أبناء الجيل الثَّاني والثَّالث وما بعدهم، ممَّن وُلد على أرض الشَّام، وتأثَّر بعادات أهلها، وتقاليدهم، وحضارتهم. وقد انتشرت فكرة خاطئة مفادها أن البوليَّانز هم أبناء زيجات مُحتلطة بين الفرنج والسُّكَّان المحليَّين من مسيحيين ومُسلمين، ولكن ذلك تنفيه إشارات واضحة من مؤرَّخي الحملات المعاصرين لها، والتي تؤكد بأنَّ البوليَّانز تحدَّروا من صليبيين أصليين، وهم جيل صليبي جديد، وأن تسمية البوليَّانز مشتقة من كلمة فرنسية تعني صغير الحيوان (pullus - Polain)⁽⁴⁾.

لقد بلغ الخلاف بين البلديين والوافدين إلى درجة العداء الصريح، فبعد تنويع ملك فرنجي على مملكة القُدس من الوافدين انتشرت أنشودة تقول:

1- مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصليبيَّة، د. سهيل زكَّار من الموسوعة الشاملة، 1 / 11 - حول الاستيطان الفرنجي، راجع: Prawer. Colonization activities in the Latin kingdom of Jerusalem, P.P.: 1063-1108.

2- المصدر السَّابق، الصفحات نفسها.

3- المصدر السَّابق، الصفحات نفسها، كانت تُسمَّى طبقة الفقراء: Tafurs. قارن بها كلمة: ظفر وظفران باللهجة العاميَّة في بلاد الشَّام.

4- راجع: دراسة مرغريت مورغان لذيول وليم الصُّوري، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكَّار 8 / 239.

1- العلاقات بين العرب والفرنج، زكي نقَّاش، 31.

"على الرغم من البلديين

لدينا ملك من الوافدين

إن هذا البغض وهذا الحقد

سيجعلنا نفقد مملكة القدس"⁽¹⁾.

وقد أحسَّ العرب بهذا الانقسام في مجتمع الفرنجة، فكانوا يُسمُّون الوافدين: الغربا⁽²⁾، وأحياناً؛ البُخريين⁽³⁾، نظراً لقدومهم من البحر. ولكن العرب المسلمين لم يستفيدوا مطلقاً من هذا الانقسام، فلا شيء كان يُوحِّد البلديين والوافدين مثل عداوتهم للمسلمين.

كذلك كان البلديون يشعرون بحاجتهم الماسة لقوة الوافدين لاستمرار الحُرْب المقدَّسة، فالوافدون هم وقودها، وهذا ما ساعد على استمرار الحياة المشتركة بينهما، وحال دون حُدُوث انعزال إمارات الفرنج عن أوربا نهائياً، فكلَّما أهدق الخطر بالإمارات الفرنجية زادت التصاقاً بأوربا، ويقيناً بأهميَّة الوافدين.

لذلك؛ عندما تكونُ مجتمع فرنجي جديد يضمُّ الأجيال التي وُلدت في سورية لم ينفصل عن أوربا، ولم يندمج في الشَّرق الإسلامي، بل كانت استمرَّت الهوة الواسعة بالفصل بينهما؛ بحيث لا يُمكن لأحد أن يربط بين طرفيها⁽⁴⁾. ورُبَّما كان من مُكرَّسات هذا الانفصال بقاء الفرنجة في سورية طبقة حاكمة، وبقاء مُعظم السُّكَّان السوريين مسيحيين ومُسلمين الخاضعين لحُكم الفرنجة مُتمتِّعين بكلِّ مُقوِّمات وجودهم من حيث اللغة، والدين، والعادات، وكانت مسألة تبعيَّتهم إلى الفرنجة مسألة الوقت الذي يحتفظ فيه الفرنجة بقوَّتهم، وبكلِّ بساطة؛ كانت تعود المياه إلى مجاريها بالنسبة للسُّكَّان عندما يُهزم الفرنجة، وتنسحب قوَّاتهم.

أمَّا عن استشراف الفرنجة البلديين؛ فهو أمر طبيعي جدًّا، تفرضه طبيعة الحياة في الشَّرق، فقد استخدموا الأطباء والطبَّاحين والحَدَم والحرفيين من أهل البلاد، كما لبسوا الثياب الفضفاضة المحليَّة في بُيوتهم، وزَيَّنوا قُصُورهم بالفسيفساء والزُّجاج الملَوَّن، وصدحت فيها الأطيَّار، وتخلَّلَتها النوافير، واستخدموا الصابون للنظافة، والسُّكَّر للتخلية، واستساغوا الأطباق الشَّرقيَّة⁽¹⁾، وأنقن قسم منهم - وفيهم بعض الأمراء - اللُّغة العربيَّة، فكانوا يُترجمون بين الوافدين والمُسلمين⁽²⁾.

ونُلاحظ أن العديد من الصداقات قد عُقدت بين رجال من الفرنج البلديين وبين المُسلمين، ورُبَّما من أشهرها ما تحدَّث عنه أسامة بن مُنقذ من صداقات له مع أمراء وفُرسان من الفرنج⁽³⁾.

ولكن كل ذلك ما كان ليُجعل الفرنج البلديين سوريين، أو يُبعدهم عن أوروبيَّتهم، وما كان استشراف البلديين وصداقاتهم مع أندادهم من المُسلمين إلَّا حوادث فردية وقضايا سطحية⁽⁴⁾، فلا الفرنج امتلكوا الجرأة لينعتقوا من رُوحهم الصَّليبيَّة نهائياً، ولا المُسلمين قبلوهم كأمر واقع، أو مُحتمل وجوده، بل رفضوهم على الدوام، ولم يعترفوا بوجودهم في أيِّ حال من الأحوال، وخير مثال هنا على عدم قبول المُسلمين للفرنجة - رغم اضطرابهم للخُضُوع لهم بالقوَّة أحياناً - هو موقف قاضي مدينة جبلة منصُور بن نبيل الذي كان مُقرباً لبوهيموند أمير أنطاكية، ومحلَّ ثقته، ومع ذلك؛ فما إنْ لاحت قُوَّات صلاح الدِّين على مقربة من مدينته، حتَّى خرج إليه، وساعده على تحريرها، ويقول ابن الأثير مُعلِّلاً موقفه: "فَحَمَلَتْهُ الغَيْرَةُ لِلدِّينِ عَلَى قُصْدِ السُّلْطَانِ"⁽⁵⁾.

ومع كلِّ الاتِّفاقيات والمُهدنات والمُفاوضات والتبادُل التجاري، فقد ظلَّت النظرة الإسلاميَّة للفرنج على أنَّهم غرباء، احتلُّوا بلاد المُسلمين، ويجب طردهم، وبالرغم من فترات الضعف التي مرَّ بها المُسلمون، إلَّا أنَّهم - في النتيجة - حصدوا ثمار رفضهم، وعدم قبولهم للأمر الواقع، وطرَدوا الفرنجة نهائياً من الأرض العربيَّة.

1 - ذيل وليم الصُّوري، مخطوطة ليون / 828 (1184 - 1197)، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زُكَّار 8 / 300.

2 - راجع: مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 1 / 140.

3 - النُؤادر السُّلْطانيَّة، ابن شدَّاد، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زُكَّار 15 / 222.

4 - فنُّ الحُرْب، سميل، 88.

1 - 105 - 120 p.p.: Monro, The Kingdom of Crusaders

2 - ابن شدَّاد، النُؤادر السُّلْطانيَّة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زُكَّار 15 / 198 + 222.

3 - أسامة بن مُنقذ، كتاب الاعتبار، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زُكَّار 12 / 192 + 240 + 246.

4 - فنُّ الحُرْب، سميل، 85.

5 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12 / 7.

السُّكَّانُ المحليُّون تحت سُلطة الفرنجة:

يُعتَقَد - حتَّى الآن - بأنَّ الغالبية العُظمى من السُّكَّان في الإمارات أو الممالك الفرنجية التي تأسست في سورية، كانوا من العَرَب المسيحيين، أو من المسلمين، فالفرنجة كانوا - بغالبيتهم - فرساناً ومُقاتلين شكّلوا طبقة حاكمة إقطاعية، كان وُجُود الفلاحين المحليّين ضرورياً لوجودها. وحتّى في حال توفّر أعداد من السُّكَّان الفرنجة، كما في حالة المُدُن، فوُجُود السُّكَّان المحليّين ليقوموا بالأعمال اليومية ضروري، لأن الفرنجة كانوا - غالباً - مشغولين في الحُرُوب التي تقتضي منهم حشد كلّ طاقاتهم البشرية المُقاتلة. كلّ ذلك دفع الحُكَّام الفرنجة لترك حيّز واسع من حُرّيّة العمل، ورُبّما الإدارة الذاتية، فضلاً عن قيامهم بشعائيرهم الدّينية، وممارسة عاداتهم وتقاليدهم بكلّ تسامح. إن هذا التسامح الفرنجي، والجهد الواضح من قبلهم لإقامة علاقات حسنة مع السُّكَّان المحليّين، ما كان - أبداً - بدوافع إنسانية محضة، بل كان - واضحاً تماماً - أنّه من أجل تنشيط الحَرَكَة الاقتصادية في إماراتهم، وبالتالي؛ زيادة مواردهم المالية⁽¹⁾. لكن؛ مع كلّ ذلك ظلّ السُّكَّان المحليُّون - مُسلمون ومسيحيُّون - ينظرون إلى الفرنجة كغُرباء، وقد أظهرت الأحداث أنّهم - دائماً - كانوا ينتظرون ميلان كفة المُسلمين؛ ليتحرّكوا معهم. وصحيح أن السُّكَّان المحليّين كانوا عُصراً اقتصادياً مُؤثراً في دعمه لآلة الحُرْب الفرنجية، لكن؛ عندما كان يتمكّن قائد مُسلم من إحسان الاستفادة منهم، فإنّهم كانوا يُشكّلون خطراً مُميتاً على الفرنج، ولذلك قال عنهم وليم الصُّوري: "ما من عدوٍّ أسوأ من العدوِّ المُقيم بين ظهرانيك"⁽²⁾.

1- Couiton. Medieval Panorama. P: 322 وراجع ما كتبه ابن جُبَيْر الذي زار أراضي الفرنجة ومُدُنهم عام 1184م، الرحلة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14 / 58.

2- العبارة اللاتينية هي:

"nulla enim pestis efficacior ad nucen dum quam fam liaris inimicas"
(A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr, p.109)

المُسلمون تحت حُكم الفرنجة:

لم يُحاول الفرنجة - بشكل جدّي - تحويل المُسلمين عن دينهم، مع أنّهم قد أغلقوا مُعظم المساجد الإسلاميّة⁽¹⁾، وظلّت اللُغة العربيّة مُتداولة في كلّ المناطق الفرنجية، وحتّى في المُدُن، ولم تترك اللُغات الأوربيّة - اللاتينية، أو الفرنسيّة، أو غيرها - أيّ أثر في السُّكَّان المحليّين، كما أن الموارنة - الذين كانوا أقرب السُّكَّان إلى اللاتين - فقد ظلّوا يتكلّمون العربيّة.

ويبدو أن اللُغات كانت مُتعدّدة في مناطق السيادة الفرنجية، ولم تتفوّق إحداها على الأُخرى، حتّى إنّنا نسمع أن الفرنجي كان يحتاج إلى ترجمان في طرابلس⁽²⁾، وكان كتاب ديوان التجارة في عكا "يكتبون بالعربيّة، ويتكلّمون بها"⁽³⁾.

وبشكل عام؛ نستطيع أن نقول إن السُّكَّان المحليّين لم يذوبوا في المُجتمع الفرنجي، وبالوقت نفسه، لم يكن لهم أيّ تأثير في الحياة العامّة للممالك الفرنجية، ولا في العلاقات بين الممالك الأيوبيّة والإمارات الفرنجية⁽⁴⁾.

الفلاحون المُسلمون:

يصف ابن جُبَيْر في رحلته - التي اجتاز فيها بلاد الشَّام من دمشق إلى عكا - حال الفلاحين المُسلمين تحت حُكم الإقطاعيين الفرنجة، يقول: "رحلنا من تبنين وطريقنا كلّهُ ضياع مُتصلة، وعمائر مُنتظمة، سُكَّانها كلّها مُسلمون، وهم مع الإفرنج على حال ترفيه ... وذلك أنّهم يُؤدُّون لهم نصف الغلّة عند أوان ضُمِّها، وجزية عن كلّ رأس دينار وخمسة قرايط، ولا يعترضونهم في غير ذلك. ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يُؤدُّونها، ومساكنهم بأيديهم، وجميع أموالهم متروكة لهم، وكلّ ما بأيدي الفرنج من المُدُن بساحل الشَّام على هذه السبيل، رساتيقهم كلّها للمُسلمين، وهي القرى والضياع. ... ونزلنا ضيعة من ضياع عكّة على مقدار فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من

1 - كان الفرنجة يُسمّون المسجِد: ماهومري، نسبة إلى النبي مُحَمَّد (ص)، وحولوا الكثير من المساجد في المناطق التي احتلُّوها إلى كنائس، ولكن؛ فيما بعد، أُعيد افتتاح بعضها، أو على الأقلّ، مسجد في كلّ مدينة كبيرة لصلاة الجالية الإسلاميّة التّجاريّة، وبعض السُّكَّان المحليّين من المُسلمين.

2 - الشَّرق والغُرب، كلود كاهن، 216.

3 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 274.

4 - يصف ابن جُبَيْر علاقة المُسلمين المحليّين بالفرنجة في منطقتي عكا وصور فقط.

المسلمين مُقدّم من جهة الإفرنج على مَنْ فيها من عَمَّالها من المسلمين، فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة مُقبلة⁽¹⁾.

ونستنتج ممّا ذكره ابن جُبَيْر:

1- أن الفرنجة حرصوا على عمارة الأرض واستثمارها، يقول: "طريقنا كُلُّه ضياع مُتصلة، وعمائر مُنتظمة".

2- أن كُلَّ الفلاحين في أراضي الفرنج من المسلمين، ورُبَّما هُم فلاحو الأرض القُدماء، وجدهم الفرنج فيها، فاحتفظوا بهم، يقول: "رساتيقهم كُلُّها للمسلمين، وهي القرى والضياع".

3- حرص الفرنج على استقرار الفلاحين في الأرض، والاعتناء بهم، "وهُم مع الأفرنج على حال ترفيه".

4- لم يفرض الفرنج ضرائب باهظة، بل كانت ضرائبهم مُعتدلة، يتمكنّ الفلاحون من تأديتها بسهولة ويُسر.

5- لم يتدخل الفرنج بالشؤون الداخليّة للرعايا المسلمين، "مساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم".

6- وضع الفرنج لكلّ قرية مسؤولاً من أهلها، "الناظر فيها من المسلمين مُقدّم من جهة الإفرنج". ويبدو أن أحوال هؤلاء الرؤساء كانت جيّدة جدّاً، وهُم حُرّية واسعة في التصرف، فقد استضاف مسؤول قرية صغيرة قريبة من عكا قافلة إسلاميّة، دُون أن يتحرّج من السُلطات الفرنجيّة، وكان غنياً لدرجة أنّه تمكّن من القيام بواجب الضيافة نحوهم جميعاً، "فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة مُقبلة، وأحضرهم صغيراً وكبيراً".

1- الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 14/ 61.

ولكن؛ لنا أيضاً ملاحظات على ما ذكره ابن جُبَيْر، منها:

1- هل كان كُلُّ المسلمين يلقون المعاملة نفسها في كُلِّ مالِك الفرنج؟! يبدو أن هذا الأمر مشكوك فيه⁽¹⁾.

2- هل ذكر ابن جُبَيْر ما ذكره عن حال الفلاحين المسلمين لدى الفرنج لتمجيد الفرنج؟ أم لغرض آخر؟ أم لمجرد الذّكر؟

في الحقيقة؛ لا يُمكن الجزم بأيّ جواب، لكن؛ بالتأكيد، لم يكن ابن جُبَيْر يقصد مدح مُعاملة الفرنج، وليس هُو من السّداجة؛ بحيث يُؤكّد على تلك المعلومات لمجرد ذكر حدّث سيخدم الفرنج، بشكل، أو بآخر، وهُو التّقّي المؤمن الداعي للجهاد ضدّ الفرنج، المُحرّم للتعامل معه⁽²⁾.

وعلى الأغلب؛ كانت معلومات ابن جُبَيْر صحيحة في مكانها، لكنّه ذكّرنا لتنبه حُكّام المسلمين لحُسن مُعاملة الفلاحين، وعدم فرض الضرائب الباهظة، ولتنبّه لفوائد ذلك على الدولة، وعلى السكّان. لذلك؛ يذكر ابن جُبَيْر أن مُعظم الفلاحين المسلمين في بلاد الفرنجة قد استهواهم عدلُ الفرنج، يقول: "وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم، لما يُبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين، وعَمَّالهم، لأنّهم على ضدّ أحوالهم من الترفيه والرفق، وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي من جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضدّه وعدوّه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله"⁽³⁾.

المسيحيّون المحليّون في إمارات الفرنجة:

لم يتمكنّ الفرنجة من احتواء نصارى المنطقة من عرب وسريان وأرمن وغيرهم، فقد كان الفرنجة يعدّون أنفسهم، كما قال وليم الصّوري: رعايا المسيح، ويعدّون الأمم الأخرى أبناء الضلال⁽⁴⁾، وهذا الضلال ينسحب - أيضاً - على المسيحيين الشرقيين في سورية، الذين احتكوا بكثرة

1- الشرق والغرب، كلود كاهن، 216.

2- الرحلة، ابن جُبَيْر، 280.

3- الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 14/ 61.

4- نقلاً عن وليم الصّوري (الحروب الصليبيّة - روايات شهود عيان، د. سهيل زَكَّار 401).

بالفرنجة، من خلال تواجدهم في معظم مناطق السيطرة الفرنجية، وفي مناطق القتال بينهم وبين المسلمين.

لكن؛ بشكل عام، كان دور المسيحيين الشرقيين في الحروب مع الفرنجة هامشياً ضعيفاً، وذلك لوجود فواصل مهمة بينهم وبين الفرنجة، الذين نظروا إليهم - في أحسن الأحوال - على أنهم مسيحيين هراطقة مُستعربين، ولم يعدوهم بأفضل من المسلمين، فإذا قدروا على قتلهم كان به، وإلا فسلَب كنائسهم وأراضيهم لا بأس به⁽¹⁾.

وقد نظر الفرنجة إلى مسيحيي الشرق نظرة دونية، وعدوهم شعباً غير مُحبٍ للقتال⁽²⁾، ووصف وليم الصوري السريان بقوله: "هو شعب نعتبره ضعيفاً، ومُختلاً"⁽³⁾، مع العلم أن وليم ليس من الوافدين، فقد وُلد في سورية، ومع ذلك؛ بقيت لديه نزعة التفوق كفرنجي. لكن؛ من كل ذلك يجب أن نستثني حالة المسيحيين الأرمن والمسيحيين الموارنة، والتي عاجلنا كلاً منها على حدة في هذا الكتاب.

المبحث الخامس:

العلاقات بين السُكَّان عبر الحدود

العلاقات التجارية:

قال ابن جُبَيْر في رحلته: "ومن أغرب ما يحدث في الدنيا، أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسيبهم يدخل إلى بلاد المسلمين"⁽¹⁾، وهذا دليل واضح على تقديم المنفعة الناتجة عن التبادل التجاري على الخلافات السياسية والعسكرية؛ حيث يبدو أن المسلمين والفرنج قد توصلوا إلى اتفاقيات كان الالتزام بتطبيقها أقوى من الالتزام السياسي، أو العسكري، وهذا دليل على ترسخ قيم للتعامل القائم على المنفعة المتبادلة لم يعتد عليها ذلك العصر، بدليل استغراب ابن جُبَيْر لما يحصل، ونسب ذلك إلى "الاعتدال في السياسة"⁽²⁾.

لقد كان حجم التبادل التجاري كبيراً جداً، في مقاييس ذلك الزمان، بين الإمارات الفرنجية ومملكة القدس، التي كانت تُشكّل الواجهة البحرية، وتضم الموانئ التجارية لبلاد الشام، وبين بلاد المسلمين، التي تُشكّل العمق الاقتصادي، والمنفذ المفتوح باتجاه بلاد الشرق الأقصى، ودليلنا على ذلك هو تدفق الدراهم الفرنجية الكبير على دمشق، يقول أبو شامة في أحداث عام 658 هـ 1260م: "وابتل الناس في هذه السنة بغلاء شديد، ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليافية، وكانت كثيرة الغش، وكثرت في البلد كثرة عظيمة"⁽³⁾.

وبالتأكيد؛ فإن كثرة الدراهم اليافية جاءت ثمن بضائع بيعت للفرنج. كما يُشير إلى ذلك كون كُتَّاب ميناء عكا من الفرنج النصاري "يكتبون العربية، ويتكلمون بها"⁽⁴⁾.

وكان الفرنج يتساهلون في فرض الضرائب على التجارة الداخلة إلى أراضيهم، فهي عماد حياتهم الاقتصادية، فالضريبة كانت ديناراً صورياً وقيراطاً على كل شخص يعبر الحدود إلى مناطق

1- الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 14 / 58.

2- الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 14 / 59.

3- ذيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 20 / 179.

4- الرحلة، ابن جُبَيْر، 275.

1- الشرق والغرب، كلود كاهن، 97.

2- A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr, P. 109 وفن الحزب، سميل، 97.

3- تاريخ الأعمال المنجزة فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صور، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 7 / 459.

سيطرة الفرنجة، وهو مبلغ معقول جداً بالنسبة لرُسوم ذلك الزمان، كما يقول ابن جُبَيْر⁽¹⁾. كذلك يؤكد ابن جُبَيْر على حسن المعاملة، فكان للتجار في مناطق السيطرة الفرنجية حُرِّيَّة التصرف والتنقل والإقامة؛ حيث أحبوا، فيقول: "طلب رجل من لا سلعة له، لثلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه، وأطلق سراحه، فنزل حيث شاء، وكل ذلك برفق وتؤدة، دون تعنيف، ولا حمل"⁽²⁾.

علماً أننا لا نعتقد بأن البابوات كانوا يستثنون إمارات الفرنجة في الشرق من تحريمهم المشددة للتجارة مع المسلمين⁽³⁾، ولكن؛ حتى بين أوروبا نفسها وبين الممالك الأيوبيَّة كانت التجارة تسير بدون عوائق، فواردات سورية عبر الإمارات اللاتينية كانت لا تنقطع عن أوروبا⁽⁴⁾.

كذلك لم تتوقف عن التدفق إلى أوروبا مُنتجات مصر من الكتان والسكر والخير⁽⁵⁾، والبهارات من الشرق الأقصى عبر مصر⁽⁶⁾، وبالطريقة نفسها؛ كانت واردات أوروبا تسدق على مصر وسورية⁽⁷⁾.

المناصفات:

كانت كثير من المناطق في أراض فلسطين تُسمَّى المناصفات، أو المثالثات، وهي مناطق مُتنازع عليها بين المسلمين والفرنج، ولم يستطع أيٌّ منهم السيطرة العسكرية عليها بشكل نهائي، وحتى يستفيد الطرفان، اتفقا على السماح بعمارة الأرض، واقتسام منتوجاتها، مُناصفة، أو مُثالفة، وكانت مدينة صيدا وما حولها من أكبر المناصفات بين المسلمين والفرنج، وقد اجتاز ابن جُبَيْر في رحله بطرف إحدى هذه المناصفات، وهي أراضي بانياس، فيقول: "وعماله تلك البطحاء بين الإفرنج وبين المسلمين، لهم في ذلك حدٌّ يُعرف بحدِّ المُقاسمة، فهم يتشاطرون الغلَّة على استواء، ومواشيهم

مُحتلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها"⁽¹⁾. ويقول وليم الصوري: "إن عادة اقتسام السُلطة بشكل مُتبادل بين المسيحيين والكُفَّة قد سادت لسنوات كثيرة، وكانت مائزاً تطبق في هذا الوقت، كما قُسمت الضرائب والجزية بشكل مُتبادل بينهما أيضاً"⁽²⁾.

إن هذه المناصفات والمثالثات تُشكل دليلاً على حسّ عال بالواقعية لدى الفريقين، فلولا هكذا اتفاق لبقيت مساحات واسعة من الأراضي مُعطلة عن الإنتاج، وتشرَّد فلاحوها، وتبعثروا؛ ليُشكّلوا عبئاً على هذا الفريق، أو ذاك. ولذا؛ نجد أن منطقاً خاصاً في بعض الأصعدة كان يسود تجربات الأحداث، فبالرغم من الحروب التي لم تنقطع لسنوات، وما رافقها من إغارات، وكُرٍّ، وفَرٍّ، وتحركات عسكرية كُبرى وصغرى، فقد استمرَّ الفلاحون في زراعة الأرض، ودفع الضرائب، كما كانوا يفعلون دائماً، فالحروب هنا، مع تعدُّدها، لم يُسجل أنها سببت مجاعة، وبشكل عام؛ لم يرافقها عمليات نهب كُبرى كالتى ترافق مُعظم الحروب.

1- الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 14 / 60.

2- الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 14 / 62.

3- كتاب الأسرار، مارينو سانوتو - تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 38 / 17 - 76 - 79 - 81، وجولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 40 / 359.

4- كتاب الأسرار، مارينو سانوتو - تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 38 / 71 - 145.

5- كتاب الأسرار، مارينو سانوتو - تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 38 / 69.

6- كتاب الأسرار، مارينو سانوتو - تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 38 / 68.

7- كتاب الأسرار، مارينو سانوتو - تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 38 / 71.

1- الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 14 / 60.

2- تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار 7 / 458.

القسم الثاني
مراكز القوى الداخليّة
ودورها في العلاقات الخارجيّة

الفصل الأول

دور أرباب السيف

ورجال الإدارة في العلاقات الدبلوماسية

المبحث الأول:

طوائف العسكر

كان كلُّ الأمراء وقادة الجند في حياة مؤسس الدولة الأيوبية السلطان صلاح الدين، بمن فيهم أفراد عائلة السلطان، مجرد أعوان، مع أن بعضهم لم يُخف نواياه في التطلع إلى السُّلطة العليا في الدولة، أو الاستقلال بها تحت يده من البلاد.

لكنَّ وجود شخصية القائد الذي التفَّ الجميع تحت لوائه منعت أصحاب المطامع من تحقيق آمالهم. وكان من الطبيعي أن يختلف الأمر بعد موت صلاح الدين؛ حيث ظهرت طموحات كثير من الشخصيات العسكرية، الذين كانوا قادة في الجيش، أو نواباً في بعض الإقطاعات، أو كانوا زعماء لبعض طوائف الجند، أو المجموعات القبليّة، وخاصّة من الأكراد، الذين اعتبروا أن دولة صلاح الدين هي دولتهم. ولغياب شخصية السلطان القويّة، التي كانت تُسيطر على كلِّ ما حولها، بدأت - بعد موته - تتشكّل مراكز قوى حول هؤلاء الأمراء، حيناً ضمن بوتقة العشائريّة، وحيناً آخر من خلال الولاء لشخص، مثل طوائف المماليك الأسديّة والناصريّة. ولكن هؤلاء الأمراء عملوا مُنفردين في كثير من الأحيان، ثقةً بنفسهم، وبياضيتهم العسكريّة والسِّياسيّة مع السلطان صلاح الدين، الشيء الذي يُعطيهم - وفقاً لرأيهم - الحقّ في اقتسام التركة الصّلاحيّة. فأخذوا يتجمّعون حول أولاده أولاً، وفيما بعد؛ ضدّهم مع عمّهم العادل، ثمّ ظهر منهم من عمل لنفسه بشكل مُباشر. ممّا يجعلنا نعتقد أن نظام الإدارة في الدولة الأيوبية كان يمنح قدراً كبيراً من الحرّيّة للأمراء في إقطاعاتهم، وولاياتهم، مع اشتراط الولاء للسلطان. لكن؛ بعد تجزئة الدولة بوفاة السلطان صلاح الدين ترسّخ الاستقلال الإداري للحكّام، وأصبح الولاء لسلطان البيت نسبياً ورمزياً، ورُبّما توقّف

عند حُدود الخطبة والسَّكَّة، وكانت أحسن حالات الولاء للسلطان تُترجم بدعمه بفرقة من العسكر عند الحاجة.

عندما ثوَّفِي السلطان صلاح الدين كان أمراء دولته في دمشق، من خارج العائلة، قد التقوا لمبايعة وصيِّه وابنه الأكبر الملك الأفضل، ومنهم:

حُسام الدين بشاره، مُقدِّم الجميع. وبدر الدين مودود، شحنة دمشق، وأخيه سعد الدين. وناصر الدين منكورس بن خمارتكين، أمير صهيون وبرزية. وسابق الدين عثمان بن الداية، أمير شيز وأبو قبيس. وعز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المُقدِّم، أمير بغراس وكفر طاب وفامية. وبدر الدين دلدرد بن بهاء الدين ياروق. وكل من: خشتين بن حسين الهكاري، أنوشروان الزرزاري، ميمون القصري، عز الدين أسامة الحبلي، شمس الدين سنقر الكبير، سنقر المشطوب، آيبك الأفتس، علكان، وملكان، وكل هؤلاء كانوا لا تُخبز لهم⁽¹⁾، ممَّا يعني أنَّهم بدون إمارات أو مناطق يحكمونها لحساب دولة السلطان صلاح الدين.

انقسمت دولة صلاح الدين بعد وفاته سياسياً وعسكرياً بين ثلاثة من أبنائه؛ سَنَاهم هو قبل موته، وتوَّع أنَّهم الأفضل للحفاظ عليها، وألحق بقية إخوتهم بهم كأمرء صغار. فكان الأفضل في دمشق، والعزير في مصر، والظاهر في حلب. ورافق انقسام الدولة انقسام ولاء أمراء الجيش وقُوَّاده، فظهرت - على الفور - طوائف كانت معروفة أثناء حياة السلطان، لكنَّها كانت جُزءاً من هيكلية دولته، دُونَ أن يكون لها مواقف مُنفردة. وكان المسوِّغ الشرعي لسلطة هذه الطوائف هو الجهاد، أمَّا المسوِّغ القانوني؛ فهو تكليف السلطان. ومن أهم هذه الطوائف، طائفتا الأَسَدِيَّة والصلاحية:

أ. الأَسَدِيَّة: هم ممالك أسد الدين شيركوه، وحواشيه الأكراد⁽²⁾، ويُمكن أن نُضيف لهم بعض المُتخالفين معهم، والمُنضمِّين إليهم، وقد كان مع أسد الدين شيركوه ثمانية آلاف مُقاتل لدى استقراره بمصر، خمسمائة منهم يُشكِّلون فرقة الأَسَدِيَّة⁽³⁾، وهؤلاء الخمسمائة هم من ممالك أسد

الدين، ومن مُتطوِّعة الأكراد، وكانوا قوام الفرقة المطلوبة منه مُقابل إقطاع حمص في دولة السلطان نور الدين محمود⁽¹⁾. وبعد وفاة أسد الدين الكبير تبرز ملاحظتان على الفرقة الأَسَدِيَّة:

1 - لم ينتقل ولاء الأَسَدِيَّة كما هو مفروض إلى أولاد أسد الدين، وخاصَّة أنَّه كان منهم أمير كبير مُتسوِّف للسلطنة هو الملك القاهر مُحمَّد بن أسد الدين شيركوه، فلم يلتفت إليه الأَسَدِيَّة، ويبدو أن القاهر - بالمُقابل - لم يتوجَّه نحوهم بأيِّ بادرة لاستقطابهم، ممَّا يدلُّ على أن ولاءهم بالكامل انتقل إلى صلاح الدين، كما انتقلت إليه خلافة أسد الدين في مناصب مصر، ورُبَّما لأن الأَسَدِيَّة هم من اختار صلاح الدين، ودعّمه في حُكم مصر.

2 - بسبب شخصية السلطان صلاح الدين، أو رُبَّما بسبب ظُروف الحَرْب الطويلة التي عاشها خلال حياته السياسيَّة كُلِّها، لم تظهر الأَسَدِيَّة كقُوَّة مُنفصلة، أو ذات شأن في تقرير أيِّ من أمُور الدولة الصَّلاحِيَّة، مع أنَّهم كان من المُمكن أن يُشكِّلوا قُوَّة لا يُستهان بها بحال تجمُّعهم في بدايات حُكم السلطان صلاح الدين، بل إنَّنا نستطيع القول إنَّهم القُوَّة الكُبْرَى التي قامت عليها دولته، فهم الأمراء والقادة، قبل أن يُنشئ صلاح الدين ممالكه الصَّلاحِيَّة ورجال دولته الخاصِّين به. ولكن؛ لمُجرَّد غياب شخصية السلطان المتميِّزة الأسرة، ظهرت الأَسَدِيَّة تُحاول أن تحقِّق مكانة مُتميِّزة في الدولة، من خلال اللعب على حبال الخلافات بين كبار الوَرثة أبناء صلاح الدين وعمَّهم العادل.

وكان من قوى الأَسَدِيَّة ورجالهم بعد وفاة صلاح الدين:

أ. الممالك الأَسَدِيَّة:

1. سيف الدين يازكوج: وهو مُقدِّم الأَسَدِيَّة، وكبيرهم⁽²⁾، كان يتولى منصب الحاجب بدمشق في دولة صلاح الدين⁽³⁾.

2. أبو الهيجاء السمين⁽⁴⁾: من كبار مُقدِّمي الأَسَدِيَّة، وكان صلاح الدين قد ولَّاه القُدس بعد تحريرها، واستمرَّ بها حتَّى عزَّلَه الملك العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر عام 589 هـ 1193 م.

1 - الشُّرُق الأدنى، السَّيِّد الباز العريني، 155.

1 - مُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 88 / 3، والروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 19 / 468.

2 - المنصوري، ابن نظيف، 5.

4 - راجع ما ورَدَ عنه في بحث أمراء العسكر، من هذا الكتاب.

1 - النُّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، 248، ومُنتخبات من كتاب التاريخ، ابن أيُّوب، 311، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 197.

2 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6 / 123.

3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. شهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 310.

3. عز الدين جرديك: مُقدّم الأسديّة بعد أبو الهيجاء السمين⁽¹⁾.

4. مرزوق الطشتدار: وكان كما يظهر من اسمه يتولّى منصب الطشتدار للسلطان صلاح الدين في دمشق، وقد حجّ عام 607 هـ⁽²⁾.

5. أركش: وكان يختصّ بأبي الهيجاء السمين.

ب. أمراء الأكراد:

وهم بقايا ضباط جيش أسد الدين شيركوه الكبير، وغالباً هم من جنود الحلقة غير المماليك، وقد ظهر منهم: ابن كهدان، وفخر الدين البانياسي، ومنقال الجمدار، وبهرام التاجي⁽³⁾.

ونلاحظ أن الأسديّة، في دولة صلاح الدين ودول أولاده وعمّهم، قد أصبحوا جيلاً قديماً من الأمراء الكبار، وغالباً ما كانت شهرتهم العسكرية السابقة هي سبب تمتعهم بالقوة السياسيّة، ورُبما بسبب خبراتهم الكبيرة المكتسبة، بينما - عددياً - هم أقل بكثير من مُنافسيهم الصّلاحية، وذلك بسبب موتهم بالحروب، وبعامل السنّ. بينما امتازت الفرقة الصّلاحية بعديدها الأكبر، وبتحكّم أكثر وأهمّ بمناصب الدولة التي حظّاهم بها السلطان، ويكونهم شُبّاناً أكثر من الأسديّة، وبالتالي؛ امتلاكهم للقوة، ولزّوج المغامرة.

ب. الصّلاحية: وهم مماليك صلاح الدين، وأمراء دولته، وقد أخذ صلاح الدين بتشكيل فرقة خاصّة به مُنذ أن حكم مصر، وكان قوامها - في البداية - ثلاثة آلاف وخمسة فارس⁽⁴⁾، ومنهم:

1. فخر الدين جهار كس، مُقدّم الطائفة الصّلاحية، وكبيرهم⁽⁵⁾. كان أحد حُجّاب دمشق في حياة السلطان صلاح الدين⁽⁶⁾، تُوفي عام 607 هـ 1210 م⁽⁷⁾، أو 608 هـ 1211 م في دمشق،

1 - مُفَرِّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 87، والنجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 123.

2 - دَبِيل الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 20 / 149.

3 - المنصوري، ابن نظيف، 9.

4 - مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيّة، د. سهيل زكّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 310.

5 - مُفَرِّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 711 - 208.

6 - المنصوري، ابن نظيف، 5. وغالباً ما كانت وظيفة حاجب تعني أحد قادة الحامية بدمشق.

7 - مُفَرِّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 208.

ودُفن في سفح جبل قاسيون، ويُقال له: جهار كس، أو إياز جركس، وكان يتولّى بانياس والشقيف وهونين للعادل⁽¹⁾.

2. فارس الدين ميمون القصري: "منسوب إلى قصر الخلفاء بمصر، أخذه صلاح الدين من هناك"⁽²⁾، وكان يتولّى نابلس⁽³⁾، وكان الملك الظاهر بن صلاح الدين يُعظّمه، ويحترمه أكثر من بقية الصّلاحية، لذلك نقموا على الظاهر بسببه⁽⁴⁾. عاش ميمون بقيّة حياته في بلاط الظاهر بحلب، وهو آخر من بقي من كبار الصّلاحية؛ إذ تُوفي عام 610 هـ 1213 م بحلب⁽⁵⁾، وخلف أموالاً كثيرة⁽⁶⁾.

3. فخر الدين ألتنبا الجحّاف⁽⁷⁾: كان من كبار الصّلاحية المؤيدين للأفضل بن صلاح الدين ضدّ عمّه العادل⁽⁸⁾، ولكنه كان يشكّ بنوايا الظاهر غازي بن صلاح الدين، فعمل له دعوة، ولما شرب علم من فلتات لسانه سوء نيّته تجاهه، فهرب الجحّاف من مُعسكر الأفضل والظاهر، وهم يُحاصرون دمشق، وانضمّ إلى عمّها العادل⁽⁹⁾.

4. ألبكي الفارس: قبض عليه الأفضل بمصر بعد هرب الصّلاحية منها، كان جريشاً، له مواقف تُذكر، فقد واجه الظاهر غازي، وأتهمه بالغدر علانية، وضرب أسامة الصّلاحي الذي خان طائفته، وانضمّ للعادل⁽¹⁰⁾.

5. زين الدين قراجا: من مُقدّمي الصّلاحية، "كان أميراً أديباً خيراً عاقلاً"⁽¹⁾، تُوفي بدمشق عام 604 هـ 1207 م، ودُفن بسفح جبل قاسيون⁽²⁾.

1 - دَبِيل الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 20 / 159.

2 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 115.

3 - مُفَرِّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 88.

4 - المنصوري، ابن نظيف، 18.

5 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 115.

6 - مُفَرِّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 220.

7 - المنصوري، ابن نظيف، 41 - 20، أصل الاسم تركي من مقطعين، ألتون: الذهب، بنا: نور. وقد ذكره ابن واصل باسم الجحّاد. (مُفَرِّج الكُروب، 3 / 91).

8 - المنصوري، ابن نظيف، 14.

9 - المنصوري، ابن نظيف، 20.

10 - مُفَرِّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 119.

6. علاء الدين شقير: وكان من الصّلاحيّة، الذين قبض عليهم الأفضل بعد هرب زملائهم من مصر⁽³⁾.

7. أسد الدين قرا سنقر⁽⁴⁾: ويُقال له تحريفاً سرا سنقر، وكان من حُجّاب دمشق في عهد صلاح الدين⁽⁵⁾.

8. مبارز الدين سنقر: وكان يُميّز عن قرا سنقر بإضافة الحلبي إلى اسمه، أو بتسمية سنقر الكبير، وكان - أيضاً - من حُجّاب دمشق في عهد صلاح الدين، وله ولد عُرف باسم الظهير بن سنقر، تُوفي سنقر الكبير الحلبي عام 620 هـ 1223 م⁽⁶⁾.

9. طغريل المهراني: وهو - كما يدلُّ اسمه - من الأكراد المهرانية، وقد انسحب من جيش الأفضل خلال حصاره دمشق، والتحق بالعدل⁽⁷⁾.

10. آيبك فطيس: وهو من الصّلاحيّة، الذين قبض عليهم الأفضل بمصر.

11. بهرام الرومي، وبهرام القارصي: وهما من الصّلاحيّة، الذين هربوا من عند الأفضل بمصر.

12. عز الدين أسامة الجبلي: كان من حُجّاب دمشق أيام صلاح الدين⁽⁸⁾، "ومن أجلاء الأمراء الصّلاحيّة"⁽⁹⁾. بعد وفاة صلاح الدين، وتسلم ولده الأفضل حُكْم دمشق، فارقه عز الدين أسامة إلى مصر، لأُمُور نغمها عليه، فاستقبله الملك العزيز، وأكرمه، فأخذ أسامة يُجرّضه ضدّ الأفضل⁽¹⁰⁾، وقرب الملك العزيز إليه عز الدين أسامة حتّى أصبح صاحب سرّه وحاجبه والواسطة بينه وبين عمّه العدل⁽¹¹⁾.

وبعد استتباب الأمر للعدل في الشّام، كان أسامة من جملة أمرائها، فسلمه العادل بيروت، فحصّن قلعتها عام 593 هـ 1197 م، وترك بها جماعة من الجند⁽¹⁾، فخافوا من الفرنج، وانهزموا، وبقيت القلعة خالية، فأخذها الفرنج، "فأخذ الناس يلعنون أسامة لتفريطه فيها، قال عماد الدين الكاتب:

إن بيع الحصون من غير حرب سُنّة سنّها ببيروت سامة⁽²⁾
وقال بعضهم والفرنج يُحاصرون حصن تبين يُذكّر بما فعله أسامة:

سَلِّم الحصن ما عليك ملامة ما يلام الذي يروم السلامة

فقطاء الحصون من غير حرب سُنّة سنّها ببيروت سامة⁽³⁾

ولمّا وصل الأفضل إلى حُكْم مصر، وهرب منها الصّلاحيّة، انضمّ إليهم في القدس أسامة، وكتبوا العدل⁽⁴⁾. وفي عام 596 هـ 1700 م، كان أسامة أميراً للحجّ الشّامي بتكليف من الملك العادل. وفي عام 597 هـ 1701 م، التقاه الملك الأفضل وهو منفي في صرخد، فدعاه لموافقته، فوافق معه أسامة، وحلف له، فعرفه الحال، والاتّفاق بينه وبين جماعته من الصّلاحيّة، فكتب أسامة مباشرة إلى العدل، فأخذ حذره⁽⁵⁾. وبذلك نجد أن أسامة قد خرج على طائفة الصّلاحيّة التي ينتمي إليها، وخان قضية رفاقه مع الأفضل، وانتقل إلى جانب العدل، ويسدو أن فراسته واستقراءه للأُمُور قد أوحيا له بأنّ الفوز للعدل.

ولمّا ندب العدل أسامة لمفاوضة الصّلاحيّة تصدّى له ألبكي الفارس الصلاحي، وأغلظ له القول، وضربه⁽⁶⁾، وكادت الصّلاحيّة أن تفتك به، لولا أنّه استجار بميمون القصري، وما ذلك

1- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 71 / 3.

2- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 74 / 3، رُبّما كانت ضرورة الشعر في هذا البيت التي حوّلت اسم أسامة إلى سامة هي التي جعلت كثير من المؤرّخين المتأخّرين يُطلقون عليه اسم: سامة.

3- الروضتين، أبو شامة، 233 / 2.

4- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 92 / 3.

5- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 119 / 3.

6- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 119 / 3.

1- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 175 / 3.

2- ذيل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 121 / 20.

3- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 91 / 3.

4- اسم تركي من مقطعين، قره: أسود، سنقر: صقر.

5- المنصوري، ابن نظيف، 5.

6- ذيل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 258 / 20.

7- المنصوري، ابن نظيف، 9.

8- المنصوري، ابن نظيف، 5.

9- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 39 / 3.

10- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 39 / 3.

11- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 55 / 3.

إلا حنقاً من الصّلاحيّة على خيانتهم، وهو منهم. وبعد استتباب الأمر للعادل في مصر والشّام استقرّ أسامة في حُكم قلعة كوكب، وبلدة عجلون⁽¹⁾ التي بنى فيها قلعة⁽²⁾.

وكان من المفروض أن يكون أسامة رجل دولة العادل الأوّل، ولكننا نجد أن سوء التفاهم قد استفحل بين أسامة وبين الملك المعظم بن العادل والي دمشق، فترك أسامة الشّام عام 607 هـ 1210م، وذهب إلى مصر لعند العادل "ليستريح من معاندة المعظم له"⁽³⁾. وبدلاً من تكريمه وحمايته طلب منه العادل تسليم حصني كوكب وعجلون، فرفض أسامة، ثمّ مالَبث المعظم أن وصل إلى مصر عام 608 هـ 1211م، فخاف أسامة، وهرب في البريّة نحو قلاعه في الشّام، فنبعه المعظم، وأمسكه، وسجنه في قلعة الكرك⁽⁴⁾، وتسلم المعظم حُصونه، وخرّب قلعة كوكب.

الصراع السياسي بين الأسديّة والصّلاحية:

كانت الطائفة الأسديّة ومن ينضمّ إليهم من الأكراد يكرهون العادل، لكنّ دعيتهم الضرورة إليه⁽⁵⁾، فالصّلاحية كانوا مؤيدين للأفضل في صراعه مع عمّه العادل. ففرضوا - بذلك - موقفاً على الأسديّة لا يرغبون به، فمن المعروف أن "الفرقة الأسديّة والأكراد كانوا محييين للملك الأفضل"⁽⁶⁾، ولكنّ في الحقيقة، ونتيجة لاستقراء الأحداث، نجد أنّهم - جميعاً - كانت محبّتهم الأولى وولاؤهم الأوّل لأنفسهم، فقد كانوا يميلون حيث تميل المصالح والمكاسب، وكان تجمعهم ضمن طائفتي الأسديّة والصّلاحية لتشكيل قوى كبرى، أولاً للتصدّي للطائفة المنافسة، ومن ثمّ لإحداث تأثير أقوى، وتحقيق مكاسب أكثر.

فعزّ الدّين أسامة رأى أن مصالحه مضمونة أكثر مع العادل، فخرج عن الصّلاحية، وأيد العادل، بل إنّنا نستطيع أن نقول إنّ كان سبباً قوياً من أسباب تفوّق العادل على أبناء أخيه. واشترط

جهازكس على الأفضل أربعين ألف دينار، قبض منها ثلاثين ألف، ولم يقبل قراجاً بأقلّ من أخذ صرخد من الأفضل ثمناً لتأييدهما له في حربه ضدّ عمّه عام 597 هـ 1201م⁽¹⁾.

ولكنّ من ناحية أخرى، نجد أن الواقع السياسي الممزّق من جهة، وشخصيّات أبناء صلاح الدّين الذين لم يكن بينهم من يرقى لخلافة والده من جهة أخرى، كان لهما دور مهمّ في تصرّفات الأسديّة والصّلاحية غير الملتزمة، أو التي تتّصف بعدم الوفاء. فقد كان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدّين ضعيف الشخصية، حتّى تمكّن جهازكس مُقدّم الصّلاحية من السيطرة عليه، فعدا الحاكم الفعلي للدولة، ممّا أدّى إلى نقمة الأسديّة، الذين انفصلوا عن جيش العزيز أثناء تحرّكه نحو الشّام لأخذها من أخيه الأفضل، والتحقوا بدمشق.

وبعد موت العزيز صاحب مصر استدعت الأسديّة الملك الأفضل لحكمها، فهرب الصّلاحية من مصر، وعادوا مع العادل إليها، على أن يكون أتباعاً للمنصور بن العزيز، فقام الأسديّة بالمزاودة على الصّلاحية، وحسّوا للعادل عزّل المنصور، والاستقلال بالأمر تقريباً إليه، وإبعاداً للصّلاحية، فخلعه العادل، وتسلمن، ولما دعا ميمون القصري جماعته للوقوف ضدّ العادل أجابوه: "إنّنا قد افترضنا بين الناس بأننا نقيم في كلّ يوم ملكاً، ونعزل ملكاً، ثمّ إلى من تُسلم الأمر؟ الأفضل ما فيه رجاء، وباقي إخوته غير الظّاهر ليست لهم في النفس عظمة، والظاهر فما يُمكنه أن يُخلى بلاده، ويصير إلينا"⁽²⁾.

وانتهى أمر الطائفة الصّلاحية، بموت مُقدّمها الكبار قراجا وجهازكس وأسامه، "وصفت حُصونهم للملك العادل والمعظم من بعده"⁽³⁾.

1 - مُتخبات من كتاب التاريخ، ابن أيّوب، 311.

2 - تقع عجلون على جبل عوف، نسبة لقبيلة عوف من جرم من قضاة (إمارة الكرك، يوسف غوانمة، 184).

3 - المنصوري، ابن نظيف، 62.

4 - المنصوري، ابن نظيف، 76-68 ومفترج الكروب، ابن واصل، 209/3.

5 - النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6/123.

6 - مفترج الكروب، ابن واصل، 3/87.

1 - المنصوري، ابن نظيف، 16.

2 - مفترج الكروب، ابن واصل، 3/117.

3 - مفترج الكروب، ابن واصل، 3/209. وراجع: السُّلوك، المقرئ، 1/293.

المبحث الثاني:

أمراء العسكر

ساهم عدد من قادة الجند وأمراء العسكر - بشكل أو بآخر - في العلاقات الدولية للسلطنة الأيوبية، وكان من أكثرهم تأثيراً:

1. أبو الهيجاء السمين:

كنيته أبو الهيجاء⁽¹⁾، ولقبه حُسام الدين، ولكنه اشتهر بالسمين؛ "لأنه كان كثير السمن"⁽²⁾، فقد قيل إن بطنه إذا ركب يصل إلى عنق الفرس⁽³⁾. ويتنسب أبو الهيجاء إلى قبيلة من الأكراد تُسمى المهرانية⁽⁴⁾، التي كانت مساكنها بالقرب من بلدة إربل⁽⁵⁾، واستطاع أبو الهيجاء أن يكون مقدّم طائفة الأكراد بكاملها في الجيش الأيوبي⁽⁶⁾، وحليفاً قوياً لأمراء الطائفة الأسديّة⁽⁷⁾، ثمّ مقدّماً لها⁽⁸⁾.

رافق أبو الهيجاء السلطان صلاح الدين في حروبه منذ أن دخل الشام، وكان معه في الجزيرة عام 578 هـ 1191 م، عندما ضمّ معظم مَدُنْها وقلاعها إلى دولته. ولما فتح صلاح الدين بلدة: حديثة نصيبين، ولّى عليها أبو الهيجاء السمين، وتابع تقدّمه نحو الموصل، "ولما عاد إليها لقيه أهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين، باكين من ظلمه، فأنكر عليه ظلمه، وعزله عنهم، وأخذه معه"⁽⁹⁾، وإن دلت هذه الحادثة على شيء فإنّها تدلّ على أن أبي الهيجاء شخصية عسكرية، يعرف بشؤون القتال،

1- ويجعلها الراوندي: "أبو الهيج"، وهو تصحيف، وربما كان ذلك بفعل الترجمة، راجع: راحة الصدور، الراوندي، 540.

2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 125 / 12.

3- ذيل الروضتين، أبو شامة، 11، والنجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 141.

4- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 47 / 3، وَزَيْدَةُ الْحَلَبِ، ابن العديم، 5، 2 / 605. ويقول ابن الأثير إنّه من الأكراد الحكيمة، راجع: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 125 / 12.

5- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 125 / 12.

6- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 47 / 3.

7- زَيْدَةُ الْحَلَبِ، ابن العديم، 2 / 605، ومُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 47 / 3.

8- النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 123.

9- الكامل، ابن الأثير، 488 / 11، ومُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 2 / 124.

ولا علاقة له بأمور الحُكْم وسياسة الرعية، ويبدو أنّه تصرّف مع أهل حديثة نصيبين كأنّهم مجموعة من الجند بإمرته، ممّا دفعهم للتظلم إلى السلطان، الذي أدرك الخطأ بتعيينه، فعزله، وأعادته إلى صفوف الجيش، وهو مكانه الطبيعي.

ونستنتج أن أبا الهيجاء كان شخصية عسكرية قاسية، وهذا سرّ نجاحه في الجيش وتزعمه لطائفة مُحاربة، أمّا في الإدارة؛ فالأمر يحتاج لمواهب أخرى يبدو أنّها لم تكن متوفرة لدى أبي الهيجاء. لكنّ هذه التجربة الإدارية لن تكون الأخيرة، فبعد موت السلطان صلاح الدين في دمشق عام 589 هـ 1193 م، استمرّ أبو الهيجاء أميراً من أمراء الجيش، الذي انتقلت قيادته إلى أولاد صلاح الدين، وانضمّ أبو الهيجاء إلى الملك العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر، فقد بايعه بعد وفاة والده، وحلف له، ووثق به الملك العزيز، "وما كان يظنّ أنّه يحثّ في يمينه، وأنّه تصدر منه مخامرة عليه، واجتمعت عليه الأمراء الأسديّة، وخوفوه من الملك العزيز، ولم يزالوا به حتّى أجابهم إلى مفارقتهم، والانضمام إلى الملك العادل والملك الأفضل"⁽¹⁾.

دخل أبو الهيجاء بقوة في الصراع على السلطة، فقد كاتب الملك الأفضل، وطلبه مع عمّه العادل إلى مصر، بعد أن عمل هو والأسديّة على تفريق العسكر عن العزيز حتّى تخلّى عنه الأمراء⁽²⁾. ولما تحرّك الأفضل من قاعدة حكمه دمشق، لأخذ مصر من أخيه العزيز ومعه عمّه العادل عام 591 هـ وصل الأفضل إلى القدس، وكانت مع العزيز، فعزل نائب العزيز فيها عزّ الدين جردبك، وولّى عليها أبو الهيجاء السمين⁽³⁾. وهذه الولاية لأبي الهيجاء على القدس، المدينة ذات الأهميّة الاستثنائية في الدولة، دليلاً على تقدّمه وعُلوّ منصبه، وفي الحقيقة؛ لم نتمكن من سماع أيّ أخبار عن كيفية إدارة أبي الهيجاء للقدس الشريف، لأنّه كان مشغولاً عنها بالصراع بين الأفضل والعزيز وعمّهما، فقد رافق جيش الأفضل والعادل إلى مصر، تاركاً القدس مع نوابه⁽⁴⁾. وبعد الاتفاق بين العادل والعزيز عاد الأفضل من مصر ومعه أبو الهيجاء السمين⁽⁵⁾، الذي بقي في القدس مقرّ ولايته الجديدة.

1- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 47 / 3.

2- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 51 / 3.

3- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 52 / 3.

4- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 52 / 3.

5- زَيْدَةُ الْحَلَبِ، ابن العديم، 2 / 606.

وفي العام 592 هـ 1196م، وبعد فشل الأفضل في أخذ مصر، وعودته إلى دمشق، تحرّك العزيز من مصر في هجمة مُعاكسة على دمشق، وكانت معه الطائفة الصّلاحية مُنافسو الأسديّة، "ولمّا وصل الملك العزيز إلى القُدس وبه أبو الهيجاء السمين، وكان خائفاً من الملك العزيز الذي "عزم على منازلته"، فطلب أبو الهيجاء تسليم القُدس "على أن يرحل بهاله، فأجيب إلى ذلك، وتسلّم الملك العزيز منه القُدس" (1)، "فرحل أبو الهيجاء السمين والمهرانيّة والأسديّة، وساروا إلى دمشق" (2).

وفي عام 592 هـ 1196م، تمكّن العزيز من أخذ دمشق من أخيه الأفضل، وكان ذلك انتصاراً للطائفة الصّلاحية، التي التفت حول العزيز وعمّه العادل، على الطائفة الأسديّة، التي التفت حول الأفضل، ويبدو أن أبا الهيجاء عرف أن أيام عزّه قد ولّت مع نفّي الأفضل إلى صرخد، وقرّر مُفارقة الشّام، فتوجّه شرقاً، وعبر الفُرات نحو الموصل، وهناك طلبه ديوان الخلافة إلى بغداد، فسار نحوها، ووصلها في عام 593 هـ 1197.

"قدم حُسام الدّين أبو الهيجاء السمين بغداد، وخرج الموكب للقائه، ودخل أبو الهيجاء في زيّ عظيم، فرتب الأطلاب على ترتيب الشّام، وكان في خدمته عدّة من الأمراء، وكان معه ولد أخيه عزّ الدّين كور الفرس، وجاء هو بعد الكلّ في العدّة الكاملة والسلاح التّام، وخرج - أيضاً - أهل بغداد للقائه، وكان رأسه صغيراً، وبطنه كبيراً جدّاً؛ بحيث كان بطنه على رقبة البغلة، وكان قد رآه عند الخريبة رجل كواز، فعمل في الساعة كوزاً من طين على هيئته، وسبقه، فعلقه في الشّوق، فلمّا اجتاز به ضحك، ثمّ عمل - بعد ذلك - أهل بغداد كيزاناً سمّوها: أبو الهيجاء السمين على صورته.

وأكرمه الخليفة، وأقام له الضيافات، ثمّ أمره أن يُجرّد جماعة من أصحابه مع عسكر الخليفة إلى همدان، فجرّد جماعة، فلمّا بعدوا عن بغداد، نهبوا خزانة الخليفة، وقتلوا جماعة من عسكره، ومضوا إلى الموصل والجزيرة، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد، فنقل الخليفة أبا الهيجاء إلى دار عند النّظاميّة كانت لسلطان دمشق مُجير الدّين آبق، ووكل به. ثمّ خلع عليه بعد ذلك" (3)، "وأُكرِم إكراماً كثيراً،

1 - مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 70 / 3.

2 - زُبدة الحلب، ابن العديم، 2 / 605.

3 - دَبَل الرّوضتين، أبو شامة، 11، والنّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 141.

ثمّ جُهِز مُقدّماً على العساكر البغدادية إلى همدان، فسار إليها" (1). وكان قد "طلب أمير العلم في بغداد وحسام الجاندار ومعين الكاشي نائب الوزير إلى الخليفة أن يُكلّف أبا الهيجاء السمين بالقُدوم إلى همدان" (2)، فقد كانت الاضطرابات تعمّها، والقوى المتصارعة على السّلطة فيها كلّ يوم لهم موقعه. فكتب الخليفة إلى أبي الهيجاء "رسالة للسير إلى همدان، وطرّد الجمع هناك" (3)، إن هذا الطلب الشخصي لأبي الهيجاء دليل على شهرته العسكريّة الواسعة، التي وصلت بغداد، وجعلت المُتسلّطين على الخليفة فيها يُقنعونه بطلبه لإنهاء الاضطرابات في همدان. ولم يتخلّف أبو الهيجاء عن الطلب، وتوجّه على الفور من بغداد إلى همدان على رأس جيش الخليفة.

إن هذه الموافقة الفورية لأبي الهيجاء، والتحرّك الفوري بدّون أيّ استطلاع للمنطقة التي سيقود العمليات العسكريّة فيها، أو أيّ دراسة للقوى المتواجدة هناك، إن كان ذلك يعتبر دليلاً على ثقة قويّة بالنفس وشجاعة نادرة، لكنّه لن يكون تصرّف قائد مُحنّك، ولن يكون محمود العواقب.

"فلمّا وصل أبي الهيجاء مع جُنوده إلى همدان، حاصروا الملك أوزبك، واستولوا على همدان بلحظة واحدة" (4)، وخدّت الفتنة (5)، وهذا النصر الخاطف لا شكّ أن عامل المفاجأة قد لعب فيه دوراً حاسماً، إضافة إلى شجاعة قائد الحملة، لكنّ الأمور بخواتيمها، فقد "هجم مياجق على همدان، واشتبك مع أبي الهيج السمين، ودارت الحُرْب مُدّة يومين، وهرب أبو الهيج" (6)، ونتيجة لهذه الهزيمة، التي كلّفت ديوان الخلافة مبالغ كبيرة مع عدد لا يُستهان به من جندها، ساء موقف أبي الهيجاء تجاه الديوان والخليفة، "فخاف أبو الهيجاء من الديوان، ولم يُمكنه المقام، فعاد يُريد إربل؛ لأنّه من بلدها، فتوفّي قبل وُضوله" (7)، في عام 594 هـ 1198م، "وكان أميراً شجاعاً مقداماً عارفاً مُتجملّاً سيوساً" (8). ولم يختَر أبو الهيجاء لنهايته سوى بلاده ومسقط رأسه، ومع كلّ الأُمجاد،

1 - الكامل، ابن الأثير، 12 / 125.

2 - راحة الصّدور، الراوندي، 540.

3 - راحة الصّدور، الراوندي، 540.

4 - راحة الصّدور، الراوندي، 540.

5 - راحة الصّدور، الراوندي، 541.

6 - راحة الصّدور، الراوندي، 542.

7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 125.

8 - النّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 145.

التي كانت له في الشام، فلم يقصدها؛ لأنه يُدرك أن قاعدته السياسية فيها قد انتهت مع نهاية الملك الأفضل، الذي كان يُمثل الظل الباهت لأبيه السلطان صلاح الدين.

2. ابن المشطوب:

هو عماد الدين أبو العباس أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد بن أبي الهيجاء بن عبد الله بن أبي الخليل مرزبان الهكاري⁽¹⁾، فهو كُردي من الأكراد الهكارية⁽²⁾، "كان أميراً كبيراً وافر الخزيمة عند الملوك، وكان عالي الهمة، غزير الجود، واسع الكرم، شجاعاً، أبي النفس، تهابه الملوك، له وقائع مشهورة في الخروج عليهم"، ويُعدُّ واحداً من أبرز أمراء السلطان صلاح الدين⁽³⁾، كما كان سيّد الأكراد الهكارية، وزعيماً مطاعاً لهم، حتّى لُقّب بملك الهكارية⁽⁴⁾. وقد ولد ابن المشطوب سنة 575 هـ 1179م؛ تقديرًا⁽⁵⁾.

والمشطوب هو والده أبو الحسين سيف الدين علي، لشطبة كانت بوجهه، "وكان أميراً شجاعاً، صابراً في الحروب، مطاعاً في قبيلته، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر في المرات الثلاث، ثم عاد بعد سلطنة صلاح الدين إلى البلاد الشامية"⁽⁶⁾، فأصبح من أكابر أمراء السلطان صلاح الدين، "وكان يُسمّى في الدولة الصلاحية بالأمير الكبير، ولم يُشاركه أحد في هذا الاسم"، وقد ربّه صلاح الدين في عكا لما خاف عليها من الفرنج مع بهاء الدين قراقوش، وبعد استيلاء الفرنج عليها تخلّص من الأسر، والتحق بالسلطان، ولكنه توفّي في العام نفسه 588 هـ 1197م، وصُلّي عليه في المسجد الأقصى⁽⁷⁾.

ظهر ابن المشطوب على ساحة الأحداث السياسية، مثل مُعظم أمراء العسكر، بعد وفاة السلطان، وبدء الخلافات بين أولاده وعمّهم العادل على اقتسام التركة. كان الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب قد ورث إقطاع ثلثي نابلس، وذلك بعد وفاة والده الأمير سيف الدين علي، الذي كان له إقطاع نابلس بكاملها، لكن؛ بعد وفاته قام السلطان صلاح الدين برصد ثلث إقطاعها لمصالح القدس الشريف، وأقطع الباقي إلى عماد الدين أحمد⁽¹⁾، وبعد وفاة السلطان صلاح الدين كانت نابلس تتبع مملكة الملك الأفضل، الذي استقلّ بدمشق.

ويبدو أن ابن المشطوب بدأ مُغامراته السياسية باكراً، فعندما كان الملك العزيز يقود حملة مصر عام 594 هـ 1198م، لنجدة عمّه السلطان العادل بمواجهة الفرنج المحاصرين لحصن تبنين، بلغ العزيز أن مجموعة من أمراء الجند بينهم ابن المشطوب قد عزموا على قتله، ممّا اضطرّه إلى العودة مُسرّعاً نحو مصر⁽²⁾. وسكت عليها الملك العزيز، حتّى سنحت له فرصة الانتقام من ابن المشطوب، فعندما وقع الخلاف بين الملك العزيز وأخيه الأفضل صاحب دمشق قام العزيز بإقطاع نابلس، وهي إقطاع ابن المشطوب كما أنّها تتبع الأفضل صاحب دمشق، فامتنع ابن المشطوب من تسليمها لمقطعها الجديد، "فوقع الشر بين الأفضل والعزيز"⁽³⁾، ولمّا انتهى الصراع بين الأخوين، بطرد الأفضل من دمشق، فضّل ابن المشطوب الالتحاق بخدمة العادل، لذلك كان ضمن قوّاته على حصار ماردین عام 595 هـ 1199م، ولمّا اضطرّ العادل لترك الحصار بسبب توجّهه إلى مصر ترك ابنه الكامل لتابعة الحصار، ورثب معه عدداً من الأمراء من بينهم ابن المشطوب⁽⁴⁾، ولمّا فشل الحصار، وعاد الجيش، رجع ابن المشطوب ليشارك - من جديد - في الأحداث السياسية والعسكرية بين أبناء صلاح الدين وعمّهم العادل.

فبعد وفاة السلطان صلاح الدين نجد أن ولاء ابن المشطوب للملك الأفضل هو امتداد لولائه لوالده السلطان، ولذلك شارك ابن المشطوب مع ميمون القصري وقراجا بالاجتماع الذي

1 - التاريخ المختصر، ابن أبي الدم، 524، والشُّوك، المقرئزي، 1/314.

2 - من عقد الجمان، العيني، أحداث عام 594 هـ الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 59/12.

3 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/602.

4 - المنصوري، ابن نظيف، 8.

1 - الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/720.

2 - الهكارية: جبال فوق الموصل (المنتظم، ابن الجوزي، 17/7). - ويقول ياقوت: بلدة وناحية في جزيرة ابن عمر، يسكنها أكراد يُقال لهم هكارية. (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: الهكارية).

3 - دُرَرُ العقود، المقرئزي، 2/343، والأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/584، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/180، والمواظع والاعتبار، المقرئزي، 1/405، والمختصر، أبو الفداء، 3/120، ومُفَرَّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 1/16، والشُّوك، المقرئزي، 1/314.

4 - الشُّوك، المقرئزي، 1/117، وكُنزُ الدُّرر، ابن آيبك، 7/198.

5 - وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/180.

6 - النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ، ابن تغري بردي، 6/117.

7 - النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ، ابن تغري بردي، 6/117، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/180.

عُقد عام 596 هـ 1200م، واتَّفَقوا فيه وحلفوا على تولية الأفضل في مصر⁽¹⁾. ورُبَّما كان لدَعْم ابن المشطوب للأفضل دور حاسم، وذلك لأهميَّة موقع وقوَّة ابن المشطوب في الدولة، التي تجزَّأت، وانقسم أمرؤها شيعاً وأحزاباً.

وعندما سار الأفضل عام 597 هـ 1201م، بقوَّاته لأخذ دمشق، قاعدته القديمة من عمِّه العادل، كان ابن المشطوب يُقاتل بكلِّ حمية واندفاع على باب الحديد⁽²⁾. ولَمَّا شعر الأفضل بتغيُّر نية أخيه وشريكه في حصار دمشق الظَّاهر غازي، اتَّصل سرّاً بعمِّه العادل، ويبدو أن ذلك كان بتدبير ومشورة ابن المشطوب، فهو الوحيد الذي حضر اجتماعهم السَّري قُرب دمشق؛ حيثُ اتَّفقا على إنهاء الحصار مُقابل إقطاعات في الجزيرة يُعطيها العادل لابن أخيه الأفضل⁽³⁾. ولكنَّ الغريب أن نجد ابن المشطوب بعد فشل حصار دمشق يسير مع الظَّاهر غازي، الذي يبدو أنه استماله، فقد وعده بأن يُقطعه منبج وقلعة نجم، ولَمَّا كانت منبج لا تخضع لسلطان الظَّاهر، فقد سَير ابن المشطوب ثوابه لاستلام قلعة نجم، فما سلَّموها إليهم⁽⁴⁾.

وفي عام 598 هـ 1202م، بعد وُصول ابن المشطوب مع الظَّاهر إلى حلب، أخذ يُطالبه بتنفيذ وعده بإقطاع منبج، والقيام "بحصارها، وأخذها له"⁽⁵⁾، ويبدو أن الظَّاهر كان في موقف حرج أمام وعده، فهو يرغب في كسب ابن المشطوب إلى جانبه في الصراع القريب المُتوقَّع ضدَّ عمِّه العادل؛ لأنَّه يعرف أن ابن المشطوب من الذين يُعتمد عليهم في هذا الصراع، ولا يُريد - في الوقت نفسه - أن يُحكِّمه في شيء من البلاد، رُبَّما لشُكوك في نفسه، أو لخوفه من شخصية ابن المشطوب القويَّة. ولكن؛ في النتيجة، نفَّذ الظَّاهر وعده لابن المشطوب، وأخذ منبج، وأقطعها له⁽⁶⁾، لكنَّ شكَّ الظَّاهر بابن المشطوب لم يتبدَّد، فلخوفه من أن يتمرَّد في منبج، ويعصى عليه في قلعتها، قام بهذم القلعة،

وتخريب أسوارها، قبل أن يُسلِّمها إليه⁽¹⁾. ويُقال إن الملك الظَّاهر - بعد تسليمه منبج لابن المشطوب - قد بلغه أنَّه ينوي العصيان، فسار إليه بالعسكر، وهدم قلعة منبج، وسوَّرها، فغضب ابن المشطوب، وترك خدمة الظَّاهر، وسار نحو الشَّرق⁽²⁾.

وعندما سوَّى الظَّاهر أموره مع عمِّه العادل، واصطلحا، وتعاهدا، كان من مُجملَّة الأمور التي اتَّفقا عليها أن يطرد الظَّاهر ابن المشطوب، وحلف أن لا يستخدمه أبداً. وقصد ابنُ المشطوب الملك العادل، فما قبله، ولكنَّه سمح لابنه الأوحَد أيوب صاحب ميَّافارقين أن يستخدمه عنده، فما وقع بينهما اتِّفاق، فقربه الأشرف بن العادل، وأحسن إليه، وأرضاه⁽³⁾.

ويبدو أن الملك الأشرف رغب باستخدام ابن المشطوب؛ لأنَّه كان يستعدُّ للتحرُّك في الجزيرة، فَحَمَلَتْهُ على ماردين كانت وشيكة، لذلك؛ أرسل في عام 599 هـ 1203م، ابن المشطوب رسولاً إلى الملك الأفضل في سُميساط، ليدعوه إلى الحُضور بقوَّاته للمشاركة في الحملة على ماردين، وشارك ابن المشطوب مع الأشرف في الحملة، فأقطعه الأشرف رأس عين الخابور⁽⁴⁾ مكافأة على جُهوده ظاهراً، وبالتأكيد؛ كان للأشرف من وراء ذلك هدف خفي، فالكلُّ يعرف أن ولاء ابن المشطوب القديم كان للأفضل، ورأس عين كانت من مُجملَّة البُلدان التي أعطيت للأفضل في التسوية بينه وبين عمِّه، ثُمَّ أخذت منه، فأراد الأشرف الإيقاع بين ابن المشطوب وبين الأفضل بمنحه بلدة يعتقد الأفضل أنَّها من حُقوقه المسلوبة.

ولَمَّا تحركت قوَّات أتابك الموصل نحو الجزيرة للتصدِّي للأشرف، أرسل ابن المشطوب إلى والده العادل يستشيريه فيما يفعل⁽⁵⁾، وأعاد العادل ابن المشطوب بسرعة إلى ولده الأشرف مشيراً بعدم المُجازفة بقتال الأتابك، ولكن المعركة وقعت في العام نفسه 599 هـ 1203م، ولا بُدَّ أن ابن المشطوب كان أحد أبطالها، ولحقت بجيش الأتابك هزيمة شنيعة⁽⁶⁾.

1- المختصر، أبو الفداء، 3/ 101.

2- زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 602.

3- المنصُوري، ابن نظيف، 25.

4- المنصُوري، ابن نظيف، 38 - 39.

5- المنصُوري، ابن نظيف، 40.

6- المنصُوري، ابن نظيف، 40 - 41.

1- المنصُوري، ابن نظيف، 13.

2- المنصُوري، ابن نظيف، 18.

3- المنصُوري، ابن نظيف، 17.

4- المنصُوري، ابن نظيف، 20 - 21.

5- المنصُوري، ابن نظيف، 21.

6- مُفَرَّجُ الكَرْوَب، ابن واصل، 3/ 131.

وفي عام 601 هـ 1205م بعد انتصار الأشراف "خاف الظاهر غازي من قُوَّة عمِّه في الشَّام، فسبَّح إلى البلاد، وأفسد عسكراً مثل ابن المشطوب" (1). ولكن؛ سرعان ما عادت الأمور إلى نصابها، فلم نلاحظ أيَّ تحرُّك لابن المشطوب، وإن كان هذا يدلُّ على استعداده الدائم للعمل ضدَّ العادل، ورُبَّما الخُروج على أيِّ نظام أيُّوبي بشكل عامٍّ، بعدما رأى من صرايحهم على الحُكم.

وفي عام 605 هـ 1208م، "مات الأمير جناح الدِّين الهكاري أخو المشطوب، وتغيَّرت أحوال عماد الدِّين المشطوب" (2)، ولا بُدَّ أنَّه كان عَوْناً كبيراً له حتَّى تغيَّرت أحواله بعد موته، ولكن ذلك لم يُسبِّب تغيُّر موقفه من الدولة، أو تغيُّر موقف الدولة منه، فبعد مُدَّة بسيطة كان ابن المشطوب يُشارك في حملة العادل على سنجار، وحصارها، "فلَمَّا أخذ العادل بلاد الخابور أعطى إلى ابن المشطوب بلدة المجدل" (3).

مُحاولة ابن المشطوب خلع السُّلطان الكامل:

نزل الفرنج على دمياط لأخذها، من أجل السيطرة على مصر، في أواخر أيام الملك العادل، وكان نائبه في مصر ابنه الملك الكامل، الذي سارع بجمع العسكِر، ونزل مُقابل الفرنج لدفعهم عن دمياط، وكان العادل في الشَّام يجمع الجيُوش، ويُسيِّرُها إلى مصر، ولكنه تُوفي فجأةً قُرب دمشق عام 615 هـ 1218م. ولَمَّا وصلت أخبار وفاته إلى مُعسكر الكامل عند دمياط كان ابن المشطوب أحد كبار أُمراء العسكِر، فاعتقد أن الفُرصة قد لاحت له لتحقيق مشروع رُبَّما كان يحلم به من سنوات طويلة، وهو الوُصول إلى قِمَّة السُّلطة في الدولة، فعندما بلغه موت العادل عزم على خلع الملك الكامل من السُّلطة وتولية أخيه الفائز إبراهيم (4).

وكان ابن المشطوب يعتمد على كونه "من أَجَلِّ الأُمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية ينقادون إليه، ويطيعونه" (5)، وأنفق مع مجموعة من الأُمراء (6)، منهم الأمير عزَّ الدِّين

الحميدي، والأمير أسد الدِّين الهكاري، والأمير مُجاهد الدِّين (1)، كذلك أفسد قلوب جماعة من الجنُود (2)، "وكان عسكِر مصر أكثره من الأكراد وابن المشطوب ملكهم" (3)، فاجتمع مع مَنْ وافقه، وقال لهم عن الملك الكامل: "هذا صبيَّ خفيف، ولا يأتينا منه خير" (4)، "فلَمَّا بلغ الكامل دخل عليهم، فإذا هم مُجتمعون وبين أيديهم المُصحف، وهم يحلفون لأخيه الفائز، فعندما رأوه، تفرَّقوا، فخشي على نفسه منهم، فخرج" (5).

مشروع ابن المشطوب:

1 - فضَّل ابن المشطوب سلوك التأمُّر لتحقيق هدفه بالوُصول إلى السُّلطة، وبالتأكيد؛ كان يُقدِّر أنَّه مع شخصية قويَّة كالكامل لن يكون إلَّا واحداً من الأُمراء في أحسن الأحوال، لذلك فكَّر بتبديل السُّلطان، واختار أخاه الفائز لتقديره - أيضاً - أنَّه سيكون أسهل قياداً، ومطيَّة مُناسبة لحُكم الدولة بواسطته، أو حتَّى بدونه بعد مُدَّة، فهدفه من العملية هو أن "يصير له التحكُّم في المملكة" (6).

2 - اختار ابنُ المشطوب أسوأ الأوقات بالنسبة للدولة وللأُمَّة، فقد مات السُّلطان العادل، والفرنج يرابطون بقوَّات عظيمة أمام دمياط، وبالتأكيد؛ كقائد عسكري كان يعرف معنى الانقلاب السِّياسي الذي كان ينوي تنفيذه في مثل تلك الظُّروف، وانعكاسه على الموقف العسكري، وهذا ما تَمَّ فعلاً، مع أن المؤامرة قد انكشفت للكامل الذي هرب من المُعسكر إلى إشموم طناح، لأنَّه لم يعد يعرف مَنْ معه ومَنْ هو ضده من العسكِر، فلَمَّا أصبح الجيش، ولم يجدوا الملك الكامل، تركوا مُعسكرهم في العادلية بما فيه، ولحقوا بالكامل، ممَّا مكَّن الفرنج من أخذ المُعسكر بما فيه، والعُبور إلى ضفَّة دمياط، ومُحاصرتها من البرِّ والبحر، ولو تابع الكامل هربه من مصر لكانت بكاملها لقمة سائغة للفرنج (7).

1- السُّلوك، المقرئزي، 314 / 1.

2- مفرج الكروب، ابن واصل، 16 / 4.

3- كَنز الدُّرر، ابن آييك، 198 / 7.

4- كَنز الدُّرر، ابن آييك، 158 / 7.

5- السُّلوك، المقرئزي، 314 / 1.

6- السُّلوك، المقرئزي، 314، والمواظ والاعتبار، المقرئزي، 405 / 1.

7- مُفرج الكروب، ابن واصل، 16 / 4.

1- المنصُوري، ابن نظيف، 52.
2- المنصُوري، ابن نظيف، 57، ولا ندري هل هو عمُّه أم أخوه؟ فأخو المشطوب تعني أنَّه عمُّه، ثُمَّ يعود لينعت عماد الدِّين بالمشطوب، فربما كان يقصد أن المتوفى أخوه.

3- المنصُوري، ابن نظيف، 60.

4- المُختصر، أبو الفداء، 120 / 3. والسُّلوك، المقرئزي، 314 / 1.

5- السُّلوك، المقرئزي، 314 / 1.

6- المواظ والاعتبار، المقرئزي، 405 / 1.

3 - إن التصرف غير المتوقع من الكامل، بدخوله المفاجئ على المتأمرين وهم يتعاهدون، ويُقسمون، ثم مغادرته المفاجئة للمعسكر، أربك ابن المشطوب وجماعته، وأفشل الخطة بكاملها، ولكن الذي قلب ميزان القوى، ومنع من تجديد محاولة ابن المشطوب مرة أخرى، هو وصول الملك المعظم إلى أخيه الكامل في معسكره الجديد بإشموم طناح.

نفي ابن المشطوب من مصر:

علم الملك المعظم من أخيه الكامل ما يُحاوله ابن المشطوب، فتكفل له بتسوية الموضوع، وحلف المعظم أن لا ينزل عن فرسه حتى ينفيه من الديار المصرية⁽¹⁾، وركب المعظم إلى خيمة ابن المشطوب، فذهل، "وأدهشه وقوف المعظم ببابه"⁽²⁾، "فاستدعاه ليركب معه، ويسايره"⁽³⁾، "فاستمهله، حتى يلبس خفيه وثيابه، فلم يمهل، فركب معه وهو آمن"⁽⁴⁾، "وسايره إلى أن خرج من المعسكر"⁽⁵⁾، وكان المعظم قد أعدّ خمسين مملوكاً من خيرة مماليكه، ووضع عليهم عشرة من آل أيوب، على أن يلحقوا به إذا خرج من المعسكر، فلما وصلوا إليه التفت المعظم إلى ابن المشطوب، وقال له: "يا عماد الدين، هذه الديار المصرية لنا أولك؟ فقال: الله، الله، يا خوند، أنا مملوك بني أيوب، فقال المعظم: نحن ما عدنا نريدك، تبلى بغيرنا، ولا تبلى بنا"⁽⁶⁾، ثم سلمه إلى أصحابه، وأمرهم بإخراجه من مصر، ونفيه إلى الشام⁽⁷⁾، فما وجد سبيلاً للامتناع، ولا قدر على المدافعة، "فساروا به إلى الشام"⁽⁸⁾.

كانت خطة المعظم في غاية البساطة، مع أنها تحتاج إلى الكثير من الجرأة، فقوة ابن المشطوب تكمن بكونه بين أتباعه ومؤيديه في المعسكر، ومتى عزل عنهم لا يمكنه إلا التسليم. ويبدو أن المعظم قد فضل نفيه على قتله، مع أنه كان يمكنه ذلك بعد إخراجه من المعسكر، لأن القتل لن يُبرّر أمام

مؤيديه، الذين قد يقومون بعمل ما، في وقت لا يحتمل أي خلاف في صفوف جيش يواجه الأعداء. أما نفيه؛ فقد يكون له ألف تبرير، ورشما تنكشف الحقيقة تكون الأمور قد هدأت.

ابن المشطوب في الشام:

كانت أول محطة لابن المشطوب في الشام هي حماة، ولابد أنه أمضى وقته في الطريق وهو يفكر في الانتقام، وفي مشروع بديل عن مشروعه المخفق للسيطرة على مملكة مصر. وبالفعل؛ نستطيع أن نرى فيما قام به ابن المشطوب ملامح مشروع حاول تنفيذه في الشام أولاً، وفي الجزيرة ثانياً.

فعندما وصل ابن المشطوب إلى حماة كان مجرداً من جميع ماله، سوى نفقة الطريق التي أعطاها له الملك المعظم، ومن جميع رجاله سوى أربعة مماليك⁽¹⁾. ويبدو أن قصد حماة كان اختياراً من ابن المشطوب، بدليل نتائج توقفه فيها، فعند وصوله إلى حماة تلقاه صاحبها المنصور، فأكرمه، وقام بضيافته⁽²⁾، مما يجعلنا نرجح أن هناك مراسلات سابقة بينهما، أو على الأقل أن المنصور طلبه إليه وهو في الطريق من مصر، ووعدته بالدعم والنصرة. ولم يُضَيّع ابن المشطوب وقته؛ إذ سرعان ما أخذ بجمع الرجال في حماة، وكان من الطبيعي أن تنضم إليه جموع الأكراد فيها، وفي ما جاورها من البلدان، واستخدم غيرهم من المرتزقة الذين وصفهم ابن العديم بأنهم "أرباب الفساد"⁽³⁾، حتى صار جمعه حوالي ثمانمائة فارس، وألفا راجل⁽⁴⁾.

وبالتأكيد؛ كان ابن المشطوب - خلال عملية جمع الرجال - يتابع مشاوراته مع الملك المنصور صاحب حماة، الذي "ساعده بالمال والرجال على ذلك"⁽⁵⁾. ولكن؛ كان لكل من الرجلين أهدافه المختلفة، فابن المشطوب كان هدفه الواضح هو تشكيل إمارة خاصة لنفسه، تعفيه من تحكّم مملوك بني أيوب، وذلك بأن "يتغلب على بعض الأطراف"⁽⁶⁾.

1 - المنصوري، ابن نظيف، 77.

2 - مفرج الكروب، ابن واصل، 4 / 29.

3 - زبدة الحلب، ابن العديم، 2 / 649.

4 - مفرج الكروب، ابن واصل، 4 / 29، بينما يقول ابن نظيف إنه رحل عن حماة بسبعمائة فارس فقط. (المنصوري، 77).

5 - زبدة الحلب، ابن العديم، 2 / 649.

6 - مفرج الكروب، ابن واصل، 4 / 29.

1 - كنز الدرر، ابن آبيك، 7 / 198.

2 - دُرر العقود، المقرئ، 2 / 343.

3 - مفرج الكروب، ابن واصل، 4 / 18.

4 - السلوك، المقرئ، 1 / 315.

5 - مفرج الكروب، ابن واصل، 3 / 18.

6 - كنز الدرر، ابن آبيك، 7 / 199.

7 - مفرج الكروب، ابن واصل، 4 / 18.

8 - السلوك، المقرئ، 1 / 315.

أما المنصور؛ فيبدو أنه كان يرغب في زعزعة ملك أبناء العادل، وتحريض الأفضل، ودعمه لاستعادة البلاد، أو بعضها منها، وبالتأكيد؛ فإن مصلحته في هذه العملية هي كسر طوق أبناء العادل، الذي يزداد إحكاماً حوله من الجنوب والشمال. وبحال نجاح الأفضل وابن المشطوب فستكون له اليد الطولى عليهما، ويكون قد ضمن دوراً أقوى لمملكة حماة في الصراعات السياسية والعسكرية التي قدّر أنها ستقوم بعد وفاة العادل، ومع اختلاف الأهداف البعيدة بين المنصور وابن المشطوب فقد تمّ الاتفاق على الشكل الأولي للتحرك.

فبعد المساهمة الكبيرة للمنصور في إعداد القوة العسكرية التي سترافق ابن المشطوب لأبْد أنه قد وجّه، أو شجّع على الأقل، انضمام قاضي حماة الشيخ نجم الدين أبو البركات بن الشيخ شرف الدين بن عصرون إلى حاشية ابن المشطوب⁽¹⁾، حتّى يُشكّل الجانب الإداري والغطاء الشرعي في مرافقته لهذا المغامر، والتي كان المنصور يُرجّح نجاحها، فالشيخ نجم الدين هو الأداة التي أمل أن تكون فعّالة للسيطرة على نزوات ابن المشطوب، وتوجّهه وفق رغبة المنصور، ويدلنا على ذلك ما شرطه الشيخ نجم الدين على ابن المشطوب، الذي وعده بأن "يُحكّمه فيما يملكه من البلاد، وأنه لا يخرج عن رأيه"⁽²⁾، فالشيخ شرف الدين سيكون قاضي الإمارة المنتظرة، ومُستشاراً، ووزيراً ناصحاً، ومُوجّهاً لابن المشطوب، وهذا أمر شائع في الممالك الأيوبيّة، ورُبّما كان أبرز أمثله القاضي الفاضل في دولة السُلطان صلاح الدين.

ولابدّ أن الحليّين قد اتّصلا بالملك الأفضل، الذي شرط المنصور على ابن المشطوب أن تكون الحركة لصالحه، وباسمه، وطلب منه "أن يمضي بمنّ جمعه من العساكر إلى الأفضل"⁽³⁾. وكان الأفضل في هذا الوقت قد اتّفق مع سُلطان سلاجقة الرّوم على أن يحتلّ حلب، وتسلّم إلى الأفضل، وبلاد الأشرف، ويأخذها السُلطان الرّومي.

ونستنتج من مجريات الأحداث أن الأفضل وسُلطان الرّوم قد راسلا المنصور، ورُبّما اتّفقا معه، وتحالفوا، وأن دعم المنصور لابن المشطوب جاء في سياق هذا الحلف، فهو - رسمياً - يضمن

1- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4/ 29، وَزُبَيْدَةُ الْحَلَبِ، ابن العديم، 2/ 650.

2- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4/ 29.

3- زُبَيْدَةُ الْحَلَبِ، ابن العديم، 2/ 249.

الحذر بعدم مُشاركته المُباشرة ضدّ مملكة حلب والملك الأشرف، فالتتائج غير مضمونة، وبالوقت نفسه؛ يُقدّم الدعم السّرّي للأفضل وحليفه الرّومي بتجهيز ابن المشطوب مادياً وعسكرياً، وتوجيهه نحوهما، فعندما طلب المنصور من ابن المشطوب التوجّه نحو الأفضل أبلغه - صراحة - أنه هو وسُلطان الرّوم كيكائوس سيقومان معه، ويُساعدانه⁽¹⁾.

ويبدو أن هذا المشروع قد طرق أسماع الملك الأشرف، الذي سارع إلى مُراسلة ابن المشطوب لإفساد حرّكته، التي قدر أنها ستكون مُؤثّرة جدّاً، وخاصّة ضمن الأحداث المتلاحقة ضدّ أبناء العادل، فالفرنّج يُطبّقون على دمياط، وسلاجقة الرّوم يُهاجمون الجزيرة مع حليفهم الأفضل، فكتب الأشرف إلى ابن المشطوب وهو بحماة يعده بإقطاع يُرضيه، فامتنع عن القبول، لأن الاتفاق تمّ بينه وبين الأفضل وكيكاوس على قتال الأشرف، وانتزاع البلاد منه، "وكانت مُراسلته لهما قد سبقت عرض الأشرف"⁽²⁾. لقد جاء عرض الأشرف مُتأخراً، لكنّه - بالتأكيد - لاقى هوى في نفس ابن المشطوب، لأن الإمارة تأتيه بالراحة، ولكن المشكلة هي اتّفاقه المُسبق مع أعداء الأشرف، وخاصّة كونه في حماة، وتحت يد صاحبه، الذي لا يميل وهكذا اتّفاق، فقد دفع الأموال، وقَدّم الرجال لتحقيق مشروع ضدّ الأشرف.

وفي عام 616 هـ 1219م، تحرّك ابن المشطوب مع عساكره من حماة، وقد أعلن أن "وُجهته نحو الأفضل في سُميساط، ليتّفق معه ومع سُلطان الرّوم كيكائوس على قتال الأشرف، وانتزاع البلاد منه"⁽³⁾، ولكن ابن المشطوب بدلاً من أن يتحرّك بسرّية، ويعبر بلاد حلب بسرعة لينضمّ إلى حلفائه الأفضل وكيكاوس، نجد أنه بحرّكة رعناء لا تدلّ على أيّ حنكة عسكرية، يخترق علناً - وبصورة استعراضية - أراضي حلب، مُجتازاً قنسرين باتجاه نهر الساجور؛ حيثُ وجد خيل جند حلب ترعى في المروج، فاستاقها، وأقام عند الساجور⁽⁴⁾ بدلاً من أن يتحرّك بسرعة شمالاً نحو سُميساط.

1- زُبَيْدَةُ الْحَلَبِ، ابن العديم، 2/ 649.

2- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4/ 29.

3- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4/ 29.

4- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4/ 30.

وهنا؛ لا بُدَّ أن نتساءل، هل ابن المشطوب بهذه السذاجة العسكرية التي ظهر بها؟ إن كان الجواب بالنفي، فلا بُدَّ أن الأمر مرسوم ومُدبَّر، وأنه يتحرَّك وفقاً لخطة حاكها برؤية تامة مع الأشرف.

وجاء تصرُّف الأشرف ليُفسِّر سبب حركة ابن المشطوب غير المتوقعة، فنظراً لتفرُّق عساكر الأشرف في الشُّهول والمروج لرعي خيولهم، كما هي العادة في كل ربيع، نفترض أنه كان في قلعة من جُنده، "فأركب الأشرف مَنْ بحضرته من العسكر خلف ابن المشطوب، فقبضوا عليه على الساجور، ومعه الشيخ ابن أبي عصرون، وساقوهما إلى الأشرف، فعفا عنهما، وأقطع عباد الدين رأس عين"⁽¹⁾، وأعطاه زليبا ملكاً⁽²⁾. إن ما قام به الأشرف يدلُّ على أن حركة ابن المشطوب للاستيلاء على خيل حلب هي مسرحية لتبرير ما يليها، فالمراسلات بين الأشرف وبين ابن المشطوب كُلت على النجاح قبل أن يغادر حماة، وأنفقاً فيها على إخراج الأمر بهذا الشكل، فابن المشطوب خرج لينضمَّ لحلفائه، لا ليقوم بنهب الخيول كفعل بعض اللصوص، ثمَّ إنه حتَّى لم يتصرَّف كاللصوص الذين يهربون بالغنيمة بأقصى سرعة، فقد أقام ينتظر على ضفاف الساجور.

وماذا فعل الفرسان والمشاة الذين كانوا معه، والذين يُشكِّلون قوام جيش لا بأس به في المعايير العسكرية لذلك الزمان؟ لم نسمع عن أيِّ مقاومة لهم مقابل شذمة من جنود الأشرف جمعت على عجل، وتمكَّنت من القبض على قائدهم ابن المشطوب ومُستشاره الشيخ نجم الدين بسُهولة فائقة، ثمَّ يأتي العفو السريع للأشرف عن ابن المشطوب، ويزيده إقطاعاً مُهماً هو رأس عين، كلُّ ذلك يزيدنا يقيناً أن كلَّ شيء كان مدروساً ومُحطَّطاً ومُتفقاً عليه، وبأنَّ جهود الملك المنصور صاحب حماة قد باءت بالفشل، ولا بُدَّ أنه تحسَّر كثيراً على ما دفعه لابن المشطوب، ورُبَّما علَّل نفسه بفرصة أخرى.

وهنا؛ لا بُدَّ من ملاحظة ما يلي:

كان ابن المشطوب - وإن جاء عابراً - جزءاً من حركة كيكائوس لاحتلال الجزيرة وحلب، مُوظَّفاً الملك الأفضل كواجهة شرعية لأخذ البلاد باسمه، وبالتأكيد؛ كان ابن المشطوب يعي دوره في العملية، ويأمل بالكسب الكبير منها، فالوُعود كانت تنهال عليه بلا حساب، لكن؛ لماذا تجاوب مع

1- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 30/4، راجع أيضاً: زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 650/2.
2- المنصوري، ابن نظيف، 77. الإقطاع يُعطى مُقابل تقديم عدد مُحدَّد من المُقاتلين عند الحاجة، ويُمكن استرداده، أمَّا الملك؛ فلا يُمكن نزعه من صاحبه إلا بالخزب.

الأشرف، وترك حُلفاء أقوياء، تُناسبه تطلُّعاتهم ضدَّ أبناء العادل، يبدو أن غدر كيكائوس بالأفضل قد بلغ ابن المشطوب، إن لم تكن هزيمته أمام الأشرف هي السبب المُباشر في هذا التحوُّل بموقف ابن المشطوب، فاستجاب لدعوة الأشرف، وأنفق معه على إخراج عملية الانضمام إليه بشكل يحفظ له ماء وجهه، وينفي عنه صفة الغدر أمام صاحب حماة أولاً، وأمام الأفضل وصاحب الرُّوم ثانياً.

ابن المشطوب في الجزيرة:

لم يطل استقرار ابن المشطوب في إقطاعه، ولتطلُّعه إلى تحقيق مركز أكبر، أو "لما في نفسه من الغدر والفساد"⁽¹⁾، قام في عام 616 هـ 1219 م، بالخروج على الأشرف، وانضمَّ إلى أعدائه، الذين شكَّلوا حلفاً ضده. فقد اتَّفَق ابن المشطوب مع صاحب ماردين، وهو من الأعداء الدائمين للأشرف، من أجل الخروج على الملك الأشرف⁽²⁾، وسلَّم ابن المشطوب رأس عين، فعوضه عنها بإقطاع أرجيش، وبقيت زليبا ملكاً له⁽³⁾.

وفي عام 617 هـ 1220 م، راسل مُظفَّر الدين كوكبوري صاحب إربل مُلوك الأطراف يستميلهم إليه ضدَّ الملك الأشرف وحليفه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فأجابه ابن المشطوب⁽⁴⁾، "وجمع جمعاً كثيراً من الأكراد والمُفسدين"⁽⁵⁾، فطلب منه كوكبوري التحرك إلى ماردين للاجتماع مع صاحبها ومع صاحب آمد، لمنع الأشرف من العبور نحو الموصل لمُساعدتها ضدَّ هُجوم كوكبوري عليها⁽⁶⁾، فكان اللقاء عند دنيسر قُرب ماردين. ولكنَّ تحرك الأشرف السياسي كان كفيلاً بزعة الحلف قبل تحركه العسكري، فقد اتَّصل بصاحب آمد، وهو أكثر الحلفاء عرضة للإغراء، وأعطاه بلد حاني وجبل جور، ووعد بتسليم دارا له، فترك الحلفاء، وانضمَّ للأشرف، فانحلَّ الحلف، واستتبَّ الأمر للأشرف من جديد⁽⁷⁾.

1- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 70/4.
2- زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 651/2، وذَيْلُ الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 121.
3- المنصوري، ابن نظيف، 78.
4- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 242/12.
5- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 70/4.
6- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 442/12.
7- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 71/4، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 442/12.

لكنَّ ابن المشطوب أصرَّ على عصيانته، فقاد عسكره، وأتجه صوب نصيبين في جمع قليل، على أمل أن يحقق نصراً بمفرده، ولكنه واجه هزيمة غير متوقعة من والي نصيبين ابن صبره، فنفرق جنده، وهرب. وعندما كان يسير فاراً على طُرُق سنجار خرج صاحبها الأتابكي، وكان موافقاً للأشرف، فقبض على ابن المشطوب⁽¹⁾. ولكن الغريب في الأمر أن أفكار ابن المشطوب لاقت قبولاً عند صاحب سنجار، فقد استطاع إقناعه بالخروج على الأشرف، ولما طلبه الأشرف منه امتنع من تسليمه، وأطلقه⁽²⁾، فعاد ابن المشطوب من جديد حُرّاً، "فجمع معه من يُريد الفساد"⁽³⁾، ويبدو أنهم كانوا كُثراً وجاهزين دوماً للانضمام لكل خارج على النظام، فسار بهم نحو الموصل، وأخذ بنهب بلادها، وعاد إلى سنجار، ثم خرج منها ثانية للإغارة، ويبدو أن صاحب الموصل كان قد استعدَّ له، وجهَّز عسكراً هزموه، فهرب ابن المشطوب ليتحصَّن في تلٍّ أعفر، فحاصروه، فحضر لؤلؤ، وعرض عليه التَّزول بالأمان، فنزل، وأكرمه لؤلؤ، وأخذه إلى الموصل؛ حيث كان موقف العائلة مفاجئاً، فعندما دخل ابن المشطوب إلى الموصل، "فرح الناس به، ودعوا له لمحبتهم له"⁽⁴⁾، إن هذه المحبة تُحير الباحث، فرجل مثل ابن المشطوب خارج على القانون أغار على بلاد الموصل، ونهبها، وقاتل عسكرها، وتهددها، فلماذا تُحبُّ العامة؟!

وهنا؛ لا نجد إلاَّ التخمين، فلا نعتقد أن خروجه على النظام هو السبب، ولا تحديده للثُلوك الذين هم - غالباً - مكروهون من العامة، ولكن؛ على الغالب، إن الصفات التي تتمتع ابن المشطوب، وما شاع عنه من بطولة وشجاعة وذكر مُغامراته العسكرية، التي من المحتمل أنها قد تضخمت عدَّة مرَّات، هي سبب هذه المشاعر من الناس نحوه.

ولكن بدر الدِّين لؤلؤ لم يقدر شعور الناس، ولم يهتم به على الإطلاق، بل كانت حساباته السَّياسية هي الأهم، فقد غدر بابن المشطوب، وألقى القبض عليه، واعتقله، ورُبِّما كان ذلك بطلب من الأشرف الذي أرسل الحاجب علي، وهو من أكبر أصحابه، ليطلبه من بدر الدِّين، ويأتيه به،

- 1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 442/12، ومُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/71-72.
- 2- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/72.
- 3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/343.
- 4- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/72.

فسلمه لؤلؤ إلى الحاجب، الذي حمله إلى الأشرف في حَرَّان⁽¹⁾، فأمر الأشرف بإلقائه في جُبٍّ بقلعة حَرَّان عام 617 هـ 1220م⁽²⁾. وبقي ابن المشطوب في سجنه الرهيب مُدَّة عامين، حتَّى تُوفي عام 619 هـ 1222م⁽³⁾ من القمل، ومن الجوع، ومن ضغط القيود عليه⁽⁴⁾.

وكان موت ابن المشطوب بهذه الصُّورة المُرعبة هي نتيجة لأفعاله بحسب رأي بعض المؤرِّخين، فأبو الفداء يرى أنَّه "لقي بغيه، وخُرجه مرَّة بعد أخرى"⁽⁵⁾، وابن واصل يقول: "لقَّاه الله عاقبة ما فعله بالمُسلمين في دِمياط، وسعيه الرديء، إلى أن كادت ديار مصر تُنزع من أيدي المُسلمين"⁽⁶⁾. ودُفن ابن المشطوب في حَرَّان، حتَّى "بنت له ابنته قبة على باب مدينة رأس عين، ونقلته من حَرَّان إليها"⁽⁷⁾.

أمَّا الشَّيخ نجم الدِّين أبو البركات بن شرف الدِّين بن عصرون، قاضي حماة السَّابق، ومُرافق ابن المشطوب، فقد عانى من الاعتقال حتَّى مات ابن المشطوب، فشفع فيه لدى الملك الأشرف، فخر الدِّين بن شيوخ الشُّيوخ أثناء سفارته للملك الكامل، فقبلت شفاعته، وأطلقه من سجنه⁽⁸⁾.

- 1- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/76.
- 2- المُختصر، أبو الفداء، 3/125، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/180، ودَبِيل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 121، ومُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/76.
- 3- السُّلوك، المقرئ، 1/333، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/180، والمُختصر، أبو الفداء، 3/125.
- 4- دَبِيل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 121.
- 5- المُختصر، أبو الفداء، 3/125.
- 6- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/76.
- 7- وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/180.
- 8- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/76 - كان الشَّيخ أبو البركات نجم الدِّين بن شرف الدِّين بن عصرون عمَّ والدة فخر الدِّين بن شيوخ الشُّيوخ، فقد تزوَّج والد فخر الدِّين الشَّيخ صدر الدِّين مُحَمَّد بن عماد الدِّين عُمَر بن هويه بابتنة شهاب الدِّين بن شرف الدِّين بن عصرون، وأنجبت له فخر الدِّين وإخوته. ووالدتهم هي ابنة أخ لنجم الدِّين صاحب ابن المشطوب، وهي التي أرضعت الملك الكامل، فكان ذلك سبب تقدُّم أولادها عنده. راجع: دُرَر العقود الفريدة، المقرئ، 2/313، وكَنز الدُّرر، ابن آبيك، 1/193.

المبحث الثالث:

رجال الدولة

كان هناك عدد من الرجال العظام من خارج البيت ومما يليه اعتمد عليهم الأيوبيون، منهم رجال دين، أو وزراء، ومنهم الحُجَّاب، أو الخُدَّام، وكان لكلٍّ من هؤلاء الرجال علاقة بواحد من مُلُوك الأيوبيَّة، أو أكثر، وقد ترتَّب على هذه العلاقة مواقف سياسيَّة وعسكريَّة في حياة منطقة معيَّنة، أو الدولة بشكل عام.

أولاد شيخ الشُّيوخ:

مع أن الدين الإسلامي لم ينصَّ على وجود مراتب دينيَّة، فإننا نجد أن بعض الوظائف الدينيَّة قد فرضت نفسها مع الزمن، ومن حاجة الناس إليها. وبذلك اكتسبت كلمة الشَّيخ معنى دينيًّا؛ حيث أصبحت تُطلق على الفقهاء، أو القضاة، بمعنى صاحب العلم، ولكنها بعد انتشار الطُّرق الصُوفيَّة اكتسبت معنى جديدًا، فالشيخ هو رئيس وقائد الطريقة الصُوفيَّة، وله أتباع ومريدون وتلاميذ. ثمَّ وُجد للطُّرق الصُوفيَّة منصب شيخ الشُّيوخ، "الذي وُجد - أول الأمر - في بغداد" (1)، وأطلق على مَنْ يتولَّى نظر الزوايا والخانقاوات (2) الصُوفيَّة في البلاد.

وأول مَنْ تولَّى مشيخة شُيوخ الصُوفيَّة في الشَّام هو الشَّيخ عماد الدِّين أبي الفتح عُمر بن علي ابن مُحمَّد بن حمويه، الذي "قدم إلى الشَّام في الأيام النورية، ففوض إليه الشهيد نور الدِّين مشيخة الصُوفيَّة بالشَّام، وجعل إليه نظر الخانكاهاات بها" (3)، وكان نور الدِّين يحترمه، ويحبُّه (4)، والشيخ عماد الدِّين هو "ابن الفقيه أصيل خراسان أبي الحسين علي ابن الإمام الزاهد علم الزهاد أبو عبد الله مُحمَّد بن حمويه الحمشوني الجويني الشافعي" (5)، فأبناء شيخ الشُّيوخ من آل حمويه أو الجويني هم من

1- دَيْلِ الرَّوَضَيْنِ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار، 20/ 26.

2- الزاوية أو الخانقا، ويُقال لها الخانكا: هي مكان مُمارسة الصُوفيَّة لطقوسهم التعبدية.

3- دَيْلِ الرَّوَضَيْنِ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار، 20/ 338، وكذلك انظر: مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 257/ 3، وكُنز الدُّرر، ابن آيَّك، 7/ 193.

4- دَيْلِ الرَّوَضَيْنِ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار، 20/ 240.

5- دُررُ الْعُقُودِ، المقرئزي، 2/ 313.

أصُول فارسيَّة، انتهجت طريق العلم والفقه والصُوفيَّة، وموطنهم القديم "من بحر آباد من رستاق جوين" (1)، ويُقال إن حمويه بن علي جدَّهم "من ولد رزم بن يونان أحد قُواد كسرى أنو شروان، وتولَّى حمويه قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان، ودبَّر دولته" (2).

بقي الشَّيخ عماد الدِّين عُمر في مشيخة شُيوخ الصُوفيَّة حتَّى دُخُول صلاح الدِّين دمشق، فأقرَّه عليها حتَّى تُوُفِّي عام 577 هـ-1181 م، فولَّى صلاح الدِّين صدر الدِّين مُحمَّد بن عماد الدِّين مكان والده في المشيخة بدمشق (3). وكان فقيهاً فاضلاً وصوفياً صالحاً (4)، وتزوَّج صدر الدِّين مُحمَّد بابنة القاضي شهاب الدِّين بن شرف الدِّين بن أبي عسرون، فأنجبت له عشرة أولاد (5).

وبعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين وتولَّى أخيه الملك العادل في مصر والشَّام "كان صدر الدِّين جليلاً مُعظماً عند العادل" (6)، وكان هو الرسول المُعتمد للملك العادل إلى دار الخلافة، فقد ترسَّل عنه إلى الخليفة الناصر أكثر من مرَّة (7)، في مهمَّات الأُمُور (8). وامتدَّت مشيخة صدر الدِّين ليُصبح شيخ الشُّيوخ في مصر والشَّام (9)، وولاه العادل المناصب الشرعية في الجزيرة، ثمَّ استدعاه من دمشق إلى مصر ليُؤيِّه التدريس بالمدرسة الشافعية فيها (10)، وليتولَّى مشيخة خانقاه الصُوفيَّة سعيد السعداء (11).

1- ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، 3/ 453.

2- حُطُطُ الْأَثَارِ، المقرئزي، 2/ 346.

3- دَيْلِ الرَّوَضَيْنِ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار، 20/ 240، وخطط الآثار، المقرئزي، 2/ 346، وكُنز الدُّرر، ابن آيَّك، 7/ 193، ومُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 3/ 257.

4- شفاء القُلُوبِ، الحنبلي، 300.

5- حُطُطُ الْأَثَارِ، المقرئزي، 2/ 346، وكُنز الدُّرر، ابن آيَّك، 7/ 194، ومُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 3/ 257.

6- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 3/ 257.

7- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 3/ 257.

8- كُنز الدُّرر، ابن آيَّك، 1/ 193، ومُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 3/ 257.

9- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4/ 91.

10- الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار، 19/ 477.

11- سعيد السعداء: خانقاه للصُوفيَّة في شارع الجمالية في القاهرة، كانت داراً لسعيد السعداء الأستاذ قنبر أحد الأُستاذين المُحتكِّين في قصر الخليفة المُستنصر الفاطمي، قتله الخليفة المُستنصر، ورمى برأسه من القصر عام 544 هـ. وكانت الدار تقع مُقابل دار الوزارة، ولما تولَّى صلاح الدِّين حُكْم مصر عمل هذه الدار برسم الصُوفيَّة الواردين من البلاد، ووقفها عليهم، ففرقت بالخانقا الصَّلاحية، أو الناصرية، وكان يُنعتُ شيخُها بشيخ الشُّيوخ، ولا يتولَّى

وعندما وُلد الكامل مُحمَّد بن الملك العادل 573 هـ 1177م، كانت ولادته قريبة من ولادة أحد أبناء صدر الدِّين، وللعلاقة الوثيقة بين صدر الدِّين والملك العادل، قامت زوجة صدر الدِّين بنت أبي عسرون بإرضاع الملك الكامل⁽¹⁾، وهذه عادة كانت شائعة بين الأسر حتَّى زمن ليس ببعيد، وذلك في حال نقص حليب الأم، أو لزيادة الاهتمام بالمولود، وبهذه الحالة؛ يُصبح الرضيع أخاً لكلِّ أولاد المرأة المُرضعة، وهكذا أصبح الكامل أخاً بالرضاع لأولاد صدر الدِّين⁽²⁾، لذلك؛ تقدَّموا في دولة الكامل، وكانت لهم إمرة السيف والقلم⁽³⁾.

ولمَّا نزل الفرنج على دمياط، وأخذوا بُرج السلسلة عام 615 هـ 1218م، أرسل الكامل نائب مصر إلى أبيه العادل في الشَّام شيخ الشُّيوخ صدر الدِّين رسولاً لطلب النجدة⁽⁴⁾. وكذلك أرسله الكامل عام 617 هـ عندما احتلَّ الفرنج دمياط إلى الخليفة النَّاصر يستنجد، فمرض صدر الدِّين، ومات في المَوْصل "وعمره ثلاث وسبعون سنة"⁽⁵⁾، ويقول ابن واصل إن مهمَّته كانت إلى بدر الدِّين لؤلؤ صاحب المَوْصل 6، ورُبَّما وفاته في المَوْصل هي التي أوهمت ابن واصل.

وبعد وفاة صدر الدِّين بدأ نجم أولاده بالصُّعود، وأخذت أساؤهم تظهر في دولة الكامل، وهُم:

1. عماد الدِّين عُمر⁽⁷⁾: (581.636 هـ 1185.1239م):

وُلد عماد الدِّين بدمشق عام 581 هـ 1185م، وعندما استدعى الملك العادل والده صدر الدِّين من دمشق إلى مصر، رافقته أُسرته، وأولاده، فنشأ عماد الدِّين في مصر⁽⁸⁾، وكان مُقرباً للملك

مشيختها إلَّا الأكابر والأعيان. (المواعظ والاعتبار، المقرئ، 3 / 401)، وقد تحوَّلت - فيما بعد - إلى مسجد سعيد السُّعداء (النُّجُوم الزَّاهرة، ابن تغري بردي، 4 / 8 - 50 - 148 وخطُّ الآثار، المقرئ، 2 / 415).

1 - لبعث تاريخ ولادة الكامل عن تاريخ ولادة أيٍّ من أولاد صدر الدِّين الذُّكور الأربعة، فلا بُدَّ أن أهمهم أرضعته مع إحدى بناتها.

2 - خطُّ الآثار، المقرئ، 2 / 346.

3 - مُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 257.

4 - النُّجُوم الزَّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 222.

5 - دَبِيل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشَّاملة، د. سُهَيْل زَكَّار، 20 / 240.

6 - مُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 91.

7 - ترجمته في: شذرات الذهب 5 / 181، والتَّكملة لوفيات النُّقَلَة، المنذري، 3 / 506.

8 - دُرر العُقُود، المقرئ، 2 / 313.

الكامل، حتَّى غدا رجل دولته الأوَّل، فاستخدمه في وظيفة أبيه صدر الدِّين، فكان رسوله إلى الخليفة في بغداد. وفي عام 633 هـ 1236م "جمع له رئاسة العَلَم والقلم، ولم يُجمع ذلك لأحد قبله"⁽¹⁾، وتنقَّل عماد الدِّين في عدَّة ولايات، ثُمَّ تولَّى مشيخة الشُّيوخ بالخانقاه الصَّلاحية سعيد السُّعداء⁽²⁾، وتولَّى التدريس في المدرسة النَّاصرية.

وكان عماد الدِّين مع الملك الكامل في حملته على دمشق. ولمَّا تُوفيَّ الكامل أقام عماد الدِّين الملك الجواد يُونس بن ممدود، ابن أخي الكامل نائباً عن الملك العادل بن الكامل الذي تولَّى السُّلطنة بمصر بعد وفاة والده، ثُمَّ عاد إلى مصر، فوجد الأمر على غير ما يُحِبُّ⁽³⁾، فالملك العادل قد قبض على أخيه فخر الدِّين يُوسف، ولمَّا قابل عماد الدِّين الملك العادل حَمَلَه مسؤولية تسليم دمشق للجواد، وهَمَّ بالقبض عليه، فهوَّن الأمر على العادل، وتعهَّد له بإحضار الجواد إلى القاهرة، فسمح له بالسير إلى دمشق، ولمَّا وصلها وهو مُطمئنٌّ إلى سُلطته على الجواد، طلب منه تسليم دمشق، ومُرافقته إلى القاهرة، "وما طله الجواد، فأحضر الوُلاة الشَّادين، وأبلغهم عزل العادل للجواد عن دمشق"⁽⁴⁾، والتفت عماد الدِّين إلى الملك المُجاهد صاحب حمص حليف الجواد القوي⁽⁵⁾، والذي ما إن سمع بقصد عماد الدِّين دمشق حتَّى سبقه إليها⁽⁶⁾، داعماً للجواد⁽⁷⁾، وأقنعه بالتَّماسك والتحالف معه ضدَّ ابنيَّ الكامل الصَّالح أيُّوب صاحب الجزيرة، والعادل الثَّاني صاحب مصر⁽⁸⁾، وتمكَّن المُجاهد من السيطرة على الجواد الذي "بقي لا يفعل شيئاً إلَّا برأي صاحب حمص"⁽⁹⁾.

وأراد عماد الدِّين الضَّغط على المُجاهد، فطلب من الجواد إخراجه من دمشق، وطالب المُجاهد بدفع ما كان قد عرضه من أموال على الملك الكامل قبل وفاته⁽¹⁰⁾، واعتمد عماد الدِّين على

1 - خطُّ الآثار، المقرئ، 2 / 346.

2 - الخانقاه الصَّلاحية: هي خانقاه سعيد السُّعداء التي سبق تعريفها.

3 - شفاء القُلُوب، الحنبلي، 389.

4 - دُرر العُقُود، المقرئ، 2 / 313.

5 - السُّلُوك، المقرئ، 1 / 276.

6 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8 / 721.

7 - مُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 195.

8 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 - 640 / 20.

9 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 173.

10 - التاريخ الصَّالح، ابن واصل، الموسوعة الشَّاملة، د. سُهَيْل زَكَّار، 21 / 604.

قُوَّة العادل الثاني سلطان مصر، الذي اعتبر نفسه نائباً عنه في دمشق، وعلى ضعف الملك الجواد، لكنَّه لم يأخذ بالحسبان ردة فعل المُجاهد سيّد دمشق الفعلي، والذي سيفعل المُستحيل للحفاظ على نُفُوذه فيها، فطلب المُجاهد من عماد الدّين، مُلَوِّحاً بِالوُعود والوعيد، أن يكتب للعادل الثاني يتصرّحه بترك دمشق، فراوغ عماد الدّين، وقال: إنَّه سيكتب بعد أن يُصَلِّي خارج دمشق، فأدرك المُجاهد أنَّه سيهرب إلى بعلبك⁽¹⁾، فقرَّر المُجاهد مع الجواد قتل عماد الدّين ابن الشَّيخ اغتيالاً، ونفَّذا ذلك. وهُنَاكَ خلاف على شخصية مُنفَّذ هذا الاغتيال السِّياسي، فابن تغري بردي يقول: إن المُجاهد "أمر بعض نصارى قارا بقتله"⁽²⁾، بينما يقول ابن العميد والمقريزي: إنَّهم اتَّفَقُوا مع نَوَّاب الإسماعيليَّة، فقتلوه مُقابل مال⁽³⁾، بينما لا يُحدِّد أبو شامة هُويَّة مَنْ قتلَه⁽⁴⁾، وقد نفَّذت عملية الاغتيال داخل قلعة دمشق عام 636 هـ 1239 م، وكان ممَّن حضر الصلاة عليه المُؤرِّخ أبو شامة⁽⁵⁾.

2. مُعِين الدّين حسن (588، 643 هـ 1192، 1246 م)⁽⁶⁾:

كان مُعِين الدّين وريث المشيخة أوَّل الأمر، فقد ولي منصب أباه في مشيخة الشُّيوخ بمصر، ثُمَّ استخدمه الملك الكامل في الرسالة إلى الخليفة في بغداد، وأقامه - بعدها - نائباً للوزارة في مصر، حتَّى مات الكامل عام 635 هـ 1238 م. وفي عام 637 هـ 1240 م لما استتبَّ الأمر للصَّالح أيُّوب في سلطنة مصر "استوزر الصَّالح مُعِين الدّين الحَسَن، ومكَّنه وفوَّض إليه تدبير المملكة، فقام بوزارة الصَّالح أحسن قيام"⁽⁷⁾. ثُمَّ قدَّم الصَّالح أيُّوب مُعِين الدّين على العسْكَر⁽⁸⁾، فبعد معركة غزَّة وانتصار الخَوَّارزمية حلفاء أيُّوب على الفرنج وحلفائهم أمراء الشَّام، وجَّه أيُّوب جيُوش مصر بقيادة

1- تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 - 640 / 20.

2- التَّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 314 / 6.

3- أخبار الأيوبيَّين، ابن العميد، 24 ودُرر المُقوَّد، المقريزي، 315 / 2.

4- دَبِيل الرُّوسِيَّين، أبو شامة، الموسوعة الشَّاملة، د. سهيل زَكَار، 329 / 20. راجع مناقشة ذلك في مبحث العلاقات مع الإسماعيليَّة.

5- دَبِيل الرُّوسِيَّين، أبو شامة، الموسوعة الشَّاملة، د. سهيل زَكَار، 329 / 20.

6- ترجمته في: دَبِيل الرُّوسِيَّين، أبو شامة، 48، والعبر، الذهبي، 175 / 5، ودول الإسلام، القدسي، 112 / 2، والبداية والنَّهْاية، ابن كثير، 171 / 13، والتَّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 352 / 6، وشذرات الذهب، ابن العماد، 218 / 5، وراة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 755 / 2 / 8.

7- مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 276 / 5.

8- حُطَّط الآثار، المقريزي، 346 / 2.

مُعِين الدّين لإنهاء المعارضة في الشَّام. وفي عام 642 هـ 1244 م خرج مُعِين الدّين بالعسكر من مصر "ومعه الدهليز السُّلطاني والخزائن، وأقامه السُّلطان مقام نفسه، وأذن له أن يجلس على راس السَّياط، ويركب كعادة المُلُوك، وأن يقف الطواشي الاستدار على خدمته على السَّياط، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يديَّه كعادتهم في خدمة السُّلطان، وكتب للخَوَّارزمية ليسيروا في خدمته"⁽¹⁾.

إن هذا التَّكريم من الصَّالح أيُّوب لمُعِين الدّين يدلُّ على مدى اعتياده عليه، وثقته به، ومُساعدة وتسهيلاً لمهمَّته في الشَّام، التي كان أيُّوب يُدرك - تماماً - مدى صُعُوبتها، فالشَّام بكاملها من المُلُوك الأيوبيَّة حتَّى الفرنج مُتَّحدون جميعاً ضده، لكنَّ الصَّالح أحسن استغلال نصره في غزَّة عليهم، وأسرع لجني ثمار هذا النصر على يد مُعِين الدّين.

وصل مُعِين الدّين إلى دمشق، وألقى عليها الحصار، فأرسل إليه الصَّالح إسماعيل "سجادة وإبريقاً وعكازاً، وقال له: اشتغالك بهذا أوَّلِي، فأرسل له طبلًا وزمراً وغلالة حرير"⁽²⁾، وكانت رسالة إسماعيل تقول: إنَّك فقيه تهتمُّ بأُمُور الصلاة والوضوء، وشيخاً يحتاج لعكاز، والحَرْب ليست لك. فردَّ على الصَّالح إسماعيل يقول برسالته: إنَّك لا تُحسِّن إلَّا عمل المغاني، ولبس الحرير، ولن يكون لك مصلحة في القتال. وبالفعل؛ أثبتت الحوادث أن مُعِين الدّين رجل سيف وقلم، فقد تمكَّن من فرض الاستسلام على دمشق، ودخلها عام 643 هـ 1246 م⁽³⁾. وبعد دُخُول دمشق، أقدم مُعِين الدّين على القيام بعمل سياسي سيكون له نتائج كبيرة، فقد منع الخَوَّارزمية، أصحاب نصر غزَّة ومُساعديه في حصار دمشق، من دُخُول المدينة التي كانوا يُمتَوْن نُفُوسهم بأسلابها، ولمُكافأهم على أتعابهم أقطعهم الساحل الشَّامي بمنشير كتبها لهم⁽⁴⁾.

لم يمنع مُعِين الدّين الخَوَّارزمية من خراب دمشق، ولم يحمها منهم فقط، بل حافظ على الشَّام لملكه أيُّوب، وتصرَّف بمسؤولية القائد، كما أن اختياره الساحل لإقطاع الخَوَّارزمية كان على ما يبدو يقصد منه عدَّة أُمُور، رُبَّما كان منها: تقديره لقُوَّة الخَوَّارزمية وقُدَّرتهم على حماية الساحل، الذي استعاد

1- السُّلُوك، المقريزي، 420 / 1.

2- السُّلُوك، المقريزي، 421 / 1.

3- دَبِيل الرُّوسِيَّين، أبو شامة، الموسوعة الشَّاملة، د. سهيل زَكَار، 344 / 20.

4- السُّلُوك، المقريزي، 423 / 1.

الأيوبيون أجزاء مهمة منه، لكنّها لم تعد لحالتها السابقة، لتكرار هجمات الفرنج عليها، فهي مكشوفة أمام البحر. وبطبيعة الحال؛ لم يُعجب ذلك الخوّارزمية، فشقوا عصا الطاعة، فهم ليسوا رجال إعمار وزرع أو استقرار، ولا يناسبهم إلا مكاسب النهب السريعة، فارتدّوا على دمشق مُحاصرونها.

وأثناء الحصار توفّي معين الدّين ابن الشّيش في دمشق عام 643 هـ 1246م "عن ستّ وخمسين سنة" (1)، "وكان بين بُلُوغ أمنيته وحُلُول مَنيته أربعة أشهر ونصف، وكان جواداً كريماً" (2)، وصُلّي عليه بجامع دمشق، ودُفن بجبل قاسيون، عند أخيه عماد الدّين عمر (3).

3. كمال الدّين أحمد (584/639 هـ 1188-1241م):

عندما أخذ الكامل بلاد الجزيرة كلّف كمال الدّين بالنيابة فيها، ثمّ طلبه إلى مصر لتولّي تدريس الفقه الشافعي في مدارسها (4). وبقي كمال الدّين على منزلته ومكانته في أيام العادل الثّاني بن الكامل (5). وفي عهد الملك الصّالح أيّوب قدّمه على الجيوش غير مرّة (6).

وفي عام 639 هـ 1241م، جعله الصّالح أيّوب مُقدّم حملته على الشّام لقتال النّاصر داود صاحب الكرك وحليفه الملك الجواد صاحب دمشق، فاشتبك معهم قُرب القُدس، فهزموه، وأسروه، وقام النّاصر داود بإطلاق سراحه، فتوجّه إلى مصر، ولمّا بلغ غزّة توفّي فيها، وكان ذلك في العام نفسه 639 هـ 1241م (7)، وبني أخوه معين الدّين على قبره هناك قبة (8).

4. فخر الدّين يُوُسُف (1):

كانت ولادة يُوُسُف بدمشق بعد الثمانين وخمسمائة 580 هـ 1184م (2)، وقُتل عام 647 هـ 1249م شهيداً بدمياط. بعد تولّي الكامل سلطنة مصر، أمّره، وجعله نديماً له، وبعثه رسولاً إلى الفرنج، وإلى إخوته في الشّام، وإلى الخليفة في بغداد، وسلّمه قيادة الجيش وتدير المملكة (3)، فخلع العمامة وهي شعار الفقهاء، ولبس الشربوش وهو لباس الأمراء (4)، وكان "عظيماً في الدولة الكاملية" (5). ويبدو أن ثقة الكامل بفخر الدّين كانت بلا حُدود، واعتماده عليه كان كبيراً، فقد كان رسوله الخاصّ إلى الإمبراطور فريدرىك الثّاني، وهو الذي أشرف على تنفيذ اتّفاقية تسليم القُدس لفريدرىك، ووافق الإمبراطور في زيارته لها، ممّا جعل صداقته مع الإمبراطور تتعمّق إلى درجة تبادل الرسائل معه (6)، ويُقال بأنّ فريدرىك قد منحه رتبة فارس (7).

واستمرّ على وضعه المميّز في الدولة أيام العادل الثّاني ابن الكامل فقد "كان الأمير فخر الدّين ابن شيخ الشّيوخ من أجلّ الأمراء، وأعظمهم عند العادل، ويقتاد به جماعة من الأمراء والجُند" (8)، وكان رئيساً مُحتشماً (9)، لكنّه واجه محنة شديدة بعد مقتل أخيه عماد الدّين بدمشق. ورُبّما اعتبر فخر الدّين أن السّلطان العادل الثّاني مسؤولاً عن مقتل أخيه عماد الدّين بإرساله إلى حتفه في دمشق، فأراد الانتقام منه، ورُبّما كان هذا سبباً مُباشراً حرّك لدى فخر الدّين نيّة مبيّنة ضدّ السّلطنة الأيوبيّة، التي كان فخر الدّين من أكثر الناس معرفة بالفساد، الذي أصبح عليه مُلوّكها وأمرؤها.

1- ترجمته في: تلخيص جمع الآداب، ابن الفوطي، 3 / 453.

2- شذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 238.

3- حُطّط الآثار، المقرئ، 2 / 346.

4- الشربوش: قلنسوة طويلة مثلثة الشكل، كان يستعمله أرباب السيف من الأمراء (المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، رينهارت دوزي، ترجمة د. أكرم فاضل)، والكلمة معربة عن سربوس الفارسية، وتعني غطاء الرأس. (الألفاظ الفارسية المعربة، السيّد أدبي شير، مادّة: سربوس).

5- مُفَرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 276.

6- المنصوري، ابن نظيف، 190 - 194 - يُورد ابن نظيف نصّ رسالتين من فريدرىك إلى فخر الدّين.

7- سيرة القُدّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 36 / 82.

8- مُفَرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 215.

9- شذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 238-239.

1- شذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 218.

2- المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 200.

3- دَيْل الرّوضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 20 / 349.

4- حُطّط الآثار، المقرئ، 2 / 347.

5- مُفَرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 276.

6- حُطّط الآثار، المقرئ، 2 / 347.

7- واختلف في سنة وفاته بين 639 هـ و640 هـ، فهي عند أبي شامة (دَيْل الرّوضتين، 7)، وابن تغري بردي (النُجوم الزّاهرة، 7) في عام 640 هـ. بينما يقول ابن واصل (مُفَرّج الكُرُوب، 7)، والمقرئ (السُّلوك، 7)، إن وفاته كانت عام 639 هـ.

8- النُجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 345، ومُفَرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 300-301.

وبعد أن سيطر الصالح أيوب بن الكامل على دمشق في تحدٍّ كبير لسلطنة أخيه العادل في مصر، وجد فخر الدين الطريق لإزاحة العادل من السلطنة، وبالتأكيد؛ كان فخر الدين يعتقد أن مصالحه مع أيوب ستكون أفضل مما هي عليه مع أخيه العادل، فكاتبه، "واستحثه على سرعة القدوم إلى مصر، وأطلع الناصر داود على ذلك، فأطلع العادل، فقبض عليه، واعتقله في قلعة الجبل⁽¹⁾، عام 641 هـ 1243 م، وأقام فخر الدين في سجنه ثلاث سنين؛ حيث "لقى شداً وضرراً"⁽²⁾، "وما كان يُمكنه النوم من القمل"⁽³⁾.

ولما دخل الصالح أيوب مصر بعد أن قبض على أخيه العادل أخرج فخر الدين من سجنه، فغادر السجن في موكب عظيم "اجتمع له خلق من الرعية، ودعوا له، لأنه كان محبوباً إلى الناس لكرمه وحسن سيرته، فبلغ الصالح ذلك، فاستشعر منه، ولم يُعجبه، وأمره بلزوم بيته، فلزم بيته غير مضيق عليه"⁽⁴⁾.

إن ما جرى، من سجن فخر الدين بسبب أيوب، ثم الإقامة الجبرية بأمر من أيوب، يدل على علو همة هذا الأمير الذي وجد نفسه قادراً على التدخل في أمر السلطنة والصراع عليها، فإن صحَّ اتصاله بأيوب⁽⁵⁾ فهو دليل على وجود مشروع لديه للدخول لعبة السلطنة، ودعمه لوجود سلطان يناسب مصالحه ضد سلطان لا يناسبها، ولم يكن فخر الدين لينسى بناء القاعدة الشعبية لمشروعه المستقبلي، فالأعداد الكبيرة من الناس التي احتفلت يوم خروجه من السجن كانت من الضخامة والفاعلية؛ بحيث أخافت السلطان الجديد أيوب، فألزمه بيته حتى عام 643 هـ 1246 م، حيث جاءته الضارة النافعة، فقد توفي أخوه معين الدين، ولم يبقَ من أولاد الشيخ غير فخر الدين يوسف، "فأخرج عنه السلطان أيوب، وخلع عليه، وأمره، وقدمه، وبالغ في الإحسان إليه"⁽⁶⁾.

1- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5/ 276.

2- الْمُخْتَار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 200.

3- مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، 755/ 2/ 8، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 641- 650، أحداث عام 643.

4- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5/ 276.

5- وهذا أمر مُرَجَّح، لأن خُروج أيوب من دمشق نحو مصر قد تمَّ بدعوة من أمرائها، ولا بُدَّ أن فخر الدين كان أبلغهم تأثيراً في قرار التحرك نحو مصر قبل أن يثبت أيوب أقدامه في الشام.

6- السُّلُوك، المقرئزي، 1/ 424.

وتابع فخر الدين مباشرة مهمة أخيه المتوفى، فقاد العسكر نحو الشام، وحاصر الناصر داود، أحد أطراف التحالف مع الفرنج ضد الصالح أيوب، حتى أجابه إلى ما طلبه منه⁽¹⁾. وفي عام 645 هـ 1247 م، حاصر طبرية، وفتحها، ثم "حاصر عسقلان، وقاتل عليها قتالاً عظيماً، وفتحها"⁽²⁾، وكانت قد سُلمت للفرنج عام 641 هـ 1243 م⁽³⁾.

وفي سنة 646 هـ 1257 م، هاجم سلطان حلب الناصر الثاني حمص، وتمكّن من إجبار صاحبها الأشرف موسى حليف الناصر أيوب على التسليم⁽⁴⁾. كان الناصر أيوب مشغولاً بمرضه عن إيجاد حليفه ملك حمص⁽⁵⁾، لكنه مع ما هو عليه من الضعف تحرك إلى الشام، وأقام بدمشق، وأرسل جيشه مع نائبه⁽⁶⁾ في دمشق فخر الدين بن الشيخ لاستنقاذ حمص من يد الحلبين⁽⁷⁾، فأحكم فخر الدين حصار حمص، ورمّاها بالمجانيق⁽⁸⁾، ولما أرسل الناصر الثاني النجيدات من حلب لفك حصار حمص تصدّى لها فخر الدين، وأوقع بهم خسائر كبيرة⁽⁹⁾، وشدّد فخر الدين الحصار على حمص، حتى أشرف على أخذها⁽¹⁰⁾.

وفي هذه الأثناء وصل إلى السلطان أيوب بدمشق الخبر بأن "الفرنج قد اجتمعوا بجزيرة قبرص لقصد الديار المصرية"⁽¹¹⁾، فترك حصار حمص، وسحب قوّاته، وتوجّه نحو مصر⁽¹²⁾. ويبدو أن السلطان كان يملك معلومات عن مكان إنزال الحملة الفرنجية، وعرف أن دمياط هدف لويس، فشحنها بالآلات عظيمة وذخائر وافرة، وعهد لبني كنانة وهم مشهورون بالشجاعة والإقدام

1- الْمُخْتَار من حوادث الزمان، ابن الجزري / 203.

2- الْمُخْتَار من حوادث الزمان، ابن الجزري / 216، وأخبار الأيوبيين، ابن العميد، 36.

3- الْمُخْتَصَر، أبو الفداء، 3/ 176.

4- العبر، الذهبي، 5/ 185، وشفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 412.

5- النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 328، والمختصر، أبو الفداء، 3/ 177.

6- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 379.

7- العبر، الذهبي، 5/ 188.

8- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 412.

9- العبر، الذهبي، 5/ 188.

10- السُّلُوك، المقرئزي، 1/ 431.

11- وفيات الأعيان، ابن خلكان، 6/ 259.

12- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 379، والمختصر، أبو الفداء، 3/ 177.

لحماية المدينة من الداخل⁽¹⁾، ثُمَّ أمر السُّلطان نائبه في القاهرة ابن أبي علي بتجهيز الأسطُول، وتسييره في النيل نحو دمياط⁽²⁾، واستكمل أيوب استعداداته العسكرية بتوجيه نخبة قُوَّاته مع قائد جيشه ورجل دولته الأوَّل فخر الدِّين يُوُسُف إلى دمياط للتصدِّي للحملة المُتَوَقَّع وَصُولها من البحر. وتمركز فخر الدِّين بقُوَّاته على الساحل في جيزة دمياط من الغُرب، وأصبح فرع النيل المُسمَّى دمياط يفصل بينه وبين المدينة⁽³⁾، وهو موقع استراتيجي أثبت نُزُول الحملة الفرنجيَّة أمامه أنَّه كان مُوفَّقاً باختياره، فقد حَصَرَ بقُوَّاته جيشَ الفرنج، الذي تَمَكَّن من التَّزُول إلى البرِّ بين فرع دمياط وساحل البحر، وسدَّ عليهم طريق التَّقدُّم البرِّي نحو الداخل.

ويصف شاهد عيان فرنجي رافق حملة لويس ما وجده الفرنج ساعة وَصُولهم ساحل مصر يقول: "وعندما ألقوا مراسيهم رأوا الساحل مليئاً بالمسلمين على الخيُول، وعلى الأقدام، وكان مصبُّ النيل في الوقت نفسه مُغطَّى بالسُّفن العازمة على إعاقه هُجُوم شعبنا"⁽⁴⁾ "ونزل الفرنج في البرِّ الذي عسكر فيه المسلمون، فتناوشهم المسلمون، واستشهد بعضهم. ولما أَمَسَى الليل رحل فخر الدِّين بمن معه من العساكر... وخلا البرِّ الغربي للفرنج"⁽⁵⁾، ولم يُقتَل من العسكِر أحد، سوى شيخ من المُتَطَوِّعة جاء من الكرك، واستشهد في هذه المناوشات⁽⁶⁾.

ويبدو أن فخر الدِّين لم يُحاول منع إنزال الفرنجة على البرِّ المصري بشكل جدِّي، ولم يتصدَّ للحملة في وقت حرج جدًّا للغزاة هو ساعة تدافعهم نحو البرِّ لإقامة رأس جسر لهم فيه، فلو فعل ذلك مع استعداداته الكُبرى، وفُقدان الفرنجة لعامل المُفاجأة، أو سرِّيَّة الحملة، وقتاله على أرضه وبين شعب يدعمه، فعلى الأقل؛ كان قد أوقع خسائر جسيمة في صُفُوف حملة لويس التاسع، ولكان أجبره على تغيير مكان الإنزال، إن لم نقل منعه نهائياً، ولكننا نجد أن فخر الدِّين على عكس كُلِّ التوقُّعات والاحتمالات العسكرية التي يملك زمامها، قام بسحب قُوَّاته بعد مُناوشات بسيطة، بدت

استعراضية أكثر منها حربية، وعبر نحو دمياط مُخْلِياً الساحة للفرنج لإتمام إنزالهم، وفتح - عامداً، أو مُهملاً - طريق دمياط أمام الفرنجة بأهون الأسباب، وأسهلها، علماً أن الفرنج لم يضغطوا عسكرياً عليه لإجباره على الانسحاب، ولم يُشكِّلوا تهديداً حقيقياً لقُوَّاته.

كان انسحاب فخر الدِّين مُثيراً لدهشة الجُند والسكَّان والفرنجة على السواء. فلماذا انسحب خارقاً كُلِّ التَّقالييد العسكرية، وضارباً عرض الحائط بمصير دمياط، بل الديار المصريَّة، والدولة كُلِّها؟!.

كان فخر الدِّين أكثر المُقرِّبين من السُّلطان أيوب، وحضر معه من الشَّام إلى مصر، وكان رفيقه ونديمه في الطريق، لذلك كان يُدرك فخر الدِّين مدى استفحال مرض السُّلطان، ورُبَّما كان يتوقَّع موته بين لحظة وأخرى، وورث المملكة الوحيد في أقصى الشَّام، إنَّها على ما يبدو الفرصة التي انتظرها فخر الدِّين طويلاً، فالمعركة مع الفرنج يُمكن أن تطول على أسوار دمياط، لكنَّ المعركة على السُّلطة ستُحسم بشكل سريع إذا مات السُّلطان، فقرَّر الانسحاب نحو المعسكر، لكنَّ النتائج المُفجعة لانسحابه رُبَّما كانت أكثر بكثير ممَّا توقَّع.

فانسحاب كُتلة الجيش الكُبرى بدُون قتال، دفعت حامية دمياط بقيادة الأمراء الكنانيين للانسحاب منها، "فلَمَّا رأى أهل دمياط رحيل العسكِر، خرجوا، ولم يبقَ بالمدينة أحد"⁽¹⁾، وعندما تقدَّم الفرنج نحو المدينة، وجدوا الأبواب مُفتَّحة، وليس بها أحد، فاعتقدوا أنَّها مكيدة، وأحجموا عن دُخُولها أوَّل الأمر⁽²⁾، ثُمَّ دخلوها، وتعلَّكوا ما بها من السلاح والمُؤن والذخائر صفواً عفواً⁽³⁾. "وعُدَّت هذه الفعلية من الأمير فخر الدِّين من أقبح ما يشنع به"⁽⁴⁾، وعدَّها بعض المؤرِّخين سُوء تدبير⁽⁵⁾، أو قبيح رأي⁽⁶⁾، ولكنها تبقى بدُون تفسير مُقنع إلَّا إذا اعتبرنا أن السعي للسلطة كان من أهمِّ دوافع فخر الدِّين، والأحداث التَّالية تُؤكِّد ذلك:

1- السُّلوك، المقرئزي، 437/1.

2- المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 220.

3- شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378، والمختصر، أبو الفداء، 3/179، والسُّلوك، المقرئزي، 439/1.

4- السُّلوك، المقرئزي، 438/1.

5- كنز الدرر، ابن آبيك، 7/369.

6- التَّجُوم الزَّاهرة، ابن تغري بردي، 6/330.

1- البيان والإعراب، المقرئزي، 20 - 21، والمختصر، أبو الفداء، 3/178.

2- البيان والإعراب، المقرئزي، 21.

3- السُّلوك، المقرئزي، 437/1.

4- جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَار، 43/1177.

5- السُّلوك، المقرئزي، 437/1.

6- المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 219.

لما وصل فخر الدين وعساكره، وخلفهم الأمراء الكنانيون، وأهل دمياط إلى معسكر السلطان في أشموم طنّاح، أمر السلطان بشنق الأمراء الكنانيين⁽¹⁾، "وكانوا نيفاً وخمسين أميراً"⁽²⁾، وتغيّر السلطان على الأمير فخر الدين، وقال: أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج؟! وقامت الشناعة من كلّ أحد على الأمير فخر الدين⁽³⁾.

وهنا؛ نجد تناقضاً كبيراً في موقف السلطان أيوب، فقد نتفهم إعدامه للأمراء الكنانية بأنه تدبير عسكري أثناء الحرب لمنع غيرهم من التهاون، لكن؛ ما هو مبرّر تغاضيه عن فخر الدين، وهو السبب الرئيس لضياح دمياط، خاصّة وأن مخالفته للأوامر العسكرية بالانسحاب دون قتال جلية واضحة؟! فهل كان السلطان - حقاً - غير قادر على عقوبته، أو على الأقل مساءلته، أو أنّه كان رجل الجيش القوي؟! فإن لم نقل: إن السلطان خاف منه، فقد نقول: إنّه كان بأمر الحاجة إليه في مثل تلك الظروف، وربّما كان ردّ فعله القوي تجاه الكنانيين لعدم قدرته على التصرف مع فخر الدين. ويبرّر المقرّبي بعبارة دبلوماسيّة جداً موقف السلطان تجاه فخر الدين؛ حيث يقول: "وكان الوقت لا يتّسع إلّا للصبر والتغاضي"⁽⁴⁾، ولكن؛ حتّى هذا التغاضي لم يُعجب أمراء العسكر، وخافوا أن يكون السلطان قد بيّث لهم الغدر، فهُمُّوا بقتله، لكنّ فخر الدين أشار عليهم بالصبر، حتّى يتبيّن أمر السلطان، "وقال لهم: إنّه على فراش الموت، وإلّا فهو تحت أيديكم؛ فتركوه"⁽⁵⁾.

فهل نستشف بوادر انقلاب عسكري على السلطان؟ وإن كان ذلك حقيقة فيبدو لنا أن التاريخ يُعيد نفسه، ففي الظروف نفسها والمكان نفسه كان ابن المشطوب يُدبّر مؤامرة لخلع الكامل، وها هو فخر الدين ومعه مجموعة من أمراء العسكر يُريدون الإطاحة بأيوب ابن الكامل.

وكما فعل الكامل من قبل أسرع أيوب مُغادراً أشموم طنّاح نحو المنصورة، ولكن المرض كان قد نال منه، وانتظار موته بالمرض هو الذي دفع عنه الموت بسُيوف أمراء الجند الموالين لفخر الدين.

1 - شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 378.

2 - أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 36.

3 - السُّلوك، المقرّبي، 1 / 439.

4 - السُّلوك، المقرّبي، 1 / 439.

5 - شذرات الذهب، ابن العباد، 5 / 237، - وانظر أيضاً: المختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 216، والسُّلوك، المقرّبي، 1 / 439.

وبالفعل؛ لم تطل حياة السلطان، فتوفي بعد وُصُوله المنصورة، دون أن يوصي بخلافته إلى أحد، ولا حتّى لولده توران شاه، فهو يعرف أنّه لا يصلح للحُكم⁽¹⁾، فظهرت على الفور ثلاث شخصيّات كلّ منها يتشوّف للسلطنة، وكالعادة؛ لم يختلّفوا أوّل الأمر، بل اتّفقوا، ورتّبوا أمور الدولة بعد وفاة سلطانها أحسن ترتيب، وهم:

1. شجر الدر؛ جارية أيوب وزوجته، وأمّ ولده خليل المتوفّي، وأقرب الناس إليه، وقد أخذت زمام المبادرة واستدعت كلّ من:

2. الطواشي جمال الدين مُحسن، وكان أقرب الناس إلى السلطان، وأكثرهم مُلازمة له.

3. الأمير فخر الدين؛ مُقدّم الجيش، والأمير الأكثر شعبية بين الناس، وقد عرف الفرنج مكانته، قال عنه جوافيل: "كان فخر الدين أعظم الناس مكانة في العالم الإسلامي"⁽²⁾.

واتّفقت معهم على تدبير المملكة⁽³⁾، وشكّلوا ما يُشبه مجلس حُكم انتقالي، يتّضح فيه جناحان، الأوّل: سياسي، ومثّله شجر الدر، والثاني: عسكري، ومثّله فخر الدين. وكانت أوّل خطوات مجلس الحُكم هذا أن طلب الأمراء والقادة والولاة والجُند ليحلفوا، وأداء القسم هو الضمان الشرعي لولاء الناس، وكان نصّ القسم الذي أملي على الناس يتضمّن الولاء للسلطان؛ فهم لم يعلنوا موته بعد، ومن ثمّ؛ لابنه توران شاه، وفخر الدين قائداً عاماً للجيش، وأتابكاً لتوران شاه، ومُدبراً لدولته⁽⁴⁾، وكتبوا إلى نائب القاهرة ابن أبي علي ليحلف الناس على ذلك⁽⁵⁾.

من ذلك كلّ؛ يبدو لنا أن الأمير فخر الدين هو رجل الدولة الأقوى، الذي يُسيطر على الجيش، مع أن عماليك السلطان أيوب يُشكّلون قوّة قتالية كبيرة فيه، لكن؛ على ما يبدو، لم يكونوا قد وصلوا إلى التحكّم بالقيادات العليا، ولم تبرز كفاءتهم وأهليّتهم للقيادة بعد، ولن يتمّ ذلك حتّى تجري معركة المنصورة. ونستطيع أن نتوقع أن فخر الدين رضي أن يكون الرجل الثاني اسمياً، بعد توران شاه بن أيوب، لعدّة أسباب:

1 - السُّلوك، المقرّبي، 1 / 444.

2 - سيرة القديس لويس، جين جوافيل، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 36 / 83.

3 - السُّلوك، المقرّبي، 1 / 444.

4 - السُّلوك، المقرّبي، 1 / 444.

5 - السُّلوك، المقرّبي، 1 / 444.

1- تأمين غطاء شرعي تتم الدعوة له، بعد إعلان موت أيوب، فالدعوة المباشرة لنفسه ستواجه معارضة شديدة من الأطراف كلها.

2- كان فخر الدين يشك بإمكانية وصول ثوران شاه إلى مصر، ففي الشام أعداء كثير لثوران شاه يترقبون به، وسيتكفلون بمنعه من إتمام سفره، إضافة إلى مخاطر الطريق الأخرى من أقاصي شمال الشام حتى مصر⁽¹⁾.

3- موافقة فخر الدين على سلطنة ثوران شاه تهدئة فعالة لمعارضيه المتوقعين، وأولهم شجر الدر التي تتمتع بولاء ممالك أيوب وهم جمرة الجيش، وأخطرهم ابن أبي علي نائب السلطان في القاهرة.

أما على أرض الواقع؛ فقد سبقت الأفعال النوايا، فالوقت لا يكاد يتسع لتردد متردد، ولا لتأني متأن، فمباشرة؛ أخذ الأمير فخر الدين بالتصرف بالملكة، وتدير أمور الدولة والجيش، وأعاد إقطاع البلاد بمناسير جديدة⁽²⁾، "وأخذ فخر الدين بالاستبداد والاستقلال بالملكة، وصار يركب في موكب عظيم، وجميع الأمراء في خدمته"⁽³⁾.

وقد وصلت أصداء ذلك إلى معسكر لويس التاسع، واعتقدوا بأن فخر الدين قد خلف السلطان رسمياً، ويؤكد ذلك جوفانفيل، مرافق الملك، الذي كتب يقول: "اختار المسلمون مكان السلطان، الذي مات واحداً اسمه فخر الدين، وحمل على رايته التي تألفت من ثلاثة أقسام:

على القسم الأول، رنك الإمبراطور فريدريك. وعلى الثاني، رنك سلطان حلب. وعلى الثالث، رنك سلطان القاهرة"⁽⁴⁾. وحمل فخر الدين لهذه الرنوك الثلاثة ما هو إلا تعبير عن التحالف الوثيق مع فريدريك، والرمز الثاني للشام التي تتبع لسلطان مصر، وليس رمز حلب كما اعتقد جوفانفيل.

1- العدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم يوسف، 142.

2- المنشور: رقعة من الورق، يكتب عليها اسم الإقطاع، واسم صاحبه.

3- السلوك، المقريري، 1/ 445.

4- سيرة القديس لويس، جين جوفانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 36 / 82 - 83.

وبالمقابل؛ كان الرجل الآخر القوي وهو نائب القاهرة ابن أبي علي لا يفتوت الوقت. فقد تنالت عليه الكتب من المنصورة باسم السلطان أيوب، "وشك بعلامة السلطان، فدقق بأخبار المعسكر حتى عرف موته، فاشتد خوفه من فخر الدين، وخشي أن يتغلب على الملك، فاحتاط لنفسه"⁽¹⁾، ولما كان يعرف تمام المعرفة قوة فخر الدين، وأنه لا قبل له بمناقصته، فقد تعلق أمله بحضور ثوران شاه، فأرسل قصاده ترى نحو ثوران شاه لإحضاره على جناح السرعة، وكتب له يقول: "المصلحة في السرعة، ومتى تأخرت فات القوات، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد"⁽²⁾.

وكانت أخبار مصر السياسية تصل إلى الفرنج بواسطة غيوتهم، أو عبر الأسرى، وعما وصلهم - بشكل شبه دقيق - تأزم الوضع بين السلطان أيوب وفخر الدين بعد انسحابه من دمياط. أما نتائج ذلك، وعلاقة فخر الدين بابن أبي علي نائب القاهرة؛ فقد وصلتهم مشوشة في أولها، ومعكوسة في آخرها، وربما كان السبب في صياغتها من قبل الكتاب المرافقين للحملة، والذين جعلوها تخدم أهدافهم⁽³⁾.

وكانت الدلائل كلها تشير إلى تفوق فخر الدين في أي صراع قادم على السلطة، فهو الأفضل تجربة، والأقوى، والأكثر أتباعاً، والأشد استعداداً لهذا الأمر. ولكن القدر كان له بالمرصاد، عندما أخرجته من حلبة الصراع بأهون الأسباب، فقد هاجم الفرنج - ليلاً - المنصورة؛ حيث يعسكر المسلمون "الذين لم يشعروا إلا والفرنج معهم في المعسكر، وكان فخر الدين في الحمام، فخرج مدهوشاً، وركب فرسه في غير اعتداد، وليس معه سوى بعض مماليكه والأجناد، فلقبه طلب الفرنج الدواية، وكانت طلبته الفرنج، فقتلوه"⁽⁴⁾، "فقد طعن، ووقع ضربتان في وجهه، فسقط"⁽⁵⁾. جاء استشهاد فخر الدين في موقعة المنصورة ليحقق له ولنأفسيه على السواء أموراً عظيمة: بالنسبة له، فقد محا - باستشهاده مدافعاً عن المنصورة - عار تراجعته عن دمياط، وبالنسبة لنأفسيه، فقد أزاحه الموت من أمامهم بأيسر السبل، كما

1- السلوك، المقريري، 1/ 444.

2- السلوك، المقريري، 1/ 445.

3- التاريخ الكبير، متى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 48 / 1124.

4- السلوك، المقريري، 1/ 447.

5- امرأة الجنان، اليافعي، 4 / 91. - وينفرد صاحب امرأة الجنان بجعل وفاة فخر الدين عام 648 هـ بينما هي - وفقاً لتأريخ الموقعة، ولكل من ترجم له من المؤرخين - عام 647 هـ.

أتاح استشهاد فخر الدين لقوة جديدة بالظهور، وهي ممالك الصالح أيوب، الصالحية، أو البخرية، الذين تصدوا لهجوم الفرنج على المنصورة، وأوقعوا بهم خسائر فادحة، ولمع - من يومها - اسم يبرس البندقداري، وفارس الدين أبو الهيجاء، وغيرهما⁽¹⁾. وبموت فخر الدين؛ فقدت الدولة آخر رمز يمثل العصر الأيوبي، ومهد موته لقيام عصر جديد؛ هو عصر المماليك.

كان فخر الدين "عاقلاً جواداً ممدحاً مذبذباً خليقاً بالملك محبوباً إلى الناس"⁽²⁾، ويتابع ابن تغري بردي قائلاً عنه: "ولما مات الملك الصالح أيوب على دمياط نذب للملك، فامتنع، ولو أجاب لما خالفوه"⁽³⁾، وهذا خبر ضعيف، لا تدعمه الوقائع التي جرت، ونعتقد أن ابن تغري بردي قد وهم بذلك، ولكننا نحار أمام تفسير ما حصل: "فيوم مقتل نهب ممالكه وبعض الأمراء داره، وكسروا صناديقه، وخزائنه، وأخذوا أمواله، وخيولته، وأحرقوا داره"⁽⁴⁾. هذا التصرف لا يتم - عادة - إلا ضد شخص مكروه مستبد، ويأتي كانتقام لأفعال قام بها، وهنا؛ نستبعد هذه الأسباب، وسيبقى سر هذا التصرف لا يجد تفسيراً منطقياً إلا إذا حاولنا التوصل إلى مقارنة بالاستنتاج، فقد يكون ظرف الحزب والفلتان الأخير بموت السلطان، ثم موت أقوى الرجال بعده، وعدم وجود أي قريب لفخر الدين في الدولة يخشى منه، فهو آخر إخوته وفاة. لكن؛ يبقى التفسير ناقصاً؛ لأن من قام بالنهب والحرق هم ممالكه، الذين هم تربيته، وأولاد نعمته!

1- كنز الدرر، ابن آيبك، 7 / 376.

2- النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 363.

3- النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 363.

4- السلوك، المقرئ، 1 / 448.

المبحث الرابع:

دور بعض الأتباع

كان من الطبيعي في نظام الحكم الأيوبي، وطريقة عمل الجهاز الإداري فيه، أن يرتقي المهووبون من أصغر المراتب في الحاشية إلى تولي بعض المناصب الحكومية، وأن يصلوا إلى أعلاها في بعض الأحيان، معتمدين على شخصياتهم المتفوقة، وعلى مواهب إدارية متميزة، وبشكل خاص؛ على قُرْبهم من الملك، أو الحاكم، الذي كان في أمس الحاجة إلى رجال أكفاء، يعرفهم، ويشق بهم. ويبدو أنهم لم يدرِكوا حقيقة كانت تتكرر أمامهم، وهي أنهم كلما اقتربوا من الشهرة والنجاح أكثر اقتربوا من النهاية أكثر، فعلى الدوام كانت الملوك تبطش بمألهما عند اقترابهم من القمة، وربما كانت ضربة استباقية، يوجهونها ضد مطامع استقلالية كانوا يفترضون وجودها.

1. الحاجب علي:

يبدو من التسمية أنه كان حاجباً للملك الأشرف، وأن علاقته به كانت قديمة، حتى حاز على ثقته الكاملة، فكان "حسام الدين الحاجب علي نائب الملك الأشرف في بلاده"⁽¹⁾، ورسوله في المهمات من الأمور. فقد بعثه الأشرف بمهمة دبلوماسية إلى أخيه المعظم ليردعه عن الهجوم على حمص وحماة عام 619 هـ 1222 م⁽²⁾.

وكان الحاجب علي يُعَدُّ من أخص أصحاب الأشرف، والمقرَّين إليه، لذلك نجد أن الأشرف - بعد عصيان المظفر عليه - أخذ منه خلاط، وأرسل الحاجب علي نائباً له فيها⁽³⁾، وأهميته خلاط تؤكد لنا مدى اعتماد الأشرف على الحاجب علي. وجاءت الأحداث لتثبت جدارة الحاجب علي، ففي عام 623 هـ 1226 م، بعد أن قام شرف الملك، وزير جلال الدين منكبرتي ونائبه في تفلّيس، بنهب أعمال أرزن الروم، مرّ في طريق عودته بالقرب من خلاط ومعه قوة من جيشه، فاعترضهم الحاجب علي واستنقذ

1- زبدة الحلب، ابن العديم، 2 / 655.

2- المنصوري، ابن نظيف، 95، وزبدة الحلب، ابن العديم، 2 / 655.

3- مفرج الكروب، ابن واصل، 4 / 188.

ما معهم من الغنائم، ثم عاد بعسكره سالمين⁽¹⁾. وعندما هاجم جلال الدين منكبرتي خلّاط في العام نفسه، وكان يتمتع بسُموعه مُربعة، وجيش قوي، خاصّة بعد أن فتح تفليس عاصمة الكرج، قام الحاجب علي بواجب الدفاع عن خلّاط بوجه هذه القوّة العاتية خير قيام⁽²⁾، وبعد أن تمكّن جلال الدين من احتلال حاضر خلّاط، قاد الحاجب علي الهُجُوم المُعاكس بنفسه، "وترجّل الحاجب علي، ووقف في نحر العدو، وأبلى بلاءً عظيماً"⁽³⁾، حتّى أجبر جلال الدين عن التراجع عن خلّاط⁽⁴⁾.

وفي عام 624 هـ 1227 م، سار الحاجب علي، "وهو النائب عن الملك الأشرف بخلّاط، والمُقدّم على عساكرها، إلى بلاد أذربيجان، فيمنّ عنده من العساكر، وتسلمّ خوى، وما جاورها من الحُصُون بالاتّفاق مع زوجة⁽⁵⁾ جلال الدين خوارزم شاه⁽⁶⁾، وأخذ خزائن جلال الدين، وعائلته، وعاد إلى خلّاط، فقيل له: "بش ما فعلت، اعتديت عليه، لتتلف البلاء، فلم يُفكّر"⁽⁷⁾، ولذلك اتهمه بعض المؤرّخين بأنّه سبب هُجُوم جلال الدين منكبرتي على خلّاط فيما بعد، وأخذها⁽⁸⁾.

ذلك كلّهُ يدلّ على أن الحاجب علي قد امتلك قوّة عسكريّة كبيرة، تجاوزت المتعارف عليه بالنسبة لنائب في خلّاط، كما أن أعماله العسكريّة هذه، على ما هي عليه من الخطورة تجاه الخوَارزميّة، وما ستجرّه من مُحاولات انتقاميّة، فإنّها - في الوقت نفسه - فتحت عينيّ الأشرف على هذا النائب، الذي يتصدّى لأقوى جيش في المنطقة، ويردّه، ثمّ يغزوه في بلاده، ويأخذ بعضها منه، وسيجعله الأشرف يدفع ثمن هذه الظاهرة من القوّة والإخلاص، وإن كانت في خدمته. والغريب أن من سيُتصدّى للحاجب علي أوّلًا هو سيّد الأشرف، الذي اعتبره خطراً شديداً عليه، ويبدو أن الحاجب علي لم تخطر على باله تلك الأمور كلّها، واعتقد أنّه يُحسن البلاء في سبيل الملك الأشرف، فعاد،

1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 456 / 12.

2- المختصر، أبو الفداء، 136 / 3.

3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 461 / 12.

4- مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 190 / 4.

5- زوجة جلال الدين: هي بنت جيهان خواجا وزير جلال الدين سلطان الخوَارزميّة، أرسلها الحاجب عليّ إلى الأشرف، فانتقم جلال الدين بالهُجُوم على خلّاط، وفتحها، وأخذ منها ابنة ملك الكرج زوجة الأشرف. (أخبار الأيوبيّين، ابن العميد، 15).

6- المختصر، أبو الفداء، 138 / 3، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 471 / 12.

7- المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 140.

8- أخبار الأيوبيّين، ابن العميد، 15.

"وجمع العسكّر لقصد الخوارزمي"⁽¹⁾، لكنّ تحرّك علاء الدين كَيْقَبَاذ سلطان سلاجقة الرُّوم بالقرب منه جعله يُؤجّل العمل ضدّ الخوارزمي، وبلتفت إليه، فبعد أن "استولى كَيْقَبَاذ على أرزنجان أراد التوجّه إلى أرزن الرُّوم، ليأخذها، وفيها ابن عمّه طغريل شاه بن قلع أرسلان، فلمّا سمع صاحبها أرسل إلى الأمير حُسام الدّين عليّ بخلّاط يستنجد، وأظهر طاعة الأشرف"⁽²⁾، وتحرّك الحاجب عليّ لحماية أرزن الرُّوم، ورُبّما كان يخشى بأنّ يشني كَيْقَبَاذ بخلّاط بعد توسّعه نحو أرزن الرُّوم. ولمّا علم كَيْقَبَاذ بتحرّك الحاجب عليّ تراجع عن أرزن الرُّوم⁽³⁾.

وهنا؛ طار صواب الأشرف من قوّة الحاجب عليّ وتحكّمه في الجزيرة، فبعد تصدّيه للخوارزمي، وأخذ بلاده، وخزائنه، لم يبقَ إلّا التصدّي للرومي، حتّى يُصبح الحاجب عليّ ملك الجزيرة، وحاكمها الحقيقي، ويبدو أن الغيرة والحسد كانا يوغران صدره على الحاجب عليّ، وكان تخوفه منه يزداد مع كلّ انتصار له، ولم يُفكّر الأشرف بأنّ هذه الانتصارات باسمه، وتُجبرّ لحسابه، بل فوق هذا، فالتاس يقولون إن واحداً من أتباع الأشرف يفعل كذا، وكذا⁽⁴⁾.

لكنّ الملّك عقيم، والملوك قتلوا أخوة لهم، فكيف بتابع غريب؟!

وفي عام 626 هـ 1229 م، أرسل الأشرف إلى خلّاط مملوكه عزّ الدّين آيبك، وهو من أكبر الأمراء عنده⁽⁵⁾، وكان يتولّى نيابة منطقة دارا للأشرف⁽⁶⁾، فالمهمّة جليّة تستدعي رجلاً جليلاً للقيام بها، ويبدو أن العداء كان مُستحكماً بين عزّ الدّين آيبك والحاجب عليّ⁽⁷⁾، فلذلك اختاره الأشرف.

ولمّا وصل آيبك إلى خلّاط، "وصله كتاب الأشرف بالقبض على الحاجب علي"⁽⁸⁾، فاعتقله آيبك، وبعد أيّام وصل كتاب إلى الأشرف "بأنّ الحاجب عليّ مات بالإسهال، وكان الأمر على غير

1- المنصوري، ابن نظيف، 161.

2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 480 / 12.

3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 480 / 12.

4- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 485 / 12.

5- مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 263 / 4.

6- أخبار الأيوبيّين، ابن العميد، 15.

7- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 485 / 12.

8- المنصوري، ابن نظيف، 180.

ذلك⁽¹⁾، فقد قتله آيبك غيلة⁽²⁾، ولم يعلم أحد من الناس السبب في قتله. ف قيل "إن الكامل أمر أخاه الأشرف بذلك لأشياء باطنة، لم يطلع الناس عليها"⁽³⁾، وقد يكون للكامل المصلحة ذاتها التي للأشرف في التخلص من الحاجب علي، أمّا ما عدا ذلك؛ فهي - غالباً - تكهّنات من الناس؛ لإيجاد سبب لعمل لم يجدوا له سبباً ظاهراً.

أمّا صاحب كتاب أخبار الأيوبيين؛ فيجعل سبب قتل الحاجب علي هو أخذه لزوجة جلال الدين منكبرتي، الذي سبب هُجوم جلال الدين على خلّاط، وأخذه زوجة الأشرف منها، "فسير الأشرف إلى مملوكه عزّ الدين صاحب دارا في أن يقبض على الحاجب، ويقتله، فقتله"⁽⁴⁾.

وهنا؛ يجب أن نذكر أن هُجوم جلال الدين الناجح على خلّاط، وقَتَحها، وأخذ زوجة الأشرف منها كان بعد قتل الحاجب علي، وأثناء ولاية عزّ الدين آيبك عليها.

إن كُُل ما عرفناه عن الحاجب علي هو أن لقبه حُسام الدين، وأنه ابن حَمَاد⁽⁵⁾، وأنه "من أهل الموصل، واتصل بخدمة السلطان الأشرف، وصار من أخصّ أصحابه، وأزلامه"⁽⁶⁾. وقال ابن الأثير عن الحاجب علي: "كان حافظاً لصاحبه، مُشفقاً عليه، وحسن السيرة في الرعية"⁽⁷⁾.

وقال ابن واصل عنه: "كان - رحمه الله - حسن السيرة، كريماً، كثير البرّ، والصدقات، عمّر الخانات في طُرُق السبيل"⁽⁸⁾. ولم نعرف من أهله سوى أخ له اسمه بدر الدين عُثمان، كان قد ترقّى في خدمة الأشرف أيضاً، حتّى إنّه كان رسوله إلى دار الخلافة عام 622 هـ⁽⁹⁾، فلمّا سمع الأشرف بموت الحاجب علي ألقى القبض على عُثمان "وأخذ جميع ما له، واستقاله، وبقي في الاعتقال مُدّة، ثمّ أطلقه"⁽¹⁰⁾.

1 - المنصوري، ابن نظيف، 180.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 485 / 12.

3 - مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 263 / 4.

4 - أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 15.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 485 / 12، والمنصوري، ابن نظيف، 173.

6 - مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 263 / 4.

7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 485 / 12.

8 - مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 263 / 4 - راجع ترجمة الحاجب علي في: شذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 119.

9 - المنصوري، ابن نظيف، 118، حاشية المُحقّق من تاريخ ابن الفرات، 5 / 172.

10 - المنصوري، ابن نظيف، 180.

ويبدو أن أبلغ ردّ على الأشرف لقتله الحاجب علي، لا لذنوب سوى تميّزه، وتوفيّقه، كان من جلال الدين الخوارزمي، الذي جاء مقتل الحاجب في مصلحته، فقد حصر خلّاط، وملكها، وأسر عزّ الدين آيبك النائب الجديد للأشرف بها، وقتله⁽¹⁾.

وجاء العدو الأكبر للحاجب علي الذي هو جلال الدين منكبرتي، فانتقم له من الأشرف؛ حيث أخذ خلّاط منه عام 627 هـ 1230 م، وردّ إلى الحاجب علي اعتباره، فقد شعر الناس بفقدته، كما قام جلال الدين بالانتقام له من آيبك، فقتله.

2. الخادم صواب:

هو شمس الدين صواب العادلي، نسبة إلى الملك العادل بن أيّوب، فقد "كان أكبر الخدّام العادلية، وأوثقهم"⁽²⁾. كان صواب خادماً طواشياً⁽³⁾، تربّى في ظلّ الملك العادل، ولما توفّي العادل، انتقل للخدمة مع ابنه، وولّي عهده الملك الكامل، الذي سلّمه قيادة الجيش، فكان يُضرب به المثل في الشجاعة⁽⁴⁾، وذكر أنّه "أحد الفرسان المذكورين، كان إذا حمل يقول: أين أصحاب الخصي"⁽⁵⁾. كان له أيّام عزّه أكثر من مائة خادم، وأكثرهم أصبحوا - فيما بعد - أمراء⁽⁶⁾، وكان صاحب برّ، وصدقة، ومعروف بين الناس⁽⁷⁾.

وفي عام 629 هـ 1232 م، تحرّك الكامل نحو بلاد الشّرق قاصداً آمد، فاصطحب معه ابنه الصّالح أيّوب، وبعد فتح آمد ولّى الكامل ابنه الصّالح نائباً عنه في آمد وبلاد الشّرق، ولكنّه وضع معه شمس الدين صواب، فكان صواب يتصرّف في كلّ شيء "والصّالح في صورة النائب فقط"⁽⁸⁾، فكان لصواب النقض والإبرام في كافّة أمور حُكم بلاد الشّرق، أمّا الصّالح؛ فهو صورة معه⁽⁹⁾.

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 485 / 12.

2 - كنز الدرر، ابن آيبك، 309 / 7، ومُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 34 / 5.

3 - الطواشي: هو مملوك خصي، وكان يُخصّص للخدمة في دور النساء.

4 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 149.

5 - المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 148.

6 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 149، والمُختار، ابن الجزري، 159، ومرآة الجنان، البافعي، 4 / 60.

7 - المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 159.

8 - مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5 / 17 - 134.

9 - مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5 / 34.

وفي عام 631 هـ 1234م، تحرّك الملك الكامل من مصر ليقوم بحملته ضدّ سلطنة سلاجقة الروم، وانضمّ إليه كلّ ملوك بني أيّوب، وأمرائهم، فتشكّل لديه أكبر جيش أيّوبي بعد عصر صلاح الدّين⁽¹⁾، وكان الخادم صواب هو قائد مقدّمة الجيش "الشاليش"⁽²⁾.

ولمّا عجز الكامل عن اجتياز الممرّات الجبلية لدخول بلاد سلاجقة الروم، شكّل قوّة بقيادة المظفّر ملك حماة ومعه الخادم صواب، فأوقع بهم جيش علاء الدّين كيّقباد، وأسر المظفّر، كما أسر صواب، لكنّ علاء الدّين أطلقهم، وأكرمهم⁽³⁾، وعاد صواب ليقيم في آمد نائباً كما كان.

وفي عام 632 هـ 1235م، توفّي شمس الدّين صواب في آمد وهو نائب للكامل فيها، ودُفن بها⁽⁴⁾. وبعد وفاة صواب استقلّ أيّوب بن الكامل بحكم بلاد الجزيرة، وتسلمّ حصن كيفا، بما فيه من الذخائر والمال، وصار يحكم في آمد، وبلادها، وحرّان، والرقّة، والرّهّا، وسروج، ورأس عين، وما يتبع تلك المدن من البلاد⁽⁵⁾.

3. الخادم طغريل:

عندما اشتدّ المرض بالملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدّين، عهد بالملك لابنه الصغير محمّد، ولقبه العزيز، وكان عُمره ثلاث سنين، وتجاوز - بذلك - ما جرت به العادة من تولية الابن الأكبر، وكان ذلك خوفاً منه على ملكه من عمّه العادل، فابنه العزيز هو - في الوقت نفسه - ابن بنت العادل، فأمل أن يحافظ - بذلك - على الملك في ذريّته، ولصغر سنّ العزيز جعل من مملوكه طغريل مربّياً وأتابكاً لولده، ليقوم بأمره، ريثما يبلغ أشده.

كان طغريل - ولقبه شهاب الدّين⁽¹⁾ - مملوكاً للظاهر غازي من أصل رومي، وثق به، وأمل منه أن يحفظ ملك ولده الصغير. ولما مات الملك الظاهر قام طغريل بأمر العزيز، وأمر مملكة حلب خير قيام، كان الملك الأشرف بن العادل يقول عنه: "إن كان لله وليّ في الأرض فهو هذا الخادم"⁽²⁾. وقد ذكره المؤرّخ ابن الأثير، وهو من ناقي البيت الأيّوبي ومن يلفّ لفّه، قال: "هو من خيار عباد الله، أحسن السيرة، وعدلّ في الناس، وأزال كثيراً من السّنن الجارية، وأعاد أملاكاً كانت قد أخذت من أربابها، وقام بتربية الطفل أحسن قيام، وحفظ بلاده، وملك ما كان يتعدّر على الظاهر ملكه، وما أقبح بالملوك وأبناء الملوك أن يكون هذا الرجل الغريب المنفرد أحسن سيرة وأعفّ عن أموال الرعية وأقرب إلى الخير منهم، ولا أعلم - اليوم - في ولاة أمور المسلمين أحسن سيرة منه"⁽³⁾.

وقال عنه ابن الجزري: "كان صالحاً زاهداً محسناً متصدّقاً يُحيي ثلث الليل صلاة، ويجالس الصالحين، وكان واسطة خير. وكان قد طهر حلب من الفسق والفجور والمكس والخمور"⁽⁴⁾.

1 - رسم بعض المؤرّخين الاسم: طغرل، وبعضهم بزيادة ياء فيه: طغريل. راجع ترجمته في: وفيات الأعيان، ابن خلكان، 100/7، وزبدة الحلب، ابن العديم، 215 - 216، والنجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 286، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 145.
2 - المختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 154.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 313.
4 - المختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 154.

1 - مُفرّج الكروب، ابن واصل، 5 / 75.
2 - المختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 149.
3 - المختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 149، ومُفرّج الكروب، ابن واصل، 5 / 78.
4 - امرأة الجنان، اليافعي، 4 / 60، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 149، والمختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 159، - وينفرد ابن شدّاد، فيذكر أن صواب توفّي عام 633 هـ (الأعلاق الخطيرة، 3 / 524).
5 - مُفرّج الكروب، ابن واصل، 5 / 134.

الفصل الثاني

العلاقات الخارجية للقبائل البدوية

المبحث الأول:

سلطة الدولة وقوة البدو

مع أن الحُكَّام الأيوبيين كانوا أكراداً بأصلهم، فلم يُلاحظ اهتماماً خاصاً منهم بالأكراد، أو بتميز لوضعهم، أو بتعامل على المجموعات والقوميات الأخرى. ويُمكن أن نرد ذلك إلى أن الأسرة الأيوبية الحاكمة قد تعرّبت تماماً بثقافتها، وتربيتها، فقد نشأ أفراد الأسرة الأيوبية "نشأة عربية إسلامية، وشغفوا حباً باللغة العربية، وآدابها، وعُلُومها، وقربوا إليهم الشعراء، والعلماء، والكتّاب"⁽¹⁾، وكان لتعلقهم الشديد بالإسلام أكبر الأثر بسُرعة تعرّبهم، وهذا ينطبق على كُُلّ الأكراد، وليس على الحُكَّام الأيوبيين فقط⁽²⁾، وإن الصدمات المحددة التي تمت بين الأيوبيين وبعض القبائل العربية، مثل حملتهم في مصر على بني كنز الدولة، أو الجذامين، فهي حالات خاصة، تمت تحت ضغط ظروف سياسية خاصة⁽³⁾.

وعلى العكس من ذلك؛ نجد أن ما ارتقى إليه أمراء القبائل العربية في مصر والشام في العصر الأيوبي فاق كُُل ما سبقه، وذلك نتيجة لتنامي دورهم السياسي والعسكري، إن كان في الصراعات الداخلية بين مُلوك البيت الأيوبي، أو في الصراع ضدّ فرنج الساحل الشامي، فقد أحدث العادل منصب إمرة العرب في الشام، وقلّده للأمير حديثة⁽⁴⁾ بن عقبة بن فضل بن ربيعة⁽⁵⁾، وتوارث هذا

1 - في تاريخ الأيوبيين، أحمد العبادي، 94 / 2.

2 - لقد بلغ من تعرّب الأكراد في العصر الأيوبي روايتهم للحديث، وتعمّقهم في الفقه، وتدوّنهم للشعر العربي، ونظم بعضهم لبديع الشعر، انظر: ديوان الملك الأحمَد الأيوبي، وكذلك قصيدة جُندي كُردي في رثاء أم المظفر ملك حماة. (المختصر، أبو الفداء، 3 / 124).

3 - دراسات في تاريخ المُرُوبة، عبد المجيد عابدين، 118.

4 - قبائل العرب، العمري، 117.

5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 206، - يقول ابن خلدون: إن الإمرة على العرب كانت زمن العادل لعيسى بن مُحمَّد بن ربيعة، ثُمَّ بعده لما نفع بن حديثة بن عقبة بن فضل، الذي تُوفي عام 630 هـ وخلفه ابنه مهناً، ومهناً بن مانع هو الذي حضر معركة عَيْن جالوت مع المظفر قطز، وأقطعه بعدها سلمية. (العبر، ابن خلدون، 6 / 18).

المنصب أبناؤه، وازدادوا رفعة وعزة ومنعة، حتى أصبح الأمير منهم يُسمّى ملكاً⁽¹⁾، ولا يختلف عن الملوك إلا بطريقة حياته البدوية⁽²⁾. وكانت رتبة الإمرة تعني منح بوق يُضرب على بابه، وفي تحركاته، وعلم يرفعه أثناء مسيره⁽³⁾.

وقد نظمت الدولة الأيوبية - فيما بعد - علاقاتها مع أمراء البدو من خلال ديوان خاص، يُشرف عليه موظف عالي المستوى؛ يُسمّى المهمندار، ربّما كانت وظيفته تُعادل مرتبة وزير لشؤون البدو، وكان يتمتع بمعرفة دقيقة لقبائلهم، وأنسابها، والعلاقات فيما بينها، "ويتلقّى الرُّسل والعُربان الواردين على السلطان، ويُنزلهم دار الضيافة، ويتحدّث في القيام بأُمُورهم"⁽⁴⁾. ومُعظم معلومات المؤرخين عن هذه الوظيفة مُستمدة من مهمندار عاصر أواخر الدولة الأيوبية وأوائل المملوكية هو بدر الدين أبو المحاسن يُوُسُف بن أبي المعالي بن زماخ المعروف بابن سيف الدولة، لأنّه - فيما يقال - من ذُرِّيَةِ سيف الدولة الحمداني⁽⁵⁾، ويُضيف ابن حَجَر عن بدر الدين مهمندار العَرَب: "وُلد سنة اثنتين وستّماية، وكان مُتجنّداً - من أمراء السيف - وله يد في النّظم والتاريخ، وله تصانيف في الأنساب والبديع"⁽⁶⁾. وعلى ما يبدو؛ لم يكن الهدف من إقامة إمرة البدو تسليط قبيلة على بقية القبائل، أو رفعها فوقهم، وهذا أمر حسّاس جدّاً في التعامل مع البدو، بل كان لتُوسع أراضي الدولة وتداخل الحدود مع الدول المحيطة وضمن الممالك الأيوبية نفسها، ولعدم اعتراف البدو بهذه الحدود وتحركهم بحريّة كاملة عبرها، فهدفت الدولة الأيوبية، من منصب أمير العَرَب، ضبط هذا التحرك، وربّما الأهم من ذلك ضبط استغلال القبائل البدوية للصراعات الإقليمية، فتقوم الدولة بدعم قبيلة قويّة عن طريق تسمية شيخها أميراً للعرب، لتساعد الدولة في ضبط بقية القبائل.

1- العبر، الذهبي، 5 / 344.

2- حول إمرة العَرَب راجع: العبر، ابن خلدون، 6 / 18.

3- وهي تعادل إمرة طبلخانة أيام المماليك، راجع: قبائل العَرَب، العمري، 16.

4- صُبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 22.

5- ابن حَجَر، الدرر الكامنة، 5 / 231.

6- ابن حَجَر، الدرر الكامنة، 5 / 231.

ونتيجة لتنامي دور القبائل في الدولة الأيوبية، ومن بعدها في الدولة المملوكية، نجد أن عدداً لا يُستهان به من المؤرخين قد أفردوا مؤلفات عن الأعراب⁽¹⁾، وكُلٌّ من كتب عن العصر الأيوبي لأبْدُ أنّه تحدّث عن الأعراب بقليل أو بكثير، فكان لهم - بذلك - فضل حفظ أحداث ومعلومات كانت - حتماً - ستضيع لو لم يقوموا بتدوينها في مؤلّفاتهم. وهُنا؛ لأبْدُ من الإشارة إلى ظاهرة بدت شبه عامّة في الكتابة عن البدو، أو الأعراب، فقد ركّز الكتاب على ميل البدو للفساد والتخريب، ومع أن هذا لا يُمكن إنكاره في ذلك العصر، ولكنّه تعميم يُخطئ أكثر ممّا يُصيب في شموله لكلّ ما يقوم به الأعراب، فلم تُؤخذ بعين الاعتبار الأمور التالية:

1 - نظرة الدولة إلى البدو، فقد كانت - غالباً - متعالية، إن لم نقل إنّ كان فيها من الاحتقار للأعراب الشيء الكثير.

2 - شعور الأعراب بأنهم أبعادوا - بالقوّة - عن مسرح السياسة في بلدان لهم فيها أكثر بكثير ممّا للحكّام الغريباء بأصلهم على الأقلّ.

3 - انعزال الملوك والأمراء في الدولة عن مُشكلات الشعب بشكل عامّ، ممّا يستدعي - في كثير من الأحيان - ردّ فعل شعبيّاً، إن كان في المُدن، أو الأرياف، أو لدى البدو، ولكُلّ طريقته في التعبير عن المطالبة بحقه، أو تأكيد وجوده.

4 - دائماً كانت الدولة تُواجه تحركات الأعراب بأقصى ما تملك من العنف، الإجماع، والقتل، والنهب، ذلك كلّهُ لأبْدُ أن يترك أحقاداً قابلة للإثارة كلّما سنحت الفرصة.

ولذلك نجد أن مُعظم من كتب في ذلك العصر عن البدو قد كتبت بنقّس الدولة، وبوجهة نظرها، وبرؤياها لقضية الأعراب. ولكن؛ إذا أردنا أن نكون صادقين أكثر، فإن واقع الأعراب نفسه كان يتحمّل جزءاً كبيراً من المسؤولية، وذلك لعدّة أسباب، منها:

1 - اعتاد البدو على طريقة للكسب، أصبحت - مع مُرور الوقت - مشروعة في عُرفهم؛ وهي

النهب.

1 - مثل: المقرئزي: البيان والأعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب، والقلقشندي: فلاتد الجهمان، وابن فضل الله العمري: قبائل العَرَب، وغيرهم.

2 - ضعف الشُّعُور الوطني والدِّيني لدى البدو، نتيجة لعوامل عديدة، أدَّى لتقديم مصلحتهم الآنية على كُلِّ ما عداها في مواقفهم، وتصرفاتهم.

3 - ضغط الظُّروف البيئية على البدو، كسنوات الجفاف مثلاً، في ظلِّ غياب مُساندة فعَّالة، من الدولة، أو من المُجتمعات المستقرَّة في الأرياف والمُدُن، لتجاوز تلك الظُّروف.

4 - إنَّ تخلُّف مُجتمع البداوة وافتقاده للتنظيم، أقام هُوةً بينه وبين المُجتمع الحضري، مع كُلِّ ما بينهم من احتكاك، ذلك كُلُّه جعل الأعراب هدفاً سهلاً للدولة، تستطيع التعامل معه وفق مُقتضيات الظُّروف، فإمَّا قتلاً وتشريداً، وإمَّا تحالفاً واستغلالاً لقُوَّة البدو العسكرية.

ولكنَّا - الآن - لا نستطيع إلَّا أن نعترف أنَّه كان للأعراب كثير من المواقف الجهادية ضدَّ أعداء الأُمَّة، ومن المواقف الوطنية التي كانت تتفجَّر عندما يُحسن القائمون على الدولة توجيهها ورعايتها. ورُبَّما كانت كُلُّ تصرُّفات البدو اللامنضبطة موجَّهة ضدَّ الدولة، فلضغطها الدائم عليهم كانوا يستغلُّون وقت حاجتها إليهم أكبر استغلال، فعندما استدعى الملك الأشرف عام 615 هـ 1218م، الأمير مانع بن حديثة وعُربانه لمُساعدته في التصدِّي هُجُوم سُُلطان الرُّوم كيكاوس على الجزيرة وحلب، "عاشت العُربان في بلد حلب، والملك الأشرف يُداريهم لحاجته إليهم"⁽¹⁾. وفي عام 620 هـ 1223م، قامت قُوَّة مُسلَّحة كبيرة من الأعراب، واعترضت قافلة الحجِّ الشَّامي، ولولا حنكة قائد القافلة أمير الحاج شرف الدِّين يعقوب بن مُحمَّد الموصلِي، الذي صانع الأعراب بماله، وصان القافلة منهم، بالترغيب والترهيب⁽²⁾، وإلَّا لكانوا فتكوا بها دُون أيِّ وازع ديني، أو مُراعاة لحرمة حُجَّاج البيت الحرام. كذلك استغلَّ الأعراب هُجُوم جلال الدِّين منكبرتي على شمال العراق عام 622 هـ 1225م، فخلعوا الطاعة، وقطعوا الطريق، ونهبوا القُرَى⁽³⁾، وقد اعتبروا أنَّها فُرصتهم للانتقام، ولكن؛ ممَّن؟ من الضُّعفاء، والبُسطاء، وصغار التُّجَّار، وليس من الحُكَّام، أو القادة، ولكن؛ يبدو أن الأعراب لم يكن لديهم وعي كاف لإدراك الفرق بين الجهتين.

1 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 265، ورُبَّدة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 645.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 418.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 428.

المبحث الثاني:

المجال السِّيَاسي والعسكري للبدو

كان البدو - مُنذُ قيام الدولة العَرَبِيَّة الإسلاميَّة - يُشكِّلون طبقة لها كيانها المُستقل، وقد حافظوا على هذا الكيان ماداموا مُحافظين على طبيعة حياتهم ضمن البيئة البدويَّة. وعندما بدأت سيطرة الدولة العبَّاسيَّة تراخي، وقواها تضمحلُّ، أخذت القبائل العَرَبِيَّة البدويَّة تفرض نُفوذها، فهي مازالت قوى عسكريَّة، لها نوع من التنظيم، مكَّنها من لعب دور جديد من أدوار الصراع بين البداوة والحضر على أرض الشَّرْق العَرَبِي، التي طالما تصادما عليها، فكلَّما ضعفت سُلطة الدولة الحضرية في المُدُن، ازداد نُفوذ البدو عليها، حتَّى إنَّهم تمكَّنوا - في هذه المرحلة التاريخية - من إقامة دُول حقيقيَّة فوق مراكز حضرية مُهمَّة في شمال بلاد الشَّام. إنَّ مرحلة سُيُوخ القبائل البدويَّة في مُدُن الشَّام، الذين كرهوا إحلال الأمن، وقاوموا مركزية الحُكْم، قد حوَّل البلاد إلى حالة من الفوضى، لا تُحسد عليها، ممَّا فتح الباب أمام قوى التُّركان الغريبة، ومكَّنها من التغلغل إلى البلاد بفضل القُوَّة وبعض التنظيم اللدِّين امتلاكها حُكَّامهم السلاجقة. ولكن؛ لم يكن دور البدو الدائم هو تدمير المراكز الحضرية، ففي بعض الأحيان أحيوها؛ بحيثُ تألَّقت حتَّى التوهُّج، كما في دولة بني حمدان، التي ظهرت كقُوَّة تُمثِّل العصية العَرَبِيَّة⁽¹⁾.

وبعد قيام الخلافة العبَّاسيَّة حدث تحوُّل كبير في طبيعة البنية العسكرية للدولة العَرَبِيَّة الإسلاميَّة، فقد اعتمد العبَّاسيون في تنظيمهم العسكري على جيش نظامي محترف، حلَّ محلَّ القبائل العَرَبِيَّة والجُند المتطوِّعة والمُجاهدين، وبالتالي؛ قُطعت الصلة الرِّسميَّة بين الدولة والقبائل عندما أُلغيت أُعطياتهم من ديوان الجُند، ولم تُحيَّد الدولة - بذلك - قُوَّة البدو العسكرية، بل فقدت وسيلة مُهمَّة للسيطرة على هذه القُوَّة. ومع تغلغل الضعف في الإدارة العبَّاسيَّة زحفت قبيلة خفاجة من الجزيرة العَرَبِيَّة، في مطلع القرن الرَّابِع الهجري، وسيطرت على الكوفة والمناطق التي حولها⁽²⁾.

1 - ظهر الإسلام، أحمد أمين، 1 / 58، وكذلك راجع: مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. شهيل زَكَار، الموسوعة الشَّاملة، 1 / 198.

2 - حول بني خفاجة راجع كتاب: بنو خفاجة، مُحمَّد عبد المنعم خفاجي.

كذلك تحرك بنو أسد نحو العراق، وأقاموا الإمارة المزيديّة⁽¹⁾، وكانوا من القوة؛ بحيث حصلوا على اعتراف السلطة البويهية المتحكمة في بغداد عام 403 هـ 1012 م، واستمرت هذه الإمارة تسيطر على برّ وسط العراق من البصرة حتى تكريت، إلى أن حلّ السلاجقة محلّ البهويين، فقصوا عليها تدريجياً.

كما أن عدداً من هذه الإمارات أو الدويلات البدويّة تشكّلت على الحدود البيزنطيّة عندما ضعفت قوّة الدولة العبّاسيّة عن حمايتها، ودور دولة بني حمدان لا يُنكر في ذلك، كذلك قامت إمارة آل الشيخ البدويّة في آمد⁽²⁾. وعلى أنقاض الدولة الحمدانية أقام بنو كلاب إمارتين مستقلّتين؛ وهما الإمارة العقيلية التي قامت في بلاد الجزيرة⁽³⁾، والدولة المرداسية⁽⁴⁾ في حلب. أمّا الشكل الآخر الذي ظهرت فيه قوّة القبائل البدويّة؛ فكان من خلال الصراعات بين الدُول القائمة قُربهم، فقد كانت القوى البدويّة المتواجدة في المنطقة هي التي تُرجّح كفة الصراع بينها، وذلك وفقاً لمصالح القبيلة، وبغضّ النظر عن أيّ اعتبار آخر، وهذا ما دفع ابن فضل الله العمري للقول: "أمّا في الواقع؛ فكُنْتُ أراهم - دائماً - مع الغالب"⁽⁵⁾.

البدو في الدولة الأيوبيّة:

عندما أرسى السلطان صلاح الدّين قواعد دولته كانت القبائل العربيّة كما كانت قبل خمسمائة عام، وكما ستستمرّ لألف عام قادمة، تجوب أرض الدولة في مصر والشّام، وتجوّل على حدودها، دون أن تعترف بهذه الحدود، فبين العراق والشّام وبين نجد والشّام، وبين برقة وبلاد مصر، تتحرّك كثير من هذه القبائل، ولا يجد من تحركها أو يُحدّده إلا عاملين: الأوّل طبيعي، وهو وجود الأعشاب لرعي خيولها ومواشيها، والثاني: سياسي، فلكلّ قبيلة، أو مجموعة قبلية، مناطق نفوذ، وجمال حيوي لا تتركه إلا بالقوّة. ولكن؛ غالباً ما كانت القبائل العربيّة، أو تحالف هذه القبائل، يُشكّل قوّة عسكريّة وسياسيّة ضاغطة على الدولة، فيحظون بالامتيازات والإقطاعات والمساعدات المالية والألقاب لشيوخهم. وكان عدد أفراد القبيلة يعني الشيء الكثير في تحديد موقعها بالنسبة لبقية

1 - حول هذه الإمارة راجع كتاب: الإمارة المزيديّة، عبد الجبار ناجي.

2 - مروج الذهب، المسعودي، 5 / 145.

3 - راجع كتاب: الإمارات العربيّة في بلاد الشّام، محمّد مرسي الشّيش.

4 - راجع كتاب: بنو مرداس الكلابيون، محمّد أحمد عبد المولى.

5 - قبائل العرب، العمري، 13.

القبائل، أو بالنسبة للدولة المجاورة لها، فعدد الأفراد هو عدد المقاتلين، ومُعظم مُقاتلي البدو كانوا فرساناً يمتازون بخفة المناورة.

وكان اعتماد الممالك الأيوبيّة على البدو كبيراً منذ أيام السلطان صلاح الدّين، ولكن؛ ضمن الواقع التالي:

1 - تساند القبائل العربيّة الجيش الأيوبي كقوّة منفصلة بتنظيماتها القبلية، ويُمكن أن تُقاتل كأحد الأجنحة المستقلّة للجيش، وذلك نظراً لطريقة تسليح البدو الخفيفة، وطرائقهم الخاصّة في القتال، الذي هو - غالباً - فردي، وغير منضبط، ضمن خطة المعركة العامّة.

2 - يندر أن نجد معركة لم يُجنّد فيها الأيوبيّون البدو للقتال فيها معهم، إلا أننا نلاحظ - دائماً - صيغة الحذر في التعامل الأيوبي مع البدو، وخاصّة في الأعمال الحربيّة؛ حيث يُمكن أن ينقلب البدو في أيّ لحظة لنهب أُنقال الجيش الخليف إذا ما لاحت هزيمته، كما حدث في معركة دميّاط عندما نهبوا مُعسكر المسلمين⁽¹⁾.

3 - غالباً ما كانت تنعكس الصراعات بين الممالك الأيوبيّة على القبائل البدويّة المحالفة لها، فتجري معارك بين القبائل لا مصلحة مباشرة فيها لكلا الطرفين، إلا إرضاء لأحد الملوك الأيوبيّة.

4 - كلّما كانت الدولة أضعف وعجزت عن تجنيد الجيوش ازداد اعتمادها على البدو كقوّة عسكريّة بديلة؛ حيث كانت موجودة دائماً، ومُستعدّة أن تُقاتل دائماً، ونادراً ما يهجمها مع من تُقاتل، أو ضدّ من، حتّى شكّل البدو - في بعض الأحيان - قوّة كُبرى لبعض الدُول الأيوبيّة، فقال عنهم ابن فضل العمري: "وهم أسوار المُدن، وحفظة الطُّرُق، ولم يزل منهم أئمة للطلائع، وجناح للجُيُوش"⁽²⁾.

5 - منذ ما قبل قيام الدولة الأيوبيّة، خاصّة القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، والشرق العربيّ يشهد حالة من تعاظم الدور السياسي والعسكري للبدو، مع أن ذلك لم يترافق بزيادة كبيرة في أعدادهم، أو نموّ لمواردهم الاقتصاديّة⁽³⁾، فتعامل الدُول الأيوبيّة مع البدو كان تعاملًا مع واقع قائم، لكنّ الأيوبيّين - غالباً - ما كانوا يُسيطرون عليه.

1 - حياة القدّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 36 / 99.

2 - قبائل العرب، العمري، 69.

3 - الشرق والغرب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشّيش، 31.

المبحث الثالث:

قبائل البدو من غير العرب

كانت كلمة بدو في العصر الأيوبي تشمل القبائل العربية البدوية ومجموعات عرقية أخرى، أهتمها: التركمان، والأكراد، وكانوا - بغالبيتهم العظمى - من المسلمين السنة، وقد أتبع التركمان مذهب أبي حنيفة، بينما أتبع الأكراد مذهب الشافعي⁽¹⁾.

أ. التركمان:

وهم قبيلة الأغز من الترك، ويُعدون اثني عشرين بطناً، أولهم وأشهرهم: قنق، ومنها السلاطين⁽²⁾. ويقول أبو الفداء: إن الغز، وهم طائفة من الترك، قصدوا خراسان، وهزموا السلطان سنجر، وكانوا يعيشون في بلاد ما وراء النهر، حتى أخرجهم منها الخطأ، "وكانوا كُفَّاراً، وكان مَنْ أسلم منهم وخالط المسلمين يصير ترجاناً بين الفريقين، .. ثم قيل تركماناً بالكاف العجمية، ولما أسلم الغز جميعهم قيل لهم: تراكمين"⁽³⁾، ويؤكد أبو الفداء أن الغز هم التركمان، ولكنه لم يكن مقتنعاً في تفسيره لاسم تركمان، فالجذر ترك هو أساس التسمية كما هو واضح، وليس له علاقة بالترجمة.

مع امتداد دولة السلاجقة، وبعد مقتل الوزير البساسيري، بدأ الغز بالانتشار في شمال الشام، وأخذت قوتهم تتزايد فيه. ثم عرف الشام مجموعة من التركمان باسم: النواكية، عبرت إلى الساحل الشامي من الأراضي البيزنطية بزعامة مقدّمهم: قرلو، ويبدو أن النواكية ليس اسم عشيرة، بل هو اسم لتجمع كان خارجاً على السلطان السلجوقي⁽⁴⁾. ثم تدفقت نحو الشام مجموعات متعددة من التركمان، وبرزت أساءة مقدّمهم، مثل: جبج، وأرتق⁽⁵⁾، وصندق. وغدا الشام مجالاً للصراع بين قوتين بدويتين، الأولى من الأعراب المتسلطين على مناطق واسعة من البلاد، وهم مُتشيّعون، والثانية من الأتراك السنة، تُريد أن تحل محل الأعراب، وقد مهد الصراع بينهما للسيطرة السلجوقية - فيما بعد - على الشام⁽⁶⁾.

1 - الشرق والغرب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشيخ، 229.

2 - ديوان لغات الترك، الكاشغري، 1 / 56.

3 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 26.

4 - ناوك: كلمة فارسية تعني القوس، وربما كانت النواكية تعني جماعة الرماة.

5 - أرتق: أسس الدولة الأرتقية في شمال الشام.

6 - مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، د. شهيل زكّار، الموسوعة الشاملة، 1 / 170 - 126.

وفي أيام حكم السلاجقة، وبعدهم الزنكيون، تدفقت على شمال بلاد الشام والجزيرة قبائل تركمانية بقضّها وقضيضها، وهي مازال على حالة البداوة، وقامت بالانسياب فيها، تُمارس الرعي، وتربية الماشية، يُستون في سهول الجزيرة، ويُصيّفون في سُفوح طوروس⁽¹⁾، وربما كانت سهول حمص آخر ما وصلته القبائل التركمانية جنوباً⁽²⁾، وقد شكّلت مصدراً كبيراً للمتطوعة في الجيوش الأيوبية، فالسلطان صلاح الدين ومن جاء بعده من ملوك بني أيوب كانوا يقومون بحملات مُنظمة لجمع التركمان، ويدفعون لهم النفقات، مُقابل خدمتهم في الجيش⁽³⁾.

العلاقات بين التركمان والممالك الأيوبية:

ولكن هذه المجموعات القبلية التركمانية، ربما لعدم توحيدها، أو لعدم قدرتها على تنظيم نفسها، لم تُشكّل قوة عسكرية أو سياسية ضاغطة على الممالك الأيوبية، فلم يكن لهم أيّ حساب في ميزان القوى الأيوبي إلا من خلال قيامهم باضطرابات وقطعهم الطريق عندما يضطرب الأمن، أو تسنح لهم الفرصة⁽⁴⁾. ولكن؛ عندما تتبنى دولة أو تدعم جماعة مُنظمة قبائل التركمان هذه، وتُحاول تسخيرها لمصالحها، فسرعان ما نجد أن أحد أمراء التركمان قد ظهر على الساحة، ومعه قوى عسكرية كبيرة، تُهدّد دولاً وممالك قوية، ومثال ذلك:

1. **قنغر التركماني:** بعد وفاة الملك العزيز صاحب حلب عام 634 هـ 1237م، ظهر على الساحة أمير تركماني اسمه قنغر، يمتلك قوة عسكرية كبيرة، مكنته من الإغارة على أراضي مملكة حلب، وهزيمة جيشها، "فتخوّف أمراء حلب أن يكون ذلك بأمر الرومي، فأرسلوا له، فأنكر، وأمره برّد ما أخذ، فردّ بعضه، وانكفّ عن العبث والفساد"⁽⁵⁾. ويبدو أن الأمر برّمته كان بتوجيه من كَيْقْبَاز سلطان سلاجقة الروم، بقصد توطيد هيمنته على مملكة حلب الأيوبية، التي اعتقد أن الوقت مُناسب للتدخل في شؤونها، بعد موت ملكها، وقيام ابنه الصغير مكانه⁽⁶⁾.

1 - روايات المؤرخ ميخائيل السوري الكبير، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 5 / 298.

2 - راجع: مملكة حمص، منذر الحايك، 247.

3 - الشرق الأدنى - الأيوبيون، السيد الباز العربي، 165.

4 - مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 327، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 179.

5 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 680 - 681.

6 - راجع تفصيل ذلك في مبحث العلاقات مع سلاجقة الروم في هذا الكتاب.

وبعد عام واحد؛ انقلبت الآية مع قنغر، ففي عام 635 هـ 1238 م، نزل السلطان الكامل⁽¹⁾ من مصر، وحاصر دمشق، وأخذها، فاستعدت حلب للحصار، واستقدمت المقاتلين والمتطوعة لاستخدامهم، ووصل قنغر التركماني، فاستخدم بحلب، وقُدِم على التركمان، ولكن القدر لم يتخ لقنغر الدفاع عن حلب، فأثناء استعداد السلطان الكامل لغزو حلب مرض، ومات بدمشق⁽²⁾، فقام الحلبيون بالقبض على قنغر التركماني، وحبسوه بقلعة حلب، ونهبوا خيامه ودوابه، فلم يعد لهم به حاجة، كذلك كان الأمر بالنسبة له مع سلاجقة الروم، فبعد أن استخدموه، تركوه لمصيره في حلب⁽³⁾.

2. ابن دودي التركماني: أثناء تحرك الخوارزمية في الجزيرة وشمال الشام، ومهاجمتهم لمملكة حلب ضموا إليهم جموعاً من التركمان المتواجدين في المنطقة، وكانوا أعداداً كبيرة، فقد ذكر أنهم "سبعون ألف جوبان ما عدا الجفالة"⁽⁴⁾، وهذه مُبالغة، فلو كان عدد التركمان سبعة آلاف لكانوا كثيرين. وكان يقود جُوع التركمان هذه رجل منهم اسمه ابن دودي⁽⁵⁾، أو ابن دودا⁽⁶⁾.

ولكن تصدّي المنصور إبراهيم ملك حمص للخوارزمية وحلفائهم التركمان عام 640 هـ 1243 م، وإحاقه بهم هزيمة شنيعة⁽⁷⁾، أدت إلى تشتت قوى التركمان مرة أخرى، وتبعثرهم في الجزيرة وشمال الشام. كما أن وجود قوتين بدويتين هما القبائل العربية والقبائل التركمانية، مع ما لهما

1- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 685.

2- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 686.

3- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 687.

4- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 331، والأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 470 / 2 / 3، وزُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 706، - الجفالة: هم من جفل، أو فرع من شيء، ومضى هارباً على وجهه، أمّا الجوابنة: فجمعٌ مفردة جوبان، وفيها عدّة أقوال، فيمكن أن تكون نسبة إلى قبيلة جوبي الكردية (الشُّلُوك، المقرئزي، 4 / 1)، ونستبعد ذلك، فالحديث هنا عن التركمان. ويمكن أن تكون نسبة إلى جوبان وهي من قرى مرو (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: جوبان). ومن الاستخدامات اللاحقة هذه الكلمة نميل إلى الاعتقاد بأنه كان يقصد بالجوابنة المقاتلين المشاة الذين لا يجترئون القتال، ثم تطور معنى الكلمة فيما بعد لتطوّل على مَنْ يعمل برعي المواشي بالأجرة، (سيرة منكبرتي، النسوي، 107، ودراسات في تاريخ الرستن، منذر الحايك، 251).

5- مُفَرِّجُ الْكُرُوب، ابن واصل، 296 / 5، وزُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 512.

6- الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 470 / 2 / 3، وكنز الدرر، ابن أبيك، 7 / 305.

7- المختصر، أبو الفداء، 3 / 170.

من طريقة الحياة نفسها، كان لا بُدَّ أن يؤدّي إلى صدامات بينها، ففي عام 622 هـ 1225 م، جرت معركة كبيرة بين مجموعات من القبائل العربية وتجمّع لقبائل التركمان قرب الرقة⁽¹⁾.

3. الياروقية: وهم جماعة من التركمان، ينتسبون إلى ياروق، وهو زعيم قديم لهم وجدّ مُقدّمهم دلدُرُم، وقد ظهرت الياروقية كمجموعة عشائرية مُقاتلة في أيام السلطان نور الدين بن زنكي، وكانت حلب مقرهم الرئيس، فقد سكنوا في ريفها؛ حيثُ عرفت محلّتهم بالياروقية⁽²⁾. وكانت إقطاعاتهم في جبل السباق وتلّ باشر وغيرها⁽³⁾، وخدموا بعد موت نور الدين مع ابنه في حلب، وشاركوا مع قوّات الأتابكة ضدّ توسّع السلطان صلاح الدين في الجزيرة⁽⁴⁾. وبعد أخذ السلطان صلاح الدين لحلب انضموا إليه، وكانوا ضمن عسكر ابنه الملك الظاهر غازي بحلب طالما كان والده السلطان حياً، ولما توفّي صلاح الدين عام 589 هـ 1193 م، ترك الياروقية خدمة الظاهر، والتحقوا بعمّه الملك العادل⁽⁵⁾، وكان ذلك بسبب خوفهم من انتقامه منهم، فقد "تكبروا، وتحامقوا على الظاهر، وقصّروا في خدمته في حياة أبيه، وكانوا يُعظّمون دلدُرُم بن ياروق، ويركبون كلّهم في خدمته كأنّه السلطان"⁽⁶⁾، فلما استقلّ الظاهر بملك حلب اعتقل مُقدّمهم دلدُرُم بن ياروق، وطرد الياروقية كلّهم من حلب، وأخذ إقطاعاتهم، ثمّ شفع الملك العادل بدلدُرُم، فأطلقه الظاهر؛ حيثُ انضمّ إلى العادل⁽⁷⁾.

ب. الأكراد:

يقول المقرئزي: "اعلم أن الناس قد اختلفوا في الأكراد"، وبعد أن يعدّد أقوال لا يُعتدُّ بها حول أصلهم، يقول: "إنّنا هم قبيل من قبائل العجم، وهم قبائل عدّة"⁽⁸⁾. وهذا هو القول الفصل في اعتقادنا. وقد تواجدت قبائل الأكراد في المناطق نفسها من شمال الشام والجزيرة إلى جانب

1- المنصور، ابن نظيف، 112.

2- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 647، والتاريخ المختصر، ابن أبي الدم، 529.

3- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 601.

4- التاريخ المظفّر، ابن أبي الدم، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 21 / 260.

5- التاريخ المختصر، ابن أبي الدم، 528.

6- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 601.

7- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 602 - 604.

8- الخطط والآثار، المقرئزي، 3 / 83.

التركمان، وكانت مجموعات بدوية كردية، منذ القرن الخامس الهجري، قد هاجرت إلى تلك المناطق على دفعات، إما على شكل مجموعات عسكرية، أو تحركات قبلية، واستطاع بعضها تأسيس الدولة المروانية في ديار بكر⁽¹⁾، لكنها ظلت أقلية هشة الصراع مع المجموعات البدوية التركمانية على مناطق النفوذ، والاشتراك في أحداث الشغب كلما سنحت الفرصة. ولم يكن لها أي دور سياسي أو عسكري إلا من خلال التطوع العسكري كأفراد في الجيش النظامي، أو كعشائر تقاتل كقوات مساندة للجيش النظامي، وقد كانت عدّة قبائل من الأكراد تقاتل مع جيش عماد الدين زنكي في هجومه على الرها⁽²⁾. وحاول نور الدين بن زنكي موازنة التركمان بالأكراد، فاستخدمهم بجيشه بكثرة، وكان الأكراد قد أخذوا بالتدفق على شمال العراق والشام بعد أن دمر الكرج دولة منوجهر أو بني شداد الكردية، وهذه الهجرة ستمهد لانتقال السلطة من دولة الأتابكة التركمان إلى دولة الأيوبيين الأكراد⁽³⁾. ومع قيام الدولة الأيوبية برزت على الساحة مجموعات من الأكراد يجمعهم الانتساب إلى بلدة واحدة، أو قرابة عائلية وعشائرية، وكان منهم:

1. **القيمرية:** وهم قوم من الأكراد، ينسبون إلى بلدة قيمر⁽⁴⁾، هاجروا إلى الشام كمجموعة قبلية، وكان زعيمهم في دمشق ناصر الدين أبو المعالي حسين بن عزيز بن أبي الفوارس القيمري الكردي، وكانوا حامية دمشق في عهد الملك الصالح أيوب، وهم الذين استدعوا الملك الناصر يوسف، وفتحوا له أبواب دمشق، بعد قتل المالك للملك المعظم بن الصالح أيوب في مصر⁽⁵⁾. وقاتلوا مع الناصر يوسف في هجومه على مصر ضد المالك، وثبتوا معه عند الهزيمة، وقتل في تلك المعركة جماعة من أمرائهم⁽⁶⁾. ولكنهم ما لبثوا أن حاولوا قلب دولة الناصر يوسف عندما كان في محنته أمام التتار، فخاف الناصر، وتخيّل من الأمراء القيمرية، الذين في دمشق، فاضطرب، وتخيّر⁽⁷⁾.

- 1- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 2/ 294.
- 2- روايات المؤرخ الرهاوي المجهول، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 5/ 63.
- 3- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، د. سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، 2/ 280.
- 4- قيمر: قلعة في الجبال بين الموصل وخراب. (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: قيمر).
- 5- السلوك، المقرئزي، 1/ 463.
- 6- النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 7/ 8.
- 7- السلوك، المقرئزي، 1/ 500.

ويبدو أن القيمرية - منذ قدومهم إلى دمشق مع الملك الناصر يوسف - قد استقرّوا فيها، وشادوا فيها من المعالم العمرانية ما خلّد اسمهم حتى الآن، فتحّي القيمرية الواقع شرق الجامع الأموي، والمنسوب إليهم هو من أهم معالم مدينة دمشق القديمة، وقد أخذ الحي اسم من المدرسة القيمرية التي أنشأها الأمير ناصر الدين القيمري⁽¹⁾، ومن تسمية هذا الحي أطلق اسم باب القيمرية على الباب الشرقي للجامع الأموي⁽²⁾. كما توجد مدرسة أخرى باسم القيمرية، تسمى القيمرية الصغرى⁽³⁾. وفي دمشق - أيضاً - حارة القيمري، وهي في حي الصالحية عند البيارستان القيمري⁽⁴⁾.

2. الشهرزورية:

وهم مجموعة من الأكراد، ينتسبون إلى شهرزور⁽⁵⁾، فرّوا من أمام غزو هولاكو لشمال العراق، وقدموا إلى دمشق، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف فارس، ومعهم أولادهم ونسائهم، فاستخدمهم الملك الناصر يوسف، وأحسن إليهم، وأعطاهم الأموال والإقطاعات، وكان ذلك بطلب من القيمرية، وبتركيته للشهرزورية أمام الناصر. ولكن الشهرزورية لم يقتنعوا بما حصلوا عليه، ولم يزددهم إحسان الناصر إلا عصياناً، ثم تركوا معسكر الناصر، والتحقوا بالملك المغيث صاحب الكرك، وبعد هزيمة المغيث أمام قوات الناصر عام 657 هـ 1259م، طلب الناصر إبعاد الشهرزورية من الكرك، فغادروها نحو ساحل فلسطين الجنوبي، وأقاموا هناك⁽⁶⁾.

- 1- أبو المعالي ناصر الدين حسين بن علي، وقيل: ابن عبد العزيز القيمري الكردي، مقدّم جيوش الملك الناصر يوسف الثاني، وهو الذي سلّمه دمشق، توفيّ مرابطاً في الساحل عام 665 هـ. (الدارس في تاريخ المدارس، النعمي، 1/ 335).
- 2- القلائد الجوهريّة، ابن طولون، 1/ 91 - 127.
- 3- الدارس في تاريخ المدارس، النعمي، 1/ 339.
- 4- وهو جانب جامع الشيخ محيي الدين، شيد عام 656 هـ (الدارس في تاريخ المدارس، النعمي، 2/ 158، والمروج السندسية، ابن كنان، 34، ومعجم دمشق التاريخي، قتيبة الشهابي، 1/ 221، ومعالم دمشق التاريخية، إيش وشهابي، 463).
- 5- شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمدان، والمدينة في صحراء، أهلها من الأكراد الغصاة، ولم بطش وشدة. (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: شهرزور).
- 6- أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 46، والسلوك، المقرئزي، 1/ 505.

المبحث الرابع:

أعراب الشام ودورهم السياسي

كانت بادية الشام - منذ القدم - مكاناً تنتشر فيه القبائل العربية، التي مازالت تعيش حالة البداوة، وتعد أن هذه البادية موطنها، وأن سهول الشام هي عمقها الحيوي، الذي تفرع إليه، سلماً، أو حرباً، عند الخطر، وعند انعدام مصادر الحياة في البادية. وكانت ممالك الشام الأيوبيّة تلتف كقوس حول بادية الشام من حلب، إلى حماة، فحمص، فدمشق، فالكرك، وكل من هذه المدن كانت تقوم بدور البوابة ما بين البادية والسهول الساحلية، ومن ثم؛ البحر. وكان جزء كبير من اقتصاد مدن الشام، التي تشكل كل منها إحدى الدويلات الأيوبيّة، يستند - بشكل كبير - إلى تبادل المنتجات مع سكان البادية، وجزء آخر من هذا الاقتصاد يعتمد على تسيير القوافل التجارية عبر البادية، لذلك كانت علاقات تلك الممالك مع البدو على غاية من الأهمية، وللسبب نفسه؛ كان لأمراء البدو علاقات متميزة مع ملوك بني أيوب في الشام.

وكان لملوك الشام الأيوبيّة أسباب أخرى لا تقل أهمية عن الأسباب الاقتصادية لإقامة أوثق العلاقات مع البدو، فللقبائل البدويّة طريقته الخاصة في القتال، التي تعتمد على الكرّ والفرّ والسرعة الهائلة في التحرك، ولا تستطيع الجيوش النظاميّة مجاراتها بذلك، ممّا أجبر الملوك الأيوبيّة في الشام على اصطناع كل منهم للقبائل البدويّة التي تجاوره، لا ليأمن شرّها فقط على أريافه وقوافله التجاريّة، بل لتكون - وقت الحاجة - رديفاً لقوّاته، أو طليعة لها، أو للتصدّي لعربان الملوك المعادين له. وقد استخدم الملوك الأيوبيّة في الشام القبائل البدويّة في كل حروبهم، إمّا بشكل قوّات عسكريّة رديفه لكتلة الجيش النظامي، وإمّا على شكل كهائن، تنقّض في الوقت المناسب على قوّات العدو. كما استخدموا القبائل البدويّة لشنّ الحزب الاقتصادي في بلاد خصومهم عن طريق رعي الزروع وقطع الأشجار ونهب القرى⁽¹⁾. وبلغ من اختصاص الملوك الأيوبيّة في الشام بجماعات وقبائل من البدو أنّه كان يُقال "عرب الملك الأشرف"⁽²⁾، "وعرب الملك المجاهد"⁽³⁾، "وعرب الملك المعظم"⁽⁴⁾.

1 - زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 470.

2 - مُفَرِّجُ الْكُرُوب، ابن واصل، 3/ 267.

3 - المنصوري، ابن نظيف، 254.

4 - المنصوري، ابن نظيف، 142.

كذلك كانت قبائل البدو تدفع الضرائب للملك الذي تعيش في جواره، وكانت الضريبة المفروضة عليهم اسمها العداد، وماتزال هذه الضريبة مفروضة في وقتنا الحاضر، ولها الاسم ذاته، وهي تُحدّد وفقاً لعدد الأغنام أو الإبل التي يملكها كل شخص، فيقوم الوكيل - ويُسمّى عند البدو العداد - بعدّ الماشية، ويتسلم ضريبة كل رأس منها. ويبدو أن وجود أمير لعرب الشام لم يمنع الملوك الأيوبيّة من القيام بواسطة وكلائهم الخاصين من القيام بالعداد، وأخذ الضريبة مباشرة من البدو دون واسطة أمير العرب⁽¹⁾، فربما كانت وظيفته سياسية وعسكريّة فقط بعُرف الملوك الأيوبيّين. ولاعتياد البدو على تربية الماشية، فقد كان يتم في أماكن تواجدهم رعي كثيف للأعشاب، لذلك كانت السلطات المحليّة تُزيحهم من طريق الحملات العسكريّة، أو عن طريق الملك في تنقلاته، لتوفير الأعشاب للحملة، أو للحاشية، ودوابّ الحمل، والركوب العديدة فيها⁽²⁾.

قبائل الشام العربيّة:

بعد الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام تدفّقت نحوها القبائل العربيّة، وانتشرت القبائل الشماليّة العدنانية في كافّة مناطق الشام جنوباً وشمالاً ما عدا منطقة الوسط، حمص وباديتها، فقد اختصّت بها القبائل العربيّة الجنوبيّة اليمانية. ولكن؛ مع مُرُور الزمن، كانت هناك تبدّلات ديموغرافية كبيرة، حتّى إنّنا لا نكاد نرى أيّ ملامح للتقسيم السّابق في العصر الأيوبي، فمُنذُ العصر الفاطمي سيطرت القبائل اليمانية على جنوب ووسط الشام، فقد كانت - وقتها - قبيلة طيء اليمانية، بزعامة آل الجراح، أكبر القبائل في جنوب الشام، ووسطه.

وكانت جذام اليمانية تُسيطر على وسط وشمال فلسطين، ومنهم بنو مرة، وبنو فيض، وبنو شجاع، في القدس، وما حولها، والعناترة حول بلدة الخليل. وكان بنو نمير في الكفريّة ونمرين⁽³⁾ في حوران. وفي وسط سورية؛ نجد بني زبيد وأبناء عمّهم بني ربيعة من طيء اليمانية ينتشرون في غوطة

1 - زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 622.

2 - رسالة جوزيف دي كانسي، من فرسان مُستشفى القديس يُوحنا إلى الملك إدوارد الأوّل، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زُكَّار، 36 / 369.

3 - كفريّة ونمرين: لا نجد - الآن - اسم كفريّة في حوران، أمّا اسم نمرين؛ فمع عدم وجوده حرفياً، فإنّ هناك قُرى في حوران تحمل أسماء: نمر ونمرة. (المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، 427 - 428).

دمشق، وشمالها. وفي جنوب فلسطين؛ انتشر بنو جرم من طيء، ويُقال لهم بنو ثعلبة⁽¹⁾. ومن طيء أيضاً - كانت قبيلة غزيه، التي انتشرت ما بين الشام والعراق والحجاز، ومنها البطنين. كذلك كانت بقايا قبيلة غسان، وهي من الأزد، من كهلان اليمانية، ومنهم طائفة في حصص. واستطاعت عدة بطون من طيء أن تُسيطر على مناطق واسعة جنوب فلسطين وجنوب شرقي الأردن، كذلك نجد زعماء طيء في فلسطين من آل الجراح قد استولوا على الرملة⁽²⁾، وأظهرت طيء سيادتها على القبائل في جنوب الشام أيام شيخهم دغفل بن الجراح وأولاده مفرج وحسان⁽³⁾، اللذين تحالفا مع الفاطميين أولاً، ثم اصطدما بهم. وانتهت سيادة آل الجراح بوفاة حسان بن دغفل عام 433 هـ - 1043 م⁽⁴⁾. وفي ظل آل الجراح كان يعيش بنو مهيد في وادي موسى، وكانوا يقطعون الطريق هناك، ويخضعون لمنصور بن دغفل⁽⁵⁾، وحول الكرك عاش بنو مهدي وبنو عقبة، وزعيمهم سابق الدين عيثة بن مهدي، الذي كلّفه السلطان بيبرس بحماية الطريق حول الكرك⁽⁶⁾، وبنو مهدي هؤلاء من عذرة، من قضاة الحميرية السبئية، ومنهم بطون كثيرة، وبنو عقبة من جذام⁽⁷⁾. أمّا بنو عاملة، وهم من قبيلة سبا اليمانية؛ فقد تواجدوا بكثافة في شمال فلسطين، حتى سُميت الجبال هناك باسم جبال عاملة.

ومن قبائل عامر بن صعصعة نفرعت بنو هلال حول بلدة صرخد في الجولان، حتى سُمي جبل حوران - جبل الدروز الآن - باسم جبل هلال. وتفرّع - أيضاً - عن عامر بن صعصعة بنو عقيل ابن ربيعة، فقد خرجوا من البحرين إلى العراق، ثم إلى الجزيرة الشامية؛ حيث أسس زعيمهم قريش وابنه مُسلم الدولة العقيلية هناك. وتواجد في بلاد حلب وجبل الأحص وأطراف الجزيرة تحالف قبلي من أعراب شتى يُعرفون بآل بشار، وهم لا يتقادون لأمير واحد، ولو اجتمعوا لما أمن شرهم⁽⁸⁾.

1 - وقد نقلهم صلاح الدين من جنوب فلسطين إلى مصر عام 583/1187، لأنه شك بتعاملهم مع الفرنج. (قلائد الجمان، القلقشندي، 83، والبيان والإعراب، المقرئ، 5، وصبح الأعشى، القلقشندي، 1/322، والروضتين، أبو شامة، 2/526، وقبائل العرب، العمري، 107).

2 - ذيل تاريخ دمشق، ابن القلاسي، 31.

3 - راجع: وفيات الأعيان، ابن خلكان، مادة: حسان بن دغفل.

4 - حول آل الجراح راجع كتاب: الإمارة الطائفة في بلاد الشام، مصطفى الحباري.

5 - الاعتبار، أسامة بن مُنقذ، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 12/158.

6 - السلوك، المقرئ، 1/492.

7 - صبح الأعشى، القلقشندي، 4/213 - 2/334 - 12/130.

8 - قبائل العرب، العمري، 145.

أمّا أشهر القبائل القيسية الشمالية في بلاد الشام؛ فهم بنو كلاب، وقد انتشروا شمال حلب وحتى سُفوح جبال طوروس والدروب إلى بلاد الروم، ويعد ضعف الدولة العباسية وقع على عاتقهم مهمة التصدي للبيزنطيين، وسجلت مآثرهم الجهادية ضد الروم في السيرة الشيعية المعروفة باسم: الأميرة ذات الهمة. والمرداسيون فرع منهم أسس الدولة المرداسية، ما بين 415-472 هـ - 1025-1080 م. واستمرت قبيلة كلاب وتفرعاتها في مواقعهم التاريخية شمال الشام حتى العصر المملوكي، ولكنهم لم يخضعوا لقيادة موحدة، مما جعلهم يخضعون لزعامه آل فضل⁽¹⁾، وقد قال عنهم الأمير علاء الدين الطنغا نائب السلطنة بحلب: "لو كان لهم شيخ كُفء يجمع صُفوفهم لما استطاعت قبيلة أخرى الوقوف إلى جانبهم"، وقال عنهم ابن فضل الله: "وبنو كلاب عرب أطراف حلب والروم، ولهم غزوات معلومة وغارات لا تُعد، ولا تزال تُباع بنات الروم وأبنائهم من سباياهم، وهم يتكلمون بالتركية... وهم عرب غز، رجال حُرُوب، وأبطال جُيُوش"⁽²⁾.

وفي أيام دولة الملك الكامل بن العادل ظهر بنو كلاب على بني ربيعة، الذين اعتذروا عن حمل الغلال إلى مدينة خلاط، فقد قال مانع بن حديثة وغنام بن طاهر للكامل: "إن الجبال غربت في البرية، ولما قام بالأمر بنو كلاب حقد الكامل على مانع وغنام، وعندما أتياه عند أخذه لآمد، وبخها، وقال: والله؛ لولا إنكما عربيان لأفعلن بكما الواجب"⁽³⁾، ونستدل من قول الكامل أن صفة العروبة التي يحملها الأعراب كانت من الصفات ذات التقدير الخاص لدى ملوك بني أيوب، واستفادت كلاب من هذه الحادثة، فتقرّبت إلى الكامل، الذي قدّمهم، وأكرمهم، وكذلك تقرّبوا من الملك الأشرف، وكانوا معدودين من أتباعه⁽⁴⁾.

وحول حصص كان هناك بنو خالد، أو عرب حصص، وهم يدعون النسب إلى خالد بن الوليد⁽⁵⁾، "ولعلمهم من ذوي قرابته من بني مخزوم"⁽⁶⁾. وهناك بنو زبيد منتشرون في الشام، منهم

1 - قبائل العرب، العمري، 144.

2 - قبائل العرب، العمري، 143.

3 - قبائل العرب، العمري، 144.

4 - قبائل العرب، العمري، 144.

5 - صبح الأعشى، القلقشندي، 4/214، وقبائل العرب، العمري، 143.

6 - المنصوري، ابن نظيف، 254.

بصرخد، ومنهم بغوطة دمشق، "وهم جماعة نوفل الزبيدي"⁽¹⁾، ونوفل كان يُشارك الناصر الثاني بحملته على مصر، ولما غدر العزيزية بالناصر، وانكسر، "أخذه نوفل الزبيدي وجماعة من مماليكه وأصحابه، وعادوا به إلى الشام"⁽²⁾. ونوفل هو الأمير ناصر الدين سيد عرب زبيد، كان ذا وجهة وحرمة ومكانة، وقد توفّي عام 675 هـ 1276 م⁽³⁾. ويقول ابن العميد: "بعد تفرّق جمع الملك الصالح أيوب هاجمه عند نابلس حُسام الدين لؤلؤ، وهو من غلمان عمّه الصالح إسماعيل، ومعه جُحوش عظيمة من العربان اليزيديين"⁽⁴⁾، وغالباً؛ فهذا تصحيف، وهم العربان الزبيديون، وليس اليزيديين. ومع تعدّد قبائل الشام، فقد كان بنو ربيعة هم وجوهها.

بنو ربيعة:

في العصر الأيوبي ساد بنو ربيعة جميع قبائل العرب في الشام والعراق والجزيرة، ويقول عنهم ابن فضل الله العمري: "هم مُلوك البرّ، وأمرء الشام والعراق والحجاز"⁽⁵⁾. وكانوا يتبعون لأقربائهم بني الجراح⁽⁶⁾ في العصر الفاطمي، وجدّهم ربيعة نبغ بين قبائل العرب أيام الأتابك زنكي وولده نور الدين⁽⁷⁾، وكان بنو ربيعة يدّعون أن نسبهم يتّصل بالبرامكة، لكنّ الحمداني المهمندار نفى ذلك النسب، وقال: "الأصحّ في نسب ربيعة إنّه: ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج بن دغفل بن جراح"، ويمتدّ في نسبه إلى طيء⁽⁸⁾، وطيء هي من قحطان اليمانية⁽⁹⁾، وقد بدأ ظهور بني ربيعة في القرن السادس الهجري - 12 م⁽¹⁰⁾، ومع أن الأمير مانع بن حديثة بن فضل بن ربيعة كان أمير عرب الشام بلا مُنازع في عصر الدولة الأتابكية البورية بدمشق أيام طُغتكين، لكنّه لم يُصرّح له، ولا لغيره، من بني ربيعة بالإمرة على العرب بتقليد من السُلطان، ولم يبدأ ذلك العُرف حتّى أيام الملك العادل بن

1- قبائل العرب، العمري، 112.

2- التّجويد الزّاهرة، ابن تغري بردي، 7 / 8.

3- راجع ترجمته في: المنهل الصافي، ابن تغري بردي.

4- أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 29.

5- قبائل العرب، العمري، 112.

6- ضُبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 203.

7- قبائل العرب، العمري، 112.

8- قبائل العرب، العمري، 112.

9- ضُبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 203.

10- قبائل العرب، العمري، 27.

أيوب؛ حيثُ أمّر منهم حديثة بن عصية بن فضل بن ربيعة⁽¹⁾، ومنحه العادل - رَسْمِيّاً - لقب أمير العرب. وفي الحقيقة؛ استمرّ هذا اللقب طيلة العصر الأيوبي غير واضح المعالم، غير مُحدّد المهّمّات والواجبات، وذلك لطبيعة الحُكم في الممالك الأيوبيّة، فصحيح هُناك سُلطان أعظم تدين له بالطاعة جميع، أو مُعظم، وأحياناً بعض، الممالك الأيوبيّة، لكنّه - غالباً - لم يكن يملك قوّة كافية لفرض كلّ ما يُريد، وسلطنته خارج مملكته كانت - دائماً - تخضع لتقييم المصالح المحليّة والسياسة الإقليميّة، لذلك، ومع وُجود منصب أمير العرب ظلّت قبائل الشام البدويّة تتحالّف مع الممالك الأيوبيّة، وتخوض حُرُوبها، وتلتزم بمُعاهداتها مُنفردة، فالانقسام الأيوبي السّياسي حمى الانقسامات البدويّة، ورعاها لتسخيرها وفقاً لمصالحه، وبالتالي؛ لم يتمكّن السُلطان الأيوبي من إعطاء أمير العرب قوّة كافية لإخضاع كلّ القبائل له، ولأسرته، ولذلك؛ سيرتفع شأن منصب أمير العرب مع قيام دولة المماليك القويّة الموحّدة.

إن ما دفع العادل لإحداث منصب رسمي لإمرة العرب هو - بلا شك - دور القبائل العربيّة المتنامي، إن كان في الصراع ضدّ الفرنجة، أو في الصراعات الداخليّة بين ممالك البيت الأيوبي. ويسدو أن لقب أمير العرب في العصر الأيوبي لم يكن رتبة دائمة للشخص، فيمكن تبديله ومنح اللقب إلى شخص آخر، كذلك لم يكن وراثياً بالضرورة، فإذا مات أمير العرب يعود الأمر للسُلطان، فقد يُوليّ ابنه، إذا كان أهلاً لها، أو يُوليّ غيره. فعندما توفّي حديثة أمير العرب قام الملك الكامل بقسمة الإمرة نصفين، "نصفاً لمانع بن حديثة، ونصفاً لغنام أبي طاهر بن غنام"⁽²⁾، ثمّ نقل الإمرة كاملة إلى أبي بكر علي بن حديثة، وبقي فيها، حتّى إنتزعها منه الظاهر بيبرس في سلطنته لأُمُور حقدّها عليه، وأعطى الإمرة إلى عيسى بن مهتّا بن مانع بن حديثة بن عصية بن فضل بن ربيعة. ولما قصد أحد بن طاهر بن غنام الملك الظاهر بيبرس، وسأله أن يُشركه في إمرة العرب كما كان جدّه، لم يقبل بيبرس، ولكنّه أرضاه بأنّ سيّاه أميراً ببوق وعَلَم⁽³⁾، وهي رتبة عسكريّة.

1- ضُبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 206، وقبائل العرب، العمري، 117.

2- قبائل العرب، العمري، 117.

3- قبائل العرب، العمري، 117.

وينقسم بنو ربيعة إلى ثلاثة أفخاذ هم المشهورون، وما عداهم أتباع، ولكل من الثلاثة أمير مختص به:

1. آل فضل: نسبة إلى فضل بن ربيعة، وهم أعلامهم، وأرمقهم مكانة، وديارهم من حمص إلى الفرات⁽¹⁾.

2. آل علي: نسبة إلى علي بن حديثة بن عقبة، وقد ارتقوا لمنصب الإمرة أيام الأشرف خليل ابن قلاوون، فبعد أن قبض على مهتأ بن عيسى قلد الإمرة إلى محمد بن أبي بكر بن علي، وهم أهل بيت عظيم الشأن، ديارهم مرج دمشق، وغوطتها⁽²⁾.

3. آل مرا: نسبة إلى مرا بن ربيعة، وهم رجال صناديد، وأبطال مناجيد، منازلهم في الجولان وحوران⁽³⁾. وقد أورد عدة مؤرخين وصف دخول فرسان آل مرا إلى دمشق بترتيبهم العسكري، بعد بلاتهم الحسن في موقعة حمص ضد التتار، قال ابن فضل الله: "أقبلوا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح، على الخيل المسومة والحياد المطهمة، عليهم الكزغندات الحمر في الأطلس المعدني، والديباج الرومي، وعلى رؤوسهم البيض، مقلدين بالسيف، بأيديهم الرماح، كأنهم صقور على صقور، وأمامهم العبيد عميل على الركائب⁽⁴⁾".

وكان بنو ربيعة في العصر الأيوبي "وأوائل المملوكي أكابر وسادات العرب ووجوهها، ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة، وصيت عظيم"⁽⁵⁾. وتبع لهم كل قبائل الشام العربية، وتدين لهم بالولاء بنو كلب، وبنو كلاب وآل بشار، وبنو خالد، ومن بالشام من غزية، وغيرهم، ولا يوجد في ذلك الوقت "من لا يؤثر صحبتهم، ويظهر محبتهم"⁽⁶⁾.

1 - ضبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 204.

2 - ضبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 208.

3 - قبائل العرب، العمري، 138.

4 - قبائل العرب، العمري، 142، - وقد ورد الوصف أيضاً في: السلوك، المقرئزي، 1 / 690، وضبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 209.

5 - ضبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 203.

6 - قبائل العرب، العمري، 141.

لكن مواقفهم العامة لم تتغير، ولم تبدل، فالغزو والنهب كلها لاحت لهم الفرصة، ولا صديق لهم، ولا عدو، إلا من خلال مصالحهم الخاصة، رغبة فيه، أو رهبة منه، ولذلك قال عنهم المهنديون: "وقد رأيتهم في الوقائع مع من غلب"⁽¹⁾.

وهذا ما كانت عليه كل قبائل الأعراب؛ حيث يبدو أنهم متى لمسوا ضعفاً من الدولة، أو المملكة التي هم بجوارها، أو من قبائل أخرى اندفعوا بغريزة لا تقاوم، للسلب والنهب، ففي عام 624 هـ 1227 م، اندفعت غزية البطين نحو حمص في عز سطوة وقوة ملكها المجاهد، ونهبوا ما حول المدينة، "وأخذوا حتى غنم أهل البلد، فوقع الصوت، وركب العسكر، وتبعوا العربان إلى معظم الطريق، وكان فيهم قوة ومنعة لكثرتهم، فعادوا عنهم بمراسلة جرت بينهم، وذلك توفيقاً من الله لحقن الدماء"⁽²⁾، فقد كان فرسان غزية يشكلون قوة أكبر من قوة عسكر حمص، لذلك؛ تمكنوا من الاحتفاظ بما نهبوه من حمص، ومضوا، ورجع العسكر يحمدون الله على سلامتهم، وحقن دمائهم.

لكننا لا نستطيع إلا أن نستثني كثيراً من المواقف لبني ربيعة، فقد قاتلوا، وخاصة آل مرا، في معركة حمص الثانية ضد التتار، "وأثروا أثراً حسناً، وعملوا في التتار عملاً جيداً"⁽³⁾.

كذلك شارك الأمير زامل بن علي مع فرسان بني ربيعة في معركة حمص الأولى مع الأشرف موسى صاحب حمص، وتمكنوا من هزيمة قوة كبيرة للتتار عام 659 هـ 1260 م⁽⁴⁾. وأيضاً؛ يسجل لبني زبيد موقفهم مع الملك الناصر الثاني، فبعد هزيمته على أبواب مصر من قبل جيش المماليك بقيادة آيبك، كان بنو زبيد وأميرهم ناصر الدين نوفل من القلة الذين وقفوا معه، وحموه، وعادوا به إلى الشام⁽⁵⁾.

1 - قبائل العرب، العمري، 141.

2 - المنصور، ابن نظيف، 141.

3 - قبائل العرب، العمري، 141.

4 - السلوك، المقرئزي، 2 / 442.

5 - النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 7 / 8.

المبحث الخامس:

أعراب الشام ودورهم العسكري

نظراً لانقسام الممالك الأيوبيّة في الشام، ولقيام المنافسة وحتى الحروب فيما بينها، فقد استعان كلٌّ منها بما حوله من القبائل البدويّة، وسخّرها لمصالحه، وجعلها سنداً عسكريّاً في حملاته ومعاركه، إضافة للصدامات العسكريّة مع الدّول الأخرى خارج البيت الأيوبي، ممّا أعطى قيمة عسكريّة كبرى للبدو في بلاد الشام. بينما نلاحظ أن دورهم العسكري في مصر كان ينحصر بالدفاع ضدّ الغزوات الفرنجيّة، أو بالقيام بثورات ضدّ الدولة، وذلك لقيام مملكة أيّوبية موحّدة في مصر، وعدم وجود دُول مجاورة تطمع في أراضيها سوى الحملات الفرنجيّة القادمة عبر البحار.

أهمّ الأدوار العسكريّة التي لعبها البدو في الشام في العصر الأيوبي:

إن ما قام به بنو ربيعة بقيادة أميرهم مانع بن حديثة في التصديّ لحملة عزّ الدين كيكائوس على حلب، ربّما كان من أهمّ أدوارهم، وأكثرها إظهاراً لقوّتهم، فقد تمكّنوا عام 615 هـ 1218م من هزيمة سلطان سلاجقة الرّوم، وردّه إلى بلاده، بعد أن احتلّ عدّة بلدان في الجزيرة، وكان كيكائوس قد تحالف مع الصّالح صاحب آمد والأفضل بن صلاح الدّين صاحب سُميساط، وتقدّموا لاحتلال بلاد الجزيرة وحلب⁽¹⁾، فجمع الأشرف قوّاته، وطلب الأمير مانع وعربانه، فاتوه بجموعهم، ولمّا سمع كيكائوس بتحشّد الأشرف سير إليه "ألف فارس هم خيار عسكريه وأبطالهم"⁽²⁾، فوقع عليهم العرب، واحتسوا عليهم، وعلى سوادهم، وركب الملك الأشرف، فوصل إليهم، وقد استباحوهم قتلاً وأسرّاً. ولمّا سمع كيكائوس ذلك سار عن منبج هارباً⁽³⁾، وعاد إلى بلاده مكسوراً⁽⁴⁾، "ولمّا وصل الأشرف كانت العرب قد فرغت منهم"⁽⁵⁾، لقد بدأ العربُ المعركة ضدّ كيكائوس، وهم الذين انتصروا فيها، إنّها بالفعل - معركتهم وحدهم؛ حيث لم يضرب فيها الأشرف بسيف سوى سُيوف العرب.

- 1 - المنصوري، ابن نظيف، 74.
- 2 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 267.
- 3 - زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 645.
- 4 - المنصوري، ابن نظيف، 74.
- 5 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265.

وفي عام 620 هـ 1223م، عندما خرج الملك المُعظّم يُريد احتلال حمص وحماة أقام مُعسكره في سلمية، وقَدَّم قُوّات البدو المُرافقة له لتقطع إمداد حماة بالميرة، والتصدّي للنجدات القادمة إليها⁽¹⁾. ثمّ ركّز المُعظّم حملته باتجاه حمص، فسير عام 623 هـ 1226م، جماعة من الأعراب المُرافقين له، وهم عرب دمشق، فنهبوا قرى حمص، وخربوها⁽²⁾، ولمّا كان المُعظّم يُحرّك البدو لتنفيذ مخطّطاته التوسّعية في الشام، وإجهاد أعدائه، بينما قوّاته تستريح، فكّر الأشرف والمُجاهد بالطريقة نفسها، فطلب المُجاهد من الأشرف تحريك بني ربيعة من شمال حلب باتجاهه لنجدة حمص، وبالفعل؛ أسرع مانع بن حديثة بعربانه نحو حمص، ولكن شهوة النهب اجتاحتهم في الطريق، خاصّة أنّهم وجدوا أمامهم قرى المعرة وقرى حماة والجُيُوش الأيوبيّة بعيدة عنها، مشغولة ببعضها، ولن تفكر بمطاردتهم، بل على العكس تُريد مداراتهم للاستفادة من قوّتهم، فاندفعوا نحو هذه القرى العزلاء، فنهبوا، واقتسموا بيادرها، ورفضوا تأدية ضريبة العدّاد في ذلك العام⁽³⁾.

إن البدو سلاح فتاك، ولكنّه ذو حَدَين، وعلى مَنْ يُريد الاستفادة منهم أن يتحمّل نزواتهم، ولذلك؛ لم يُحرّك الملك الأشرف ساكناً حيالهم، وحتى لو أراد فإنّه لن يتمكّن من القيام بأيّ عمل عسكري ضدّهم، فقوّات الملك المُعظّم تُعسكر في سلمية، وهي ترصد حركاته. وبعد أن حزم الملك المُعظّم أمره، وهاجم حمص بقوّاته، أعاد الأشرف الاتّصال بمانع، وطلب منه نجدة حمص، فاندفع بعربانه، "وتركوا أظعانهم بمرج دابق، وساروا جريدة إلى حمص"⁽⁴⁾، ويبدو أن ما تركوه في مرج دابق هي المنهوبات التي عجزوا عن السير بها. ومع كلّ فسادهم ونهبهم، فقد هاجم مانع بقوّاته الخفيفة جيش الملك المُعظّم، فتصدّت لهم عرب دمشق، وجرت بينهما عدّة وقعات⁽⁵⁾، لم تكن حاسمة، ولم تؤدّ إلى نتيجة واضحة.

وفي عام 624 هـ 1227م، أطلق الملك المُعظّم أخاه الملك الأشرف، وسمح له بمُغادرة دمشق، بعد أن حلف الأيمان المُغلّظة على الولاء، وما إن غادر الملك الأشرف، حتّى رجع عن أيمانه

- 1 - زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 655، ومُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 126.
- 2 - زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 659، ومُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177.
- 3 - زُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 659، ومُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177.
- 4 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177، وزُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 660.
- 5 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177، وزُبَيْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 660.

كُلُّهَا؛ بِحُجَّةٍ أَنَّهُ كَانَ مُكْرَهًا عَلَيْهَا، "فندم المُعْظَم، وسير العَرَب إلى بلد حصص وحماة، فعانوا فيها" (1)، "ونزلوا الزَّرَاعَةَ من أرض حصص، وأرض جوسيه، ومكثوا أياماً يُغيرون على البلاد، ويعودون إلى منازلهم" (2)، وكان يقودهم سنجر المُلقَّب أمير العَرَب، وهو مملوك الملك المُعْظَم (3)، ممَّا يدلُّ على قيادة مُباشرة للملك المُعْظَم هؤلاء الأعراب. لقد جرى كُلُّ ذلك والملك المُجاهد مُهمَل لهم، حتَّى أعيانهم الطمع ببلاده، عندها "ركب إليهم بَمَن معه وأولاده، وأذن لأهل بلده في النهب، وأطعمهم، فما كان بأقلَّ من نصف نهار حتَّى نهبوهم، وسبُّوهم، وقتلوا وجرحوا خَلْقاً" (4). وهُنَا؛ نلاحظ غياب قُوَّات بني ربيعة عن هذه الأحداث بسبب الوقعة بين الأمير مانع بن حديشة أمير آل فضل وابن عمِّه الأمير منيع قُرب بارين (5)؛ حيثُ هُزم الأمير منيع، وجُرح، وانسحب أتباعه إلى بعلبك (6)، ولكن؛ إن غابت مُجموع عربان بني ربيعة، فإن أميرهم مانع لم يغب عن مطاردة المُجاهد لعربان دمشق، فقد حضرها مع المُجاهد، وحصل على نصيبه من الغنائم (7).

في عام 642 هـ 1244 م، أيضاً؛ اصطدم عسكر حماة بعربان بني ربيعة بغياب أميرهم مانع عند المُجاهد في حصص، وكانوا بقيادة أخيه الأمير علي، وانتصر العَرَبان "ولولا عسكر حلب لم يبقَ من عسكر حماة بقيَّة" (8). وبعد أن فتح الملك الكامل أمد في عام 629 هـ 1232 م، خاف مانع بن حديشة منه "وانسحب إلى العراق، وعمل معه الخليفة من المكارمة ما لا عمله مع غيره"، ثُمَّ عاد في العام نفسه من العراق "وانصلح حاله مع الملك الأشرف" (9). وفي عام 630 هـ 1233 م، كان مانع وأبناء عمِّه غنام ومنيع مُخيَّمين في غوطة دمشق، ولَمَّا خرج الملك الأشرف للصيد دعوه إليهم، فأقام عندهم أياماً (10). وعندما توغَّلت قبيلتنا خفاجة وغزية في بادية الشَّام غرباً، ونزلوا في تدمر، فخاف

من أذاهم الملك الأشرف والملك المُجاهد فاتَّفقا مع أمراء عرب الشَّام على قصدهم، وساروا إليهم، ونهبوهم (1). وفي عام 630 هـ 1233 م، مات الأمير حُسام الدِّين مانع ابن حديشة أمير العَرَب، فأمر الملك الأشرف ابنه مهناً بن مانع (2)، ويبدو أن تأمير مهناً على العَرَب كان باتِّفاق الملكين الأشرف والمُجاهد معاً؛ حيثُ خلعا عليه، وحمل مانع، ودُفن في سلمية (3).

لقد كانت علاقة ممالك الشَّام الأيوبيَّة بالبدو علاقة في مُنتهى الحساسية، وتحتاج إلى كثير من الحنكة والدراية بتقلُّباتهم، فعندما قامت صاحبة صُفَّة خاتون الوصية على عرش حلب بتقريب أحلاف العَرَب، استوحش الأمير علي بن حديشة أمير آل فضل، واختار التوقيت الصعب بالنِّسبة لحلب، فانضمَّ إلى قُوَّات الخوَارزمية التي تهاجمها، وعندما التقى عسكر حلب بالخوَارزمية عام 638 هـ 1241 م، كمن الأمير علي بعربانه بين البساتين، وانقضَّ على مُؤخِّرة العسْكر الحلبِّي، ففتك بها، فانهزم الحلبيون (4)، ولكن الضربة الكُبرى للحلبيين جاءتهم من حلفائهم أحلاف العَرَب، الذين كانوا يُقاتلون معهم، فما إن لاحت هزيمة العسْكر الحلبِّي، حتَّى انقضوا عليه، فنهبوا أثقاله، "وكانوا أشدَّ ضرراً عليه من انتهاب أموالهم من أعدائهم" (5). وبعد هذا الغدر من الأحلاف بعسكر حلب عاد الأمير علي عن تحالفه مع الخوَارزمية، وتركهم (6)، ولكن العلاقة مع حلب كان قد تولاها ابن عمِّه الأمير طاهر بن غنام، "فقد اتَّصل بخدمة الحلبيين، وأمر على سائر العَرَب، وزوَّجته صاحبة بعض جواربها، وأقطعت إقطاعاً يُرضيه" (7).

- 1- المنصوري، ابن نظيف، 254.
- 2- السُّلوك، المقرئ، 1/ 368، - راجع ترجمة مهناً بن مانع في: صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 205، والضوء اللامع، السخاوي، 5/ 146، والمختصر، أبو الفداء، 3/ 205، والأعلام، الزركلي، 7/ 317.
- 3- المنصوري، ابن نظيف، 254، - استمرَّ آل مهناً في دُفن أمرائهم في سلمية، وعُرفت لهم مقبرة هُناك تقع شمال السلمية بعدة كيلومترات تُسمَّى جبَّانة الشَّيخ فرج، وقد دُفن فيها عيسى بن مهناً عام 680 هـ (شذرات الذهب، ابن العماد، 6/ 22)، ومحمد بن عيسى بن مهناً عام 724 هـ وما تزال شاهدة قبره ماثلة هُناك. (عشائر الشَّام، أحمد وصفي زكريا، 1/ 88).
- 4- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282، والمختصر، أبو الفداء، 3/ 167، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 235.
- 5- زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 695، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282.
- 6- زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 699.
- 7- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 288.

- 1- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 206.
- 2- المنصوري، ابن نظيف، 142.
- 3- المنصوري، ابن نظيف، 142.
- 4- المنصوري، ابن نظيف، 142.
- 5- صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 204 - 234.
- 6- المنصوري، ابن نظيف، 145 - 136.
- 7- المنصوري، ابن نظيف، 143.
- 8- المنصوري، ابن نظيف، 145.
- 9- المنصوري، ابن نظيف، 249.
- 10- المنصوري، ابن نظيف، 254.

المبحث السادس:

دور القبائل البدوية في مصر

لم تتوقف القبائل العربية عن قصد مصر للتوطن والإقامة منذُ الفتح العربي الإسلامي، وأول المناطق التي توطنت فيها هذه القبائل كانت في الدلتا، ثم بدأت القبائل العربية تتوغل جنوباً في الصعيد، حتى جاورت النوبة، وخالطتها. وكانت قبيلة جذام قدمت إلى مصر مع عمرو بن العاص، وهي قبيلة يمنية تنتسب إلى كهلان وسبأ، ومن جذام كان بنو زيد الذين استقرّوا في الشَّرقية حول بليبس، ومنها - أيضاً - بنو سعد، وكانت مناطق سُكنائهم حول الفسطاط، وكان منهم شاور السعدي وزير العاضد الخليفة الفاطمي⁽¹⁾. وبشكل عام؛ انتشر بنو جذام حول الدلتا في الخوف الشرقي والخوف الغربي⁽²⁾. ومن جذام كان نمي أبو خثعم من ولد مالك بن هلبا بن مالك بن سويد، الذي تقدّم في دولة الصّالح أيّوب، وبلغ عنده منزلة عالية، وقد أقطعه، وأمّره، واقتنى الماليك، وفي دولة المعزّ أيّيك قدّمه على عرب مصر، حتى قتله غلمانُه، فجعل المعزّ ولدَيْه سُلمى ودَغَش مكانه⁽³⁾. وحول دميّاط نزلت قبيلة سِنَس وهم من الغوث بن طيء، وكان لهم أيّام الفاطميين شأن، وتجاورهم جماعة من كنانة بن خزيمة قدموا أيّام الخليفة الفاطمي الفائز⁽⁴⁾، وفرسان بني كنانة هم الذين كلّفهم الصّالح أيّوب بالدفاع عن دميّاط، وانسحبوا منها، فشنتهم.

وفي صعيد مصر؛ انتشرت قبائل مُتعدّدة، وتداخلت مناطق سُكنائها، لكن؛ يلاحظ أن قبيلة هلال قد أقامت حول أسوان، وإلى الجنوب منها. ثمّ قبيلة يُلّي، وكانوا في بلاد إضميم، وتوزّعوا من أسبوط حتى عيذاب وحول سوهاج. كما كانت هناك مجموعة من قريش أقامت في الأشمونين. أمّا أكثر عرب الصعيد عدداً وتوزّعاً؛ فقد كانت جهينة⁽⁵⁾، وهي من قضاة، وكانت تُقيم في الأشمونين، وتنتشر ما بين منفوط وأسيوط. ومن قضاة كانت قبيلة كلب التي سكنت حول

منفلوط، وكذلك بهراء من قضاة سكنت في أقصى صعيد مصر، وحتى بلاد الحبشة، وكثروا هناك، وغلبوا على بلاد النوبة، وهم يُحاربون الحبشة⁽¹⁾. وفي صعيد مصر؛ كانت - أيضاً - قبيلة الكنوز، وأصلهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، قدموا إلى مصر من اليمامة زمن الخليفة العبّاسي المتوكل، وأقاموا في أعالي الصعيد، وتصدّوا لغارات البجة⁽²⁾، ثمّ اختلطوا بهم، وتزوّجوا منهم، حتى سيطروا على بلادهم، ومنهم بنو مسروق، الذين ينتسب إليهم مُحمّد بن علي حامي أسوان وزعيم ربيعة، ولما مات؛ خلفه ابنه أبو المكارم هبة الله بن مُحمّد بن علي، وهو الذي ظفر بأبي ركوّة الثائر الأموي الخارج على الحاكم بأمر الله، فأكرمه الحاكم، ولقبه كنز الدولة، وأصبحوا يُعرفون كلُّهم بكنز الدولة، أو الكنوز، وآخر أمرائهم قنّة الملك العادل عام 507 هـ عندما جمع حرب السلطان صلاح الدّين، وأخذ يدعو للأمير داود بن العاضد⁽³⁾.

قبائل البربر في مصر:

بعد هجرة القبائل العربية نحو بلاد المغرب، اختلطت بالقبائل البربرية بالمصاهرة والخلف والولاء، فحمل قسمٌ كبيرٌ من القبائل البربرية أنساباً عربية بالولاء، وبعد ذلك؛ انتقلوا للتعريب اللّغوي⁽⁴⁾، "وذلك أن قبائل العرب نزلت على قبائل البربر، فنقلوهم إلى ألسنتهم بطول المجاورة لهم، حتى صاروا جنساً واحداً"⁽⁵⁾. وعندما قامت الدولة الفاطمية في المغرب، كانت القبائل البربرية عماد جيوشها. وبعد أن احتلّ جوهر الصقلي مصر، وضّمّها إلى الدولة الفاطمية، ومن ثمّ؛ جعلها قاعدة الدولة، أدّى ذلك إلى هجرة مُجموع كبيرة من قبائل البربر إلى مصر، وجاءت هذه القبائل تحمل أنساباً عربية، وتنقسم إلى يمانية، مثل قبيلة هواره، التي انتشرت غربي النيل، وقيسية؛ مثل قبيلة لواته، التي عبرت إلى شرقي النيل⁽⁶⁾، فكان هم مُعظم بلاد البهنسا، وتفرّقوا في الجيزة والمنوفية والبُخيرة⁽⁷⁾، وقد

1 - قلائد الجمان، القلقشندي، 42 - 50.

2 - البجة: قبائل من السكّان الأفارقة القدماء لشمال السودان.

3 - البيان والإعراب، المقرئ، 44.

4 - دراسات في تاريخ العروبة، عبد المجيد عابدين، ملحق البيان والإعراب، 132.

5 - وصف أفريقية الشمالية والصحراوية، الإدريسي، 35.

6 - دراسات في تاريخ العروبة، عبد المجيد عابدين، ملحق البيان والإعراب، 132.

7 - قبائل العرب، العمري، 157.

1 - قلائد الجمان، القلقشندي، 54 / 62.

2 - قبائل العرب، العمري، 169.

3 - قبائل العرب، العمري، 171.

4 - قبائل العرب، العمري، 156.

5 - قبائل العرب، العمري، 157.

خرجت لواته على الدولة الفاطمية، فسار إلى بلادهم في الوجه البحري أمير الجيوش بدر الجبالي عام 567 هـ 1172 م، وأوقع بهم، وهزمهم، وطهر البر الشرقي في مصر منهم⁽¹⁾.

واندرجت القبائل البربرية في مصر تحت اسم العرب والأعراب، ورُبما حياة البداوة، ولتعربهم الكامل مع بداوتهم، فكان يُطلق عليهم اسم عرب هواره وعرب لواته⁽²⁾. وكانت قبائل الأعراب في مصر على اختلاف أنسابها تشترك جميعاً - مثل عرب الشام - بحُب القتال، واغتنام الفُرص للسلب والنهب، فنجدهم عوناً لكلّ خارج على الدولة؛ إذ لم يتمكنوا هم بأنفسهم من الخروج عليها، وقتالها. وكان معظم قتالهم من أجل الغنائم⁽³⁾، أو للسيطرة على البلاد، فكانت الحروب تقع بين القبائل البدوية، فتودي بالكثير منهم، كالواقعة التي جرت بين جرم وجذام وتعلبة بالشرقية عام 636 هـ 1238 م، وقُتل فيها كثير منهم، حتى أرسل الملك العادل مَنْ يُصلح بينهم⁽⁴⁾.

1 - المقفى الكبير، المقرئ، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 1/ 295، - وقد وصف الشريف أبو يعلى محمد بن محمد بن الهبارية في كتاب الصادح والباغم هذه الحادثة، فقال شعراً:

كان بمصر بدر له عليها الأمر

يقتل كلّ ساعة من أهلها جماعة

ثم غزا لواته إذ ظنهم حماته

فحين قيد الأسرى قال اقتلوهم صبرا

عشرين ألفاً كانوا حتى جرى الميدان

في النيل من دمائهم ولج في إفنائهم

2 - المقفى الكبير، المقرئ، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 1/ 295.

3 - يروي أسامة بن مئذ دوافع البدو للقتال، فيصف هجومهم عليه قائلاً: "فحمل عليّ العرب فوقعت... فضر بني واحد منهم ضربتين بالسيف، وقال: هات الوزن... ثم أخذ حصاني وسيفي" (كتاب الاعتبار، أسامة بن مئذ، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 12/ 157).

4 - السلوك، المقرئ، 1/ 393.

المبحث السابع:

العلاقات الدّولية لقبائل البدو

قبائل العرب والتّار:

عندما استولى التّار على أرمينيا والبلاد التي كانت للدولة الخوارزمية في عام 629 هـ 1232 م، اهتم الخليفة المستنصر غاية الاهتمام، "واستخدم عرباناً كثيرة"⁽¹⁾.

وفي عام 657 هـ 1259 م، عندما هرب الناصر يوسف الثاني أمام الغزو المغولي للشام سار باتجاه مصر، وعندما وصل البلقاء التجأ إلى أعراب تلك المنطقة، فأجاروه⁽²⁾، عندها؛ تسحب أحد غلمان، وهو حسين الطبردار الكردي، واتصل بالتار، وأعلمهم بمكانه، فهاجمت القوّات المغولية أعراب البلقاء، وقبضوا على الناصر يوسف، ثم وضعوا فيهم السيف، وبعد أن "غنموا أولادهم، ونساءهم، وأنعاماً شتياً كثيراً، واستاقوا الجميع"⁽³⁾. ومن جهة أخرى؛ وفي العام نفسه، جرت حادثة لا نرى لها أيّ علاقة بالحادثة السابقة، قام الأعراب بالإغارة "على خيل الجشار التي للتّار ومن يتعلّق بهم، فاستاقوها، وكانت ترعى بالمرج بتلّ راهط وما حوله"⁽⁴⁾، "فساقت وراءهم التّار، فلم يدرّكوا لهم الغبار، ولا استردّوا منهم قرساً، ولا حماراً"⁽⁵⁾. ومن المؤكّد أن جموعاً كبيرة من أعراب مصر والشّام شاركت ضدّ التّار في موقعة عين جالوت⁽⁶⁾.

قبائل العرب والفرنج:

في العلاقات بين قبائل البدو والفرنج لا يُمكن أن نخرج بحكم مُطلق، فقبايل البدو بلغت من التفرّق الجغرافي والانقسام السلالي مبلغاً كبيراً، ولم يشكّلوا - في أفضل الأحوال - تجمعاً قبلياً، أو اتحاداً يضمّ معظم العربان، ولكونهم يعيشون بهذا الشكل من الانتشار الواسع والاختلاف

1 - المنصوري، ابن نظيف، 232، كذلك راجع: السلوك، المقرئ، 1/ 365.

2 - السلوك، المقرئ، 1/ 427، والمختصر، أبو الفداء، 3/ 213، والبداءة والنهاية، ابن كثير، 13/ 220.

3 - دُيّل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20/ 408.

4 - دُيّل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20/ 409.

5 - البداءة والنهاية، ابن كثير، 13/ 233.

6 - دُيّل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20/ 411.

والتنازع، فمن الطبيعي أن يكون بينهم اللصوص النهابون، وكذلك وجود ذوي النخوة والمروءة والكرم، ونجد مَنْ يتعامل مع الفرنجة، ويدلّهم على عورات المسلمين، وفي المقابل؛ نجد المجاهدين الذين يبلون في أعداء الأمة أحسن البلاء.

منذ بدايات الغزو الفرنجي لبلاد الشام وجد الفرنجة مَنْ يتعاون معهم من البدو، وقد تجلّى هذا التعاون بأوضح صورة أمام أسوار حلب عام 518 هـ 1124 م، عندما حاصر الفرنج المدينة، وبدا لهم أن سُقُوطها سيفتح أمامهم أبواب سورية الداخلية، فاتصلوا مع ديبس بن صدقة، صاحب الحلة في العراق وأمير بني أسد، واتفقوا معه على أن يُساعدهم لاحتلال حلب. كما اتفقوا مع سالم بن مالك العقيلي، سيّد بني عقيل وصاحب قلعة جعبر، وساندت قوأت القبائل العربيّة قوأت الفرنج في الهجوم على حلب، وارتكبوا الفظائع، وנקلوا بالموتى، حتّى جاء البرسقي أمير الموصل، وأنقذ حلب⁽¹⁾. وكان هذا التعاون اختباراً مُفيداً للفرنج، تعرّفوا فيه على إمكانية التعامل مع البدو والاستفادة من قوّتهم العسكريّة مقابل بعض المكاسب.

وفي بدايات دولة صلاح الدّين، وعندما كان مشغولاً في الجزيرة يُحاصر حرّان عام 578 هـ 1191 م، قامت حملة فرنجية من الكرك، وتوجّهت نحو الحجاز، "لينبشوا الحجرة النبوية، وينقلوه إليهم، ويأخذوا من المسلمين جعلاً على زيارته"⁽²⁾، وسارت الحملة في مراكب من ميناء العقبة، حتّى وصلت ساحل المدينة، "ودلّها على عورات الساحلين من العرب من أشبه ركاها في الكفر"⁽³⁾، "وكان معهم طائفة من مُرتدّة العرب"، ولما كان صلاح الدّين لا يستطيع الحركة، كلّف نائبه بمصر سيف الدولة بن مُنقذ، فسار الحاجب لؤلؤ الأرمني، "فتداركهم، وبذل الأموال، فمالت إليه العرب للذهب"، فاستسلم الفرنج⁽⁴⁾. وفي الحقيقة؛ بحار المرء أمام تفسير موقف كهذا لأعراب الحجاز، ولا يجد سبباً لتعاونهم مع الفرنج لنبش الحجرة النبوية إلّا السبب الذي جعلهم يتخلّون عنهم، وهو الذهب، والطمع بالمكاسب، ولا أدري هل نستطيع أن نجد لهم ولو عذراً بسيطاً في حالة الفقر والجوع والجهل التي كانوا يعيشونها في غالب أيامهم؟!

وفي أثناء حملة ملك إنكلترا ريتشارد على فلسطين، كان يُعسكر قُرب قلعة النطرون، "فوصل إليه اثنان من البدو، وأخذا من الملك الأمان والثقة، وأقسا له يمينا تعهدا به بأنّها سيخدمانه بإخلاص، وسيُطلعانه على كمائن جيش صلاح الدّين، وعن كلّ ما يدور حول صلاح الدّين وجميع أهل البلاد"⁽¹⁾، إن هذا التصرف قد لا يُمثّل سلوك كلّ بدو فلسطين، لكن؛ في كثير من الأحيان، كنّا نجد مثل هذه الحالات، فهي طريقة سهلة للعيش لضعاف النفوس، خاصّة في حال غياب أيّ شعور ديني، أو قومي، أو وطني. ويبدو أن الملك ريتشارد قد أعجبه موضوع استخدام البدو، وأنّه اهتمّ بهم كأدلاء وجواسيس مأجورين، واعتمد عليهم، وسيرّهم يتسقطون له الأخبار، فعلم منهم بمسير قوافل مصر نحو الشام، "وكان العدو يترقّب أخبارهم، ويتوصّل إليها بالعرب المُفسدين"⁽²⁾، واندمج الملك ريتشارد بلعبته مع البدو، ووثق بهم إلى درجة كبيرة، حتّى إنّه "ركب مع العرب بجمع يسير، وسار حتّى أتى القفل، فطاف حوله في صورة عربي"⁽³⁾.

وبلغ تعامل البدو مع الفرنجة حدّاً أزعج صلاح الدّين إلى درجة أنّه قاد حملة خاصّة عام 568 هـ 1173 م، لطرد البدو من منطقة الكرك، لمنعهم من مُساعدة الفرنج الذين استخدموهم جواسيس وأدلاء⁽⁴⁾، وهي أوّل غزوة لصلاح الدّين من مصر، وكانت في عهد نُور الدّين، لذلك أرسل له صلاح الدّين رسالة من إنشاء القاضي الفاضل يشرح له فيها أسباب هذا التحرك العسكري، قال: "علم المملوك بما يؤثره المولى، فإن يقصد الكُفّار بما يقصّ أجنتهم، ويفلّ أسلحتهم، ويقطع مواردهم، ويُخرّب بلادهم، وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يُبقي في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذلّ الكُفر إلى عزّ الإيمان، ومنّ اجتهد فيه عامّة الاجتهاد، وعدّه أفضل أسباب الجهاد، ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل ديارهم، إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يهتدي سبيلاً"⁽⁵⁾.

1- ذيل تاريخ وليم الصّوري، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 8 / 434.

2- النّوادر السّلطانيّة، ابن شدّاد، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 15 / 232.

3- النّوادر السّلطانيّة، ابن شدّاد، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 15 / 232.

4- الروضتين، أبو شامة، 1 / 206.

5- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 1 / 225، والروضتين، أبو شامة، 1 / 206.

1- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيّة، شهيل زكّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 260 - 261.

2- تاريخ البغدادى ورحلته، المُوفّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 14 / 88.

3- من رسالة للعلاء الأصفهانيّ في: الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 18 / 435.

4- تاريخ البغدادى ورحلته، المُوفّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 14 / 88.

إنها - إذن - معاناة شديدة كان المسلمون يعانون منها لتعامل البدو مع أعدائهم، وإطلاعهم على عوراتهم، لم يجد لها صلاح الدين حلاً سوى نقل قبائل البدو من مواقع إقامتهم إلى داخل بلاده؛ لقطع اتصافهم بالعدو الفرنجي. ثم أصبحت هذه السياسة عامة، يُطبّقها صلاح الدين حيثما شك بتعامل البدو مع الفرنجة، فبعد فتح صلاح الدين للبلاد قام عام 583 هـ 1187م، بنقل بني ثعلبة من منطقة غزة إلى مصر؛ لأنهم كانوا يتعاملون مع الفرنج كأدلاء وجواسيس⁽¹⁾، فقد "كانوا يدأ مع الفرنج على المسلمين"⁽²⁾.

ومع أن صلاح الدين لم يتوقف عن الاستعانة بالبدو كقوّات خفيفة الحركة لمساندة جيشه، لكنّه تعلّم - بعد هزيمة الرملة - أنهم سلاح ذو حدين، فما إن لاحت الهزيمة حتّى انقلبوا على جيش صلاح الدين ينهبون أقاليمه ومتاعه⁽³⁾. وأجمع المؤرخون أنّه كان للأعراب موقف محزٍ في معركة دمياط عام 615 هـ 1218م، فقد كان الملك الكامل مُربطاً بجيش مصر أمام الفرنج الزاحفين لاحتلال دمياط، وكان أبوه الملك العادل في الشام يجمع النجيدات، ويؤجّجها إليه، وفي هذه الأثناء؛ مات العادل، وما كادت الأخبار تتسرّب إلى مصر بموته "حتّى وقع الطمع في الملك الكامل، وثارت العرب بنواحي أرض مصر، وكثر خلافهم، واشتدّ ضررهم"⁽⁴⁾. ولما عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها، ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط، وقطعوا الطريق، وأنسدوا، وبالغوا في الإفساد، فكانوا أشدّ على المسلمين من الفرنج"⁽⁵⁾.

مع أن تصرّف قبائل البدو هذا لا يُمكن أن يُبرّره أيّ عذر نضعه لهم، لكنّه قد يبدو ردّ فعل على معاناة طويلة من ظلم السُلطة الأيوبيّة، التي ما إن انشغلت عنهم بالفرنج حتّى ثاروا عليها،

1 - قلائد الجمان، القلقشندي، 83، والبيان والإعراب، المقرزي، 5، وصبح الأعشى، القلقشندي، 1/ 322، والروضتين، أبو شامة، 2/ 526.

2 - قبائل العرب، العمري، 107، والبيان والإعراب، المقرزي، 5، - وقد وهم عبد المجيد عابدين بتعليله نقلهم من جنوب فلسطين إلى مصر، واعتقد أنّها مكافأة قدّمها صلاح الدين لهم، يقول: "وكان لقبائل طيء فضل كبير في محاربة الصليبيين، فأراد صلاح الدين أن يكافئهم، فنقل منهم جرماً وثعلبة إلى الحوف الشرقي". (دراسات في تاريخ العروبة - ملحق البيان والأعراب، 116).

3 - الشرق الأدنى، السيّد الباز العريني، 166.

4 - السُلوك، المقرزي، 1/ 314.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326، وكذلك راجع: شفاء القلوب، الحنبلي، 301.

ونهبوا ما حولهم، وقد يُفسّر الأمر بأنّها طبيعة البدو، وفطرتهم بالسلب والنهب، فما إن وجدت لها مُتنفساً حتّى إنطلقت، ولكن؛ مهما كان السبب فهو غير مُهمّ بجانب فعلهم المُنكر، الذي لا يُمكن تبريره إلّا بجهلهم المطلق لأيّ مصلحة عامّة هي مصلحتهم فيها بعد.

وبالتأكيد؛ لم يكونوا ليُدركوا حجم البلاء الذي يُسبّبونه للبلاد، فبلغ الاستياء الرّسمي والشعبي من البدو في تلك الآونة مبلغاً كبيراً، حتّى إن بعض الناس - وقتها - رأوا أن الفرنج أرحم من البدو⁽¹⁾.

ويبدو أن بطش الملك الصّالح أيّوب هو الذي منع تكرار حوادث البدو في حملة لويس التّاسع على دمياط، واحتلاله لها. لكن؛ ما إن تلوح الفرصة حتّى يعود البدو إلى عاداتهم التي لا يُبدّلونها، فبعد أن أحرق المسلمون الجسور التي بناها لويس للعبور عليها من أجل الهُجوم على المسلمين، جاء بدوي إلى مُعسكره، وأخبره أن بإمكانه أن يدلّه على مخاضة تُمكن جيشه من العبور إلى جهة المسلمين، شريطة أن يُعطيه خمسمائة دينار، ودفع لويس المال، وعبر الجيش الفرنجي، وفاجؤوا المسلمين في مُعسكرهم⁽²⁾، ويُنابح جوانفيل مُرافق الملك لويس رواية ما حدث، فيقول: "بعدما هزمنا المسلمين، وطردهم من خيمهم، وتركوا نُحيمهم فارغاً، اندفع البُداء للقيام بنهبه، ولم يترك اللُصوص خلفهم شيئاً، بل حملوا كلّ شيء خلفه المسلمون... ومن المعروف أن عادة هؤلاء القوم عدّ الجانب الضعيف صيداً حلالاً لهم"⁽³⁾.

وبعد كلّ ما ذكرناه هل نستطيع الحُكم على قبائل البدو بالعمالة المطلقة للفرنج؟! لا أظنّ ذلك، فإن ما ورد هو نصف الحقيقة، وهو لا ينفي أنّه كان لكثير من طوائف البدو مواقف وطنية، ووقفات يُسجّلها التاريخ لهم، فقد كان جيش صلاح الدين لا يخلو من فرسان البدو المتطوّعة للجهاد. فعندما كان السُلطان مُحمّياً في مرج عيون، وضع مجموعة من فرسان بني ربيعة في كمين

1 - السُلوك، المقرزي، 1/ 320، - بعد أن احتلّ الفرنج دمياط أرسل الكامل يجمع المتطوّعين من القاهرة، ولإثارة حماسة الناس أبلغهم أن ملك الفرنج قد أقطع ديار مصر لأصحابه، فقال الشاعر الشّعبي:

يُهدّدونا بأهل عكا أن يملكونا وأهل يافا

ومَن لنا أن يلو علينا فالروم خير من الريفا

2 - جين جوانفيل، حياة القديس لويس، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 36/ 88.

3 - جين جوانفيل، حياة القديس لويس، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 36/ 99.

للفرنجة، فكشفوهم، وحاصروهم، فقاتلوا، حتى قُتلوا عن آخرهم، وكان فيهم ثلاثة من أمراء بني ربيعة⁽¹⁾. كذلك كان السلطان صلاح الدين يعرف قيمة البدو كأدلاء، فنجدهم يتقدمونه في مسيره⁽²⁾، ثم يُسلطهم على مُعسكرات العدو، فيقضون مضاجعهم، وينهبون ما وصلت إليه أيديهم، حتى إنهم - في أحد الأيام - أحضروا للسلطان كنيسة المُعسكر الفرنجي، وهي خيمة كبيرة⁽³⁾، وهذا دليل على جسارتهم على العدو، واقتحامهم لمعسكراته، حتى إنهم فكوا خيمة الكنيسة من وسط المُعسكر، وحملوها.

وعندما كان السلطان صلاح الدين مُرابطاً أمام للفرنجة على حصار عكا بلغه أن جمعاً من الفرنجة يخرجون للاحتطاب وللاحتشاش من طرف النهر، "فأمكن لهم جماعة من العرب، وقصد العرب لحقتهم على خيوطهم، وأمنه عليهم، فخرجوا، ولم يشعروا بهم"⁽⁴⁾، "وحالوا بينهم وبين خيامهم"⁽⁵⁾، "وهجموا عليهم، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً، وأسروا جماعة، وأحضروا رؤوساً عدة"⁽⁶⁾. وفي عام 647 هـ 1249م، بعد أن احتل الفرنجة دمياط استنفر الملك الصالح أيوب الناس، "فوصلت عربان كثيرة جداً، وأخذوا في الغارة على الفرنجة، ومناوشتهم"⁽⁷⁾. وكل ذلك مواقف وطنية وجهادية يجب أن نتذكرها، إلى جانب كل ما كان يُذكر لهم من مواقف سيئة.

صورة البدو لدى الفرنج:

قبل الفرنج التعامل مع البدو، وبلا شك؛ فقد أفادوا منهم في مواقف كثيرة، وخاصة للدلالة في مسالك بلاد مجهولة بالنسبة إليهم، ومعروفة بدقة بالنسبة للبدو. وبالمقابل؛ عاش الفرنج معاناة كبيرة من البدو، فهم لم يُخلصوا لهم في يوم من الأيام، وكانوا - على الدوام - ينتظرون الفرصة لينقضوا

- 1- الفتح القسبي، العباد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 13 / 198، - والأمرأ هم: زامل بن تيل بن مرا بن ربيعة أمير بني ربيعة، والأمير حجي بن منصور بن دغل بن ربيعة، والأمير مطرف بن ربيع بن بردويل بن مرا بن ربيعة، وآخرون غيرهم.
- 2- النوادر السلطانية، ابن شدّاد، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 15 / 253.
- 3- الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 20 / 194.
- 4- النوادر السلطانية، ابن شدّاد، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 15 / 116.
- 5- الفتح القسبي، العباد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 13 / 207.
- 6- مُفرج الكروب، ابن واصل، 2 / 294.
- 7- السلوك، المقرئزي، 1 / 439.

عليهم، كما كانوا يفعلون بجيوش المسلمين. لذلك ظلّ الفرنجة حذرين غاية الحذر في تعاملهم مع البدو، بل رُبّما كانوا يخافون منهم، ويتّضح هذا الخوف من خلال الصورة التي نقلها عن البدو مؤرّخو الفرنجة، فيقول عنهم بوشارد راهب جبل صهيون:

"البدو يملكون أعداداً كبيرة من الماشية، ويقومون برعايتها، لا يمتلكون مكاناً دائماً للإقامة، يقصدون المراعي، ويُقيمون خيامهم. . . مقاتلون مُتفوّقون، يُحبّون الحُرْب، ويستخدمون السيف والرّمح في المعركة، ولا يستخدمون النّشاب، ويقولون إنّها دناءة أن تتزع حياة إنسان بواسطة سَهْم، وهم شجعان، ولا يرتدون إلّا قميصاً فوقه عباءة فضفاضة، ويُغطّون رؤوسهم بقطع قماش"⁽¹⁾.

ويقول الراهب الدومينيكاني فيليكس فايري: "إن البدو يزجون أنفسهم في أعظم المخاطر من دون خوف، لا اعتقادهم بأنّ الموت أمر مُقضي من الله لا يُمكن تجنّبه"⁽²⁾.

ويقول عنهم جين جوانفيل مُرافق الملك لويس في حملته على مصر: "ولا يعيشون في قُرى، أو مُدن، يُبوتهم أكوام مربوطة إلى أعمدة، عليها جلود أغنام مُعالجة بالشّب، يرتدون عباءات من الصوف، يلفّون أنفسهم بها، ويعتقدون أن الانسان لا يموت قبل اليوم المحدّد له، فلذلك يرفضون لبس الدُّروع، وشتيمتهم: عليك اللعنة مثل فرنجي يلبس الدُّروع خوفاً من الموت"⁽³⁾، ويُخصّص فيليكس فايري النظرة إلى البدو في العصر الأيوبي بقوله: "إن البدو مكروهون من المسلمين والمسيحيين سواء"⁽⁴⁾.

- 1- بوشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 39 / 242.
- 2- جولات ورحلات، الراهب فيليكس فايري، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 43 / 1194.
- 3- حياة القديس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 36 / 100.
- 4- جولات ورحلات، الراهب فيليكس فايري، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 43 / 1194.

الفصل الثالث

العلاقات السياسية والعسكرية

الفرقة الخوارزمية

المبحث الأول:

فرقة المقاتلين المرتزقة

توجّهت معظم عساكر جلال الدين الناجية من سُيوف التتار إلى بلاد سلاجقة الروم، وقصدوا السلطان علاء الدين كيقباز، الذي رحّب بهم، واستخدمهم في جيشه⁽¹⁾، وذكر أن كيقباز هو الذي استدعاهم، فوافقوا على خدمته، وأقسموا له، فأقطعهم الأراضي في إرزن الروم⁽²⁾. وظهرت نوايا كيقباز بعد استخدام الخوارزمية، فخاض أول معاركه بهم ضدّ الأيوبيين؛ حيث هاجم خلاط، واحتلّها بمساعدة فعّالة من فرقة الخوارزمية، كذلك هاجم عدّة مُدن وقلاع أيوبية في الجزيرة⁽³⁾، ممّا دفع بني أيوب للتكتّل، وجمع قوّاتهم، والسير بحملة عسكرية كبرى نحو الجزيرة عام 633 هـ 1236 م، واسترجعت الحملة ما احتلّه كيقباز الذي انسحب إلى ما خلف عمّرات طوروس، أو ما كان يُعرّف بالدريندات⁽⁴⁾.

وعندما توفّي كيقباز، وتولّى مكانه ابنه غياث الدين كيخسرو⁽⁵⁾، "ارتاب بالخوارزمية، فقبض على أمرائهم، وانفضّ الباقون عنه، وعاثوا في الجهات"⁽⁶⁾. وفي الحقيقة؛ كانت نقمة غياث الدين على الخوارزمية لأنهم تلكّؤوا بمبايعته، فحبس مُقدّمهم خير خان، الذي توفّي في سجنه، وهرب الباقون نحو ملطية وخرتبرت، ثمّ سُمّيساط، يُغيرون، وينهبون، ثمّ انحدروا مُغيّرين ما بين حرّان والرّها

1- مُفَرَّج الكُزُوب، ابن واصل، 4 / 325.

2- مُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: مُحمّد السعيد جمال الدين، 229.

3- كنز الدرر، ابن أبيك، 7 / 314، وصدق الأخبار، ابن سنياط، 1 / 307.

4- مرآة الزّمان، سبط ابن الجوزي، 8 / 2 / 695، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 158.

5- شذرات الذهب، أحمد الحنبلي، 5 / 168، والعبر، الذهبي، 5 / 139.

6- العبر، ابن خلدون، 5 / 355.

وسروج⁽¹⁾، وعاشوا على النهب والتعرض للقوافل، وفرض الأتاوات على الحُكَّام. فحاول غياث الدين استرضاءهم، لكنهم لم يوافقوا على العودة إليه⁽²⁾. وشكّل الخوارزمية مجموعات مُتَنَقِّلَة، ارتكبت من القتل والنهب والفواحش ما فاق ارتكابات التُّتَّار؛ بحيث لن يُمكن لأحد أن يُسوِّغ وحشيَّتهم بفقر، أو عطالة⁽³⁾. وقد بلغ عدد مُقاتلي الخوارزمية في بدايات تواجدهم في الجزيرة نحو خمسة آلاف فارس⁽⁴⁾، ثُمَّ أخذوا بالتزايد بسبب انضمام أفراد ومجموعات إليهم، وأكبر المجموعات التي عملت معهم كانت من التُّركمان⁽⁵⁾، فأصبح تعدادهم ما بين عشرة آلاف فارس⁽⁶⁾، واثني عشر ألف⁽⁷⁾.

ولأن الخوارزمية كانوا يعيشون عيشة العصابات، فإنهم لم يعودوا يخضعون لقائد واحد، بل كان لهم عدَّة مُقدِّمين، كان أكبرهم حُسام الدين بركة خان، الذي تمكَّن من الظهور على بقيَّة المُقدِّمين لمركزه السَّابق، "فقد كان أمير حاجب السُّلطان جلال الدين، وهو شيخ داهية له رأي ورواء، ودونه يأتي عزَّ الدين صاروخان، شحنة الجبال التي لجلال الدين وهو شيخ بطين أبله، ثُمَّ بهاء الدين كشلو خان تربية جلال الدين، شاب عاقل وابن أُخت جلال الدين، وبهادر، وبكجري، وتبلو، وغيرهم"⁽⁸⁾. ويبدو أن مُقدِّمي الخوارزمية اعتمدوا في زعامتهم على مناصبهم القديمة في جيش جلال الدين.

وكان الخوارزمية يتنقلون ويُقاتلون مُصطحين معهم زوجاتهم وأولادهم وخيامهم ومُمتلكاتهم، وعندما استولوا على بعض المُدن والحُصُون، أو حصلوا عليها كإقطاع انتقلوا للسَّكن بها. وقد عمل الخوارزمية في الجزيرة والشَّام كفرقة مُرتزقة حقيقيَّة، تُؤجَّر سُيُوفها ورجالها لمن يدفع لها أكثر، وعندما لا يجدون من يعملون لحسابه، كانوا يعملون لحسابهم الخاص. وعلى هذا الأساس فلا يُمكن أن نتوقَّع منهم الالتزام بميثاق، أو الوفاء بعهد، أو الإخلاص لسيد مُعيَّن. ولكُلِّ هذا لا نستطيع أن نعدَّهم من المُتطوِّعة، أو من مُحترفي الجُنْدية، فهم مُرتزقة يحترفون الارتزاق كمجموعة واحدة.

- 1 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 230، ومُختصر سلجوق نامه، ابن البيي، تعريب: مُحَمَّد السعيد جمال الدين، 250-251، ومُختصر تاريخ الدُّول، ابن العربي، 283.
- 2 - مُختصر سلجوق نامه، ابن البيي، تعريب: مُحَمَّد السعيد جمال الدين، 261 - 263.
- 3 - من ذكريات الغزو الفرنجي، د. شاکر مُصطفى، 101.
- 4 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 - 640 / 32.
- 5 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 296، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3 / 2 / 476، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 331.
- 6 - تاريخ الزَّمان، ابن العربي، 276.
- 7 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 325.
- 8 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 - 640 / 32، وأخبار الأيوبيين، ابن العميد، 32، وكَنز الدُّرر، ابن أبيك، 7 / 353.

المبحث الثاني:

الصَّالِح أَيُّوب وفرقة الخوارزمية

في عام 634 هـ 1237 م، سمع بأخبار فرقة الخوارزمية أمير حصن كيفا الصَّالِح أَيُّوب بن السُّلطان الكامل، وكان نائباً لأبيه في الجزيرة⁽¹⁾، فأرسل يستأذن أباه في استخدامهم، فأذن له⁽²⁾، فاستقدمهم أَيُّوب "وأفاض عليهم الأرزاق"⁽³⁾، وأعفى جميع أمرائه من مهامهم، وأعطى أخبارهم للخوارزمية⁽⁴⁾. ويقول ابن خلدون إن سبب استخدام أَيُّوب للخوارزمية "ليحسم عن البلاد ضررهم"⁽⁵⁾، ولكن استخدام أَيُّوب للخوارزمية لا يدلُّ على ذلك أبداً، فقد تقوَّى بهم، وهاجم أعداءه، وكانوا سبب سعادته وارتقائه قبل أن ينقلبوا عليه.

في المرحلة الأولى من التعاون بين أَيُّوب والخوارزمية، وهي مرحلة الجزيرة، كان معهم كراكب الأسد، تهابه الناس، وهو لمركوبه أهيب⁽⁶⁾، وحتى يضمن ولاءهم له زوج أُخته من والدته بمُقَدِّم الخوارزمية بركة خان، وزوج ابنه المُغيث عُمر من ابنة بركة خان، ومع ذلك؛ كانوا "يُظهرون طاعتهم حيناً، ويتغاضون حيناً، ويطلبون منه ما يفوق طاقته"⁽⁷⁾. فالخوارزمية حتى بعد انضمامهم لقوَّات الصَّالِح لم يتحوَّلوا إلى قطعة عسكريَّة، ولم تتركهم رُوح التمرد. وعندما تحرَّك الملك الكامل لحصار حصن عام 635 هـ 1238 م، طلب من ابنه أَيُّوب المُجُوم على الرحبة، التي تتبع لمملكة حمص، فسار إليها الصَّالِح، وحاصرها ومعه الخوارزمية، الذين ما إن سمعوا بموت الكامل، وشعروا بحرج موقف ابنه الصَّالِح، حتى تمردوا، وحاولوا القبض على سيِّدهم الصَّالِح، فهرب منهم، والتجأ إلى سنجار، فنهب الخوارزمية معدَّاته وأمواله⁽⁸⁾، وتفرَّقوا في البلاد الجزيرة يتحكَّمون بها⁽⁹⁾، ويُمارسون كُلَّ ما يخطر على البال من الموبقات والأذى للناس.

- 1 - السُّلُوك، المقرئزي، 1 / 255.
- 2 - السُّلُوك، المقرئزي، 1 / 378.
- 3 - العبر، ابن خلدون، 5 / 355.
- 4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 330، وصدق الأخبار، ابن سنيَّاط، 1 / 311.
- 5 - العبر، ابن خلدون، 5 / 355.
- 6 - يُقال هذا التشبيه لَن يُصاحب الحُكَّام (الدَّرة المضيئة، ابن صصري، 20).
- 7 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 153.
- 8 - السُّلُوك، المقرئزي، 1 / 269.
- 9 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 78.

وانتهز هذه الفرصة سلاجقة الروم، فاتفقوا مع صاحب ماردین، وهاجموا مدينة حرّان، وكان بها المغيث بن الصّالح أيّوب، فهرب إلى قلعة جعبر، وأكمل عليه الخوّارزمية الذين وقعوا على أنقاله، فنهبوا⁽¹⁾. وكذلك كان حال بدر الدّین لؤلؤ، فهو يتحصّن الفرص. ولما مات الكامل طمع لؤلؤ باحتلال بلاده، فبدأ بسنّجار، وحاصرها، وكان بها الصّالح أيّوب، فطلب منه الصّالح، فأصرّ لؤلؤ على حمله إلى بغداد في قفص⁽²⁾. ولما بلغت الشدة بأيّوب أقصاها لم يجد منقذاً له سوى الخوّارزمية، وعرف أنّهم يُحاصرون حرّان⁽³⁾. وكأخر سهم في جعبة الصّالح أطلق قاضي سنّجار بدر الدّین السنّجاري نحو الخوّارزمية، فقد دلاه من السور ليلاً، ومضى إلى الخوّارزمية، ووافقهم على كلّ ما طلبوه من إقطاعات: حرّان، والرّها، وغيرها⁽⁴⁾، "واستألمهم، وطيبّ خواطرهم بكثرة ما وعدهم به، فمالوا إليه"⁽⁵⁾، كما أطمعهم القاضي بدر الدّین بأموال لؤلؤ، ووعدهم أن تكون غنيمتهم الخاصة⁽⁶⁾.

وفي هذه الأثناء كان المغيث بن أيّوب يُحاول اللّجوء إلى حلب، فردّوه، فسار نحو حرّان، وهناك وصله كتاب أبيه الصّالح أيّوب بالاتفاق مع الخوّارزمية، ويطلب منه القدوم معهم لدفع لؤلؤ عن سنّجار، فسار المغيث مُسرّعاً نحو الخوّارزمية، واندفعوا جميعاً نحو سنّجار⁽⁷⁾، وكبسوا لؤلؤاً، فنجوا وحده، ونهبوا خزائنه وأمواله وجميع ما كان في عسكره⁽⁸⁾، واستغنى الخوّارزمية بما سلبوه

من لؤلؤ⁽¹⁾. وعاد الصّالح أيّوب إلى حصن كيفا مهاباً، وحوله الخوّارزمية، فوجّههم صوب آمد لطرده جيش سلاجقة الروم، الذين آثروا السلامة، وانسحبوا نحو بلادهم⁽²⁾.

وعادت أُمور الصّالح أيّوب للانتظام مع الخوّارزمية في الجزيرة، فأخذ يتطلّع إلى الشّام، وجاءته الفرصة تسعى في عام 636 هـ 1239م، عندما طلب الملك الجواد يُوُسُف بن محدود بن العادل، الذي تولى دمشق بعد وفاة عمّه الكامل، من الصّالح أيّوب أن يُبادلته على دمشق بالرقّة وسنّجار وعانة، فوافق الصّالح، وأسرع نحو دمشق، وتسلمها منه⁽³⁾. ورثب أيّوب ابنه المعظم تُوران شاه في حصن كيفا⁽⁴⁾، وترك الخوّارزمية في إقطاعاتهم حرّان والرّها لحراسة مُمتلكاته في الجزيرة. ويبدو أنّهم فرضوا سلطتهم كأمر واقع هناك، فقد "تسلطن الخوّارزمية على بلاد الجزيرة، وبالعوا في العيث والفساد"، وخطبت الملوك ودّهم، حتّى إن المظفر غازي صاحب ميّافارقين تزوّج ابنة عمّ مُقدّمهم بركة خان⁽⁵⁾.

ويبدو أن أيّوب كان ينظر لموضوع المبادلة مع الجواد بمنظار آخر، فربما كان يعتبر أن دمشق هي حقّه بالإرث عن والده الكامل، وأن الجواد مُغتصب لهذا الحق، لذلك عندما اتّفق معه بيت له الغدر، وما إن سار الجواد عن دمشق حتّى أتبعه برسول إلى الخوّارزمية ليقبضوا عليه، ولكن الجواد - ولحسن حظّه - كشف الرسالة، وسار في البادية مُتخفياً، حتّى وصل عانة، فأقام فيها⁽⁶⁾. وفي عام 637 هـ استولى لؤلؤ صاحب الموصل على سنّجار، وطرده الجواد منها⁽⁷⁾، ولم يبقَ للجواد سوى عانة، فباعها للخليفة المُستنصر، ومن غرائب الأمور أنّه سار - بعد ذلك - إلى حرّان، وأقام بين الخوّارزمية، وانضمّ إليهم⁽⁸⁾.

- 1- مرآة الزّمان، سبط ابن الجوزي، 704/2/8، والنّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/300.
- 2- مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 190/5، وزُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/689.
- 3- تاريخ الإسلام، الذهبي، 631-640/20.
- 4- زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/691.
- 5- تاريخ الإسلام، الذهبي، 631-640/32.
- 6- نهاية الأرب، النويري، 29/244.
- 7- المُختصر، أبو الفداء، 166/2، وصدق الأخبار، ابن سنيّاط، 1/320.
- 8- الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 131.

- 1- زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/689.
- 2- مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/1197، والنّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/299.
- 3- زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/689، والنّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/299، - بينما يقول ابن العميد: إنّهم كانوا "يتنقلون من مرج إلى مرج، ويأكلون، ويشربون". (أخبار الأيوبيين، 27)، وهذا وهم؛ إذ لا يمكن للخوّارزمية أن يَفُوتوا هكذا فرصة من الفوضى لجمع المكاسب.
- 4- مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/187، وشفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 330، وصدق الأخبار، ابن سنيّاط، 12/315.
- 5- السُّلُوك، المقرئزي، 2/269.
- 6- أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 27، ونهاية الأرب، النويري، 25/233.
- 7- زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/689.
- 8- النّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/299، ونهاية الأرب، النويري، 25/233، وأخبار الأيوبيين، ابن العميد، 27.

حصار حمص:

وصل الصالح أيوب إلى قناعة مفادها أنه طالما بقي الملك المجاهد في حمص فلن يستقر ملكه في دمشق، فلم يُضَيِّع أيوب وقته في دمشق، وجدّد تحالف والده الكامل مع المظفر في حماة، وطلب منه تحريك جيوشه نحو حمص، وأرسل للخوارزمية يطلبهم لحصار حمص، وتحرك هو بعسكر دمشق نحو حمص، حتّى وصل إلى ثنية العقاب⁽¹⁾. سبق الخوارزمية جميع القوّات الحليفة، وألقوا حصارهم على حمص قبل أن تصل إليها قوّات المظفر من حماة، أو قوّات الصالح من دمشق، وهذا ما أتاح للملك المجاهد الاتفاق معهم، ودفع ما يرضيهم مقابل انسحابهم عن مدينته⁽²⁾. وبالتأكيد؛ فإن تواطؤ الخوارزمية ضدّ سيدهم وولي نعمتهم الصالح، الذي سلطهم على البلاد والعباد، لم يكن من أجل مال المجاهد فقط، بل يبدو أنهم وضعوا في حسابهم أموراً أخرى، ربّما كان المجاهد قد لَمَح لها خلال مُفاوضته معهم، ومنها:

1- خطر لقائهم بقوّات دمشق وقوّات حماة المتحالفتين، فقد يخطر ببال الصالح أيوب - بعد أخذ حمص، وقد توفّرت له كلّ أسباب القوّة - أن يُصَفّي حساباته القديم معهم.

2- إذا استولت القوّات الحليفة على حمص فسيكون كلّ شيء للصالح أيوب، فأجور الخوارزمية مدفوعة سلفاً في إقطاعات الجزيرة، وبالتالي؛ ستكون خسائرهم في المعركة وجُهودهم مجانية.

4- لمس الخوارزمية مدى قوّة تحصين حمص، وعزيمة المجاهد الصلبة، فوضعوا احتمال عدم النجاح في أخذها، ففضّلوا مكسباً مضموناً بلا تعب.

5 - أثبتت الخوارزمية أمام حمص أنها فرقة مُرتزقة حقيقيّة، وأنها مع مَنْ يدفع، وهذه النقطة لا بُدّ أن المجاهد كان يدركها تماماً، وقد أجاد استخدامها.

1- المختصر، أبو الفداء، 3/ 163.

2- المختصر، أبو الفداء، 3/ 163، والسُّلوك، المقرئ، 1/ 280.

كما يبدو أن المجاهد - بطرقه المعهودة - قد شغل أفكار الخوارزمية حول أملاكهم في الجزيرة، فلمّا تأكّد لهم طول المقام عادوا إلى بلادهم⁽¹⁾.

وكان المظفر صاحب حماة في طريقه إلى حمص عندما ارتدّ الخوارزمية عنها، فخاف أن يقصدوه؛ لأنّه يُشكّل لهم غنيمة سهلة على الطريق، فلا قوّة جيشه ولا تحالفه مع الصالح أيوب يحميانه منهم، فأثر الإسراع نحو أسوار حماة يتحصّن بها⁽²⁾. وبعد أن عرف الخوارزمية أن مُحطّطات الصالح أيوب لا متلاك مصر قد انتهت به في سجن الكرك، "تحركت أطباعهم، وعاثوا في بلاد الشرق والجزيرة"⁽³⁾. وبقدر الأعداء الذين اكتسبهم بفسادهم اكتسبوا من الحلفاء، فقد وجدّ فيهم الملوك الحاقدون والأمراء المنبوذون ملاذاً ومُتنفّساً لغلّهم على الملوك والممالك. فانضمّ إليهم الملك الجواد يونس بن ممدود، الذي اعتقد أنّه غُبن بتسليمه دمشق للصالح أيوب⁽⁴⁾. وكذلك الصالح إسماعيل بن المجاهد الذي لم يحصل على نصيب من تركة أبيه في حمص⁽⁵⁾. وعلي بن حديفة أمير بني ربيعة الذي حقد على حلب لتقريبها أحلاف الأعراب⁽⁶⁾. وانضمّ هؤلاء جميعاً إلى الخوارزمية. كما دخل حلفهم المظفر شهاب الدّين غازي صاحب ميّافارقين، لأنّه شعر بأطباع سلاجقة الرّوم تمتدّ إلى بلده، فأعلم الحلبيين، وطلب حلفهم، فلم يوافقوه لاتّفاقهم المُسبق مع صاحب الرّوم⁽⁷⁾، علماً بأنّ المظفر هو شقيق صنيّة خاتون الوصبة على عرش حلب. كذلك تمكّن المظفر شهاب الدّين من استمالة الثّرمان الكرمانية بالمال والوُعود⁽⁸⁾، ويمكن أن نعزو قيام التحالف الخوارزمي ليقابل التحالف الشّامي حلب حمص دمشق⁽⁹⁾.

1- السُّلوك، المقرئ، 1/ 280.

2- شفاء القُلوب، أحمد الحنبلي، 369.

3- المختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وزُبْدَةُ الحلب، ابن العديم، 501.

4- الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 131.

5- المختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 176، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 631 - 640/ 31.

6- مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282، وزُبْدَةُ الحلب، ابن العديم، 501.

7- زُبْدَةُ الحلب، ابن العديم، 2/ 695، ومُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 304.

8- مُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، 276.

9- الأثر الخوارزمي، صبري سليم، 85.

وفي عام 638 هـ 1241 م⁽¹⁾، قام الخوارزمية وحلفاؤهم بالضغط على الحافظ ثور الدين أرسلان ابن العادل صاحب بالس وقلعة جعبر، بتحريض من ابنه الذي التجأ إليهم، وطلب حصار أبيه، فقام الحافظ - نتيجة لعجزه عن حماية أملاكه - بتسليمها إليأخته صيفة خاتون، الوصية على عرش حلب، فانقضت الخوارزمية يُغيرون على جعبر وبالس⁽²⁾، ومعهم نجدة صاحب ماردين المنصور الأرتقي⁽³⁾. فتصدى لهم عسكر حلب بقيادة المعظم ثوران شاه بن السلطان صلاح الدين، والتقى الجمعان في وادي بزاعة قرب البيرة، فهاجم الخوارزمية جيش حلب من أمامه، وخرج عليه علي بن حديثة بعربانه من الخلف، فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة⁽⁴⁾، ووقعت الملوك والأمراء بين قتيل، وأسير⁽⁵⁾، فقد قتل منهم: الصالح بن الأفضل صاحب سُميساط، والزاهر بن السلطان صلاح الدين، وأسر ثوران شاه، وأخيه نصره الدين⁽⁶⁾. فاستعد الحلبيون للحصار، "وتدقق الخوارزمية نحو حلب، وبثوا سراياهم حتى اعزاز وتلّ باشر وطرف العمق، وارتكبوا من الفواحش ما لم يفعله أحد من الكفار"⁽⁷⁾؛ حيث انقضوا على منبج، واستباحوها، وفعلوا فيها فعل التتار⁽⁸⁾؛ إذ "ارتكبوا الفواحش بالنساء في الجامع علانية، وقتلوا الأطفال"⁽⁹⁾. كذلك كان فعلهم في سرمين؛ حيث دخلوا دار الدعوة الإسماعيلية، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس، ظناً منهم أنهم لا يجسرون على قربانها خوفاً من الإسماعيلية، فدخلوها قهراً، ونهبوا جميع ما كان فيها⁽¹⁰⁾.

1- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 5/ 282.

2- مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 3/ 733.

3- يُقَدَّرُ ابن واصل نجدة ماردين للخوارزمية بحوالي 12 ألف فارس، (مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، 5/ 283).

4- يُعَلَّلُ ابن شداد هذه الهزيمة، وهو الذي كان يكتب في بلاط حلب، بأن جيش حلب كان مُسْتَعْتَباً في عدّة مهام عسكرية، يقول: "لما قصد الخوارزمية حلب كان عسكرها مُفَرَّقاً في البلاد، بعضه بحمص لما أغار الفرنج على بلدها، وبعضه في الرّوم صحبة الأمير حُسام الدين ألتاش بن تركمان، وبعضه بقلعة جعبر مع الأمير ناصر الدين أبي المعالي الفارسي، وبعضه بعزاز بسبب التركمان الآغا خرية، ولم يكن بحلب - يومئذ - إلاّ دون الألف فارس، خرج بهم المعظم ثوران شاه بن صلاح الدين". (الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 465).

5- المختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وكنز الدرر، ابن أبيك، 7/ 349.

6- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 235.

7- زُبْدَةُ الْحَلَبِ، ابن العديم، 2/ 697.

8- زُبْدَةُ الْحَلَبِ، ابن العديم، 504، ومُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 5/ 284.

9- السُّلُوكُ، المقرئ، 1/ 406، وكذلك حول فظائع الخوارزمية في المعرة راجع: ما أورده ابن واصل في: مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، 5/ 285.

10- زُبْدَةُ الْحَلَبِ، ابن العديم، 2/ 700.

ثم استباحوا المعرة وكفر طاب⁽¹⁾، قبل أن "يرجعوا إلى بلادهم، وهي حرّان، وما معها، بعد أن أخرجوا بلد حلب"⁽²⁾. ويُحاول بعض الدارسين لوقائع الخوارزمية أن يُبرّر فظائعهم تلك بأنها نتيجة للعنف الذي تعرّضوا له من قبل التتار، وأن العنف والفظائع كادت تُصبح من سمات الحروب المتعارف عليها⁽³⁾، ولكن؛ نجد أنه من الأفضل النظر إلى حالة الخوارزمية من جميع النواحي: الاجتماعية، والعسكرية، والاقتصادية، والنفسية، إنها حالة لا تعرف الاستقرار بأيّ شكل، فهم مع أيّ كان، وضد أيّ كان، ينقلبون على الحليف، ويحالفون العدو، كلّ ذلك انطلاقاً من المصلحة الآنية، بدون أيّ استراتيجية في علاقاتهم، أو حروبهم. فانقلبوا إلى فرقة من المرتزقة، بلا مبادئ، وبلا أيّ وازع.

وربّما كان من أهم أسباب الهجوم الخوارزمي على حلب:

1- أخذ الحلبيون لجعبر وبالس مُبادلة، بعد أن كادت تقع بأيديهم.

2- تحريض الصالح أيّوب للخوارزمية ضدّ حلب، التي شكّلت حلفاً مُعادياً له مع حمص ودمشق.

3- تحالف حلب مع غياث الدين كيخسرو عدوّ الخوارزمية القديم.

4- غنى أرض حلب، وتفرّق جيشها مابين نجدة كيخسرو وحماية القلاع والحصون.

5- رفض صيفة خاتون الوصية على عرش حلب طلب محمد تركان بن بركة خان للزواج بإحدى بنات البيت الأيوبي، وإهانتها للرسول⁽⁴⁾.

1- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 5/ 928 - 290.

2- المختصر، أبو الفداء، 167.

3- الأتراك الخوارزميون، صبري سليم، 73.

4- الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 143، - وراجع مناقشة أسباب العداء بين الخوارزمية والحلبين في: الأحرار الخوارزميون، صبري سليم، 70 - 71.

المبحث الثالث:

المنصور إبراهيم يتصدى للخوارزمية

ضجّت الشام بأخبار الخوارزمية، وما فعلوا بحلب، وجيشها، فوصل الخبر إلى الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص، وكان يستعد للإغارة على معاقل الفرنج "وعنده من عسكره وعسكر دمشق مقدار ألف فارس، فساق بالعسكر حتى وصل حلب، وأقام خارج باب الرابية يستقدم العسكر"، وأرسلوا إلى الصالح إسماعيل، فسير نجدة أخرى⁽¹⁾، وإلى المظفر صاحب ميّافارقين، فماتل، وسوف⁽²⁾.

وخرج الملك الناصر يوسف الثاني ابن العزيز صاحب حلب لاستقبال المنصور، وكان عمره إحدى عشرة سنة⁽³⁾. وحين سمع الخوارزمية بوصول المنصور إلى حلب، عادوا إلى إقطاعاتهم، وتجمّعوا في حرّان للتوجه نحو حلب لضرب قوّات المنصور قبل أن يكثر جمعه، "وظنّوا أنّهم يبادرون لصلحهم، وقد انفصل عنهم علي بن حديثة"⁽⁴⁾، وبالمقابل؛ قربت صاحبة ضيقة خاتون الأمير طاهر بن غنام، وأقطعته وزوجته، وسمنته أمير جميع العرب⁽⁵⁾.

وخرجت الفرقة الخوارزمية وأحلافها من حرّان عام 638 هـ فعبروا الفرات عند الرقة، وخرج الملك المنصور إبراهيم، وعسكر في النيرب، ولما وصلت الخوارزمية إلى نواحي دير حافر والجبول، ناوشتهم العربان المتحالفة مع المنصور، فمضى الخوارزمية إلى سرمين، ونهبوا دار الدعوة الإسماعيلية فيها، ثمّ زحفوا إلى المعرة، فتحرك المنصور بقوّاته من النيرب إلى تلّ السلطان، فالحيار⁽⁶⁾، ومن اتّجاه حركة المنصور تبيّن أنّه كان يقصد أن يقطع عليهم طريق العودة نحو مواقعهم في الجزيرة.

1- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 698.

2- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3 / 466.

3- مُفَرِّجُ الْكُرُوب، ابن واصل، 5 / 286.

4- وكان رسول حلب هو ابن العديم (زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 699).

5- مُفَرِّجُ الْكُرُوب، ابن واصل، 5 / 287.

6- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 699، - تلّ السلطان: يُعرّف بالفنيدق، يبعد عن حلب نحو مرحلة على طريق دمشق. - الحيار: حيار بني القعقاع، صقع من بركة قنسرين، بينه وبين حلب يومان. (ياقوت، مُعْجَمُ الْبُلْدَان، مادة: تلّ السلطان، ومادة: حيار).

ولما تبيّن الخوارزمية نوايا المنصور، ولمسوا فيه القوّة والعزيمة، اضطّروا للهرب، مُتَّبِعِينَ دائرة واسعة حتّى لا يصطدموا به، فاندفعوا نحو كفر طاب، وأحرقوها، ثمّ شيزر، فهاجموا ربضها، وهناك علموا أن المنصور يتتبعهم، فأتجهوا شرقاً نحو حماة، فاجتازوا بها دون التعرّض لها، بل أن بعضهم دخلها، فباع، واشترى، لانتباء صاحبها إلى الصالح أيوب⁽¹⁾. ثمّ توجهوا إلى سلمية، فالرصافة، وهناك حاول المنصور الإيقاع بهم، فسبقتهم إليهم مجموعة من العرب الملاحقين بجيشه، فألقى الخوارزمية أنقاعهم، وغنائمهم، وأسراهم، واندفعوا إلى الرقة، فانشغل العرب بالاستيلاء على الغنائم، فتمكّن الخوارزمية من الإفلات والوصول إلى الفرات مقابل الرقة⁽²⁾، بينما كان المنصور وجيشه في صفّين، وكان جُلُّهم أنّ يسبقهم لمنع عبورهم الفرات، فتأخّر عنهم ساعة، تمكّنوا خلالها من التحصّن وحفر خندق دفاعي حولهم في بستان البليل، ثمّ تمكّنوا من عبور الفرات إلى الرقة، ومنها توجهوا إلى حرّان، ومن هناك؛ توجهوا صوب الرها؛ حيث عسكروا قربها مع من تمكّنوا من جمعه من القوّات عند جبل يدعى جلّهان. أمّا المنصور؛ فقد استمرّ بملاحقتهم مع جيشه، ولكنّه لم يعبر وراءهم مقابل الرقة، فهي إقطاع لهم، فقد خشي من مفاجأة فيها، لذلك ذهب شمالاً إلى البيرة، فعبر الفرات على جسرهما، وهناك وافاه ثلاثة آلاف فارس هم نجدة صاحب الروم⁽³⁾، وعسكر بين سروج والرّها⁽⁴⁾.

وكان هرب الخوارزمية هذا شيئاً جديداً في تكتيكهم العسكري، وهم الذين اتّبَعُوا أسلوب المواجهة مهما كانت النتائج، فهل كان ذلك تقديراً لقوّة جيش المنصور؟ أو لسمعته كقائد عسكري؟ أو لعدم رغبتهم في معركة لا غنيمة من ورائها؟ يبدو أن كلّ ذلك أجبرهم على أن يضربوا في الأرض لتجنّب لقاء مكشوف مع المنصور إبراهيم، وكان هدفهم اللحاق بالمدن والحصون التي سيطروا عليها في الجزيرة للتحصّن بها.

1- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 366، وذيل المختصر، ابن الوردي، 2 / 244، ومُفَرِّجُ الْكُرُوب، ابن واصل، 5 / 286 - 289.

2- المختصر، أبو الفداء، 3 / 168، وصدق الأخبار، ابن سنياط، 1 / 323.

3- مختصر سلجوق نامه، ابن بيبي، 264.

4- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 699، ومُفَرِّجُ الْكُرُوب، ابن واصل، 5 / 286.

وعند جلهمان داهمهم المنصور، فلم يجدوا بُدّاً من القتال "فكثروا سوادهم بالجبال، وعملوا رايات من القصب، وحشدوا معهم سُكَّانَ بعض المناطق"⁽¹⁾، وما اتَّباعهم لهذه الحيل إلا دليل على خوفهم من اللقاء. وبالفعل؛ فقد كان تقديرهم لقوَّة المنصور وجيشه صحيحاً، فعندما بدأت المعركة في 7 رمضان 638 هـ 1241 م⁽²⁾، "كُسرَت الخوارزمية، واستبيح عسكرهم، وهربوا حتَّى الخابور، ثُمَّ التجؤوا إلى عانة لأنَّها بلد الخليفة"⁽³⁾. وكانوا قد مرُّوا في طريق هربهم بخران، فأخذوا نساءهم منها، وانطلقوا.

ويبدو أنَّ المنصور كان يُدرك أنَّه ما لم يستأصل شأفتهم فلن تسكن فتنهم، وأراد أن يُحقِّق ذلك، ففوَّت عليه الخوارزمية الفرصة بالتجائهم إلى مناطق سيطرة الخليفة؛ حيث لا تطولهم سُيوف المنصور. ويبدو أنَّه كان مُرحباً بهم هناك، فقد سار مُحمَّد ترکان بن بركة خان إلى بغداد، وكان عمره نحو عشر سنين، فتلقاه الحاجب، واستقبله الوزير، وقُدِّ سيفاً، وأُسكن داراً، ثُمَّ تبعه ابن كشلو خان⁽⁴⁾. وكانت تلك الحفاوة جُزء من خُطَّة الخليفة للاستعانة ببقايا الجيش الخوارزمي في محتته أمام تهديد التتار، ففي عام 631 هـ 1234 م، استخدم الخليفة أربعة آلاف فارس خوارزمي⁽⁵⁾، وبالتأكيد؛ كان يأمل بانضمام الفرقة الخوارزمية التي كانت في الجزيرة إليه، لذلك آواهم في عانة، واستقبل أولادهم، وأكرمهم غاية الإكرام.

وبعد هذه الضربة الكبيرة للخوارزمية استولى المنصور على مناطقهم في الخابور وقرقيسيا، وضمَّها إليه⁽⁶⁾، وكذلك استولى على حَرَّان دُون قلعتهما⁽⁷⁾، وكان نائب الخوارزمية فيها هو شهاب الدِّين زندري كاتب الإنشاء في ديوان دولة الخوارزمية بعهد منكبرتي، فراسله المنصور

1- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 507.

2- شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 410.

3- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 508.

4- الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 144.

5- المنصوري، ابن نظيف، 176.

6- المختصر، أبو الفداء، 3 / 168، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 411، ورُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 508، وذيل

المختصر، ابن الوردي، 2 / 245.

7- كنز الدرر، ابن أبيك، 7 / 344.

سراً لتسليم القلعة⁽¹⁾. فسُلِّمت القلعة للحلبيين، الذين استولوا على سروج والرُّها ورأس عين وجملين والموزر والرقة وأعمالها، وكُلُّها من مُمتلكات الصَّالح أيُّوب، كذلك سلَّم المُعظَّم تُوران شاه بن الصَّالح أيُّوب أمد إلى سلاجقة الرُّوم المدعومين بجيش حلب، بعد هُجُومهم عليها، على أن تبقى له قلعة الهيثم وحصن كيفا⁽²⁾. أمَّا بدر الدِّين لؤلؤ صاحب الموصل؛ فقد سار إلى نصيبين ودارا، وأخذها، وحرَّر من سجن الخوارزمية في دارا المُعظَّم تُوران شاه ابنَ السُّلطان صلاح الدِّين قائد جيش حلب الأسير⁽³⁾، ولا ندري هل كان ذلك التوزيع ضمن اتِّفاق عامٍّ تمَّ فيه توزيع مناطق الخوارزمية؟ أم هو تحقيق للأمر الواقع، فكلُّ منهم أخذ ما وصلت إليه يده؟.

استمرَّ الخوارزمية في عانة تحت حماية الخليفة حتَّى عام 639 هـ 1241 م، فخرجوا نحو الموصل، فما كان من صاحبها بدر الدِّين لؤلؤ إلا أن اتَّفَق معهم، وسلَّمهم نصيبين، بعد أن تأكَّد أنَّه لا طاقة له بهم، وأنَّه قد يستفيد من الفوضى التي يُحدثونها في الجزيرة⁽⁴⁾، وفي عام 640 هـ 1242 م، عادوا للاتِّفاق مع حليفهم القديم المُظفَّر غازي بن العادل صاحب مِيفارقين، لأنَّه كان يخشى من هُجُوم سلاجقة الرُّوم عليه، وطلب التحالف مع حلب، فلم يحالفوه، فاضطرَّ للتعلُّق مرَّة أخرى بركب الخوارزمية، الذين ساروا إليه للهُجُوم على أمد، فبرز عسكر حلب مع المُعظَّم تُوران شاه نحو أمد، فارتدَّ عنها الخوارزمية، واعتصموا بمِيفارقين، فحاصروهم الحلبيون⁽⁵⁾، وبعد عدَّة وقعات معهم جرت مُفاوضات انتهت باتِّفاقهم على:

1- يُقيم الخوارزمية في أطراف بلاد الرُّوم، ويُعيِّن لهم سُلطان سلاجقة الرُّوم إقطاعات تكفيهم.

2- تعطي صَيِّفَةُ خاتُون، الوصية على عرش حلب، لأخيها المُظفَّر غازي من الإقطاعات تختاره هي من غير شرط.

1- مختصر سلجوق نامه، ابن بيبى، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 265.

2- مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8 / 2 / 734، ومختصر سلجوق نامه، ابن بيبى، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 266.

3- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 702، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 168، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 323.

4- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 703، والسُّلوك، المقرئ، 2 / 309.

5- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 803.

3- يدخل المظفر شهاب الدين غازي في هذه الهدنة، ويسلم من يدخل بها.

4- يدخل السعيد نجم الدين غازي صاحب ماردين في الهدنة، ويحلف لصاحب حلب⁽¹⁾.

5- تُطلق أسرى الخوارزمية من حلب⁽²⁾.

إن هذا الصلح الغريب الذي يحصل فيه الجانب الأضعف، ليس على المكاسب الأكبر، بل على المكاسب كلها، لا يُفسره إلا ضغط التتار على سلطان سلاجقة الروم، وتحسبه منهم، فضغط - بدوره - على حلفائه في حلب، وتنازلوا للخوارزمية وحلفائهم عما أرضاهم من البلاد، والإقطاعات، وغيرها، وربما لعدم قناعة الجميع، ماعدا الرومي، بهذه الهدنة "فلم ينتظم من الأمر شيء" إلا إطلاق أسرى الخوارزمية بحلب⁽³⁾.

وبعد أن اطمأن الخوارزمية لضعف أعدائهم راحوا - من جديد - يعيشون فساداً، واشتطوا بالطلب، فقد طلبوا من حلب زيادة إقطاعاتهم، ولما رفض طلبهم هاجموا الموصل، فاستنجد بدر الدين لؤلؤ بالناصر صلاح الدين الثاني صاحب حلب⁽⁴⁾. وطلب الناصر يوسف من الملك المنصور إبراهيم القدوم لنجدته، فلبى مسرعاً، ولما وصل "خرج الملك الناصر وأكابر المدينة، والتقوه إلى ظاهر حلب"⁽⁵⁾. وكذلك طلب الحلبيون نجدة الرومي جلال الدين كيخسرو، فتأخر عن نجدتهم لغارات التتار على بلاده، وملكهم أرزن الروم⁽⁶⁾. ولجأ الخوارزمية - هذه المرة - لتغطية جرائمهم بموقف سياسي، فأخذوا "يظهرون للناس أنهم يفعلون ما يفعلونه خدمة لصاحب مصر، فإن أهل حلب وحمص ودمشق كانوا حزباً على الصالح صاحب مصر"⁽⁷⁾، ولكن سلوكهم السابق واللاحق يثبت أن ما يفعلوه طبيعة متأصلة فيهم، لا يتركوها، ولا تركهم.

1- مُفرج الكروب، ابن واصل، 5/ 306.

2- رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 2/ 703-704.

3- مُفرج الكروب، ابن واصل، 5/ 306.

4- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 467.

5- رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 509-510.

6- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 467.

7- السلوك، المقرئ، 2/ 303.

وبعد وصول المنصور إلى حلب ضمّ عسكرها إليه، ثمّ توجه إلى الجزيرة، وسار معه شمس الدين لؤلؤ الأميني مُدبّر مملكة حلب مُساعداً ومُستشاراً⁽¹⁾. وتوجه المنصور إلى آمد ينتظر نجدة الرومي لمنازلة ميّافارقين، لكنّ هُجوم التتار على أرزن الروم جعل المنصور ينسحب إلى رأس عين. وتحرك الخوارزمية بسرعتهم المعهودة إلى دنيسر، ثمّ إلى إقليم الخابور، فتبعهم المنصور، ونزل المجدل⁽²⁾. ومما يلفت النظر هنا انسحاب المنصور خوفاً من التتار، وانهاكه بمطاردة الخوارزمية، فالسلبية الشديدة تجاه التتار من قبل ملوك بني أيوب، قبل هُجوم التتار على مُمتلكاتهم وممالكهم، كانت مُدهشة، فالسلوك السلبي نفسه كان للملك المظفر صاحب ميّافارقين، مع أن التتار قد وصلوا إلى خربت المجاورة لميافارقين⁽³⁾، هذا؛ إن لم نذكر الخوارزمية الأعداء القدماء للتتار.

ولما التقى المنصور الخوارزمية عند المجدل وجد معهم جمعاً عظيماً من التركمان⁽⁴⁾، والملك المظفر غازي بقواته، الذي أرسل يغلظ في الكلام للمنصور، ويطلب التزول له عن الجزيرة بكاملها، وإلا، فالحرب⁽⁵⁾. والتقى الجمعان يوم الخميس 23 صفر 640 هـ 1243 م⁽⁶⁾. فدارت الدوائر مرة أخرى على الخوارزمية، وحلفائهم، وولّوا "منهزمين أقبح هزيمة"⁽⁷⁾، "وُهبّت أموالهم، ونساؤهم"⁽⁸⁾، كذلك تبدّد شمل التركمان، وأسروا، وُهبوا⁽⁹⁾، "ونزل الملك المنصور في خيمة الملك المظفر، واستولى على خزائنه"⁽¹⁰⁾. ثمّ توجه الملك المنصور إلى حلب، فخرج الملك الناصر إلى منبج للقاءه، واجتمع به، وسار معه حتّى حلب⁽¹¹⁾، ومن هناك؛ عاد المنصور إلى حمص ليُتابع الجهاد ضدّ الفرنج⁽¹²⁾.

1- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 467.

2- رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 2/ 704.

3- مُفرج الكروب، ابن واصل، 5/ 310. ومراة الزمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 738.

4- كان مُقدّم التركمان ابن دودي (مُفرج الكروب، ابن واصل، 5/ 296، ورُبْدَة الحلب، ابن العديم، 512)، وهو ابن دودا في: (الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 470، وكُنز الدرر، ابن أبيك، 7/ 350). وذكر الحنبلي أنّه كان معه "سبعون ألف جويان ما عدا الجفالة". (شفاء القلوب، 331)، وأكد الرّقم ابن شدّاد (الأعلام الخطيرة، 3/ 2/ 470، وابن العديم، رُبْدَة الحلب، 2/ 706)، وهذه مُبالغة، فلو كان عدد التركمان سبعة آلاف لكانوا كثيرين.

5- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 467.

6- المختصر، أبو الفداء، 3/ 170، ورُبْدَة الحلب، ابن العديم، 512.

7- المختصر، أبو الفداء، 3/ 170.

8- كُنز الدرر، ابن أبيك، 7/ 350، والحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 151.

9- مراة الزمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 738.

10- رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 512، والمختصر، أبو الفداء، 3/ 170، والأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 467.

11- رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 512.

12- مُفرج الكروب، ابن واصل، 5/ 311، ورُبْدَة الحلب، ابن العديم، 2/ 807.

وعلى الرغم من هذه الضربة الموجهة للخوارزمية، ومع كل ما لحق بهم من قتل وأسر، فيبدو أنهم استطاعوا تجاوز محتهم مع حلول عام 640 هـ فجمعوا قلوبهم، وعادوا لعادتهم القديمة، فعاثوا فساداً في الجزيرة، وهاجوا الخابور ورأس عين، ونهبوا، ونهبوا التركمان خلفاء الأمس⁽¹⁾، ومدوا أذاهم إلى ضواحي حلب. وكانت الوصية على عرش حلب ضيقة خاتون بنت الملك العادل قد توفيت، واستقل حفيدها الملك الناصر يوسف بالحكم في حلب، فأرسل جيشها لمطاردتهم بقيادة جمال الدولة إقبال الخاتوني، فتجمع الخوارزمية في ماردین، ومعهم قوات المظفر شهاب الدين صاحب ميافارقين، والسعيد نجم الدين صاحب ماردین⁽²⁾، "واحتموا بالجبال، وحصرهم عسكر حلب، وخندقوا حولهم، وجرت وقعت⁽³⁾"، ولكن جيش حلب لم يظفر منهم بطائل، فعاد إلى بلده⁽⁴⁾، وكانت عدة أسباب وراء هذه النتيجة السلبية، منها:

- 1- غياب جيش حصص المدرب، مع غياب نجدات أخرى مهمة وجدت في المرات السابقة.
 - 2- غياب شخصية القائد العسكري المخطط الشجاع، التي تحققت في الملك المنصور.
- وتكرر تدخل علاء الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم، فخطر التتار أصبح على أرض الواقع، بعد أن كان يلوح في الأفق، والقائد التتاري بايجو نوين يضرب باتجاهين؛ الأول: نحو بلدان الخليفة العباسي، اربل، فدقوا، والثاني، باتجاه مملكة سلاجقة الروم، في خرتبرت، وأرزن الروم⁽⁵⁾، مما يعني حصر الجزيرة بين فكّي كباش. فقام كيخسرو بإرسال "نائب المملكة شمس الدين الأصبهاني إلى شهاب الدين غازي، وإلى صاحب ماردین والخوارزمية، وأصلح بينهم"⁽⁶⁾، وكما في المرة الأولى كانت التسوية والصُلح من حساب حلب والرومي، فقد أعطي صاحب ماردین رأس عين، والخوارزمية خرتبرت، وغيرها، والمظفر غازي أعطي خلاط، وعاد شمس الدين بقسم من عسكر حلب نجدة على التتار⁽⁷⁾.

1- مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، 738 / 2 / 8.

2- مفرج الكروب، ابن واصل، 314 / 5.

3- زبدة الحلب، ابن العديم، 807 / 2.

4- زبدة الحلب، ابن العديم، 514.

5- مختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: محمد السعيد جمال الدين، 280.

6- زبدة الحلب، ابن العديم، 807 / 2.

7- زبدة الحلب، ابن العديم، 807 / 2، ومفرج الكروب، ابن واصل، 326 / 5.

المبحث الرابع:

الفرقة الخوارزمية في معركة غزة

وفي هذه الأثناء؛ عادت أمور الصالح أيوب للانتظام من جديد، عندما تمكن من الاستيلاء على مصر، فانتعشت آمال الخوارزمية، ورُبما تناولوا بمطامعهم للسيطرة على الشام من خلاله. ولم يجعلهم الصالح أيوب ينتظرون طويلاً، فهو لم ينس دمشق التي سلبها منه عمه الصالح إسماعيل، فكاتب أيوب الخوارزمية، واستدعاهم نحوه. ولما سمع بذلك الصالح إسماعيل، شعر بخطر مواجهة الخوارزمية⁽¹⁾، فأتصل بالفرنج، وقدم لهم تنازلات كبيرة لعقد التحالف معهم ضد الصالح أيوب⁽²⁾. وبالفعل؛ فقد تحرك الخوارزمية عام 642 هـ 1245 م، من الجزيرة نحو مصر، "وما مروا بموضع إلا ونهبوه، وعاثوا فيه"⁽³⁾، وكانت قواتهم قد أصبحت أكثر من عشرة آلاف مقاتل⁽⁴⁾ بما انضاف إليهم من التركمان، كما "انضم إلى الخوارزمية جماعة من القيمرية قدموا معهم من الشرق"⁽⁵⁾، كانوا بزعامة ناصر الدين وبهاء الدين القيمري⁽⁶⁾، فالخوارزمية لم يشكّلوا تكتلاً عرقياً. وكل من تستهويه حياة المغامرة والعيش مُرتزقاً بسيفه كان بإمكانه الانضمام إليهم.

ولطبيعة التشكيلة العسكرية للخوارزمية بشكل عام، ولطريقة تحركهم عبر البلاد، نستنتج أنهم لم يكونوا يحملون إلا الأسلحة الشخصية، فالمعدات الثقيلة ووسائل الحصار لم تكن من اهتمامهم، لذلك تجنبوا المدن الحصينة، وساروا نحو الصالح في مصر "وهم يقتلون، ويسبون، فانجفل الناس من بين أيديهم"⁽⁷⁾. وقد نحاش ملوك الشام بمن فيهم المنصور إبراهيم والصالح

1- مفرج الكروب، ابن واصل، 332 / 5.

2- حروب فريدريك الثاني في سورية وقبرص، فيليب دي نوفار-رواية جون لي ميج، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكار، 207 / 35.

3- مفرج الكروب، ابن واصل، 336 / 5.

4- حملة لويس، مصطفى زيادة، 73.

5- السلوك، المقرئ، 419 / 1.

6- أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 32 وكنز الدرر، ابن أبيك، 353 / 7.

7- السلوك، المقرئ، 419 / 1.

إسحاق الصدام مع الخوارزمية، واكتفوا بالتحصن داخل مُدنهم⁽¹⁾، ممّا مكّن الخوارزمية من الوصول بسرعة إلى فلسطين.

انطلق الخوارزمية من نصيبين، فقطعوا الفرات عند الرقة، وانقسموا هناك إلى قسمين، قسم أخذ طريق حصص البقاع دمشق⁽²⁾، وقسم سار على البرية حتى غوطة دمشق⁽³⁾، ومن هناك؛ توجهوا جميعاً نحو طبرية، فاستولوا عليها، ثم اندفعوا نحو القدس، وهاجموها⁽⁴⁾. وصل الخوارزمية إلى القدس عام 642 هـ 1244م، واصطدموا بالحامية الصليبية فيها، وخاضوا معها قتال شوارع، واضطرت الحامية للاستنجاد بأقرب حلفائهم في الشام الناصر داود، الذي جعله هُجوم الخوارزمية يتحصن في الكرك، ولم يجازف بالخروج لمساعدة حلفائه الفرنج في القدس، إنّما استغلّ وضعه الخاص لدى الخوارزمية⁽⁵⁾، وأرسل يطلب الأمان لحامية القدس مقابل تسليم المدينة⁽⁶⁾، وخرجت الحامية من القدس، لكنّ الخوارزمية خدعهم برفع الأعلام الفرنجية في القدس، فعادوا صوبها؛ حيث انقضّ عليهم الخوارزمية، وأعملوا فيهم مذبحه لم ينج منها إلا السابق في الهرب⁽⁷⁾. ويصف ابن واصل ما فعلته الخوارزمية بعد ذلك بالقدس بقوله: "دخلت الخوارزمية القدس، وبذلوا السيف في مَنْ كان فيه من النصارى، ولم يُبقوا على أحد منهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم، ودخلوا كنائسهم المعروفة بقبامة، فهدموا المقبرة التي تعتقد النصارى أنّها مقبرة المسيح عليه السلام، ونبشوا قبور مُلوك الفرنج التي بقبامة، وأحرقوا عظام الموتى"⁽⁸⁾، "وَقَتَلُوا بِطَرِك الرُّوم، وأحرقوا جماعة كثيرة من

1- السُّلوك، المقرئزي، 1/ 419.

2- تمّ اعتراض هذه الفرقة قُرب بعلبك، وأسر قائدها. (لبنان من السُّقوط، تدمري، 254).

3- امرأة الزمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 741.

4- تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيان، ترجمة: السيّد الباز العريني، 3/ 371، وتاريخ الحروب الصليبية، أنتوني بريدج، ترجمة: أحمد غسان سبانو، 262، - كانت القدس مدينة غير مُحصّنة وفقاً لاتفاقية تسليمها لفرديريك، وقد أزال الناصر داود ما بقي من تحصيناتها عندما احتلّها قبل أن يُعيد تسليمها للفرنج مُقابل التحالف معهم ضدّ الصّالح أيّوب. 5- كانت أمّ الناصر داود خوارزمية (شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 337)، وأبوه الملك المُعظم كان حليفاً لجلال الدّين منكبرتي خوارزمشاه، يُقسم برأسه، ويركب بخلعته. (المنصور، ابن نظيف، 96)، كما زوّج المُعظم ابنته، وهي أخت الناصر داود، إلى منكبرتي (مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 708).

6- تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيان، 3/ 392.

7- راجع: رسالة مُقدّم الاستبارة في القدس. (التاريخ الكبير، متى بارس، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكار، 47/ 624).

8- مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 337.

النصارى في كنيسة القيامة"⁽¹⁾، فالقدس كانت مدينة غير مُحصّنة وُفّق اتفاقية تسليمها من الملك الكامل إلى الإمبراطور فريديريك⁽²⁾.

وسار الخوارزميةون إلى غزّة، وأرسلوا يُخبرون الصّالح أيّوب بقُدُومهم⁽³⁾، فأكرم رُسُلهم، وأرسل لهم الخيل والخلع والأموال⁽⁴⁾، وأمرهم الانتظار في غزّة، ووعدهم بالشام⁽⁵⁾. فأقاموا فيها ريثما أعاد الصّالح أيّوب ترتيب جيشه، وقُدّم عليه أخصّ عماليكه؛ وهو رُكن الدّين بيبرس الصّالحي، وأمره بالزحف إلى غزّة؛ حيث انضمت إليه الخوارزمية⁽⁶⁾.

وهنا؛ تحرّك المنصور إبراهيم، فقاد جيوش تحالف أيّوبية الشام، والتقى قُوات الفرنج عند عكا، وسار باتجاه مصر. وفي عام 643 هـ 1246م، التقت قُوات التحالف الشامي - الفرنجي مع قُوات التحالف المصري - الخوارزمي. ولكن المعركة الحقيقية دارت بين فريقين فقط هم الخوارزمية والفرنجية، فقد فرّ من المعركة المصريون والشاميون كلاهما، "وثبتت الديوية والاستبارة، وقاتلوا إلى أن قُتلوا جميعاً، ولم يبقَ منهم إلا نفر يسير أسروهم"⁽⁷⁾، وقام الخوارزمية بتطويق الفرنج، "وأفنوهم قتلاً وأسراً"⁽⁸⁾. ولم يتمّ في هذه المعركة أيّ اشتباك بين المنصور إبراهيم والخوارزمية، الذين اختاروا الفرنج هدفاً لهجومهم، فالنصر هنا خوارزمي، والهزيمة فرنجية.

وكان من الصعب على فرنج الساحل الشامي أن يتحمّلوا هزيمة بهذا الحجم، فقد جرّدتهم من مُعظم قواهم، وأصبحوا بحاجة ماسّة إلى مُساعدات فورية⁽⁹⁾، وستكون هذه الهزيمة من أهمّ دوافع الحملة الفرنجية السابعة⁽¹⁰⁾.

1- أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 33.

2- الإمبراطور فريديريك وعلاقته بالشرق العربي، د. حسن مبيض، محاضرة في الجمعية التاريخية السورية، 15/ 3/ 1998.

3- مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 337.

4- السُّلوك، المقرئزي، 1/ 316.

5- أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 32.

6- مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 336.

7- ابن العميد، أخبار الأيوبيين، 33.

8- مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 338.

9- الحروب الصليبية، أرنست باركر، ترجمة: السيّد الباز العريني، 118.

10- العدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم، 50.

وبعد معركة غزة مباشرة أرسل الصالح أيوب وزيره معين الدين ابن الشيخ⁽¹⁾ بعسكر إلى الشام، وأمر الخوارزمية باتباع أمره، فسار حتى وصل دمشق عام 642 هـ 1244 م، وحاصرها⁽²⁾، "واشتد الحصار على دمشق، وأسقط بيد الصالح إسماعيل لفناء ما عنده من الذخائر، ولقلة الرجال معه"⁽³⁾. وكعادتهم؛ "عاث الخوارزمية في أعمال دمشق"⁽⁴⁾.

ولما عاد المنصور إبراهيم إلى دمشق منهزماً، "فلم يقبل عليه الصالح إسماعيل كعادته، فعسر عليه ذلك"⁽⁵⁾، وأخذ المنصور إبراهيم المبادرة، ويبدو أنه أراد أن يسبق الصالح إسماعيل، أو أنه شك فيه، "فخرج من دمشق، وتحذت مع بركة خان مقدم الخوارزمية في الصلح، وعاد إلى دمشق"⁽⁶⁾، ويوضح الأمر ابن العميد بقوله: "وعزم الملك المنصور أن يسلم دمشق إلى الخوارزمية من باب شرقي نكاية في الملك الصالح إسماعيل، ثم انثنى عن هذا العزم خوفاً على المسلمين من الخوارزمية"⁽⁷⁾. وكان اتصال المنصور إبراهيم بركة خان مقدم الخوارزمية دليل اختيار ذكي من المنصور، فابن الشيخ القائد العام لقوات التحالف المصري - الخوارزمية يرى نفسه صاحب قضية، ويريد أن يثبت إخلاصه لسلطان الصالح أيوب، بينما يعرف الجميع كيف يرضى بركة خان. عندها شعر ابن الشيخ بخطورة هذا الاتصال، فالخوارزمية لا يوثق بهم، وقد يبيعونه في اتفاق تحتل مع المنصور الداهية، الذي جرب التعامل طويلاً مع الخوارزمية، وكذلك خاف الصالح إسماعيل، فأسرع بإرسال وزيره أمين الدولة⁽⁸⁾ إلى معين الدين بن الشيخ⁽⁹⁾، فاتفقت المصالح كلها على عقد الصلح، وتساهل الوزير ابن الشيخ، واتفق مع المنصور وإسماعيل بشروط مرضية لهما.

- 1- ابن الشيخ: معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ، توفي عام 644 هـ 1247 م، عن ست وخمسين سنة، راجع فقرة أولاد الشيخ في هذا الكتاب.
- 2- ذيل الروضتين، أبو شامة، 174.
- 3- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 376، ومفرد الكروب، ابن واصل، 5 / 348.
- 4- السلوك، المقرئ، 2 / 319.
- 5- أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 33، ومفرد الكروب، ابن واصل، 5 / 339.
- 6- المختار من حوادث الزمان، ابن الجوزي، 197، والسلوك، المقرئ، 2 / 643، ومرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، 2 / 753.
- 7- أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 33.
- 8- أمين الدولة: أبو الحسن بن غزال بن أبي سعيد، كان يهودياً، وأسلم، استوزره الملك الأجد بهرام شاه، حتى توفي، فاستوزره الصالح إسماعيل، وعندما دخل ابن الشيخ دمشق اعتقله، ولم يمكنه من اللحاق بإسماعيل، وأرسله إلى مصر؛ حيث سجن في قلعة الجبل لمدة خمس سنوات، ثم أعدم شنقاً. كان عالماً غزير العلم، متطبعاً، له كتاب المنهاج الواضح (طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، 2 / 234 - 239).
- 9- السلوك، المقرئ، 1 / 621، ومرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، 2 / 753.

ووفقاً لاتفاقية الصلح مع ابن الشيخ ضمن المنصور لنفسه مملكة حمص كاملة، وضمن إسماعيل بعلبك وبصرى، وسلمت أبواب دمشق لقوات ابن الشيخ⁽¹⁾.

وخرج المنصور بجيشه سالماً نحو حمص، وتوجه إسماعيل نحو بعلبك⁽²⁾. وتوجهت شكوك ابن الشيخ نحو الخوارزمية، فمنعهم من دخول دمشق، بعد أن تسلمها عام 643 هـ 1246 م، واكتفى بمنحهم الإقطاعات في الساحل، فلم تعجبهم، واعتبروها غير كافية⁽³⁾، وبالتأكيد؛ كان وراء هذا الموقف من الخوارزمية، مقابلة مقدمهم للمنصور إبراهيم، فقد تمت اتفاقية الصلح وعملية التسليم دون علم الخوارزمية، "الذين لم يكونوا حاضرين وقت الصلح، فلما علموا بوقوع الصلح غضبوا"⁽⁴⁾، وشعروا بتغير نية المصريين عليهم، "وكانوا يظنون بأن السلطان إذا انتصر على عمه الصالح إسماعيل يقاسمهم البلاد. فلما منعوا من دمشق، وصاروا في الساحل، تغيرت نياتهم، واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان"⁽⁵⁾. ولما كثر فسادهم بأعمال دمشق، كتب ابن الشيخ بخبرهم إلى الملك الصالح أيوب، فطلب منه ردعهم، فتنمروا عليه⁽⁶⁾.

ثم نقم الصالح أيوب على معين الدين ابن الشيخ تسهيله خروج إسماعيل سالماً من دمشق، فعزله، وكلف حسام الدين بن أبي علي والياً على دمشق، ولم تطل أيام معين الدين، فقد توفي عام 643 هـ 1246 م، بعد عزله بمدة وجيزة⁽⁷⁾. فاشتط الخوارزمية على ابن أبي علي بطلب الإقطاعات والولايات، ولما لم يجيبهم امتعضوا لذلك⁽⁸⁾.

- 1- خطط الشام، محمد كرد علي، 2 / 98-99.
- 2- النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 324.
- 3- تحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2 / 133.
- 4- البداية والنهاية، ابن كثير، 13 / 178.
- 5- البداية والنهاية، ابن كثير، 13 / 178.
- 6- كنز الدرر، ابن أبيك، 7 / 358.
- 7- مفرد الكروب، ابن واصل، 5 / 350.
- 8- المعبر، ابن خلدون، 5 / 358.

نهاية فرقة الخوارزمية

لقد انهارت آمال الخوارزمية بحليفهم أيوب، ولكنهم رأوا أن بإمكانهم تدارك الأمر، فانقلبوا عليه، وأعلنوا موقفهم منه بالهجوم على داريا⁽¹⁾، ونهبها⁽²⁾، وأخذوا بالاتصال بأعداء الصالح أيوب لتشكيل حلف جديد، غايته ضرب أيوب الذي استخدمهم لتنفيذ أغراضه في الجزيرة ومصر والشام، ثم تخلى عنهم. وكان أول من تم الاتصال به "الأمير ركن الدين بيبرس الصالح"⁽³⁾ قائد حامية غزة، فأصغى إليهم، وصار معهم⁽⁴⁾. "وكتبوا الصالح إسماعيل، فحالفوه على الصالح أيوب، ففرح بذلك، ونقض الصلح الذي كان قد وقع منه"⁽⁵⁾.

وراسلوا الناصر داود صاحب الكرك، فحالفهم، وتزوج منهم، وكانت أمه خوارزمية، وسارع بالاستيلاء على نابلس والقدس والأغوار⁽⁶⁾، وتحالفوا - كذلك - مع عز الدين آيبك المعظمي صاحب صرخد⁽⁷⁾.

واتفقت كلمة الجميع على حرب الصالح أيوب⁽⁸⁾، ولكن؛ هل حاول الخوارزمية استمالة المنصور إبراهيم إلى حلفهم، فهو من أبرز أعداء أيوب؟ أم أنهم لم يحاولوا ذلك، وأبعده عن حلفهم عمداً؟.

ولغيب ما يوضح ذلك، فلاحتمال الثاني هو الأرجح، لأن العداء بين المنصور والخوارزمية كان قد بلغ جداً لا رجعة فيه، حتى في تلك الظروف المتقلبة الأهواء. كما يجب أن لا يغيب عن البال دور الحلبيين المعادي للخوارزمية، وتأثيره في حليفهم المنصور.

- 1- داريا: قرية كبيرة جنوب غربي دمشق، وهي من قرى غوطتها، راجع: المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.
- 2- البداية والنهاية، ابن كثير، 178 / 13، والعبر، الذهبي، 174 / 5، ومخفة ذوي الألباب، الصفدي، 133 / 2.
- 3- وهو أكبر أمراء الصالح أيوب، وهو غير ركن الدين بيبرس البندقداري، الذي تسلطن - فيما بعد - على مصر.
- 4- السلوك، المقرئ، 322 / 2.
- 5- البداية والنهاية، ابن كثير، 178 / 13.
- 6- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 337، والنجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 324.
- 7- نهاية الأرب، النويري، 29 / 314.
- 8- النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 423 ومفرج الكرب، ابن واصل، 5 / 351.

وبقدر قلق الصالح أيوب من الخوارزمية وحلفهم الجديد كان سروره باعتزال المنصور إبراهيم لهم، وقرر أن يبذل كل جهده لضم المنصور إلى جانبه، لكنه بدأ بحليف الخوارزمية الأقرب والأخطر، "فخدع السلطان مملوكه ركن الدين بيبرس حتى فارق الخوارزمية، وقدم إليه، فاعتقله" بقلعة الجبل، وكان آخر العهد به.

وفي هذه الأثناء "عظمت مضرة الخوارزمية ببلاد الشام، وكثر نهبهم للبلاد، وسفكهم للدماء، وانتهاكهم للحرمان"⁽¹⁾، حتى سُميت هذه السنة "سنة الخوارزمية"⁽²⁾، والتي انتهت بحصارهم لدمشق عام 643 هـ 1246 م⁽³⁾، وكان معهم الصالح إسماعيل بقوات بعلبك⁽⁴⁾، والناصر داود بقوات الكرك⁽⁵⁾. ولم يترك الصالح أيوب لعمه إسماعيل الفرصة لتجديد التحالف مع المنصور إبراهيم، فقد سبقه إليه، وكتبه⁽⁶⁾. "وأخذ الصالح نجم الدين في أعمال الخيل والتدبير، ومازال بالمنصور إبراهيم صاحب حمص حتى مال إليه"⁽⁷⁾. "وصلح ما بين الملك المنصور صاحب حمص والسلطان الملك الصالح، وحصل بينهما التصافي والتواد"⁽⁸⁾.

وكذلك كتب الصالح أيوب إلى الحلبيين، "هؤلاء الخوارزمية قد أخرجوا البلاد، والمصلحة أن نتفق عليهم"، فأجابوه، وخرج شمس الدين لؤلؤ مقدماً على نجدة حلب⁽⁹⁾.

وعندما كان الخوارزمية يشددون حصارهم على دمشق، "والخو في القتال، ونهب الأعمال، وضايقوا دمشق، ومنعوا عنها الميرة"⁽¹⁰⁾، بدأ المنصور إبراهيم - بعد إبرام اتفاقه مع الصالح أيوب -

- 1- المختصر، أبو الفداء، 176، والنجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 322، وذيل المختصر، ابن الوردي، 2 / 254.
- 2- البداية والنهاية، ابن كثير، 178 / 13.
- 3- ذيل الروصتين، أبو شامة، 178.
- 4- مفرج الكرب، ابن واصل، 5 / 352، والسلوك، المقرئ، 2 / 323.
- 5- المختصر، أبو الفداء، 3 / 175.
- 6- البداية والنهاية، ابن كثير، 178 / 13.
- 7- السلوك، المقرئ، 2 / 323.
- 8- مفرج الكرب، ابن واصل، 5 / 359.
- 9- المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 201.
- 10- السلوك، المقرئ، 2 / 322.

بالاستعداد لمواجهة الخوارزمية⁽¹⁾، "وشرع في جمع الجيوش من الحلبيين والتركمان والأعراب"⁽²⁾، ونجدة قدمت من حماة⁽³⁾، فبلغ الخبر الخوارزمية، وخافوا غائلة ذلك، وقالوا: "دمشق ما تفوت والمصلحة قتاله عند بلده"⁽⁴⁾. وترك الخوارزمية حصار دمشق، ثم مكّن جُنْدَها من مُغادرة المدينة، والانضمام إلى القوّات التي جمعها المنصور إبراهيم⁽⁵⁾.

ولا نستطيع أن نفسر ترك الخوارزمية حصار دمشق بأنّه لمباغته المنصور عند بلده، فلو كان هذا هدفهم لساروا مباشرة نحو حمص، لكنّ تحرّكهم كان من دمشق نحو مرج الصفر؛ حيثُ جمعوا قوّاتهم مع قوّات الصّالح إسماعيل صاحب بعلبك، والنّاصر داود صاحب الكرك، وعزّ الدين آيبك صاحب صلخد⁽⁶⁾.

وهذا ما يدلّ على أن السبب الحقيقي لتركهم دمشق هو خوفهم من حصر المنصور لهم بين قوّاته وبين دمشق، لذلك انسحبوا إلى مرج الصفر؛ حيثُ تمكّنوا من اللقاء مع حلفائهم. وعندما تحرّكوا نحو حمص كان المنصور قد أنهى استعداداته، وسار جنوباً، حتّى وصل قُرب بُحيرة حمص⁽⁷⁾، وعلم بتقدّم الخوارزمية نحوه، فتابع مسيره حتّى التقاهم عند القصب، أو عُيون القصب⁽⁸⁾. وكانت جُيُوش الخوارزمية وحلفاؤهم يتمتّعون بتفوّق عددي كبير على قوّات

- 1- وهم ابن خلدون بقوله: "وبعث نجم الدين من مصر إلى يوسف الناصر يستنجد على دفع الخوارزمية عن دمشق، فسار في عساكره ومعه إبراهيم بن شريكوه". والصحيح أن الناصر يوسف صاحب حلب لم يسر لقتال الخوارزمية، فقد كان - وقتها - صبيّاً عمره بخدود خمس عشرة سنة، ولكن؛ سارت نجدة من قوّات حلب، انضمت إلى قوّات المنصور إبراهيم، الذي كان قائد المعركة ضدّ الخوارزمية.
- 2- البداية والنهاية، ابن كثير، 178/13، والعبر، الذهبي، 181/5.
- 3- دُيْل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 178.
- 4- البداية والنهاية، ابن كثير، 178/13، قال بهذا الرأي بركة خان كبير مُقدّمي الخوارزمية، ويبدو أنّه فرضه على بقيّة الحلفاء. (مرآة الزّمان، سبط ابن الجوزي، 760/2/8).
- 5- العبر، الذهبي، 181/5، والبداية والنهاية، ابن كثير، 179/13.
- 6- المختار من حوادث الزّمان، ابن الجوزي، 201، - مرج الصفر: سهل واسع قبلي دمشق، يبعد عنها نحو 38 كم، بين قريّتي الكسوة وغباغب. (دمشق الشّام في نصوص الرّحّالين، أحمد الإيش وفتية الشهابي، 74/1 - ح/1).
- 7- البداية والنهاية، ابن كثير، 178/13.
- 8- ذكرت عُيون القصب في: عقد الجمان، العيني، 315/1، وذكرت القصب في: مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 359/5، وشفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 377، والمختصر، أبو الفداء، 175/3، والنّجوم، ابن تغري بردي، 325/6. وذكر أن اللقاء كان "بظاهر حمص" (السُّلُوك، المقرئ، 323/2). وأنّه كان "بين أرض بعلبك وحمص". (دُيْل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 178)، وكلها تدلّ على موضع في منطقة واحدة. وقد عرّف عُيون القصب أو القصب بأنّها:

المنصور، فقد قال شمس الدّين لؤلؤ مُقدّم نجدة حلب: "لما التقينا على حمص رأيتُ الخوارزمية خلقاً عظيماً، وكُنّا بالنّسبة إليهم كالشّامة السوداء في الثور الأبيض"⁽¹⁾.

ولمّا بدأت المعركة 643 هـ 1246 م، لم تُغن كثرة جُيُوش الخوارزمية عنهم شيئاً، ولم يثبتوا أمام قوّات المنصور، الذي برهن على أنّه الوحيد بخبرته وشجاعته القادر على التعامل مع الخوارزمية عسكرياً. "وكُسِرَت الخوارزمية أشدّ كسرة، وقُتِلَت مُلُوكهم، وسُبيّت نساؤهم، وغنمَت أموالهم، كسرهم الملك المنصور إبراهيم بن المُجاهد أسد الدّين"⁽²⁾.

وكان يوم المعركة "يوماً مشهوداً، قتل فيه عامّة الخوارزمية"⁽³⁾، وقُتِل مُقدّمهم بركة خان⁽⁴⁾. "وتبدّد فيها شملهم، ولم تقم لهم بعدها قائمة"⁽⁵⁾. "ولمّا وصل خبر كسرهم إلى الملك الصّالح أيّوب بديار مصر"⁽⁶⁾، فرح فرحاً عظيماً، وزال ما كان عنده من الغيظ على إبراهيم صاحب حمص، وحصل بينهما التصافي بسبب ذلك⁽⁷⁾. واستطاع الملك المنصور إبراهيم بقدراته العسكريّة وحكّته وشجاعته أن يزيل بلاء الخوارزمية عن المُلُوك والممالك، وعن العباد والبلاد، "وكفى الله النَّاسَ شرّهم، فإن البلاد كانت منهم في بلاء عظيم"⁽⁸⁾.

- "مرحلة قبلي حمص" (مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 359/5). وأنّها: "منزلة بريد من حمص من قبليها" (النّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 325/6). وكلّ هذه الدلائل تُشير إلى مكان واحد يُسمّى - الآن - عين الثّور، وهي عدّة عُيون ماء، تُشكّل بُحيرة صغيرة، ينمو عليها القصب بكثرة، تبعد حوالي 10 كم جنوب بُحيرة حمص.
- 1- النّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 357/6.
 - 2- دُيْل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 178.
 - 3- البداية والنهاية، ابن كثير، 178/13.
 - 4- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 359/5، ويُضيف ابن واصل: "قتله مملوك من ممالك الأمير سعد الدّين بن الدريوش أحد أمراء حلب الكبار". ويقول ابن الجوزي: "قتل بركة خان الخوارزمي، أحد الخانات الأربعة، وكان أصلحهم في الميل إلى الخير، والرّفق بالناس، وكان الصّالح أيّوب قد صاهره، وأحسن إليه، ثمّ جرى منه ما جرى، ولمّا قُتِل انحل نظام الخوارزمية". (المختار من حوادث الزّمان، 205).
 - 5- السُّلُوك، المقرئ، 323/2.
 - 6- وهم د. عاشور حين ذكر: "وتمكّن الصّالح أيّوب من إنزال الهزيمة بالخوارزمية بين بعلبك وحمص". (مصر والشّام، عاشور، 116)، فمع أن هزيمتهم تصبّ في مصلحة أيّوب، لكنّ المنصور إبراهيم هو مَنْ هزمهم.
 - 7- المختصر، أبو الفداء، 175/3.
 - 8- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 359/5.

وتشتت فلول الناجين من الخوارزمية في البلاد، والتجأت جماعة منهم مع مُقدّمهم كشلو خان والصّالح إسماعيل إلى حلب، فقبض عليهم صاحبها، "وملأ بهم الحبوس"⁽¹⁾، وبعد أن أطلقهم النّاصر يوسُف⁽²⁾ ذهبوا مع كشلو خان، والتحقوا بالمغول، فخدموهم⁽³⁾، "واندمجوا في جملتهم"⁽⁴⁾. وهربت مجموعة مع النّاصر داود إلى الكرك، واستولوا على نابلس⁽⁵⁾، فأرسل النّاصر أيّوب جيشاً حاصر الكرك، حتّى سلّم إليه داود الخوارزمية الذين عنده⁽⁶⁾. وذهب قسم منهم ليعخدم في مصر⁽⁷⁾، وخدمت جماعة منهم في الشّام⁽⁸⁾، وقسم من الخوارزمية التجأ إلى صرخد مع أيّك⁹، وبذلك تحوّل الخوارزمية من فرقة مُرتزقة مُنظمة إلى أفراد مُرتزقة، فهم لا يعرفون سوى القتال حرفة لكسب العيش.

إن ما قامت به فرقة الخوارزمية في الشّام والجزيرة، وما حقّقه من انتصارات على ممالك أيّوبية كبيرة وعريقة وعلى تحالف الفرنج في غزّة، كلُّ ذلك يُشير إلى محصلة واحدة هي ضعف المؤسسات العسكرية التي أقامتها الممالك الأيوبية في الشّام ومصر، يُقابل ذلك ضعف فاضح في القوى العسكرية لفرنجة الساحل الشّامي، فهزيمة غزّة كشفت مهلهل المؤسسة العسكرية الفرنجية في الشّرق.

1- مرآة الزّمان، سبط ابن الجوزي، 2 / 8 / 762.

2- مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 359.

3- مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 359.

4- العبر، ابن خلدون، 5 / 358.

5- البداية والنهاية، ابن كثير، 13 / 179.

6- السُّلوك، المقرئزي، 2 / 324.

7- مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 359، والنُّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 326.

8- صدق الأخبار، ابن سمباط، 1 / 336، ومُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 359، والنُّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 325.

9- كنز الدرر، ابن أيّك، 7 / 359.

القسم الثالث

العلاقات الدّولية

الإمارات وممالك الجزيرة الشّامية

الفصل الأول

الأيوبيون في الجزيرة الشامية

المبحث الأول

الجغرافية السياسية للجزيرة الشامية

كانت تسمية الجزيرة تُطلق - في الغالب - على جزيرة ابن عُمر. أمّا الجزيرة الشامية؛ فقد أطلق عليها الجغرافيون والمؤرخون العرب عدّة تسميات، منها: البلاد الشرقية⁽¹⁾، أو الشرق⁽²⁾، وهي تسمية - كما هو واضح - تصحُّ بالنسبة لموقعها من حلب فقط، ولا تصحُّ بالنسبة لدمشق مثلاً. وسُميت بلاد الأطراف ومُلوكها مَلُوك الأطراف، وهي تسمية تصحُّ بالنسبة للممالك والإمارات الأيوبية، كما دُعيت بلاد الشرق الفراتية⁽³⁾.

وربّما كانت أكثر التسميات التي تنطبق على الواقع هي تسميتها بقاطع الفُرات⁽⁴⁾، ولكنهم - أحياناً - كانوا يُسمونها الجزيرة بشكل عام⁽⁵⁾.

أمّا التسمية التي نجدها أكثر ملائمة؛ فهي: الجزيرة الشامية، لأنّها جزيرة بين الفُرات وروافده، ودجلة وروافده، وتقع في أعلى بلاد الشام.

وبذلك نستطيع أن نحدّد أن الجزيرة الشامية هي الأراضي الممتدة من نهر الفُرات غرباً حتّى نهر دجلة شرقاً، وأعلى الفُرات وروافده شمالاً، وهذه المنطقة جبلية في الشمال عموماً، تتخلّلها سُهول خصبة، وتعبرها طُرُق تجارية هامة جدّاً، ونجد في رحابها تسميات عديدة، مثل: ديار ربيعة، وديار بكر، وديار مضر، نسبة إلى القبائل العربيّة التي سكنتها مُنذ القدم.

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 82 / 12.

2 - الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 453 / 2 / 3.

3 - المختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 201.

4 - الفتح القسبي، العماد الأصقّهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 466 / 13، - قاطع الفُرات: الأراضي الواقعة شمال شرق الفُرات حتّى نهر دجلة. (ابن العديم، زُبدة الحلب، 2 / 548).

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 82 / 12.

ومع أن هذه الجزيرة تبدو إقليماً خاصاً، بكل ما فيها من مقومات، لكنها تلتصق - بشدة - بطرفين: الشام من جهة، والعراق من جهة أخرى، فهي رأس مثلث، ضلعا الشام والعراق، وقاعدته بوادي الشام والعراق، وهذا ما دفع البعض لتسمية المنطقة بكاملها بالهلال الخصيب.

كانت الجزيرة الشامية تتمتع بثروات اقتصادية، أتاحها خصوبة أرضها، ووفرة أمطارها، وتوفر العديد من المواد الخام فيها مع كثافة سكانية عالية، إضافة لموقعها التجاري المتميز؛ حيث كانت معظم طرق التجارة الدولية تمر فيها، كل ذلك ساعد على نمو أجهزة إدارية متطورة لمالكها وإماراتها⁽¹⁾.

وربما لا نكون مغالين إذا قلنا إنه - غالباً، بعد حسم الصراع بين أفراد البيت الآثوبي على دمشق - تكون الأطراف هي السبب الأكبر لخلافاتهم، فالعلاقات الآثوبية تمحورت لفترات طويلة حول مدين الجزيرة والشمال الشامي.

فشمال الشام والجزيرة الشامية كانا يُشكّلان سيفسواء من الممالك والإمارات والمدين المستقلة، بل وحتى القلاع المستقلة.

ولعبت في تشكيل تلك المنظومة الفسيفسائية العجيبة الطبيعة الجبلية لتلك المنطقة، وخصب أرضها، وموقعها الاستراتيجي عسكرياً واقتصادياً، وكونها من أهم ممرات التجارة بين الشرق والغرب، وتنوع سكانها العجيب ما بين مسلمين ومسيحيين، منهم العرب، والمستعربون، والسيريان، والفُرس، والأتراك، والأكراد، وغيرهم، إضافة إلى عامل سياسي آخر هو وقوع هذه المناطق بين عدّة قوى سياسية وعسكرية كبرى، فالآثوبيون في الشام، ولهم ممتلكات هامة في الجزيرة، وهم يتطلعون لمد سلطانهم نحو مملكة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى. وسلاجقة الروم وهم يمدّون أنظارهم - أيضاً - نحو الجزيرة، وربما عبرها نحو الشام، ولم يكن تدخل سلاجقة الروم في الجزيرة دفاعياً فقط، لجعلها حاجزاً ضد الخطر الآثوبي، بل هجوماً لضمها إلى دولتهم، والتحرك منها نحو الشام. كذلك وجدت مملكة أرمينيا الصغرى على مقربة منها، وإن كان توجهها الأساسي صوب الإمارة الفرنجية في أنطاكية.

1 - الإمارات الأرتقية، عماد الدين خليل، 12.

أما الفرنج، فبعد تحرير عماد الدين لإمارة الرها، لم يعد لهم أي تأثير يُذكر في السياسة الجزرية. ويبقى في الجنوب الشرقي أتابكة الموصل، لكنهم لم يستطيعوا أن يتجمعوا ضمن البيت الواحد، ولا أن يتخذوا موقفاً موحداً دائماً، بل على العكس، كانت خلافاتهم وحروبهم وتنازعاتهم للسيطرة على المدين والقلاع تستهلك قواهم باستمرار.

ولكن القوى الدائميتين الرئيسيتين اللتين ظهرتتا على مسرح الصراع هنا في هذا العصر هما قوة سلاجقة الروم والقوى الآثوبية.

ومع أن بناء دولة سلاجقة الروم كان يقوم - أساساً - على توجه جهادي ضد بيزنطة المسيحية، فقد كانت تلتفت نحو الجزيرة عندما تواجه صعوبات عسكرية على الجبهة البيزنطية، لكن الصراعات على السلطة داخل البيت السلجوقي، وابتداء الضعف في مفاصل الدولة، منع من أن يكون لهم دور حاسم في الجزيرة، مما أتاح للآثوبيين الانفراد بالسيطرة شبه المطلقة فيها من أيام السلطان صلاح الدين وحتى قدوم الغزو المغولي.

أما القوة الآثوبية؛ فقد وجدت ولها توجه مشابه تماماً لتوجه السلاجقة، فالدولة الآثوبية قامت على أساس الجهاد والتصدّي للاحتلال الفرنجي، ولكن؛ لغلبة الهدوء على الجبهة الفرنجية، بعد وفاة صلاح الدين، ولتشعب الأملاك الآثوبية في قلب الجزيرة، وأهمية مواردها، وموقعها، فقد كان لها الدور الأكبر في التأثير على السياسة الآثوبية، والتأثر بمجرياتها.

لذلك يمكننا القول إن المناطق الجزرية كانت المعترك السياسي والعسكري الرئيس بين قوى المنطقة الكبرى والصغرى.

ممالك المُنْدَن في الجزيرة:

خِلَاط: بكسر أوله، البلد العامرة المشهورة⁽¹⁾، وكان يُقال لها أخِلَاط، ولكن؛ بلغة العصر الأيوبي كان اسمها المُتداول هو خِلَاط. وهي على الحدود ما بين بلاد المسلمين والأرمن، ويتكلم أهلها ثلاث لغات: العَرَبِيَّة والفارسية والأرمنية، ويعتقد بعضهم أنها سُمِّيَتْ خِلَاط لاختلاط اللغات بها⁽²⁾، وسيرد الحديث بالتفصيل عنها في فقرة قادمة.

سُمِّيَ سَاط: أوله ضَمْ، وفتح ثانيه، بلدة في أعالي الشَّام من طرف بلاد الرُّوم شرقي جبل اللكام، تقع على الشاطئ الغربي للفرات، وهو من عندها يحمل السُّفُن والأطواف إلى بغداد⁽³⁾. دخلت في مُلك صلاح الدِّين عندما أرسى قواعد حُكْمه في الجزيرة، ثُمَّ أَقْطَعَهَا لِأَخِيهِ الْعَادِل قَبِيل وفاته، ولَمَّا أَخَذَ الْعَادِلُ دِمَشْقَ مِنْ ابْنِ أَخِيهِ الْأَفْضَل عَلِيٍّ أَقْطَعَهَا سُمِّيَ سَاط، وهي البلدة الوحيدة التي بقيت معه حتَّى مات عام 622 هـ 1225 م⁽⁴⁾، فاختلف أولاده مع عَمَّتْهُمْ⁽⁵⁾، ثُمَّ اسْتَبَدَّ الْأَمْرَ بَيْنَهُمْ عَلَى تَوَلِيَةِ الْمُؤَيَّدِ نَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَفْضَلِ، وَأَنْ يَكُونَ مُدَبِّرَ دَوْلَتِهِ عَمَّهُ الْمُفْضَلُ قُطْبُ الدِّينِ مُوسَى. وفي سنة 632 هـ 1235 م، أَخَذَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ مِنْهَا سُمِّيَ سَاط.

وبعد تراجع الكامل عن الجزيرة وتحكُّم الخَوَازِمِيَّةِ فِيهَا، اسْتَوْلَى عَلَاءُ الدِّينِ كَيْقُبَادُ عَلَى سُمِّيَ سَاط مَعَ مَا حَوْلَهَا، وَظَلَّتْ ضَمَّنَ سُلْطَنَةِ سَلَاجِقَةِ الرُّومِ، حَتَّى اسْتَوْلَى عَلَيْهَا التَّتَارُ عَامَ 658 هـ 1260 م⁽⁶⁾.

البيرة، أو جسر البيرة: هي بلدة عندها جسر لعبور الفُرات⁽⁷⁾، قُرب سُمِّيَ سَاط، وبها قلعة حصينة⁽¹⁾. كان صاحبها شهاب الدِّين بن أرتق، ثُمَّ سَلَّمَهَا إِلَى السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ، فَأَصْبَحَتْ الْبِيرَةُ

من مضافات حلب، وعندما تُوَفِّيَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ كَانَتْ الْبِيرَةُ بِيَدِ ابْنِهِ الزَّاهِرِ دَاوُدَ، فَأَقْرَهَ عَلَيْهَا أَخُوهُ الشَّقِيقَ الظَّاهِرَ غَازِيَّ صَاحِبَ حَلَبِ⁽²⁾، وَفِي عَامِ 632 هـ 1235 م، اشْتَدَّ مَرَضُ الزَّاهِرِ، فَاسْتَدْعَى ابْنَ أَخِيهِ الْعَزِيزَ بْنَ الظَّاهِرِ صَاحِبَ حَلَبِ، وَسَلَّمَهُ الْبِيرَةَ، وَلَمَّا تُوَفِّيَ، قَامَ الْعَزِيزُ بِتَرْتِيبِ أَحْوَالِهَا⁽³⁾.

بالس: بلدة بالشَّام بين حلب والرَّقَّة، تبعد عن الضَّفَّةِ الْغَرْبِيَّةِ لِلْفُرَاتِ حَوَالِي أَرْبَعَةِ أَمْيَالٍ⁽⁴⁾. وَكَانَتْ بِالسِّ تَتَبِعُ لِمَمْلَكَةِ نُورِ الدِّينِ بْنِ زَنْكِي، وَقَدْ أَقْطَعَهَا لِغَلَامِهِ حَيْدَرِ، وَمَلَكَ الْبِلَدَ بَعْدَ وَفَاتِ حَيْدَرِ أَوْلَادِهِ، إِلَى أَنْ أَخَذَهَا مِنْهُمْ الظَّاهِرُ غَازِيٌّ بَعْدَ مَلَكَهَ حَلَبَ⁽⁵⁾، ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْهُ عَمُّهُ الْعَادِلُ بَعْدَ سَيْطَرَتِهِ عَلَى دِمَشْقَ وَمِصْرَ، فَأَقْطَعَهَا إِلَى ابْنِهِ الْمَلِكِ الْحَافِظِ أَرْسَلَانَ شَاهٍ مِضَافَةً لِقَلْعَةِ جَعْبَرِ، وَعِنْدَمَا خَافَ الْمَلِكُ الْحَافِظُ تَأْمُرَ أَبْنَائِهِ وَعِلَاقَتَهُمُ الْمُرِيَّةَ بِالخَوَازِمِيَّةِ، رَاسَلَ أَخْتَهُ ضَيْفَةَ خَاطُونِ بِنْتَ الْعَادِلِ الْقَائِمَةِ بِأُمُورِ حَلَبِ نِيَابَةً عَنْ حَفِيدِهَا الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ الثَّانِي، وَعَرَضَ عَلَيْهَا تَسْلِيمَهَا جَعْبَرِ وَبِالسِّ مُقَابِلَ إِعْزَازٍ، فَوَافَقَتْ، وَتَمَّتِ الْمِبَادَلَةُ عَامَ 638 هـ 1241 م، وَبَقِيَتْ بِالسِّ ضَمَّنَ مَمْلَكَةِ النَّاصِرِ صَاحِبِ حَلَبِ، حَتَّى اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْمَغُولُ، فَتَفَرَّقَ أَهْلُهَا فِي الْبِلَادِ⁽⁶⁾.

بَهْسَنَّا: بفتح حَيْنَ وسُكُونِ السَّيْنِ وَتُونِ وَأَلْفٍ، قلعة حصينة عجيبة من أعمال حلب، وهي بالقُربِ مِنْ مَرْعَشٍ وَسُمِّيَ سَاطِ⁽⁷⁾، وَتَقَعُ بِقَمِ الدَّرْبِنْدِ، وَلَهَا ضِيَاعٌ كَثِيرَةٌ.

وَكَانَتْ ضَمَّنَ مَمْلَكَةِ النَّاصِرِ يُوسُفَ الثَّانِي، حَتَّى اسْتَوْلَى هَوْلَاكُو عَلَى حَلَبِ، فَبَاعَهَا مُتَوَلِّيَهَا سَيْفُ الدِّينِ الْعَقْرَبِ إِلَى مَلِكِ الْأَرْمَنِ صَاحِبِ سَيْسِ⁽⁸⁾. وَهِيَ - الْيَوْمَ - ضَمَّنَ الْأَرْضِ الْتُرْكِيَّةِ شِمَالِ غَرْبِ عَيْتَابِ⁽⁹⁾.

1- مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ، يَاقُوتُ الْحَمَوِي، مَادَّةُ: خِلَاط.

2- سَفَرُ نَامَةِ، نَاصِرُ خَسْرُو، تَعْرِيبٌ: بِحِجَى الْخَشَابِ، 40، - وَكَانَتْ خِلَاطُ مِنْ أَعْظَمِ الْمَالِكِ، وَذَكَرَ أَنَّهَا تُقَارِبُ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ فِي الْمَنْزِلَةِ، وَأَنَّهَا تُشْمَلُ عَلَى نَحْوِ سَبْعِينَ بِلْدًا (مُفَرَّجُ الْكُرُوبِ، ابْنُ وَاصِلٍ، 3/ 176)، وَلِذَلِكَ كَانَتْ تُسَمَّى الْمَمْلَكَةُ الْخِلَاطِيَّةَ (رَاجِعْ نَقْشَ قَلْعَةِ دِمَشْقَ فِي مَلَا حَقِّ هَذَا الْكِتَابِ).

3- مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ، يَاقُوتُ الْحَمَوِي، مَادَّةُ: سُمِّيَ سَاط، وَتَقْوِيمُ الْبُلْدَانِ، أَبُو الْفِدَاءِ، 267، وَالْمَسَالِكُ وَالْمَالِكِ، ابْنُ خُرْدَاذْهَبٍ، 174، وَبَغِيَّةُ الطَّلَبِ، ابْنُ الْعَدِيمِ، 1/ 634، وَأَثَارُ الْبِلَادِ، الْقَزْوِينِي، 494.

4- الْأَعْلَاقُ الْخَطِيرَةُ، ابْنُ شَدَّادٍ، 1/ 2/ 191.

5- الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ، ابْنُ الْأَثِيرِ، 12/ 429.

6- الْأَعْلَاقُ الْخَطِيرَةُ، ابْنُ شَدَّادٍ، 1/ 2/ 191.

7- زُبْدَةُ الْحَلَبِ، ابْنُ الْعَدِيمِ، 2/ 548.

1- مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ، يَاقُوتُ الْحَمَوِي، مَادَّةُ: الْبِيرَةُ.

2- الْمُخْتَصَرُ، أَبُو الْفِدَاءِ، 3/ 156، وَشِفَاءُ الْقُلُوبِ، أَحْمَدُ الْحَنْبَلِي، 267، وَوَفِيَاتُ الْأَعْيَانِ، ابْنُ خُلَكَانَ، 2/ 258.

3- مُفَرَّجُ الْكُرُوبِ، ابْنُ وَاصِلٍ، 5/ 88.

4- مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ، يَاقُوتُ الْحَمَوِي، مَادَّةُ: بِالسِّ.

5- الْأَعْلَاقُ الْخَطِيرَةُ، ابْنُ شَدَّادٍ، 1/ 2/ 21.

6- الْأَعْلَاقُ الْخَطِيرَةُ، ابْنُ شَدَّادٍ، 1/ 2/ 23.

7- مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ، يَاقُوتُ الْحَمَوِي، مَادَّةُ: بَهْسَنَّا.

8- تَارِيخُ الدُّوَلِ وَالْمُلُوكِ، ابْنُ الْفُرَاتِ، 8/ 155.

9- رَاجِعْ حَوْلَ بَهْسَنَّا: صُبْحُ الْأَعْشَى، الْقَلْقَشَنْدِي، 4/ 121، وَزُبْدَةُ الْحَلَبِ، ابْنُ الْعَدِيمِ، 2/ 645.

المبحث الثاني

مرحلة التأسيس الأيوبي

صلاح الدين يدخل الجزيرة:

كان صاحب قلعة البيرة⁽¹⁾ شهاب الدين الأرتقي⁽²⁾، في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل، وفي عام 577 هـ 1181 م، مات شهاب الدين، ومَلَكَ القلعة ابنه، فطلب ابن عمه الإذن من صاحب الموصل بحصر البيرة، وأخذها، فوافق، فاستنجد صاحب البيرة بالسُلطان صلاح الدين، وعرض عليه أن يكون في خدمته⁽³⁾.

وفي عام 578 هـ 1182 م، طلب مظفر الدين كوكبوري⁽⁴⁾ من السُلطان صلاح الدين أن يعبر الفُرات إليه، فاجتمع به عند البيرة، وراسل صلاح الدين مُلوك الجزيرة، فأجابه نور الدين مُحمَّد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا على أن يفتح آمد، ويُسلمها له. وكان أوَّل بلد حصره صلاح الدين وحلفاؤه في الجزيرة هو الرُّها، التي سلَّمها صاحبها فخر الدين مسعود الزعفراني بالأمان، فأعطاه صلاح الدين إلى مظفر الدين كوكبوري مع حَرَّان⁽⁵⁾. ثُمَّ سار إلى الرقة، فتركها قُطب الدين ينال بن حسان المنبجي، فأخذها صلاح الدين، وسار منها إلى الحابور⁽⁶⁾، فأخذه مع قرقيسيا وماكسين وعرابان⁽⁷⁾، وسار إلى صفين، فملكها⁽⁸⁾. وفي العام نفسه 578 هـ 1182 م،

قلعة نجم: تقوم على ضفة الفُرات اليمنى، تحيط بها وديان عميقة، وتبعد عن منبج 32 كم نحو الشمال الشرقي⁽¹⁾. عندها جسر يُعبر عليه يُعرف بجسر منبج، عمَّرها نجم غلام جني الصفواني مولى ابن صفوان العقيلي⁽²⁾، وهي قلعة حصينة توالى عليها عدَّة حُكَّام، حتَّى أخذها السُلطان صلاح الدين، واستقرت بعده بيد ابنه الظَّاهر غازي، الذي ولَّى عليها عتيقه بدر الدين إيدمر، فأعاد إعمارها عام 613 هـ 1216 م، ثُمَّ استردَّها منه الملك العزيز بن الظَّاهر، وكانت بيد الملك النَّاصر الثَّاني عندما استولى عليها التُّتار⁽³⁾.

تلّ باشر: قلعة حصينة وكُورة واسعة شمال حلب بينها وبين حلب يومان⁽⁴⁾. بعد أن تسلَّمها السُلطان صلاح الدين أَقْطَعَهَا إلى الأمير بدر الدين دلدرد بن ياروق، ولَمَّا تُوِّفِّيَ تولاهَا من بعده ابنه، ولَمَّا خرج عز الدين كيكافوس سُلطان سلاجقة الرُّوم إلى الجزيرة انتزعها من يد ابن دلدرد، ولكن؛ بعد هزيمته، استردَّها الأشرف، وسلَّمها لمُدبِّر مملكة حلب طغريل⁽⁵⁾، وبقيت تلّ باشر وقلعتها بيد الأتابك طغريل، حتَّى أخذها منه الملك العزيز غصباً عام 629 هـ 1232 م⁽⁶⁾.

مِيفَارِقِينَ: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، أشهر مدينة في ديار بكر⁽⁷⁾. تسلَّمها صلاح الدين خلال توسُّعه في الجزيرة عام 587 هـ 1191 م، وقبيل وفاته أَقْطَعَهَا مع بُلدان الجزيرة إلى أخيه العادل. وفي عام 598 هـ 1202 م، أعطى العادل مِيفَارِقِينَ لابنه الأُوحد نجم الدين أيُّوب، وضمَّ إليها خلاط سنة 604 هـ 1208، وبقيت معه حتَّى مات عام 609 هـ 1212 م، فضمَّ أخوه الأشرف خلاط إلى بلاده⁽⁸⁾، وأُضيفَتْ مِيفَارِقِينَ إلى أخيه المظفر شهاب الدين غازي⁽⁹⁾.

- 1- البيرة: قلعة مُطلَّة على الفُرات، راجع ما سيأتي عنها في هذا المبحث.
- 2- هو ابن عمِّ قُطب الدين إيلغازي بن إبي بن تمرناش بن إيلغازي بن أرتق.
- 3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 475 - 476.
- 4- ابن زين الدين علي بن بكتكين، مُقَطَّع حَرَّان من قِبَل الأتابك عز الدين.
- 5- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 482.
- 6- الحابور: رافد كبير لنهر الفُرات، والمقصود هُنا الأراضي الواقعة على ضفاف الحابور، ويبدو من رسالة للقاضي الفاضل أنَّها بلاد وافرة الخصب، فيعدها مزرعة الموصل، ومصدر تموينها؛ إذ يقول: "وبلاد الحابور وهي مُستغلات الموصل" (رسائل القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي بن حسن، 167).
- 7- رسائل القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي بن حسن، 167.
- 8- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 484.

- 1- المُعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، إشراف: العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: قلعة نجم.
- 2- التنبيه والأشراف، القلقشندي، 331.
- 3- الأعلام الخطيرة، ابن شدَّاد، 1 / 2 / 473.
- 4- مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تلّ باشر.
- 5- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 9.
- 6- المنصوري، ابن نظيف، 250.
- 7- مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: مِيفَارِقِينَ.
- 8- الأعلام الخطيرة، ابن شدَّاد، 3 / 2 / 453 - 455.
- 9- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 208.

سار صلاح الدين بعد امتناع الموصل عليه إلى سنجار⁽¹⁾، فسلمها صاحبها شرف الدين أمير أميران هندو أخو عز الدين صاحب الموصل.

وفي عام 579 هـ 1283م، حاصر صلاح الدين آمد، وأخذها من حاكمها بهاء الدين بن نيسان، وسلمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان⁽²⁾ حسب وعده. ولما توفي نور الدين عام 581 هـ 1185 أقر صلاح الدين ولده سقمان عليها، ولقبه قطب الدين، وكان عماد الدين أخو نور الدين يقود عسكر آمد في خدمة صلاح الدين، فأراد أخذ آمد، فلما فاتته، أخذ حصن خربت⁽³⁾. وتسلم صلاح الدين ميافارقين بالأمان في العام نفسه 581 هـ 1185م⁽⁴⁾. وفي عام 586 هـ 1190م، توفي زين الدين يوسف صاحب إربل، وشّر أخوه مظفر الدين بوفاته، وقدم خمسين ألف دينار إلى السلطان صلاح الدين حتى أخذ إربل، ونزل عن حرّان والرّها وسُميساط⁽⁵⁾.

تقي الدين في الجزيرة:

كانت حلب أكبر الممالك الأيوبية في شمال الشام، ومركز الثقل الأيوبي، وهي التي تُوازن بقواها ويتقوّذها السياسي مملكة الموصل الأتابكية في شمال العراق. ولقد أدرك صلاح الدين أهمية حلب عندما ولي عليها ابنه الظاهر غازي. وكانت مملكة حلب تضم - أول الأمر -: إزاز ومنبج، وعدد من البلدات الأصغر والقرى الزراعية الخصبة. وفي الشمال الشرقي من حلب تقع بلاد الجزيرة الشامية.

في عام 587 هـ 1191م، بعد أن استرد صلاح الدين البلاد الجزرية، من مظفر الدين كوكبري، وأقطعها إلى ابن أخيه تقي الدين إضافة إلى إقطاعه، وكان يقطع هذه الممالك، على العادة الجارية، لقواده ولأهل بيته، لتحوّل هذه الإقطاعات إلى عدد من الجنود يخدمون تحت السلاح وقت

الحاجة. وكان تقي الدين عمر بن شاهنشاه، ابن أخيه السلطان صلاح الدين، أول من أقطع في الجزيرة، فقد أعطاه عمه ميافارقين، ثم أقطعه حرّان والرّها، إضافة لما كان معه في الشام.

فسار إليها تقي الدين بجنده من على حصار عكا، ولما وصل ميافارقين طمع فيها حولها، فاستولى على حاني في ديار بكر، واصطدم بسيف الدين بكتمر صاحب خلّاط، فهزمه، وفي هذا الوقت خرج غدر الفرنج بالمسلمين، ودخلوا عكا، "ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره إلى الملك المظفر تقي الدين"؛ حيث سافر على أن يعود بأضعاف عسكره، فاشتغل بخلّاط، وغيرها⁽¹⁾، وربما كان يُفكر في التوسّع أكثر، لكنه أثناء حصاره لملاذ كرد توفي فجأة، فحمله ابنه ناصر الدين محمد إلى ميافارقين، ودفنه فيها⁽²⁾، واستولى على ما كان لوالده في الجزيرة، وراسل ناصر الدين محمد السلطان صلاح الدين طالباً إقراره مكان والده، فلم ير السلطان في ذلك مصلحة؛ لخطورة البلاد وحدائث سنّ طالبيها، كما لم يرغب بتسليم بلاد الجزيرة، التي هي عمقه الاستراتيجي، إلى صبي غرّ، فتمرد ناصر الدين على السلطان المشغول بحرب الفرنج، فسير إليه السلطان ابنه الأفضل لرذعه، وهنا؛ تدخل العادل أخو صلاح الدين ليقطع الطريق على الأفضل، وطلب إقطاع الجزيرة من صلاح الدين⁽³⁾، قال العادل: "كان السلطان مُلّازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه"⁽⁴⁾، وانتهى الأمر بإبقاء ناصر الدين في إقطاع والده بحماة⁽⁵⁾، وأقطع صلاح الدين البلاد الجزرية إلى أخيه العادل أبي بكر، وهي حرّان والرّها وسُميساط وميافارقين وحاني، وسيرّه إلى ابن تقي الدين ليتسلم منه البلاد عام 588 هـ 1192م⁽⁶⁾. فحصل العادل على البلاد الجزرية الداخلة في دولة صلاح الدين، والتي كانت بيد تقي الدين، وطلب فوقها قلعة جعبر، وكانت مع الظاهر بحلب، فأخذها⁽⁷⁾.

1- التاريخ الإسلامي المختصر، ابن أبي الدم، 522.

2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 62/12.

3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 82/12، والفتح القسي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 466/13.

4- الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 3/19.

5- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 82/83/11، والفتح القسي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 466/13.

6- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 83/12.

7- الفتح القسي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 466/13.

1- سنجار: بكسر السين وتسكين النون، وهي تعريب سنكار. (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: سنجار)، وهي بلدة تقع - الآن - في العراق، وهي على جبل يحمل الاسم نفسه، وتمتد شقوقه حتى تدخل الحدود السورية، وسنكار اسم فارسي، أصله من مقطعين سنك: الحجر وخارا: الصلد، خفف إلى سنكار.

2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 493/11.

3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 514/11.

4- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 515/11.

5- التاريخ الإسلامي المختصر، ابن أبي الدم، 521.

المبحث الثالث

الملك العادل يوطد الحكم الأيوبي

توفي السلطان صلاح الدين عام 589 هـ 1193م، فخرج صاحب الموصل عز الدين ومعه خلفاؤه، ونزل دنيسر لاسترجاع بلاد الجزيرة، فالأتابك يعدون البلاد إرثاً شرعياً لهم من نور الدين، غصبهم إياها صلاح الدين، فأسرع العادل، ونزل حرّان، واستنجد بعساكر ابن أخيه الظاهر صاحب حلب، والأفضل صاحب دمشق، فأنجدوه، ولكن الحلف الأتابكي تفكك بمرض عز الدين، فاغتنم العادل الفرصة، واحتلّ سروج، ونزل إلى الرقة، فولى عليها ابن أخيه الظافر⁽¹⁾. وفي عام 596 هـ 1200م، تمكن العادل من أخذ دمشق من ابن أخيه الأفضل، وأعطاه بدلاً عنها ميّافارقين وسميساط وسروج⁽²⁾، ومعها رأس عين وجلين وقلعة نجم⁽³⁾. وفي عام 608 هـ 1211م، أعطى العادل إلى ولده المظفر غازي الرها مع ميّافارقين⁽⁴⁾.

أ. إقطاع الملك العادل في الجزيرة:

كان للعادل إقطاع معظم أراضي دولة صلاح الدين في الجزيرة؛ حيث كان يحكمها نيابة عن أخيه، وبعد وفاته استقل بها، وظلت هذه البلاد بتصرف نوابه حتى عام 598 هـ 1202م، عندما استقر له سلطان البلاد، واستولى على حكم مصر ودمشق، قام بتوزيع بلاده بين أولاده: فالكامل في مصر، والمُعظم في دمشق، وأما ولايات الجزيرة؛ فقد وزعها كما يلي:

الأشرف موسى: وعين له حرّان والرّها وسروج، وكل ما له في الشرق، ما عدا ميّافارقين، نيابة عن والده.

الأوحد نجم الدين أيوب: اختصه بميّافارقين⁽⁵⁾، نيابة عن والده.

الحافظ أرسلان شاه: جعل له قلعة جعبر، وبلدة بالس، نيابة عن والده⁽⁶⁾.

1- زُبدة الحلب، ابن العديم، 601/2.

2- زُبدة الحلب، ابن العديم، 444.

3- روايات ابن العربي، ابن العربي، ترجمة: د. سهيل زكّار، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 452/5.

4- المختصر، أبو الفداء، 114/3.

5- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 453/2/3.

6- السلوك، المقرئ، 271/1.

الأحلاف السياسية والتحركات العسكرية في الجزيرة بعد وفاة صلاح الدين:

بعد وفاة السلطان صلاح الدين انتقض الأمراء والملوك المعاهدين على خلفائه، وكان أولهم بكتمر صاحب خلاط، ثم أيده صاحب ماردين، وراسلوا أتابكة الموصل وسنجار، وتحالفوا، وأصبحت المناطق الأيوبية مهددة من الشمال ومن الشرق، وتحركت الجيوش صوبها، وأرسلوا للعادل: "أن اخرج من بلادنا". وباتت السيطرة الأيوبية في الجزيرة مهددة تماماً، وكان امتحاناً مبركاً للعادل، بل الدولة الأيوبية بكاملها بعد موت مؤسسها. لكن الإرادة الإلهية أولاً، وعزيمة العادل، والتفاف الأيوبيين حوله ثانياً، حولاً كل ذلك إلى نصر كبير للأيوبيين، وتأكيد على إحكام قبضتها في الجزيرة.

في معسكر الحلفاء:

1 - كانت الضربة الأولى التي وجهت للحلفاء هي مقتل بكتمر صاحب خلاط؛ إذ اغتالته الباطنية وهو في أوج تنمّره وشهائته بموت صلاح الدين، فقد ظهر بشعار السلطنة، وتلقّب بالملك الناصر، وراسل الأمراء والملوك، وعندما بدا وكأن السعد يجاريه، سقط بخناجر الباطنية، لتنهار دعامة قويّة من الحلف المناوي للأيوبيين⁽¹⁾.

2 - تردّد عز الدين مسعود صاحب الموصل، وتلكأ في التحرك العسكري ضد الأيوبيين لاحتلال بلادهم الجزيرة، وعندما تحرك في الجيش داهمه المرض، فعاد محمولاً في محفة إلى الموصل، وتبعه جيش التحالف الأتابكي بدون أن يحرز أي نتيجة.

3 - وجد صاحب ماردين نفسه وحيداً في الميدان، "فتضرّع، وتذرع، وتشفع، حتى عفا عنه" العادل.

4 - تحرك العادل بسرعة "فكتب إلى بني أخيه يستنجدهم، فأنجدوه"، وتحركت الفرق الأيوبية نحو الجزيرة من كل مكان، وأولها وأقربها نجدة حلب، ثم حمص وبلبك ودمشق.

ولم يعد هذا التجمّع الأيوبي بلا مكسب، فقد استغلّ العادل تجمّع النجيدات، وتراجع الأتابكة، فأمر ابنه الظافر بقيادة الجند، واحتلال مدينة سروج، وكانت لعماد الدين، فاحتلّها، ثم احتلّ الرقة، واستولى على بلاد الخابور⁽²⁾.

1 - الفتح القسبي، العباد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 436/13.

2 - الفتح القسبي، العباد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 436/13.

وتبلور الوضع السياسي بعد هذا الاختبار للدولة الأيوبية، بتأكيد سلطنة العادل على كامل أراضي الجزيرة، كما تأكدت على الشام. فملوك الجزيرة وأمرؤها، إما يتبعون مباشرة لولاة العادل، أو محالفون له، خاضعون، يخطبون له على منابرهم، ويسكون اسمه على نقودهم.

موقف حلب:

في عام 594 هـ 1198 م، أنجد الظاهر عمه العادل في هجومه على ماردين، ولما وقع الخلاف بينه وبين عمه، إثر وفاة العزيز، وتحرك الظاهر مع أخيه الأفضل لأخذ دمشق، دعم الظاهر تحالف أتابكة سنجار والموصل، فهزموا جيش العادل، وأجلوه عن ماردين⁽¹⁾. وبعد فشل خطة الظاهر بأخذ دمشق من عمه العادل راسل حسام الدين يولق صاحب ماردين، وحاول تأليف حلف معه ومع أمراء الجزيرة، بمن فيهم أخوه الأفضل. وعندما عاد العادل للهجوم على ماردين عام 599 هـ 1202 م، تدخل الظاهر، إنما هذه المرة بوساطة سلمية، كانت لمصلحة كل الأطراف.

فقد سار الأشرف نائب والده العادل في حران إلى ماردين، وحاصرها عام 599 هـ فادرك صاحبها أنه سيكون الخاسر الأكبر باعتياده على حلف متفكك أصلاً، لا يجمعه إلا المصلحة، وتفرقه المصلحة، فأرسل للظاهر صاحب حلب، الذي وافق على السعي بالصلح، ووافق العادل على الصلح مقابل مائة وخمسين ألف دينار، وأن تُقام له الخطبة والسكة في ماردين⁽²⁾. إن موافقة العادل تدل على عدم تأكده من النجاح العسكري، فقد فشل ابنه الأشرف بتحقيق نصر عسكري تجاه ماردين⁽³⁾، وربما لا العادل ولا الأشرف كانا يتوقعان نصراً عسكرياً ضد بلدة محصنة كماردين، وقلعتها الشهيرة⁽⁴⁾. وبالمقابل؛ ضمن العادل حصوله على 150 ألف دينار نقداً، والخطبة والسكة في ماردين، مع نجدة عساكرها له عند الطلب. وحصل الظاهر على عمولة هي 20 ألف دينار، وإقطاع قرية القرادي⁽⁵⁾ من صاحب ماردين⁽⁶⁾.

1 - عقد الجمان 228 / 2 / 1، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 62 / 12، والعبر، ابن خلدون، 588 / 5.

2 - المختصر، أبو الفداء، 103 / 3.

3 - مملكة حلب، كمال يدور، 149.

4 - راجع: الإمارات الأرتقية، عماد الدين خليل، 164.

5 - القرادي: قرية من أعمال شبختان (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 179 / 12).

6 - مفرج الكروب، ابن واصل، 139 / 3، والمختصر، أبو الفداء، 103 / 3، وشفاء القلوب، الحنبلي، 213، والمنصور، ابن نطف، 38، - بينما يقول المقرئ بأن المبلغ هو: عشرة آلاف فقط، (السلوك، 161 / 1).

المبحث الرابع

القوى السياسية في الجزيرة الشامية

مشكلة أخلاط⁽¹⁾:

لم يتمكن صلاح الدين من ضم أخلاط إلى مملكته⁽²⁾، فقد كانت تحت حكم سيف الدين بكتمر، الذي استولى على السلطة بها بعد موت مولاة شاهر من - شاه أرمن - بن سكران ملك أخلاط. واستطاع بكتمر حفظ مملكته من توسع السلطان صلاح الدين في الجزيرة، وعرف نواياه تجاه أخلاط، لذلك حقد عليه، وعند وفاة السلطان أظهر الابتهاج، وتلقب بالملك الناصر، وهو لقب صلاح الدين⁽³⁾. وتحالف مع أتابك الموصل، ويقال إن بكتمر هو من شكل الحلف ضد الأيوبيين، ولكن قتله المفاجيء عام 589 هـ 1193 م، بعد شهرين من وفاة صلاح الدين بأيدي الإسماعيلية، أنهى كل خطر كان يشككه بكتمر على الأيوبيين⁽⁴⁾. وهذا الاغتيال السياسي الأول الذي نفذته الإسماعيلية بعد وفاة صلاح الدين، تأكيداً لتمسكهم بالتحالف مع خلفائه، قد وفر على الأيوبيين الكثير من المتاعب، وفكك - فعلياً - تحالف ملوك الأطراف ضدهم، بعد قتل المحرك والمُدبر والأشد حقدًا عليهم.

فملك أخلاط بعده مملوكه آق سنقر ولقبه هزار دیناري، وتسمى: الملك بدر الدين، لكنه لم يعيش طويلاً بعدها، فقد توفي عام 595 هـ، فولى الأمراء محمد ابن صاحب أخلاط السابق بكتمر، وكان شاباً فاسداً⁽⁵⁾ جاهلاً، قتل أتابكه شجاع الدين قتلغ، الذي كان حسن السيرة مع الجند والرعية، واشتغل هو باللهو والشراب، فانتقض عليه الناس، وملكوا سيف الدين بلبان، وكان مملوكاً لشاه أرمن، وتسلم أخلاط⁽⁶⁾، فكتب جماعة ابن بكتمر للملك الأوحاد ابن العادل صاحب ميافارقين

1 - يُفسر ناصر خسرو سبب تسميتها، فيقول: هي بين بلاد المسلمين والأرمن، ويتكلمون بها ثلاث لغات: "العربية، والفارسية، والأرمنية، وأظن أنها سميت أخلاط لهذا السبب". (سفر نامه، ناصر خسرو، تعريب د. يحيى الحشّاب، 39).

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 255 / 12.

3 - الفتح القسبي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكار، 436 / 13.

4 - الفتح القسبي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكار، 436 / 13.

5 - تاريخ البغدادى ورحلته، الموفق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكار، 84 / 14.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 253 / 12.

يستدعونه إلى خلاط، فسار إليها⁽¹⁾، وكان قد طلب النجدة من أبيه العادل، فأرسل له جيشاً كبيراً⁽²⁾، تمكن بواسطته الأوحده من هزيمة بلبان⁽³⁾. لكن بلبان استنجد بمغيث الدين طغرل شاه بن قلع أرسلان السلجوقي⁽⁴⁾، صاحب أرزن الرّوم⁽⁵⁾، فسار إليه بنفسه ومعه العسكر، فهزموا الأوحده⁽⁶⁾، فعاد إلى ميّافارقين. وطمع طغرل شاه بأخلاط، وغدر بلبان، فقتله؛ ليملك خلاط، لكن أهلها لم يسلموها له، وقاوموه، فعاد إلى بلاده. واستدعوا الملك الأوحده، وسلموه المدينة سنة 604 هـ⁽⁷⁾.

وتخوّف أصحاب المدين المجاورة من قوّة الأوحده، التي تعدّ امتداداً لقوّة والده العادل وأخيه الأشرف، وهي أكبر القوى العسكريّة والسياسيّة في الجزيرة، فحاولوا النيل منه، ولكنّ دعم أخيه الأشرف جعلهم يتراجعون⁽⁸⁾، واستفاد الأوحده من وجود قوّة أخيه الأشرف، فهاجم قلعة أوان، وهي للكرج، فملكها⁽⁹⁾، فخاف ملوك المدين المجاورة، وانفقوا على ترك طاعة العادل، وأعلنوا طاعة خسرو شاه بن قلع أرسلان سلطان سلاجقة الرّوم، وخطبوا له، وراسلوا الكرج يحرضونهم ضدّ الأوحده⁽¹⁰⁾، فتحرّك ملك الكرج عام 607 هـ 1210 م، إلى خلاط، وحاصرها بقوّاته، وفي إحدى الهجمات لجيش الكرج على أبواب خلاط سقط ملكهم عن جواده، فأسرع المدافعون عن الباب، وأسروا الملك، واقتادوه إلى الأوحده، الذي فاوضه على إطلاق سراحه مقابل عدّة شروط، منها: تسليم بعض القلاع، وإطلاق خمسة آلاف أسير مسلم، ودفع مائة ألف دينار، وتزويج ابنة ملك

الكرج للملك الأوحده، وإقامة هُدنة بينها مدّتها ثلاث سنوات⁽¹⁾، فتخاذل ملوك المدين المجاورة لخلاط المتحالفين ضدّ الأوحده وأبيه العادل، وقصدوا العادل وهو في حرّان، واعتذروا إليه، وعادوا إلى طاعته⁽²⁾.

وبعد مرض عضال توفّي الملك الأوحده نجم الدين أيّوب بن العادل في مدينة ملاذكرد، ودُفن بها⁽³⁾ سنة 605 هـ 1208 م⁽⁴⁾، فتسلّمها أخوه الملك الأشرف صاحب الجزيرة، واستقرّت في ملكه⁽⁵⁾، وأضيفت ميّافارقين إلى المظفر شهاب الدين غازي⁽⁶⁾، فعظم شأن الأشرف بملكه خلاط، وهي قصبة أرمينيا⁽⁷⁾، فعظم أمره، وتلقّب شاهر من⁽⁸⁾ بعد أن ملكها. وفي عام 617 هـ 1220 م، وقبيل توجّه الأشرف من الجزيرة إلى مصر لنجدة أخيه الكامل ضدّ الفرنج الذين قصدوا دمياط، أقطع الأشرف أخاه المظفر شهاب الدين غازي خلاط ومعها كلّ أعمال أرمينية وميافارقين وحاني، وأخذ منه الرّها وسروج، ولما قصدته رُسُل الكرج يطلبون التحالف معه ضدّ المغول، أحالهم إلى المظفر غازي⁽⁹⁾.

وبعد عودة الأشرف من دمياط انقلبت موازين التحالفات الأيوبيّة؛ حيث اتّفق الأشرف مع الكامل ضدّ المعظم، فأرسل المعظم للمظفر غازي يستميله ضدّ الأشرف، فمال معه، وخلع طاعة

- 1- تاريخ البغدادي ورحلته، الموفّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 84/14، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 255/12، ومفّرّج الكُروب، ابن واصل، 176/3، ومن عقد الجمان، العيني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، أحداث عام 995 هـ، 17/59.
- 2- روايات ابن العربي، ابن العربي، ترجمة: د. سهيل زكّار، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 459/5.
- 3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 272/12.
- 4- مفّرّج الكُروب، ابن واصل، 176/3.
- 5- تاريخ البغدادي ورحلته، الموفّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 84/14.
- 6- مفّرّج الكُروب، ابن واصل، 176/3.
- 7- مفّرّج الكُروب، ابن واصل، 176/3، وروايات ابن العربي، ابن العربي، ترجمة: د. سهيل زكّار، 459/5، وتاريخ البغدادي ورحلته، الموفّق عبد اللطيف، 84/14، والأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 453/2/3.
- 8- مفّرّج الكُروب، ابن واصل، 176/3، وروايات ابن العربي، ابن العربي، 459/5.
- 9- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 274.
- 10- ذيل المختصر، ابن الوردي، 127/2، وذيل الرّوضتين، أبو شامة، 75.

- 1- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 274، والمختصر، أبو الفداء، 113/3.
- 2- ذيل المختصر، ابن الوردي، 127/2، وذيل الرّوضتين، أبو شامة، 75.
- 3- الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 455/2/3، -الأوحده هو: أيّوب بن أبي بكر العادل بن أيّوب لقبه نجم الدين، توفّي في ملاذكرد، ودُفن بها. (ذيل الرّوضتين، أبو شامة، 81)، وهو صاحب ميّافارقين إقطاعاً من والده، واستولى على خلاط بدعوة من أهلها. (مفّرّج الكُروب، ابن واصل، 175/3).
- 4- انقسم المؤرّخون حول تحديد سنة وفاة الأوحده أيّوب بن العادل، فهي في عام 609 هـ لدى أبي شامة، ذيل الرّوضتين، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 158/20، والحنبلي، شفاء القلوب، 275، وهي في عام 607 هـ لدى ابن نظيف، المنصوري، 650، وأبي الفداء، المختصر، 3-113، وابن واصل، مفّرّج الكُروب، 3-208.
- 5- تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 84/14، والكامل في التاريخ، 12/253-272، وذيل الرّوضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 158/20.
- 6- مفّرّج الكُروب، ابن واصل، 3-208.
- 7- تحفة ذوي الألباب، الصفدي، 124/2، راجع أيضاً: سفر نامه، ناصر خسرو، تعريب: يحيى الخشاب، 39.
- 8- المختصر، أبو الفداء، 3/113، -شاهر من: أو شاه أرمين، أيّ ملك الأرمن نسبة لعدد الأرمن الكبير في خلاط.
- 9- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/399.

الأشرف⁽¹⁾، ويبدو أن أهمّ دوافع المعظم تجاه المظفر هي أهميّة مملكة خِلاط، واتّساعها، وموقعها الذي يُشكّل شوكة في جنب الأشرف تُعيقه عن الحركة، إضافة إلى كونها صلة وصل لا غنى عنها ما بينه وبين الخوارزمي حليف المعظم، والتي ستدخله إلى عالم الجزيرة، ومنها إلى الشام.

ففي عام 621 هـ 1224م، قصد الأشرف خِلاط بجيوشه، وتمكّن من هزيمة المظفر عندما تصدّى له، فهرب إلى خِلاط، لكن أهلها فتحوا أبوابها للأشرف، فتحصّن المظفر في القلعة، وأنزله الأشرف بالأمان، وأخذ منه خِلاط، وأبقى عليه ميّافارقين⁽²⁾، وأرسل الأشرف حاجبة حُسام الدّين علي نائباً إلى خِلاط⁽³⁾، فقام بمهمّته خير قيام⁽⁴⁾، ودافع عنها ضدّ الخوارزمي وجيشه القوي، وأجبره على التراجع⁽⁵⁾، كما تصدّى لكَيْقُبَاز، ودفعه عن أرزن الرّوم⁽⁶⁾، ممّا جعل الأشرف يتوجّس خيفة من قوّته، فأرسل مملوكه عزّ الدّين آيبك إلى خِلاط، وأمره بقتل الحاجب علي، فقتله⁽⁷⁾، وتولّى عزّ الدّين خِلاط، حتّى هاجمها جلال الدّين خوارزمشاه، وفتحها عام 627 هـ 1230م، ولمّا دخلها "فعل في ذلك فُعل النّثر، فقتل كلّ مَنْ وجد في البلد وسبى عسكره الحرّيم، وباعوا الأولاد كما يفعل بالكفّة"⁽⁸⁾، ثمّ قبض على عزّ الدّين آيبك نائب الأشرف في خِلاط، وسلّمه إلى مملوك الحاجب علي، فقتله⁽⁹⁾، فقام الأشرف، وجمع عساكر الشّام، وحالف علاء الدّين كيقياد سلطان سلاجقة الرّوم، والتّقوا جلال الدّين، فهزموه، "واسترجع الأشرف خِلاط، وقد صارت خراباً يباباً"⁽¹⁰⁾.

الفصل الثّاني

العلاقات الخارجيّة للممالك الأيوبيّة في الجزيرة

المبحث الأوّل

الملك الأفضل في الجزيرة

كان الأفضل أكبر أولاد صلاح الدّين، ووليّ عهده، وبعد وفاة والده كوّن مملكة دمشق، التي كانت إقطاعاً له في حياة والده السّلطان، وهي تمتدّ من حُدود حمص شمالاً إلى حُدود العريش جنوباً، يفصلها عن بعض السواحل المناطق المحتلّة من قبل الفرنج.

وفي عام 592 هـ 1196م، تمكّن الملك العادل من إخراج ابن أخيه الأفضل من دمشق إلى صرخد⁽¹⁾، وبعد موت العزيز ابن صلاح الدّين صاحب مصر تمكّن الأفضل من الوُصول إلى حُكم مصر عام 595 هـ 1199م، لكنّ؛ نتيجة التحاسد بين الأخوة أبناء صلاح الدّين، وشخصية الأفضل غير القياديّة⁽²⁾، فقد طُرد الأفضل من مصر عام 596 هـ 1200م، وعاد إلى صرخد، ثمّ خسرها - أيضاً - بعد مُغامرته الفاشلة لأخذ دمشق عام 597 هـ 1201م. وأثناء حصار الأفضل وأخيه الظّاهر للعادل بدمشق، راسل العادل الأفضل، ووعدّه بالبلاد الشّرقية، فانسحب من الحصار، وعمل على تفشيله، وسلّمه العادل ميّافارقين⁽³⁾ وسُمّيساط وسروج⁽⁴⁾ وقلعة نجم⁽⁵⁾.

1 - صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادّة: صرخد)، ويُقال لها - الآن - صلخد، وهي مدينة في جبل العرب، تتبع محافظة السويداء السّوريّة. (المعجم الجغرافي للقطر السّوري، مادّة: صلخد).
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 143.
3 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 126.
4 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 444.
5 - المختصر، أبو الفداء 3 / 101، قلعة نجم: قلعة حصينة على الفُرات، بناها نجم غلام جنّي الصفواني، وكانت تتبع لبني حسان أصحاب منبج، وبعد وفاة حسان بن كمشتكين البعلبكي عام 542 هـ 1147م، أقطع السّلطان نور الدّين منبج ومعها قلعة نجم إلى ابنه قطب الدّين ينال ابن حسان. وعندما تولّى السّلطان صلاح الدّين كان ينال من أشدّ الأمراء عداوة له، والتحرّض عليه، فحاصره السّلطان، وأسره عام 572 هـ 1176م، (الكامل، ابن الأثير، 11 / 329، زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 218)، ثمّ تولّاها الظّاهر غازي بن صلاح الدّين مع حلب، وسلّمها لأخيه=

1 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 657، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 134.
2 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 657، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفّق عبد اللطيف، 14 / 84، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 134.
3 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 188.
4 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 136.
5 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 190.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 480.
7 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 263، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 485، وأخبار الأيوبيين، ابن العميد، 15.
8 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 295.
9 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 146.
10 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 299.

ويبدو أن العادل كان يُدرك تماماً ما يفعل، فقد وضع الأفضل في الجزيرة ليعده أولاً عن مراكز القوى في دمشق ومصر، وليضعه تحت إشراف ومراقبة ولده الأشرف صاحب إقطاع الجزيرة، وكانت لدى العادل مخططات أخرى تتعلق بالأفضل، رُبما لم يطلع عليها سوى ابنه الأشرف الذي سيُنَفَّذها لاحقاً. ففي عام 599 هـ 1203م، طلب الأشرف من الأفضل القدوم بعساكره للتوجه معه في الحملة ضدَّ ماردین، وبالفعل وصل الأفضل إلى حَرَّان ورافقه الأشرف الذي كان يظهر الود والاحترام للأفضل، حتَّى إنَّه عندما استولى على رأس عين الخابور سلمها له، وبعد الصُّلح مع ماردین والعودة إلى حَرَّان بلغ كرم الأشرف غايته مع ابن عمِّه؛ حيث أعطاه بلدة جملین⁽¹⁾.

إن هذا الإكرام - بالتأكيد - أدهش الأفضل، وجعله ينساق مع ما خطَّط له العادل وابنه الأشرف، من الاعتقاد بمحبَّتْهما، وتقديرهما له، والتَّخَلِّي عن كُلِّ شكٍّ بهما، أو حذر منهما.

ولكن ضربهما له لم يتأخَّر كثيراً، ففي العام نفسه أرسل الملك العادل عسكره ونوابه واستعاد جملین من الأفضل، وانتزع منه سروج وشبختان والموزر والسن⁽²⁾، ويُحاول ابن العديم تبرير فعل الملك العادل بقوله: "وعصى الملك الأفضل على عمِّه الملك العادل في البلاد التي كان أعطاه إياها"⁽³⁾، فما زاد على أن أظهره مُتَمَرِّداً على عمِّه صاحب الشرعية الملك العادل، سلطان البلاد، الذي تفضَّل على الأفضل بها، مع أنَّه لا يُوجد دليل على عصيانه، ولا مُبرِّر لهذا العصيان المُفترض.

وقام الظَّاهر أخو الأفضل بحركة مُفاجئة، رُبما تدلُّ على تنسيق مع العادل، واقتسام سَرِّي لبلدان الأفضل بينهما، فاستولى الظَّاهر على قلعة نجم⁽⁴⁾، وقد برَّر ابن العديم - أيضاً - فعلة الظَّاهر بأخيه الأفضل بأنَّ الظَّاهر تخوَّف من أخذ العادل لقلعة نجم، وهي ذات موقع استراتيجي مُهمٌّ بالنسبة لمملكته، ويُضيف مُذكِّراً ومؤكدًا تبريره لأخذ الظَّاهر قلعة نجم، فيقول: "وكان الملك

=الأفضل، لكنَّه عاد، واستردَّها، وأقَطَعَهَا لعتيقه الأمير بدر الدِّين أیدمر، حتَّى نزعها منه العزيز بن الظَّاهر عام 629 هـ. وفي أيام الملك النَّاصر الثاني استولى عليها التَّتار، وخَرَّبوها. (الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 476 / 2 / 1).

1- المنصوري، ابن نظيف، 38.
2- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 623، وروايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سهيل زَكَّار، الموسوعة الشَّامية، 427 / 5.

3- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 623.
4- روايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سهيل زَكَّار، الموسوعة الشَّامية، د. سهيل زَكَّار، 427 / 5، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 475 / 2 / 1.

الظَّاهر قد سلَّمها للأفضل"⁽¹⁾، ولكن ابن الأثير يرى الأمر من وجهة نظر أخرى؛ حيثُ يصف ما قام به الملك الظَّاهر نحو الملك الأفضل بقوله: "وكان هذا أقبح ما سُمِع عن ملك يُزاحم أخاه في مثل قلعة نجم، مع خسَّتْها وحقارتها وكثرة بلاده وعدمها لأخيه"⁽²⁾.

ثمَّ تابع العادل وابنه الأشرف تنفيذ مخطَّطها ضدَّ الأفضل، "فأخذوا رأس عين الخابور من الملك الأفضل، وكذلك جملین، بكذبة كذبوها عليه لاستعادة البلاد منه، ولم يُيقوا عليه سوى سُمِّيساط لا غير"⁽³⁾.

كانت محاولة الأفضل الأخيرة، قبل أن يفقد كُلَّ أمل له ضمن أسرته الأيوبيَّة، هي التذلُّ لعمِّه العادل، واستعطافه، فأرسل والدته إلى حماة؛ ليشفع صاحبها المنصُور عند العادل لإبقاء بلاده عليه، لكنَّ العادل لم يلتفت لذلك⁽⁴⁾، عندها؛ وجد الأفضل نفسه وحيداً ضمن البيت الأيوبي، فأعدَّاه هُم أخوه وعمِّه وأبناء عمِّه، ممَّا زاد الأفضل حنقاً، ودفعه بالتَّجَاه مُعاكس، فالتفت خارج البيت ليجد كيكائوس⁽⁵⁾ سلطان سلاجقة الرُّوم قريباً منه، ومُرحَّباً به، ورُبما لأنَّه عدو البيت الأيوبي انتهى إليه، وخطب له على منابر سُمِّيساط⁽⁶⁾، فكان انتقام الضعيف من الأقوياء.

وعندما تُوِّفِّي الملك الظَّاهر صاحب حلب، في عام 613 هـ 1216م، وجد كيكائوس في الأفضل ضالَّته، فهو وسيلته للسيطرة على الجزيرة، ومن ثمَّ الدُّخُول إلى الشَّام.

فأثار مطامع الأفضل، ووعده بأخذ حلب، وتسليمها له، "وكان كيكائوس يُريد الملك لنفسه، ويجعل الأفضل ذريعة للتَّوصُّل إليه"⁽⁷⁾.

1- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 623، كذلك راجع: الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 475 / 2 / 1.

2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 182.

3- المنصوري، ابن نظيف، 38، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 104.

4- المختصر، أبو الفداء، 3 / 104.

5- هو السُّلطان عزَّ الدِّين سُليمان بن قَلِج أرسلان بن مسعود السلجوقي صاحب الرُّوم.

6- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 182، وروايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سهيل زَكَّار، الموسوعة الشَّامية، د. سهيل زَكَّار، 427 / 5.

7- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 644.

ففي عام 615 هـ؛ طلب كيكائوس من الأفضل أن يُكتب أمراء حلب الذين يميلون إليه، فكتبهم، ووعدوه⁽¹⁾، وكان عدد من مُستشاري عزّ الدين كيكائوس قد "حسنوا له قصد حلب، وقالوا: المصلحة أن تستعين بالأفضل، فإنّه في طاعتك، ويخطب لك، والناس مائلون إليه، فاستدعاه، وأكرمه، وأنفقاً على قصد البلاد، وأن حلب وأعمالها للأفضل وبلاد الأشرف لعزّ الدين"⁽²⁾.

ساند الأفضل كيكائوس، ورافقه في هُجومه على مُمتلكات حلب، "وساروا، فملكوا رعبان، وسُلّمت للأفضل، لكن؛ لما مُلكت تلّ باشر أخذها عزّ الدين كيكائوس لنفسه، وكذلك منبج، فنفر الأفضل، وقال: هذا أوّل الغدر، ونفرت أهل البلاد، فقد كانوا فرحين بمُلك الأفضل"⁽³⁾.

"ولما تحقّق الأفضل من سوء نيّة كيكائوس، أشار عليه بقصد البلاد، وتأخير حلب، لمُروور الزمن في غير فائدة؛ لئلا يتحصّل لعزّ الدين مقصوده"⁽⁴⁾.

وكان تراجع الأفضل عن دعم كيكائوس من الأسباب القويّة لهزيمته أمام قووات حلب والأشرف موسى⁽⁵⁾، فقد تراجع منهزماً، واستردّوا كُلّ ما استولى عليه.

وعاد الأفضل ليقع في سُميساط، "ولم يتحرّك -بعدها- في طلب مُلك، إلى أن مات عام 622 هـ"⁽⁶⁾ 1225م، وكان موته فجأة، وله من العمر سبع وخمسين سنة⁽⁷⁾.

واختلف أولاده وأخوته في ملك سُميساط بعد موته، ولم يقوَ أحد منهم على الباقيين ليستبدّ بالأمر⁽⁸⁾، ويبدو أنّهم اتفقوا على المؤيّد ناصر الدين مُحمّد بن الأفضل علي، وأن يكون مُدبّر دولته عمّه

المُفضّل موسى، واستقرّوا بها إلى عام 632 هـ 1235م؛ حيث أخذها منهم الملك العادل، وعوّضها عنها جليلين⁽¹⁾.

وهكذا أكملّ العادلُ مخطّطه تجاه الأفضل الذي كان يتصوّره الأقوى بين أبناء صلاح الدين، ولكنه كان -على ما يبدو- بعيداً عن مغاور السياسة والأعيان، بسيطاً، مع أنّه جمع الفضائل والأخلاق الحسنة، وعُلّل أبو الفداء ما جرى معه بأنّه كان "قليل الحظّ"⁽²⁾، لكنّ الأرجح أنّه سوء تدبير أكثر منه قلة حظّ، فله من الخبرة والتجربة، في دولة أبيه، ربّما ما يفوق ما كان لأخيه الظاهر غازي أو العزيز.

وهنا؛ نلاحظ أن العادل قد تجاوز صلاح الدين بحُسن التدبير لتدريب أبنائه، وربّما كان ذلك بسبب انشغال صلاح الدين الدائم بالجهاد، فقد أمضى جُلّ عمره على صهوة جواده، وكان يرى أن تحرير الأرض رسالة عليه أن يؤدّيها، فلم يلتفت إلى ما سواها، بينما التفت العادل لترتيب شُؤون أولاده بعد موت صلاح الدين، وساعده على ذلك توقّف الأعمال الحربيّة الكُبرى مع الفرنج.

1 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 644.

2 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 263.

3 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 263.

4 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 265.

5 - المنصوري، ابن نظيف، 74، - وعن مُغامرة الأفضل مع كيكائوس راجع:

Pre Ottoman, Clud Cahen, p 123

6 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 119.

7 - بعد أن مات الملك الأفضل علي في سُميساط نُقل ليُدْفَن في ظاهر حلب بالقرب من مشهد الهروي، خارج باب المقام جنوب حلب. وهو -الآن- في حيّ الفردوس، قُرب مدرسة ورباط صَيِّفَة خاتون بنت العادل.

8 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 155، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 429.

1 - الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 1 / 195 / 2.

2 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 135.

المبحث الثاني

الأشرف موسى ملك الجزيرة

بعد وفاة العادل عام 615 هـ 1218م، حدثت التجزئة الثانية للدولة الأيوبية، وانعكست بأوضح صورها في الجزيرة، التي كانت شبه موحدة تحت سلطة العادل وأبنائه، الذين هم نواب له فيها، وأصبح الملك الأشرف بن العادل ملك الجزيرة بلا منازع، فهو أكبر قوة فيها، وصاحب معظم بلادها، وعلى الفرات كان لأخيه الحافظ أرسلان شاه إمارة صغيرة تتشكل من قلعة جعبر وبلدة بالس⁽¹⁾. ونستطيع أن نُميّز في حكم الأشرف للجزيرة أربعة مراحل:

المرحلة الأولى:

بدأت علاقة الملك الأشرف بالجزيرة الشامية عندما وضع والده السلطان العادل تحت إمرته قوة عسكرية عام 599 هـ 1203م، ووجهه لاحتلال ماردين، ومع أن الحملة لم تضطر للقتال، فقد حققت مكسباً كبيراً؛ إذ قام صاحب ماردين بطلب وساطة الظاهر غازي صاحب حلب للصُلح مع السلطان العادل، وتم الأمر على أن يدفع للسلطان مائة وخمسين ألف دينار، ويدخل تحت طاعته بإعلان الخطبة، وضرب السكة باسمه⁽²⁾. وكانت حملة الملك الأشرف أداة ضغط فعالة لقبول صاحب ماردين الخضوع للسلطان العادل، وبالوقت نفسه؛ مهدت لصعود نجم الملك الأشرف في الجزيرة.

لكن السعد الحقيقي للأشرف جاء بمبادرة منه عندما قرر التصدي لهجوم الأتابك نور الدين صاحب الموصل، الذي غرر به أمراء الشام اللاجئين إليه، وهونوا له أمر الملك الأشرف، فكان اللقاء قرب بلدة باشزى⁽³⁾، وبالكاد؛ نجح نور الدين بنفسه نحو الموصل، وأخذت جنوده ما بين أسير وقتيل، فسير الملك الأشرف يعلم والده السلطان العادل، "فاستعظم العادل ذلك، وما صدقه"⁽⁴⁾. وكما برع الملك الأشرف في قيادة المعركة العسكرية، ضد أتابك الموصل، برع

1- الأعلام الخطيرة، ابن شداد، 453 / 2 / 3، والشُّلوك، المقرئ، 271 / 1.

2- المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 80.

3- باشزى: بلدة قرب الموصل بين جزيرة ابن عمر ونصيبين، فيها سوق، وتقصدها القوافل. (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: باشزى).

4- المنصوري، ابن نظيف، 40 - 41.

- أيضاً - في توجيه الدقة السياسية، واستغلال نتائج نصره، فقد رتب معاهدة صلح في أوائل عام 600 هـ 1204م، مع الأتابك، وتحالفاً معاً⁽¹⁾، ليتحوّل الملك الأشرف، وقبل أن يؤليه والده إقطاعاً في الجزيرة، إلى الرجل الأوّل فيها، وإلى سلطان حقيقي لها. وبعد استتباب الأمر للعادل وتوليّه سلطنة الأيوبية في الشام ومصر ولّى ابنة الأشرف موسى على معظم ممتلكاته الجزيرة، وكانت قاعدتها حرّان، ووضع معه أخاه الأوحّد في ولاية ميّافارقين، وابنه الحافظ في قلعة جعبر، ومعها بالس⁽²⁾.

المرحلة الثانية:

بدأت عام 598 هـ؛ حيث حكم نائباً عن أبيه على ولاية الجزيرة، وفيها ظهرت شخصيته السياسية والعسكرية، وتميّزت بالنجاح، فقد حالفه التوفيق في كلّ تحالفاته السياسية ومعاركه العسكرية، وتعدّ هذه المرحلة جزءاً من دولة العادل.

المرحلة الثالثة:

وهي المرحلة الأساسية والهامة للأشرف وللجزيرة. بدأت عام 615 هـ 1218م، وفيها انفرد بالحكم بعد موت والده العادل، ونشطت فيها العلاقات السياسية والتحركات العسكرية لدولته الجزيرة مع كلّ الإمارات المجاورة، إن كانت أيوبية، أو غيرها.

في عام 616 هـ 1219م، توفي نور الدين صاحب الموصل، وقام الوصي بدر الدين لؤلؤ، وخطب للسلطان الكامل، وللملك الأشرف⁽³⁾، بما يعني وضع نفسه تحت طاعتها، وطلب حمايتها له، فقد كان لؤلؤ يدرك الأطماع التي سيواجهها في تدبيره لدولة صبي صغير. وفعلاً؛ فقد تحرّك زنكي ابن عز الدين مطالباً بأن يكون هو الوصي على ابن أخيه في الموصل، ودعمه مظفر الدين صاحب إربل الذي رآها فرصة طيبة للتدخل في شؤون الموصل، فسارع لؤلؤ لطلب نجدة الملك الأشرف⁽⁴⁾، ولكن الملك الأشرف كان مشغولاً عن الموصل بالحلف الذي شكّله كوكبري ضده في الجزيرة، فقد راسل ملوكها، وكان من أبرز من لبّى دعوته، كيكاوس سلطان سلاجقة الروم، وصاحب آمد

1- المنصوري، ابن نظيف، 41.

2- الأعلام الخطيرة، ابن شداد، 453 / 2 / 3.

3- زبدة الحلب، ابن العديم، 649 / 2.

4- زبدة الحلب، ابن العديم، 649 / 2.

وحصن كيفا، وصاحب ماردين، وكان الاتفاق بينهم على أن يكونوا في طاعة كيكافوس، ويخطبوا له، كما أكمل كوكبري الحلقة بأتصاله بأمراء جند الملك الأشرف، فانحاز إليه بعضهم، وتركوا الملك الأشرف، وساروا للقاء صاحب آمد؛ لمنع الملك الأشرف من الحركة لمساعدة الموصل. ولكن؛ حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد تراجع صاحب آمد عن الحلف، وعاد إلى طاعة الملك الأشرف⁽¹⁾، ولا بُدَّ أن الثمن الذي حصل عليه صاحب آمد من الملك الأشرف، وهو مدينة حاني وجبل جور، كان سبب انقلاب موقفه. ومرة أخرى؛ ثبت الملك الأشرف أنه ملك الجزيرة بلا منازع، فما يعجز عنه بالقوة العسكرية يستطيع تحقيقه بالتناورات السياسية، فانحلَّ حلف كوكبري، وعاد الجميع إلى طاعة الملك الأشرف⁽²⁾، لقد وجَّه الملك الأشرف جهده السياسي نحو أضعف نقاط الحلف، وهو صاحب آمد، وتمكَّن من شرائه، فضرب الحلف بأكمله.

وجاء ردُّ الملك الأشرف على الحلف السابق سريعاً وناجحاً، ففي مطلع عام 617 هـ 1220 م، استغلَّ لجوء ابن المشطوب إلى سنجار، وسار إليها، فتسلَّمها من صاحبها⁽³⁾، وعوَّضه الرقة⁽⁴⁾، يقول أبو الفداء: "وهذا من سعادة الملك الأشرف، فأباه نازل سنجار في جُحُوع عظيمة، وطال عليها مقامه، فلم يملكها، وملكها ابنه بأهون سبب"⁽⁵⁾. ويقول ابن واصل: "وهذه الواقعة من مجلَّة سعادته الخارقة، فإن أباه العادل نازها في جميع مُلُوك أهل بيته، فلم ينل منها غرضاً، وأخذها الملك الأشرف عفواً بلا تعب". ثمَّ أخذ الملك الأشرف الرقة بعد ذلك⁽⁶⁾، وتابع زحفه نحو الموصل لدعمها، ممَّا أجبر كوكبري لعقد الصلح مع صاحبها، ثمَّ التفت الملك الأشرف إلى صاحب قرقيسيا⁽⁷⁾، فقبض عليه، وأخذها منه⁽⁸⁾. كما استولى على دنيسر⁽⁹⁾.

1- الكامل، ابن الأثير، 12 / 442.

2- الكامل، ابن الأثير، 12 / 443.

3- كان صاحب سنجار هو الملك الأجد محمود بن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي.

4- دَبَل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 2 / 122.

5- المختصر، أبو الفداء، 3 / 125.

6- مُفَرِّج الْكَرُوب، ابن واصل، 4 / 73.

7- قرقيسيا: مُعَرَّب كركيسيا من كركيس، وتعني الحلبة، تقع على نهر الخابور قرب الرجة. (مُعْجَم الْبُلْدَان، ياقوت الحموي، مادة: قرقيسيا).

8- زُبْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 651.

9- المختصر، أبو الفداء، 3 / 125، - دنيسر: بلد مشهور من نواحي الجزيرة قرب ماردين. (مُعْجَم الْبُلْدَان، ياقوت الحموي، مادة: دنيسر).

العلاقات الجزرية للأشرف موسى:

في عام 617 هـ 1220 م، "أَقْطَعَ الأشرفُ موسى مدينةَ خِلاط وجميع أعمال أرمينية ومدينة مَيَّافارقين في ديار بكر ومدينة حاني أخاه شهاب الدين غازي، وأخذ منه الرُّها ومدينة سروج"⁽¹⁾، "وجعله وليَّ عهده في البلاد، التي له جميعها، وحلَّف له النُّواب والعسكر"⁽²⁾.

ويبدو أن الأشرف كان يرغب في تقوية مركز أخيه شهاب الدين غازي، وتدريبه على الحُكم، ورُبَّما كان ذلك إعداداً له ليكون خليفته ووريثه، فالأشرف لم ينبج خلال حياته سوى بنت واحدة، ومشكلة الوراثة كانت مشكلة تحتاج للكثير من التفكير والتدبير. وقد أتى هذا التدبير في وقت بالغ الحرج بالنسبة للأشرف، وبالنسبة لكلِّ الممالك الأيوبية، فبعد تسيير الأشرف لأخيه غازي إلى خِلاط جمع عسكره، وتوجَّه إلى مصر، فدمياط كانت قد سقطت بيد الفرنج، ومصر مهدَّدة بالسُّقوط، وبالتالي؛ كامل المملكة الأيوبية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ كان هناك خطر، رُبَّما يكون أكبر، لكن؛ بتقدير الأشرف كان خطراً يُمكن تأجيل مُواجهته لما بعد مُواجهة خطر الفرنج، "فلما أتاه رُسُلُ الكرج يطلبون المُوافقة لردِّ التَّتر، اعتذر بالمسير إلى مصر، وقال لهم: إني قد أَقْطَعْتُ ولايةَ خِلاط لأخي، وسيرتُهُ إليها؛ ليكون بالقرب منكم، وتركتُ عنده العساكر، فمتى احتجَّتم إلى نصرته حضر لدفع التَّتر"⁽³⁾. ويبدو من هذا الجواب أن الأشرف لم يكن يُقدِّر خطر التَّتر حقَّ قدره، رُبَّما لعدم وُجُود معلومات كافية لديه عن قوَّة التَّتر، إضافة إلى أن الاحتكاك المُباشر معهم لم يكن قد حصل بعد.

وكان الأشرف في مسيره إلى مصر شبه مُجبر تجاه المُلُوك والأمراء الأيوبيين، وخاصةً تجاه إلهاح أخيه المُعظَّم صاحب دمشق، الذي حضر إليه في مطلع عام 618 هـ 1221 م، واجتمع به عند حَرَّان، وأقنعه بالمُساهمة في الحملة ضدَّ الفرنج، فقد "كان الأشرف مبايناً لأخيه الكامل في الباطن"⁽⁴⁾.

ولكن؛ بعودة الأشرف من غُزاة دمياط عام 620 هـ 1223 م، تغيَّر موقفه كُلِّياً من اخوته؛ إذ يبدو أن هُناك اتِّفاقاً تمَّ بعد دمياط بينه وبين الكامل صاحب مصر ضدَّ المُعظَّم صاحب دمشق، وكان

1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 399.

2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 412.

3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 399.

4- دَبَل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 128.

انعكاس ذلك في الساحة الجزرية أن المعظم - الذي وجد نفسه محصوراً بين أخويه الكامل من الجنوب والأشرف من الشمال - بدأ التحرك في الجزيرة لإثارة المتاعب في وجه الأشرف. ففي عام 623 هـ 1226م، ورد على المعظم رسول مظفر الدين بن زين الدين كوكبوري بن علي كوجك، صاحب إربل، يغريه بغزو مدين الشام حصص وحماة، لأن ملوكها كانوا يداً واحدة مع الأشرف⁽¹⁾، وإن مظفر الدين سيشغل الأشرف عن الجزيرة بخروجه إلى الموصل⁽²⁾.

بدأ المعظم خطته مع أخيه شهاب الدين غازي، نائب الأشرف في خلاط، فحرّضه على عصيان الأشرف، واستماله نحوه⁽³⁾. وحاول الأشرف تدارك الأمر، فطلبه ليُقدّم إليه بحرّان، "فامتنع، وأظهر العصيان، فجمع الأشرف عساكر الشرق، وسار إلى خلاط"⁽⁴⁾. فخرج غازي، وقتله، فهزم، وهرب إلى خلاط، التي فتحتها أهلها للأشرف، فتحصّن غازي بالقلعة، وطلب العفو من أخيه، فأجابته، وأبقى عليه ميّافارقين فقط⁽⁵⁾.

يبدو - للوهلة الأولى - أن عصيان غازي لأخيه الأشرف حركة خرقاء لا معنى لها، ولكن؛ بالتأكيد، كان لغازي دوافعه القويّة لهذا التصرف، ومرتكزات بدت له ثابتة لتأمين النجاح، إنّه - بالتأكيد - كان يدرك قوّة الأشرف في الجزيرة، وتحالفه مع الكامل صاحب مصر أقوى وأكبر الممالك الأيوبيّة، وقبل كلّ ذلك فالأشرف هو صاحب الإحسان إليه، بنيابته في خلاط، وبجعله وليّ عهده. ولكن؛ إذا وسّعنا دائرة الرؤية خارج الجزيرة فإننا نرى أن هناك ما شجّع غازي على العصيان، فالمعظم ومعه قووات دمشق يُشكّلان سداً منيعاً بوجه الكامل، وقووات مصر التي لن تستطيع نجدة الأشرف، الذي سيواجه حليفهم الثالث مظفر الدين صاحب إربل، الذي سيتحرّك في شمال العراق، وعلى حدود دولة الأشرف الشرقيّة، فيعيقه عن مهاجمة غازي، الذي وزّع عسكره على الحصون، وانتظر تحرك الحلفاء⁽⁶⁾.

1 - مفرّج الكرب، ابن واصل، 4 / 176.

2 - المنصوري، ابن نظيف، 125.

3 - زبدة الحلب، ابن العديم، 2 / 657.

4 - ذيل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، أحداث عام: 620 هـ، 20 / 257.

5 - زبدة الحلب، ابن العديم، 2 / 657، وتاريخ البغدادي ورحلته، الموفق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20 / 273.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 422.

أمّا إنعام الأشرف عليه بولاية كبيرة وتوليته عهده؛ فإن غازي ربّما كان يدرك أن الأشرف قد يستردّها منه في أيّ وقت، وربّما كان يستعجل الأمور، فلا يريد أن ينتظر حتّى وفاة الأشرف، وفي هذه الحالة - أيضاً - لا شيء مضمون، فالقوّة والتحالفات الجيدة هي التي تضمن السيطرة والتحكّم بالولايات، وليس عهداً قد يكون لا قيمة له؛ إذ لم يُقرّه سلطان مصر والملوك الآخرون من بني أيوب، بل وربّما الملوك المجاورون من خارج البيت الأيوبي. لكنّ الذي لم يُقدّره غازي بشكل صحيح هو قوّة خلفائه، فالمعظم لم يستطع التحرك من دمشق بعد أن هدّده الكامل والأشرف أنّهم سيقصدونه، ويأخذون دمشق إن تحرّك منها⁽¹⁾، أمّا مظفر الدين؛ فقد تحرّك من إربل نحو الموصل وهي في حلف الأشرف، فحاصرها "عشرة أيّام بلا طائل، ولما لم يتحرّك أحد عاد"⁽²⁾.

فشلت خطط المعظم ضدّ الأشرف في الجزيرة، فغازي كان أمره هيئاً، وانتهى عصيانه بفشله السريع، أمّا مظفر الدين كوكبوري؛ فهو بعيد نسبياً، ولم يستطع أن يُحقّق أيّ نجاح ضدّ الموصل حليفة الأشرف، لذلك؛ امتدّت أنظار المعظم نحو قوّة كبيرة في الشرق هي الدولة الخوارزمية، التي كانت قوائها تراجع غرباً نحو بلدان الجزيرة تحت ضغط تقدّم التتار، فاتّصل المعظم بالخوارزمي جلال الدين منكبرتي طالباً التحالف معه ضدّ الأشرف وخلفائه في الجزيرة.

وبعد توثيق التحالف بين المعظم والخوارزمي طلب المعظم منه منازلة خلاط، أكبر مدين مملكة الأشرف، ليشغله عن التفكير بمهاجمة دمشق، فتحرّك الخوارزمي عام 623 هـ 1226م، نحو خلاط، وحاصرها أربعين يوماً⁽³⁾. وأمام قوّة الخوارزمي الكبيرة فضل الأشرف أسهل الطُرق، فذهب إلى أخيه المعظم، وأظهر له الخُضوع، "وسأله أن يسأل الخوارزمي أن يرّحل عن خلاط... فبعث المعظم، ورّحل الخوارزمي"⁽⁴⁾.

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 422.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 422.

3 - تاريخ البغدادي ورحلته، الموفق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20 / 284.

4 - ذيل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، أحداث عام: 623 هـ، 20 / 384. - ويقول ابن العديم: "كان الأشرف في دمشق... فوردت الأخبار بتزول خوارزم شاه على خلاط، ومحاصرتها... فوافق الأشرف أخاه على ما طلبه منه، ورّحل خوارزم شاه عن خلاط". (زبدة الحلب، ابن العديم، 2 / 661)، ونحن نرجّح أن يكون الأشرف قد توجّه إلى دمشق بعد حصار الخوارزمي لخلاط.

اتفاق الملك الأشرف والملك الكامل عقب نصر دمياط:

ذهب الملك الأشرف إلى مصر لنجدة أخيه الكامل بعد احتلال الفرنج لدمياط، مع أنها كانتا على تباعد في الرأي والمصلحة، فقد كان ذهاب الملك الأشرف تحت ضغط وإلحاح أخيه الملك المعظم، الذي كان على أنتم اتفاق وتفاهم معه. ولكن؛ بعد عودة الملك الأشرف من مصر انقلبت الميول، وبان للعيان اتفاق الملك الأشرف مع الكامل لتحديد الملك المعظم عن الساحة.

عام 618 هـ 1221م، عادت الملوك الأيوبيّة وجيوشهم بعد انتصارهم في واقعة دمياط، وبقي الملك الأشرف عند الكامل، ولم يشر أي من مؤرخي أحداث هذه الفترة إلى أي مباحثات، أو اتفاق جرى بين الأخوين، مما أدى لتبديل مواقفهما تجاه بعضهما، وتجاه بقية الأخوة أبناء العادل. ولكن تجربات الأحداث تدل على أن مباحثات سرّية - وغالباً على انفراد - بين الكامل والملك الأشرف قد جرت، وأن اتفاقات سياسية وعسكرية عدّة قد تمخّضت عنها تلك المباحثات، وإن كنّا لا نعرفها بالتحديد، لكنّ خطوطها قرئت من خلال تصرفات الأخوين السياسيّة والعسكريّة اللاحقة.

وكان لذلك الاتفاق غير المُعلن نتائج على غاية من الأهميّة في الشّام والجزيرة. كان أول عمل قام به الملك الأشرف فور عودته من غزاة دمياط إلى الجزيرة في العام نفسه 618 هـ 1221م، هو انتزاع الرقّة من يد الأجد محمد بن قطب الدّين، وكان قد عوّضه بها بدلاً عن سنجار، وأقام الملك الأشرف في الرقّة⁽¹⁾، ولا ندري لم قام بهذا العمل؟ وفي هذا الوقت بالذات؟ إلا أن يكون قد بيّت نزاع الرقّة منه قبل سفره إلى دمياط، وبعد فراغه من خطر الفرنج، وانشغاله بهم، عاد، واستردّها.

أصداء التحالف في الجزيرة:

عندما شعر الملك المعظم بالتقارب بين أخويه، قدّر أنّه سيدفع من مملكته ونفوذه ثمنَ هذا التقارب، فبدأ يتلمّس طرقاً للردّ على تحالف أخويه، وبالتأكيد؛ فكّر الملك المعظم بكُل من حوله من الملوك، وكانت الساحة أمامه كما يلي:

1- مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 105.

1- إخوته الآخرون: مُعظمهم أصحاب قلاع وبلدان صغيرة، ولا يُشكّلون إلا قوّة تأثير بسيطة، ما عدا أخيه المُظفّر غازي صاحب خلاط، فاتّصل به، وحسّن له الخُروج على الملك الأشرف، والانضمام إليه، ولا ندري بما وعده! فهل وعده بمُلْك الجزيرة بعد إزاحة الملك الأشرف؟! وفي الحقيقة؛ يجب أن يكون الوعد بهذا المُستوى، فغازي ولى عهد الملك الأشرف⁽²⁾، وصنيعته، ويعرف أنّه سيخلفه بعد موته؛ إذ لا وارث له، ومع ذلك، جعله الوعد يُقدم على الخُروج عليه.

2- مُلُوك بني أيّوب وابن عمّهم المُجاهد: وكانوا كُلّهم محالفين للأشرف، وبدأ واحدة معه⁽³⁾.

3- صاحب حلب الملك العزيز مُحمّد طفل صغير ووصيّهُ طغريل مُتفق بشكل كامل مع الملك الأشرف.

4- في حماة الملك النَّاصر قليج أرسلان مُتحالف مع الملك الأشرف، الذي يضمن له مُلكه، فقد اغتصب حقّ أخيه المُظفّر في ملك حماة بعد موت أبيه.

5- الملك المُجاهد صاحب حمص، كان من أفضل حلفاء الكامل، وأقواهم، يُطلعه الكامل على مُراسلاته⁽⁴⁾، ويُشاوره⁽⁵⁾، ولا تنقطع هدايا الكامل إليه⁽⁶⁾.

إذاً؛ على الملك المعظم أن يلتفت خارج البيت الأيوبي من أجل تأمين دعم قوي يكسر عنه طوق أخويه من الشمال والجنوب، فامتدّت أنظاره نحو مُظفّر الدّين كوكبري بن زين الدّين كجك صاحب إربل، فالموّدة بينهما سابقة.

وكان كوكبري قد طلب من الملك المعظم عام 622 هـ 1225م، إرسال ابنه ووليّ عهده النَّاصر داود ليقيم لديه في إربل⁽⁷⁾، فاعتمد الملك المعظم على وجود ابنه في بلاط المُظفّر، وأرسل له

1- مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 138.

2- زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657.

3- مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 176.

4- المنصوري، ابن نظيف، 147.

5- السُّلُوك، المقرئزي، 1/ 261.

6- السُّلُوك، المقرئزي، 1/ 262، والمنصوري، ابن نظيف، 157 + 258.

7- المنصوري، ابن نظيف، 110.

عام 623 هـ 1226م، رسولا يشرح حال الشام، ويعرض عليه التحالف معه⁽¹⁾، وعاد الرسول بجواب الرسالة، التي عرفنا أنها كانت بالموافقة نتيجة للأحداث اللاحقة. كما قام الملك المعظم بمراسلة الملك المسعود بن الصالح الأرتقي صاحب آمد، وطلب منه التحالف ضد الملك الأشرف، فوافق، واتفقا على ذلك⁽²⁾.

واتفق الملك المعظم مع أكبر قوة خارجية كانت تلوح في الأفق الشمالي الشرقي وهي الدولة الخوارزمية، فقد راسل السلطان جلال الدين، وحالفه، ونتيجة للخوف من قدوم جلال الدين إلى المنطقة تحركت القوة الخارجية الثانية، وهي دولة سلاجقة الروم، فحالف سلطانها كيقيباذ الملك الأشرف⁽³⁾.

وأتضح في المنطقة معالم حلفين كبيرين، الأول: دبره ورتبه الملك المعظم، وأكبر قوة فيه الدولة الخوارزمية، ومعهم مظفر الدين صاحب إربل، والمسعود صاحب آمد والمظفر غازي صاحب خلاط.

أما الحلف الثاني؛ فهو حلف انتظم فيه معارضو الحلف الأول، وفيه - حكماً - الملك الكامل وأخاه الملك الأشرف، وحليف الملك الأشرف القديم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وانضم إليهم كيقيباذ سلطان سلاجقة الروم.

بدأ التحرك العملي لحلف الملك المعظم، بإعلان المظفر شهاب الدين غازي العصيان على أخيه الملك الأشرف في خلاط، فسار إليه الملك الأشرف، وحاصره، وأنزله من قلعتها بالأمان، فاستردّها منه، وأبقى عليه ميثاقين فقط⁽⁴⁾.

أما مظفر الدين كوكبري؛ فقد سار من إربل بجيوشه، وألقى الحصار على الموصل، وكان فيها بدر الدين لؤلؤ حليف الملك الأشرف⁽¹⁾، ومعظم جنده في نجدة الملك الأشرف الذي كان يحاصر أخاه المظفر في خلاط، فحاصر كوكبري الموصل عشرة أيام، ثم رحل عنها، بعد أن علم بسقوط خلاط بيد الملك الأشرف⁽²⁾.

أما الملك المعظم؛ فقد وصله رسول كوكبري بخروجه إلى الموصل، وفقاً للاتفاق، طالباً منه التحرك لأخذ مدن الشام، فقاد الملك المعظم جيشه، وتوجه إلى حمص، وكانت في غاية القوة، فلم ينل منها طائل⁽³⁾، وأوعز الملك الأشرف إلى حليفه الرومي كيقيباذ ليتحرك صوب آمد، ويحاصرها، فسير كيقيباذ صوبها عسكرياً، فاحتلوا قلعة الكختا⁽⁴⁾، فراسل صاحب آمد الملك الأشرف، وأعلن الطاعة، وللمرة الثانية؛ يعود صاحب آمد عن مواقفه، فطلب الملك الأشرف من علاء الدين كيقيباذ الكف عن آمد ورد ما أخذ منها، فرفض، وأدى الأمر إلى اشتباك بين عساكر الملك الأشرف القادمين لنجدة آمد وعساكر كيقيباذ، فانتصرت عسكر سلاجقة الروم، واحتلوا حصناً جديداً لآمد هو حصن منصور⁽⁵⁾.

وبالمقابل؛ طلب الملك المعظم من حليفه الخوارزمي مهاجمة خلاط، فحاصرها الخوارزمي أربعين يوماً. ولما قصد الملك الأشرف الملك المعظم، والتقاء في دمشق، أرسل الملك المعظم إلى الخوارزمي يطلب منه ترك حصار خلاط، فأجابه، ورحل عنها⁽⁶⁾. فلماذا لم يوافق الرومي حليفه الملك الأشرف، ولم يرحل عن آمد، بينما وافق الخوارزمي على طلب حليفه الملك المعظم، ورحل عن خلاط؟!

1 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 134.

2 - مفرج الكروب، ابن واصل، 4 / 138.

3 - المنصوري، ابن نظيف، 125.

4 - قلعة الكختا: من بلاد الجزيرة كانت تتبع آمد، وهي قلعة عالية البناء لها بساتين ونهر، تبعد عن ملطية مسيرة يومين. (تقويم البلدان، أبو الفداء، 263).

5 - مفرج الكروب، ابن واصل، 4 / 203، - حصن منصور: من ثغور الجزيرة، يحاذي الفرات، وينحدر النهر الأزرق من شماله الغربي. (بلدان الخلافة الشرقية، كي لسترانج، ترجمة: بشير فرنسيس، 215).

6 - تاريخ البغدادى ورحلته، الموفق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20 / 284، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 136، وزبدة الحلب، ابن العديم، 2 / 661.

1 - المنصوري، ابن نظيف، 124، - الرسول هو الشرف بن عنين الشاعر المعروف بالهجاء الدمشقي.

2 - مفرج الكروب، ابن واصل، 4 / 202.

3 - مفرج الكروب، ابن واصل، 4 / 203.

4 - تاريخ البغدادى ورحلته، عبد اللطيف البغدادى، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20 / 273، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 134، ومفرج الكروب، ابن واصل، 4 / 138، - حيث يقول ابن واصل: "وهذه مكرمة للبيت الأيوبي، لم يكن مثلها لأحد من الملوك قبلهم، وخُصّواً آل سلجوق، فإذا ظفر أحد منهم بأخيه أو ابن عمه الخارج عليه، إنما أن يوسطه بالسيف، أو يخنقه بوتر القوس، وأحسن أحواله أن يعتقله، ويضيق عليه، إلى أن يموت كمداً".

إن الرومي كان يُحقق انتصارات، ويستولي على حصون، في ظل وضع مثالي من الفوضى في الجزيرة، وتضارب المصالح، التي صبّت كلها ضمن سياسته التوسعية في الجزيرة، كما كان يُدرك - تماماً - ضعف الملك الأشرف عن مواجهته، وخاصة بعد أن توزعت قوّاته ما بين الجزيرة؛ حيث ثبت هُجوم الخوارزمي قوّات الملك الأشرف في خلاط، وبين حماية حمص وحماة من هُجوم الملك المعظم عليهما⁽¹⁾.

بينما نجد أن الخوارزمي قد قبل لأنه واجه مصاعب كبيرة في خلاط، فرغم دُخوله رibus البلدة، فقد واجهته مقاومة عنيفة، كلفتته خسائر كبيرة، هو في غنى عنها⁽²⁾، كما أنه كان غير مُطمئن لخطوطه الخلفية، فخلقه التّكّار في الشرق، وهو يُريد أن يتفرّغ لهم بأقصى سرعة، لذلك؛ اغتنم طلب الملك المعظم، ورحل ببعض الكرامة من أمام خلاط.

نتيجة لتعقد الوضع السياسي والعسكري في شمال الشّام اتفق الملك الأشرف والملك المعظم على اللقاء، وأن "يرحل كلُّ منهما عن الموضع الذي يُحاصره"، فالتقيا في القريتين، وسار الملك الأشرف مع الملك المعظم حتّى دخلا دمشق⁽³⁾.

ويبدو من هذه الأحداث وتطوّراتها أن الملك الأشرف هو صاحب فكرة الاجتماع "قصداً لقطع مادّة الشّر"⁽⁴⁾، وهو الذي سار إلى الملك المعظم، وذهب معه إلى عاصمته دمشق، وأظهر الملك المعظم السرور بذلك، وزين البلد⁽⁵⁾، ولكن؛ هل هو سرور بقاء أخيه؟ أم بحُصوله عليه كالأسير بأسير الطّرق؟ "فحاله في الباطن بخلاف ما أظهر، والرّسل مُتردّدة بينه وبين خوارزم شاه..... وصار بينهما اتّحاد كُلي"⁽⁶⁾، وفي عام 623 هـ 1226 م "كان الملك الأشرف في دمشق كالأسير...

فوردت الأخبار بنزول خوارزم شاه على خلاط، ومُحاصرتها... فوافق الملك الأشرف أخاه على ما طلبه منه"⁽¹⁾، فأطلقه، وعاد الملك الأشرف للجزيرة.

المرحلة الرابعة:

بدأت بوفاة المعظم عام 624 هـ 1227 م، وأخذ الأشرف دمشق، وتسليمه بعض مُدن الجزيرة للكمال عام 626 هـ 1229 م. لم يكن الناصر داود بن المعظم يملك مؤهلات والده، فبعد أن خلفه في حُكم مملكة دمشق، عرض عليه الأشرف الانضمام إلى حلف الشّام ضدّ الكامل، فأبى، وانحاز إلى الكامل⁽²⁾. لكنّ الكامل كشف سريعا عن أطماعه بدمشق، وسار نحوها عام 625 هـ 1228 م، فاستنجد داود بمعّمه الأشرف، فسارع إليه مع المُجاهد، ولكنّها بدل دُخول دمشق، أو الإقامة حولها للدفاع عنها، التقيا الكامل، وعقدا مؤتمر العوجا، الذي تقرّر فيه نزح دمشق من داود، وتسليمها للأشرف، مُقابل تسليم الأشرف للكمال عدّة بلدان في الجزيرة، منها: الرقة، والرّها، وغيرها⁽³⁾.

ومتناز هذه المرحلة بنزوع الأشرف إلى حياة الترف والدعة بدمشق، وتحول القوّة الكُبرى في الجزيرة من الأشرف إلى الكامل، الذي كانت مُشكلته مع الجزيرة هي مُشكلة المسافة والبُعد عنها، وغالباً ما كانت تسبقه الأحداث إليها.

وكان الكامل قد أرسل إلى فريدريك يعده بالقدّس إن حضر لنصرته ضدّ أخيه الملك المعظم، ولكن أيّام الملك المعظم لم تطل، فقد توفّي عام 624 هـ 1227 م، وخلفه ولده الناصر داود في دمشق، ممّا سهل مهمّة الملك الأشرف والكامل في أخذ مملكته. ففي سنة 625 هـ 1228 م، تحرّك الكامل من مصر "وأرسل داود يستدعي الملك الأشرف من بلاده الشرقيّة.... ودخل الملك الأشرف دمشق، فأعجب بها، وعمل في الباطن على انتزاعها لنفسه"⁽⁴⁾، بينما وثق داود بالملك الأشرف، "مما خدعه بعذوبة لسانه، فسيرّه إلى الملك الكامل، معتمداً في إصلاح أموره عليه، فلم يأل جهداً أن ساق

1- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 661.

2- مُفَرِّجُ الْكُرُوب، ابن واصل، 5/ 125.

3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 479.

4- السُّلُوك، المقرئ، 1/ 350.

1- مُفَرِّجُ الْكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 461.

3- المنصوري، ابن نظيف، 125، - القريتين: بلدة في البادية جنوب شرقي حمص.

4- مُفَرِّجُ الْكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

5- مُفَرِّجُ الْكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

6- مُفَرِّجُ الْكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

الحصار"⁽¹⁾. ورُبَّما كان الأمر قد تقرر مسبقاً بين الملك الأشرف والكمال، وأرادا تطبيقه ضدَّ الملك المُعظم، فلَمَّا مات، طبَّقه ضدَّ ابنه داود، فأخذاه منه دمشق، ونَفَّذا الاتفاق.

وفي عام 626 هـ 1229م، تسلَّم الملك الأشرف دمشق، وأعطى للكمال - عوضاً عنها - حرَّان، والرَّها، ورأس عين، والرقَّة، والموزر، وبذلك؛ دخل الكامل عالم الجزيرة الشَّاميَّة من أوسع أبوابه، وأصبح القُوَّة السِّيَاسيَّة والعسكريَّة الأكبر في البلاد الجزرية، بعد أن تخلَّى الملك الأشرف له عن مواقعه بها. ويبدو أن الملك الأشرف "اقتنع بدمشق، واشتغل باللهو والملاذ"⁽²⁾، وأهمَل أُمُور الجزيرة، ولكن الغريب في الأمر أنَّه - في الوقت نفسه - أخذ موقع زليبا من أخيه الحافظ، وأمر بعمارة قلعة فيه⁽³⁾. فهل هي محاولة من الملك الأشرف لإثبات الوجود في الجزيرة؟!

كان أوَّل مَنْ أسفر عن مطامعه في الجزيرة بعد تبدُّل الأوضاع فيها هو جلال الدِّين الخوارزمي، فقد هاجم خِلاط، وحاصرها، وحالف الخوارزمي، وأنجده، وهو على حصار خِلاط، كُلٌّ من صاحب سرماري، وصاحب أرزن الرُّوم⁽⁴⁾. وطال حصار الخوارزمي لخِلاط دون أن يتحرَّك الملك الأشرف لنجدتها، رُبَّما لأنَّه مشغول بتقرير أمر دمشق، وتأمين ما حولها، ففي الوقت الذي كان فيه الخوارزمي يُحاصر خِلاط كان الملك الأشرف يُحاصر بعلبك⁽⁵⁾، أو - رُبَّما - لأنَّه يعرف مسبقاً أن لا طاقة له بالخوارزمي دون تحالف قوي يدعمه، وهذا التحالف لم يتمكَّن من تحقيقه بسُرعة، وإلَّا فكيف تُفسَّر تخليُّه عن خِلاط المدينة الغنية ذات الموقع الاستراتيجي؟!

وفي عام 627 هـ 1230م، تمكَّن خوارزم شاه من دُخُول خِلاط بخيانة من القائد المُكلَّف بحراسة أحد الأبواب⁽⁶⁾، ولحقته من المقاومة الشرسة التي واجهته "فعل بأهلها ما يفعله التَّتر"⁽⁷⁾، "فقتل كُلَّ مَنْ وجد في البلد، وسبى عسكره الحريم، وباعوا الأولاد كما يُفعل بالكفَّة"⁽⁸⁾.

1 - الفوائد الجلية، الأجد حسين بن داود، 219.

2 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 147.

3 - المنصوري، ابن نظيف، 189، حوادث عام 626 هـ.

4 - المنصوري، ابن نظيف، 83.

5 - المنصوري، ابن نظيف، 189.

6 - مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 294.

7 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 146.

8 - مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 294.

"وبلغ الملك الأشرف أخذ الخوارزمي خِلاط، وهو بدمشق، فخرج على وجهه، حتَّى أتى الرقَّة"، "ثمَّ سار إلى حرَّان، وكتب إلى حلب والموصل والجزيرة، فجاءته العساكر، ورحل يُريد الرُّوم"⁽¹⁾، ويبدو أن هذا الدُخُول القوي لخوارزم شاه إلى مسرح الجزيرة قد أزعج كَيْقُبَاز سُلطَان سلاجقة الرُّوم، فخِلاط مفتاح بلاده⁽²⁾. ورُبَّما بسعي من كَيْقُبَاز ورغبة من الملك الأشرف بجمِّع جيشاهما، بعد أن وحَّد الخطر المُشترك بينهما⁽³⁾، وتمكَّنَّا من هزيمة جلال الدِّين، واسترجع الملك الأشرف خِلاط⁽⁴⁾ عام 628 هـ 1231م "وهي خراب يباب، ثمَّ وقعت المراسلة بينهم، وتحالفوا على ما بأيديهم، ولا يتعرَّض أحدهم لما يبيد الآخر"⁽⁵⁾.

ومع أن الكامل كان في الرقَّة فإنَّه لم يُشارك في الحَرْب مع الملك الأشرف ضدَّ الخوارزمي، فهل ذلك لمُجرَّد أن خِلاط من أملاك الملك الأشرف؟ وكان خطر الخوارزمي لن يتعدَّى خِلاط إلى مُمتلكاته في الجزيرة، فقد "رجع الكامل قاصداً مصر"⁽⁶⁾، بلا مُبالاة، وكان أمر الجزيرة لا يعنيه أبداً.

وبعد استرجاع خِلاط، وكفَّ شرَّ الخوارزمي بالاتِّفاق معه، والحلف القديم مع الرُّومي، وجد الملك الأشرف أن الوقت قد صفا له، فتخلَّى عن الجزيرة ومشاكلها للكمال، وتفرَّغ للهوهِ وملذَّاته بدمشق⁽⁷⁾، مُفسِّحاً المجال لأخيه الكامل للتحرُّك في الشَّام والجزيرة، ومُحاولة تحقيق مشروعه الكبير بضَمِّ الشَّام إلى مصر، وتشكيل مملكة واحدة منهما تحت حُكمه.

1 - كنز الدرر، ابن آييك، 7 / 299.

2 - The Encyclopedia of Islam, vol: IV, p 817 - 2

Pre Ottoman, Clud Cahen, p 128-3

4 - مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 299، وذَيْل الرُّوسِيَّين، أبو شامة، 159.

5 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 147.

6 - كنز الدرر، ابن آييك، 7 / 299.

7 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 147.

انقسم عهد السلطان الكامل في الجزيرة الشامية إلى قسمين:

1. مرحلة الوفاق الأيوبي والاعتراف بسلطنة الكامل:

بعد أن أخذ الكامل دمشق عام 626 هـ 1229 م، من ابن أخيه الناصر داود، سلمها لأخيه الأشرف، الذي أعطاه بدلاً عنها عدة مناطق في الجزيرة، منها: حرّان، والرقّة، والرّها، وسروج، ورأس عين، وجلين، والموزر⁽¹⁾.

"وبقي للأشرف من البلاد الشرقية: نصيبين، وسنجار، والخابور، وبلاد خلاط. وكانت ميّافارقين بيد المظفر شهاب الدين غازي أخيهما، وجعبر بيد أخيهما الآخر الحافظ أرسلان شاه"⁽²⁾. وسير الكامل شمس الدين صواب الخادم⁽³⁾، وفخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى الجزيرة، يتسلّمها من الملك الحافظ، ومن بدر الدين قابيا⁽⁴⁾، وكانا ينوبان عن الأشرف فيها.

ولم تمتدّ ممتلكات الكامل من مصر حتّى الجزيرة وحسب، بل اعترف به جميع ملوك بني أيّوب سلطاناً أعظم عليهم، ومرجعاً للبيت الأيوبي دون أن يخرج أيّ منهم عن طاعته، وتحقّق بذلك القسم الأوّل من مشروع الكامل، وهو ضمّ الشام إلى مصر تحت حكمه، وهذا الحلم كان يراود كلّ من شعر بتفوّقه من ملوك بني أيّوب.

ولتحقيق كامل المشروع تحرّك الكامل بقوّاته من مصر عام 629 هـ 1231 م، بعد أن مهدّ لنجاح مشروعه بسلسلة من المصاهرات، ربط بها من يخشى معارضتهم من الملوك الأيوبيّة، فقد زوّج ابنته فاطمة خاتون من الملك العزيز صاحب حلب⁽⁵⁾، كما زوّج الكامل ابنته الأخرى غازية خاتون

1- مفرّج الكروب، ابن واصل، 4 / 257.

2- مفرّج الكروب، ابن واصل، 4 / 257.

3- الخادم شمس الدين صواب العادلي، من كبار مماليك السلطان العادل، تُوفي عام: 632 هـ 1243 م (النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 287).

4- المنصوري، ابن نظيف، 177.

5- المختصر، أبو الفداء، 3 / 160.

من الملك المظفر صاحب حماة، وفي طريقه مرّ بالكرك، فعقد لصاحبها ابن أخيه الناصر داود بن المعظم على ابنته الثالثة عاشورا خاتون. وغطّى الكامل تحرّكه العسكري بإظهار هدف يُمكن قبوله في الشام، ويُسوِّغ به خروجه بهذه القوّة، فقد أعلن أنّه يُريد انتزاع آمد⁽¹⁾ من يد ملكها المسعود بن الصّالح محمود.

وكانت آمد مع قوّة حصونها لا تستحقّ هذا الجمع العسكري الهائل الذي وصل مع الكامل، والذي قال عنه ابن واصل في أحداث عام 631 هـ 1234 م، ما يلي: "شاهدت من العساكر وكثرتها ما غلب على ظنيّ أنّه لم يجتمع مثله في الأعصار القريبة منّا لملك من الملوك"⁽²⁾.

وأثبت صاحب آمد في المحنة التي تعرّض لها مع الكامل أنّه غير جدير، لا بالحكم، ولا بالقيادة، فمع سماعه بتوجّه ملوك بني أيّوب مُجتمعين مع الكامل ضده، وعزمهم على خلعه، أرسل وزيره شرف العلاء بهدايا للكامل والأشرف في حرّان، فاعتقل الوزير، والمسعود صاحب آمد لا يحترز، ولا يستعدّ⁽³⁾.

ويتنقد ابن نظيف تصرّف صاحب آمد الذي لم يُقدّر حجم الخطر القادم نحوه، فقد أرسل رسولاً إلى الملك المُجاهد ليتوسّط له عند الكامل، "ولم ييذلّ إلّا ذهباً، ولا طلب بعض البلاد، ولا نزل عن شيء... ولم يزل في قلّة عقله"⁽⁴⁾.

وحاصر الكامل مدينة آمد بقوّات هائلة الحجم والفعاليّة، وهاجمتها العساكر، ونقبت الأسوار، فطلب أهلها الأمان، فأجابهم الكامل⁽⁵⁾. ونزل صاحبها إلى الكامل، فاعتقله وسجنه في حصن كيفا⁽⁶⁾.

1- تنبع أهميّة آمد من كونها محطة تجارية بالغة الأهميّة بين ثلاث دُول: السّلطنة الأيوبيّة في الجزيرة والشّام، وسلطنة سلاجقة الرّزم في الأناضول، وملكة أرمينيا الصّغرى في كيليكيا. - راجع: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 460، والنجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 10 / 44.

2- مفرّج الكروب، ابن واصل، 5 / 74.

3- المنصوري، ابن نظيف، 236.

4- المنصوري، ابن نظيف، 237.

5- المنصوري، ابن نظيف، 237.

6- ابن دقاق، نزهة الأنام، أحداث عام 623 هـ مخطوط (المنصوري، ابن نظيف، 238 - 244).

وسلم الكامل أمد لابنه الصالح أيوب ليكون نائباً عنه فيها⁽¹⁾، "ورتب معه الطواشي شمس الدين صواب العادلي، لأنه كان من أكبر الخدم العادلية، وأوثقهم عنده، وجعل إليه النقض والإبرام في جميع الأمور، والملك الصالح معه صورة"⁽²⁾، وقصد - بذلك - إبعاد أيوب عن القاهرة، حيث ترك الكامل ابنة الآخر العادل نائباً فيها، وولياً للعهد. وتابع الكامل تسلم القلاع حول أمد⁽³⁾، فصبح بمواجهة مباشرة مع سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقيباذ بن كيخسرو، وكان الصدام بينهما لا يحتاج لأكثر مما هو قائم فعلاً، فالحدود المشتركة بينهما طويلة ومتداخلة، وفي الحقيقة؛ لم تكن هناك حدود واضحة المعالم، وبالتأكيد؛ كان كل منهما يُفسر هذا الوضع لصالحه، إن لم نقل إن كلاً منهما كانت لديه رغبة كبيرة لتعديلها لصالحه، وتبين أن لكل منهما مشاريعه الخاصة في مملكة الآخر، فالرومي كان لا يخفي اهتمامه بالسيطرة على مناطق الفرات شريان الحياة بين الجزيرة والشام، والكامل تكشفت مخططاته لاحتلال بلاد الروم بسيرة⁽⁴⁾.

وكانت المبادرة الأولى من كيقيباذ، الذي اغتنم فرصة هجوم الكامل، وقام باحتلال عدة قلاع كانت تتبع لأمد، منها: كركر، وكرفازاك، والسويداء، شراءاً من متسلميها، فتضاعفت نفمة الكامل على الرومي، الذي أحرقه - أيضاً - بمنعه التركمان عن القدوم لبيع الميرة لعسكره⁽⁵⁾.

وهنا؛ يُقرّر الكامل تنفيذ الجزء الثاني من مشروعه الكبير، والهجوم على دولة سلاجقة الروم واحتلالها، لنقل إقطاعات ملوك الشام الأيوبيين إليها، وضمّ الشام - بشكل كامل - إلى مصر بدولة واحدة، وملك واحد. لكن؛ يبدو أن حسابات الكامل كانت غير دقيقة، فإما أنه قد بالغ في ثقته بنفسه، بالسيطرة الكاملة على الملوك الأيوبيين، الذين ربّما خدعه منهم التفافهم حوله، وتنفيذهم لأوامره، أو سوء تقديره لقوة خصمه الرومي، وبالأخص؛ لطبيعة بلاده، وحصانيتها، واتساعها. ومع أن كل ملوك بني أيوب قاطبة كانوا مع عساكرهم في خدمته، ولم يتخلّف منهم سوى العزيز بن

1- أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 18، والمختصر، أبو الفداء، 3/ 160.

2- مُفرّج الكرب، ابن واصل، 34/ 5.

3- قلاع أمد هي: الجبابرة - أكل - كركر - حصن كيفا - كرفازاك - قلعة نجم - الهيثم - باتاسا - الجديدة - القرشية. (مُفرّج الكرب، ابن واصل، 17/ 5 و 277/ 4).

4- راجع: السياسة الأمنية للسلطان السلجوقي علاء الدين قيقباذ، نورة باذياب، مجلة المؤرخ العربي، 1/ 2.

5- المنصوري، ابن نظيف، 240 - 242.

الظاهر غازي صاحب حلب، وذلك لتحالفه وعلاقته المميزة وجيرته بخدود مشتركة طويلة مع صاحب الروم، ومع ذلك؛ فقد أرسل قطعة من عسكره نجدة للكامل⁽¹⁾.

وكذلك تخلف صاحب بانياس، فقد توفي العزيز بن العادل صاحبها عام 630 هـ 1233م، وخلفه ولده الظاهر، ثم مالبث أن توفي، فخلفه أخوه السعيد ابن العزيز، وهو طفل⁽²⁾.

وحضر مع السلطان الملك الكامل أخوه الملك الأشرف، فقد كانت هذه الحرب بالاتفاق معه أولاً، ولتعرض الرومي لمدينة خلاط وهي للأشرف. وكذلك كان معه الملك الناصر داود بن المعظم صاحب الكرك، والملك المجاهد صاحب حمص، والملك المظفر صاحب حماة، كذلك كان مع الكامل كل من إخوته: الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر، والملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، وكذلك كان مع الكامل الملك الزاهر مجد الدين بن السلطان صلاح الدين صاحب البيرة، وأخوه الملك المفضل موسى صاحب سُميساط، وابن أخيهما الملك الصالح أحمد بن الظاهر صاحب عين تاب، وغيرهم، حتى قيل: "إنه كان في معسكر الكامل ستة عشر دهليزاً ستة عشر ملكاً"⁽³⁾.

2. مرحلة الانقسام الأيوبي، وحلف الشام ضد السلطان الكامل:

لكن كل ذلك لم يغن الكامل شيئاً، فيروي لنا الأجد حسن بن الملك الناصر داود ما حصل بين الملوك الأيوبيين، يقول: "إلا أن الكامل - فيما بلغني - كان قد تفوّه بما وعر صدور أهله عليه، وسدّد سهامهم بالتخاذل إليه، وذلك إنه قال: أريد أن أجعل البلاد سفتين، فأضمّ الشام إلى مصر، وأعوّض ملوكه في الروم، فحذر كل منهم مفارقة إلفه، وخشي أن يكون في مناصرته كالباحث عن حفته بظلفه. فخبرت أن المجاهد انتصب لهذه القضية، فكان ابن بجدمتها وشيخ نجدتها، فاجتمع بالدي وبالمملك الأشرف وجماعة من الملوك مُقدّمي النُجْد، فحذرهم عاقبة التغير، وقرّر معهم أن الحزم كل الحزم في التلکؤ والتقصير. فتتسم الملك الكامل الأخبار، وطار تحيُّله منهم كل مطار"⁽⁴⁾.

1- مُفرّج الكرب، ابن واصل، 75/ 5.

2- مُفرّج الكرب، ابن واصل، 76/ 5.

3- مُفرّج الكرب، ابن واصل، 75/ 5 - 76.

4- الفوائد الجلية، الأجد حسن بن داود، 218.

ويروي المقرئزي الواقعة نفسها، فيقول: "وَاتَّفَقَ نَفُورُ بَنِي أَيُّوبَ مِنَ الْمَلِكِ الْكَامِلِ، سَبَبَ أَنَّهُ حَفِظَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لَخَوَاصِّهِ: إِنَّ صَارَ لَنَا مُلْكُ الرُّومِ نَعُوْضُ مُلُوكَ الشَّامِ وَالشَّرْقِ مَمْلَكَةَ الرُّومِ بِدَلِّ مَا بِأَيْدِيهِمْ، وَنَجْعَلُ الشَّامَ وَالشَّرْقَ مِضَافاً إِلَى مَلِكِ مِصْرَ. فَحَذَّرَ مِنْ ذَلِكَ الْمُجَاهِدَ، وَأَعْلَمَ بِهِ الْأَشْرَفَ، وَأَحْضَرَ بَنِي عَمِّهِ وَأَقَارِبَهُ، وَأَعْلَمَهُمْ ذَلِكَ، فَاتَّفَقُوا عَلَى الْمَلِكِ الْكَامِلِ، وَكَتَبُوا إِلَى السُّلْطَانِ عِلَاءِ الدِّينِ بِالْمِيلِ مَعَهُ، وَخَذَلَانِ الْكَامِلِ، وَسَيَّرُوا الْكُتُبَ بِذَلِكَ، فَاتَّفَقَ وَقُوعُهَا فِي يَدِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ، فَكَتَمَهَا، وَرَحَلَ رَاجِعاً"⁽¹⁾.

ونستنتج من النصين السابقين أن:

- 1- اتَّفَقَ التَّصَوُّصُ عَلَى أَنَّ الْكَامِلَ صَرَّحَ عَنْ مَشْرُوعِهِ بِضَمِّ الْجَزِيرَةِ وَالشَّامِ إِلَى مِصْرَ.
- 2- أَنَّهُ يُرِيدُ تَعْوِضَ الْمُلُوكِ مِنْ آلِ بَيْتِهِ بِدَلِّ مَمَالِكِهِمْ فِي الْجَزِيرَةِ وَالشَّامِ بِمَالِكِ وَإِقْطَاعَاتِ فِي بِلَادِ الرُّومِ.
- 3- الْمَلِكُ الْمُجَاهِدُ هُوَ مَنْ قَامَ بِإِبْلَاغِ الْمُلُوكِ الْأَيُّوبِيَّةِ بِمَشْرُوعِ الْكَامِلِ.
- 4- مُوَافَقَةُ جَمِيعِ الْمُلُوكِ الْأَيُّوبِيَّةِ عَلَى التَّحَالُفِ ضِدَّ الْكَامِلِ مَا عَدَا الْمَلِكَ الْمُظْفَّرَ صَاحِبَ حِمَاةِ، الَّذِي انْتَضَمَ فِي حَلْفِهِمْ ظَاهِراً، وَكَانَ فِي بَاطِنِهِ مَعَ الْكَامِلِ⁽²⁾. وَكَانَ لَدَيْ بَعْضِهِمْ دَوَافِعُ وَمَبَرَّرَاتُ لِلْوُقُوفِ فِي وَجْهِ السُّلْطَانِ الْكَامِلِ، فَمَثَلًا:
- أ- الْمَلِكُ النَّاصِرُ دَاوُدَ كَانَ يَنْتَقِمُ عَلَى الْجَمِيعِ سَلْبَ دِمَشْقَ مِنْهُ، وَقَدْ جَاءَتْهُ فُرْصَةٌ مُوَاتِيَةً لِلانْتِقَامِ مِنْ مُلُوكِ بَنِي أَيُّوبَ، فَعَمِلَ عَلَى تَفْرِيقِ كَلِمَتِهِمْ.
- ب- الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ كَانَ قَدْ طَلَبَ مِنَ الْكَامِلِ الرِّقَّةَ لِنَقْصِ مَوَارِدِهِ، فَلَمْ يَجِبْهُ، وَتَقَوَّلَ كُلُّ مَنِهَا عَلَى الْآخَرِ، فَحَمَلَهَا الْأَشْرَفُ عَلَى الْكَامِلِ⁽³⁾.
- أَمَّا الْآخَرُونَ؛ فَلَا مَبَرَّرَاتَ لَهُمْ، خَاصَّةً شَيْخَهُمْ وَخُرَّكِهِمُ الْفَاعِلُ الْمَلِكُ الْمُجَاهِدُ، فَقَدْ حَصَلَ مِنَ الْكَامِلِ عَلَى سَلْمِيَّةٍ، وَهِيَ حُلْمَةُ الْقَدِيمِ.

1- السُّلُوكُ، المقرئزي، 1/ 369.

2- شِفَاءُ الْقُلُوبِ، أَحْمَدُ الْحَنْبَلِيُّ، 316.

3- شِفَاءُ الْقُلُوبِ، أَحْمَدُ الْحَنْبَلِيُّ، 316.

5- الدَّورُ الْفَعَّالُ لِلْمَلِكِ لِلْمُجَاهِدِ⁽¹⁾ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، الَّذِي تَتَضَحُّ لَنَا أَهْمِيَّتُهُ مِنْ خِلَالِ التَّسَاوُلَاتِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنِ الْخَبَرِ الَّذِي نَقَلَهُ، وَهِيَ:

أ- هَلْ قَالَ الْكَامِلُ ذَلِكَ الْقَوْلَ فَعَلًا؟ عِنْدَهَا نَسْتَنْتِجُ أَنَّ الْمُجَاهِدَ قَدْ وَضَعَ الْكَامِلَ تَحْتَ مِرَاقِبَتِهِ الشَّدِيدَةِ، وَأَنَّ لَهُ عُيُونًا وَأَذَانًا فِي حَاشِيَةِ الْكَامِلِ، وَذَلِكَ انْطِلَاقًا مِنْ طَبِيعَةِ تَكْوِينِ الْمُجَاهِدِ، الَّذِي اعْتَادَ الْحَذَرَ وَالشُّكَّ.

ب- قَدْ يَكُونُ الْكَامِلُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَهَذَا احْتِمَالٌ وَارِدٌ، فَالْمُجَاهِدُ وَحْدَهُ هُوَ مَصْدَرُ الْحَدِيثِ، عِنْدَهَا يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْمُجَاهِدَ قَدْ اخْتَلَقَ الْحِكَايَةَ بِكَامِلِهَا لَضَرْبِ الْكَامِلِ، الَّذِي تَزَايَدَتْ قُوَّتُهُ لِحَدِّ الْخَطَرِ، وَبَاتَ مُتَحَكِّمًا فِي مُلُوكِ الشَّامِ.

لَكِنَّ قَبُولَ مُلُوكِ الْبَيْتِ الْأَيُّوبِيِّ لِقَوْلِ الْمُجَاهِدِ فَوْرًا وَبِلَا مَنَاقِشَةٍ، وَفِيهِمْ أَخُوهُ الْكَامِلِ، يَدُلُّ إِمَّا عَلَى الثِّقَةِ الزَّائِدَةِ بِالْمُجَاهِدِ، وَهَذَا احْتِمَالٌ ضَعِيفٌ فِيمَا بَيْنَ أَفْرَادِ الْبَيْتِ، الَّذِينَ اعْتَادُوا عَدَمَ الثِّقَةِ بِأَحَدٍ، وَخَاصَّةً الْأَقْرَبَاءِ، أَوْ عَلَى أَنَّ نِيَّاتِهِمْ جَمِيعًا كَانَتْ مُتَّفِقَةً عَلَى التَّخَوُّفِ مِنَ الْكَامِلِ وَقُوَّتِهِ.

وَلَدِينَا رَوَايَةٌ تُؤَكِّدُ هَذَا الْاحْتِمَالَ، وَتُبَيِّنُ أَنَّ الْمُجَاهِدَ قَدْ تَوَقَّعَ ذَلِكَ، دُونَ أَنْ يَنْسِبَهُ لِلْكَامِلِ، فَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ الْمُجَاهِدَ قَالَ لِلْأَشْرَفِ: "إِنَّ حَكَمَ الْكَامِلِ عَلَى الرُّومِ أَخَذَ جَمِيعَ مَا بِأَيْدِينَا"⁽²⁾، أَوْ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: "مَتَى أَخَذَ الرُّومَ تَعَبْنَا بِهِ، وَبَقِينَا بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَلِّبُنَا كَيْفَ شَاءَ"⁽³⁾.

6- عَلِمَ السُّلْطَانُ الْكَامِلُ بِاتِّفَاقِ الْمُلُوكِ عَلَيْهِ مُبَاشَرَةً، إِنْ كَانَ بِوُقُوعِ الْكُتُبِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهَذَا احْتِمَالٌ ضَعِيفٌ، أَوْ بِوَاسِطَةِ عُيُونِهِ فِي بِلَاطَاتِ مُلُوكِ آلِ بَيْتِهِ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَبَادُلِ عَدَمِ الثِّقَةِ بَيْنَهُمْ، وَوَضْعِ الْعُيُونِ وَالْجَوَاسِيسِ لِنَتَسَمُّ الْأَخْبَارَ خَشِيَةَ الْغَدْرِ.

تَوَقَّفَ السُّلْطَانُ الْكَامِلُ عَلَى النِّهَرِ الْأَزْرَقِ فِي أَوَائِلِ بِلَدِ الرُّومِ أَمَامَ الدَّرْبِنْدِ، وَبَدَأَتْ الْمِصَاعِبُ تَوَاجِجُهُ، وَمِنْهَا:

1- الْمُخْتَصَرُ، أَبُو الْفِدَاءِ، 3/ 158.

2- النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ، ابْنُ تَغْرِي بَرْدِي، 6/ 282.

3- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابْنُ وَاصِلٍ، 5/ 122، وَكَتَزُ الدُّرِّ، ابْنُ آيَكٍ، 7/ 318.

1 - وجد أن الرومي قد سدّ في وجهه الدربند، وهو الممرّ الوحيد لبلاد الروم، بالتحصينات والحراسة المحكمة.

2 - أجبر على أن يعسكر في رُقعة ضيقة من الأرض، ممّا أدّى إلى "قِلّة الأَقوات في عسكر الكامل"، وارتفعت الأسعار، فكان الجندي مُضطراً لأن يصرف أكثر ممّا يكسب، وبالتّالي؛ يبدأ بالتذمّر، وإثارة الفوضى.

3 - أحسّ السُلطان الكامل بتخاذل مُلُوك الأيوبيّة من حوله، وهذا مُثير للرّعب؛ حيثُ يُمكن أن يُوتى من مأمته، ويُمكن لإخوته وأبناء عمومته أن يكونوا أكبر خطراً من الأعداء عليه.

ويبدو أن السُلطان الكامل قد شعر باختلاط الأوراق، بعد علمه بانتشار إشاعة نقل المُلُوك الأيوبيّة إلى أرض الروم بعد أخذها، وأيقن أن مشروعه بات في مهبّ الريح، فقرّر العمل بِسرعة، فرحل نحو أطراف بَسنّا. وجاءته مشورة صاحب خرتبرت كَحَلّ مُنقذ عندما عرض عليه دُخُول بلد الروم من جهة بلده، ويبدو أن الكامل - بعد أن أصبحت لديه معطيات جديدة حول فساد نيّة مَنْ معه من المُلُوك - لم يعد قادراً على المُجازفة ودُخُول بلاد الروم بنفسه، كذلك لم يردّ أن يُرسل أيّاً من المُلُوك غير الموثوق بولائهم له، بَمَنْ فيهم إخوته، ونظراً لثِقته بالمُظفّر صاحب حماة، فقد أمره بالتحرك مع ميمنة الجيش إلى بلد الروم عبر خرتبرت، وأرسل معه مملوك والده ورجله الأوّل شمس الدّين صواب العادلي، ونخبة أمراء الجيش المصري كقوّة مُتقدّمة تتألّف من خمسة وعشرين ألف فارس، وبالتّأكيد؛ فإن السُلطان كان ينوي أن يلحق بهذه القوّة ومعه كامل الجيش إذا حقّقت النجاح.

وفي الحقيقة؛ فإن ما تمّ هو خُطّة عسكريّة جيّدة، تُؤمّن دُخُول عمق الروم بقوّة استطلاع قتالية، تلتفّ خلف تحصينات الرومي في الدربند، وتُفاجئته، لكن؛ يبدو أن سوء النيات بين القادة أدّى إلى تسرّب أخبار القوّة المُهاجمة، إن لم نقل إن الأخبار وصلت عبر كُتُب المُلُوك الأيوبيّة إلى الرومي، مع طلبهم التحالف معه ضدّ الكامل⁽¹⁾، فقد انقضّ اثنا عشر ألف فارس من عسكر الروم على فرقة المُظفّر، واضطّروهم إلى اللّجوء إلى قلعة خرتبرت، بعد أسر عدد كبير منهم.

1 - السُلُوك، المقرّبي، 369 / 1.

ثمّ وصل علاء الدّين بقوّاته، وحاصر قلعة خرتبرت مُدّة أربعة وعشرين يوماً، لم يجزّ خلاها السُلطان الكامل على إنجاد القلعة، أو المُجُوم على قوّات الرومي لفكّ الحصار عن المُظفّر، بل فضّل السُلطان الكامل تركه لمصيره، بدلاً من أن يُغامر بمصيره هو بين فكّي كَماشة المُتأمّرين عليه، الذين "تقاعدوا عن القتال، وفسدت نيّاتهم" من أهل بيته، وبين عدوّه القوي الشرس علاء الدّين كَيَقْبَاز، "فما أمكنه التحرك لقتال كَيَقْبَاز وفكّ الحصار عن المُظفّر في خرتبرت"⁽¹⁾. وكانت الخسارة الكُبرى لصاحب خرتبرت، فقد طلب المُظفّر الأمان، فأُمن، وخرج، وتسلم علاء الدّين القلعة والقلاع السبعة التي حولها، وأنهى حُكْم الفرع الأرمني فيها⁽²⁾. وتراجع الكامل لأنّه "لم يرَ المقارعة بأنصار قد تفرّقت عزماتهم"⁽³⁾، ولم يستطع الكامل فعل شيء مع الملك المُجاهد المُدبّر الحقيقي للتحرك ضدّه، ولا مع الأشرف أقوى مُلُوك الشّام، فصبّ جام غضبه على النّاصر داود، ويصف ذلك الأجد بن النّاصر داود بقوله: "ورتبّ فوات تلك المملكة على سعي والدي، فعده عليه أكبر ذنب، فلما فارقه من دمشق آذنه بحرب"⁽⁴⁾، وألزمه بطلاق ابنته عاشوراء، فطلّقها⁽⁵⁾.

وبدا على الساحة وكأنّ الأمور قد انعكست على سعي الكامل، الذي خرج يطلب بلاد الروم ومعه كل مُلُوك بيته، فعاد، وقد انقلبوا عليه جميعاً، وأرسلوا يطلبون منه عدم الخُروج إلى الشّام⁽⁶⁾، ولأنّ خيوط اللعبة السّياسيّة منوطة بشخص الملك في الدّول الأيوبيّة، فقد كانت تتداخل الأمور، وقد يحدث انهيار سياسي وعسكري بحال وفاة الملك، فلا تُوجد مُؤسّسات سياسيّة أو عسكريّة تتابع نهج الملك، الذي كان كخيط السّبعة الذي ينظم حَبّاتها، فإذا انقطع تبعثرت، وهذا ما حدث في الشّام عندما توفّي الملك الأشرف بدمشق عام 635 هـ 1238 م⁽⁷⁾.

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 155.

2 - مُفَرّج الكُروب، ابن واصل، 5 / 77 / 81، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 162، وذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 1 / 131.

3 - الفوائد الجلية، الأجد بن داود، 219.

4 - الفوائد الجلية، الأجد بن داود، 219.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 155.

6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 317.

7 - ذيل الرّوضتين، أبو شامة، 165.

الفصل الثالث

العلاقات الأيوبية مع ملوك الأطراف

المبحث الأول

العلاقات الأيوبية مع الأرتقة

كانت الإمارة الأرتقية قد انقسمت إلى فرعين، الفرع الأول: في آمد، ومعها حصن كيفا، وكانت السياسة العامة لهذا الفرع الأرتقي هي التحالف مع الأيوبيين. أما الفرع الأرتقي الثاني؛ فكان في ماردين. وكانت مواقف صاحب ماردين - على الدوام - مناهضة للأيوبيين، وهو مع أي حلف يقوم ضدهم⁽¹⁾. وكانت هناك بعض الإمارات الأرتقية الصغيرة مثل السويداء، ودارا، وهي غير ذات أهمية سياسية، أو قوة عسكرية.

1. ماردين:

تعدُّ ماردين من أشهر مُدن الجزيرة، وهي "مبنية على جبل كالدرج، بعضه دُون بعض، ولا ارتفاع البلد ومساكنه لا يعلو فوقه طير، ويُرى السحاب دُونها"⁽²⁾، وبها "قلعة مشهورة على قبة جبل الجزيرة، مُشرفة على دنيسر، ودارا، ونصيبين"⁽³⁾.

وقد تملك ماردين سقمان بن أرتق في فترة صراع القادة السلاجقة على السُلطة في الجزيرة، وعندما تُوفي سقمان عام 498هـ - 1105م، خلفه ابنه نجم الدين إيلغازي، الذي تُوفي عام 516هـ - 1122م. وتولَّى بعده ابنه حسام الدين ثمرتاش، وكان مُعاصراً لنُور الدين بن زنكي، ومُخالفاً له، فعندما فتح نُور الدين قلعة الصُور، سلَّمها له. ولما تُوفي ثمرتاش عام 547هـ - 1152م، خلفه ابنه نجم الدين إيلي، ومن بعده؛ تولَّى ابنه قُطب الدين إيلغازي، الذي تُوفي عام 580هـ، وخلفه ابنه

1 - الإمارات الأرتقية، عماد الدين خليل، 170.

2 - الأعلام الخطيرة، ابن شدَّاد، 3 / 2 / 542.

3 - مُعجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: ماردين - حول وصف المدينة، راجع: الأعلام الخطيرة، ابن شدَّاد، 3 / 2 / 542 - 543.

حسام الدين يولق أرسلان وهو طفل، ولصغر سنّه كان يتولّى تدبير دولته نظام الدين البقش، ومعه مملوكه لؤلؤ.

في عام 594هـ-1198م، أرسل نظام الدين البقش⁽¹⁾، مُدبّر مملكة حسام الدين يولق أرسلان بن إيلغازي بن ألبى الأرمني صاحب ماردين، إلى العادل يستدعيه؛ ليسلمه ماردين، على أن يُعوّضه عنها، فسار العادل بسُرعة نحوها، ولكنّ نظام الدين ندم، ولم يف له، فطلب العادل التجذات، فوصله من العزيز في مصر ألف فارس، ومن الظاهر في حلب خمسمائة، فحاصر العادل ماردين، واستطاع الاستيلاء على المدينة، وصمدت القلعة⁽²⁾.

ول وفاة العزيز المفاجئة ترك العادل ابنه الكامل مُحاصراً قلعة ماردين، وتوجّه مُسرّعاً نحو دمشق⁽³⁾، ونتيجة لهذا الوضع؛ وقع الصلح بين الأفضل نور الدين صاحب الموصل وابن عمّه عماد الدين صاحب سنجار، وعزّ الدين صاحب جزيرة ابن عمر⁽⁴⁾، وأتفقوا على إنجاد ماردين، وساروا إليها، وهزموا الكامل، الذي رحل عن ماردين، بعد أن كادت تسقط بيده⁽⁵⁾.

ولما مات حسام الدين يولق، تولّى الملك أخاه الأصغر قطب الدين أرسلان، فقتل نظام الدين البقش ومملوكه لؤلؤ، وانفرد بالحكم في ماردين، وأعمالها⁽⁶⁾، حتّى توفّي عام 601هـ-1205م، فتولّى ابنه المنصور أرتق⁽⁷⁾. وفي سنة 636هـ-1239م، اجتمع ممالك أرتق على قتل سيدهم، فقتلوه وهو نائم، وولّوا ابنه الملك السعيد إيل غازي، وكان محبوساً في قلعة البارعية⁽⁸⁾.

1- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 557.

2- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 3/ 80، و الترويض، أبو شامة، 2/ 234.

3- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 3/ 95.

4- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 148.

5- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 3/ 102، و الباهر، ابن الأثير، 194.

6- كان يتبع لماردين قلعة البارعية وقلعة الصّور.

7- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 555-557.

8- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 558.

2. آمد:

يقول عنها ياقوت: "آمد: بكسر الميم، ما أظنّها إلّا لفظة روميّة، بلد قديم حصين، مبني بالحجارة السّود على نشز، دجلة تُحيط بأكثره مُستديرة به كالهلال⁽¹⁾."

بعد أن استولى صلاح الدين على آمد، سلّمها إلى صاحب حصن كيفا نور الدين مُحمّد بن قرا أرسلان، الذي توفّي عام 581هـ، فأقرّ صلاح الدين عليها ولده قطب الدين سقمان (581-597هـ-1185-1201م)⁽²⁾. وبعد موت صلاح الدين عام 589هـ-1193م، قام قطب الدين بإرسال أتابكه الصّلاح قتلغ آبه إلى العادل، يطلب عهداً على آمد، ويخطب إليه ابتسه، وكان خائفاً من استرجاع العادل لآمد منه، فهي من الفتوح الصّلاحية، وقد وهبها صلاح الدين لأبيه نور الدين، فوافق العادل⁽³⁾. ثمّ أخذ قطب الدين يتصرّف كالحاكم المُستقلّ، ويدخل في التحالفات، ويسعى لتقوية مركزه.

3. حصن كيفا:

يقول عنها ياقوت: "ويقال كيبا، وأظنّها أرمنيّة، وهي بلدة وقلعة عظيمة، مُشرقة على دجلة بين آمد، وجزيرة ابن عمر من ديار بكر"⁽⁴⁾، وكان حصن كيفا يُضاف لمن يلي ديار بكر، وأكثر ما كان مُضافاً إلى آمد. وقد تملّك سقمان بن أرتق صاحب ديار بكر حصن كيفا، وبعد وفاة سقمان؛ تولّى الحصن ولده داود، ومن بعده؛ ابنه قرا أرسلان، ثمّ ولده نور الدين مُحمّد المُعاصر لنور الدين بن زنكي والمُحالف له⁽⁵⁾.

4. خَرْتَبُزَت:

بالفتح، ثمّ الشُّكُون، وفتح التاء، وباء مكسورة، وراء ساكنة، وهو اسم أرمني للحصن المعروف بحصن زياد، يقع في أقصى ديار بكر من بلاد الروم، بينه وبين ملطية مسيرة يومين، وبينهما الفُرات⁽⁶⁾. وهي قلعة حولها سبعة من الحصون، وقد أسّس إمارة خَرْتَبُزَت الأرتقية عماد الدين أبو بكر قرا أرسلان، شقيق حاكم حصن كيفا في ذلك الوقت، وذلك في حُدود عام 581هـ-1185م.

1- مُعْجَمُ الْبُلْدَان، ياقوت الحموي، مادة: آمد.

2- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 514-519.

3- الفتح القسبي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 13/ 142.

4- مُعْجَمُ الْبُلْدَان، ياقوت الحموي، مادة: كيفا، -وهي- اليوم- في تركيا، راجع: بلدان الخلافة الشرقية، 144.

5- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 498.

6- مُعْجَمُ الْبُلْدَان، ياقوت الحموي، مادة: خَرْتَبُزَت، و ذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 1/ 132.

بداية العلاقات بين الأراتقة والدولة الأيوبية:

أثناء حملة الجزيرة عام 578هـ 1182م، راسل صلاح الدين ملوكها وأمرائها، فوافقه نور الدين بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقي⁽¹⁾ صاحب حصن كيفا، على أن يسلم صلاح الدين آمد إليه، إذا فتحها. وفي العام نفسه 578هـ 1182م، سلم حاكم آمد بهاء الدين بن نيسان البلدة إلى صلاح الدين، الذي وفي بوعده، وسلمها إلى نور الدين محمد⁽²⁾، وبعد أن توفي؛ أقر صلاح الدين مكانه ولده قطب الدين سكران⁽³⁾، "وذلك بعد أن حضر الصلاح قتلغ أبه في عام 584هـ 1188م، وهو أتابك قطب الدين، وأخذ لصاحبه ملك ديار بكر عهداً، وقد أحضر قضاة بلاده شهوداً، وخطب لصاحبه ابنة العادل، وكان خاتماً على آمد، فهي من فتوح السلطان، وهبها لأبيه نور الدين بن قرا أرسلان، فأشفق من استرجاعها بعد وفاة والده، ورغب بالمصاهرة للمظاهرة"⁽⁴⁾.

ولا يخفى أن تدبير أتابك أمير آمد الأرتقي كان يعتمد على عدة أمور، منها: استعطاف صلاح الدين، وتذكيره بالعهد القديمة مع والد الأمير، وتوثيق عرى التقارب بالمصاهرة، عن طريق طلب يد ابنة العادل للأمير، فصالح الدين لا توجد لديه بنات أو أخوات يصلحن للزواج، والعادل هو أخوه، ومستشاره، ووزيره.

وكذلك حرص صلاح الدين على توثيق الصلة وتأکید العهد، بإقراره الأمير الأرتقي على آمد هو جزء من سياسة الاستقرار التي انتهجها نحو الجزيرة، فهي عمقه الاستراتيجي، وهي مصدر المتطورة للجيش، ومكان الإمداد بالجند، ومصدر عظيم لموارد الدولة.

واستمرت هذه السياسة للدولة الأيوبية تجاه الجزيرة حتى وفاة السلطان صلاح الدين، الذي كانت جهوده وتوجهاته الأساسية نحو حرب الفرنج، وبعد وفاته؛ تغيرت استراتيجية الدولة، فقد التفت العادل لتوطيد نفوذه، وأخذ ما بأيدي أولاد أخيه من البلدان، مُنطلقاً من منطقة الجزيرة، التي كانت بها إقطاعاته الكبرى.

العلاقات مع ماردین:

كان أول احتكاك بين الأراتقة والعادل في عام 594هـ 1198م، فقد "ورد إلى العادل كتاب النظام مُدبر مملكة حسام الدين يولق أرسلان بن إيلغازي بن البي الأرتقي صاحب ماردین، يستدعيه لئسلمه ماردین"⁽¹⁾، فسار العادل نحوها، لكن النظام ندم، وغير رأيه، وتحصن في ماردین، فطلب العادل التجيدات من ابن أخيه العزيز صاحب مصر، الذي أرسل له ألف فارس، ومن ابن أخيه الظاهر صاحب حلب، الذي أرسل له خمسمائة فارس، فتمكن العادل من احتلال ربض ماردین، وحاصر قلعتها⁽²⁾، واستولى على ولاياتها، ومُدنها، مثل: رأس عين، ودنيسر.

وشدد العادل الحصار على قلعة ماردین، ولم يبق سوى التسليم، فورد الخبر بوفاة العزيز صاحب مصر، وتولية أخيه الأفضل مكانه⁽³⁾، فقرّر العادل التحرك نحو دمشق. لكن ضعف القلعة الذي عاينه شجعه على متابعة حصارها ببعض جنده مع ابنه الكامل⁽⁴⁾. واغتنم التحالف الأتابكي فرصة غياب الكامل، فوحدوا قوات الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر، وتحركوا لإنجاد ماردین، وتمكنوا من إجبار الكامل على فك الحصار⁽⁵⁾، ونجت ماردین من الوقوع بيد العادل. ووقف في هذه الحرب أمير حصن كيفا الأرتقي على الحياد؛ إذ لم نسمع له أي نشاط سياسي، أو تحرك عسكري.

وبعد فشل الأخوين الظاهر والأفضل أمام دمشق، وانسحابهم عنها، زاد ذلك في قوة العادل، فلما رجع الظاهر إلى حلب، اتصل بحسام الدين يولق صاحب ماردین، وأتفق معه على تشكيل حلف جزري ضدّ العادل، لكنه فشل بالقيام بأي عمل مُجد لاتفاق الفاتز بن العادل مع نور الدين صاحب الموصل.

ولم ينس العادل ماردین، فعندما استقرّ وضعه في مصر ودمشق قام في عام 599هـ 1202م بإرسال حملة عسكرية يقودها ولده الأشرف إلى ماردین، وطلب التجيدات من الموصل وسنجار،

1- مُفَرَّج الكُروب، ابن واصل، 80/3.

2- مُفَرَّج الكُروب، ابن واصل، 80/3، و الروضتين، أبو شامة، 234/2.

3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 58/12.

4- الباهر، ابن الأثير، 194.

5- مُفَرَّج الكُروب، ابن واصل، 102/3، والباهر، ابن الأثير، 194، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 62/12،

والعبر، ابن خلدون، 588/5.

1- حول نسب الأراتقة راجع: تاريخ آمد وميفارقين، ابن الأزرقي، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 11/262.

2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/484-493.

3- الأعلام الخطيرة، ابن شداد، 3/516.

4- الفتح القسي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 13/142.

فأمَدُوا الأشراف بالعساكر، فسار إلى ماردين، وهزم عسكرَهَا⁽¹⁾، ثُمَّ حاصرها، ولكنَّ الحصار لم يكن فعَّالاً، ولم يُؤدِّ إلى نتيجة، فتدخل الظاهر غازي بالصُّلح بين ماردين والعاذل⁽²⁾. فالظاهر عندما لم يتمكن من التدخل العسكري كان يرغب - ضمناً - بعدم تملك العادل لماردين، حتَّى لا يزداد قُوَّةُ بها في الجزيرة، لذلك؛ وجد أنَّ الصُّلح في مصلحته أولاً، وفي مصلحة ماردين ثانياً، فهو يضمن وجودها، وكذلك وجد العادل في الصُّلح مصلحة مُؤقَّتة له، وذلك لعدم تحقيق الأشراف نجاحاً عسكرياً في مهمَّته. ولكن؛ ظهر العادل بمظهر المنتصر معنوياً، فقد حمل إليه صاحب ماردين، وُفقاً لبُؤود الصُّلح، مائة وخمسين ألف دينار، وخطب له ببلاده، وضرب السكَّة باسمه، ووعد أن يكون عسكرُهُ بخدمته حين الطلب⁽³⁾. وبدا الظاهر في تدخله بهذا الصُّلح كأنَّه وسيط رخيص، وليس ملكاً يتدخل لحلِّ الخلافات، وإقرار السُّلم، فقد كانت أُجرته على هذه الصَّفقة قرية القرادي، وعشرين ألف دينار، كما ذكر بعض المؤرِّخين⁽⁴⁾، أو عشرة آلاف دينار - فقط - كما ذكر بعضهم الآخر⁽⁵⁾.

ماردين وسياسة العداء للأيوبيين:

ربما لأن آمد كانت إقطاعاً من صلاح الدِّين للأرناؤة؛ فقد احتفظت - على الدوام - بولائها للسياسة الأيوبيَّة العليا، أمَّا الإمارة الأرناؤيَّة الأخرى في ماردين؛ فإنها كانت تتبع سياسة معاكسة لها، فقد كانت - في الأعم الأغلب - تتبع سياسة العداء للأيوبيين، حتَّى إنها كانت - على الدوام - ملجأً للأُمراء الفارَّين من الممالك الأيوبيَّة، وخاصَّة الخارجين منهم على الأشراف، فقد استقبل أمير ماردين الأرناؤي عام 618هـ - 1221م مبارز الدِّين سنقر الصِّلحي، الذي خالف الأشراف، وخرج عن طاعته⁽⁶⁾.

ولكن هذه السياسة العامَّة بالعداء للأيوبيين كانت - أحياناً - تشهد تراجعاً ملموساً، فعندما كان الملك المُعظم في الجزيرة عام 618هـ - 1221م، استقبله ناصر الدِّين صاحب ماردين في قلعته،

وزوَّج كُلَّ منهما ابنته للآخر، في زواج مُقايضة سياسي، سبَدو نتائجُه بعد مُدَّة قريبة، وكان ذلك بمباركة الأشراف، وإذنه⁽¹⁾.

ولكنَّا - بسرعة - نرى ماردين تعود لعدائِها التقليدي للأيوبيَّة، فقد كانت أسرع الإمارات الجزريَّة بالانضمام إلى حلف علاء الدِّين الخوارزمي، ومُظفَّر الدِّين كوكبوري، الذين ضَمُّوا إليهم المُعظم الأيوبي صاحب دمشق، ضدَّ الأشراف صاحب القُوَّة الأيوبيَّة الكُبرى في الجزيرة، وحليفه أخيه الكامل صاحب مصر، وخطب في ماردين لعلاء الدِّين الخوارزمي إشعاراً بِسُلْطنته عام 623هـ - 1226م، وتحدياً لسلطنة الكامل⁽²⁾.

وفي عام 625هـ - 1228م، اضطُرَّ الأشراف لاستعراض قُوَّته في الجزيرة، حتَّى عاد صاحب ماردين إلى طاعته، وكدليل على شكِّ الأشراف به، وليُثبِّت على الخوف في نفسه؛ رفض أن يحلف له على إقراره في بلاده، مع أن رسول الخليفة قد تدخل مُتوسِّطاً في هذه القضية⁽³⁾. وقبل أن ينطلق الأشراف في زيارته إلى مصر، وفي العام نفسه 625هـ - 1228م، أعطى أوامر واضحة لتوَّابه في الجزيرة: أخيه الحافظ صاحب جعبر، وعزَّ الدِّين آيبك نائب خِلاط، بأن يلتزموا الهدوء والحذر مع صاحب ماردين، وأن لا يُهاجموه إلَّا إذا بدأهم هو بالهُجُوم⁽⁴⁾، فيتتهز ناصر الدِّين صاحب ماردين الفُرصة، ويشنَّ الهُجُوم على أراضي حصن كيفا، فيسلب، وينهب، ويحرق⁽⁵⁾. ولم يكتف بذلك، بل سعى - أيضاً - لتحرير صاحب الروم لغزو الجزيرة وأملاك الأيوبيين خاصَّة، وكان الرومي يستعدُّ لغزو أنطاكية، فأرسل له صاحب ماردين يقول: "ما لمضيتك إلى أنطاكية معنى. البلاد خالية، والأشراف عند الكامل. . . فتسير إلِّيَّ عسكراً لآخذ لك تلك البلاد". فقام الرومي بالعمل وحده، دون التعامل مع صاحب ماردين، ونقذ بقُوَّاته عدَّة إغارات محدودة في الجزيرة، لم تُسفر عن شيء يُذكر، وعاد إلى بلاده⁽⁶⁾.

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 80.

2 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12 / 179.

3 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12 / 179، ومُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 139، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 213، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 103، والسُّلوك، المقرئ، 1 / 161، والمنصوري، ابن نظيف، 38.

4 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12 / 179، مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 139.

5 - السُّلوك، المقرئ، 1 / 161، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 103، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 213، والمنصوري، ابن نظيف، 38.

6 - ذيل الروضتين، أبو شامة، 134.

1 - ذيل الروضتين، أبو شامة، 128، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 413، والنُّجوم الزَّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 239.

2 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12 / 187.

3 - المنصوري، ابن نظيف، 159.

4 - المنصوري، ابن نظيف، 163.

5 - المنصوري، ابن نظيف، 163.

6 - المنصوري، ابن نظيف، 165.

وفي عام 626هـ 1229م، وتحت تأثير هذا التجاهل من الرومي، وربما لأسباب آتية أقوى، قام صاحب ماردين بقطع الخطبة للرومي في بلاده، وخطب للكمال، وضرب السكة باسمه، اعترافاً بالتبعية له⁽¹⁾. ويبدو أن هذا التحول عن الرومي، وإعلان الطاعة للملك الكامل، والسير ضمن بوتقة السياسة الأيوبيّة الشبه موحدة تحت شعار سلطنة الكامل، استمر حتى عام 629هـ 1232م، عندما حاصر الكامل آمد، وفيها الفرع الأرتقي المنافس لفرع ماردين، فبدل دعم صاحب ماردين لابن عمه في آمد، قام بإرسال مبعوثيه يحملون الهدايا إلى الكامل، ومعهم بعض مما يحتاجه العسكر في الحصار؛ كالخيم، والأكسية⁽²⁾.

وبعد فتح آمد عام 630هـ 1233م، قدم على الملك الكامل أولاد صاحب ماردين، ولي العهد وأخوه، للتهنئة بالفتح، فأكرمهما الكامل⁽³⁾، كل ذلك يدل على بهجة حكام ماردين بسقوط آمد، فالعلاقات بينهما كانت - دائماً - سيئة، والتنافس قائم، وكل إمارة منهما كانت تسعى لسلب الأخرى بعض مناطقها⁽⁴⁾.

ولكن؛ مباشرة بعد سقوط آمد تعود ماردين لتبدل موقفها من الأيوبيّة، وتنقض تحالفها وطاعتها للكمال، وربما كان ذلك لسوء تدبير نائب الكامل في آمد ابنه نجم الدين أيوب، ففي العام نفسه لسقوط آمد تحالف صاحب ماردين الملك السعيد إيلغازي نجم الدين مع كيقباز ملك الروم، وقامت قواهما المشتركة بالهجوم على حرّان، قاعدة الأشرف في الجزيرة، وعلى الرها، وعلى الرقة قاعدة الكامل، "وفعلوا بالجزيرة ما لا تفعله التتر"⁽⁵⁾.

وفي عام 635هـ 1237م، سارعت ماردين للدخول في حلف الشام، الذي ضمّ ممالك دمشق وحمص، وسلطنة سلاجقة الروم، ومملكة حلب، ضدّ العادل بن الكامل سلطان مصر، لكن؛ سرعان ما انسحبت ماردين من هذا الحلف، وأتفق صاحبها مع الخوارزمية، الذين كانوا يعيشون فساداً في الجزيرة، وشاركت قوات ماردين العسكريّة بهجوم مشترك مع الخوارزمية على آمد، التي

كانت بيد السلاجقة الروم، واحتلّوها⁽¹⁾. كذلك هاجموا حرّان، وفيها المغيث بن أيوب، فهرب منهم إلى جعبر، فلحقوه، ونهبوا أثقاله⁽²⁾. ممّا جعل مملكة حلب، التي كانت أكبر المتضررين من الخوارزمية، تتخذ موقفاً معادياً لماردين حليفة الخوارزمية، وقامت بخطوة عسكريّة هائلة، فقد تحرك جيش حلب عام 641هـ 1244م، بحملة ضدّ ماردين، ولكنها انتهت بالصُلح، وأقطع الناصر الثاني صاحب حلب رأس عين لصاحب ماردين⁽³⁾. ويبدو أنّ صاحب حلب أثر هذا الاتفاق الذي يقوم على خسارته لبعض الأراضي لشعوره بالخطر الأكبر القادم من الشرق.

وتأكيداً لهذا الاتفاق؛ قام الناصر الثاني بإرسال التجديدات العسكريّة إلى ماردين، عندما هاجم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل عام 646هـ 1248م، مُتلكاتها في نصيبين، ودارا، ورأس عين، فقام جيش حلب باحتلال نصيبين، التي كان للموصل جزء منها، وأقطعها لصاحب ماردين، فتدخل الخليفة، وأرسل يشفع بصاحب الموصل لؤلؤ، فقبل الناصر الشفاعة، وترك له نصيبين، وأعطى صاحب ماردين بدلاً عنها ماكسين، والمجدل، وبعض مناطق الخابور⁽⁴⁾. وفي عام 657هـ 1259م، وبعد اكتساح التتار للعراق، استدعى هولاكو الملك السعيد صاحب ماردين، فاعتذر بمرضه، وأرسل ابنه المظفر قرا أرسلان، ومعه هدايا كثيرة، فلم يعذره هولاكو، فأرسل السعيد إلى الناصر الثاني يعرض عليه المشاركة في مشروع مُتكامل للتصدّي للتتار، وحمل العرض ابن شدّاد، وأبلغه للناصر الثاني.

قال ابن شدّاد: "لما أذن لي يشموط - ابن هولاكو - بالعودة، رحلتُ إلى ماردين، واجتمعتُ بالملك السعيد، قال لي: أنا أقرض صاحبكم - الملك الناصر الثاني صاحب حلب - ثلاثمائة ألف دينار مصريّة، ويُسيّر لي ثلاثة آلاف فارس، أقترحهم عليه، ويصل إلى حلب بنفسه، وله عليّ أن أرحل التتر عن ميّافارقين، فإذا بلغت غرضي من ذلك، اتّفقتُ معه على قصد الموصل، وإخراجها من يد هذا

1- السُلوك، المقرئ، 1/ 271.

2- مُفرج الكرب، ابن واصل، 5/ 187، والأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 119.

3- الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 136.

4- الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 138، والمختصر، أبو الفداء، 3/ 181، وشفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 412.

1- المنصوري، ابن نظيف، 188.

2- المنصوري، ابن نظيف، 237.

3- المنصوري، ابن نظيف، 239.

4- الإمارات الأرتقية، عماد الدين خليل، 187.

5- البداية والنهاية، ابن كثير، 13/ 135.

المُنافق - بدر الدين لؤلؤ، وكان قد اتفق مع التتار -، فاستحلفتُهُ على ذلك، فحلف، ولما قابلت الملك الناصر؛ عرّفته ما أشار به صاحب ماردین، فلم يجر جواباً⁽¹⁾.

ومما نقله ابن شدّاد نبيّن رؤية سياسية وعسكرية تامة الوُضوح لدى السعيد ملك ماردین، ومشروعاً عسكرياً متكاملًا، ربما كان الأمل الوحيد لخلاص الجزيرة من وقوعها تحت نير التتار، فقد كانوا يحاصرون ميافاارقين، وصاحبها يُبدي بسالة خارقة في المقاومة، أذهلت التتار أنفسهم، وأيّ هُجُوم عليهم يجعلهم بين نارين، ويُقوي فرص النصر. كما يظهر لنا أن السعيد كان يُدرك أهميّة وجود الناصر في حلب قريباً من الميدان، وأثر وجوده في تقوية النفوس، وثبات الناس، ويطلب السعيد: أن يتقي هو الفرسان، خشية أن يرسل له الناصر أعراراً، لا يصلحون للمهمّة العظيمة. كما نجد ثقة كبيرة بالنفس لدى السعيد، فهو يتعهد بترحيل التتار عن ميافاارقين، ثم يضع خطة تالية لذلك؛ وهي: مطاردة التتار حتّى شمال العراق، وأخذ الموصل من يد بدر الدين لؤلؤ عميل التتار. ولكن الغريب هو عدم ردّ الناصر على هذه الاقتراحات سلباً، أو إيجاباً، ممّا نعدّه دليلاً على خيبرته، وعدم استقراره على رأي بشأن التتار. وقاوم السعيد - بجهوده الخاصة المنفردة - قوّات التتار المتدفقة، وقد حاصروه في ماردین عام 658هـ - 1260م، حتّى سلّمها لهم ولده المظفر قرا أرسلان في العام التالي 659هـ - 1260⁽²⁾.

العلاقات مع آمد:

استمرّ قطب الدين سقمان بن نور الدين محمد في حكم آمد، حتّى توفّي عام 597هـ، فتولّى أخوه الملك الصالح ناصر الدين محمود⁽³⁾، الذي أرسل وزيره ضياء الدين بن شيخ السلامة إلى الملك العادل، في تحيّمه على بحيرة قدس، ليُجدّد العهد معه، ويستحلفه لصاحبه الصالح حتى يقدم عليه بنفسه⁽⁴⁾. واستمرّ الصالح محمود بسياسة التقارب مع الممالك الأيوبيّة، وكانت علاقته جيّدة جدّاً بالملك الأشرف، "وكان الأشرف بن العادل يُحبّه"⁽⁵⁾، وقد زار الصالح محمود الأشرف أكثر

1 - الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3 / 2 / 498 - 499.

2 - الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3 / 2 / 498 - 499.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 170.

4 - المنصوري، ابن نظيف، 53.

5 - ذيل الروضتين، أبو شامة، 124، والبدية والنهاية، ابن كثير، 13 / 93.

من مرّة، رغبة منه في الحفاظ على العلاقات الطيّبة مع الأيوبيّة عامّة، والأشرف سلطان الجزيرة خاصّة. واستمرّ الصالح بذلك، حتّى توفّي عام 619هـ - 1222م⁽¹⁾.

وتولّى حكم آمد من بعده ابنه الملك المسعود ركن الدين مودود⁽²⁾، وخالف المسعود سياسة أبيه الموالية للملك الأشرف، فخرج عن طاعة الأيوبيين، وتحالفهم، وانتمى إلى جلال الدين الخوارزمي، فحالفه، وخطب له، وأخذ المسعود بالهجوم على أطراف ميافاارقين، وفيها المظفر غازي أخو الأشرف، وأعلن العداء للسافر للكامل والأشرف ولخليفه علاء الدين الرّومي.

وفي عام 623هـ - 1226م، اتفق مع المعظم صاحب دمشق، ومظفر الدين صاحب إربل، وانضمّ لحلفهم مع الخوارزمي، مقابل تحالف علاء الدين كيقيباذ والأشرف والكامل، فطلب الأشرف من علاء الدين مهاجمة آمد، فسير عساكره نحو بلادها، وفتح عدّة حصون تابعة لآمد، فخاف المسعود، وراسل الأشرف، مُعلنًا العودة إلى التحالف معه، مُقابل أن يكفّ علاء الدين عن بلاده، ويُعيد ما أخذ من حصونها. فوافق الأشرف، وراسل لعلاء الدين بذلك، فرفض "فأرسل الأشرف عساكره لمساعدة صاحب آمد، الذي جمع، وسار إلى عسكر الروم وهم يحصرون حصن الكختين من بلاد آمد، فهزم، وجرح، واستولى عسكر علاء الدين على الكختين، وهي من أمنع الحصون⁽³⁾، ويبدو أن نجدة الأشرف للمسعود لم تكن قوية بما يكفي لهزيمة الرّومي، فمعظم عساكر الأشرف توجهت نحو حمص لنجدتها ضدّ هُجُوم المعظم صاحب دمشق⁽⁴⁾.

وفي عام 625هـ - 1228م، قبل أن يسير الأشرف إلى الشام، أعطى تعليماته لأخيه الحافظ في جعبر، ونائبه عزّ الدين آيبك في خلاط، بأن يُنجدوا صاحب آمد إذا هاجمه علاء الدين كيقيباد⁽⁵⁾.

ولما استقرّ الأشرف بدمشق، مُبتعداً عن الجزيرة ومشاكلها، يبدو أن المسعود صاحب آمد قد شعر بالراحة، وترك نفسه على سجيّتها، فقد كان كثير الولع بالنساء⁽¹⁾، وأخذ بالتعرّض لنساء

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 412 - وقد ذكره أبو شامة في ذيل الروضتين ضمن وفيات عام 617، لكنّه رجّح أن تكون وفاته 619هـ (ذيل الروضتين، أبو شامة، 124).

2 - ذيل الروضتين، أبو شامة، 124.

3 - مُفرّج الكرب، ابن واصل، 4 / 202 - 203.

4 - مُفرّج الكرب، ابن واصل، 4 / 179.

5 - المنصوري، ابن نظيف، 163.

الرعيّة، حتّى نُسب إلى الفُسق⁽²⁾، وهذا ما أعطى الكامل المُبرّر لإظهار أطباعه بضمّ آمد لأملاكه الجزريّة، التي أخذها من الأشرف بدل دمشق. فكتب الكامل إلى الخليفة المُستنصر بالله يشكو إليه المسعود، ويُعدّد معاييه، ويُركّز على تعرّضه لحريم الرعيّة، ويستأذنه في حصار آمد، وأخذها⁽³⁾.

وفي عام 629هـ؛ تحرّك الكامل بجيوشه من مصر إلى الشام، فانضمّ إليه الأشرف، وسارا نحو الجزيرة، فشعر الملك المسعود صاحب آمد بالخطر، وعرف أنّه هو المقصود بهذا التّحرّك، فأرسل وزيره شرف العلاء مُحمّلاً بالهدايا للكامل والأشرف، فاحتجزوه حتّى قبل التّعامل مع الكامل ضدّ مليكه صاحب آمد، فأخذ يُضللّه بكتّبه كي لا يحترز. وسار الكامل إلى آمد ومعه ثلوك وأمراء الأيوبيّة، وتابع المسعود مساعيه السياسيّة، فأرسل إلى الملك المُجاهد، وهو شيخ الأيوبيّة، ليتوسّط له عند الكامل.

وأرسل صاحب ماردين الأرمني نجدة عسكريّة للكامل ضدّ قريبه المسعود صاحب آمد، ولمّا بدأ الحصار والهجوم على الأسوار طلب أهلها الأمان⁽⁴⁾، فقد كانوا مُبغضين لصاحبهم لسوء سيرته، فتخلّوا عنه، وثنّوا زوال مُلكه⁽⁵⁾، ثمّ عرض المسعود التسليم مُقابل إقطاع بمصر، فوافق الكامل، وسُلّمت آمد وقلعتها⁽⁶⁾، ووصل إلى الكامل - وهو على حصار آمد - رسول الخليفة المُستنصر حاملاً إليه التّقليد⁽⁷⁾، ممّا يعني مُوافقته على أخذ آمد، كما وصلته هدايا صاحب ماردين الأرمني "تقريباً ومُصانعة"⁽⁸⁾، الذي شعر بالخطر يقترب منه، فحاول التّقرّب من الكامل، واسترضاه. ونزل المسعود إلى مُعسكر الكامل، فأكرمه، وطلب منه تسليم القلاع الأخرى، فكتب له إقراراً بها ما عدا حصن كيفا، "قال: ما هو لي، ولا في حُكمي". فتسلّم الكامل بعض القلاع، وسيّر قطعة من جيشه إلى حصن كيفا، وفاوض من في الحصن، فلم يقبلوا، فضيّق الكامل على صاحب

- 1- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 2/3/520.
- 2- ذيل الرّوضتين، أبو شامة، 124.
- 3- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 2/3/521.
- 4- المنصوري، ابن نظيف، 236-237.
- 5- مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/117.
- 6- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 2/3/523.
- 7- البداية والنهاية، ابن كثير، 13/135.
- 8- السُّلوك، المقرئ، 1/243.

آمد، وعذّبه⁽¹⁾، وفي عام 630هـ-1233م، سار الأشرف إلى حصن كيفا، ومعه صاحب آمد مُقيّداً، وطلب من التّوّاب تسليمه، فسَلّموه الحصن⁽²⁾ بعد تعذيب المسعود أمامهم⁽³⁾. وولّى الكامل ابنه الصالح نجم الدّين أيّوب على آمد وقلاعها⁽⁴⁾، وسار راجعاً نحو مصر، ومعه صاحب آمد؛ حيثُ أقطعه هناك، وأحسن إليه⁽⁵⁾.

ولم يطل الأمر بالملك المسعود حتّى اعتقله الملك الكامل، وسجنه، مُدّعياً أنّه يتّصل بسلاجقة الرّوم، ويتآمر معهم ضده⁽⁶⁾، وعندما توفّي الكامل عام 635هـ-1238م، قام ابنه العادل بإطلاق سراح المسعود، فتوجّه إلى الشام، وأقام عند صاحب حماة الملك المُظفر، الذي أكرمه، حتّى انفصل عنه مُتوجّهاً إلى الشرق، واتّصل هناك بالتّار، فقتلوه طمعاً بما معه من المال⁽⁷⁾، ويشوّء تصرّفه وشوّء أخلاقه هَدَمَ الملك المسعود ما بناه أجداده الأراتقة في آمد خلال قرن ونصف من الزّمان، فقد تلاشت قوّة حُصُون آمد وكيفَا أمام نخلي الرعيّة عنه، ومُباركة الخليفة، وتصميم الكامل⁽⁸⁾.

وتحوّلت آمد إلى ولاية أيّوبيّة، تُحكّم مباشرة هي وقلاعها من قِبَل نجم الدّين أيّوب ابن السُّلطان الكامل، وبعد وفاة والده عام 635هـ-1238م، استقلّ أيّوب بإمارة ماردين والبلاد الجزريّة، التي كانت لوالد الكامل حتّى عام 636هـ-1239م؛ حيثُ بادل ابن عمّه الجواد، فأخذ منه دمشق مقابل الرّقة وسنجار وعانة، فترك أيّوب الجزيرة، وتوجّه إلى دمشق⁽⁹⁾، وجعل ابنه المُعظّم ثوران شاه نائباً عنه في آمد وكيفَا.

- 1- المنصوري، ابن نظيف، 241.
- 2- المنصوري، ابن نظيف، 246-247.
- 3- المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 145.
- 4- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 2/3/224، والمنصوري، ابن نظيف، 244، والمُختصر، أبو الفداء، 3/159.
- 5- مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/17، والنُّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/250 - وينفرد ابن نظيف بالقول: "سار صاحب آمد إلى دمشق، وشرى داراً وبُستاناً". (المنصوري، ابن نظيف، 244)، ويبدو أنّه وهم في هذا، أو أنّه فعل ذلك أوّلاً، ثمّ سار إلى مصر.
- 6- كنز الدرر، ابن أبيك، 7/265، والنُّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/250.
- 7- المُختصر، أبو الفداء، 3/159، وذيل الرّوضتين، أبو شامة، 124، ومُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/17.
- 8- الإمارات الأرمنيّة، عماد الدّين خليل، 186.
- 9- زبدة الحلب، ابن العديم، 498.

وعندما شعر كيخسرو سلطان سلاجقة الروم بالظُرُوف الملائمة لتوسُّعه تحرَّك صوب آمد، واحتلَّ بعض قلاعها، وحاصرها، وكان بها المعظَّم ثوران شاه، الذي جاءت به نجدة الخوارزمية بعد إيقاعهم بصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، وبعد مُناوشات مع عسْكر الروم اضطرُّوهم للانسحاب عن آمد⁽¹⁾.

لخوارزمية عنه، عاد غياث الدين كيخسرو إلى حصار آمد، وشدَّد الضَّغط عليها، فتركها ثوران شاه، وتوجَّه إلى حصن كيفا، فسقطت المدينة بيد كيخسرو، ودخلتها عساكر سلاجقة الروم⁽²⁾. وأقام المعظَّم ثوران شاه في حصن كيفا، حتَّى خرج منه إلى سلطنة مصر بعد وفاة والده أيوب عام 647هـ 1249م، واستتاب في حصن كيفا ولده الملك الأوحَد عبد الله ابن ثوران شاه.

ولمَّا دخل التَّار إلى الجزيرة جاء الأوحَد إلى هولاكو، وقَدَّم له هديَّة، فأبقى عليه الحصن⁽³⁾. واستمرَّت آمد بيد سلاجقة الروم حتَّى سنة 655هـ 1257م؛ حيث قصدها ناصر الدين مُحمَّد بن المظفَّر صاحب ميَّافارقين، لعلمه بمُكاتبة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل لأهلها من أجل تسليمها له، فكتب ناصر الدين إلى الملك السعيد صاحب ماردين، وشرح له الموقف، وطلب نجده، فأجابته. فتقدَّمت عساكر ميَّافارقين إلى آمد، وهزموا عسْكر الروم بها، واستولوا عليها⁽⁴⁾.

وفي عام 657هـ 1259م، نزل هولاكو أمام آمد، وطلب من سيف الدين بن علي نائب الكامل صاحب ميَّافارقين في آمد أن يُسلمها له، فوافق، وقام هولاكو بتسليمها إلى عزَّ الدين وأخيه رُكن الدين ابني غياث الدين سلطان سلاجقة الروم، اللَّذين تولَّيا حُكم البلاد، بعد مصرع أبيهما غياث الدين كيخسرو إثر هزيمته عام 641هـ 1243م أمام التَّار⁽⁵⁾، ولمَّا اقتسما البلاد؛ كانت آمد لُركن الدين قلعج أرسلان "ونُوابه بآمد مع نُواب التَّار"⁽⁶⁾.

العلاقات مع خَرْتَبَرْت:

ولم يكن لهذه الإمارة دور يُذكر في أحداث الجزيرة بسبب صغرها، وتطرُّفها نحو الشَّمال⁽¹⁾، وربما كان أهمُّ أدوار هذه الإمارة هو دعوة صاحبها للملك الكامل عندما تعذَّر عليه عبُور الدَّربند للهجوم على بلاد سلاجقة الروم عام 631هـ 1234م، ليعبر من درب أمام حصنه، ولكنَّ قُوات كيقباد سلطان سلاجقة الروم هزم الفرقة الأيوبية، التي أرسلها الكامل بقيادة المظفَّر صاحب حماة، ولمَّا التجأ المظفَّر إلى حصن خَرْتَبَرْت حاصره كَيْقُبَاد، ثُمَّ أطلقه بعد أن استولى عليها⁽²⁾.

وكنتيجة للعلاقات بين السلطنة الأيوبية وإمارات الأراتقة نجد أنَّ الأراتقة قد حالفوا الأيوبيين مُنذُ دُخُولهم إلى الجزيرة الشَّامية، وسلَّم صلاح الدين مدينة آمد - بعد أن فتحها - إلى واحد من أمرائهم، وصاهره، فقد كانت سياسة صلاح الدين الجزرية تهدف إلى تحقيق الاستقرار فيها، وربط أمرائها بتبعية مباشرة، ليحصل على الدَّعم المادي والعسكري، خاصَّة الجُند، ليتقوَّى على الحرب، ويتفرَّغ للجهاد.

ولكنَّ الأسرة الأرتقية كانت تنقسم إلى عدَّة فُرُوع، منها: فرع آمد التابع بولائه للأيوبيَّة، وفرع ماردين المُهادن، أو المُعادي لهم حسب الظُّروف، فقد لعبت ماردين على حبال التحالفات، طوَّراً مع سلاجقة الروم ضدَّ الأيوبيَّة، وطوَّراً آخر مع الأيوبيَّة ضدَّ سلاجقة الروم، إلى أن قضى الملك الكامل على حُكمهم في آمد، واحتلَّها، عندها؛ أعلنت ماردين العداء السَّافر، وسعت للتحالف مع كُلِّ عدوٍّ للأيوبيَّة، حتَّى جاء التَّار، فكانت ماردين من المُدُن القليلة التي ضربت أروع الأمثلة في المُقاومة. أمَّا فرع خَرْتَبَرْت الأرتقي؛ فقد كان يُسيطر على قلعة صغيرة لم تكن ذات بال، ثُمَّ استولى عليها سلاجقة الروم نتيجة ولاء صاحبها للأيوبيَّة، ودَّعَمه للملك الكامل في هُجومه على بلاد السَّلاجقة.

1 - مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 190.

2 - كَنْز الدُّرر، ابن أبيك، 7 / 343.

3 - الأَعْلَاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3 / 498.

4 - الأَعْلَاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3 / 524.

5 - مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 326.

6 - الأَعْلَاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3 / 526.

1 - الإمارات الأرتقية، عماد الدين خليل، 187.

2 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1 / 131، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 162.

أرتق

إيل غازي / في ماردين

501-516هـ

1108-1122م

تيمور تاش

516-547هـ

1122-1152م

إلبي

547-571هـ

1152-1176م

إيل غازي

571-580هـ

1176-1184م

بولق

580-596هـ

1184-1200م

أرتق

596-636هـ

1200-1239م

سقمان / في كيفا

494-497هـ

1101-1104م

داود

500-543هـ

1108-1148م

قره أرسلان

543-542هـ

1148-1174م

محمد

542-581هـ

1174-1185م

سقمان

581-596هـ

1185-1200م

محمود

596-619هـ

1200-1222م

268

المبحث الثاني

العلاقات الأيوبية مع الأتابكة

لقد عُرفت - في عصر الدويلات - عدّة دول باسم الأتابكية، منها: دمشق، والموصل، وحلب، وأرمينيا، وأذربيجان، وفارس، ولورستان، وكرمان⁽¹⁾، وغيرها. وقامت هذه الدول على أنقاض الدولة السلجوقية، فقد اعتمد السلاجقة في حكمهم على عدد من القادة الأتراك، ولربطهم بالدولة وبالأسرة الحاكمة كان السلطان السلجوقي يعهد بتربية واحد من أولاده للبعض منهم، وقد يُزوَّجه أم الطفل مُطلقة السلطان⁽²⁾، أو يكتفي برعايتهم لأولاده. فعندما قام السلطان السلجوقي محمود بتولية عماد الدين زنكي على الموصل عهد إليه السلطان بتربية ابنه ألب أرسلان وفروخ شاه، مع أنّه لم يُزوَّجه بأيٍّ من زوجاته السابقات، ومع ذلك؛ فقد عُرف باسم أتابك⁽³⁾.

أتابكة الموصل والجزيرة:

عندما قُتل الشهيد عماد الدين زنكي على حصار جعبر، تجاوز الصدمة العنيفة في المعسكر رجلان، الأول هو جمال الدين محمد بن علي أكبر مُستشاري عماد الدين، الذي سارع إلى سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي، وطلب منه التوجّه نحو الموصل، القاعدة الأساسية للدولة، لتنصيبه خليفة لوالده⁽⁴⁾، بينما كان الرجل الثاني هو شيركوه بن شاذي، الذي اصطحب نور الدين محمود الابن الثاني لعماد الدين إلى حلب، ونصّب فيه⁽⁵⁾، ومنها امتدّت سيطرة نور الدين على الشام، ثمّ مصر. وبموت نور الدين؛ خلفه ابنه إسماعيل، الذي لم يكن - في الحقيقة - يملك أيّ فرصة أمام شخصية مُتميّزة مثل شخصية القائد صلاح الدين، فما إنْ تُوفي إسماعيل شابّاً حتّى كانت الشام ومصر كلّها بيد صلاح الدين، وزال الفرع الشامي، ليبقى فرع الموصل الأتابكي، ويستمرّ.

1- راجع كتاب:

The Mohammedan dynasties, Lane-Poole.

2- أعطى تاج الدولة تنش حمص إلى جناح الدولة حسين، وجعله أتابك لابنه رضوان بعد أن زوّجه أم رضوان ترکان خاتون. (بغية الطلب، ابن العديم، 6/ 2806).

3- أتابك لفظ تركي من مقطعين: أنا أو أطا ومعناها أب، وبك معناها أمير.

4- الكواكب الدرّية، ابن قاضي شهبة، 122، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 113.

5- الكواكب الدرّية، ابن قاضي شهبة، 122، والروضتين، أبو شامة، 1/ 120.

في أول الأمر طمع سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود، في بلاد عمه نور الدين، وهاجم الجزيرة⁽¹⁾، لكن؛ بعد توجه صلاح الدين لأخذ حلب من إسماعيل بن نور الدين، أدرك غازي أهمية تلاحمه مع حلب، فما بعدها إلا الموصل، لذلك أرسل نجدة قوية لها بقيادة أخيه عز الدين مسعود⁽²⁾. ولما توفي إسماعيل بن نور الدين أوصى بحلب لسيف الدين غازي صاحب الموصل، وطلب منه أخاه عماد الدين زنكي أن يأخذ منه سنجار، ويُعطيه حلب، فوافق⁽³⁾، ولما أخذ صلاح الدين سنجار عاد، وبادل عليها عماد الدين مقابل حلب⁽⁴⁾.

وفي عام 480 هـ 1087 م، استقل والي إربل زين الدين أبي سعيد يوسف ينالكين بن زين الدين علي بن بكتكين، وكاتب صلاح الدين، وانحاز له، مُقرراً بسلطنته، فكتب له منشوراً ببلاده⁽⁵⁾، وهكذا خرجت إربل عن الموصل، مما أضعف موقف عز الدين مسعود، الذي خلف أخاه، وقوى جانب صلاح الدين. كذلك التجأ إلى السلطان صلاح الدين صاحب جزيرة ابن عمر⁽⁶⁾ معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود، وكان يحثه على قصد الموصل⁽⁷⁾.

بدأت العلاقات السياسية والعسكرية الأيوبية مع أتابكة الموصل وسنجار أيام صلاح الدين، الذي كان يعد أنه وريث رسالة عماد الدين ونور الدين بالتحريض والتوحيد، لذلك هاجم الموصل، وبلادها، وأخذ منهم حلب، أما سيف الدين غازي وأخوه عز الدين مسعود وأبنائهم من بعدهم،

- 1 - الروضتين، أبو شامة، 231 - 234، والباهر، ابن الأثير، 175، ومُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 5/2، وسنا البرق، البنداري، تحقيق: ششن، 167.
- 2 - سنا البرق، البنداري، تحقيق: ششن، 186.
- 3 - سنا البرق، البنداري، تحقيق: نبراي، 185.
- 4 - سنا البرق، البنداري، تحقيق: نبراي، 209.
- 5 - سنا البرق، البنداري، تحقيق: نبراي، 249.
- 6 - يقول ابن خلكان: "أكثر الناس يقولون جزيرة ابن عمر، ولا أدري من ابن عمر؟ وقيل إنها منسوبة إلى يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقيين، ثم أني ظفرت بالصواب في ذلك، وهو أن رجلاً من أهل برقيد من أعمال الموصل بناها وهو عبد العزيز بن عمر، فأضيفت إليه. ورايت في بعض التواريخ ابني عمر أوس وكامل، ولا أدري - أيضاً - من هما، ثم رايت في تاريخ ابن المستوفي في ترجمة أبي السعادات المبارك بن الأثير أنه من جزيرة أوس وكامل ابني عمر بن أوس الثعلبي. (وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/494 - أوردها عباس العزوي في كتابه: التعريف بالمؤرخين).
- 7 - سنا البرق، البنداري، تحقيق: نبراي، 250.

فيرون أنهم أصحاب الدولة كلها، وما صلاح الدين إلا تابع مُتمرّد، استولى على تركة سيده، وحرّمهم منها، وقد عبروا عن هذا الموقف غداة موت صلاح الدين.

ولم يُقيِّضْ لدولة أتابكة الموصل بعد وفاة سيف الدين غازي شخصية قوية مثل شخصية العادل الأيوبي يُلَمُّ أطرافها، فاستمرت انقساماتها، وخلافاتها، وصراعاها السياسي الدائم، بل والعسكري في بعض الأحيان. وكانت التجزئة أمراً واقعاً لا رادّ له بعد وفاة كل سلطان قوي له عدّة أبناء، أو حتّى أمراء، أو قوَّاد أقوياء. فبحسب نظام الإقطاع العسكري السلجوقي يكتسب صاحب الإقطاع حقّه مدى الحياة، وله حقّ التوريث لأبنائه، وعلى هذا النظام قامت دول الأتابكيات، وكان هو سبب انقسامها، وضعفها.

العلاقات الأيوبية الأتابكية في عهد العادل:

كان أتابكة الموصل وسنجار يجاورون الأملاك الأيوبية في الجزيرة التي كان فيها إقطاع الملك العادل، وهو كبير البيت الأيوبي بعد وفاة أخيه صلاح الدين. ويبدو أن عز الدين مسعود صاحب الموصل أراد اغتنام فرصة موت صلاح الدين، فتناسى خلافاته مع أخيه عماد الدين صاحب سنجار، وجعاً عسكرياً، وراسل مسعود مُلُوك الأطراف، وشكّل تحالفاً قوياً ضدّ الأيوبيين⁽¹⁾.

وتشكّل حلف سياسي عسكري قلماً شهدت مثله الجزيرة، من المعارضين للبيت الأيوبي، ومن الطامعين بعد وفاة عميد هذا البيت، فانضمّ إلى هذا التحالف بكتمر صاحب خلاط، الذي كان يضمّر العداء لصلاح الدين ولأسرته، كذلك انضمّ له صاحب ماردين، الذي كان أول المتحرّكين عسكرياً، فحاصر حصن الموزر، وكان صلاح الدين قد اقتطعه من ولاية ماردين، وألحقه بالرها، وسارت قوَّات التحالف تقصد الرّها، وهي أكبر بلدان الجزيرة وقتها، "وأرسلوا للعادل: أن اخرج من بلادنا"⁽²⁾. إنّه الحقّ القديم يُطالبون به الآن، فالبلاد - في اعتقادهم - هي مُلك لجدهم عماد الدين زنكي، قد ورثوها منه، وما صلاح الدين إلا مُغتصب لإرثهم الشرعي.

- 1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/227، - إن رواية ابن الأثير، الذي يعيش في بلاط الموصل، تُظهر أن قائد هذا التحالف هو عز الدين مسعود صاحب الموصل. (الكامل في التاريخ، 9/227)، بينما يعدّ ابن واصل أن هذا التحالف كان بقيادة بكتمر أمير خلاط، الذي كان يكره صلاح الدين. (مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، 3/16)، راجع أيضاً: مملكة حلب، كمال بدور، 141.
- 2 - الفتح القسبي، العباد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار، 13/436.

ويبدو أن عز الدين في تردده قد أضاع عدة شهور في مفاوضات مع ملوك الأطراف ليؤخّدهم ضدّ الأيوبيين⁽¹⁾. ويذكر ابن الأثير تفاصيل مهمّة عن طبيعة التحرك الأتابكي ضدّ العادل؛ فيقول:

"لما بلغ عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة صلاح الدين جمع أهل الرأي من دولته، وفيهم مجاهد الدين قايماز كبير دولته، والمقدّم على كلّ من فيها، وهو نائبه فيهم، واستشارهم فيما يفعل، فسكتوا، فقال أخو مجد الدين أبو السعادات المبارك: أرى أن تخرج مسرعاً جريدة فيمن خف من أصحابك وحلقتك الخاص، وتتقدّم إلى الباقيين باللحاق بك إلى نصيبين، وتكتب أصحاب الأطراف: مظفر الدين صاحب إربل، وسنجر شاه، وابن أخيك صاحب جزيرة ابن عمر، وأخيك عماد الدين صاحب سنجار، تُعرّفهم أنك قد سرت، وتطلب المساعدة، فمتى رأوك قد سرت خافوك، وإن أجابك أخوك إلى الموافقة، والإبداء بنصيبين، فأخذتها، ثم سرت إلى الخابور وهو له، فأقطعته، وتركك مقابل أخيك عسكرياً يمنع من الحركة، أو قصدت الرقة وتأتي حرّان والرّها، فليس فيها من يحفظها، فإن العادل قد أخذها من ابن تقي الدين، ولم يقيم فيها ليصلح ما لها. وليس وراءك ما تخاف عليه، فإن بلدك عظيم لا يئالي بكلّ من ورائك. فقال مجاهد الدين: المصلحة أن تكتب أصحاب الأطراف، وتأخذ رأيهم، وتستميلهم، فقال أخي: سيُشربون بترك الحركة، لأنهم لا يريدون أن يقوى هذا السلطان، وسيغالطونكم مادامت البلاد الجزرية فارغة، فإذا جاء من يحفظها يجاهرونكم بالعداوة، ولم يتكلّم أكثر خوفاً من مجاهد الدين⁽²⁾".

فإذا تجاوزنا محاولة ابن الأثير تعظيم رأي أخيه أبي السعادات مُستشار عز الدين، فإننا لا نستطيع إلّا الإقرار معه أننا أمام ملك مُتردّد يؤثر السلامة، ولا يُحب المغامرة، فخطّط أبي السعادات تبدو أنّها تدبير مُحكم، لكنّ مجاهد الدين - رجل دولة الموصل القوي - كان يُفضّل التأمّن حتّى يتمّ استجلاء موقف بقيّة الأطراف، كي لا تجازف الموصل بتحرك قد يُكلّفها الكثير. وفي الحقيقة؛ لم يكن العادل ليجتاح من أعدائه لأكثر من هذه الحكمة والتأمّن ليرتّب أموره؛ حيث عاجلهم برسالة تحبرهم بموت أخيه صلاح الدين، واتّفاق الكلمة على ابنه الأفضل، وأنّه - أيّ العادل - مُدبر دولته، وأنّه قد سار في "عسكر جَمّ لقصد ماردین"، التي تعرّض صاحبها لبعض قرى العادل، "فظنّوه حقاً،

1 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 14 / 338.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 73.

ففتروا عن الحركة. ولما سيروا الجواسيس علموا أنّه في ظاهر حرّان مائتي خيمة لا غير، فتحرّكوا⁽¹⁾". "ولما علم العادل بمسيرهم نحو بلاده، استنجد بعساكر الظاهر والأفضل⁽²⁾"، لأنّه لا يملك القوّة لدفعهم، خاصّة أن الأمور السياسيّة والعسكريّة كانت ماتزال غائمة بعد فقدان السلطان صلاح الدين، ولم تختبر بعد وحدة البيت الأيوبي، ولا مدى فاعلية قواهم.

فنزل عز الدين دينسر، "ونزل العادل حرّان. ولما اقترب عز الدين من الرّها ومعه أخوه، كان العادل قريباً منهم⁽³⁾"، وقد وصلته النجيدات من حلب، ومن دمشق⁽⁴⁾. مع ذلك؛ طلب العادل الصلح "على أن تكون البلاد الجزرية: الرّها، وحرّان، والرقة، وما معها، بيده على سبيل الإقطاع من عز الدين، فلم يجبه إلى ذلك⁽⁵⁾".

لكنّ المرض سرعان ما داهم عز الدين مسعود، وأجبره على العودة نحو الموصل، تاركاً جيشه مع أخيه عماد الدين لإكمال المهمّة التي خرجا من أجلها؛ وهي احتلال الجزيرة، لكنّ عماد الدين قرّر الصلح مع الملك العادل، ربّما لأنّه كان مسلماً في طبعه، لئّن العريكة، يُؤثر السلامة، أو لأن مرض أخيه جعله يُفكر في مشاكل البيت الأتابكي، ورأى أن عودته نحو سنجار غدت ضرورية، ومهما كان الأمر فقد قرّر الصلح، وكان ذلك يصبّ في مصلحة العادل. فاضطرّ صاحب ماردین للتضرّع، وتشفّع إلى العادل، فعفا عنه. ولم يُضَيّع العادل الفرصة، واستغلّ وجود النجيدات معه، فأمر الظافر - وهو بعسكر دمشق - أن يحاصر سروج، وأمدّه، ففتحها. ثمّ تحرّك العادل نحو الرقة، فتسلّمها، وأعطاه إقطاعاً إلى ابن أخيه الظافر قائد نجدة دمشق⁽⁶⁾، وكانت هي وسروج لعماد الدين صاحب سنجار⁽⁷⁾. كذلك استولى العادل على بلد الخابور⁽⁸⁾ جميعه، وفرّقه إقطاعاً على الملوك الذين معه، مثل:

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 100.

2 - رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 2 / 601.

3 - يقول ابن الأثير واصفاً العادل عند اقتراب قوّة الأتابكة منه: "فخاف خوفاً عظيماً". (الكامل في التاريخ، 12 / 100)، وربّما كان هذا الخوف من إضافات ابن الأثير ليرضي سادة الموصل، الذين كتب في ظلّ رعايتهم، وإلا فما أدراه بخوف العادل، وإن كان قليلاً، أو عظيماً، علماً أنّه لا داعي لخوف العادل، فقد وصلته نجيدات قويّة.

4 - رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 2 / 601.

5 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 14 / 939.

6 - رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 2 / 601.

7 - شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 203، والفتح القسبي، العباد، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 13 / 436.

8 - الفتح القسبي، العباد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 13 / 436.

صاحب حماة، وصاحب حمص⁽¹⁾. إن هذا التوزيع للإقطاعات لابد أن العادل كان يقصد منه استمالة أمراء ومثلك بني أيوب، وتقريبهم إليه، ولم يكن يقصد منه توزيع إقطاع عسكري حقيقي، بدليل استرجاعه - فيما بعد - لكل الإقطاعات التي وزّعها في هذه المرحلة المبكرة من ملكه.

كان هذا أول احتكاك عسكري بين الأيوبيين وأتابكة الموصل، وقد تم بعد وفاة صلاح الدين مباشرة بتحريك أتابكي نحو الرها، التي تتبع للعادل، وفي هذا الصراع، وقف البيت الأتابكي موحداً مقابل البيت الأيوبي، الذي خاض أول امتحان له في الوحدة ضد خطر خارجي؛ حيث أمد كل أبناء صلاح الدين عنهم بالجيش، ولكنهم لم يتوقعوا أن السياسة الأيوبيّة الجزرية - بعدها - ستصبح صدى لصراعاتهم في الشام.

الأتابكة وأولاد العادل، أبواب الجزيرة :

في عام 598 هـ 1202 م، وبعد استتباب الأمر للعادل في الشام ومصر، سحب ابنه الكبير ووليّ عهده الكامل محمد من الجزيرة، وولاه مصر، ووليّ العادل ابنه المعظم عيسى دمشق، ومعها سورية الجنوبية، ووليّ ابنه الأشرف موسى على معظم ممتلكاته الجزرية، وكانت قاعدتها حرّان، ووضع معه أخاه الأوحّد في ولاية ميّافارقين، وابنه الحافظ في قلعة جعبر، ومعها بالس⁽²⁾. من هذا التوزيع؛ نستطيع أن نستنتج الأولويات في سياسة العادل، فيبدو واضحاً أن آخر اهتماماته هي الجزيرة، بينما يركّز - بشدة - على مصر، فهي القاعدة الأساسية لحكم بني أيوب، ثمّ تليها الشام.

ولأن العادل كان يرغب بالحفاظ على مكاسبه في الجزيرة، وبالتالي؛ على دولته، فقد سعى جاهداً لتحقيق نوع من السّلم المحليّ في الجزيرة، خاصّة في بداية عهده، وحاول أن يتجنّب أيّ مغامرة عسكريّة قد تقلب الوضع كلّ في وجهه، وكانت نصائحه لأولاده في الجزيرة تدلّ على ذلك، خاصّة أنّه كان يشكّ في تصرفات ابن أخيه الظاهر غازي في حلب. ويبدو أن فشل صلاح الدين مرّتين أمام الموصل كوّن لدى العادل فكرة خاطئة عن قوّة الأتابكة، ولم يدرك ما آكل إليه الحال بعد كلّ تلك السنوات والتغيّرات في الموصل.

1- المنصوري، ابن نظيف، 85 - 59.
2- الأعلام الخطيرة، ابن شداد، 3 / 2 / 453.

ولكن الظُروف كانت تصبّ في مصلحة العادل، فقد وقع الانقسام ضمن البيت الأتابكي، ففي عام 594 هـ 1198 م، ونتيجة لتعدّيات قُطب الدّين صاحب سنجار على قرى تتبع الموصل، قام أمير الموصل نور الدّين، واحتلّ نصيبين، وهي من أملاك سنجار⁽¹⁾. فراسل قُطب الدّين الملك العادل، وكان بدمشق، وبذل له الأموال لئيجده، ولاحت فرصة نادرة للعادل لجعله يدخل وسط البيت الأتابكي بدعوة من أحد أفراد، فلم يتردّد، وجمع قوّة كبيرة، وتحرك نحو الجزيرة.

في هذه الأثناء، كان نور الدّين قد انسحب من نصيبين، وعاد للموصل بسبب وباء تفشّى في عسكره، فاستعادها قُطب الدّين، لكنّ العادل - كمعادته - أراد أن يستغلّ وجود الجيش معه في الجزيرة، فتوجّه نحو ماردين، التي كان مُدبّر المملكة فيها قد دعاه ليتسلّمها مقابل عوض⁽²⁾، ولكنه لم يف للعادل⁽³⁾، وتحصّن في ماردين، فهاجها العادل، واستولى على ربضها، وحاصر القلعة⁽⁴⁾، واستمرّ بحصارها، حتّى دخلت سنة 595 هـ 1199 م. وكان من المتوقّع أن لا تصمد القلعة طويلاً أمام قوّات العادل، ومع قوّات أيوبية كبيرة، لكنّ حدثاً ما لم يكن بالحسبان، وقلب الموازين مرّة أخرى، إنّما - الآن - داخل البيت الأيوبي، فقد ورد الخبر بوفاة العزيز صاحب مصر، واستدعاء أخوه الأفضل ليرتفع مكانه على عرش القاهرة. وبدأ الخطر - الآن - يلوح من جانب حلب وصاحبها الظاهر بن صلاح الدّين، الذي أخذ يُدبّر لأخذ دمشق من عمّه العادل، فكان من مصلحته أن يُثبت على حصار ماردين، فاتّصل الظاهر بأتابكة الموصل وأتفق مع نور الدّين أميرها، ليتحرّك نحو ماردين لمنع سقوطها، وبذلك ضمن منع العادل من الحركة نحو الشام. وعندما خرج الأفضل من مصر طالباً دمشق أرسل إلى نور الدّين يطلب التحالف معه، والمساعدة ضدّ العادل⁽⁵⁾.

وأخذ البيت الأيوبي بالانقسام، وعاد البيت الأتابكي للتجمّع ضمن تحالف شمالي كبير، فكان معهم الظاهر الأيوبي ملك حلب، وصاحب ماردين. فالعادل - الآن - في وضع عسكري حرج، وأملاكه غنائم سهلة لمن يتصدّى لها. وتحرك جيش نور الدّين من الموصل، ومع قُطب الدّين محمد

1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9 / 246.
2- مُفرّج الكرب، ابن واصل، 3 / 80.
3- الروضتين، أبو شامة، 2 / 234.
4- الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 14 / 349.
5- الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 14 / 351.

من سنجار، ومعز الدين سنجر شاه من جزيرة ابن عمر، واتجهوا صوب ماردين، التي ترك العادل قلعتها تحت الحصار بقيادة ابنه الكامل محمد، وأسرع هو صوب دمشق، التي كانت جيوش أيوبية الشام ومصر تتحرك نحوها لحصارها، لكن العادل تمكن من دخول دمشق، والثبات فيها.

واستطاع جيش الأتابكة هزيمة الكامل عند ماردين، فراجع أمامهم، وكانت الفرصة سانحة أمام التجمع الأتابكي وحلفائهم لإعادة احتلال الجزيرة، وكانت نية نور الدين المتابعة لأخذ حران⁽¹⁾، لكنه - فجأة - يقرر الانسحاب نحو قاعدته في الموصل محتجاً بمرضه⁽²⁾، ويبدو أن حقيقة الأمر هي خلافه مع الظاهر الذي يذكر ابن الأثير بأنه كان بسبب طلب الظاهر الخطبة والسكة في الموصل⁽³⁾، إن هذا السبب حتى وإن ذكره ابن الأثير فهو مشكوك فيه، خاصة في ظل هذا الظرف، فخطر العادل مازال قائماً. ويبدو لنا السبب الأكثر احتمالاً لعودة نور الدين وانسحابه من مشروع التكتل ضد العادل هو عدم تطبيق الظاهر لبُثود الاتفاق معه، فقد اتفقا على أن تكون لنور الدين سروج والرقعة، ولكن الظاهر قام بإقطاع سروج إلى الأمير سيف الدين بن علم الدين بن جندر قائد القوة الحلبية لدعم التحالف الأتابكي ضد العادل⁽⁴⁾، فقد تبين نور الدين حقيقة نواياه، وأدرك أن الظاهر يريد استغلال كره الأتابك للعادل، وتجنيدهم ضده، مستفيداً من إيقاظ أحلامهم باستعادة الجزيرة. وجاء تنبه نور الدين لذلك في الوقت المناسب، مما مكّن العادل من الاحتفاظ بدمشق، ولذلك نعتقد أن موضوع الخطبة والسكة لم يكن ذا بال لدى نور الدين، فهي شيء شكلي، ويمكن أن يكون مرحلياً يتم التخلي عنه عند اللزوم، خاصة إذا عرفنا أن نور الدين كان قد سبق وعرض الخطبة والسكة في بلاده على الظاهر عندما طلب التحالف معه ضد العادل عام 606 هـ - 1209 م، أثناء هجوم العادل على سنجار، والاعتراف به سلطاناً على كل بلاد الأتابكة⁽⁵⁾. كما أن قطب الدين محمد صاحب سنجار كان يخاطب فعلاً للعادل ببلاده⁽⁶⁾. هنا؛ تبدو لنا السياسة الأيوبية في الجزيرة - بشكل جلي - كصدى لسياستهم في الشام.

- 1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.
- 2- الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 14/ 196، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.
- 3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.
- 4- رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 3/ 145.
- 5- رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 2/ 630.
- 6- المختصر، أبو شامة، 3/ 105.

وبعد طرد الأفضل من مصر، وخلع المنصور بن العزيز عن عرشها عام 596 هـ - 1200 م، انفرد العادل بملك مصر، ولم يبق في ساحة المواجهة ضده من أولاد أخيه سوى الظاهر في حلب، الذي أيقن أنه يكون سيكون التالي في أطباع عمه العادل، فعاد الظاهر لإحياء الحلف الشمالي من جديد، لحماية ظهره في الجزيرة والشرق، لينفّخ للصراع المقبل مع عمه العادل. اتصل الظاهر بنور الدين أتابك الموصل، وحسام الدين يولق صاحب ماردين، "وتحالفوا، وحلفوا"⁽¹⁾، وظهرت فائدة هذا الحلف للظاهر عندما تحرك حصار دمشق عام 597 هـ - 1201 م؛ حيث طلب من نور الدين مهاجمة ممتلكات العادل في الجزيرة، فتحرك نور الدين من الموصل ومعه ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار، وانضم إليهما صاحب ماردين، وقصدوا رأس عين، وفيها الفاتح بن العادل نائباً عن أبيه.

وهنا - أيضاً - يكرّر نور الدين انسحابه بحجة نفسي المرض بين قوّاته، ولكن الاحتمال الأقوى لانسحابه هو تواتر الأخبار من دمشق عن اختلاف الظاهر وأخيه الأفضل ورجحان كفة عمهما العادل في صراعهم معه على دمشق. وليحمي نور الدين ظهره خلال انسحابه، وليعوّض تورطه الثاني، وانخداعه بوعود الظاهر، قام بعقد الصلح مع الفاتح بن العادل، ثم انسحب نحو الموصل، لينهار التحالف الشمالي مرة أخرى⁽²⁾، مما مكّن الفاتح للتفرغ في الجزيرة، فقلب الآية، وبدلاً من ضغط الحلفاء على العادل في الجزيرة لتسليم دمشق أخذ الفاتح بالهجوم على ممتلكات حلب لتخفيف الضغط العسكري عن دمشق، فهاجم بالس ومنبج، ولما تصدّى له المبارز أقباجاً قائد جند حلب هزمه الفاتح، وأمعن بنهب إقطاعات قادة جند حلب المحاصرين لدمشق، حتى يشغل أفكارهم. ولكن كل هذه الحركة للفاتح في الجزيرة لم تكن إلا الجزء الأول في خطته، التي سهّلها له فشل التحالف الحلي الأتابكي، فالجزء الثاني، وهو الأهم، كان التحاق الفاتح مع جند الجزيرة بوالده العادل المربط في نابلس لإنقاذ دمشق المحاصرة.

وبعد أن استتب الأمر للعادل داخل البيت الأيوبي، بإقصاء الأفضل وخضوع الظاهر، غدا العادل السلطان الأعظم للأيوبية، فله الخطبة والسكة في كل إمارات الشام، ويده ممدد من الجزيرة، إضافة إلى تملكه مصر ودمشق وجنوب الشام. وكان الأمر على العكس من ذلك داخل

- 1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 354، ومفترج الكرب، ابن واصل، 3/ 120، ورُبْدَة الحلب، ابن العديم، 2/ 630.
- 2- الباهر، ابن الأثير، 196، ومفترج الكرب، ابن واصل، 3/ 126، والبداية والنهاية، ابن كثير، 13/ 34.

البيت الأتابكي، فقد عادت الخلافات الأتابكية من جديد عام 600 هـ 1203 م؛ إذ قام قُطب الدِّين مُحمَّد بالانتماء للعادل واللُّجوء لحمايته بإعلان الخطبة والسَّكَّة له في سنجار، ورُبِّما كان ذلك نكاية بأمير الموصل نُور الدِّين، أو خوفاً من مطامعه، التي سرعان ما تبدَّت بهُجُومه على نصبيين، واحتلالها⁽¹⁾، فأمر العادل ابنة الأشرف الذي أولاه حُكْم أملاكه في الجزيرة، وابنه الأوحده صاحب مَيَّافارقين، بالتحرك لنجدة صاحب سنجار، فسارا ومعهما نجدة صاحب حلب، فهزموا نُور الدِّين الذي هرب لا يُصدِّق بنجاته إلى الموصل⁽²⁾، فالانقسام الأتابكي - الآن - يواجهه تجمع أيوبي.

الانقلاب في توجُّهات الموصل السياسيَّة:

يبدو أن نُور الدِّين صاحب الموصل قد أيقن - بعد تلك التجربة - أنَّ أيَّ تحرُّك ناجح يجب أن يكون بدعم وتأيد العادل، الذي أصبح القوَّة الكُبرى في المنطقة، وفي الوقت نفسه؛ كان العادل يرى من مصلحته تفريق مُلُوك البيت الأتابكي، والدُّخول بينهم؛ ليتمكَّن من السيطرة عليهم كما فعل مع أولاد أخيه، ففي عام 605 هـ 1208 م، طلب العادل مُصاهرة نُور الدِّين، وخطب ابنته لأحد أولاده⁽³⁾، وسعى لإقامة تحالف معه، واتَّفقا على اقتسام الممالك الأتابكية الأخرى؛ بحيث يأخذ العادل سنجار وهي لِقُطب الدِّين ابن عمِّ نُور الدِّين، ويأخذ نُور الدِّين جزيرة ابن عُمر، وهي لمحمود بن سنجر شاه⁽⁴⁾. وجاءت الفرصة للعادل تسعى، فقد هاجم الكرج مملكة خِلاط، واحتلُّوا أرجيش⁽⁵⁾، وكانت للأوحده بن العادل، الذي استصرخ أباه⁽⁶⁾، فأعلن العادل التعبئة ضدَّ الكرج، "وكتب إلى البلاد بطلب العساكر، وأظهر أنَّه يُريد قصد الكرج"⁽⁷⁾، وكان ذلك ملائماً لإخفاء العادل حقيقة نواياه ضدَّ سنجار، ولم يُظهر اتِّفاقه مع صاحب الموصل، لمنع قُطب الدِّين صاحبها من الاستعداد، وأخذ على غرَّة من جهة، ومن جهة أخرى؛ لمنع الأمراء الأيوبيِّين، الذين قدَّر العادل أنَّ

1- المختصر، أبو الفداء، 105 / 3.

2- المختصر، أبو الفداء، 105 / 3.

3- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 191 / 3.

4- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 191 / 3، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 286، - أمَّا ابن نظيف؛ فيقول: إن خُرُوج العادل كان بسبب ما وصل إليه من تحالف أتابك الموصل والظاهر مع جميع الشرقيين. (المنصوري، 57).

5- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 183 / 3.

6- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 190 / 3.

7- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 190 / 3.

أخذَه لسنجار قد لا يُعجبهم، من التآمر عليه، بينما لا يُشكِّل التصدِّي المُعلن للكرج أيَّ خطر عليهم، بل على العكس، فالعدوُّ كافر، وهذا جهاد لا يستطيع أيُّ منهم أن يتخلَّف عنه.

وسارع العادل إلى حَرَان، وطلب أن يكون التجمُّع عليها⁽¹⁾، فوصله ولده الأوحده صاحب أخلاط مع عسكره، وولده الأشرف بقوَّات الجزيرة، والمنصور صاحب حماة، والمُجاهد صاحب حمص، والأجد صاحب بعلبك، والصَّالح صاحب آمد مع عسكرهم، كما وصلت عساكر الظَّاهر صاحب حلب، وصاحب السويداء وصاحب دارا بقوَّاتهم⁽²⁾، والأطرف في الأمر وُصول عسكر المنصور صاحب سنجار⁽³⁾. وعندما وصل العادل رأس عين بلغه انسحاب الكرج⁽⁴⁾، وذلك "أن الكرج لما عرفوا بحركته، خافوا، وكثروا عائدين إلى بلادهم"⁽⁵⁾. فالتفت العادل لتحقيق هدفه الرئيس، ولايَّد أنَّه قد حار في أمره، فكيف يتوجَّه نحو سنجار لأخذها وقوَّات أميرها قُطب الدِّين معه في حملته؟! وكيف يُبرِّر ذلك أمام المُلُوك والأمراء من آل بيته؟! فلم يجد أفضل من إعلان الغضب على قُطب الدِّين؛ لأنَّه تخلَّف عن الحُضور بنفسه، واكتفى بإرسال قوَّاته، وقال: إنَّه "تجدد له قصد سنجار لتخلَّف صاحبها عن وُصوله بنفسه"⁽⁶⁾، مع أن الظَّاهر غازي - أيضاً - لم يصل بنفسه، فالأمر مُبيَّت، وأساس جمع الجيُوش هو قصد سنجار، وعلى الغالب؛ فإنَّ تحرُّك الكرج جاء عَرَضاً، فأحسن العادل استغلاله. وأعلن العادل أنَّه سيتوجَّه لمعاينة صاحب سنجار أولاً، وأرسل إليه يطلب تسليم سنجار مُقابل عوض، فرفض ذلك⁽⁷⁾. وفي عام 605 هـ 1208 م، كان العادل يتحرَّك صوب سنجار، وفي طريقه أخذ نصبيين والخابور، ثُمَّ "نصب المجانيق، وقاتل سنجار، وأشرف على أخذها عنوة"⁽⁸⁾.

1- المنصوري، ابن نظيف، 57.

2- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 191 / 3.

3- المنصوري، ابن نظيف، 75 - 58.

4- زبدة حلب، ابن العديم، 2 / 630.

5- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 192 / 3.

6- المنصوري، ابن نظيف، 57.

7- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 191 / 3.

8- المنصوري، ابن نظيف، 95 - 58.

عندما حاصر العادل سنجار كان نور الدين صاحب الموصل يهبط بإرسال نجدة عسكرية له مع ولده الظاهر عز الدين مسعود لتنفيذ الاتفاق المسبق بينهما، وإذ برسل مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، الذي كانت له وجهة نظر أخرى، فقد شعر بأن العادل قوة كبرى في مجاورتها خطر شديد عليه، وعلى الموصل، فأنفذ رسوله إلى صاحب الموصل، وشرح وجهة نظره، وعرض عليه التحالف لإنقاذ سنجار، التي ستكون حاجزاً أمام أطباع العادل بممالكهم. هنا؛ أدرك نور الدين أنه استقدم أكبر الأخطار نحو حدوده، وخاف مغبة ما بعد سيطرة العادل على سنجار⁽¹⁾، ورؤبها كان مظفر الدين كوكبوري حاكم إربل هو من نمت في نفس نور الدين من خلال كُتبه المتواترة عليه، والتي يعرض فيها المساندة، ويدعوه للتصدي للعادل، وتشكيل تحالف ضده، فوافق نور الدين، وراسل الظاهر في حلب، فوافق، وانضم إليهم، مع أن قوة كبيرة من جيشه كانت مع العادل على سنجار. وأظهر غازي سبياً غير حقيقي لتبرير خروجه على عمه، فقال: إن العادل قد تصرف بقرية القرادي التابعة لماردين، والتي حصل عليها الظاهر نتيجة عقد الصلح بين العادل وصاحب ماردين⁽²⁾، وبالطبع؛ فدوافعه الحقيقية لا تخفى على أحد، فقوة العادل في الشمال ستكون ضده أيضاً، والظاهر لديه شك دائم بنوايا عمه، خاصة بعدما فعله بأخوته الأفضل والعزيم⁽³⁾. وراسل الحلفاء الخليفة ليشفع لدى العادل بصاحب سنجار⁽⁴⁾، وما ذلك إلا لزيادة الضغط على العادل، وعزله سياسياً.

وأرسل مظفر الدين إلى العادل يشفع في صاحب سنجار، "فلم يقبل، وقال: لا يجوز لي في الشرع تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال في الفساد، وترك خدمة الأجناد، وفي مصلحة الجهاد"⁽⁵⁾، فكانت حجته هي المصلحة العامة، التي لا يُراعيها صاحب سنجار وفساده وإتلافه للأموال العامة، كما اتهمه بالتقصير بحق الجيش، وبواجب الجهاد، إنها تهمة كبيرة وحجة مسوغة في

1- مفترج الكروب، ابن واصل، 3/ 190.

2- مفترج الكروب، ابن واصل، 3/ 190.

3- يضيف ابن العديم سبباً آخر لا نعتقد بصحته، وهو أن الحلفاء قد وعدوه بالسلطنة، وأن تكون الخطبة والسكة باسمه في بلادهم، (رُبدة الحلب، 2/ 630).

4- الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 14/ 355.

5- رُبدة الحلب، ابن العديم، 2/ 630.

ذلك الزمان. وكان رد مظفر الدين أن أفسد جماعة من عسكر العادل⁽¹⁾، بأن استمالهم بالأموال والوعود بإقطاعات، ففسدت نيّاتهم عن مناصحة العادل بالقتال معه، وهذه طريقة للتعامل كانت شائعة جداً، فمُعظم الجند جاهز سلفاً للاتفاق مع من يدفع أكثر.

واستمر حصار العادل لسنجار حتى عام 606 هـ 1209 م، فطلب صاحبها قطب الدين مساعدة ابن عمه نور الدين صاحب الموصل، ومظفر الدين صاحب إربل، ولما كان العادل قد رفض الشفاعة بسنجار، فتحرّكا بعساكرهما نحوه⁽²⁾. كذلك خرج الظاهر من حلب بقواته، وأرسل للعادل يشفع بصاحب سنجار، وقال لرسوليه: "إن لم يقبل الشفاعة، فأعلمناه أني خارج إلى بلاده، وأن يأمر عسكر حلب أن يفارقوه إلى الموصل، أو إلى حلب"⁽³⁾، وأرسل يُغري المُجاهد صاحب حمص، والمنصور صاحب حماة بالعادل، فكانت الضربة القاسمة لوحدة البيت الأيوبي واجتماعه في القتال على سنجار، فتخاذل قواد العادل عن القتال، وتآمر ملوك الأيوبيين الذين معه، لا سيما المُجاهد الذي كان يُدخل من جانبه الأقوات إلى سنجار⁽⁴⁾، وغالباً؛ فقد كانت للمُجاهد دوافعه الخاصة ضدّ العادل، ولم يتصرف بذلك من أجل الأتابكة، أو بتحريض الظاهر له⁽⁵⁾.

وفي هذه الأثناء، أرسل الخليفة الناصر رسوله أبو نصر هبة الله بن المبارك بن الضحّاك، وهو أستاذ داره، والأمير آقباش، وهو من خواص ممالك الخليفة، للشفاعة بصاحب سنجار، وترك حصارها⁽⁶⁾. فلاحق فرصة الخلاص من هذا المأزق للعادل، فأظهر قبول وساطة الخليفة، ووافق شريطة احتفاظه بنصيبين والخابور⁽⁷⁾، ويضيف ابن الأثير شرطاً آخر له، هو دخول سنجار في حلفه⁽⁸⁾، ورُبما كتب ابن الأثير ذلك تسويقاً لمواقف صاحب الموصل المستقبلية ضدّ سنجار

1- رُبدة الحلب، ابن العديم، 2/ 630.

2- الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 14/ 355.

3- مفترج الكروب، ابن واصل، 3/ 196.

4- مفترج الكروب، ابن واصل، 3/ 197.

5- راجع: مملكة حمص الأيوبيّة، منذر الحايك، 167.

6- الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 14/ 355، ومفترج الكروب، ابن واصل، 3/ 197، - بينما يقول أبو شامة: "وأرسل الخليفة ابن الضحّاك أستاذ داره آقباش الناصري يشفع إلى العادل" (ذيل الروضتين، 67)، وهذا خلط بين الشخصيتين، ربّما كان ذلك بسبب خطأ في النسخ.

7- مفترج الكروب، ابن واصل، 3/ 197.

8- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 302.

وصاحبها، فموضوع التحالف شيء غير مضمون، إن لم يكن عن رغبة صادقة ومصلحة حقيقية، لذلك لا نعتقد أن العادل قد اهتم كثيراً بشرط كهذا.

وقفة مع تحركات الحلفاء ضدَّ العادل في حصار سنجار:

1 - تدخل الظاهر غازي في حصار سنجار مدفوعاً بمصالحه وعدائه القديم للعادل، ولخشيتيه من تزايد نفوذ عمه في الشمال، فأوفد رسولين للعادل بمهمة علنية، يطلب فيها الشفاعة لصاحب سنجار، وبمهمة سرية لتبليغ القوات الحلبية في جيش العادل كي تعود إلى حلب، وأعلن أنه نقض اتفاقه مع العادل؛ لأنه احتل قرية قرادي، ولم تكن القرية ذات بال، ولكن؛ وفي الحقيقة، كان الظاهر يفتش عن سبب.

2 - اتصل الحلفاء بالملك المجاهد صاحب حمص، الذي كان على رأس قواته على حصار سنجار مع العادل، واستمالوه، فالمجاهد - أيضاً - يهمله أن لا تتسع مملكة العادل، فقد يتفرغ له بعد أن شاهد تصرفه مع أولاد أخيه، وهم الأقرب له، "فأخذ المجاهد - بدلاً من القتال على سنجار وتشديد الحصار عليها من جهته - يُدخل إليها الأغنام، وغيرها من الأقوات ظاهراً، ولا يُقاتل عليها"⁽¹⁾، وكذلك اقتدى به غيره من الأمراء المحاصرين لسنجار⁽²⁾.

3 - توحدت - بشكل غير متوقع - قوات مظفر الدين كوكبوري مع قوات نور الدين، ثم تحركا نحو سنجار، بعد أن أرسلوا يشفعان لصاحب سنجار، ورفض العادل⁽³⁾.

4 - ويبدو أن تزايد أنصار الحلف الشمالي ضدَّ العادل، وتحاذل أصحابه، وتفرقهم، وتدخل الخليفة بقوة بإرساله شخصية مهمة في السفارة إلى العادل هو بهاء الدين بن الضحَّاك أستاذ دار الخلافة، يقول ابن الأثير حول إنفاذ مثل هذا الرسول: "وناهيك بهذا شرفاً وجلالة وقدراً لنور الدين عند أمير المؤمنين؛ إذ يُنفذ مثل أستاذ داره"⁽⁴⁾، ومعه الأمير آقباش من خواصَّ ممالك الخليفة"⁽⁵⁾، فاضطرَّ العادل لقبول الوساطة، وفكَّ الحصار عن سنجار⁽⁶⁾.

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 286.

2 - مُفرَّج الكرب، ابن واصل، 3 / 197.

3 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 14 / 355.

4 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 14 / 355.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 287.

6 - المنصور، ابن نطف، 59، والباهر، ابن الأثير، 196، ومُفرَّج الكرب، ابن واصل، 3 / 197.

5 - إن قبول العادل لوساطة الخليفة ما هو إلا مخرج حفظ به ماء وجهه، فقد أيقن بفشل الحصار، وتأكَّد من تحاذل بني أيوب من حوله، وأن الأمور تكاد أن تنقلب عليه، فكانت وساطة الخليفة إنقاذاً له بالدرجة الأولى.

ونستنتج من كل ذلك أن البيت الأتابكي بعلاقاته السياسية والعسكرية لم يكن مكافئاً للبيت الأيوبي، لا من حيث القوة والتأثير، ولا من حيث وحدة البيت الأتابكي، فلم يكن لهم وزن إقليمي مؤثر قادر على إحداث تغييرات جذرية في شمال العراق والجزيرة، حتى في حال استغلالهم لخلافات البيت الأيوبي، ونجد - على الدوام - أن معظم أمراء الأتابكة يخضعون لسلطان الأيوبيَّة، ويدعمونهم بالجنودات، ويخطبون لهم وينقشون اسمهم على السكة في بلادهم، في معظم هذه المرحلة من الزمن. إلا أن عهد التفوق الأيوبي الكامل، والانفراد بالزعامة، قد تمَّ بوفاة نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل عام 607 هـ - 1210 م، واقتسام طفليه الصغيرين مملكته⁽¹⁾، وبدء وصاية بدر الدين لؤلؤ مملوك أرسلان شاه⁽²⁾ على الموصل. وبأبسط الطُّرق زالت عقبة كأداء من أمام الملك العادل، وتحقَّق له الاطمئنان والراحة على حدوده الشرقيَّة⁽³⁾.

العلاقات مع الأتابكة في عهد الأشرف:

بعد موت السلطان العادل 615 هـ - 1218 م، كان الصُّلح بين الأيوبيَّة والأتابكة، الذي عُقد على أسوار سنجار مائزاً قائماً، وحاول الملك الأشرف وهو أقوى مملوك شمال الشام أن يحافظ على علاقاته مع الأتابكة ومملوك الأطراف على أساس ذلك الاتفاق، لكنَّ مُستجدَّات الأمور سبقته. ففي العام نفسه توفيَّ عزَّ الدين مسعود بن أرسلان شاه صاحب الموصل⁽⁴⁾، فتحرك عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه صاحب قلاع الحميدية وعقر وشوش، واستولى على عدد من قلاع الموصل، ولما تصدَّى

1 - تولى في الموصل عزَّ الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه، وكان عمره عشر سنين. وتولى أخوه الأصغر عماد الدين زنكي قلاع: عقر الشوش والحميدية.

2 - بدر الدين لؤلؤ: ابن عبد الله، الملك المسعود أبو الفضائل الأتابكي الرومي، مملوك أرمني اشتراه أرسلان شاه، وتمكَّن عنده، حتى وثق به، فولاه الوصاية على ابنه. ترجمته في: الباهر، ابن الأثير، 23، والكامل، ابن الأثير، 12 / 238، ومجمع الآداب، ابن الفوطي، 4 / 171، وذيل المختصر، ابن الوردي، 2 / 126.

3 - الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، محمود ياسين التكريتي، 152.

4 - ذيل الروضتين، أبو شامة، 114.

له لؤلؤ الوصي على أمير الموصل الصغير نور الدين أرسلان شاه ابن عز الدين مسعود، هزمه عماد الدين بدعم ومساعدة فعالة من مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، فلم يجد لؤلؤ أمامه إلا الالتجاء إلى الأشرف⁽¹⁾.

أرسل الأشرف إلى كوكبوري يذكره بمُعاهدة سنجار، ويهدده، لكن كوكبوري لم يلتفت لتهديده، فالأخبار كانت قد تسربت بأن الفرنج قد هاجموا مصر، وأنهم أخذوا دمياط، وأن الأيوبيين بكاملهم مشغولون بالدفاع عن مركز حُكمهم في مصر. وهذا ما شجّع ملوك الأطراف الآخرين على تشكيل حلف مُعادٍ للأشرف في شمال الشام، واتَّفَقوا على طاعة عز الدين كيكائوس سلطان سلاجقة الروم، وخطبوا له على منابر بلادهم. وانضمَّ إلى الحلف كُلٌّ من: صاحب آمد، وصاحب ماردين⁽²⁾.

ولكن؛ مع كُلِّ الظُّروف الصعبة التي قامت في وجه الأشرف، فقد أرسل نجدة عسكرية قوية إلى لؤلؤ، مكنته من هزيمة عماد الدين عام 616 هـ - 1219 م، عند قلعة العقير، فهرب إلى إربل مهزوماً، واستعاد لؤلؤ قوته في المنطقة، وسير نجدة قوية مع ابنه إلى الأشرف، الذي أراد أن يضرب بلاد الفرنج في الساحل ليخفف ضغطهم على الكامل في مصر. وتحرك كوكبوري من جديد، وضغط على الموصل، وتمكّن من هزيمة لؤلؤ، الذي هرب، ودخل الموصل⁽³⁾. وازداد ضغط كوكبوري على الأشرف، فقد راسل بعض أمرائه، واستألفهم، فتركوا الأشرف، والتحقوا به، ومنهم ابن المشطوب. وعندما أخذت قوّة التحالف تزداد وتبرز ضدَّ الأشرف، انهار هذا الحلف فجأة، فقد تُوفي زعيمه كيكائوس، واستغلَّ الأشرفُ الفرصة، ففاوض صاحب آمد، فتخلّى عن الحلفاء، وانحاز للأشرف مُقابل حُصوله على مدينة حاني وجبل جور⁽⁴⁾. وسارع أعضاء الحلف لإعلان ولائهم للأشرف.

وتحرّك الأشرف بقوّاته نحو الموصل؛ لينهي أمر إربل، وفي الطريق؛ تلقّاه صاحب سنجار محمود فروخ شاه، وطلب منه استلام سنجار وتعويضه الرقّة بدلاً عنها، فأخذها الأشرف، وزال منها

حُكم الأتابك نهائياً⁽¹⁾ عام 617 هـ - 1220 م⁽²⁾، وتابع الأشرف مسيرته، وقرب الموصل جاءته رُسُل الخليفة للتوسط بالصلح، ورُسُل كوكبوري بإعادة القلاع للموصل، فقبل الصلح، وعاد⁽³⁾.

وهنا نلاحظ أنه بغياب أي استراتيجية دينية كانت أو وطنية للممالك في علاقاتها السياسية والعسكرية يبرز دور القائد الملك، وهو غالباً ما يتحرّك وفقاً لمطامعه الشخصية، وأهوائه، وإذا مات، فقد تنقلب سياسة الدولة رأساً على عقب، وتنتهار الاتفاقيات والأحلاف كما حصل عند موت كيكائوس سلطان سلاجقة الروم.

العلاقات الأيوبية مع الموصل بعد زوال حُكم الأتابكة:

نتيجة لعدم ظهور شخصيات قويّة، وللخلافات وطمع الإخوة وأبناء العم بممتلكات بعضهم البعض، زال الحُكم الأتابكي من الموصل وسنجار. فقد تسلّم الأشرف سنجار عام 617 هـ - 1220 م "عفواً بلا تعب"، بينما عجز أبوه العادل عنها، ومعه جميع ملوك البيت الأيوبي، فقد بادها صاحبها محمود فروخ شاه بن قطب الدين بالرقّة، لكنَّ الأشرف ما لبث - بعد ذلك - أن أخذ منه الرقّة أيضاً⁽⁴⁾. وفي عام 621 هـ - 1224 م، أظهر بدر الدين لؤلؤ أن ناصر الدين محمود ابن عز الدين مسعود قد مات، واستولى على حُكم الموصل، الذي كان بيده فعلياً منذ وفاة عز الدين مسعود عام 615 هـ - 1218 م⁽⁵⁾.

وكان الملك الأشرف مايزال يُمثّل أكبر قوّة أيوبية في المنطقة، وتوجّهاته السياسية تلتقي مع توجّهات الظاهر في حلب، ومع سياسة أخيه المُعظّم في دمشق، ومع اعتراف الأشرف الاسمي بالسلطنة لأخيه الكامل ملك مصر، إلا أنه كان مابيناً له في الباطن⁽⁶⁾. لكنَّ الأشرف تحوّل عن

1- المختصر، أبو الفداء، 3/ 125، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 343.

2- دُيْلُ الرُّوضَتَيْنِ، أبو شامة، موسوعة 20/ 239، ومفرج الكروب، ابن واصل، 4/ 73، - بينما هي سنة 616 هـ لدى ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 12/ 343.

3- المنصور، ابن نظيف، 242، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 333 - 346.

4- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4/ 73.

5- المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 91.

6- دُيْلُ الرُّوضَتَيْنِ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 20/ 246.

1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 335 - 337.

2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 342.

3- المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 91.

4- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 342.

سياسته هذه، وتحالف مع أخيه الكامل ضد أخيه المعظم، بعد عودتهم من معركة دمياط 618 هـ 1221م، التي تجمع فيها البيت الأيوبي بكامله ضد الفرنج، وحققوا نصراً عظيماً عليهم.

ولما وجد المعظم نفسه محاصراً بين أخوته: الأشرف في الشمال، والكامل في الجنوب، تحرك صوب الجزيرة، وبدأ يفتش عن حلفاء ليتقوى بهم من جهة، وليشغل بال الأشرف بهم من جهة أخرى. وكان أول حلفائه هناك هو مظفر الدين صاحب إربل، ففي عام 623 هـ 1226م، أرسل إليه المعظم في هذا الشأن مع الشرف بن عنين الشاعر الدمشقي المعروف بالهجاء، وعاد منه بجواب الرسالة⁽¹⁾، ولتأكيد التحالف، وتعبيراً عن نجاحه، أرسل المعظم عيسى ابنه الناصر داود إلى إربل ليقيم في بلاط مظفر الدين⁽²⁾. وكذلك تمكن المعظم من توثيق تحالفه مع صاحب ماردين وغيره من أمراء الجزيرة⁽³⁾، الذين كانوا يخشون تزايد قوة الأشرف في شمال الشام.

وتمحّض تحالف المعظم مع مظفر الدين عن خطة هجومية تتم بوقت واحد؛ حيث يهاجم كل منهم البلاد المجاورة له، فتوجه مظفر الدين نحو الموصل، وتوجه المعظم نحو حماة وحمص⁽⁴⁾، لكن ضغط الكامل والأشرف على المعظم جعله يتراجع نحو دمشق دون تحقيق أي فائدة⁽⁵⁾. ولعدم نجاح المعظم في الشام فشل مظفر الدين، وارتد عن الموصل.

الموصل تسترد سنجار:

توفي الملك المعظم بن العادل عام 624 هـ 1227م، وخلفه في دمشق ابنه الناصر داود، وفي عام 625 هـ 1228م، قام كل من: الكامل ملك مصر والأشرف صاحب الجزيرة بحصار دمشق، وعندما احتلها أخذها الأشرف مقابل تسليمه عدة مواضع في الجزيرة للكامل، منها: الرقة، والرّها، وسنجان⁽⁶⁾. فوضع الملك الكامل ابنه العادل ولياً لعهد في مصر، وولى بلاد الجزيرة لابنه الصالح أيوب.

1- المنصوري، ابن نظيف، 124.

2- المنصوري، ابن نظيف، 110.

3- المنصوري، ابن نظيف، 125.

4- المنصوري، ابن نظيف، 125، ومفرج الكروب، ابن واصل، 4/ 176.

5- السلوك، المقرئ، 1/ 257.

6- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 479، والمختصر، أبو الفداء، 3/ 140، وزبدة الحلب، ابن العديم، 473.

في عام 635 هـ 1238م، بعد وفاة الأشرف أخذ الكامل دمشق من الصالح إسماعيل، الذي تولاها بوصية من الأشرف⁽¹⁾. وبعد ذلك؛ بأشهر قليلة توفي الكامل، فاستقل ابنه، كل منهما بما تحت يده، وولى أمراء الكامل ابن أخيه الجواد يونس بن ممدود بن العادل نائباً بدمشق، عن العادل بن الكامل سلطان مصر⁽²⁾. وعجز الجواد عن القيام بأمر دمشق، وخاف من العادل؛ لأنه لم يقره في نيابتها، فبادل الصالح أيوب على دمشق بالرقّة وسنجان، وعانة⁽³⁾، وأقام الجواد في سنجان، وطلب معاضدة لؤلؤ حاكم الموصل، فأجابه مضمراً له الخديعة والغدر، ولاطفه، حتى تمكن من الاستيلاء على سنجان، وطرده منها⁽⁴⁾، وهكذا عادت سنجان إلى مملكة الموصل في ظل دولة بدر الدين لؤلؤ⁽⁵⁾، الذي خلف أتابكة الموصل الزنكيين، والذي كانت سياسته وعلاقاته مع الأيوبيين استمراراً لعلاقة الأتابكة، وقد فرض ذلك الاستمرار موقع الموصل، ومصلحة القائم بدولتها أي كان.

وفي عام 646 هـ 1248م، في عهد الملك الناصر الثاني صاحب حلب، استغل بدر الدين لؤلؤ صراع الناصر مع أيوب على حمص، فاحتل حصّة حلب من نصبيين، ونهب عدة مناطق تابعة لها، مثل: دار، ورأس عين، فأرسل الناصر جيشه، وهزم لؤلؤاً، واستعاد نصبيين بالكامل، بما فيها حصّة الموصل، فسارع لؤلؤ إلى الخليفة ليُرسل إلى الناصر مُتوسّطاً بالصّالح بينهما، فتنازل الناصر عن نصبيين، التي كانت مصدر الخلافات بين الطرفين، مقابل مبلغ سنوي من المال يدفعه لؤلؤ⁽⁶⁾، وفي الحقيقة؛ يُمكن أن يُفسّر هذا التنازل من قبل الناصر، وهو الطرف الأقوى، برغبته للتفرغ لحرب

1- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 317، وزبدة الحلب، ابن العديم، 493.

2- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 389، وزبدة الحلب، ابن العديم، 498.

3- زبدة الحلب، ابن العديم، 498.

4- أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 30.

5- حكم لؤلؤ الموصل مدة خمسين عاماً، ولما قدم التتار عاهدتهم، وحالفهم، وقاتل معهم، وقابل هولاكو عدة مرّات، وكان هولاكو يثق به، فسلمه عدة بلاد، وتوفي لؤلؤ عام 659 هـ 1261م، عن ستة وتسعين عاماً، فقوض هولاكو ملكه إلى ابنه الملك الصالح، الذي كان قد زوجه ابنة جلال الدين الخوارزمي، وانتفض الصالح على التتار، وحالف بيبرس سلطان مصر، فأمدّه بالجنود، لكن زوجته راسلت التتار، فهاجموا الموصل، وبعد صمود بطولي، قتلوه شرّ قتل. جامع التواريخ - هولاكو، رشيد الدين، 327 - 332.

6- الأعلام الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 138، والمختصر، أبو الفداء، 3/ 180، وتاريخ ابن الوردي، 2/ 264، وشفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 412.

أيوب القادم بجيوش مصر لحصار حصن، وانتزعها منه⁽¹⁾. ثم عاد بدر الدين لؤلؤ ليستغل انشغال الناصر الثاني بحربه ضد المماليك في مصر، فاحتل جزيرة ابن عمر عام 649 هـ 1251 م، واعتقل الملك المسعود آخر ملوك الأتابكة الزنكيين فيها، منهيًا هذه الدولة إلى الأبد⁽²⁾.

وفي النهاية؛ نلاحظ أنه بعد أن فقد الأتابكة الأمل باسترداد الشام، التي كانوا يعدونها ميراثهم الشرعي من نور الدين، وبعد عدة معارك غير مجدية مع صلاح الدين، وتسلمه حلب منهم، هادنوه، ودعموه في جهاده ضد الفرنج، ولكن؛ بعد موت صلاح الدين حاول الأتابكة الانقضاض على أخيه ووريثه في الجزيرة الملك العادل، وجمعوا جيوشهم، وحالفوا أمراء الجزيرة، لكنهم - في النتيجة - عادوا خلفاء مقررين بخضوع اسمي للعادل، ولابنه الأشرف، وصحيح أن دولة الأتابكة عاصرت الدولة الأيوبية، ولكنها لم تكن - في يوم من الأيام - نداء لها، ولم تشكل أي خطر عليها، فقد كان الأتابكة منقسمين متحارين، متحاسدين، متباغضين، لا يليقون بميراث عماد الدين الزنكي ونور الدين محمود. ولذلك سارت دولتهم من ضعف إلى أضعف، حتى استولى عليها مملوك لهم هو بدر الدين لؤلؤ.

الملوك الأتابكة:

في الموصل:

- 1- قسيم الدولة آق سنقر: ت 487 هـ 1094 م.
- 2- عماد الدين زنكي: 521-541 هـ 1127-1146 م.
- 3- سيف الدين غازي: 541-544 هـ 1146-1149 م.
- 4- قطب الدين مودود: 544-565 هـ 1149-1169 م.
- 5- سيف الدين غازي: 565-576 هـ 1169-1180 م.
- 6- عز الدين مسعود: 576-589 هـ 1180-1193 م.

1- مملكة حلب، كمال بدور، 145.

2- الأعلام الخطيرة، ابن شداد، 3 / 2 / 238.

- 7- نور الدين أرسلان شاه: 589-606 هـ 1193-1210 م.
- 8- عز الدين مسعود: 606-615 هـ 1210-1218 م.
- 9- نور الدين أرسلان شاه: 615-616 هـ 1218-1219 م.
- 10- ناصر الدين محمود: 616-630 هـ 1219-1233 م.

في سنجار:

- 1- عماد الدين زنكي: 511-593 هـ 1117-1197 م.
- 2- قطب الدين محمد: 539-616 هـ 1179-1219 م.
- 3- عماد الدين شاهنشاه: 616 هـ 1219 م.
- 4- جلال الدين محمود فروخ شاه: 616-617 هـ 1219-1220 م.

في جزيرة ابن عمر:

- 1- معز الدين سنجر شاه: 576-605 هـ 1180-1208 م.
- 2- محمود بن سنجر شاه: 605-639 هـ 1208-1241 م.
- 3- المسعود بن محمود: 639-649 هـ 1241-1251 م.

القسم الرابع
العلاقات الدوليّة للممالك الإسلاميّة

الفصل الأول

العلاقات الخارجية

لدولة الخلافة العباسية

المبحث الأول

صحوة الخلافة العباسية

انتعشت الخلافة العباسية بعد تفتت دولة السلاجقة، واضمحلالها، فقد تخلّصت من تسلّط سلاطين السلاجقة، وتحكّمهم فيها، وخلافاتهم، وحُرّوبهم، التي عطّلت البلاد، وأودت بالعباد. وصحيح أن منصب الخليفة ظلّ على الدوام مرجعية دينية وشرعية لا يُستغنى عنها لأيّ حاكم مُسلم، فإن قوّة هذه الشرعية كانت تتعلّق بشخصية الخليفة، وقدرته على تجسيد منصبه، وغالباً، كان الخلفاء العباسيون في هذه المرحلة المتأخّرة من دولتهم غير جديرين باسم الخلافة، وغير مؤهّلين لتمثيل الشرعية العظمى للدول الإسلامية كافّة، فتحوّلت الخلافة إلى رمز، وصارت السُلطة الحقيقية بيد الأمراء المتغلّبين، بما عُرف باسم: إمارة الاستيلاء⁽¹⁾، لذلك ارتفعت بعض الأصوات تُطالب بتوحيد الخلافة والسُلطنة بيد السُلطان المسيطر⁽²⁾.

ومع عودة السُلطة للخليفة في بغداد، غدا منصب الخلافة يعني - فيما يعنيه - حاكم أواسط العراق، وهي المناطق التي تتبع لبغداد، وهي قابلة للزيادة والنقصان. وفي عام 575 هـ 1179م، تولّى عرش الخلافة العباسية الخليفة الناصر لدين الله أحمد أبو العباس بن الخليفة المستضيئ، وكان الخليفة الناصر يتمتّع بشخصية قويّة، فتمكّن من إعادة الهبة لمنصب الخلافة، وأعاد السيطرة على عدّة مناطق لم يمتدّ إليها نفوذ الخلفاء منذ زمن طويل. "وكان الناصر قد ملأ القلوب هبة وخيفة، فكان يرهبه أهل الهند ومصر كما يرهبه أهل بغداد، فأحيا بهيبته الخلافة، وكانت قد ماتت بموت المعتصم"⁽³⁾.

1- الأحكام السُلطانية، الماوردي، 31.

2- غياث الأمم في التياث الظلم، الجويني - إمام الحرمين، 226.

3- تاريخ الخلفاء، السيوطي، 405.

"واستولى مع العراق على إقليم خوزستان، وغيرهما من الأطراف، وملك همذان، وأصفهان"⁽¹⁾. وكان للخليفة الناصر "أصحاب أخبار في العراق، وسائر الأطراف، يُطالعونه بجزيئات الأمور، وكلياتها"⁽²⁾. وأمضى "الخليفة الناصر مدة حياته في عزّة وجلالة وقمع للأعداء، وكان شديد الاهتمام بمصالح الملك... واستمر خليفة سبعاً وأربعين سنة"⁽³⁾.

وفي عهد الخليفة الناصر؛ عظم شأن سلطان الخوارزمية علاء الدين محمد بن تكش، الذي أراد أن يكون له ما كان لسلطين السلاجقة من نفوذ في بغداد، بعد أن استولى على دولتهم، فطلب من الخليفة أن تكون له دار السلطنة في بغداد مع شحنة من العساكر فيها، فرفض الخليفة، ممّا أزم العلاقة بينهما، فقام الخوارزمي بالطعن بصحة ولاية الخليفة، وحصل على فتوى بخلعها، ونوى تنصيب خليفة في بلاده، والتوجه لنزع خليفة بغداد بالقوة، وتحرك بالفعل نحوه، واحتل عدة مناطق تابعة للخليفة، لكنّه - بسبب ظروف خارجة عن إرادة الطرفين - فشلت حملته على بغداد، وعاد نحو الشرق.

وكان سلاطين الخوارزمية، علاء الدين ومن بعده ابنه جلال الدين، يدعون بأن الخليفة الناصر قد راسل التتار، وأنه هو الذي حسن لهم غزو بلاد الخوارزمية، وأطمعهم فيها⁽⁴⁾، ويقول ابن واصل - بعد ذكره لهذا الخبر -: "فإن كان صحّ ذلك، فقد قدر الله - تعالى - انقطاع الدولة بهم"، فهو لا يؤكّد ولا ينفي، بل يُذكر بالنتيجة، فإن كان ذلك صحيحاً، فإن التتار هم من قضى على الدولة العباسية، وأزالوها من الوجود.

بينما يؤكّد ابن آيبك - نقلاً عن صاحب كتاب تاريخ بغداد - الواقعة بحذافيرها، يقول: "قال ابن واصل صاحب تاريخ بغداد: شهدت على جماعة من سراة الناس من أرباب دولة بغداد - كلّ يذكر ويتقلّد في ذمته - أن الإمام الناصر كتب إلى التتار يستدعيهم إلى البلاد، ويهون عليهم العبور إلى

الأقاليم، ويصغر عندهم أمر السلطان علاء الدين خوارزم شاه، كلّ ذلك خوفاً منه؛ لئلا يحضر إلى بغداد، وتعود الخلافة كما كانت أيام بني سلجوق"⁽¹⁾.

أمّا ابن الأثير؛ فيلمّح إلى ذلك تلميحاً، متحاشياً ذكر الخليفة، يقول وهو يتحدث عن أسباب خروج التتار: "وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك ممّا لا يُذكر في بطون الدفاتر.

فكان ما كان ممّا لست أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر"⁽²⁾.

ثمّ يصرح ابن الأثير بما أحجم عنه أولاً، فيقول: "وإن كان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنّه هو الذي أطمع التتار في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى، التي يصغر عندها كلّ ذنب عظيم"⁽³⁾.

ومع أن ابن الأثير يذكر ما نسبته العجم أو الخوارزمية إلى الناصر دون أن يؤكّد، أو ينفي، لكنّ؛ يظهر أنّه يميل لتصديقه لمجرد عودته لذكر الأمر، وإلا لنفاه عن الخليفة، ولما شدد في تبيان فظاعة هذا العمل. وتكرّرت الاتهامات زمن الخليفة المستعصم؛ حيث اتهم كثير من المؤرّخين الوزير ابن العلقمي بالتعامل مع التتار، وتسهيل دخولهم إلى بغداد⁽⁴⁾.

1 - كنز الدرر، ابن آيبك، 7 / 217.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 362.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440.

4 - راجع تفصيل ذلك في معرض دفاع حسن الأمين عن ابن العلقمي (الغزو المغولي، 89 - 106).

1 - مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4 / 170.

2 - مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4 / 163.

3 - تاريخ البغدادى ورحلته، عبد اللطيف البغدادى، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 14 / 74.

4 - مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4 / 170.

المبحث الثاني

تنظيم الفتوة

لعب نظام الفتوة دوراً كبيراً في العلاقات الدولية بين الخلافة العباسية والعديد من الممالك الإسلامية، وعلى الخصوص الممالك الأيوبية، وذلك من خلال الهدف السياسي البعيد، الذي حاولت الخلافة العباسية الوصول إليه عبر تنظيم الفتوة، وهو إعادة فرض سيطرتها على تلك الممالك بأسلوب جديد.

يقوم نظام الفتوة - أساساً - على مكارم الأخلاق، فهو: "أن تُقَرَّبَ مَنْ يُغَضِّك، وتُكْرِمَ مَنْ يُؤْذِيكَ، وتُحَسِّنَ إِلَى مَنْ يُسِيءُ إِلَيْكَ"، وهذه أمور حسنة مطلوبة، سُمِّيتْ فتوة أم لم تُسَمَّ (1)، وقد شهد هذا النظام ذروة مجده مع الخليفة العباسي الناصر لدين الله. "كان الخليفة الناصر شاكراً مرحاً" (2)، وبالتأكيد؛ كان يمتلئ بالحيوية والرجولة، "والناس يتَهَيَّبُونَ لِقِيَاهُ" (3)، فانعكست قوة شخصيته على قوة منصب الخلافة، والتمس الناصر طريقة جديدة لتقوية نفوذه على الممالك الإسلامية المختلفة، التي تدين له بنفوذ معنوي، وليس له عليها أي تأثير سياسي حقيقي، فسعى لتزويد منصب الخلافة بسلطة أخرى غير سلطة الشرعية، تتمثل بسلطة اجتماعية سياسية أخلاقية، تُؤدِّي - بحال انتشارها - إلى التفاف الجميع حول منصب الخلافة، الذي يرأس هذه السلطة، أو المنظومة الجديدة، بغض النظر عن الاختلافات المذهبية للأتباع، ورأى أن ذلك يتحقق من خلال تنظيم الفتوة (4).

لم تكن الفتوة أمراً جديداً في الدولة العربية الإسلامية، فهي معروفة كتنظيم مُنذُ زمن ليس بالقريب، وقد تجلَّت فيها روح الفُروسية العربية، ومكارم الأخلاق العربية الإسلامية. وتعود بعض الأقوال بالفتوة إلى عهد الرسول (ص) الذي ألبس الإمام علي لباس الفتوة، ومما يُقال: إنَّ هذا اللباس أنزل على النبي في صندوق، ويستدلون على ذلك بالآية: يا بني آدم، قد أنزلنا عليكم لباساً يُؤاري

سواتكم، ويذكرون تسلسلاً يمتد من الإمام علي، إلى أن يصل إلى الخليفة الناصر لدين الله، الذي أحيا نظام الفتوة (1).

وكان صاحب الفتوة في بغداد أيام الخليفة الناصر هو الشيخ عبد الجبار، فأحضره الخليفة، "وأعطاه خمسمائة دينار، وخلع عليه، وعلى ولده، وكان شيخاً حسناً، له أتباع كثيرون" (2). ممَّا يعني أنَّه تنازل للخليفة عن منصب رئيس الفتیان، وما قام به الخليفة الناصر - بعد ذلك - هو عملية إعادة تنظيم ورعاية لهذه المنظمة، فجعله ذلك رجلها الأول، ورئيسها، ثمَّ حدَّد قواعدها، ونشرها، وانتسب إليه في الفتوة أكابر الناس والملوك. ففي عام 607 هـ - 1210 م، طلب الخليفة الناصر من كلِّ ملوك المسلمين أن ينتموا إليه في الفتوة، ويعدُّونه إمامهم بها، على أن تنتمي رعية كلِّ منهم إلى ملكها (3).

نظام الفتوة:

وقد وُضع للفتوة شروط خاصة يجب أن تنطبق على مَنْ ينتمي إليها، ومنها: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، ونصرة المظلوم، وصلة الرحم، والوفاء بالعهد، وغيرها من قواعد الأخلاق التي حضَّ عليها الإسلام (4). وكانت هناك أمور عديدة يُطلب تطبيقها من المنتسبين إلى تنظيم الفتوة، وكلُّها يُستدلُّ عليها من ذكرها في الأحاديث النبوية الشريفة، منها:

- طاعة الرؤساء والمُقدِّمين.
- الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.
- نصره المظلوم، وإغاثة الملهوف.
- حفظ الجار (5).
- التعاضد والتناصر بين الأعضاء.
- حفظ العهد.

1 - الفتوة عند العرب، الدسوقي، 2 / 437.
2 - التاريخ المظفَّر، ابن أبي الدَّم، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار، 21 / 256.
3 - مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 3 / 206.
4 - الفتوة عند العرب، الدسوقي، 229.
5 - مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 4 / 164.

1 - الفتوة عند العرب، الدسوقي، 250.

2 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار، 14 / 74.
3 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار، 14 / 74.
4 - الشرق والغرب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشيخ، 242.

- كتمان السر.

- صدق اللهجة.

- العفة عن المحارم⁽¹⁾.

وما كُلُّ ذلك إلا استجماع لمكارم الأخلاق العربيّة، وتعاليم الإسلام في التعامل، ولروح الشجاعة والإيثار⁽²⁾.

وكان المنتسبون لتنظيم الفتوة يُسمّون الفتيان، أمّا مَنْ ينضمُّ حديثاً لها؛ فيُدعى بالرفيق، ويُرشَّح الفتى الجديد لقبوله في التنظيم فتيان قداماء، ثمَّ يُقام حفل تنصيب للمُنضمِّين الجُدد، تُلقى فيه كلمات، تشيد بالفتوة، وتربطها بتعاليم الإسلام من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة⁽³⁾.

ويشرب المنتسبون الجُدد كأس الفتوة وفيه ماء وملح⁽⁴⁾، وهو دليل قبول الأنظمة والتعاليم الخاصّة بالفتوة. وكان الفتى - عند تنسيبه - يُلفُّ بملابس رقيقة من الكتّان، أو القطن الأبيض، ثمَّ يرتدي السروال الخاصّ بالفتوة، وكان السروال هو الشعار، أو الزي الخاصّ لهذا التنظيم، فجميع الفتيان يرتدون طرازاً خاصاً ومُوَحَّداً من السراويل يميزهم عن بقيّة الناس⁽⁵⁾. ثمَّ توضع على رأس الفتى طاقية صغيرة سوداء، وفوقها قلنسوة من الصوف الأبيض، ويضع على أكتافه قباء، أو عباءة خفيفة، يُلفُّ عليها حزام، يُعلّق به سكين، أو خنجر، ويلبس في رجله خفّين⁽⁶⁾. ورُبّما كان من أشهر

1 - التاريخ المظفّر، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 21 / 258.

2 - النظم الدبلوماسيّة، صلاح الدين المنجد، 151.

3 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206.

4 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206، ح / 2، ورُبّما كان امتداداً لشرب كأس الفتوة ما يُعرَف - الآن - بشرب النخب.

5 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 89 - 143، والجامع المختصر، ابن الساعي، 225 - 233. وفيه منشور الخليفة حول تنظيم الفتوة، (تاريخ سورية ولبنان، فيليب حتّي، ترجمة: جورج حدّاد، 2 / 252)، يقول فيليب حتّي: "إن تنظيم الفتوة تأثّر - على الغالب - بمنظّمات الفرسان الصليبيّة"، ولكننا نعتقد أن منظّمات الفرسان الصليبيّة التي كانت نشأتها في بلاد الشام ما هي إلا انعكاس وتقليد لتنظيم الفتوة العربي الإسلامي. كما أن هناك فارقاً كبيراً بين الفتوة العربيّة الإسلاميّة وأنظمة القروسية الأوربيّة، وهو أن مكارم الأخلاق التي حرصت عليها الفتوة كانت تُطبّق على الجميع، بينما أخلاقيات القروسية الأوربيّة كانت لطبقة الفرسان والنسبلاء فقط، ولا تُطبّق على الطبقات الأدنى. (حضارة ونظم أوربيّة، سعيد عاشور، 402). و

Stephenson, Meddle History, P.P: 239-240

6 - مجمع الآداب، ابن الفوطي، 1 / 1184.

حفلات تنصيب الملوك لتنظيم الفتوة هي الحفلة التي أقامها الملك المنصور صاحب حماة عام 622 هـ - 1223 م، وأقام الخطبة فيها قاضي حماة سالم بن نصر الله والد المؤرّخ ابن واصل⁽¹⁾.

وعندما استكمل الخليفة الناصر تنظيمه الجديد نظرياً، بدأ بتسيير رُسله إلى ملوك المسلمين، طالباً منهم الانتفاء إليه عبر نظام الفتوة، وقد قبل الجميع ذلك، وانتسبوا للخليفة الناصر⁽²⁾، فهذا لا يُنقص من ملكهم شيء، وما سلطة الفتوة إلا سلطة معنوية، لذلك لم يتخلّف منهم أحد. وقد "لبس السلطان العادل سراويل الفتوة للخليفة الناصر"⁽³⁾، وكذلك أولاده الملك المعظم والملك الكامل والملك الأشرف، ولبسها المُجاهد صاحب حمص، والملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدّين صاحب حلب، وكذلك أرسل لباس الفتوة إلى كيخسرو سلطان الروم⁽⁴⁾. واعتقد الخليفة الناصر بذلك أنّه قد جمع الأئمة حوله، وبالفعل؛ فقد أسبغت الفتوة مزيداً من الهيبة على منصب الخليفة⁽⁵⁾، فقد كان الملك الذي ينتسب إلى الخليفة يتبعه كُلُّ أركان دولته وأكابر بلاده. ولكن اهتمام الخليفة الناصر بتنظيم الفتوة جعله يعتقد أنّها كُلُّ ما يربطه بملوك المسلمين، حتّى أنّه لم يُبصر أعظم المخاطر التي تحيق بهم، ففي عام 615 هـ - 1218 م، وصلت رُسُل الخليفة الناصر إلى الملك الكامل⁽⁶⁾ وهو مُرابط على دمياط أمام قوَّات الفرنجة التي احتلّت المدينة، وأخذت تتقدّم باتجاه القاهرة، "فظنّ الناس الظنون الجميلة يومئذ في الخليفة، فتبيّن أنّه لأجل رمي البُندق، وكونه يُريد أن يكون هو قبلته، فتعجّب الناس من إمام العصر، وهتته⁽⁷⁾. فكان الكامل كان بحاجة إلى زعامة الخليفة لرمي البُندق ليُقاوم جحافل الفرنج الزاحفة على مصر.

1 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 164.

2 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206.

3 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 14 / 74.

4 - نكت الحميان، الصفدي، 91، ومجمع الآداب، ابن الفوطي، 4 / 1248.

5 - راجع: الشرق والغرب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشّيخ، 242.

6 - في عام 606 هـ وصل أمر الخليفة الناصر إلى شمس الدّين بن البعلبكي قاضي فتيان دمشق بالتوجّه إلى مصر ليشدّ الملك الكامل فتوة للخليفة. (ذيل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاميّة، سهيل زكّار، 20 / 134).

7 - المنصوري، ابن نظيف، 75.

وكان من اهتمامات الفتيان الرمي بالبندق، وتدريب الحمام، وقد تفنن الناس في ذلك سواء الأمراء أو الملوك⁽¹⁾. وفي العصر الأيوبي كان الرمي بالبندق⁽²⁾ قد شاع في معظم أنحاء الدولة العربية الإسلامية، وهو رياضة رمي وتدريب على التسديد، ويستخدم للرمي على الطيور من أجل الصيد، أو الرياضة. وكان الخليفة العباسي الناصر لدين الله قد منع رمي البندق إلا لمن ينتمي له⁽³⁾، وكذلك منع اللعب بالطيور الهوادي أو المناسيب⁽⁴⁾، وتربيتها، إلا أن تكون من طيوره، أو من نسلها⁽⁵⁾، ويقول ابن الأثير مُتهكماً، مُقارناً الأخطار المحدثّة بالأئمة باهتمامات الخليفة: "فكان غرام الخليفة الناصر بهذه الأشياء من أعظم الأمور"⁽⁶⁾.

لقد قصد الخليفة الناصر من اهتمامه الكبير بنظام الفتوة تقوية مركزه وزيادة فاعلية منصب الخليفة، وربط ملوك الأطراف والرعايا بشخص الخليفة، من حيث كونه زعيماً فعلياً، إضافة لكونه خليفة وإماماً شرعياً، ولكن كل ما قام به الناصر لتنظيم الفتوة تهاوى بعد موته، بل ونستطيع القول إن هذا التنظيم كان متهاوياً منذ قيامه، ورُبما كان ذلك بسبب كونه نظاماً يعتمد على شخص الخليفة، فلم يكن للفتوة جهاز تنظيمي رابط ضابط قادر على الاستمرار بعد غياب الناصر، وأرى أن الأهم من ذلك أن الناصر أقام نظام الفتوة على معان روحية وأخلاقية فقط، ولم يرتق به إلى قيمة معنوية وواقعية كبرى كانت من أولويات عصره ألا وهي الجهاد، خاصّة أن الفتوة كانت تنظيمياً شبه عسكري.

1 - نكت الهميان، الصفدي، 91.

2 - البندق: مفرداً بندق، وهي لفظة فارسية، وتُسمى - أيضاً - الجلاهق أو الجلاهقات. كُرات صغيرة من حجر أو معدن أو طين يُعبأ، ثم يُشوى، (حول صنع كرات البندق من الطين راجع: السيرة الشعبية للظاهر بيبرس، رواية: الديناري، 81، المكتبة الثقافية، بيروت / بلا)، وتُقذف الكرات من ماشورة بواسطة وتر القوس، أو بالنفخ. راجع: تاريخ التمدن الإسلامي، جورج زيدان، 5 / 159، واستخدمت المزاريق لرمي البندق، وهي أنابيب تقذف البندق بالنفخ، وقد تحولت إلى البندقية عندما استخدم البارود فيها.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440.

4 - الهوادي: السريعة الانتهاء إلى أبراجها. - المناسيب: المنسوبة لأبائها؛ أي المعروف سلسلة نسبها، وهي نوع من الحمام التي كانت تُستخدم في البريد، وتُربى لهذه الغاية.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440، ومُفَرَّج الكُروب، ابن واصل، 4 / 164.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440.

يبدو بأن تنظيم الفتوة أصبح له مع الزمن تفرعات بأشكال عديدة، رُبما كان من أشهرها النبوية، التي يؤكّد ابن المعيار بأنها إحدى فرق الفتوة بقوله: "ولم تزل الفتوة تنتقل، وهَلَمَّ جرّاً، إلى عصرنا هذا، حتّى تفرّعت، وصارت بُيوتاً، وأحزاباً، وقبائل؛ كالرهاصية، والسجينة، والخليلية، والمولائية، والنبوية، لما حدث بينهم من الاختلاف، وكلّ منهم ذهب إلى رأي"⁽¹⁾.

وفي دمشق؛ عُرف أتباع تنظيم الفتوة بـ "النبوية"⁽²⁾، وهم يدينون بالفتوة وبأمر الرجولة كلّها، وكلّ من ألحقه بهم لخصلة يرونها فيه يحزمون السراويل، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به، ولهم في ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برّ بقسمه، وشأنهم عجيب في الأنفة والاثتلاف"⁽³⁾. وقد ذكر ابن جُبَيْر أن في مدينة دمشق: "طائفة تُعرف بالنبوية سُنيون يدينون بالفتوة وأمور الرجولة كلّها"⁽⁴⁾.

وقد انتشرت فرقة النبوية، وتواجد أتباعها بكثرة في شمال العراق، وفي الجزيرة، فعندما صلب سيف الدين غازي الأتابكي أحد زعماء النبوية في نصيبين، خرجت النبوية من الموصل ونصيبين، وتبعهم خلق كثير من مُدُن الفرات والخابور، وساروا طالين صلاح الدين"⁽⁵⁾، إنّه خُروج جماعي على حُكم الأتابكة، والتحاق بخصمهم صلاح الدين. ويبدو أن هؤلاء النبوية أنفسهم قد مروا في طريقهم على بلاد الإسماعيلية في بزاعة والباب شمال حلب، وارتكبوا المذابح التي ذكرها ابن جُبَيْر في حديثه عن بلدة بزاعة، يقول: "ويناظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة تُعرف بالباب، وكان يعمرها

1 - الفتوة، ابن المعيار، 147.

2 - النبوية: نسبة إلى النبوة التي كانت مُرادفة للفتوة، يقول ابن واصل في معرض حديثه عن الخليفة الناصر: "وليس سراويلات النبوة والفتوة"، (مُفَرَّج الكُروب، 4 / 164)، - وربما هي نبوية؛ لأنهم كانوا يعتبرون أن تعاليم الفتوة أخذها الإمام علي (ر) عن النبي محمد (ص)، فكلّ تعاليمها مُستقاة من الأحاديث النبوية الشريفة، وكان صاحبها في ذلك العصر الخليفة الناصر، وهو عباسي من بيت النبوة أيضاً.

3 - تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 252، - وحول ذلك راجع: في التاريخ الشامي، شاعر مصطفى، 128 / 1؛ حيث يقول: "إن صلاح الدين قد لبس سراويل الفتوة"، وقد وهم في ذلك، فأول من لبسها من الأيوبيين هو الملك العادل وأولاده، ثم بعض ملوك بني أيوب، ممّن جاء بعد صلاح الدين. (ذيل الروضتين، أبو شامة، 61 / 20).

4 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 252 و 167، Urban Life in Syria Nicola Ziadeh, P.

5 - تاريخ آمد وميافارقين، ابن الأزرق الفارقي، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 11 / 314.

مُنْذُ ثَمَانِ سِنِينَ قَوْمٌ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ، فَطَارَ شَرَارُهُمْ، .. حَتَّى دَاخَلَتْ الْعَصِيْبِيَّةُ أَهْلَ الْبِلَادِ، .. وَوَضَعُوا السُّيُوفَ فِيهِمْ، فَاسْتَأْصَلُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَعَجَّلُوا بِقَطْعِ دَابِرِهِمْ، وَكُوِّمَتْ بِهِذِهِ الْبَطْحَاءُ جَمَاجِمُهُمْ⁽¹⁾.

وقد اختلف في ترتيب أحرف النبوة⁽²⁾؛ حيث يجعلها بعضهم النبوية، من الأبناء، وهذا المنحى ضعيف، والأصح ما رآه مُصْطَفَى جَوَادُ بقوله: "الصحيح في ضبط هذا الاسم النبوية، نسبة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، كاخليلية نسبة إلى إبراهيم الخليل، عليه السلام"⁽³⁾.

الخلافة بعد الإمام الناصر:

في عام 622 هـ 1225م، تُوِّفِيَ الْخَلِيفَةُ النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ، وَقِيلَ إِنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ مَاتَتْ بِمَوْتِهِ⁽⁴⁾، فَهُوَ الَّذِي أَعَادَ الْكَثِيرَ مِنَ الْقُوَّةِ السَّابِقَةِ لِمَنْصَبِ الْخِلَافَةِ، وَلَكِنَّا - بِنَظَرَةٍ سَرِيعَةٍ - نَجِدُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ النَّاصِرَ لَمْ يُحَقِّقْ أَيَّ شَيْءٍ يُذَكِّرُ عَمَّا كَانَ لِسَلْفِهِ، وَلَا لَمَّا سَيَكُونُ خَلْفُهُ مِنْ سُلْطَةٍ عَلَى الْمَالِكِ الْإِيُوبِيَّةِ، أَوْ غَيْرِهَا، الَّتِي كَانَتْ وَاسْتَبَقَتْ تَبَعِيَّتَهَا لِلْخِلَافَةِ تَبَعِيَّةً اسْمِيَّةً، تَنْحَصِرُ بِمَنْحِ مُلُوكِهَا التَّقْلِيدَ وَالْخَلْعَةَ كَرَمَزَ لَشَرَعِيَّةِ حُكْمِهِمْ لِبِلَادٍ يُسَيِّطِرُونَ عَلَيْهَا فِعْلًا، لَا تَتَوَسَّعُ إِلَّا بِالْحَرْبِ وَالْقُوَّةِ، وَلَا يَزُولُ حُكْمُهُمْ، أَوْ تَتَقَلَّصَ وَلَا يَأْتِيَهُمْ إِلَّا بِالْحَرْبِ وَالْقُوَّةِ.

وبعد وفاة الناصر؛ تَوَلَّى الْخِلَافَةَ ابْنُهُ الْإِمَامُ الظَّاهِرُ بِأَمْرِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ، الَّذِي اسْتَهْلَ خِلَافَتَهُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَى الْمَالِكِ الْإِيُوبِيَّةِ لِتَأْكِيدِ الْخُطْبَةِ لَهُ، وَالسَّكَّةَ بِاسْمِهِ، ثُمَّ رَدَّ مُلُوكَ الْإِيُوبِيَّةِ بِإِرْسَالِ رُسُلِهِمْ إِلَيْهِ فِي الْعِزَاءِ بِوَالِدِهِ، وَالتَّهْنِئَةِ بِوَلَايَتِهِ⁽⁵⁾.

ولكن الظاهر لم تطل مدة خلافته؛ حيث تُوِّفِيَ عام 623 هـ 1226م، وتولى بعده ابنه المستنصر بالله المنصور أبو جعفر حتى وفاته عام 640 هـ 1242م. "فَقَلَّدَ أَرْبَابُ الرَّأْيِ وَلَدَهُ الْمُسْتَعَصِمَ بِاللَّهِ

عَبْدَ اللَّهِ، وَاسْتَبَدَّ بِتَدْبِيرِ الْخِلَافَةِ أَرْبَابُ دَوْلَتِهِ"⁽¹⁾، وَقَامَ أَفْرَادُ الْحَاشِيَةِ بِأَسْوَأَ دَوْرٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْخِلَافَةِ فِي أَسْوَأَ وَقْتٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْخِلَافَةِ، فَقَدْ أَغْرَوهُ بِجَمْعِ الْمَالِ، "وَالْاِقْتِنَارِ عَلَى بَعْضِ الْجُنْدِ، وَقَطْعِ الْبَاقِينَ، وَمُسَالَمَةِ التَّتَرِ، وَحَمْلِ الْقَطِيعَةِ إِلَيْهِمْ، لِيَكْفُوا عَنْهُ، وَقَالُوا لَهُ: هَذِهِ الطَّائِفَةُ قَدْ مَلِكُوا مُعْظَمَ بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ قَدَامَهُمْ، فَالْحَزَمَ مَهَادَاتِهِمْ، وَمُهَادَنَتَهُمْ، وَأَنْ يُحْمَلَ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِنَ الْمَالِ مَا يُرْضِيهِمْ؛ لِيَكْفُوا، وَيَنْكَفُوا"⁽²⁾، وَالْخَلِيفَةُ الْمُسْتَعَصِمُ ضَعِيفُ الرَّأْيِ، سَيِّئُ التَّدْبِيرِ⁽³⁾.

فضعفت علاقات الخلافة بالملوك الأيوبيين، وهم آخر ملوك الإسلام، ولم تعد الرُّسُلُ تعبر المسافات بين بغداد ومصر والشَّام. ومَّا زَادَ التَّبَاعُدُ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ أَنَّ السِّيَاسَةَ الْإِيُوبِيَّةَ كَانَتْ - بِشَكْلِ عَامٍّ - تَتَوَجَّهْ لِتَجَنُّبِ التَّتَارِ وَكَأَنَّهَا تَتَعَامَى عَنْهُمْ، بَيْنَمَا التَّتَارُ يَجُولُونَ حَوْلَ بَغْدَادٍ "وَشَرُّهُمْ مُتَزَايِدٌ وَالْخَلِيفَةُ وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ"⁽⁴⁾.

حَتَّى كَانَ عَامَ 656 هـ 1258م؛ حَيْثُ دَاهَمَ التَّتَارُ بَغْدَادَ، وَاسْتَبَاحُوهَا قِتْلًا وَنَهْبًا وَحَرْقًا، وَالْغَرِيبُ فِي الْأَمْرِ أَنَّ عَاصِمَةَ الْإِسْلَامِ تَنْتَهَكَ بَعْدَ حِصَارٍ طَوِيلٍ، دُونَ أَنْ يَتَقَدَّمَ لِنَجْدَتِهَا جُنْدِيٌّ وَاحِدٌ، أَوْ مَنْطُوعٌ وَاحِدٌ، وَدُونَ أَنْ يَقُومَ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ الْإِيُوبِيِّينَ بِمَدِّ يَدِ الْعَوْنِ لِعَاصِمَةِ الْخِلَافَةِ، الَّتِي كَانَ يَسْتَمُدُّ مِنْهَا شَرَعِيَّةً وَجُودَةً فِي الْحُكْمِ، فَهَلْ هُوَ الدِّينُ يُؤَوِّقُ لِنَقَاعِ خَلِيفَةِ بَغْدَادٍ وَأُمَرَاءِ الْعِرَاقِ وَمُلُوكِ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ عَنْ نَجْدَةِ الشَّامِ وَمِصْرٍ عِنْدَمَا دَاهَمَهَا الْغَزْوُ الْفَرَنْجِيُّ، وَتَكَالَبَتْ عَلَيْهَا الْحَمَلَاتُ، وَاحْتَلَّتْ قُدْسَ الْمُسْلِمِينَ؟ أَمْ هِيَ الْقَطِيعَةُ الَّتِي نَتَجَتْ عَنِ التَّجْزِئَةِ الطَّوِيلَةِ؛ حَيْثُ غَدَتْ هُمُومُ الْمَشْرِقِ لَا تَعْنِي الْمَغْرِبَ، وَهُمُومُ الشَّامِ لَا تَعْنِي الْعِرَاقَ؟! وَلَكِنَّ الْمُسْتَغْرَبَ فِي الْأَمْرِ أَنَّ الْجَمِيعَ كَانُوا يُدْرِكُونَ أَنَّ آيَا مِنَ الْأَعْدَاءِ التَّتَارِ أَوْ الْفَرَنْجِ كَانَ لَنْ يَقِفَ عِنْدَ حَدِّ إِذَا أُتِيحَ لَهُ التَّقَدُّمُ، وَبِالتَّالِي؛ فَالْخَطَرُ يَعْنِي الْجَمِيعَ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ كُلُّ قِسْمٍ يَكْتَفِي بِالْأَمَانِي الطَّيِّبَةِ نَحْوَ الْقِسْمِ الْآخَرِ.

1- مُفَرَّجُ الْكَرُوبِ، ابْنُ وَاصِلٍ، 5 / 321.

2- مُفَرَّجُ الْكَرُوبِ، ابْنُ وَاصِلٍ، 5 / 322.

3- الْمُخْتَصَرُ، أَبُو الْفِدَاءِ، 3 / 194.

4- تَارِيخُ الْخُلَفَاءِ، السُّيُوطِيُّ، 418.

1- تَذَكُّرَةٌ بِالْأَخْبَارِ عَنْ اتِّفَاقَاتِ الْأَسْفَارِ، ابْنُ جُبَيْرٍ، 224.

2- نَعْتَقِدُ أَنَّ الْخِلَافَ نَشَأَ عَنْ خَطَأٍ فِي النِّسْخِ، وَأَنَّ الْأَصْلَ كَانَ وَاحِدًا وَهُوَ النَّبَوِيَّةُ.

3- مُصْطَفَى جَوَادُ، مُقَدِّمَةُ كِتَابِ الْفَتْوَى، ص 70.

4- تَارِيخُ الْخُلَفَاءِ، السُّيُوطِيُّ، 405.

5- الْمَنْصُورِيُّ، ابْنُ نَظِيفٍ، 116 - 118.

المبحث الثالث

العلاقات الدبلوماسية بين الأيوبيين ودولة الخلافة

بدأت العلاقات الفعلية بين دولة بني أيوب والخلافة العباسية بعد وفاة الملك العادل نور الدين عام 569 هـ 1174م، ودُخول صلاح الدين إلى الشام، وضمها إلى مصر، وتشكيل الدولة الأيوبية، وذلك في عهد الخليفة العباسي المستضيء بالله، الذي لم يهتم كثيراً فيمن يسيطر على الشام، ولم يتدخل - بأي شكل من الأشكال - لاضد صلاح الدين، ولا معه، فالخليفة يرسل التقليد الذي يمثل الشرعية الدينية لمن غلب من الأمراء، فالسلطة - فعلياً - بأيدي الأمراء المتغلبين، والإمارة هي إمارة استيلاء⁽¹⁾. فأرسل له صلاح الدين رسالة مطولة من إنشاء القاضي الفاضل، يشرح فيها قيامه بالدولة، وتوحيده للأقطار، وإقامة الخطبة العباسية فيها، وشرح الوضع الدولي من حوله ومُعاناته وانتصاراته، ثم يطلب من الخليفة التقليد بما تحت يده من البلاد، وما سيفتح فيما بعد⁽²⁾، ويبدو أن الخليفة المستضيء لم يرسل التقليد، ولم يمنح الخليفة صلاح الدين صفة الشرعية التي طلبها، وبالتالي؛ لم تقم علاقة سياسية بين الطرفين، وسينتظر صلاح الدين حتى تولي الناصر لدين الله منصب الخلافة عام 575 هـ 1179م، فيرسل له التقليد عام 576 هـ 1180م، وتبدأ العلاقات الرسمية والفعلية بين الدولة الأيوبية ودولة الخلافة.

في عام 579 هـ 1183م، عندما كان صلاح الدين مُحاصر الموصل، أرسل إليه الخليفة الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم رسولا يشفع في المواصله، وبعد إلحاح؛ قبل الشفاعة، فزار معه الرسول إلى سنجار؛ حيث شهد فتحها⁽³⁾.

ولكن بعد الانتصارات المدوية على الفرنج وتحرير بيت المقدس، ضجَّ العالم الإسلامي باسم صلاح الدين، ولابد أن عديداً من المقارنات قد أجراها الناس بينه وبين الخليفة الناصر، ولشخصية

الخليفة القوية لم يقبل بوضع مُتدنٍّ أمام قائد عسكري يعدُّه يعمل بتفويض منه، فتوترت العلاقات السياسية بين الخليفة وصلاح الدين، وأعلن الخليفة أنه ينقم عليه عدَّة أمور، منها:

- 1- ما شاع بأنَّ صلاح الدين يُريد قلب الخلافة، والاستيلاء عليها.
 - 2- تسمَّى صلاح الدين بالملك الناصر، وهو يعرف أن الناصر هو لقب الخليفة، الذي عدَّه تطاولاً عليه، وتشوفاً لمنصبه من قبل صلاح الدين.
 - 3- إرسال جندي بسيط في البشارة بفتح القدس إلى ديوان الخلافة، بينما جرت العادة إرسال أهم شخصيات الدولة في الأمور الجليلة، ممَّا عدَّه الخليفة تمهاوناً بمنصبه، واستصغاراً له.
- ثم قرَّر الخليفة كشف حقيقة نوايا صلاح الدين تجاهه، فأرسل تاج الدين أخا العماد الأصفهاني، الذي كان في حاشية صلاح الدين، لتسهيل مهمته في التعرف على بواطن الأمور، وحمل تاج الدين رسالة فيها مُوجبات العتب، فردَّ صلاح الدين بأنه على الطاعة، مُذكِّراً الخليفة ما قام به من القضاء على الدولة الفاطمية، وردَّ مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية، وهزيمته للفرنج، واستنقاذ بيت المقدس منهم⁽¹⁾.

ويبدو أن الأمر قد سوي بين الرجلين؛ ممَّا سيؤدي إلى علاقات طيبة بين الخلافة وخلفاء صلاح الدين حتى انقضاء الدولتين، ولكن؛ من يتمعن في بواطن العلاقات بين الخليفة والأيوبيين سيلاحظ أن نسبة كبيرة من الشك كانت تُراود الخليفة في مدى إخلاص الملوك الأيوبيين.

ويبدو أن تقليد الخلفاء العباسيين للأمراء والملوك المتحكِّمين في الشام، كان مُنذُ دُخول الفرنج إليها، يعني تنصيبهم ولاة حرب وقادة مجاهدين ضدَّ الغزاة الفرنج. وربَّما لم يكن يُوجد ما ينصُّ على ذلك، لكنَّه الشائع والمتعارف عليه في ذلك الوقت، فعندما تُوفيَّ السلطان صلاح الدين عام 589 هـ 1193م، قام ابنه وخليفته الملك الأفضل بتسيير رسول إلى الخليفة في بغداد يحمل له "لامة الحرب التي لصلاح الدين، وفرسه، وستة وثلاثين درهماً، لم يُخلَّف من المال سواها"⁽²⁾.

1- الفتح القسبي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 13 / 121.

2- تاريخ الخلفاء، السيوطي، 409.

1- الأحكام السلطانية، الماوردي، 31.

2- صبح الأعشى، القلقشندي، 13 / 90.

3- التاريخ المظفري، ابن أبي الدَّم الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 21 / 260.

إنها رسالة واضحة، فصلاح صلاح الدين أُعيد إلى الخليفة بعد انتهاء مهمته الجهادية، وما خلفه من مال أُعيد - أيضاً - كرمز لولايته الإدارية على البلاد. كذلك الأمر كان يوم وفاة الملك المظفر صاحب حماة في عام 642 هـ 1244م، فقد حمل قاضي حماة "زرديته وسيفه ولامة حربه"⁽¹⁾، إلى الخليفة المستعصم، وسار من حماة - في الوقت نفسه - رسول آخر إلى مصر يحمل إلى السلطان الصالح أيوب سيف الملك للمظفر⁽²⁾، إنّه إعلان بانتهاء المهمة لصاحب الشرعية الكبرى الخليفة العباسي، وللسلطان الأيوبي الأكبر صاحب الشرعية الصغرى، فقد كان ملوك حماة - على الدوام - مؤيدين للسلطين الأيوبيين، ملتزمين بهم، وقلماً خرجوا عليهم مثلما كان يفعل ملوك حلب وملوك حمص. وكان الخليفة العباسي، إضافة إلى الشرعية التي تفرضه إماماً وخليفة، ذا مرتبة سياسية ودينية، تجعله أكبر منزلة من كل الملوك، بل إن كل الملوك حاكمين باسمه، يدعون له على منابر بلادهم، وينقشون اسمه مع اسم كل منهم على النقود المضروبة في بلاده.

كان الخلفاء العباسيون غالباً ما يحاولون استئالة الملوك والأمراء الأيوبيين بالهدايا، وغيرها، ففي عام 622 هـ 1225م "وصل الشيخ شهاب الدين السهروردي إلى الملك الأشرف بالرقّة بهدايا وتحف، وأشياء ما سمح خلفاء بني العباس لأحد من ملوك الأطراف بمثلها، من أقوال جميلة وطرف جليلة"⁽³⁾، لماذا هذه المعاملة الخاصة من الخليفة الناصر للملك الأشرف؟! إنّه أقوى الملوك المجاورين لشمال دولة الخلافة، وليس له أي مطامع فيها، إضافة إلى التزام بني أيوب المطلق بدعم الخليفة، وإن كان ذلك معنوياً فقط، فعلى الدوام كانوا يُجلبون هبة الخلافة، ويعملون على إعلاء شأنها، إضافة إلى الظروف المحرجة التي كانت تُحيط بالخليفة الناصر في ذلك الوقت، فقد هجم الخوارزمي جلال الدين منكبرتي على خوزستان، وكانت للخليفة، ووصل جُنوده إلى أعمال بغداد، التي استعدت للحصار⁽⁴⁾.

1- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5 / 346.

2- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5 / 347.

3- المنصوري، ابن نظيف، 110.

4- مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 4 / 152، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 134.

وتكرّر ذلك في عهد الخليفة المستنصر عام 625 هـ 1228م، فقد "ورد على الملك الأشرف رسول الديوان بهدايا وتحف، وفي الجملة إنعام خمسين ألف دينار أنابكية، وقال له كل قول"، ومّا قاله: "قد عزمْتُ على تسيير الرُّسل إلى البلاد بأنّ مَنْ لم يكن في طاعتك تركتُ الذمة منه"⁽¹⁾. وفي هذه المرّة نجد السبب أكثر وضوحاً، فالحاجب علي بن حماد نائب الأشرف في خلّاط كان قد دخل عراق العجم، واستباح مملكة جلال الدين الخوارزمي، واستقبله السكّان، وطلبوا منه قدوم الملك الأشرف لتسليمه توريز، وغيرها⁽²⁾، ولكن رسالة الخليفة كانت أسرع إليه، وفيها الهدايا والمال والقول الجميل، فاضطرّ الأشرف - إزاء هذه المعاملة المتميّزة - أن يرسل رُكن الدين أمير جاندار بهدية إلى الخليفة يستأذنه بدخول بلاد العجم، وعاد الجواب إلى الأشرف من الخليفة يأمره أن لا يتحرّك من سنجار، فاضطرّ إلى المكوث فيها بعدما كان قد تجهّز للسير إلى بلاد العجم، فحرّمه بذلك الخليفة من تلك البلاد الواسعة التي لم يسبق لبني أيوب أي سيطرة فيها⁽³⁾.

وكان ملوك بني أيوب يقومون بكلّ واجباتهم المعنوية تجاه منصب الخليفة، فعندما تُوفّي علي ابن الخليفة الناصر عام 612 هـ 1215م، أرسل الخليفة يُعلم ملوك بني أيوب، "فجلسوا في العزاء، لابسين شعار الحزن خدمة للخليفة"⁽⁴⁾.

ولما تُوفّي الخليفة الظاهر وخلفه ابنه المستنصر أرسل الملك الكامل وزيره مُعين الدين بن الشيخ مُعزياً ومُهتئاً⁽⁵⁾.

وكان ملوك بني أيوب يُجدّدون الولاء للخلفاء العباسيين عبر أداء قَسَم الولاء، أو ما كان يُعرّف بالتحليف؛ حيثُ يحلف الملك بنصّ قَسَم طويل يُلزمه بإعتاق عبيده وإمائه، وتطبيق زوجاته، والبراءة من الدين... إن أخلّ بنصرة الخليفة، أو عمل ضده، وفي عام 627 هـ 1230م، حلف

1- المنصوري، ابن نظيف، 155.

2- المنصوري، ابن نظيف، 156 - توريز: رَبِّهَا هي تبريز، أشهر مُدُن أذربيجان (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: تبريز).

3- المنصوري، ابن نظيف، 715 - 158.

4- السُّلُوك، المقرئزي، 1 / 301.

5- السُّلُوك، المقرئزي، 1 / 344.

الملك الكامل للخليفة المستنصر في مدينة الرقة، بحضور رُسل الخليفة وعلى رأسهم مُحيي الدين بن الجوزي، وجميع مُلوك بني أيوب⁽¹⁾.

ولم تنقطع الرُّسل بين مُلوك بني أيوب وبين ديوان الخلافة، فكان ينذر أن يخلو عام من رُسل تتردّد برسائل وغيرها مُنذ أيام الملك العادل، فقد أرسل العادل رسالة إلى الخليفة الناصر عام 614 هـ 1217م، وعاد جوابها مع الشيخ صدر الدين بن حمويه⁽²⁾.

وفي عام 627 هـ 1230م، أرسل الملك الكامل القاضي الأشرف بن القاضي الفاضل برسالة إلى الخليفة المستنصر، وعاد معه بجواب الرسالة مُحيي الدين بن الجوزي⁽³⁾.

ومما يلاحظ على تبادل الرسائل بين الخليفة وملك بني أيوب أن إسباغ الأهمية على الرسالة يُستمد من أهمية شخصية الرسول، الذي كان يُنتقى من أبرز شخصيات البلاط، مع تركيز خاص على كبار الفقهاء والقضاة لإمامهم بأصول الخطاب، وللاحترام المُتوقع حُصُولهم عليه من الرُّسل إليه.

وكان رسول الخليفة - في ذهابه وإيابه، في أداء مهمته - يُقابل الملوك الواقعين على طريقه، فعندما سَفَر مُحيي الدين بن الجوزي برسالة الخليفة المستنصر إلى الملك الكامل في مصر عام 629 هـ 1232م، تلقاه في حمص الملك المنصور بن المُجاهد ولي عهد مملكة حمص، وهو في طريق ذهابه، ولما عاد من أداء مهمته تلقاه الملك المُجاهد بنفسه مع أولاده في مدينة دمشق، بينما تلقاه الملك الأشرف عند قارا⁽⁴⁾.

وعندما مرَّ شهاب الدين السهروردي رسول الخليفة الناصر بحلب عام 601 هـ 1205م، يحمل التشريف للملك العادل استقبل فيها استقبالا عظيماً، وجلس في مسجدها الجامع للوعظ، وحضر مجلسه كبار رجال حلب⁽⁵⁾، ولا بُدَّ أن الاستقبال نفسه كان له في حماة وحمص⁽⁶⁾.

1- المنصوري، ابن نظيف، 199.

2- السُّلوك، المقرئزي، 1 / 307.

3- المنصوري، ابن نظيف، 195 - 196.

4- المنصوري، ابن نظيف، 251 - 255 - 258.

5- مُفرج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180.

6- راجع: النظم الدبلوماسية، صلاح الدين المنجد، 59.

ويبدو أن استقبال رُسل الخليفة كان يتناسب طردياً مع ما يحمله من خبر مُتوقع لملوك الأيوبيين، فيبلغ الاهتمام به مداه مع حله لخلع التقليد والتشريف، أو إن كان يسعى في مصلحة مباشرة لهم. ففي عام 629 هـ 1232م، عندما كان الملك الكامل في الجزيرة بسبب حركّة التتار حولها وصله الخبر بوصول ابن الجوزي رسولاً من الخليفة المستنصر، "فأمر بتلقي رسول الخليفة، وإتيانه إلى أي موضع كان به، وهذا أوقع إهانة له، فلم يجتمع به إلا على السويداء، على السباط أيضاً، ولم يخرج على الطريق أحد له"⁽¹⁾.

إن اهتمام الكامل بأمر التتار، وتقديره لعدم جدوى سفارة رسول الخليفة هي التي أدت إلى هذه المعاملة غير المُتوقعة، والتي وصلت إلى حدّ الإهانة لرسول الخليفة حسب تقدير المؤرخ ابن نظيف⁽²⁾.

ولم تكن سفارات الخليفة إلى بني أيوب لأُمُور تتعلّق بالخلافة ودولتها فقط، بل كان قسم كبير من هذه السفارات يتعلّق بأُمُور داخل البيت الأيوبي، أو يتعلّق بأُمُور بين الأيوبيين وملك آخرين. فعندما كان الملك العادل يُحاصر سنجار عام 606 هـ 1210م، قدّم هبة الله بن المبارك بن الضحاك رسولاً من الخليفة الناصر يطلب منه ترك حصار سنجار، ويشفع في صاحبها⁽³⁾، فوافق العادل، وانسحب، وفي الحقيقة؛ كانت استجابته لطلب الخليفة تغطية لانسحابه من حصار فاشل.

وفي عام 623 هـ 1235م، قدم ابن الجوزي رسولاً من الخليفة الظاهر إلى الملك المعظم بدمشق، "يطلب منه الرجوع عن حلف الخوارزمي"، ويعرض التوسط بالصُلح بين المعظم وأخوته، فرفض المعظم⁽⁴⁾، ولم يكن هذا التدخل من الخليفة حرصاً على وحدة البيت الأيوبي، أو رغبة في إزالة الخلافات بين ملك بني أيوب، بل ضدّ الخوارزمي جلال الدين، الذي كان يُهدّد الخليفة، ويحتاج مُمتلكاته.

1- المنصوري، ابن نظيف، 236.

2- المنصوري، ابن نظيف، 236.

3- السُّلوك، المقرئزي، 1 / 289.

4- النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 264.

كذلك في عام 629 هـ 1232م، وصل ابن الجوزي رسول الخليفة المستنصر إلى الملك الكامل، فصادفه على آمد، وقد فتحها، فهتأه، وشفع بصاحبني الموصل وإربل، فقبل الكامل الشفاعة وحلف لهم⁽¹⁾، وما كان قبول الكامل بغض الطرف عن تحرك بدر الدين لؤلؤ ومظفر الدين كوكبري صاحبني الموصل وإربل إلا للمشكلات الكثيرة التي كان يتعرض لها الكامل في الجزيرة، وربما كان أهمها خطر التتار، الذي أخذ يلوح في أفق الجزيرة، والدور الكبير الذي يمكن أن يكون الكامل قد قدره للموصل ولإربل في مقاومة هذا الخطر.

ولم يقتصر عمل رُسل الخليفة على السفارة بينه وبين ملوك بني أيوب، بل تعدى عملهم للسفارة بين ملوك بني أيوب أنفسهم، فعندما كان الملك الكامل يُحاصر دمشق عام 635 هـ 1238م "كان السفير بينه وبين الصالح إسماعيل لتسليمها صاحب محمي الدين أبو المظفر يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي رسول الخليفة، الذي حضر ليوقع الصلح بين ملوك بني أيوب"⁽²⁾.

وفي عام 633 هـ 1236م، عندما ساءت العلاقة بين الناصر داود وعمه الكامل "أرسل الخليفة المستنصر بالله رسولا مشربشا"⁽³⁾ من أكبر خواصه ليشفع فيه إلى الكامل، وإبقاء بلاده عليه، وقبل الكامل شفاعة الخليفة، وسافر داود إلى الكرك، وأقام آمناً، لانتسابه إلى الخليفة"⁽⁴⁾.

إن هذا يدل على احترام كبير من قبل ملوك بني أيوب لمنصب الخليفة، وحرص كل منهم على اكتساب الخليفة إلى جانب قضايا الخاصة.

ويبدو أنه كان للخليفة العباسي رأي في التوسط والشفاعة بين ملوك بني أيوب، ويحدد ذلك وفقاً لمصلحة دولة الخلافة، أو مصلحة منصب الخليفة، فعندما حاصرت قوات الصالح أيوب دمشق عام 642 هـ أرسل صاحبها الصالح إسماعيل إلى الخليفة "وزير أمين الدولة إلى بغداد مُستشفعاً بالخليفة المستنصر بالله، ومُتوسلاً إليه ليصلح بينه وبين ابن أخيه أيوب، ثم رجع من بغداد، ولم يتحصل على طائل من رسالته"⁽⁵⁾، فالصالح إسماعيل لم يتذكر الخليفة إلا عندما أُلجأته الضرورة

إليه، والخليفة المستنصر لم يشأ أن يُخاطر بالضغط على أيوب، وهو القوة النامية في الممالك الأيوبية، لذلك لم يستجب الخليفة للنداء، ولم يتدخل.

وكما لم يقيم خليفة المسلمين بأي رد فعل عندما سقط القدس الشريف؛ أولى القبلتين، وثالث الحرمين بيد الفرنج⁽¹⁾، فإنه كذلك فعل عندما حرر صلاح الدين القدس⁽²⁾، وكذلك فعل عندما أعاد الملك الكامل تسليم القدس للفرنج عام 626 هـ، وكان الكامل كان مُتأكداً من عدم مُبالاة الخليفة بقدس المسلمين، فلم يحسب له أي حساب، واكتفى بتكليف كاتبه جمال الدين الأشرفي بن أبي دبوقة الذي أرسله لتسكين الناس عندما قاموا عليه في الشام لتسليمه القدس، بالمُرور على بغداد لإحاطة الخليفة علماً بما جرى⁽³⁾، ويكفي بهذه المواقف تعبيراً عن حقيقة سلطة الخلفاء على ملوك الأطراف، ومنهم بني أيوب.

ولذلك نجد أن الخليفة لم يتجاوز الناحية المعنوية في دعمه لملوك بني أيوب، مُعتمداً على الشرعية التي يُمثلها، ففي أشد الأزمات التي تعرضوا لها لم يُقدم لهم إلا رسلاً تدعمهم بالكلام المعسول، والاعتذار عن عدم إمكانية تقديم شيء آخر، فعندما ضاقت الأمور بالسلطان صلاح الدين وهو في مواجهة الفرنج أرسل يطلب المساعدة من الخليفة الناصر، فأعاد الخليفة الرسول طالباً من صلاح الدين مُساعدته لأخذ تكريت، يقول القاضي الفاضل في ذلك: "وقف المملوك على كتاب بغداد، والمقصود الذي أرسل من أجله الرسول، وهي المعونة على الجهاد، وعرف استدعاء المساعدة على تكريت، ولو كان لنا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها"، ثم يقول عن الرسول الذي سار إلى بغداد بالرسالة: "ولا شك أنه أنسي الرسالة التي توجه فيها، فإننا بعثناه يلتمس لنا نفقة، فالتمسها منا"⁽⁴⁾.

وعندما ضاقت الأمور بالسلطان صلاح الدين، وتكالت عليه قوى الفرنج في معركة عكا، "ندب القاضي بهاء الدين ابن شداد بالمضي إلى خليفة الوقت الإمام الناصر، وإعلامه بهذه الحادثة،

1- المنتظم، ابن الجوزي، 17 / 47.

2- يقول كلود كاهن: "فخليفة مثل الناصر، وهو شخصية مرموقة، كان يبحث عن كل ما يعلي مكانته، كان مثبطاً لعزيمة صلاح الدين بإجاباته الفاترة على نداءات الجهاد التي يرسلها إليه". (الشرق والغرب، ترجمة: أحمد الشيخ، 194 - 195).

3- المنصور، ابن نظيف، 179، والشُّوك، المقرئ، 1 / 355.

4- الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكار، 19 / 309.

1- المنصور، ابن نظيف، 242.

2- الشُّوك، المقرئ، 1 / 379.

3- مشربش: يلبس الشربوش.

4- مُفرج الكروب، ابن واصل، 5 / 111 - 113.

5- مُفرج الكروب، ابن واصل، 5 / 341، وشفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 376.

فوعده الديوان بكلّ جميل"، وبعد مُدة وصل رسول الديوان ومعه حملان من النفط وتوقيع بعشرين ألف دينار، وخمسة من الزّرافين⁽¹⁾، فردّ السُّلطان التوقيع⁽²⁾، ويحار المرء، فهل هذه هي - حقاً - إمكانات دولة الخلافة، في عصر صحوة الخلافة مع الخليفة النّاصر، التي تتجّد بها المسلمون في الشّام في أشرس معاركهم مع الفرنج؟ أم أن الخليفة تعب من عدم الرّدّ، فبادر بنجدة لا تليق بصاحب قرية؟! المُهمّ في الأمر أن صلاح الدّين كان يدرك حقيقة العلاقة مع الخليفة؛ حيثُ قبل ما قدّمه الخليفة على ضعبته، وكان ردهُ التوقيع بالمال للحفاظ على خيط العلاقة المعنوي بالخليفة؛ لأن صلاح الدّين كان مُتأكّداً من أنّه لن يُسدّد.

وتساهم في توضيح حقيقة موقف الخليفة من مُلوك بني أيّوب هذه المحاور التي جرت بين الملك المُعظّم صاحب دمشق وابن الجوزي رسول الخليفة الظّاهر، الذي طلب منه ترك التحالف مع الخوارزمي ضدّ إخوته: "قال المُعظّم: إذا رجعتُ عن الخوارزمي، وقصدي إخوتي، تُنجدوني؟ قال: نعم. قال: ما لكم عادة تُنجدون أحداً، هذه كُتُب الخليفة النّاصر لدين الله عندنا، ونحنُ على دميّاط نكتب، ونستصرخ به، فيجيء الجواب: بأنّا قد كتبنا إلى مُلوك الجزيرة، ولم يفعلوا"⁽³⁾.

وبالمقابل؛ نجد أن الكامل نفسه، الذي لم يُنجد الخليفة النّاصر على دميّاط، عندما استنجد به الخليفة المُستنصر لدفع غائلة التّتار المُتقدّمين نحو بغداد عام 635 هـ 1238م، جنّد له الفرسان من ماله الخاصّ، ورفض أن يستخدم أموال الخليفة⁽⁴⁾، وبالفعل؛ فقد وصل إلى بغداد ستّائة فارس يقودهم إبراهيم بن خضر بن السُّلطان صلاح الدّين، ثمّ تبعهم عساكر كثيرة يقودها المُظفّر عمّار والملك السعيد ابنا الأجد صاحب بعلبك، لمُساعدة الخليفة على دفع التّتار⁽⁵⁾.

- 1- الزّراف: الرامي بقوارير النفط لإحراق معدّات العدو، وسُمّي بذلك لأن النفط كان يزرق بواسطة أنبوبة.
- 2- مُفَرّج الكُرُوب، ابن واصل، 2 / 314.
- 3- النّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 264.
- 4- أخبار الأيوبيّين، ابن العميد، 21، والسُّلوك، المقرئ، 1 / 380.
- 5- المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجوزي، 166.

المبحث الرابع

الملوك الأيوبيّون وشعارات الشرعية العباسيّة

مع انقسام دولة الخلافة العباسيّة الفعلي، وسيطرة مُلوك وأمراء وقادة وزعماء وشيوخ وغيرهم على مناطق مُتعدّدة من جسم الدولة، منها ما كان يُشكّل دُولاً كبيرة جدّاً، ومنها إمارات صغيرة، وأحياناً؛ قلعة أو بلدة لها حاكمها الخاصّ، وهو يتصرّف بكلّ الشُّؤون السّياسيّة والعسكريّة والداخلية باستقلالية تامّة، ومع كلّ هذا الانقسام بقيت هناك سُلطة اسمية للخليفة على كلّ الدُّول والدُّويلات المُستقلّة، انطلاقاً من أن الخلافة هي منصب ديني، والخليفة هو إمام المسلمين ومرجعهم الأعلى دينياً وسياسياً، وأيضاً؛ لأن البلاد بكاملها كانت لدولة الخلافة، وكلّ سيطرة على أيّ منطقة منها ليست شرعية، وصاحبها لا يملك الحقّ الشرعي في الحُكم، لذلك كان كلّ منهم مُضطراً - بشكل أو بآخر - أن يُقرّ بسُلطة اسمية للخليفة في بلاده. وكان خلفاء بني العبّاس المتأخّرون يرضون بهذه السيطرة الاسمية، التي لا تتعدّى ذكر اسمهم في خطبة الجمعة على منابر المساجد؛ بحيثُ يسبقه اسم الملك المحليّ، ونقش اسمهم على العملة التي يسكّها هذا الملك، أو ذاك، ضمن أراضي البلاد، التي كانت - فيما مضى - تُسمّى أراضي الخلافة العباسيّة.

وكان هناك شكل رسمي برُوتوكولي لموافقة الخليفة التي كانت مضمونة دائماً على أن يشمل بشرعية حُكم الملوك المُتقدّمين في أطراف الدولة، مع أن سُلطاتهم وأراضيهم كانت تقوم على حساب سُلطة وأراضي الخليفة، حتّى لم يبقَ للخليفة إلّا بغداد واسم الخلافة. هذا الشكل الرّسمي لموافقة الخليفة كان يلزم لكلّ حاكم جديد، بل، ولكلّ توسّع يقوم به، وأحياناً؛ كان بحاجة إلى تجديد سنوي. ونلاحظ أن مُعظم الخلفاء المتأخّرين قد استمرّوا هذه التمثيلية، فكانت رُسُلهم تترى إلى مُلوك الأطراف بالموافقات الشرعية، التي عُرفت بعدّة أسماء، منها:

1. التّقليد: ويعني التولية، وهي من قُلدته أمر كذا؛ أي وَلَّيْتُهُ عليه⁽¹⁾، فالنقل هو مرسوم سياسي يصدر من ديوان الخلافة لتكليف شخص ما بالحُكم في بلد، أو بلاد مُعيّنة. وقد حرص الملوك الأيوبيّون حرصاً كبيراً على أن يتولّى كلّ منهم عمله بمباركة شريفة من الخليفة، تتجلى بمنحه التّقليد

1- مُعجم المُصطلحات والألقاب التاريخية، مُصطفى الخطيب، 109.

لولايته، وإن كان ذلك شكلياً محضاً، ويأتي بعد مباشرته الولاية الفعلية بالوراثة، أو بالتغلب، وربما كان هذا الحرص مبعثه إيمانهم وتمسكهم بشرعية الحكم الديني، أو لكسب الناس بغطاء الشرعية، بعد أن كسبوا السلطة فعلياً، والأغلب أنه كان للأمرين اعتبارهما في سياسة الملوك الأيوبيين.

ففي عام 576 هـ 1180م، وبعد سنوات قليلة من سيطرة السلطان صلاح الدين على الشام، أرسل الخليفة الناصر رسالة تحمل التقليد لصلاح الدين إشعاراً بالموافقة على توليه منصب السلطنة⁽¹⁾. وعندما أراد السلطان صلاح الدين أخذ أمد، وضمتها إلى دولته عام 579 هـ 1183م، كتب قبل الشروع في الحملة إلى الخليفة الناصر يطلب إذنه في قصد أمد، "فوصله تقليد بها"⁽²⁾. وفي عام 604 هـ، عندما سيطر العادل على مملكة مصر وعلى دمشق والبلاد الجزرية أرسل أستاذ داره الدكر العادلي والقاضي خليل بن المصمودي قاضي العسكر إلى الخليفة في بغداد "لطلب التقليد على مصر والشام والجزيرة"، فأكرما، وأجيبا⁽³⁾، وزيادة في التكريم أرسل الخليفة معهما الشيخ شهاب الدين السهروردي ونور الدين التركي الخليفتي⁽⁴⁾، يحملان من الخليفة إلى العادل "تقليداً بالبلاد التي تحت حكمه"⁽⁵⁾، "وقرأ صفى الدين بن شكر وزير العادل التقليد الذي أرسله الخليفة على كرسي نصب له"⁽⁶⁾، مما يوضح لنا بأن التقليد هو مرسوم سياسي إداري ديني يصدره الخليفة بتولية جزء من أراضي الخلافة إلى شخص يُذكر اسمه في التقليد مقروناً بصفات التقدير والتعظيم.

وفي عام 628 هـ 1231م، وصل رسول من الخليفة بالتقليد إلى السلطان الكامل، "وقلد تقليداً لم يقلد به غيره من سائر الملوك من بني العباس، وزادوه زيادات عظيمة في التقدمة له والقول، وكذلك للأشرف، وكذلك لولده الصالح، ولكن عيّنوه"⁽⁷⁾، فقد غدا التقليد منشور تفخيم وتعظيم وزيادة في القول والوصف للملك المقلد، تبلغ حد الشطط في إغداق الصفات والنعوت عليه.

- 1- التاريخ المظفري، ابن أبي الدم، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 256 / 21.
- 2- التاريخ المظفري، ابن أبي الدم، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 260 / 21.
- 3- مفرج الكروبي، ابن واصل، 180 / 3.
- 4- ذيل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 122 / 20.
- 5- المختصر، أبو الفداء، 109 / 3.
- 6- مفرج الكروبي، ابن واصل، 180 / 3.
- 7- المنصور، ابن نطف، 231.

وبعد أن سيطر الملك الصالح أيوب بن السلطان الكامل عام 643 هـ على مصر والشام وصل رسل الخليفة، الفلك محمد بن وجه السبع وجمال الدين بن عبد الرحمن بن الجوزي، ومعهما التقليد... فنصب المنبر، وصعد عليه الرسول، وقرأ التقليد بالدهليز السلطاني، والسلطان قائم على قدميه، حتى فرغ من القراءة⁽¹⁾، ومع أن التقليد هو قرار الخليفة بإقرار ملك من ملوك الأطراف على ولاية استطاع ملكها فعلاً، فإن الملوك الأيوبيين كانوا يُقدِّرون التقليد حق قدره، فقيام أيوب واقفاً على قدميه أثناء قراءة تقليده لدليل كبير على مدى أهمية التقليد بالنسبة إليه، فهو النص الشرعي الذي يفوض إليه حكم البلاد شرعاً وقانوناً. ولا نستطيع هنا إلا أن نلاحظ أن معظم التقاليد كانت تصدر للملوك بني أيوب من الخلفاء بناءً على طلب مُسبق منهم، مع رسول يحمل الهدايا اللاتقة⁽²⁾.

2- التشريف: أو خلعة التشريف، وهو جبة، أو عباءة بلون أسود، لذلك قد يُسمى التشريف الأسود⁽³⁾، والسواد هو شعار بني العباس⁽⁴⁾، وتكون خلعة التشريف مذهبة عادةً، وتُسمى التشريف الإمامي⁽⁵⁾، فهي تشريف من الإمام، أي الخليفة العباسي للشخص المرسل إليه. وكان رسول الخليفة يقوم بوضع التشريف على أكتاف الملك المرسل إليه، بعد قراءة التقليد، فيلبسه، ويسير به في شوارع بلده، أو بين خواصه⁽⁶⁾. فعندما وصل إلى السلطان الناصر صلاح الدين التقليد والتشريف من الخليفة عام 576 هـ 1180م، "ركب الناصر بالتشريف"⁽⁷⁾. وفي عام 604 هـ 1208م، وصل تشريف من الخليفة الناصر إلى السلطان العادل، وإلى أولاده، ووزيره، "فركب العادل وولده ووزيره بالتشريفات إلى ظاهر البلد، ثم عادوا إلى القلعة"⁽⁸⁾.

- 1- السلوك، المقرئ، 425 / 1، ومفرج الكروبي، ابن واصل، 352 / 5.
- 2- مفرج الكروبي، ابن واصل، 350 / 5.
- 3- السلوك، المقرئ، 425 / 1.
- 4- رسوم دار الخلافة، الصابئ، 93.
- 5- مفرج الكروبي، ابن واصل، 350 / 5.
- 6- مفرج الكروبي، ابن واصل، 3 / 180، 4 / 352، والتاريخ المظفري، ابن أبي الدم، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 256 / 21، والسلوك، المقرئ، 425 / 1.
- 7- التاريخ المظفري، ابن أبي الدم، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 256 / 21.
- 8- مفرج الكروبي، ابن واصل، 3 / 180، والمختصر، أبو الفداء، 109 / 3.

وفي عام 623 هـ 1226م، وصل رسول الخليفة الظاهر محيي الدين بن الجوزي⁽¹⁾، ومعه تشريفات إلى ملوك بني أيوب⁽²⁾. وفي عام 643 هـ 1246م، بعد أن ملك الصالح أيوب مصر والشام، أرسل إلى ديوان الخلافة القاضي ابن أبي عصرون⁽³⁾ "يلتمس التقليد بالديار المصرية والشام والشرق والتشريف الإمامي"، فجاء من الخليفة المستعصم معه "رسول كبير من الديوان، وعلى يده التشريف"، فوصل الرسول وأيوب محيي بالعباسية، "فلبس السلطان التشريف الأسود المذهب"⁽⁴⁾.

3- الخلعة: وهي ما يجعله الخليفة أو الملك على أحد من الناس⁽⁵⁾، وكان خلفاء بني العباس كثيراً ما يهبون الخلع لأتباعهم. وأنواع الخلع التي كانت تُرسل إلى ملوك بني أيوب كانت - غالباً - ما ترافق التقليد، وتكمل التشريف. وهي خلع أصحاب الجيوش، وولاة الحروب⁽⁶⁾، فملوك بني أيوب كانوا ولاة دار الحرب في مواجهة الفرنج منذ أن قامت دولتهم. والخلعة - في كثير من الأحيان - كانت تعني موافقة الخليفة على تقليد الملك في بلاده، وهي - عادة - تتكوّن من عمامة سوداء ورداء فضفاض - عباءة - أسود مُبطّن، مُوشى بالذهب، وسيف محلى بالفضّة والذهب، له حائل مُوشاة أبيضاً. ثم يأتي الحملان، وهو حصان بسرّج مُزيّن.

وكانت هناك زيادة على هذه الخلع المتعارف عليها تزداد لأصحاب الفتوح من القوّاد، وهي طوق وسوارين من الذهب⁽⁷⁾، وهذه الزيادة أُعطيت لقوّاد دولة الخلافة، ولم تُرسل مع الخلع إلى ملوك بني أيوب إلا نادراً، ففي عام 599 هـ 1203م، أرسل الخليفة الخلع إلى الملك العادل وأولاده، فلبسوها⁽⁸⁾، ولم يُذكر أنّها تضمّ الطوق والسوارين. أمّا في عام 605 هـ؛ فقد وصل إلى بغداد من

دمشق قاضي عسكر الشام ابن المصمودي⁽¹⁾ رسولاً من الملك العادل، وتسلم الخلع للعادل وأولاده، وكان في خلعة العادل الطوق والسواران⁽²⁾، وأرسل معهم الخليفة الشيخ شهاب الدين السهروردي رسولاً لحمل الخلعة، واهتمّ العادل كثيراً بهذه الخلعة، فقد "أرسل العسكر للقاء الرسول، فتلّقوه في الغسولة⁽³⁾، وخرج العادل، وتلقّاه في القصير⁽⁴⁾ مع ولدنيه الأشرف والمُعظم، وغُلّقت الأسواق، وخرج الناس كلّهم، وكان يوماً مشهوداً"، ثمّ جلس العادل بقلعة دمشق، ولبس الخلعة، "وطوّق بطوق ذهب ثقیل"⁽⁵⁾. إنّه تقدير كبير من الخليفة الناصر للملك العادل، واهتمام أكبر من العادل يدلّ على مُستوى أهميّة تقليده بالخلعة والطوق، فقام العادل وأولاده وملوك بني أيوب بإغداق الهدايا والتحف على رسول الخليفة، وكانت كبيرة إلى درجة أن الخليفة قد أعرض عنه عند عودته إلى بغداد بهذه الكميّة من الهدايا⁽⁶⁾.

وفي عام 623 هـ 1226م، توجّه محيي الدين بن الجوزي رسولاً من الخليفة الظاهر إلى ملوك بني أيوب، فوصل إلى الأشرف أولاً، وكان في الجزيرة، "فأفاض عليه الخلع الإمامية الظاهرية، ثمّ وصل حلب، فتلقّاه الملك العزيز، فألبسه خلعة الخليفة، . . . فركب العزيز بها، وتوجّه إلى دمشق، وألبس المُعظم خلعة الخليفة، . . . ثمّ توجّه إلى مصر، فألبس الكامل خلعة الخلافة المُكَمَّلة، بالطوق الذهب"⁽⁷⁾، إنّها خلع بالجملة لملوك بني أيوب في الشام ومصر، ولكن خلعة السلطان الكامل هي الخلعة الوحيدة المُكَمَّلة بالطوق الذهب، فالطوق لم يُعدّ من شعارات قوّاد الفتوح، بل من تمام الخلعة وكمالها التي ينفرد بها سلطان بني أيوب عن الملوك الآخرين. وفي عام 628 هـ 1231م، وصل رسول الخليفة إلى السلطان الكامل بمصر يحمل الخلع من الخليفة⁽⁸⁾، ونفترض أن هذه الخلعة - أيضاً - كانت

1- ابن المصمودي: نجم الدين خليل الحنفي الحموي، توفّي عام 641 هـ 1243م، (التجّوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 348 / 6).

2- دَبِيل الرّوضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 122 / 20.

3- الغسولة: قرية تقع شمال شرق دمشق، وهي - حالياً - قرب مطار دمشق الدولي، (المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مادة: الغسولة).

4- القصير: قرية على طريق حمص، شمال دمشق بمرحلة. (المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مادة: القصير).

5- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 180، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 109، والمنصوري، ابن نظيف، 56.

6- دَبِيل الرّوضتين، أبو شامة، 20 / 124.

7- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 4 / 175.

8- المنصوري، ابن نظيف، 231.

1- أبو المظفر محيي الدين يوسف بن جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي.

2- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 4 / 175.

3- عزّ الدين بن عبد العزيز بن القاضي نجم الدين عبد الرحمن بن أبي عصرون، توفّي في القدس عام 643 هـ.

4- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 5 / 350 - 352، وشفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 377.

5- مُعجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مصطفى الخطيب، 165.

6- راجع أنواع خلع أصحاب الجيوش وولاة الحروب في كتاب: رُسوم دار الخلافة، الصابيّ، 93.

7- رُسوم دار الخلافة، الصابيّ، 93.

8- دَبِيل الرّوضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 20 / 61.

تضمُّ الطُّوق، فقد أصبح حقاً مكتسباً للسلطان. وفي عام 643 هـ 1237م، وبعد أن تسلطن الصَّالح أيُّوب، وسيطر على مصر ودمشق، أرسل إلى ديوان الخلافة يلتمس التقليد، فوصله رسول الخليفة، ومعه التقليد والطُّوق الذهب⁽¹⁾، فالطُّوق أصبح حقاً ضمن خلعة الخليفة لمن يتولَّى منصب السلطان الأعظم من بني أيُّوب.

وكما كانت المنافسة على السُّلطة بين آخر سلاطين بني أيُّوب في الشَّام وأول سلاطين المماليك في مصر كانت - أيضاً - بينهما المنافسة على خلعة الخليفة، فبعد أن سيطر الملك الناصر صلاح الدِّين الثَّاني على الشَّام "أرسل ابن العديم رسولا إلى الخليفة المستعصم وصحبته تقدمه جليلة، وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه"⁽²⁾، فالناصر يُريد أن يؤكِّد شرعية الحُكم الأيوبي الذي آل إليه مُقابل عدم شرعية حُكم المماليك، الذين استولوا على السُّلطة في مصر، فما كان من المعز أيُّوب إلا أن أرسل شمس الدِّين سنقر⁽³⁾، "وصحبته تقدمه جليلة، وسعى في تعطيل خلعة الناصر يُوُسُف"⁽⁴⁾، فأبيك لم يطلب الخلعة لنفسه، ربَّما لأنَّه كان يُدرك صُعوبة مُوافقة الخليفة على ذلك، فحُكمه في مصر لم يستقر بعد، وهناك مشاكل كثيرة شرعية وعسكرية وإدارية مازال قائمة، لذلك كان جُلُّ ما يطمح إليه هو عدم منح الخليفة الخلعة للناصر يُوُسُف.

أمَّا الغريب في هذا الأمر؛ فهو موقف الخليفة المستعصم الذي حار فيمن يُرضي من الطرفين، فقد قدَّما هدايا جليلة لا يُمكن أن يُنكر تأثيرها، ولذلك وجد الخليفة الضعيف الشخصية خرجاً بأن "أحضر سكيناً كبيرة من البشم"⁽⁵⁾، وقال لوزيره: أعط هذه السكين لرسول صاحب الشَّام، علامة منِّي في أن له خلعة عندي في وقت آخر"⁽⁶⁾، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للمستعصم، فهو لم يشأ أن يدخل في صراع المُلوك على السُّلطة، فدوره إقرار من يتغلَّب منهم، وعندها تكون الخلعة من حقه الطبيعي.

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 350، والسُّلوك، المقرئزي، 1 / 425.

2 - عقد الجمان، العيني، 1 / 117.

3 - سنقر الأقرع: من ممالك المظفر غازي صاحب ميَّافارقين، فارقه، والتحق بمصر.

4 - عقد الجمان، العيني، 1 / 117.

5 - البشم: حجر كريم.

6 - عقد الجمان، العيني، 1 / 117.

المبحث الخامس

قضية الملك الناصر داود والخليفة العباسي

(وجه آخر للعلاقات بين الأيوبيين والخليفة):

في عام 630 هـ 1233م، تحرَّك الملك الكامل بعساكره من مصر نحو الجزيرة للتصدِّي لهجوم سلطان سلاجقة الرُّوم، وفي طريقه مرَّ على الكرك، فاستقبله الناصر داود، واتَّفَق معه، وقبل الكامل زواج ابنته عاشوراء من داود⁽¹⁾، وربَّما أراد الكامل بهذه العلاقة مع داود تقوية مركزه في الشَّام، ويبدو أن داود لم ينسَ ما فعله عمُّه الكامل؛ حيث نزع منه دمشق، وأخذ منه قلعة الشوبك، فاستغلَّ الناصر داود فرصة تأمر المُلوك الأيوبيَّة على الكامل أثناء غزوه لبلاد الرُّوم، فانخرط في حلفهم ضده. وصحيح أن الملك المُجاهد هو من حرَّك المُلوك ضدَّ الكامل، وأبلغهم أنَّه قال: "أريد أن أجعل البلاد سفتين، فأضمَّ الشَّام إلى مصر، وأعوِّض مُلوكه في الرُّوم، فحذر كلَّ منهم مُفارقة إلفه، وخشي أن يكون في مناصرته كالباحث عن حنطة بظلفه"، لكنَّ الناصر داود الذي "لدغته أراقم بغبيهم، وأنفذوا في انتزاع دمشق منه سهام أمرهم ونبيهم، علم أن القلق مُترتب على ما يُحاولونه من الفتح، فخلل في سرائرهم رأيه الناصع، وفاوضهم مُفاوضة أخذت من قلوبهم بالمجامع، فتتسم الملك الكامل الأخبار"⁽²⁾، وعلم دور داود في التحريض عليه، وربَّما لأنَّه الطرف الأضعف وقعت عليه ثائرة الكامل، فألزمه بطلاق ابنته، وعهدده، "فخاف الناصر خوفاً عظيماً"⁽³⁾، ولشدَّة خوفه من الملك الكامل ترك الناصر بلاده عام 633 هـ، وسار إلى بغداد لائثاً بالخليفة المستنصر⁽⁴⁾. كان لجوء داود لأعتاب الخليفة سابقة لملوك بني أيُّوب، فلم يقصد أيُّ منهم الخليفة فيما قبل، ويبدو أن ما اضطرَّ داود إلى ذلك هو خوفه الشديد من عمِّه الكامل، خاصَّة أنَّه جرَّب مُعاداته سابقاً، فخرج من معركته معه خاسراً مُعظم بلاده. ولكن الظُّروف - الآن - مُختلفة، فالملك الأشرف ومُلوك الشَّام مُعادون تماماً للملك الكامل، فلم لم يلجأ الناصر إليهم؟ بالتأكيد؛ إنَّها تجربته المرَّة السابقة معهم؛ حيث أوقعوه بين

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.

2 - الفوائد الجلية في الفرائد الناصريَّة - سيرة الناصر داود، الأجد حسن بن داود، 218.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 100، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.

المطرق والسندان، فعندما استنجد بعمه الملك الأشرف اتفق عليه مع عمه الآخر الملك الكامل، ونزعوا منه دمشق، لكل ذلك لم يجد داود أمامه إلا الخليفة، فقصده مستجيراً به.

سار الناصر داود إلى بغداد مع عدد من خواصه، ولما وصل مدينة الحلة، وهي تابعة للخليفة، استقبله أميرها شرف الدين علي بن جمال الدين قشتمر، وأكرمه، وتابع - بعدها - داود طريقه إلى بغداد، فأمر الخليفة المستنصر حاشيته باستقباله، وإنزاله بدار الوزارة، وقام الناصر بتقديم هدايا نفيسة إلى الخليفة، فيها من التحف والجواهر⁽¹⁾، "وكان طامعاً بمقابلة الخليفة، فلم يؤذن له في ذلك، وطال مقامه في بغداد⁽²⁾. ولم يُقصر الخليفة بحق ضيافة داود وإكرامه، فقد خلع عليه قبا أطلس⁽³⁾، وشربوش⁽⁴⁾، وفرساً بمركب ذهب وكنبوش⁽⁵⁾، وأعطى علماً وجفتائين⁽⁶⁾، كما أُعطى خمسة وعشرين ألف دينار، وعدة رؤوس خيل، وبقع⁽⁷⁾ ثياب فاخرة، وشرف أتباعه⁽⁸⁾، ومع كل ذلك الإكرام لم يوافق الخليفة على استقباله، مُراعاة منه لخطر الملك الكامل، فبالأكيد؛ كانت مصلحة الخليفة مع سلطان بني أيوب، لا مع أمير مغضوب عليه، يرتعد خوفاً من سلطانه. ولكن داود لم ييأس، واستمرّ بتضرّعه للخليفة حتى يحظى بالمقابلة، وقد شجّعه على ذلك أن الخليفة كان قد استقبل مظفر الدين بن زين الدين صاحب الموصل، فأنشأ الناصر داود قصيدة يمدح فيها الخليفة، ويقارن فيها بين استقبال مظفر الدين، والإعراض عنه، وأرسلها إلى الخليفة يستعطفه لمقابلته⁽⁹⁾، "وأعجبت القصيدة الخليفة، وأراد الجمع بين المصلحتين، فاستدعاه سرّاً جبراً لقلبه، وعدم الجهر

1- المختصر، أبو الفداء، 3 / 157.

2- مُفَرَّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5 / 100.

3- قبا: من قباء وهو ثوب واسع، يُرتدى فوق الثياب العادية.

4- الشربوش: قلنسوة طويلة، شرح سابقاً.

5- الكنبوش: ما يُستَر به ظهرُ الفرس، وكفله، ويكون من خيوط الذهب، أو الصوف المرقوم، ويركب به القضاة وأهل العلم.

(صُبح الأعشى، القلقشندي، 2 / 135).

6- جفتائين: غلامان يرتدي كل منهما ثوباً من الحرير الأصفر، ويركب كل منهما على فرس أبيض، ويتقدّمان الاحتفالات.

(تكملة المعاجم العربية، رينهاوت دوزي، مادة: جفته).

7- بقع: جمع باتجة، وهي تركيبة تعني الصرة. (النقود العربية وعلم النميات، الأب أنستاس ماري الكرمل، 168).

8- المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 161 - 162.

9- مطلع القصيدة: ودان، أُلْتُ بالكثيب ذوائه وجنح الدجى وحفّ بحول غياهبه

(راجع القصيدة في: ديوان الملك الناصر داود، 221).

رعاية للكامل⁽¹⁾. ثُمَّ سَيرَ الخليفةُ رسولاً مع الناصر ليشفع فيه إلى الكامل، حتى لا يتعرّض لبلاده، وكان الرسول سعد الدين حسن بن علي من كبار خواص الخليفة، فتلّقاه الأشرف والكامل بدمشق، وسار الرسول مع الناصر داود ليُلبسه الخلعة في الكرك إشعاراً بتكريم الخليفة له، "وأقام آمناً لانتسابه إلى الخليفة⁽²⁾". ويبدو أن هذا ما سعى إليه داود، ولكن؛ إلى متى سيستمرّ أمنه واستقراره في ما بقي له من البلاد؟!

بعد موت الملك الكامل، تنازع ولداه الصالح والعاقل على السلطة، وتمكّن الصالح أيوب من أخذ دمشق، وسار إلى مصر، وفي الطريق؛ تخلّى عنه جنده وأصحابه لخروج دمشق من يده، فقبض عليه الناصر داود، واعتقله في الكرك، ثُمَّ اتفق معه، وأخرجه، وتمكّن الصالح أيوب مصر، لكنه تنكّر لعُهوده، فدخل الناصر داود ضده في حلف الشام.

لكن؛ بعد هزيمة غزّة، وأخذ أيوب لدمشق، وضغط ابن الشيخ العسكري على داود، وحصاره في الكرك، ضاقت الدنيا به، فسار من الكرك نحو الملك الناصر يوسف الثاني في حلب، معتزداً به، ولاجئاً إليه عام 647 هـ 1249 م، "وكان قد بقي عند داود من الجوهر مقدار كثير⁽³⁾، وكان معه من نفائس الجواهر ما هو كالنجوم الزواهر... يقوم بضرة البيع بخمسمائة ألف دينار⁽⁴⁾". ويبدو أن داود خاف أن يطمع الناصر يوسف بالجواهر الذي معه، "فلم يجد عليه مأمناً سوى دار الخلافة... فجمع ما عنده من الجوهر الثمين، وسيّره وداعة إلى الإمام المستعصم، فلما وصل الجوهر إليهم، سيّروا بوضوله خطأ⁽⁵⁾"، فكان داود كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ حيث لن تقع عينه على تلك الثروة التي تصوّر أنّها في أكثر الأمكنة آمناً، إنّها ذمّة الخليفة. ولم يكن هذا التصرف الخاطئ الوحيد الذي ارتكبه داود، ويبدو فيه أن الحكمة والتعقل قد جانباه، أو أن الشدة والخوف

1- مُفَرَّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5 / 106، (راجع وقائع المقابلة بين داود والخليفة في: الفوائد الجلية، الملك الأحمّد حسن بن داود، 220).

2- مُفَرَّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 5 / 113، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 157، والمختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 162.

3- المختصر، أبو الفداء، 3 / 179.

4- الفوائد الجلية، الملك الأحمّد حسن، 226، - يقول أبو الفداء: "كان يساوي مائة ألف دينار إذا بيع بالهوان". (المختصر، أبو الفداء، 3 / 179).

5- الفوائد الجلية، الملك الأحمّد حسن، 226 - 227.

قد شلاً تفكيره، فقد سلم حُكم الكرك قبل أن يغادرها إلى ابنه الأصغر عيسى، ولقبه المعظم، وجعله نائباً له في مملكته، مُتجاهلاً ولديه الأكبر؛ وهما الأجد حسن، والظاهر شاذي⁽¹⁾، فاستغلّ ولدا داود غيبته، وصغر سنّ أخيه المعظم نائب والدهم في الكرك، وقاموا بالاتفاق مع الصالح أيوب، وسلّماه الكرك مُقابل أموال وإقطاع لها في مصر⁽²⁾، ولم يطل العهدُ بهما، فقد مات أيوب بعد أيام قليلة، فطردا من مصر، وخرجا خاسرين كلَّ شيء⁽³⁾.

ويبدو أن أمُور الناصر داود سارت على عكس ما يرنجى في حلب، فقد قام لؤلؤ الأميني مُدبر مملكة حلب بتحريض الناصر يُوسف عليه؛ إذ يقول الأجد حسن بن داود في سيرة أبيه: "ولما قصد الملكُ الناصر يُوسف مُتصراً، وجد من كفيل دولته مُتنكراً"⁽⁴⁾. ففي عام 648 هـ 1250م، قبض الناصر يُوسف على داود، وسجنه في قلعة حمص⁽⁵⁾، وفي سجن حمص نظم قصيدة في التوسّل والرجاء⁽⁶⁾، ويُستشف من مضمون القصيدة أنّه جاء طالباً اللُجوء والحماية لدى الناصر يُوسف، فلم يُجبه، بل رماه بإفك القول، وسجنه، ولم يجد في النهاية داود إلا الله سبحانه يلجأ إليه، ويطلب منه. ولما طال سجنه بقلعة حمص "لم يجد سوى الخليفة ملاذاً، فبعث ولده المعظم عيسى مُستشفعاً"⁽⁷⁾، وكانت استجابة الخليفة على غير ما توقّع؛ حيث "سیر معه شفاعة لا يُرجى لئلهما نجاح"⁽⁸⁾، فالرسول شخص عادي لا أهميّة له، ويبدو أن الناصر يُوسف فهم إشارة الخليفة بأنّه غير مَعني بأمر داود، فاعتذر عن إطلاقه من السجن، وتعلّل باستعداده لحرب المماليك بمصر، وإنّه يخشى أن يُفسد عليه الأمر في الشّام.

وبعد هزيمة الناصر يُوسف أمام المماليك، أوعز داود إلى ولديه الظاهر شاذي، والأوحد يُوسف أن يتوجّها إلى بغداد ليُنذرا الخليفة بقضيّته، ولكنّها ردّاً من الطريق قبل بلوغ بغداد، "وقيل إنّ الناصر طلب ردّها، فعادا إلى دمشق"⁽¹⁾. وكان الخليفة قد أرسل الشيخ نجم الدّين البادرائي⁽²⁾ رسولاً ليُصلح بين الناصر يُوسف والمماليك، واستطاع - فعلاً - التوصل إلى الصّلح وإطلاق الأسرى الشّوام في مصر، فكتب أولاد داود إلى البادرائي وهو بدمشق عام 651 هـ 1253م، فرأف بحالهم، وحَدث الناصر يُوسف بأمر داود، فأطلقه، "مُشرطاً عليه ألا يُقيم عنده إلا ريثما يتجهّز للسفر"⁽³⁾، ولم يجد داود مكاناً يلجأ إليه بعد إطلاقه من السجن "سوى قصد الخليفة... فتوجّه يؤمّه، في وثوق من الرجاء، معتمداً على ما استودعه من المال والولاء"⁽⁴⁾. ولكن الناصر يُوسف عمّم على كلّ الملوك والأمراء في الشّام ألا يسمحوا لداود بإقامة، ولا يمدّوه بمُساعدة، وعندما مرّ داود على الرحبة وفيها الأشرف مُوسى بن المنصور بن المُجاهد، فبالرغم من أوامر الملك الناصر يُوسف "أرسل إلى الناصر داود مركّبين موسّقين دقيقاً وشعيراً"⁽⁵⁾، ولم يكتف بذلك، بل "سیر إليه أشياء غير واحدة من جميع ما يحتاج إليه"⁽⁶⁾، وبذلك "قام الأشرف بن المنصور في خدمته بما يليق بمكارم أخلاقه الزكية"، ولكن هذا تحديداً لسلطان الشّام الناصر يُوسف، الذي انزعج من الأشرف، "وسقاه من عتبه سِهاماً، وسدّد إليه من تخوفه سهاماً"⁽⁷⁾. وأرسل الناصر يُوسف إلى الخليفة يطلب منه عدم استقبال داود، فردّوه من عانه، ومنعوه التزوّد بالمؤن، "وطلب وديعته، فمنعوه إيّاها"⁽⁸⁾. ويبدو أن الخليفة كان لا يرغب أن يتبنّى داود، الذي تحوّل إلى مُشرّد مشاغب غير مرغوب فيه في بلاده، ولدى سُلطانه الناصر، الذي كان الخليفة يُريد أن يحافظ على علاقات جيّدة

- 1- الفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 227.
- 2- راجع ترجمته في: مبحث المماليك، فصل مقتل المعظم تُوران شاه، من هذا الكتاب.
- 3- الفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 228.
- 4- الفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 228.
- 5- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 186-187، - موسّقين: ممثلين.
- 6- كنز الدرر، ابن آيبك، 8 / 23.
- 7- الفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 229.
- 8- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 186.

- 1- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 179.
- 2- المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 215.
- 3- شفاء القُلوب، أحمد الحنبلي، 354.
- 4- الفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 226.
- 5- شفاء القُلوب، أحمد الحنبلي، 353، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 184.
- 6- مطلع القصيدة: إلهي أنت أعلى وأعلم بمحقوق ما تبدي الصدور وتكنم.
- (ديوان الملك الناصر داود، 260، - كذلك انظر: عقد الجمان، العيني، 1 / 38).
- 7- الفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 227.
- 8- الفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 227.

معه، إضافة إلى أن الخليفة - ربّما - فكّر أن عودة داود إلى بغداد ستكون - بلا شك - لطلب وديعته من الجواهر، فَمَنَعُهُ من الحُضُور يعني تَمَلُّكُ الوديعة.

فأقام داود في أزوار الفرات، ثُمَّ انضمَّ إلى نفر من قبيلة غزية، يتجول معهم في بوادي العراق، ولكن الخليفة ظلَّ قلقاً حيال وجوده قريباً من العراق، فطلب من الناصر يُوسُف أن يسمح له بالعودة إلى دمشق، فعاد نحوها عام 653 هـ⁽¹⁾، ومن دمشق توجه داود إلى الحجاز، واستشفع بقبر النبي (ص)، وأشهد الناس على الخليفة الذي لا يرث وديعته⁽²⁾، وقد أحدثت هذه الحركة من داود ضجة دينية حول الخليفة، الذي سارع بإرسال من يحاسب داود، فحسبوا عليه ثمن كل طعام تناوله عندهم، وثمن كل هدية أخذها بأغلى الأثمان، وأعطوه نزرأ يسيراً⁽³⁾، وعاد الناصر داود نحو دمشق، وانتهت به الفاقة والإملاق أن يُقيم مع أولاده في تربة والده بسفح جبل قاسيون⁽⁴⁾.

وفي عام 655 هـ 1257 م، عندما كان نجم الدين البادرائي رسول الخليفة المستعصم في دمشق استجار به داود ليصحبه إلى بغداد، فاصطحبه معه إلى قرقيسيا، وشاور عليه، ولكن الناصر يُوسُف توصّل إلى منعه من ذلك، فلم يأذن الخليفة له، فقد كان في شغل شاغل عن داود وعن كلّ الشّام ومُشكلاتها، فالتتار باتوا قريبين من بغداد، وهولاًكو يُنذر الخليفة، ويتوعّده طالباً منه أن يمثل أمامه. وعاد داود "على البريّة، وقصد تيه بني إسرائيل⁽⁵⁾، وأقام مع عرب تلك البلاد"⁽⁶⁾. وفي تيه بني إسرائيل، الذي اعتقد داود أنه أصبح فيه بعيداً عن المتربّصين به، ظهر له عدوٌ جديد؛ هو الملك المغيث بن العادل الثاني، الذي استولى على الكرك بعد وفاة الصّالح أيّوب. وكان المغيث مُحَقَّقاً بقلقه من الناصر داود، فهو صاحب البلاد الشرعي، وقد سلّمها أولاده غدرًا، وكذلك حصل المغيث عليها غدرًا، فخشي المغيث، واحتاط، وأخذ يُلاطف داود، ويخادعه، حتّى تمكّن من القبض عليه،

وأخذ يُعدُّ له مظمورة لا يخرج منها حياً⁽¹⁾، وفي هذه الأثناء؛ كان التتار قد أحرقوا ببغداد، فأرسل الخليفة المستعصم رسوله "يطلب الناصر داود ليقدّمه على بعض العساكر الملتقى التتار"⁽²⁾، "فوصل الرسول إلى الكرك والحفرة تُعدُّ لداود، فأنقذه من مية شنيعة، وأخذه معه إلى دمشق"⁽³⁾، ويبدو أن الخليفة المستعصم عندما ضاقت به الحال تذكر داود، وتذكر إلحاحه وإصراره، وتذكر تحريره للقدس من الفرنج، بعد أن تسلّموه من الكامل، وربّما كان داود قد عرض ذلك على المستعصم في وقت سابق، على الأحوال كلّها كان طلبه لداود القشة التي يتمسك بها الغريق.

مع أن الظُّروف لم تسمح لنا لمعرفة مدى ما كان يُمكن أن يقدمه داود في مهمّته للقتال ضدّ التتار، فقد سبق تصاعد الأحداث الجميع، وسقطت بغداد بيد التتار، وداود ما يزال يستعدُّ بدمشق، ولما سمع رسول الخليفة بهذا الخبر، ترك داود، وترك جميع العساكر وكلّ ما جاء من أجله، ومضى لحال سبيله⁽⁴⁾، وشاع بين الناس أن الخليفة هرب من بغداد، ولحق ببعض العرب، فقال داود: "لا بُدَّ لي من اللحاق به"⁽⁵⁾، ولكن القدر كان يتربّص بداود بطريقة أخرى، فقد انتشر بين الناس طاعون مات منه الناصر داود عام 656 هـ 1258 م، وهو في قرية البويضاء قرب دمشق، فأظهر الناصر يُوسُفُ الحزنَ عليه، ودفنه في تربة والده بسفح جبل قاسيون⁽⁶⁾.

وفي النتيجة نجد بأنّ الشّام ومصر، وهما بلاد السلطنة الأيوبية، كانتا تُعدّان جزءاً من دولة الخلافة العباسية، التي كانت - نظرياً - مازال تشمل العالم الإسلامي، ولكن تبعية مصر والشّام للخلافة كانت اسمية، فقد قام الحُكّام الأيوبيون وغيرهم بممارسة الحُكْم في البلاد، وفصلوها فعلياً عن دولة الخلافة، ومع ذلك؛ بقي للخلافة هيبتها المُستمدّة - غالباً - من سلطتها الدينية، ومن الحاجة إليها لمنح الشرعية للمتصارعين وللمُغتصبين. وعلى هذا الأساس؛ فقد قامت علاقات متأرجحة بين ملوك الأيوبيّة من جهة وبين الخلفاء العباسيين من جهة أخرى، ولكنها اتّسمت - غالباً - بصيغ

1- الفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 215 - 216، وشفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 356.

2- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 356.

3- المختصر، أبو الفداء، 3 / 195، والفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 217، وشفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 356.

4- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 356، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 195.

5- الفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 123.

6- المختصر، أبو الفداء، 3 / 195.

1- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 355، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 186.

2- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 355.

3- شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 356، والفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 243، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 191.

4- الفوائد الجلية، الملك الأجد حسن، 244، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 191، وشفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 356.

5- تيه بني إسرائيل: صحراء سيناء.

6- المختصر، أبو الفداء، 3 / 193.

الفصل الثاني

العلاقات الدولية للفرقة الإسماعيلية

المبحث الأول

الدعوة الإسماعيلية⁽¹⁾

مُنْذُ أن استتبَّ الأمرُ للفاطميين بمصر أخذوا بنشر دُعائهم في أرجاء الدولة العربية الإسلامية، يروجون للمذهب الشيعي الإسماعيلي بشكل نشط ومنظم، وانتشر الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي خاصة، لكسب الأنصار، ولإضعاف نفوذ الخلافة العباسية. ومع امتلاك الفاطميين لقوى عسكرية كبرى، وامتلاكهم آلاف الدعاة وجهوهم في حرب دينية ثوابت حروبهم السياسية والعسكرية ضدَّ العباسيين، فالنتيجة لم تكن في صالحهم، فقد استعاد المذهب السني فاعليته، وأخذ الفاطميون بالتراجع سياسياً ومذهبياً.

وللحقيقة؛ لم يكن النصر عباسياً، فمع الحرب المعنوية التي شنها العباسيون ضدَّ الخلفاء الفاطميين باتهامهم بادعاء النسب العلوي، وبأنهم لا يمثلون للعرب بأي صلة⁽²⁾، ومع كلِّ الاحتياطات الأمنية التي اتخذوها ضدَّ دُعائهم، فقد كان النصر سلجوقياً؛ إذ واكب المد الفاطمي، تدفق قبائل الترك نحو أراضي الدولة العباسية، وبما أنهم أسلموا حديثاً، وأتبعوا مذهب السنة، فكان لهم اندفاع المؤمنين الجدد، وبموالاتهم وإخلاصهم للخلافة وسلفيتهم وتعصُّبهم لعقيدتهم، قاموا

1 - سُمِّيَتْ إسماعيلية لأن أتباعها يعتقدون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وسُمِّيَتْ أيضاً - باطنية لاعتقادهم ببقاء الإمامة في آل علي، وأن الأرض لا تخلو من إمام مطلقاً؛ إنما ظاهر بذاته، أو مستور. وسُمُّوا ملاحده لعدم إقامتهم شرائع الإسلام كما تطبَّقها الفرق الأخرى، وسُمُّوا أيضاً - الحشيشية للاعتقاد الشائع بأنهم كانوا يستخدمون الحشيش المخدر للسيطرة على رجالهم. وعشبة الحشيش هي القنب الهندي واسمها بالهندية (بيهانغ)، وبالعربية (بنج)، وكان يُستخدم - أحياناً - كمخدِّر طبي. راجع: سيرة منكبري، النسوي، 51، وصبح الأعشى، القلقشندي، 245/13، وأخبار مصر، ابن ميسر، 68/2، والروضتين، أبو شامة، 52 + 198، ودولة النزارية أجداد آغا خان، طه أحمد شرف، 216، والشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي، حافظ أحمد حمدي، 86 - 88، وتاريخ سورية ولبنان، فيليب حُتي، ترجمة: جورج حداد، 245/2. وهناك مناقشة وافية تتبنَّى معنىً جديداً للحشيشية في كتاب: الحشيشية، برنارد، لويس، ترجمة: سهيل زكار، 169 - 171.

2 - راجع: المواعظ والاعتبار، القرظي، 18/2.

دبلوماسية؛ حيثُ اقتنع الخلفاء بإقرار حُكَّام الشام ومصر بسيادتهم الاسمية، والدعاء لهم في الخطبة، ونُقش أسماؤهم على السكة، فالخلفاء العباسيون في هذه المرحلة لم يكونوا قادرين على تحقيق ما هو أفضل من ذلك. أمَّا الأيوبيون في الشام ومصر؛ فكانوا يرون في تبعيتهم الاسمية للخلافة مكسباً كاملاً بدون أي تبعات مادية، فهم يحصلون على دعم معنوي كبير لسلطتهم، ويستمدون شرعية لها من شرعية الخلافة. فكانت العلاقات بينهم تُترجم بتبادل الرسائل، وإيفاد الرُّسل، حاملين أوامر التفويض بالولايات لحكَّامها الجدد، وحلَّ التشرُّف لتكريمهم. إضافة إلى أن رُسل الخليفة كانت - في كثير من الأحيان - تحضر للتوسط بين الملوك والحكَّام المتنازعين، وحلَّ خلافاتهم. لذلك لم تنقطع الرُّسل بين الخلافة والخواضر الأيوبية خلال هذا العصر. ومع كلِّ ذلك لم يتجاوز الدعم العباسي لملوك بني أيوب الشكل المعنوي، حتَّى في أشدِّ الأزمات التي اعترضتهم، وقبل الأيوبيون ذلك، ولكن؛ لا ندري هل كان القبول على أساس أن الخلافة لا تملك أكثر من ذلك؟! أم أنَّهم هم لا يريدون من الخلافة أكثر من ذلك؟! لا

الخلفاء العباسيون المعاصرون للحكم الأيوبي

1 - المُستضيء بالله الحسن أبو محمد بن المُستجد (33).

566 - 575 هـ 1171 - 1179 م.

2 - النَّاصر لدين الله أحمد أبو العباس بن المُستضيء (34).

575 - 622 هـ 1179 - 1225 م.

3 - الظَّاهر بأمر الله محمد أبو نصر بن النَّاصر (35).

622 - 623 هـ 1225 - 1226 م.

4 - المُستنصر بالله المنصور أبو جعفر بن الظَّاهر (36).

362 - 640 هـ 1226 - 1242 م.

5 - المُستعصم بالله عبد الله أبو أحمد بن المُستنصر (37).

640 - 656 هـ 1242 - 1258 م.

بالتصدي للفاطميين عسكرياً وعقائدياً. كذلك جاءت صدمة الغزو الفرنجي لبلاد الشام، التي ساعدت على انبعاث يقظة سنيّة عامّة، قادها الفقهاء والمتصوّفة، الذين عدّوا أن الفاطميين سلّموا البلاد للفرنج، وفاوضوهم على اقتسامها، أو على الأقلّ، تقاعسوا في الدفاع عنها، وهم حماها⁽¹⁾.

لكن؛ من ناحية أخرى أدّى دُخول السلاجقة الأتراك إلى سُورية لقيام العديد من المشاكل على كافّة الصُّعَد، إضافة إلى عجزهم عن التصدي بشكل حاسم للفرنج، ومع وجود أساس عقائدي شيعي خاصّة في شمال سُورية، كُلّ ذلك مهّد لنجاح فرع جديد للدعوة الفاطمية كان ينتقد الدعوة القديمة، لذلك عُرف بالدعوة الجديدة، أو الفرع النزاري، الذي تنفّ حوله عدد لا يُستهان به من الأتباع في الشام، فقد انقسم الدعاة الفاطميون، مُنذُ أيام الخليفة الفاطمي المُستنصر؛ حيثُ تشيّع بعضهم لابنه المُستعلي، وظلّت مصر مركزهم الرئيس، وانتشر منها هذا الفرع إلى اليمن، وحتىّ الهند؛ حيثُ عُرفت هناك منهم جماعة البهرة. وتشيّع بعض منهم للابن الآخر نزار، واتَّخذوا بلاد المشرق ميداناً لهم، وأسَّسوا الدعوة الجديدة، ومنها امتدّت الدعوة نحو شمال العراق، ومنها إلى سُورية⁽²⁾. وقد أسَّس الدعوة الجديدة الداعي الحسن ابن الصَّبَّاح⁽³⁾، الذي جعل في عام 483 هـ 1090 م مقرّه في قلعة أُلوت، الواقعة على إحدى قمم جبل ألبرز في بلاد فارس. استغلّ الحسن الصَّبَّاح الخلافات السياسيّة ليدعم مذهبه الجديد في قلب الشَّرق الإسلامي، ولأنّه لم يستطع أن يتغلَّب على الأطراف الأخرى، فقد غدا طرفاً جديداً من أطراف الصراع، كان له الدور الأكبر في إضعاف قوّة الشَّرق الإسلامي، والتمهيد للسيطرة الخواريّزمية، ثمّ المغولية عليه.

1 - الحشاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب، 66 - 67.
2 - حول عقائد الإسماعيليّة والفرق بين الدعوة القديمة والدعوة الجديدة راجع كتاب: الملل والنحل، الشهرستاني.
3 - حسن الصَّبَّاح: حسن بن علي بن مُحمَّد الصَّبَّاح الحميري، الرازي المعروف بالكيال، "كان رجلاً شهيراً عالمياً بالهندسة، والحساب، والنجوم، والسَّحر، وغير ذلك". وُلد في مدينة قُم، بعد أن قدم والده إليها من الكوفة، ثمّ تحوّل إلى الرّي، وهناك تتلمذ حسن على الدّاعية الإسماعيلي أحمد بن عبد الملك بن عطّاش الطيّب، ثمّ طاف البلاد حتى وصل مصر، واجتمع بالخليفة الفاطمي المُستنصر بالله، ثمّ عاد إلى فارس، وأسَّس دعوته الخاصّة. (جامع التواريخ - هولاكو، رشيد الدّين، 258، وراجع ترجمة الحسن بن الصَّبَّاح في: المُقفّي، المقريزي، أوردها د. سهيل زُكّار ضمن التراجم المُلحقة في كتاب الحشيشية لبرنارد لويس، 371).

ورُبّما كان من أهمّ أسباب نجاح الدعوة الإسماعيليّة في الشَّرق:

- إلغاء السُلطان السلجوقي ألب أرسلان نظام البريد الذي كان سائداً في أرجاء الدولة حتّى ذلك الوقت، ممّا حجّب أخبار النشاط الإسماعيلي عن الولاة والقادة السلاجقة⁽¹⁾.

- نشاط مدارس الدعوة الإسماعيليّة في مصر، وتوجيه دُعائها - بشكل خاصّ - نحو البلاد الشَّرقية.

- تصدّي العبّاسيين والسلاجقة للدعاة، والمبالغة في عُقوبتهم، ممّا حول الدعوة نحو السَّريّة المطلقة، وأصبح لها نظام تعاون وتكاتف فريد، ورُبّما كان هذا أحد أسباب توجُّههم نحو الاغتيال.
- الصراع القائم بين الخلافة العبّاسيّة والسُلطنة السلجوقية بعد وفاة السُلطان ملكشاه، فلم يعودوا يهتمّون للتصدي لهم.

- التنظيم الفعّال الذي قام به الحسن الصَّبَّاح لأتباعه، فقد قسّمهم إلى سبع درجات أساسية، وحدّد لكلّ قسم منهم مهمّات يقوم بها⁽²⁾، وهم بالتسلسل:

1 - داعي الدعاة. 2 - كبار الدعاة. 3 - الدعاة. 4 - الرِّفاق. 5 - اللّاصقون. 6 - الفدائيون. 7 - المستجيبون.

بعد وفاة حسن الصَّبَّاح عام 518 هـ 1124 م، خلفه داعٍ إسماعيلي آخر من زملائه هو الكيا بُزُرْكَ أُميد⁽³⁾، وبعد وفاته عام 532 هـ 1138 م، خلفه ابنه مُحمَّد بن بُزُرْكَ حتّى وفاته عام 557 هـ 1162 م، فتولّى بعده ابنه حسن بن مُحمَّد الذي أحدث تغييراً نوعياً في العقيدة الإسماعيليّة؛ إذ أعلن القيامة، وأعفى أتباعه من كُلّ الشعائر الإسلاميّة عام 559 هـ 1164⁽⁴⁾، ولمّا مات حسن عام 561 هـ 1166 م، استمرّ من بعده ابنه مُحمَّد الثاني على تعاليم القيامة، إلى أن مات عام 607 هـ 1210 م،

1 - سيرة منكبري، النسوي، 7.
2 - A History of Persia, Sykes, p. 55.
3 - الكيا: كلمة فارسية تعني: ملك (التيارات الأدبية، مُحمَّد التونجي، 165)، وبُزُرْكَ: فارسية تعني: كبير، وأُميد تعني: أمل (المعجم الذهبي، مُحمَّد التونجي، مادّة: بُزُرْكَ، ومادّة: أُميد).
4 - جامع التواريخ - هولاكو، رشيد الدّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 25، والحشاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب، 135.

فخلفه ابنه جلال الدين حسن⁽¹⁾، الذي ألغى القيامة فور تولّيه، وأعلن إعادة الالتزام بالشرعية الإسلامية، وفروضاها، على المذهب الشافعي⁽²⁾، وكان ذلك أيام سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب في مصر والشام.

حول التقلب الديني للإسماعيلية:

كانت الفرقة الإسماعيلية التي أسسها الحسن الصباح، والتي عُرفت بالدعوة الجديدة، تُعدّ من فرق الشيعة المغالية، لكنها لم تخرج عن حظيرة الإسلام كُلياً، ولكن مرسوم الإمام حسن بن محمد بن الكيا بُزرك أميد، الذي أعلن فيه القيامة؛ أي انتهاء الشريعة، وسقوط الفرائض، والتحليل من المحرمات⁽³⁾، وقيل إنّ حسن اعتمد القيامة، بعد أن نهل من معظم العلوم، واعتنق مبدأ تناسخ الأرواح، الذي يُنسب إلى أفلاطون، وعلم أتباعه ذلك، فلا يبالون في الموت⁽⁴⁾. وبذلك أعلنت كُلاً الفرق الإسلامية خروج الإسماعيلية من حظيرة الدين، وجعلت هذه الفرقة خارج نطاق الإسلام، وبعد أن كانوا يُسمّون بالباطنية أطلق عليهم اسم الملاحدة⁽⁵⁾، والزنادقة⁽⁶⁾.

واستمرّ عمل الفرقة الإسماعيلية الجديدة في فارس وشورية بالقيام، وإيقاف الشريعة طيلة مُدّة حُكم محمد الثاني، الذي عيّن ابنه جلال الدين حسن قائماً مقامه بالنص⁽⁷⁾، ولكن حسن "مُنذُ صغره كان يعترض على موضوع القيامة"⁽⁸⁾، وبعد أن شبّ خالف عقيدة أبيه، وأظهر الميل للإسلام، "واستقذر قواعد الإلحاد، والإباحة"⁽⁹⁾، وطلب من كافة أتباعه - بكن فيهم إسماعيلية الشام، الالتزام بالشرعية الإسلامية، وإظهار شعائر الإسلام، وإقامة الحدّ على من ارتكب محرماً،

فأجابوه. "وأرسل جلال الدين إلى الخليفة الناصر يبذل الطاعة، ويستدعي قضاة وفقهاء، فأجيب"⁽¹⁾.

ومع أن هناك من يشكّ بما فعله جلال الدين حسن، ويعدّ إعلانه العودة إلى الإسلام ما هو إلّا تظاهر⁽²⁾، يُوجد من يعتقد بصدق ما قام به جلال الدين، وكلا الطرفين يُقدّرون أسباباً لتحول جلال الدين عن تعاليم القيامة، ومنها:

1 - كان جلال الدين "حسن الاعتقاد، . . وكان يكاتب الخليفة والسلاطين سرّاً، ويُظهر لهم أنّه يدين بالإسلام"، وأنّه اعترض مُنذُ صغره على موضوع القيامة، وكان جاداً بالسعي نحو تصالح إسلامي⁽³⁾.

2 - عودة جلال الدين لحظيرة السُنّة كانت بتأثير أمّه، التي كان يرتبط بها بشدّة، "وهي سُنّة مؤمنة"، وقد قصدت الحجاز للحجّ عام 609 هـ - 1212 م⁽⁴⁾، وأثناء مُرورها ببغداد نالت من التكريم والاهتمام في العاصمة العباسية من الخاصّة ومن الخليفة بالذات الشيء الكثير⁽⁵⁾. وكذلك "أكرمت بطريق مكّة"⁽⁶⁾.

3 - رُبّما كان دافع حسن "عن طريق العناد لأبيه"⁽⁷⁾، فعلاقتها الشخصية لم تكن على ما يُرام، وعداؤه لأبيه وتأمره المبكّر ضده لم يكونا ليخفيا على أحد، إضافة إلى مُراسلته الخليفة العباسي للاتفاق معه أثناء حُكم أبيه.

4 - أمر إلغاء القيامة برُمته كان مُجرّد تظاهر بالعودة إلى حظيرة الإسلام لضرورات مرحلية، وقد حلّ حسن لنفسه ذلك وفقاً لمبدأ التقية⁽⁸⁾، فالإسماعيلية فرقة باطنية كما هو معروف. وتعلّل

1 - جلال الدين حسن: توفّي عام 618 هـ ترجمته في: شذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 84.

2 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 211.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 298، وفاتح العالم، الجويني، تعريب: محمد التونجي، 2 / 335، وهناك وصف مُفصّل لما تمّ في الاحتفال الذي أقامه حسن بن محمد في قلعة الموت لإعلان القيامة، في شهر رمضان عام 559 هـ (الحشيشية، برنارد لويس، 230).

4 - روايات ابن العربي، ابن العربي، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 5 / 991.

5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13 / 245.

6 - كنز الدرر، ابن أبيك، 7 / 176.

7 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: محمد التونجي، 2 / 335.

8 - الحشاشون، برنارد لويس، ترجمة: محمد العزب، 146.

9 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: محمد التونجي، 2 / 335.

1 - دَئِل الرّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 20 / 157.

2 - دَئِل الرّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 20 / 157، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 14 / 77، - ويضيف المُوفّق: "حتّى شعروا بالخوف لظهور خوارزم شاه بن تكش، فنظّاهوا بالإسلام، وأقاموا شعائره". وخوف جلال الدين حسن من الخوارزمي يُبرّر ما قيل بأنّه "أول من راسل جنكيز خان قبل أن يخرج من بلاده إلى بلاد الإسلام". (الحشاشون، برنارد لويس، ترجمة: محمد العزب، 150).

3 - الحشاشون، برنارد لويس، ترجمة: محمد العزب، 146.

4 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: محمد التونجي، 2 / 336، والحشاشون، برنارد لويس، تعريب: محمد العزب، 147.

5 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 211.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 298، ومُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 211.

7 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: محمد التونجي، 2 / 335.

8 - دَئِل الرّوضَتَيْن، أبو شامة، 81.

عودته لحظيرة الإسلام بأنها نتيجة لخوفه من جلال الدين خوارزم شاه "فما وجده مُخلصاً إلا التظاهر بالإسلام وإقامة شعائره"، فقد كان الخليفة الناصر يرأس جلال الدين باستمرار لإعادة شعائر الإسلام، فيرفض ذلك⁽¹⁾.

ولكن؛ يبدو أن نية جلال الدين بإعادة التصالح مع محيطه الإسلامي هي الاحتمال الأرجح في سبب إلغائه القيامة، لوجود دوافع كثيرة اضطرتته إلى ذلك، منها:

- 1- العزلة التي كان يعيشها الإسماعيلية في حُصُونهم.
- 2- انحسار الدعوة الإسماعيلية، وعدم انتشارها في مناطق جديدة.
- 3- الضعف الذي بدأ يدب في كيان الفرقة الجديدة.
- 4- تراجع فاعلية سلاحها القديم "الاغتيال".

وربما كان كل ما سبق من الأسباب مُجمعة هي ما دفع جلال الدين حسن للإقدام على خطوته الانقلابية في العقيدة، والتي كان لها تأثيرات سياسية وعسكرية كبيرة في علاقات الإسماعيلية في فارس والشام، فقد ألزم جلال الدين حسن أتباعه، ليس في فارس وحدها، بل وفي الشام، بالعودة إلى شعائر الإسلام وفق مذهب الشافعي السائد في ذلك الوقت⁽²⁾. وعلى اعتبار أن من شعائر الإسلام طاعة الخليفة، فقد أرسل جلال الدين رُسُلَهُ إلى بغداد يُعلمون الخليفة العباسي الناصر بالتحول عن القيامة، وتعلن له الطاعة⁽³⁾، فعُرف جلال الدين حسن مُنذُ ذلك الوقت بلقب: (نو مُسلمان)؛ أي المُسلم الجديد⁽⁴⁾.

ونتيجة للوضع الجديد للإسماعيلية، بعد عودتها إمارة ضمن البوتقة الإسلامية تتبع للخليفة، وتعترف به، ولو اسمياً، فقد حرَّك جلال الدين قُوَّاته العسكرية حول مناطقه دعماً للخليفة حيناً، ولمصالحة الخاصة أحياناً، وبعد أن كانت الإسماعيلية لا تستطيع إلا تحريك فدائيتها للاغتيالات، أصبحت تُحرِّك الجيوش لتحقيق مصالحها. ولما تُوفي جلال الدين حسن بن مُحمَّد عام 618 هـ 1221م⁽¹⁾ خلفه ابنه علاء الدين مُحمَّد بن حسن⁽²⁾، وكان مسaireاً لنهج أبيه في العقيدة.

تأثير العودة إلى الشريعة على إسماعيلية الشام وعلاقتهم بالأيوبيّة:

عندما ألغى جلال الدين حسنُ القيامة عام 607 هـ 1210م⁽³⁾، أرسل إلى أتباعه في قلاع الشام يأمرهم باتباع شعائر الإسلام⁽⁴⁾، فالتزموا بذلك، وهنا تتضح دقة الالتزام من قبل الإسماعيلية الشامية بأوامر المركز في قلعة الموت بفارس، فالولاة يُعيّنون من المركز، والسياسية العليا يرسمها المركز، والمساعدات المالية من المركز عندما تضيق الأحوال، إضافة إلى وجود الإمام هناك، وهو صاحب الأمر والنهي وفق المذهب الإسماعيلي. وكل هذا أمر طبيعي، لكن ما يتعارض معه بشكل مُخبر هو علاقة إسماعيلية الشام بالفرنج، التي تستحق وقفة طويلة معها، ومع ما تبعها من مُفاوضات قام بها إسماعيلية الشام مع ملك القُدس الفرنجي لاعتناق المسيحية.

هذا الحَدَث، بإلغاء القيامة، وعودة الإسماعيلية إلى حظيرة الإسلام، الذي عمّ الآفاق لأهميته وغرابته، وصل - بالتأكيد - إلى مسامع الفرنجة في الساحل السوري، فهناك روايات فرنجية عن تنصّر

1- المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 114.

2- وقع ابن الأثير في الرَّهْم عندما قال في أحداث سنة 610 هـ: "توفي جلال الدين الحسن، وهو من أولاد الحسن بن الصباح"، فجلال الدين ليس من أولاد الحسن بن الصباح، بل من أولاد زميله الداعي بُزْرك أميد.

3- تمّ ذلك عام 607 هـ وفقاً لما ذكره الجويني (تاريخ فاتح العالم، تعريب: مُحمَّد التونجي، 2 / 335)، وعام 608 هـ وفقاً لما ذكره ابن الأثير (الكامل 12 / 268)، ولما ذكره ابن واصل (مُفرِّج الكُرُوب 3 / 211)، وعام 609 هـ وفقاً لما ذكره أبو شامة (ذيل الروضتين 81)، وعام 610 هـ وفقاً لما ذكره ابن آبيك (كنز الدرر - 7 / 176). ولقد اعتمدت تاريخ 607 هـ لأنني لاحظت أن هناك خطأ جغرافياً يصل بالترتيب التصاعدي بين مركز الحَدَث وبين المؤرخين المذكورين، فالعام الأول ما ذكره الجويني في كتاب تاريخ فاتح العالم وهو قُرب مركز الحَدَث في بلاد فارس، والثاني ابن الأثير وهو في شمال العراق، ورُبما أخذ عنه ابن واصل، والثالث أبو شامة في دمشق، والرابع ابن آبيك في مصر، علماً أننا نجد كل تواريجهم صحيحة بحال إذا اعتبرنا أن كلاً منهم دون الخبر سنة وُضِوه إلى بلده.

4- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 211، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 298، وذيل الروضتين، أبو شامة، 81.

1- تاريخ البغداد ورحلته، المُوقَّع عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زُكَّار، 14 / 77، -وهنا يوجد وهم وقع به المُوقَّع، فقد قال: "رأس الخليفة الناصر جلال الدين حسن صاحب الموت يُراوده أن يعتمد شعار الإسلام من صلاة وصيام وغير ذلك ممّا رفضوه في زمان سنان، فيرفض". والصحيح أن الرفض لم يكن في زمن سنان، الذي كان في قلاع الشام، بل زمن مُحمَّد والد حسن، وهو إمام الدعوة في الموت.

2- المنصوري، ابن نظيف، 62، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 201، وذيل الروضتين، أبو شامة، 81، ولبنان من السُّقُوط بيد الصليبيين حتّى التحرير، عُمر تدمري، 221.

3- المُوقَّع عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زُكَّار، 14 / 77، -وذيل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زُكَّار، 20 / 157.

4- جامع التواريخ - هولاكو، رشيد الدين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 259.

الإسماعيلية لا تستقيم إلا إذا ربطناها بسماهم لهذا الخبر، ولكنها تبقى موجودة بقوة لتعمد الرواة الفرنج المعاصرين الذين ردّوها. يروي روجر ويندوفر محاولة الإسماعيلية اعتناق المسيحية في عام 567 هـ 1172 م، فيقول: "حصل رئيسهم في هذه الأيام على كتاب الأنجيل وكتابات الرُّسل؛ حيث درس المعجزات المسيحية، وأفكارها، وهذا ما جعله يتخلّى عن شرعة مُحمّد، ويتحوّل إلى الشرعة الفضيلة للمسيح، وهَدَمَ المساجد، وصلى وفق عادات المسيحيين، وأرسل واحداً من رجاله إلى بلدوين⁽¹⁾ للحصول على تكريس المعمودية، لكنّ فرسان الدّاوية قتلوه، ممّا ألحق ضرراً بالكنيسة"⁽²⁾.

ويروي هذه القصة وليم رئيس أساقفة صور، محاولاً التأكيد على أن طلب التحوّل قد تمّ بناء على القناعة التامة لشيخ الجبل بتعاليم المسيحية، يقول: "حدث خلال عهدنا أن اختاروا حاكماً لهم كان رجلاً فصيحاً جداً، وحادّ الذكاء، ولا معاً، وكان بحوزة هذا الرجل كُتُب الأنجيل والشرعة الرسولية، وقد انكبّ باستمرار على دراسة هذه الكُتُب، وحاول - لمُدّة من الزمن، وبجهد كبير - اتّباع الوصايا الرائعة للمسيح والعقيدة الرسولية"⁽³⁾. ويتابع وليم بأنّ شيخ الجبل قد علّم شعبه قناعته الجديدة، وأرسل رسولا يُدعى عبد الله إلى الملك عموري⁽⁴⁾ الأوّل ملك القُدس يعرض عليه تلقّي الإسماعيلية التعميد مقابل إعفائهم من الجزية التي يفرضها عليهم فرسان الدّاوية. ثمّ يتحدّث وليم عن حفاوة الملك الفرنجي بالرسول، والاتّفاق التام بينهما، ولكن؛ أثناء عودة الرسول إلى بلاده لإتمام الصفقة هاجمه فرسان الدّاوية، وقتلوه، فأثار التبا حفيظة الملك، واعتبر قتل الرسول إساءة شخصية له، ونشب خلاف حادّ بينه وبين الدّاوية، لكنّ وفاة الملك عموري أنهت القضية، مثلما أنهى اغتيال الرسول قضية تحوّل الإسماعيلية إلى المسيحية⁽⁵⁾.

- 1 - يذكر وليم الصوري بأنّ ملك القُدس الذي اتّصل به الإسماعيلية من أجل التنصّر هو: عموري الأوّل (من تاريخ أعمال أنجزت فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صور، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 7 / 367).
- 2 - وُزود التاريخ، روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 44 / 170، و William of Tyre, vol. II, pp. 392 4 - & Burchard, A Description of the Holy Land p, 105
- 3 - من تاريخ أعمال أنجزت فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صور، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 7 / 367.
- 4 - يذكر روجر ويندوفر بأنّ ملك القُدس الذي اتّصل به الإسماعيلية من أجل التنصّر هو: بلدوين (وُزود التاريخ، روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 44 / 170).
- 5 - من تاريخ أعمال أنجزت فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صور، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 7 / 369).

ويقول وولتر ماب: "طلب حاكم الحشيشية شيخ الجبل من بطريك القُدس تزويده بكُتُب الأنجيل، فأرسلها له مع مترجم، فاستقبلهم بكُلّ تشوُّق ورغبة، ثمّ أرسل يطلب كهنة لتسلّم التعميد الكامل مع قرابين الإيوان، فاعتقل الدّاوية رسوله، وقتلوه، خشية أن تحوّل الكُفّار قد تقود إلى وحدة السلام، ولمّا اكتشف شيخ الجبل الخيانة بقي مُلازماً لإيوانه القديم"⁽¹⁾. كذلك يُردّد حكاية طلب اعتناق الإسماعيلية للدين المسيحي الراهب بورتشارد في روايته لأحداث سُورية⁽²⁾. وقد فسّر قتل رسول الإسماعيلية من قبل الدّاوية بأنّه حرص منهم على الإتاوة التي يحصلون عليها من الإسماعيلية، والتي ستضيع عليهم إذا تنصّروا، فقاموا بهذا العمل⁽³⁾.

ومع أن أكثر من مصدر فرنجي يؤكّد هذه الرواية فإننا لا نستطيع أن نقبلها كمُسلمة، فما الذي يدفع شيخ الجبل لاعتناق المسيحية، مع غياب أيّ مكسب ظاهر له، أو لأتباعه من هذا التحوّل، إضافة إلى ما نعرفه من التمسك الشديد للإسماعيلية بمعتقداتهم التي كانوا يُضحّون بأنفسهم بسهولة في سبيلها؟! ذاك يدفعنا للشكّ بهذه الرواية. ثمّ إن هذه الحادثة تبدو غير منطقية، خاصّة في الزمن الذي يُقال إنّها تمّت فيه، فلا سابقة، ولا لاحقة، لها من قبل أيّ طائفة دينيّة، إلّا إذا اعتبرناها - وفقاً لمبدأ التقية - مُناورة سياسيّة من قبل الإسماعيلية، فقد سيطر - وقتها - نُور الدين على الشّام، وقامت حملة مُنظمة من الدولة، يرافقها تأييد شعبي كبير، بالضغط على أتباع الإسماعيلية في الشّام، وكانت قواعدهم منتشرة فيها، فطردوا من المُدن، والتجّؤوا إلى الجبال السّاحليّة، محصورين بين مطرقة نُور الدين وسندان الفرنجة، فربّما كان التنصّر حلاً فكّر به زعيم الإسماعيلية للخروج من وضع صعب، ولكنه شيء لم يتمّ على كُلّ حال. وربّما وُضعت هذه الرواية ونُشرت كَرَدّ فرنجي على صدى ما وصل إليهم عن اعتناق الإسماعيلية للمذهب السُنّي، وولائهم للخلافة العبّاسيّة.

- 1 - ما جاء عند وولتر ماب - Diomedes, P.10، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 36 / 389.
- 2 - بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 39 / 242.
- 3 - فيليب حنّي، تاريخ سُورية ولبنان، ترجمة: جُورج حدّاد، 2 / 246.

المبحث الثاني

الفرقة الإسماعيلية في الشام

كان أشهر مُقدِّمي الإسماعيلية في الشام راشد الدين سنان⁽¹⁾، الذي اتخذ من قلعة مصياف مقراً له، وهو أول من أطلق عليه لقب شيخ الجبل، الذي عُرف به كُُلُّ الأئمة بعده. ويصف ابن العبري سنان بقوله: "كان سنان مهيباً لدى الملوك العرب والفرنجة، فقد صنع سكاكين صك، على كُلِّ واحدة منها اسم أحد الملوك، وعلى من تُهدى إليه أن يُنجز ما يطلبه منه سنان، ولو كلفه حياته، وقد نهل هذا الزعيم الإسماعيلي من جميع العلوم، واعتنق مبدأ تناسخ الأرواح، الذي يُنسب إلى أفلاطون، وعلم أتباعه هذا المبدأ، ولهذا؛ كانوا لا يُبالون بالموت، واختفى سنان عدة مرّات، ثم عاد، وكان يُشاع أنه مات، واعتقد أتباعه أنه حيّ سيعود"⁽²⁾.

إن أهمية نصّ ابن العبري لا تنبع من دقّة المعلومات التي يوردها النصّ، بل من كونه استطاع أن يعكس صورة سنان كما تخيلها الناس في ذلك الزمان، فمما لا شكّ فيه أن سنان كان من الأشخاص الأكثر هيبة في زمانه، ولكننا لا نعتقد أنه كان يُسخر الملوك لفعل ما يشاء، ونرجّح اطلاعه على العلوم، ومن المؤكّد اعتناقه لمبدأ تناسخ الأرواح، وهنا تكمن أهمية هذا النصّ، فهو يُعلّل اندفاع الإسماعيلية للموت بسبب إيمانهم بالتناسخ، وليس كما أشيع بأنّ أعمالهم كانت تتمّ تحت تأثير الحشيش المخدّر.

ويبدو أن خلافة إمام إسماعيلية الشام لم تكن بأيدي الأتباع فيها، فقد كانت تتمّ بتكليف من المركز في قلعة الموت، فبعد وفاة سنان في مصياف تولى ابنه الناصر الفارسي⁽³⁾. وفي عام 624 هـ - 1227 م، كان يتولّى إمامة الإسماعيلية في مصياف شخص اسمه مجد الدين، فأرسل إلى علاء الدين

1 - تاريخ البغدادى ورحلته، الموقّ عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 14 / 97 - راشد الدين سنان: "كان أعرج لحجر وقع عليه من الزلزلة الكائنة في دولة نور الدين، فاجتمع إليه محبّوه كي يقتلوه، حتّى يرجع إليهم صحيحاً، فلاطفهم، حتّى تركوه. ولما جاء الأمر من الموت من الكيا محمد ليحلّهم من الإسلام، ويسقط عنهم التكليف، نزل سنان إلى مصياف في شهر رمضان، فأكل، فأكلوا معه". (تاريخ البغدادى ورحلته، الموقّ عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 14 / 80).

2 - روايات ابن العبري، ابن العبري، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 5 / 441.

3 - تاريخ البغدادى ورحلته، الموقّ عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 14 / 79، وروايات ابن العبري، ابن العبري، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 5 / 991، ويبدو أن سنان كان فارسياً كما يظهر من اسم ابنه: الناصر الفارسي.

كَيْقَبَاز، سلطان سلاجقة الرّوم في الأناضول، يطلب منه المبلغ المقرّر عليه، وهو ألفا دينار، فأبى ذلك؛ لأنّها كانت تُدفع إلى صاحب الموت، وأرسل يسأله في ذلك، "فقال له: تحملها إليهم بالشام، فقد عيّنّاها لهم ذخيرة، فحملوها"⁽¹⁾، وهذا يدلّ على دعم الموت لقلاع الشام مادّياً وقت الحاجة، وأنّ ملوك المسلمين بمُعظمهم كانوا يُدارون الإسماعيلية بشكل من الأشكال، مثل: التحالف معهم، أو تقديم المساعدة، أو الهدايا، أو مال مُحدّد يُدفع سنوياً. إنّ دفع هذه الجزية يدلّ على مدى خوف الحكّام والملوك من خناجر الإسماعيلية، وعلى أن الأخبار حول اغتيالهم قد حوّلتهم إلى ما يُشبه الأسطورة، وإلى أن ملوك السلاجقة الرّوم لم يكونوا قادرين على ضبط أمنهم بين حاشيتهم ومُرافقهم والمتصلين بهم.

قلاع الشام الإسماعيلية في العصر الأيوبي:

يذكر أن القلاع الإسماعيلية في جبال الشام السّاحلية كانت في عام 654 هـ - 1256 م ثمانية قلاع⁽²⁾، منها:

1. مصياف: أو مصيات، وهي حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس، وكانت قلعتهما مُحصّنة تحصيناً قوياً يُثير العجب⁽³⁾، وقعت تحت سيطرة المغول عام 655 هـ - 1260 م، ثمّ عادت إلى سيطرة الإسماعيلية، حتّى احتلّها الظاهر بيبرس، مُنهيّاً الوجود الإسماعيلي فيها عام 660 هـ - 1270 م⁽⁴⁾. وهي - اليوم - مركز منطقة تتبع محافظة حماة، تقع على السّفوح الشرقيّة لجبال اللاذقية، جنوب غرب حماة 45 كم⁽⁵⁾.

2. القدموس: قلعة حصينة، استولى عليها الإسماعيلية عام 506 هـ - 1113 م، واستخدموها كقاعدة ضدّ جيرانهم المسلمين والفرنج على السواء⁽⁶⁾، وهي - الآن - بلدة ومركز ناحية في مرتفعات جبال اللاذقية، تتبع منطقة بانياس، محافظة طرطوس⁽⁷⁾.

1 - المنصوري، ابن نظيف، 145 - 146.

2 - ذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 3 / 1.

47 - الجغرافيون والرحالة، محمد عوض، 35.

4 - حول قلعة مصياف راجع: ذيل تاريخ دمشق، ابن القلاسي والاعتبار، أسامة بن مُنقذ والمُعجم الجغرافي للقطر السوري: مادّة: مصياف.

5 - المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادّة: مصياف.

6 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 174.

7 - المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادّة: قدموس.

3. العليقة: قلعة على السفوح الغربية لجبال اللاذقية، منطقة بانياس، جنوب شرق جبلة، جاءت تسميتها من موقعها المعلق على مرتفع جبلي، تطلّ العليقة على البحر من بُعد 15 كم، وهي تتحكّم بالمرّ الجبلي، الذي يصل حماة ببانياس عبر القدموس. بناها العرب نحو 431 هـ - 1040 م، احتلّها راشد الدين سنان، وضمّها إلى قلاع الإسماعيلية⁽¹⁾.

4. الخوابي: قلعة على السفوح الغربية لجبال اللاذقية، تبعد 25 كم شمال شرق طرطوس، سُمّيت الخوابي لوجود خوابي فخارية كثيرة فيها، شيدها شيخ الجبل راشد الدين سنان مطلع القرن 12 م⁽²⁾.

5. المنيقة: وهي قلعة تقوم بالقرب من القدموس⁽³⁾.

6. الكهف: قلعة على السفوح الغربية لجبال اللاذقية، منطقة الشيخ بدر، محافظة طرطوس، كانت تكتسب أهميتها من إشرافها على أراضي كونتية طرابلس الفرنجية، سُمّيت بالكهف لأن مدخلها محفور بالصخر⁽⁴⁾.

الإسماعيلية والاختلالات في الشام:

شهدت سياسة الإسماعيلية في الشام - باعتبارها على الاغتيال كوسيلة لحسم المواقف السياسية - تبدلات كبيرة، ففي بدايات انتشار الإسماعيلية في الشام، لجؤوا إلى اغتيال كُلِّ مَنْ أمكنهم من القادة، الذين يُمكن أن يقفوا بوجههم، فكان أول ضحاياهم تاج الدولة حسين صاحب حمص، الذي كان أتابك الملك السلجوقي رضوان وزوج أمّه، فقد قتلوه في حمص عام 496 هـ - 1103 م، ويُقال إن ذلك تمّ بتحريض من الملك رضوان لتساهله مع الإسماعيلية، وتمركزهم في حلب في ذلك الوقت⁽⁵⁾.

- 1 - ضبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 174، والمُعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادّة: العليقة.
- 2 - المُعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادّة: الخوابي.
- 3 - تحفة النظّار، ابن بطوطة، 76، ونخبة الدهر، شيخ الربوة، 208، والمُعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادّة: المنيقة.
- 4 - الإدريسي، نزهة المشتاق، 19، والمُعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادّة: الكهف.
- 5 - تاريخ حلب، العظمي، 361، وذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 230.

ثمّ اغتالوا مودود، وهو من أوائل قادة الجهاد ضدّ الفرنج، بجامع دمشق⁽¹⁾. وبعد فشل محاولتهم اغتيال صلاح الدين، ومُحاصرته لهم، والاتفاق الذي تمّ بينهما، تبدّلت سياستهم كلياً، فقد توجّهت خناجرهم الفتّاكة - بعدها - نحو قادة الفرنج، ولكنّ؛ انتقلت اغتيلاتهم من حيّز الواقع لتدخل عالم الأسطورة، وحكايات السمر المسلية في الليالي، حتّى إن كلّ حادثة قتل لا يُعرف مُرتكبها أصبحت تُلصق بالإسماعيلية، ومع الأسف؛ فقد انتقلت هذه العدوى إلى المؤرّخين.

فقد أورد المكي جرجس في كتابه أخبار الأيوبيين ما يلي: "استشار الجواد⁽²⁾ المُجاهد⁽³⁾ في أمر عماد الدين ابن الشيخ⁽⁴⁾، فأشار عليه بقتله، فوافقهم الأمير سيف الدين علي بن قلعج على ذلك، فسيروا إلى نواب الإسماعيلية، وقرروا معهم قتله، وأعطاهم الملك الجواد قرية الرصيف من الشعرا⁽⁵⁾، وحمل إليهم مالاً تقرّر الأمر عليه، فرتّبوا نفرين من الفداوية، فقتلوه على باب جامع دمشق، وأشاعوا أنّهم قتلوه غلطاً، وما كان مقصودهم إلّا الملك الجواد، فإنّه يُشبهه"⁽⁶⁾. وكرّر الرواية المقرّبة المتوفّي عام 845 هـ فقال: "ورأوا أن أمرهم لا يتمّ إلّا بقتل عماد الدين، فبعثوا إلى نواب الإسماعيلية في قتله، ودفعوا إليهم مالاً وقربة - والصحيح قرية، فبعثوا فداويين قدما إلى دمشق، فلمّا خرج عماد الدين إلى الجامع، وثبا عليه، وقتلاه، وأشاعا أنّهما قد غلطا في قتله، وأن المقصود إنّما كان قتل الملك الجواد، فإنّه كان كثير الشبه به"⁽⁷⁾.

1 - الباهر، ابن الأثير، 18.

2 - هو: الملك الجواد إسماعيل صاحب دمشق.

3 - هو: الملك المُجاهد شيركوه صاحب حمص.

4 - هو: وزير العادل الثاني سلطان مصر.

5 - الشعرا: لم يذكرها ياقوت في مُعجمه، وفي المُعجم الجغرافي ثلاث إشارات إلى هذا الموقع، الأولى: جبل الشعرة، في السلسلة التدمرية الشمالية، ولا اعتقد أنّه المقصود لبُعده عن مواقع الإسماعيلية، ولعدم وجود قُرى ومزارع فيه. الثانية: قرية الشعرة، في السفوح الغربية لجبال اللاذقية، قريبة من القدموس، أحد أهمّ مواقع الإسماعيلية في الشام، واحتمال ضعيف أن تكون هي القرية المقصودة لكونها في بلاد الإسماعيلية، والاسم للقرية، وليس لما يجاورها. والثالثة: شعرة العجايز، وهي قرية قريبة من بلدة معرة النعمان، وتقع على جانب مسيل الشعرة، والاحتمال الأرجح أن تكون هي المقصودة، لوقوعها على رصيف مسيل الشعرة. (المُعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، 4 / 28 - 29).

6 - أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 24.

7 - دُرر العقود الفريدة، المقرّبي، 2 / 315.

المبحث الثالث

التحالف بين السلطنة الأيوبية والفرقة الإسماعيلية

يبدو أن بدايات ضعف شهرة وقوة الإسماعيليين كمُغتالين رهيين قد بدأت مُنذ أيام صلاح الدين، فبعد المدد الإسماعيلي الكبير في الشام، ونحُكُمهم في أكبر مُدُنهم مثل: حلب، ودمشق، وسيطرهم على عدد من أمْنع قلاعها، أخذت دعوتهم بالضعف، خاصّة بعد طردهم من المُدُن بثورات شعبية، ومذابح، أودت بالكثير منهم في حلب ودمشق وعدّة بلدان شامية، فلم تتكوّن الدولة الأيوبية وتستقرّ إلّا والإسماعيلية مُنكمشون في قلاعهم الحصينة، مُستفيدون من كونهم في جبال وعرة، تقع على حُدود السيطرة الفرنجية.

لذلك كان لهم أثر ضعيف على سياسة الدُول الأيوبية، التي اختاروا محالفتها مُنذ البداية، ومن ناحية أخرى؛ نجد أن الأيوبيين يدعمونهم سياسياً، ويُدافعون عنهم عسكرياً، ورُبّما كانوا يعدّونهم سداً بوجه الفرنج، أو قوّة، وإن فقدت الكثير من فاعليّتها فلا يزال اسمها كبيراً، يستفيدون منها في صراعاتهم الداخليّة، أو الخارجيّة. وهذا لا يعني أنّهم كانوا على هامش السياسة الأيوبية تماماً، فالأحداث الداخليّة للفرقة الإسماعيلية قد أثّرت وتأثّرت بشكل واضح بعلاقتهم بالقوى المحيطة بهم، ومنها الأيوبيون.

اقتصرت العلاقات الأيوبية الإسماعيلية على علاقة الأيوبيين بإسماعيلية الشام فقط، ولم يكن لهم أيّ صلة بإسماعيلية فارس. وكان زعيم الإسماعيلية في الشام - أو كما يُسمّونه صاحب الدعوة، عندما أسّس صلاح الدين الدولة الأيوبية - هو راشد الدين "سنان بن سلمان" (1)، وكان أصله من حصن الإسماعيلية الرئيسي في الموت (2) بفارس، فرأى منه صاحب الأمر هناك نجابة وشهامة وعقلاً وتديراً، فسبّره إلى حُصُون الشام، فوصلها، وجَدّ في إقامة الدعوة واستجلاب القُلُوب أيام السُلطان

ومع أنّنا نعرف أن قتل ابن الشّيخ لم يكن بحاجة إلى فدائيّين الإسماعيلية، فهو رغم صفته الرّسميّة كنائب للسُلطان العادل الثّاني فلا يملك قوّة فعليّة البتّة، بينما المُجاهد أولاً، والجواد ثانياً، هما أصحاب القوّة بدمشق، وتدير حادثة قتله سهل جدّاً بالنسبة إليهما، ولا يحتاج لفدائيّين، ولا إلى دفع نفقات مالية كبيرة، وقرية ذات خراج. ويُخبرنا ابن تغري بردي الرواية الأقرب للحقيقة، وهي أن المُجاهد "استدعى بعض نصارى قارا" (1)، وأمره بقتله، ونفّذ الأمر على أنّه حادث، فقد سُجن القاتل لعدّة أيام، ثمّ أُطلق سراحه (2)، ورواية ابن العبري والمقريزي تدلّنا على أن العديد من حوادث الاغتيال قد ألصقت بالإسماعيلية، وهي إن صحّت فهي دليل على أن الاغتيالات السّياسيّة الهادفة للمصلحة الإسماعيلية العليا قد تحوّلت إلى قتل مأجور لتحقيق ربح، أو مصلحة. ومع كلّ ذلك فيبدو أن تهمة الاغتيال، وخاصّة اغتيال المُلُوك، كانت تروق لمُقدّمي إسماعيلية الشام؛ إذ يروي الراهب البريطاني إيف لي بريتون، رسول الملك لويس إلى الإسماعيلية: "أن شيخ الجبل كُلّما ركب، وسار، مشى أمامه مُناد يحمل بلطة، لها حدّ طويل مُغلّف بالفضّة، وقد ثبت عليها عدداً من الخناجر، وهو ينادي طوال سيره: ابتعدوا عن طريق الذي يحمل في يديه موت المُلُوك" (3).

- 1- قارا: "قرية كبيرة، وسكانها جميعاً من النصاري". (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادّة: قارا)، كانت في العصر الأيوبي تتبع مملكة حمص. (مملكة حمص الأيوبية، مُنذر الحايك، 296)، وحول قارا راجع: ضُبج الأعشى، القلقشندي، 14 / 381، ورحلة ابن جُبَيْر، 233، والمعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مادّة: قارا.
- 2- النُجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 314، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 631 - 640 / 20، والتاريخ الصالح، ابن واصل، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زُكّار، 21 / 609.
- 3- سيرة القديس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زُكّار، 36 / 171.

1- راشد الدين سنان: ابن سلمان بن مُحمّد البصري، كان يُعلّم الصبيان في البصرة، كان أعرجاً، وليّ قلاع الدعوة في الشام، وأقام في قلعة الكهف، ترجمته في: شذرات الذهب، ابن العماد، - تاريخ البغدادي ورحلته، - ذيل مرآة الزمان، اليونيني، - بغية الطلب، ابن العديم. وقد أورد المستشرق برنارد لويس تفاصيل مُهمّة عن حياة راشد الدين في كتابه: الحشيشية، ترجمة: د. شهيل زُكّار، 296.

2- حول الموت راجع: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 8 / 140.

نُور الدِّين، واستولى على عدَّة قلاع في الشَّام، وعزم نُور الدِّين على قصده، لكنَّه تُوِّفِّي قبل ذلك، وأقام سنان حتَّى تُوِّفِّي عام 588 هـ " 1192 م⁽¹⁾.

بدأت العلاقات بين إسماعيليَّة الشَّام وبين الأيوبيِّين في وقت مُبكر من عهد السُّلطان صلاح الدِّين، من خلال مُحاولَتَيْن لاغتياله: الأولى عندما كان صلاح الدِّين في عام 570 هـ 1175 م، يُحاصر حلب؛ حيثُ اتَّصل الحلبيون بسنان إمام الإسماعيليَّة، ووعدوه بضياع ومال، فأرسل الفداوية لقتل صلاح الدِّين⁽²⁾. والمُحاولة الثَّانية أثناء مُحاصرته لإعزاز عام 571 هـ 1176 م⁽³⁾، لكنَّه نجا منهم في المُحاولَتَيْن.

لذلك جعلهم صلاح الدِّين همَّة الأولى، وتوجَّه نحو أكبر قلاعهم ومقرِّ قيادتهم في مصياف، وألقى الحصار عليها عام 572 هـ 1177 م، وكُلَّه عزم على استئصال شأفتهم من الشَّام⁽⁴⁾، فشعر الإسماعيليَّة أنَّهم أمام خطر حقيقي لم يُمكن مُواجهته بالاغتيال، ولن يُمكن لقلاعهم الصُّمود أمام قُوَّاته، ممَّا اضطرَّهم - على ما يبدو - لأنَّ يعقدوا اتِّفاقاً سرِّياً، لم يُعلن أبداً، ورُبَّما كان عدم إعلانه رغبة أيُّوبية لأسباب دينيَّة مذهبية، فهم - نظرياً - مُحمَّاة السُّنَّة، وهكذا اتَّفاق يُوقعهم بتناقض ومشاكل يُمكن تجاوزها بكتفائه، لذلك نجد أن كُُلَّ ما ذكره المؤرِّخون حول سبب عودة صلاح عن قتالهم، وفكَّ حصاره لمصياف: أن شهاب الدِّين الحارمي خال السُّلطان صلاح الدِّين⁽⁵⁾، وكان والي حماة - التي تُعدُّ مصياف من أراضيها - قد توسَّط - بناءً على طلب راشد الدِّين سنان زعيم إسماعيليَّة الشَّام - مع صلاح الدِّين، فكَّ حصاره عنهم، وصالحهم عام 572 هـ 1177 م⁽⁶⁾، وسار عنهم.

1 - النُّجوم الزَّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 117.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 419.

3 - سنا البرق، البنداري، تحقيق ششن، 210.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 57، وزُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 521 - 530.

5 - شهاب الدِّين محمود بن تكش الحارمي، (زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 523).

6 - سنا البرق، البنداري، تحقيق ششن، 219، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 59، وزُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 528.

وصلاح الدِّين والحشاشون، برنارد لويس، مقالة في مجلَّة الدِّراسات الشرقيَّة والأفريقية.

Lewis, B, Saladin and Assassins

ولكن؛ يبدو أن الموضوع لم يكن وساطة عادية لفكَّ الحصار فقط، بل كان اتِّفاقاً عامّاً وشاملاً، سيلتزم به الطرفان ومَن يخلفها زمنّاً طويلاً، ومع أن مُجريات هذا الاتِّفاق لم تُعلن، لكنَّها تتَّضح من الوقائع اللاحقة، ومنها:

1 - في مُعاهدة صلح الرملة مع الفرنج اشترط صلاح الدِّين دُخُول بلاد الإسماعيليَّة فيه⁽¹⁾، وهذا دليل على اتِّفائه الكامل معهم، وكان مناطقهم جزءاً من بلاده.

2 - لم نعد نسمع عن اغتيال، أو حتَّى مُحاولَة اغتيال أيِّ أمير أو قائد أيُّوبي من قَبْل الإسماعيليَّة، مُنذُ عام 572 هـ 1177 م، وحتَّى نهاية الدولة الأيوبيَّة. وبالمُقابل؛ لم تُجرَّد أيُّ حملة أيُّوبية ضدَّ معاقل الإسماعيليَّة، بل على العكس، دعمت الممالك الأيوبيَّة هذه المواقع كُلِّها تعرَّضت إلى هُجُوم الفرنجة.

3 - توجَّهت خناجر الإسماعيليَّة نحو الفرنج، واغتالوا عدداً من مُلوكتهم وأمرائهم.

وبعد الاتِّفاق بين صلاح الدِّين والإسماعيليَّة أخذت تسوء علاقاتهم مع أتابكة حلب، فقد تنكَّر لهم الصَّالح إسماعيل بعد تودُّد، واستولى على قرية حجيرا التابعة لهم، ولمَّا طالبه سنان برُدِّها رفض إسماعيل، فأرسل سنان رجاله، وأحرقوا أسواق حلب⁽²⁾.

وسريعاً ما عبَّر الإسماعيليَّة عن وفائهم للتحالف مع الأسرة الأيوبيَّة، فبعد وفاة صلاح الدِّين أعلن بكتمر صاحب خِلاط ابتهاجه، وظهر بشعار السُّلطنة، وتلقَّب بالملك النَّاصر "لقب صلاح الدِّين"، وأقام تحالفاً مُعادياً للأيوبيَّة مع صاحب آمد، ومع أتابكة الموصل وسنجار، ولمَّا تحرَّكت جيُوش التحالف تدخَّلت الخناجر الإسماعيليَّة لئنهي حياة بكتمر، وتُنهي معه أخطر تحالف واجه الأسرة الأيوبيَّة في الجزيرة بعد موت صلاح الدِّين⁽³⁾.

وقد ظهرت جلياً على ساحة الشَّام، ومن خلال الأحداث، آثار الاتِّفاق الضمني بين الممالك الأيوبيَّة وبين الإسماعيليَّة في الشَّام، فالعلاقات بينهما كانت أكثر من طبيعية، وممَّا يُشير إلى التحالف بينهما هو سماح مملكة حلب للإسماعيليَّة بإقامة دار للدعوة في بعض البُلدان التابعة لها؛ مثل

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2 / 403.

2 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 1 / 138، والحشيشية، برنارد لويس، 134.

3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زَكَّار، 13 / 436.

سرمين⁽¹⁾، ولكن وجودها في بلدة صغيرة، بعد أن كانت دُور الدعوة في عواصم الشَّام كحلب ودمشق، يدلُّ على انكماش الدعوة الإسماعيلية، وتراجعها كثيراً؛ بحيثُ أنَّها لم تعد تُشكِّل خطراً يُذكر على أمراء الأيوبيين، فتساهلوا معها، ورُبَّما عدُّوها حليفاً، إن لم ينفع، لا يضر. وفي عام 631 هـ 1234م، أرسل الملك المُجاهدُ أسدُ الدِّين شيركوه صاحب حصص هدية للإسماعيلية⁽²⁾، وهي - بالتأكيد - دليل على علاقات طيبة شاملة.

وفي المحنة التي تعرَّض لها الصَّالح أيُّوب 636 هـ 1239م عندما سُجن في الكرك، فارقه بدر الدِّين قاضي سنجار، فأراد الصَّالح إسماعيل المُستولي على دمشق أن يستخدم بدر الدِّين في رسالة إلى كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم، فخان بدر الدِّين الرسالة، وتحدَّث باسم أيُّوب، ولذلك خاف من العودة لدمشق "والتجأ إلى الإسماعيلية، وكان مُقدِّم الإسماعيلية رجلاً من العجم ورد من الموت يُقال له تاج الدِّين، فأجاره، ولما طلبه إسماعيل منه مغلظه، وطلب من القاضي اللُّجوء إلى حماة"⁽³⁾. فهل تدلُّ هذه الحادثة على الضعف الذي وصلت إليه قوَّة الإسماعيلية في الشَّام؛ حيثُ لم يجرؤ مُقدِّمهم على مصارحة الصَّالح إسماعيل بأنَّه يحمي القاضي؟! أم أنَّها تدلُّ على أن مُقدِّم الإسماعيلية كان يُمارس سياسة أسلافه بالحرص على صداقة كُلِّ الأطراف الأيوبية؟! رُبَّما الدالتان معاً!

1- زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 700.
2- المنصوري، ابن نظيف، 259.
3- مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 251.

المبحث الرابع

العلاقات الإسماعيلية الخوارزمية وانعكاسها على الممالك الأيوبية

1. في فارس:

مع أن بحثنا يتعلَّق - بشكل رئيس - بالعلاقات في الشَّام، لكنَّ معرفة أساس العلاقة بين الخوارزمية وإسماعيلية الشَّام يُوجب علينا أن نبدأ بها من فارس: كان لا بُدَّ من أن ينفجر الصراع بين الدولة الخوارزمية وبين الإسماعيلية المتمركزين في بعض المناطق والقلاع الجبلية في فارس، فقد سعت الدولة الخوارزمية للسيطرة المطلقة في بلاد الشَّرق الإسلامي، وأزالت كُلَّ القوى المحليَّة، ويبدو أن الإسماعيلية كانوا ينحنون أمام العواصف التي تُهدِّد باقتلاعهم، فقد أعلنوا خُضُوعهم للسُّلطان علاء الدِّين خوارزم شاه، وأقاموا له الخطبة في بلادهم أيام الإمام جلال الدِّين حسن⁽¹⁾.

وعندما بدأت تظهر قوَّة التتار في بلاد الشَّرق الإسلامي نظر إليهم جلال الدِّين كقوَّة يُمكن أن يُستفاد منها، فيقال إنَّه أوَّل مَنْ رَاسَلَ جنكيز خان قبل أن يخرج من بلاده إلى ديار الإسلام⁽²⁾، ومما يُؤكِّد ذلك أن علاء الدِّين مُحَمَّد بن جلال الدِّين حسن قد أرسل بدر الدِّين أحمد رسولاً من طرفه إلى التتار، وعلم بذلك جلال الدِّين خوارزم شاه، فأرسل لعلاء الدِّين يسأله في ذلك، فكان جوابه: "إن السُّلطان يعلم أن لنا بلاداً متاخمة للتتار، ولا بُدَّ لنا من مُداراتهم دَفْعاً للأذى عنها، فإذا ثبت للسُّلطان أن رسالته - أي بدر الدِّين أحمد - كانت في فساد يعود للدولة - الخوارزمية - فنحنُ المذنبون في ذلك"⁽³⁾.

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 340.
2 - الحشاشون، لويس برنارد، ترجمة: مُحَمَّد العزب، 150.
3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 340.

ومع هذا الاعتذار المُقنَّع ظاهراً، فيبدو أن الإسماعيلية كانوا يرغبون في تحطيم قُوَّة الخَوَارِزمية الذين أطبقوا عليهم، فلم يمض بعض الوقت إلَّا وقد ضُبط رسول لهم يحمل كتاباً إلى التَّنَّار فيه عدَّة بُنود، منها: حثُّهم على سُرعة الوُضُول⁽¹⁾.

وكان حال الإسماعيلية مع الدولة الخَوَارِزمية في تَقَلُّب دائم، يميلون مع الدولة أو ضدها، حسب قُوَّتها، وضعفها، فخلال غزو المغول للبلاد استغلَّت الإسماعيلية حالة الفوضى "فعاثت في البلاد فساداً"⁽²⁾.

وبعد عودة جلال الدِّين منكبرتي من الهند، وإعادة سيطرته على البلاد، هاجمهم، وضرب بعض حُصُونهم عام 624 هـ 1227 م، ونهب أعيالهم، فانكمشوا في حُصُونهم ثُمَّ أخذوا يتقرَّبون إليه⁽³⁾، لكنَّهم عملوا في الخفاء على تحريض أعدائه عليه، وفي مُقدِّمتهم المغول⁽⁴⁾. ففرض عليهم إتاوة سنوية⁽⁵⁾ مقدارها ثلاثون ألف دينار⁽⁶⁾.

مع ذلك؛ فقد ظلَّت الإسماعيلية في قلاعها شوكية في ظهر الدولة الخَوَارِزمية، تعمل ضدها في العلن حيناً، وفي الخفاء أحياناً. ويُحمِّل بعض المؤرِّخين الإسماعيلية مسؤولية مُراسلة المغول، وحثُّهم على قصد بلاد الإسلام، وتهوين أمر الخَوَارِزمية عليهم، وأنَّهم سبب نكبة البلاد بالمغول⁽⁷⁾. ولكنَّ السؤال الذي يطرح نفسه: هل كان المغول - فعلاً - بحاجة إلى مَنْ يستقدمهم إلى بلاد الإسلام، أو يُوجِّههم نحوها؟ يبدو أن ذلك لم يكن ضرورياً، فجنكيز خان كان له مشروعه الخاص الطموح بهذا الاتجاه.

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 343.

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 336.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 217، والدولة الخَوَارِزمية والمغول، حافظ حمدي، 818 - 191.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 496، ومُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 315.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 495.

6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 336.

7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 - 495، ومُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 317.

2. في الشَّام:

بعد الهزيمة النهائية لجلال الدِّين خوارزم شاه أمام المغول، ومقتله، تفرَّق جنده في البلاد، لكنَّ مجموعة كبيرة منهم دخلت بلاد الشَّام، وشاركت في أحداثها، وعُرِفَتْ باسم الخَوَارِزمية، ويبدو أنَّهم لم ينسوا عداؤهم القديم للإسماعيلية، فأثناء هُجُوم الخَوَارِزمية على ضواحي حلب "تحرَّكوا إلى سرمين، ونهبوها، ودخلوا دار الدعوة، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس، ظنَّاً منهم أنَّهم لا يجسرون على قربانها خوفاً من الإسماعيلية، فدخلوها ظهراً، ونهبوا جميع ما كان فيها"⁽¹⁾.

وبالمقابل؛ فإنَّ الإسماعيلية قتلوا بدمشق رسول جلال الدِّين خوارزم شاه عام 628 هـ 1231 م⁽²⁾. فطريقتهم بالاغتيال لم يتخلَّوا عنها، ولكنَّها لم تعد مُوجَّهة ضدَّ الدولة الأيوبيَّة، ولم تعد قوَّة؛ بحيثُ تطال أيَّاً كان، فالسفير الخوارزمي شخص عادي غير مُحترس، ولكنَّها إشارة قويَّة إلى أنَّهم مازالوا موجودين في الشَّام.

1 - رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 700.

2 - المنصوري، ابن نظيف، 230.

العلاقات السياسية والعسكرية بين الإسماعيلية والفرنج

في أيام حُكْم السُلطان العادل انتهت الهدنة العامة التي عقدها صلاح الدِّين مع الفرنج، واشترط أن تشمل بلاد الإسماعيلية، فكان لابد من الاحتكاك المباشر بين الإسماعيلية والفرنج، وذلك بسبب المجاورة، فقد كانت قلاع الإسماعيلية في الشَّام تقوم على الحدود الفاصلة بين مناطق سيطرة الفرنج في الساحل وبين بلاد المسلمين في الداخل، فهم اختاروا لها نقاطاً استراتيجية على قمم جبال الساحل السوري، بعد طردهم من المُنْدَن الدَّاخِلِيَّة⁽¹⁾. ويبدو أن التساهل الأيوبي معهم، والتناضي عن وُجودهم، بل والحماية والمساعدات العسكرية لهم رغم العداء الدِّيني، فقد نصَّب الأيوبيَّة أنفسهم، كما الأتابكة والسلاجقة من قبلهم، حُماة للسُّنَّة، وتشدَّدوا مع أعدائهم، وهذا الموقف من الإسماعيلية لا نستطيع تفسيره إلا بسبب موقع بلادهم وقلاعهم التي تقوم كحَدِّ فاصل بمواجهة قلاع الفرنجة، الذين أقاموا على حُدودهم طائفتي الاستبارية والدَّاوية، وهم الأشدُّ تعصُّباً، والأكثر شراسة، على حُدود بلاد الإسلام. فكان الإسماعيلية وُجدوا في المكان المناسب الذي يخدم مصالح الإمارات والممالك الأيوبيَّة في الشَّام. ولكن يبدو أن الكفَّة كانت تميل لصالح الاستبارية والدَّواية، فسلَّح الإسماعيلية، الذي أُرهب المُلوك والأمراء، لم يكن ذا جدوى مع هذه الطوائف، فإذا قُتل لهم سيِّد حلَّ محلُّه آخر، والإسماعيلية لا يُضَيِّعون رجالهم بلامُقابل⁽²⁾، لذلك رضخ الإسماعيلية، ودفعوا المال إلى كُلِّ من الاستبارية⁽³⁾ والدَّواية⁽⁴⁾.

لقد سعت الإسماعيلية في الشَّام لإقامة توازن في علاقاتها ما بين الممالك الأيوبيَّة من جهة وإمارات الفرنجة من جهة ثانية، فبعد أن أمَّنوا جانب الأيوبيِّين في اتِّفاق غير مُعلن، عملوا لعقد تحالفات مع الفرنجة⁽⁵⁾. ولكن؛ يبدو أن الفكرة السيِّئة للفرنجة عن الإسماعيلية هي التي حالت دُون

- 1- الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 114.
- 2- سيرة القُدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهَيْل زَكَار، 36 / 168.
- 3- المنصُوري، ابن نظيف، 151، وسيرة القُدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهَيْل زَكَار، 36 / 168.
- 4- وروود التواريخ، فيليكس فايري، الموسوعة الشاملة، د. سُهَيْل زَكَار، 43 - 1194، وسيرة القُدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهَيْل زَكَار، 36 / 168.
- 5- الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 114، والحركة الصَّليبيَّة، سعيد عاشور، 2 / 109.

إنْغام ذلك⁽¹⁾، لكنَّ الإسماعيلية ما كَفَّت من مُحاولاتها للتحالف مع الفرنج، وللسعي لإقامة علاقات طيِّبة معهم لموازنة علاقتهم بالأيوبيِّين، فدعوة مُقدَّم الإسماعيلية نصر الفارسي عام 589 هـ 1193 م، للكونت هنري دي شامبين أحد أمراء عكَّا الكبار لزيارته في مقرِّه، أثناء مُروره بطرطوس، والحفاوة في استقباله، واستعراض قلاعه، وطاعة رجاله العمياء أمامه، ثُمَّ الهدايا الثمينة التي قُدِّمَتْ له⁽²⁾، فما كَلَّ ذلك إلا بدايات مُبَكِّرة لتطلُّع إسماعيلي لعلاقات جيِّدة مع الفرنج، ومُحاولة لكسب وُدِّهم.

وتردَّدت اتِّهامات مُباشرة للإسماعيلية أنَّهم نفَّذوا عدَّة عمليات اغتيال لصالح الاستبارية جيرانهم في جبال الساحل السوري⁽³⁾، فعندما اغتالوا ريموند بن بوهيمند أمير أنطاكية في كنيسة طرطوس عام 610 هـ 1213 م⁽⁴⁾، قيل إنَّ ذلك تمَّ بتحريض من الاستبارية. وعندما اغتيل بطريرك القُدِّس عام 611 هـ 1214 م، وهو المعروف بعَدائه للاستبارية، فاتَّهموا الاستبارية بتحريض الإسماعيلية على قتله⁽⁵⁾.

كُلُّ ذلك يدلُّ على مدى الضغط الذي كان الاستبارية بمقدورهم مُمارسته على الإسماعيلية؛ حيثُ يدفعون لهم إتاوات سنوية، ويُنفَّذون عمليات اغتيال لحسابهم، إنَّما ليس ضدَّ الأيوبيِّين، فعلى ما يبدو كان التحالف معهم شيئاً مُقدَّساً بالنسبة للإسماعيلية، فبعد قتلهم لابن أمير أنطاكية هاجم والده بلادهم، ولم يتحرَّك الاستبارية لنجدتهم، بل رُبَّما اضطرُّوا للتظاهر بدعم بوهيمند ضدَّهم، بينما تحرَّك المُلوك الأيوبيُّون بكُلِّ حزم من حلب، ومن دمشق، لنجدتهم، وأنقذوهم منه. ومع كُلِّ ذلك؛

1 - راجع حول المعتقدات الأوربيَّة عن الإسماعيلية في العُصُور الوُسطى: فيليكس فايري، الموسوعة الشاملة، د. سُهَيْل زَكَار، 43 / 1194، وروود التواريخ، روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهَيْل زَكَار، 44 / 170، - وقد وضع القسُّ الألماني ريكاردوس رسالة للملك فرنسا فيليب السَّادس عندما فُكِّر بغزو الشَّرق الإسلامي عام 1332 م قال فيها: "أذكر الحشَّاشين الذين ينبغي أن يلعنهم الإنسان، ويتفاداهم، إنَّهم يبيعون أنفسهم، ويتعطشون للدماء البشرية، ويقتلون الأبرياء مُقابل أجر.. وهم يُغيِّرون مظهرهم كالشياطين.. وذلك أنَّهم يُحاكون الحركات والثياب واللُّغات" (الحشَّاشون، برنارد لويس، تعريب: مُحمَّد العزب، 11)، ولذلك أصبحت كلمة حشَّاشين Assassin اسماً شائعاً في مُعظم اللُّغات الأوربيَّة للاغتيال.

2 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهَيْل زَكَار، 8 / 474.

3 - سيطر الاستبارية على عدَّة قلاع مُواجهة لقلاع الإسماعيلية، منها قلعة الحصن (كراك شيفالبيه)، وقلعة صافيتا. (الرُّج الأبيض).

4 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 637، ومُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 219.

5 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيان، ترجمة: السَّيِّد الباز العربي، 3 / 247.

فقد كانت علاقة الإسماعيلية في الشام تختلف كلياً بالنسبة للملوك أوربا القادمين نحو الشرق، أو أمراء وملوك الفرنجة الآخرين.

فعندما قدم الإمبراطور فريدريك الثاني في حملته نحو فلسطين عام 624 هـ - 1227 م راسله مجد الدين مقدّم الإسماعيلية في الشام، ويبدو أنه ضمن رسالته تهديداً مباشراً لشخص الإمبراطور، لذلك سارع بردّ الجواب مع رسول خاص، "وعلى يده هدية بها يناهز ثمانين ألف دينار لحفظ نفسه منهم"، فحلف له مجد الدين، وأرسل قميصه أماناً للإمبراطور⁽¹⁾، إنّه مبلغ كبير يدفعه فريدريك، ولكنه يدلّ على خوف أكبر من فتاك الإسماعيلية. وهذا ما شجّع الإسماعيلية على إرسال رُسُلهم إلى الملك لويس ملك فرنسا عندما قدم إلى الشرق؛ حيث التقوا به في قبرص. يتحدث جوفانفيل مرافق الملك لويس عن هذا اللقاء الذي كان حاضراً فيه، فيقول: "وصلت رُسُل شيخ الجبل، وقد حمل أحدهم ثلاثة خناجر دخلت شفرة كلّ واحد منهما في مقبض الآخر، وقدموها للملك شارة للتحدّي إذا لم يتمّ الاتفاق، ولفّ الآخر حول ذراعه قطعة من قماش الكتّان، وقدمها للملك لتكون كفنّاً له إذا رفض مطالب شيخ الجبل. وقال الرسول للملك: مولاي يسألك إذا ما كنت تعرفه؟ فردّ لويس بأنّه سمع عنه، فقال الرسول: بما أنك سمعت عنه، فأنا مُندهش لأنك لم تُرسل مبلغاً من المال لتبقيه صديقاً لك مثلياً يفعل إمبراطور ألمانيا وملك هنغاريا، وإذا كان هذا لا يوافقك، فعليك ترتيب أمر إعفائه من دفع الجزية للاستبارة والدأوية.

وفي المُقابلة الثانية؛ حضر مقدّم الاستبارة والدأوية مع الملك، فتحدّنا مع الرُسُل بالعربية، وهذدوهم بالقتل، وطلبوا منهم المغادرة، والعودة خلال أسبوعين مع هدايا للملك لويس لإرضائه. وفعلاً؛ عادت الرُسُل في المهلة المحددة ومعهم قميص شيخ الجبل، وهو تعبير عن تقربة للملك، وخاتمه الخاص، وعليه اسمه، وهدايا وجواهر وتماثيل من الكريستال رُبِطت بها ورود من العنبر بخيوط من ذهب، فقبلها لويس، وأعادهم مع كثير من الهدايا، يرافقهم راهب بريطاني يُجيد العربية هو إيف لي بريتون، الذي عدّ أن أهمّ اكتشاف له في بلاد الإسماعيلية هو أن شيخ الجبل لا يتبع شريعة مُحمّد (ص)، بل هو من أتباع عليّ (رض)⁽²⁾.

1- المنصوري، ابن نظيف، 151.
2- حياة القديس لويس، جين جوفانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 36 / 716 - 168.

العلاقات العسكرية مع الفرنج:

لم تكن علاقات الإسماعيلية بالفرنج كلّها علاقات سياسية؛ إذ سيطر الاحتكاك العسكري على جانب مهمّ من هذه العلاقات، فقد أغار الفرنج عام 612 هـ - 1215 م، على بلاد الإسماعيلية، وأخذوا منها نحو ثلاثمائة أسير⁽¹⁾، "ورحلوا عنهم، بعد أن حاربوهم حرباً شديداً، وكان المتوسّط في الصّالح بينهم الملك الظاهر⁽²⁾. وهذه الغارة - كما هو معروف - كانت بسبب قتلهم لابن صاحب إنطاكية، ولم يُنقذ قلعة الخواي إلاّ تدخل الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، فقد "خرج بعسكره من حلب مُتوجّهاً إلى بلاد الإسماعيلية ليدفع عنهم الفرنج"، وسير الظاهر أمامه "نجدة إلى الخواي، فصعدت إليه، وأنفذ إلى الحصن إقامة كثيرة وميرة"، "فرحل الفرنج عن الخواي⁽³⁾.

واستمرت علاقات الإسماعيلية بالفرنجة حتّى قبيل القضاء على وجودهم كلياً في الشام، فيروي متى باريس المؤرّخ الإنكليزي: أنّه في عام 637 هـ - 1238 م، وصلت سفارة إسماعيلية إلى أوربة تطلب المساعدة ضدّ الخطر المغولي، في الحقيقة؛ كانت رسالة تحذير لأوربا أكثر منها طلب مساعدة، فالإسماعيلية بعد أن شاهدوا تهاوي الممالك الإسلامية، وكانوا يعرفون ضعف دولة الخلافة وضعف الأيوبيّة في الشام. لذلك لم يجدوا أمامهم إلاّ أوربا التي مثّلت آخر أمل لغريق يُدرك قدره جيّداً، لكنّه لا يملك إلاّ أن يصرخ طالباً النجدة؛ حيث لا أحد يسمع طلبه.

الاعتقالات الإسماعيلية لقادة الفرنج:

1 - اغتيال كونراد دي منتفراي مركيز صُور وملك القُدس الاسمي عام 588 هـ - 1192 م، وقد قيل إنّ اغتياله تمّ بطلب من ريتشارد الأول ملك إنكلترا مُقابل مال دفعه للإسماعيلية أثناء تواجده في فلسطين، لأن كونراد أوشك أن يتولّى مملكة القُدس على غير رغبة من ريتشارد، لكنّ عميد مقرّ الكهنة في لندن رالف دي سيتو يُورد نصّ رسالة من شيخ الجبل إلى ليوبولد دوق النمسا، ينفي فيها - بشكل جازم - تورّط الملك ريتشارد بالتحريض على قتل الماركيز، ويُقسم شيخ الجبل على

1 - ذيل الرّوضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20 / 172، عام 612 هـ.

2 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 232.

3 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 219.

ذلك، ويقول بأنَّ السبب الحقيقي لاغتياله هو قتل الماركيز، وسلبه لأموال بعض الإسماعيلية⁽¹⁾. لكنَّ شدة النفي، والتبرير غير المطلوب، تجعل الشكَّ يتسرَّب إلى صحَّة هذه الرسالة؛ خاصَّة أنَّها من مرويات كاهن إنكليزي قد يمهِّم الحفاظ على نقاء سمعة مليكه.

وقيل إنَّ اغتياله كان بطلب من صلاح الدِّين، حيثُ خيَّر راشد الدِّين سنان بين قتل ريتشارد ملك إنكلترا وبين قتل الماركيز مقابل عشرة آلاف دينار، فلم يُمكن قتل ريتشارد، أو "لم يره سنان مصلحة لهم، لئلا يخلو وجه صلاح الدِّين من الفرنج، ويتفرَّغ لهم"⁽²⁾. ويُقال أيضاً بأنَّ الإسماعيلية قتلوه لأنَّه صادر لهم سفينة محمَّلة بالبضائع، ولما طالبوه بها، رفض تسليمها⁽³⁾.

2 - في عام 613 هـ 1216م، قدمت حملة فرنجية كبيرة العدد من البحر، يقودها همفري أخو ملكة عكا، فخشي منه "الملك العادل، فجرَّد له إسماعيلي ضربة خمسة سكاكين فمات، وقتل الإسماعيلي"⁽⁴⁾. وطالما أن فائدة العادل كانت قويَّة في هذا الاغتيال، فيُمكن أن نعدَّ أنَّه تمَّ بتحريض أو بطلب رسمي منه، ممَّا يدلُّ على استمرار التحالف الوثيق، وإن كان غير مُعلن بين الأيوبيَّة وبين إسماعيليَّة الشَّام.

وكلُّ هذه الاغتيالات تدلُّ على:

- 1- استمرار التعاون بين الأيوبيَّة والإسماعيليَّة، حتَّى بعد وفاة صلاح الدِّين وراشد الدِّين.
- 2- وُجود تحوُّل جذري في موقف الإسماعيليَّة من الاغتيالات، فبعد أن كانت تخريبية مُوجَّهة ضدَّ قادة المُسلمين أخذت تتَّصف بالوطنية لتوجَّهها ضدَّ الفرنج.

دور إسماعيليَّة الشَّام في صراع الأيوبيِّين ضدَّ الفرنج:

كانت العلاقات السِّياسية والعسكريَّة بين إسماعيليَّة الشَّام وجيرانهم فرنج الساحل الشَّامي تحمل في طياتها الكثير من التناقض، أو بشكل أصحَّ؛ كانت العلاقات القائمة بينهما مبنية على المصالح المتبدِّلة دوماً، والمتناقضة أحياناً، ورُبَّما كان هذا النوع من العلاقات هو سبب تضارب معلومات

مؤرَّخي الفرنج عن الإسماعيليَّة، يقول عنهم بورتشارد راهب جبل صهيون: "هناك مُسلمون اسمهم الحشيشية، يسكنون الجبال وراء طرطوس، ويملكون عدداً من القلاع والمُدُن مع أراض خصبة، ويُقال إن لديهم أربعين ألف مُقاتل، ولديهم مُقدِّم واحد، لا يلي بحقِّ الوراثة، بل بسبب الفضائل الشخصية، واسمه شيخ الجبل، ويُقال إنَّهم من أصل فارسي، وهم مُرعبون لجميع مَنْ حولهم"⁽¹⁾. إن الوصف الجغرافي الذي يُحدِّده الكاتب الفرنسي صحيح تماماً، وكذلك المعلومات عن تويُّ مُقدِّمهم، فقد كان الإسماعيليَّة مُتأخِّين لمناطق السيطرة الفرنجيَّة، حتَّى إنَّه كان هناك نوع من رسم للحدود بين الطرفين، فقد وُجدت أحجار لتعليم الحدود الفاصلة، نُقش عليها من جهة الإسماعيليَّة خناجر، ومن جهة الفرنج صلبان⁽²⁾. ولكن تعداد مُقاتليهم المذكور فيه مُبالغة هائلة، كما أن الأصل الفارسي ينطبق - فقط - على المُقدِّمين، بينما الأتباع - وإن كانوا خليطاً عرقيّاً - فهُم محليُّون.

وفي عام 610 هـ 1213م، توتَّرت العلاقات بين الإسماعيليَّة والفرنج عندما اغتال بعض الإسماعيليَّة ريموند بن بوهمند الرَّابع حاكم أنطاكية في كنيسة طرطوس، رُبَّما كان ذلك باتِّفاق مع الأيوبيَّة، أو بطلب منهم، فقام بوهمند بقيادة حملة كبيرة، وحاصر قلعة الإسماعيليَّة "الخوابي" شرق طرطوس، وبدأ أنَّه كان مُصمِّماً على فتحها، والتنكيل بالإسماعيليَّة انتقاماً لابنه. فما كان من الإسماعيليَّة - بعدما لمسوا الخطر المُحقق - إلَّا أن طلبوا مُساعدة الظَّاهر غازي ابن صلاح الدِّين صاحب حلب، ومُساعدة الملك المُعظَّم نائب أبيه العادل في دمشق. هذا الطلب للدعم والمُساعدة لا يُمكن أن يكون بدون وُجود نوع من مُعاهدات الدفاع المُشترك، ويؤكِّد ذلك ردُّ الأيوبيَّة الحاسم والسريع، فقد خرج الظَّاهر بقوَّاته من حلب نحو حصن الخوابي لنجدته، وسار المُعظَّم من دمشق، فهاجم بلاد طرابلس، فاضطرَّ بوهمند لفكِّ الحصار عن قلعة الخوابي، ونجت منه⁽³⁾. وفي عام 612 هـ 1215م، عاود الفرنج الهُجُوم على قلعة الخوابي، ولكن وُجود نجدة حلبية فيها مكَّنت الحصن من المُقاومة، واضطرَّ الفرنج لقبول وساطة الظَّاهر غازي، ورحلوا عن الحصن⁽⁴⁾.

1 - بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار، 39 / 242.

2 - بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار، 39 / 242.

3 - زُبَّة الحلب، ابن العديم، 2 / 635، ومُفرَّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 224.

4 - مُفرَّج الكُروب، ابن واصل، 3 / 229 + 232.

1 - تواريخ أسرة بلانتغنت، رسائل رالف دي سيتو، الموسوعة الشاملة، شهيل زَكَار، 30 / 266.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 78 - 79.

3 - History of the Crusades, Setton, 11 - 80.

وذيل وليم الصُّوري، مخطوطة مكتبة ليون / 228، الموسوعة الشاملة، شهيل زَكَار، 8 / 421.

4 - كنز الدرر، ابن أبيك، 7 / 183.

وفي عام 625 هـ 1228 م، قدم الإمبراطور فريدريك الثاني بحملته إلى فلسطين، فراسل الإسماعيلية، مُطِيباً قلوبهم من ناحيته، فأطلعوا حلفائهم الأيوبيين في حلب على نص الرسالة مع رسولهم منصور بن يزيد، ونصحوهم بالتحالف مع فرنج الساحل ضد فريدريك، مما يدل على أن الإسماعيلية كانوا يعرفون أنه محروم كَنَسِيًّا، وأن فرنج الساحل ضد حملته، ثم طلبوا من الحلبيين إعلامهم إن كانوا عاجزين عن دفعه، ليُصلحوا أحوالهم معه⁽¹⁾. وفي الحقيقة؛ فهذا تصرف الحلفاء الحقيقيين، فالاتفاق أو التحالف وإن كان غير مكتوب بينهما فلا زال الطرفان متمسكين به، ويعملون بمقتضاه.

وبشكل عام؛ كانت قلاع الإسماعيلية في الشام تُعدُّ إمارة مُستقلة سياسياً، وإن كانت تتبع - بشكل أو بآخر - لمركز الدعوة في بلاد فارس. وقد حكمت العلاقة بينهم وبين الأيوبيين استراتيجية سياسية التزم بها الطرفان بدقة، فمُنذُ أيام صلاح الدين عقد الإسماعيليون تحالفاً سياسياً عسكرياً مع السلطنة الأيوبية، مما أتاح لهم تلقي الدعم العسكري الأيوبي عند تعرضهم لهجمات الفرنج، وكان هذا الدعم فعالاً دائماً. وقابله تنفيذ الإسماعيلية اغتيالات عدة لصالح السلطنة الأيوبية. وبشكل عام؛ شكَّلت قلاع الإسماعيلية خطاً مُواجهة أولاً أمام قلاع الاسبتارية والدَّاوية في جبال الساحل السوري الشمالي، وكانت العلاقات العسكرية فيما بينهم مُتوترة بشكل عام، لكن علاقاتهم السياسية بالفرنج كانت نشطة.

ومقابل هذا الاستقرار السياسي في العلاقات السياسية للإسماعيلية كان هناك تخبُّط عقائدي إسماعيلي، فقد ألغى أحد أئمتهم الالتزام بالشرع الإسلامي، فازداد توتر علاقاتهم بمن حولهم من المسلمين، ثم أعاد الالتزام إمام آخر، مما أدى إلى عودة العلاقات بخدودها المقبولة، وهناك روايات عن محاولة اعتناقهم الديانة المسيحية، مما ألقى ظلالاً قائمة على انتابهم للوسط الإسلامي بشكل عام، ولما ساءت العلاقات بين إسماعيلية فارس والدولة الخوارزمية اتهموا بدعوة التَّار للتخلُّص من الخطر الخوارزمي، ولما هاجمهم الخوارزمية استكانوا أمام العاصفة، لكن عاصفة التَّار اقتلعت جذورهم من فارس، فانهارت قواهم في الشام، وأنهى الظاهر بيبرس سلطان المالك وجودهم العسكري فيها.

1 - المنصوري، ابن نظيف، 160.

جدول حُكَّام الإسماعيلية

استمرَّ حُكْمهم في قلعة الموت 177 سنة، من سنة 477 هـ 1084 م، حتَّى سنة 654 هـ 1256 م، وتولَّى منهم ثمانية حُكَّام:

1 - حسن بن علي بن مُحمَّد الصباح الحميري: كان داعية إسماعيلياً، تولَّى حُكْم الموت عام 483 هـ 1090 م، تُوفي عام 518 هـ 1124 م.

2 - الكيا بُزُرك أُمَيد: كان داعية وزميلًا للحسن الصباح، تولَّى الحُكْم عام 518 هـ 1124 م، أسَّس أسرة وراثية بتولية ابنه من بعده، تُوفي عام 532 هـ 1138 م.

3 - مُحمَّد بن بُزُرك أُمَيد: تولَّى عام 532 هـ 1138 م. تُوفي عام 557 هـ 1162 م.

4 - حسن بن مُحمَّد: تولَّى عام 557 هـ 1162 م، ادَّعى نسباً إسماعيلياً إلى نزار بن الخليفة الفاطمي المُستنصر، وأعلن نفسه إماماً لفرقة، ثم أعلن القيامة عام 559 هـ 1164 م، تُوفي عام 561 هـ 1166 م.

5 - مُحمَّد بن حسن: تولَّى عام 561 هـ 1166 م، تُوفي عام 607 هـ 1210 م.

6 - جلال الدين حسن بن مُحمَّد: المُلقَّب (نو مُسلِمان)، ألغى القيامة فور تولَّيه عام 607 هـ 1210 م، تُوفي عام 618 هـ 1221 م.

7 - علاء الدين مُحمَّد بن حسن: تولَّى عام 618 هـ 1221 م، أُصيب بمرض المالبخوليا، اغتيل عام 653 هـ 1255 م.

8 - رُكن الدين خورشاه: تولَّى عام 653 هـ 1255 م، قتله المغول مع كُلِّ أفراد أسرته 656 هـ 1258 م.

الفصل الثالث

العلاقات الدُولِيَّة لبعض الدُول الإسلاميَّة

المبحث الأوَّل

علاقات الشَّام ومصر مع المغرب الأقصى

بدأت هذه العلاقات فعلياً بقيام دولة صلاح الدِّين في مصر، التي هي بوابة المغرب العربي، فكان من الطبيعي - لسبب، أو لآخر - أن تتفاعل العلاقات الأيوبيَّة مع المغرب سياسياً وعسكرياً، لكن؛ ممَّا حدَّ من هذه العلاقات، بل ورُبَّما جعلها مُستحيلة، هو مُواجهة كل طرف لعدو مُختلف، شغله تماماً، وجعله يستغرق كلَّ اهتماماته في التصدِّي له، إضافة إلى المُشكلات الداخليَّة وصُعوبات ترسيخ الحُكم لدى كلِّ طرف. كان الطرف الشرقي في الشَّام ومصر يتعرَّض للعدوان الفرنجي، بينما كان الطرف الغربي يشهد عدواناً من نوع آخر، إنَّه حرب الاسترداد التي كانت ناشطة في الأندلس وصقلية وامتداداتها نحو شواطئ المغرب العربي، لكنَّ كلَّ ذلك لم يمنع من قيام بعض العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين شطري المشرق والمغرب العربي.

بعد أن أعاد صلاح الدِّين السيطرة على دولة نور الدِّين وضمَّ الشَّام إلى مصر، أعاد توزيع ولايته على أطرافها، فاستبدل ابن أخيه تقي الدِّين عمر والي مصر بابنه العزيز، فغضب تقي الدِّين وكاد أن يظهر العصيان، لكنَّه فضل أن يسير بجُوده وماليكه إلى المغرب ليقيم له فيها مملكة خاصَّة. وبالفعل خرج تقي الدِّين وعسكر في الجيزة، وبدأ بالاستعداد وكتب إلى عمِّه السُّلطان صلاح الدِّين بذلك.

ويبدو أن الملك المظفر تقي الدين كان يعتمد في مشروعه الغربي على قُوَّة استطلاع كان قد أرسلها مسبقاً بقيادة مملوكه قراقوش⁽¹⁾، يقول العماد الكاتب: "وكان أحد ممالكه قراقوش من قبل قد سار إلى برقة، ومَلِكْهَا، وتجاوز إلى أفريقية، وهو يكتب - أبداً - إلى ماله الملك المظفر يرغبه في تلك المملكة، ويقول: إن البلاد سائبة"⁽²⁾. ولما وصلت أخبار حملة تقي الدين على المغرب إلى السلطان صلاح الدين قال: "لعمري؛ إن فتح المغرب مُهم، لكنَّ فتح البيت المقدس أهم، وإذا توجه تقي الدين برجالنا المعروفة ذهب العمر في اقتناء الرجال، وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل"⁽³⁾. وفي الحقيقة؛ فإن توجهه كُلُّ من الرجلين يناقض استراتيجية الآخر، فصلاح الدين سلطان البلاد، وهدفه الجهاد، وهمه طرد الفرنج وتحرير القدس، ويرى أنه يمكن - فيما بعد - التفكير في غير ذلك. أمَّا المظفر تقي الدين فباحث عن مملكة يؤسس فيها ملكاً خاصاً به، وشجعه تقدُّم مملوكه قراقوش التقوي، وأخباره بخُلُوف بلاد الغرب من قُوَّة مانعة.

لكنَّ صلاح الدين لم يتوانَ في هذا الأمر، وأصرَّ على ابن أخيه أن يترك كُلَّ شيء، ويقدم عليه في الشام، فامثل تقي الدين للأمر، ولما قابل عمه مُلبياً لدعوته أرضاه صلاح الدين بإقطاعات كبيرة في الشام والجزيرة، ثنته عن التفكير في المغرب، الذي كان - في كُلِّ الأحوال - مُغامرة تقبل النجاح والفشل⁽⁴⁾.

ولكن؛ عندما كتب السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء يشرح له أحوال دولته ذكر فتوحات قراقوش مملوك تقي الدين ضمن خُطَّة الدولة، وكأنها تمت بدعمه وإشرافه الشخصي، وعددها ضمن أعماله، فقد قال في رسالته التي هي من إنشاء القاضي الفاضل: "ولنا في المغرب، أثر أغرب . . . وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم أمر، وملكهم قد عمر، وجيوشهم لا تُطاق،

1 - قراقوش: التقوي، مملوك تقي الدين، وهو غير قراقوش الصلاحي مملوك صلاح الدين، ونائبه على القاهرة، والذي شنع عليه أهل مصر. ويبدو أنه تحرك من مصر قبيل وفاة نور الدين، وبالتالي؛ كان ذلك بموافقة صلاح الدين، إن لم يكن بدعمه وتوجيهه، وهذا ما دفع ابن خلدون ليقول بأن حملة قراقوش كان من أهم دوافعها الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين. (العبر، ابن خلدون، 6 / 394)؛ أي أنه كان يمهد لمملكة بديلة إذا أقصاه نور الدين عن مصر.

2 - الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكَّار، 4 / 19.

3 - الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكَّار، 4 / 19.

4 - الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكَّار، 4 / 19.

وأوامرهم لا تشاق، ونحن - والحمد لله - قد ملكنا ممَّا يحاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا عسكرياً بعد عسكر، رجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجاهير: لك، برقة، قفصة، قسيلية، وتوزر، كُلُّ هذه تُقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بالله"⁽¹⁾.

وعلى الأرض تمكَّن قراقوش من الاستيلاء بسُهولة على مُحيط مدينة طرابلس الغرب ومُعظم نواحي جبل نفوسة، فتوافدت عليه قبائل العرب، وخاصة قبيلة رياح، التي خلعت طاعة الموحدين، وساندت قراقوش، فتمكَّن - بهذا الدعم - من احتلال طرابلس، فقدمت إليه مجموعات أخرى من القبائل العربية من هلال وبعض سليم، فاصطنعهم، وفرض لهم العطاء، واستبدَّ هو بحُكم طرابلس. وكان قراقوش يخطب للخليفة العباسي وللسلطان صلاح الدين ولمولاه تقي الدين⁽²⁾.

ويبدو أن حملة قراقوش التقوي على المغرب قد انتهت بمُجرد إرضاء سيِّده تقي الدين بإقطاعات الشام، فاستدعى جُنُوده وممالكه إليه في الشام، وعاد مُعظمهم إلَّا مجموعة منهم قد تخلَّفت في المغرب مع أحد قادة الحملة، وهو مملوك لتقي الدين اسمه زين الدين بوزيا، فقد تابع بمن رافقه من الجند تقدُّمه نحو الغرب، واستولى على عدَّة بلدات، لكنَّه - في النهاية - هزم أمام قُوَّات ابن عبد المؤمن سلطان المغرب، فأسره، ثم أطلقه، وجَهَّزه بما يلزم مع جنده، وسيره لغزو الثغور، فوجده مُقاتلاً شجاعاً وقائداً مُحَنَكاً، فجعله أحد مُقدِّمي جيشه⁽³⁾.

ولما اشتدَّ ضغط الفرنج على عكا، ووقف صلاح الدين بقُوَّاته أمامها عاجزاً عن إنقاذها، لأنه لا يستطيع مُهاجمة الفرنج المدعومين بالأساطيل القويَّة، وقد وصف هذه الحال صلاح الدين في إحدى رسائله بقوله: "إنهم - الآن - على عكا، يمدُّهم البحر بمراكب أكثر عدَّة من أمواجه"⁽⁴⁾. ولذلك لم يجد صلاح الدين بُدّاً من محاولة طلب نجدة سلطان المغرب يعقوب ابن يوسف⁽⁵⁾، فالمُوحِّدون وفقاً لما قال ابن خلدون: "أقاموا خُطَّة هذا الأسطول على أنم ما عُرف، وأعظم ما

1 - صُبْح الأعشى، القلقشندي، 13 / 86 - 87.

2 - العبر، ابن خلدون، 6 / 395، راجع تفاصيل حُكم قراقوش لطرابلس في: علاقات الموحدين بالدول النصرانية والدول الإسلامية، هشام أبو رجلة، 143.

3 - الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكَّار، 5 / 19.

4 - صُبْح الأعشى، القلقشندي، 7 / 627.

5 - المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (580 / 595 هـ - 1184 / 1199 م).

عُهد"، ويُضيف ابن خلدون مُتحدثاً عن الأساطيل في عهد المنصور يعقوب، بقوله: "وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة، والاستجادة ما لم تبلغه من قبل، ولا من بعد فيما عهدناه"⁽¹⁾. فكتب القاضي الفاضل نصّ كتاب الطلب، وحمله إليه عام 586 هـ 1190م، شمس الدّين عبد الرحمن بن مُنقذ الكناي، وقد ورد في الكتاب تعريفٌ بقوة الفرنج البحريّة، والإمدادات الكبيرة التي تصلهم في البحر، ويسأله السُّلطان صلاح الدّين: إن كان أسطول المغرب مُستعدّاً وجاهزاً، "فالبدار البدار". ثمّ يعتذر السُّلطان عن أفعال قراقوش وبوزيا وغزوهم للمغرب، ويتنصّل من عملهما⁽²⁾.

وبالفعل؛ أطلع عبد الرحمن بن مُنقذ على ظهر سفينة من ميناء الإسكندرية في 13 رمضان 586 هـ 1190م، وبعد توقّف بسيط في طرابلس الغرب أطلع منها إلى المغرب الأقصى، فاستقبله الوزير أبو يحيى بن أبي بكر، ثمّ قابل السُّلطان يعقوب، الذي تسلمّ الرسالة، وقبل هدية صلاح الدّين⁽³⁾.

وبقي ابن مُنقذ في مراكش حتّى عام 588 هـ 1192م؛ حيث غادر إلى صر، ويسدو أنّه عاد دون أن يحمل ردّاً على الرسالة، وبالتالي؛ فإن صلاح الدّين لم يحصل على أيّ مُساعدة من ابن عبد المؤمن كما كان يأمل. وقيل إن سبب تجاهل ابن عبد المؤمن لطلب صلاح الدّين أنّه لم يخاطبه برسالته إليه بإمرة المؤمنين، كما كان أتباعه في المغرب يُخاطبونه⁽⁴⁾.

وإذا كان السُّلطان صلاح الدّين لم يتمكّن من إثارة اهتمام خليفة المغرب وأمرائه وقادته بالجهاد المُشترك ضدّ الفرنجة⁽⁵⁾ فإن قضية القدس والجهاد المقدّس لتحريره قد استتارت كثيراً من عامّة المغاربة، الذين لم يكونوا بحاجة إلى توجيه رسمي ليندفعوا نحو بلاد الشّام.

المغاربة في الشّام⁽¹⁾:

من المعروف أن المغاربة تدفّقوا بكثرة على مصر والشّام في عصر الحُرُوب مع الفرنجة كمجموعات وأفراد، ولأسباب مُختلفة، ربّما كان من أهمّها الجهاد في سبيل الله، ممّا حتّم قيام علاقات عسكريّة بين المتطوّعة المغاربة والفرنجة، ولكننا نلاحظ أن تلك العلاقات كانت في أضيق شكل، فلا توجد إشارات واضحة لدى مؤرّخي الحُرُوب مع الفرنجة على اشتراك المغاربة كوحدات مُستقلّة، أو حتّى كمجموعات صغيرة مُنفصلة، وكلّ ما تمّ ذكره هو حوادث فردية، مثل: خُروج الشّيخ يُوسف بن درباس الفندلاوي المغربي من دمشق عندما حاصرها الفرنج في الحملة الثّانية عام 543 هـ 1149م، وقتاله لهم رغم شيخوخته، ممّا أدّى إلى استشهاده⁽²⁾.

ويركّز الرّحالة المغربي ابن جُبَيْر في مرويّات رحلته على دور المغاربة في الحُرْب ضدّ الفرنجة زمن صلاح الدّين، ويقول: إن الضرائب التي يتقاضاها الفرنج على مُرور التّجّار المغاربة أعلى بكثير من الضرائب المفروضة على غيرهم، ويُعلّل ذلك بنكايتهم في الفرنج⁽³⁾، وممّا يؤكّد ذلك أن رسول الفرنجة إلى صلاح الدّين، أثناء حصارهم لعكا، جاء ومعه أسير مغربي كهديّة، فاهتمّ به صلاح الدّين⁽⁴⁾.

كذلك يذكر ابن جُبَيْر أن المغاربة البحريين أنجدوا القوّة البحريّة التي شكّلها الأمير لؤلؤ لردّ غزوة الفرنجة في البحر الأحمر، والتي كانوا ينوون الوُصول فيها إلى المدينة المنوّرة⁽⁵⁾.

ويبدو أن شهرة المغاربة بمعاونة البحر قد انعكست عليهم وبالأعلى فقرائهم في مصر، فعلى الدوام؛ كان هناك مَنْ يتعرّض لهم بالقبض لسدّ حاجة الأسطُول، يقول المقرّي في كتابه نفع الطيب: "وسائر الفقراء لا يتعرّضون إليهم بالقبض للأسطُول إلّا المغاربة، فذلك وقف عليهم لمعرفة

1- كان "تعبير مغربي" يشمل سُكّان غرب الدولة العربيّة الإسلاميّة من ليبيا وحتّى الأندلس.

2- مُعجم البلّدان، ياقوت الحموي، مادّة: فندلاو وذيل تاريخ دمشق، ابن القلاسي، 298.

3- الرحلة، ابن جُبَيْر، 274.

4- الفتح القسّي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، 502.

5- الرحلة، ابن جُبَيْر، 35.

1- العبر، ابن خلدون، 6 / 528.

2- راجع نصّ كتاب السُّلطان صلاح الدّين إلى ابن عبد المؤمن في: الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكّار، 19 / 288.

3- لمعرفة تفاصيل الهدية راجع: الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكّار، 19 / 797.

4- الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكّار، 19 / 298-300.

5- الشّرق والغرب، كلود كاهن، 242.

بمعاناة البحر، وقد عمَّ ذلك مَنْ يعرف معاناة البحر منهم، وَمَنْ لم يعرف، فيُحمَل إلى السجن، حتَّى يحين وقت الأسطول⁽¹⁾.

وهذا دليل على أهميَّة دور المغاربة في الحُرُوب ضدَّ الفرنجة، ولكنَّه يبقى دوراً شعبيّاً، وبمبادرات فردية تلبية لفريضة الجهاد، بينما لم يُجِبْ سلطان المغرب طَلَبَ السُّلطان صلاح الدِّين لدعمه عسكريّاً ضدَّ الفرنج⁽²⁾.

ويبدو أن المغاربة قد اختصُّوا بإقامة الأسواق للعسكر، فكانوا يُقيمون مطاعم وحامات مُتنقِّلة تصاحب تحركات الجُند، وقد قدَّر المقرِيزي أعدادَ المغاربة الذين يُقيمون بخدمة الجيش الأيوبي بأكثر من ثلاثة آلاف مغربي⁽³⁾، وهذا دعم إداري لا يُنكر لرفاهية الجيش وصحَّته. ورُبَّما لتعاضد دور المغاربة المُتطوِّعة للجهاد، فقد أوقف الملك الأفضل بن السُّلطان صلاح الدِّين حيّاً خاصّاً في مدينة القدس، يقع بجوار المسجد الأقصى، لسكن المغاربة، حتَّى صار يُعرَف بحارة المغاربة⁽⁴⁾.

وأخيراً؛ نلاحظ أن الحملة الأيوبيَّة قد انطلقت نحو المغرب في وقت مُبكر من عهد صلاح الدِّين، وقد احتلَّت حملة تقي الدِّين والي مصر إقليم برقة، واصطدمت بالمُوحِّدين في تونس، لكنَّ السُّلطان صلاح الدِّين أمر بسحب الحملة، وتنصَّل منها عندما طلب مُساعدة ابن عبد المؤمن البحريَّة، فتجاهل ابن عبد المؤمن طلبه، وغالباً كان هذا التجاهل بسبب توجهاته الأندلسية ومُثُومه المغربية، وليس لعدم مخاطبته بإمرة المؤمنين كما تردَّد.

1 - نفح الطيب، المقرِيزي، 3 / 111 - 112.

2 - الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زَكَّار، 19 / 288.

3 - السُّلوك، المقرِيزي، 1 / 94.

4 - الأنس الجليل، العليمي، 2 / 397، والشرق والغرب، كلود كاهن، 114.

المبحث الثاني

العلاقات الخارجية لأمرء الحجاز

كانت كُلُّ الممالك الإسلاميَّة تُقيم علاقات ضمنية مع الحجاز من خلال فريضة الحجّ والزيارة التي يقوم بها سنوياً مُسلمو تلك البلاد، ولكن؛ انفردت الدولة الأيوبيَّة بعلاقات مميَّزة مع الحجاز بسبب أن أرض ممالكها في الشَّام ومصر هي منافذ لمُعظم مناطق العالم الإسلامي نحو الحجاز وهي الأقرب إليه. مع ذلك؛ لم يكن في الحجاز ما يُغري مُلوك بني أيُّوب للسيطرة عليه، أو مدَّ مُلكهم إليه، فهو مسؤولية أمام الأُمَّة الإسلاميَّة أكثر منه مغنم وسُلطة. لذلك؛ حاول الأيوبيُّون - ما استطاعوا - أن تظلَّ صلتهم الوحيدة بالحجاز هي قافلة الحجّ الشَّامي، وقافلة الحجّ المصري، وتأمين سلامتهما بالذهاب والإقامة والإياب.

كان يُسيطر على الحجاز في العصر الأيوبي الأشراف العلويُّون؛ حيث يحكم منهم في مكَّة المُكرَّمة الفرع الزيدي الحَسَني، وكانت لهم الأهميَّة الكُبرى لسيطرتهم على مدينة مكَّة المُكرَّمة والمسجد الحرام والكعبة المُشرَّفة، ووُجود مناسك الحجّ كُلِّها في قبضتهم.

أمَّا في المدينة المنوَّرة؛ فكان يحكم الأشراف من الفرع الحَسَيني العلوي، وكانت إمارتهم أقلَّ أهميَّة لإمكان استغناء الحُجَّاج عن الزيارة إلَّا لِمَنْ كانت المدينة المنوَّرة في طريقهم كحُجَّاج الشَّام، ومع القرابة بين أمرء مكَّة وأمرء المدينة، فقد كانت المنازعات، بل والحُرُوب، شائعة بينهما، لأن كُلاًّ منهما، وخاصَّة أمرء مكَّة، يطمع في السيطرة على ما بيد الآخر.

في بدايات العصر الأيوبي كان يحكم مكَّة الأمير داود بن عيسى بن مُحمَّد بن أبي هاشم الزيدي الحَسَني العلوي، ويقاسمه في الإمرة أخوه الأمير مكثر، وفي عام 589 هـ تُوفي داود أمير مكَّة المُكرَّمة⁽¹⁾، فخلفه ابنه الأمير قتادة، الذي كان ذا أطماع شديدة، ويملك شخصية قويَّة تميل إلى السيطرة والتحكُّم⁽²⁾، أمَّا في المدينة المنوَّرة؛ فكان يحكم في بدايات العصر الأيوبي الأمير سالم بن قاسم بن مهنا الحَسَيني العلوي، وكان يرغب بقيام علاقات ودِّيَّة مع الأيوبيِّين ليستفيد من دعمهم لمواجهة

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 104.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 205.

أطاع أبناء عمه حكام مكة المكرمة، فتوجه الأمير سالم نحو الشام عام 590هـ-1194م، ساعياً في تحقيق قيام علاقة سياسية تؤدي إلى دعم عسكري، ولكن؛ في غيابه عن المدينة المنورة طمعت العرب في غزوها، فاجتمعت أحلاف من القبائل البدوية التي تقيم في بوادي الحجاز بزعامة قبيلة زغب، وهاجموا المدينة المنورة، فتصدى لهم الأمير هاشم بن قاسم، الذي كان يحكم نيابة عن أخيه، فقتلوه، ونهبوا ما تمكنوا من نهبه⁽¹⁾.

ويبدو أن الأمير سالم لم يحصل على مبتغاه من رحلة الشام، فالمملوك الأيوبيون مشغولون بمشكلاتهم الداخلية، وحكم الحجاز من آخر اهتماماتهم. وربما أدرك ذلك قتادة أمير مكة المكرمة الذي قام عام 601هـ-1205م، بقيادة جنده وماليكه، وهاجم المدينة المنورة للاستيلاء عليها، ولكنه واجه مقاومة عنيفة من الأمير سالم، الذي تصدى له، وهزمه، فهرب قتادة، وتحصن في مكة المكرمة، فتبعه سالم، وحصره، عندها؛ لجأ قتادة إلى المؤامرات، فاستمال قادة الأمير سالم، وأطمعهم، ففسدت نيابتهم على أميرهم، فاضطرَّ سالم للرحيل إلى المدينة المنورة⁽²⁾.

ولم يجد الأمير قتادة من ينتقم منه إلا أئمة المذاهب في مكة، فقتل إمام الحنفية، وإمام الشافعية، ثم التفت إلى قافلة الحج اليميني، فنهبا⁽³⁾. وسيتكرر نهب الحجاج العزل من قبل أمراء مكة، وتركهم لمواجهة الموت غرة جياح، كلما توجَّس أميرها خيفة من أحد، فينتقم من حجاج بيت الله الحرام، علماً أنه الشريف الحسيب النسيب الذي يحكم مكة بحكم قرابته من رسول الله (ص).

وفي زحام يوم النحر لعام 608هـ-1211م، قام رجل عراقي بالهجوم على شريف من بني عم قتادة، وقتله، فقتلوا القاتل، الذي ربما كان يدافع عن شرفه أو ماله من تعدّي هذا الشريف، وهو أمر كان شائعاً جداً، ولكن؛ كالعادة بُنيت قصة كاملة حول عملية القتل هذه، وقيل إن القاتل باطني من الإسماعيلية اندس في قافلة الحج العراقي بناءً على رغبة الخليفة العباسي، وأنه قتل ابن عم الأمير قتادة لشبهه الشديد به، بينما كان المقصود هو الأمير، فوجدها قتادة فرصة مناسبة، وهاجم بجنده وعبيده الحجاج العراقيين، وبدأت عملية نهب منظمّة لهم. ولم يتمكن أمير قافلة الحج العراقي علاء

1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 110.

2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 205.

3- ذيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، شهيل زكار، 20 / 149.

الدين محمد بن الأمير ياقوت من التصدي لشريف مكة لكونه صبيّاً غراً، فنصحه الناس بالانحياز إلى موضع الحجاج الشاميين، وكان قائد قافلة الحج الشامي الصمصام إسماعيل، ومعه في القافلة ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان العادل.

ولما هرب الحجاج العراقيون استولى قتادة على أحاسم وأثقالهم، ولم يترك لهم شيئاً منها، وأرسل جنده وعبيده إلى منى، فضربوا الناس بالحجارة، ورموهم بالنشاب، وقتلوا منهم، فدخل أمير قافلة العراق خيمة ربيعة خاتون، واستجار بها، فأرسلت إلى قتادة مع أمير قافلة القدس علي بن السلار تقول: "ما ذنب الناس؟! قد قتل القاتل، وجعلت ذلك وسيلة لنهب المسلمين، واستحللت الدماء في الشهر الحرام، وخوفت، فطلب مائة ألف دينار لكفّ أذاه عن الناس، فجمعوا له ثلاثين." وأقام الناس ما بين قتل وجريح ومسلوب وعريان، ويقال إنه أخذ ما قيمته ألف ألف دينار من الحجاج العراقيين، ويعلق ابن شداد على ذلك بقوله: ولم يتطع فيها عنزان⁽¹⁾. ويبدو أنه للمصادفة كان ضمن قافلة الحج العراقي والدة جلال الدين زعيم إسماعيلية فارس في قلعة الموت، ويقال إنها تحملت دفع معظم الغرامات التي تكبدتها القافلة⁽²⁾.

واتهم قتادة الخليفة العباسي بتدبير مؤامرة لقتله، وقال: "ما فعل هذا إلا الخليفة، ولئن عاد أحد من بغداد لأقتلن الجميع"⁽³⁾. ولكن قتادة عاد، فشرع بعظيم ما فعل من إساءة للخليفة، وعاد يحاول استرضاء الخليفة، فأرسل جماعة من أولاده وأصحابه إلى بغداد، "فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة، والأكفان، فقبلوا العتبة، واعتذروا"⁽⁴⁾. ويبدو أن أمر الحجاز قد بدأ يثير اهتمام السلطان العادل، بعد أن استقر له الأمر في الشام ومصر، ففي عام 611هـ-1214م، كان أمير قافلة الحج الشامي الملك المعظم بن العادل، فلما وصل المدينة المنورة تلقاه أميرها سالم، واهتم بخدمته، فهو لا زال يحلم بالدعم الأيوبي ضد أمراء مكة، ومما سهّل مهمة سالم أن قتادة أمير مكة لم يحسن استقبال الملك المعظم في حجّه، فلما عاد المعظم أخبر والده العادل الذي أمر بتجهيز قوة عسكرية بقيادة الناهض بن الجرجي توجهت إلى المدينة المنورة؛ حيث استقبلهم الأمير سالم، وقصدوا جميعاً مكة،

1- ذيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، شهيل زكار، 20 / 152.

2- الحشيشية، برنارد لويس، ترجمة: شهيل زكار، 237.

3- ذيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، شهيل زكار، 20 / 152.

4- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 297.

فهرب قتادة منها إلى البادية، ولم يُجرب المقاومة⁽¹⁾، ولكنه سرعان ما عاد إلى مكة بعد تراجع الحملة الأيوبية، وجمع مؤيديه، وهاجم المدينة المنورة عام 612 هـ-1215م، "وحاصروها أياماً، وقطع ثمرها، وكثيراً من نخلها". وتصدى له أهل المدينة، وهزموه، فعاد نحو مكة⁽²⁾.

وأيقن الأمير سالم أنه لن يستريح ما لم يقض تماماً على قوة عدوه قتادة أمير مكة، وأن ذلك لن يتم إلا بالدعم وبالقوى الأيوبية، فسار إلى دمشق مجدداً، وعسكر في الكسوة، فجند بعض التركمان، وتلقى الدعم الأيوبي بفرقة يقودها الناهض بن الجرجي نفسه، وقاد سالم قواته وتوجه نحو الحجاز، لكنه توفي في الطريق عام 612 هـ-1215م، فخلفه ابن أخيه المدعو جهاز، الذي قاد الحملة، وواصل المهمة، وضم إليه في الطريق بعض الأعراب من بني طيء بقيادة حميد بن راجب، وهاجم بجميع من معه مكة، ولما تصدى له قتادة تمكن من هزيمته، فهرب قتادة إلى قلعة ينبع⁽³⁾ التابعة له، فنبهه جهاز، وحاصره فيها، وبعد سلب المنطقة، ونهبها، عادوا عن الحصار، وغادرت الحملة الشامية إلى موطنها، ولما أحصوا غنائمهم في الشام وجدوا في الأسرى نساء وصبيان من الأشراف الحسنيون والحسينيون، فلم يستعبدوهم، وسلموهم إلى أشراف دمشق؛ ليكفلوهم، ويُعيلوهم من وقفهم⁽⁴⁾.

وفي النهاية؛ أدرك قتادة أنه سيكون الخاسر الأكبر في صراعه مع أمراء المدينة، وأنه لن يقوى على المقاومة بوجود الدعم الأيوبي، فحاول أن يبدل بدلوه في التقرب من الأيوبيين، فراسل الملك الكامل صاحب مصر، لأنه كان يعرف أن هوى أخيه المعظم صاحب دمشق مع أعدائه في المدينة، وعرض على الكامل أن يسلمه قلعة ينبع، وهي قلعة الميناء الاستراتيجي للحجاز على البحر الأحمر الذي هو صلتها بمصر، فوافق الكامل، وبالفعل؛ تسلم ثوابه عام 613 هـ قلعة ينبع، مقابل أن يحميه من هجوم الأمير قاسم بن جهاز، الذي تولى حكم المدينة المنورة، وكان ينتظر انتهاء مناسك الحج؛ ليهاجم مكة، ويحتلها بعد أن احتل وادي القرى الغني بنخيله وزرعه، وكان تابعاً لقتادة⁽⁵⁾.

1- دُيْلُ الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20 / 169.

2- دُيْلُ الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20 / 172.

3- ينبع: هي ميناء المدينة المنورة على البحر الأحمر. وقال ياقوت: "هي من المدينة على سبع مراحل، وفيها عيون عذاب كثيرة، وهي من أرض تهامة". (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: ينبع).

4- دُيْلُ الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، 89 - 90، ودُيْلُ الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20 / 173.

5- دُيْلُ الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، 92.

وبذلك قام نوع من التوازن الاستراتيجي بين أمراء مكة المدعومين من الفرع الأيوبي في مصر، وبين أمراء المدينة المدعومين من الفرع الأيوبي في دمشق، واستمر هذا التوازن حتى وفاة الأمير قتادة عام 617 هـ-1220م⁽¹⁾، فتولى بعده ابنه حسن، ولما توفي قتادة كان له من العمر نحو تسعين سنة، وقيل إن ابنه حسن هو الذي قتله خنقاً، وكان قد قتل عمه قبله، ثم استدعى حسن أخاً له يُقيم في ينبع، فقتله أيضاً⁽²⁾.

وكان للأمير حسن أخ آخر اسمه راجح يُقيم مع العرب بظاهر مكة، فلما قدمت قافلة الحج العراقي، وكان أميرها آقباش مملوك الخليفة الناصر لدين الله، وقد حمل معه الخلع والتقليد من الخليفة إلى حسن بن قتادة، فاتصل راجح بآقباش، وقال له: "أنا أكبر ولد قتادة، وطلب توليته على مكة"⁽³⁾، وتختلف الروايات حول موقف آقباش من راجح، فيقول ابن الأثير: إن أمير الحج العراقي قد وافقه⁽⁴⁾، بينما يقول أبو شامة: إن آقباش لم يُجبه، لكن حسن ظن أن آقباش قد ولاه مكة⁽⁵⁾. على الحالين كليهما؛ قام الأمير حسن بالخطوة العدائية الأولى ضد أمير الحج العراقي، فأغلق أبواب مكة، ومنع الناس من دخولها، فوقعت الفتنة بين الأخوين، وضجت الحجاج، فركب آقباش مسالماً ليُسكن الفتنة، ويهدئ الناس، فتلقاء أصحاب حسن، وقاتلوه، فانهزم أصحابه عنه، وقتل آقباش، وحملوا رأسه إلى حسن، الذي نصبه على المسعى، وهاجم أتباع حسن الحجاج لتهبهم، على مجرى العادة، فتصدى لهم المبارز أمير الحج الشامي، وخوف حسن من غضب الملك الكامل والملك المعظم، فهدأت الفتنة⁽⁶⁾.

وبعد استيلاء أطميس بن الملك الكامل على اليمن، أصبحت الحجاز محصورة بين الأملاك الأيوبية. فازداد الاهتمام الأيوبي بها. وفي عام 619 هـ-1222م، حج من اليمن الملك المسعود أطميس بن الكامل، ومعه عدد وافر من الجنود، فانحاز عن طريقه حسن بن قتادة، الذي كان في حالة من

1- دُيْلُ الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20 / 236.

2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 402.

3- دُيْلُ الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20 / 236.

4- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 401.

5- دُيْلُ الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20 / 236.

6- دُيْلُ الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20 / 236.

الضعف بعد تفرُّق الأشراف والمهاليك عنه، وقام عسكر أطسيس بنهب مكة، "حتَّى أخذ الثياب عن الناس" (1)، وتجبرَّ أطسيس بقوَّته، وتحكَّم، فمنع علم الخليفة من الصعود إلى منى، واستهان بخرمات مكة، ويروى عن جمال الدين الحصري أنه قال: "رايتُ أطسيس قد صعد على قبة زمزم وهو يرمي حمام مكة بالبندق، وغلماؤه في المسعى يضربون الناس بالسُّيوف في أرجلهم، ويقولون: اسعوا قليلاً قليلاً، فإن السلطان نائم سكران" (2).

ومع كل هذه الشدة والتجبر فإن الأمن الذي حققه أطسيس لمكة كان مفقوداً منها لعقود طويلة خلَّت، فبعد استيلائه عليها؛ توالى على مكة التجارات والقوافل، ورخصت الأسعار في أيام حكمه لها، "ولعظيم هيئته خلَّت الأشرار، وآمنت الطُّرق والديار" (3).

وبذلك؛ انضوت الحجاز بكاملها تحت السيطرة الأيوبية، فالمدينة المنورة كان صاحبها في تبعية كاملة للملك المعظم صاحب دمشق، وعندما عاد مؤرِّخ الشام أبو شامة من حجِّه عام 621 هـ 1224 سجَّل في ذيل تاريخه إشارة بالغة الدلالة على هذه التبعية، وقد وردت عَرَضاً وهو يشيد باهتمام صاحب المدينة بالأمن، فعزا ذلك لتبعيته لصاحب الشام الملك المعظم (4).

أمَّا مكة؛ فقد تبعت - بشكل مباشر - إلى مملكة اليمن الأيوبية، وقد حلَّ في ذلك الوقت السلطان الأيوبي الكامل مُشكلة كُبرى كان يُعاني منها الحُجَّاج، عندما أتاح دُخول الكعبة المُشرَّفة لمن أراد من الرُّوَّار، "فقد أرضى بني شيبه سَدَنَة الكعبة ببال، عوضاً عما كانوا يأخذونه بإغلاقه، وفتحها لمن أرادوا" (5).

ثمَّ تبدَّلت القوى المُتَحَكِّمة في مناطق جوار الحجاز، فقد توفِّي المعظم، واقتسم الملك الكامل وأخيه الأشرف مملكة دمشق، وخلعوا عنها داود بن المعظم، وكذلك استولى ابن رسول على اليمن بعد وفاة أطسيس، فأراد الكامل - عندما زحف على الشام - أن يُثبت وجوده في الحجاز، فأرسل عام

629 هـ 1232م، حملة بقيادة فخر الدين بن شيخ الشُّيوخ إلى ساحل الحجاز ليحمي ينبع، لكنَّ ابن الشيخ دخل مكة، فلمَّا وصل الخبر إلى الكامل، "فما أعجبه ذلك، وقال: نحنُ أمرناه أن يصل ينبع لا غير، من أمره بأخذ مكة؟" (1).

ويبدو أن السلطان الكامل لم يكن يُريد إثارة المشاكل في الحجاز، ولا يُريد إلّا تأمين طريق حجِّ المصريين بالاحتفاظ بميناء ينبع، وكان يُدرك خطر أخذ مكة، بعد فقد حُكم اليمن. وكانت مخاوف السلطان الكامل في محلِّها، فقد جمع أمير مكة العرب، وأمدَّ ابن رسول حاكم اليمن بقوَّة من جنده، قاموا جميعاً بالهجوم على ابن الشيخ والقوَّات الأيوبية المتواجدة في مكة، فهربوا من مكة إلى ينبع، وكاد ابن الشيخ أن يُوسر في هذه الموقعة (2)، وبذلك؛ خرجت مكة نهائياً من تحت المظلة الأيوبية. وكذلك خرجت المدينة بالتدريج عن سلطتهم، خاصَّة بعد مقتل الأمير شيحة بن سالم عام 646 هـ (3)، وتولَّى حُكم المدينة ابنه الأكبر عيسى بن شيحة (4).

وكمُجمل للعلاقات بين السلطنة الأيوبية والحجاز نرى أن مملكتي دمشق ومصر الأيوبيتين قد تنازعتا النفوذ على أشراف الحجاز في مكة والمدينة، وتدخل مُلوكها في خلافات الأشراف على السلطنة، ودعموا بعضهم ضدَّ بعض بالأموال والجُيُوش، حتَّى فرضوا سيطرتهم الكاملة على الحجاز.

1- المنصوري، ابن نظيف، 235.

2- المنصوري، ابن نظيف، 235.

3- راجع ترجمته في: صُبْح الأعشى، القلقشندي، 4 / 300، والسُّلوك، المقرئ، 1 / 473، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 600 - 699، أحداث عام 646 هـ.

4- المختار، ابن الجزري، 215.

1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 413.

2- ذيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20 / 253.

3- ذيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20 / 254.

4- ذيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20 / 274.

5- ذيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20 / 279.

الفصل الرابع

العلاقات الدولية لسلطنة المماليك

المبحث الأول

طائفة المماليك

المماليك هم الرقيق الصالح للعمل، وغالباً هم من الفتيان والفنيات الأرقاء. فقد كان الرقُّ نظاماً شائعاً في عالم العصور الوسطى، وقد عرفته الدولة العربية الإسلامية في وقت مبكر من قيامها، من خلال مصدر كبير له هو الأسر. فالأسرى نتيجة طبيعية للعمليات الحربية الكبرى، التي رافقت قيام الدولة، وكما كان سائداً في عُرُف ذلك الزمان، فهم سيُحوَّلون إلى رقيق، يُمكن فداؤه، أو بيعه، أو استخدامه، ومع أن الإسلام قد شجّع - بشكل كبير - على عتق الرقيق، وجعل ذلك زكاة وصدقة وكفارة للذنوب وحسنة كبيرة عند الله، فإن أعداداً كبيرة من الرقيق كانت موجودة بحكم الواقع في الدولة الإسلامية، دخلت القصور والبيوت للخدمة، ثم استخدموا في الإدارة، وأخيراً؛ وصلوا إلى الجيش.

كان الخلفاء العبّاسيون أول من استخدم المماليك بكثرة في قُصورهم وأعمالهم الرسمية، كما استخدموهم مُقاتلين وأمرأء في الجيش⁽¹⁾، وخاصة أيام الخليفة المعتصم. وكان المماليك بمعظمهم من الجنس التركي، وذلك للتجربة العبّاسية الفاشلة مع الفُرس، ولعدم اطمئنانهم لبني قومهم من العرب. وعندما قامت الدولة الطولونية في مصر⁽²⁾، اعتمدت على المماليك، واستقدمتهم بأعداد كبيرة، حتى قيل إنهم بلغوا 24 ألف مملوك، وكذلك الأمر بالنسبة للإخشيديين والفاطميين من بعدهم، فقد اعتمدوا على المماليك في تكوين جيوشهم⁽³⁾.

ولما حَكَم الأيوبيُّون، وهم أكراد الأصل، توصَّلوا للحُكم عن طريق الدولة السلجوقية التركية، لذلك؛ نقلوا عنها الكثير من عاداتها، ونظَّمها التركية الشرقية، وكانت القاعدة العامة المعروفة عن

1 - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، فايد عاشور، 11.

2 - الدولة الطولونية: أسسها في مصر أحمد بن طولون، وحكمت ما بين: 425 - 292 هـ = 868 - 905 م.

3 - دراسات في تاريخ المماليك، علي إبراهيم حسن، 22.

الممالك الأتراك:

كانت دار الحرب - الدول غير المسلمة - هي مصدر الرقيق إلى دار الإسلام، ومع تنوع مصادر الرقيق الذي كان يدخل إلى الدولة العربية الإسلامية من بلاد الصقالبة - من صقلية وجزر المتوسط وجنوب إيطاليا وفرنسا - والروم - من يونا أسية الصغرى والبلقان وجزرها - والبلغار - من السلاف - والزنج - من أفريقية - وغيرها، فإن الجنس التركي كان هو المصدر الأكثر دفقاً للرقيق إلى الدولة العربية الإسلامية، وكانوا خاصة من قبائل الأتراك الوثنية التي كانت ماتزال تنتقل في أواسط آسيا.

وبدأ بروز العنصر التركي في الدولة العباسية إثر استقدام المعتصم للأتراك، وإكثاره منهم حتى بنى لهم مدينة خاصة هي سامراء، وكان اعتماده عليهم لإبعاد العرب والفرس، الذين لم يعودوا محل ثقة لدى خلفاء بني العباس، حتى سيطر الممالك الأتراك على الدولة العباسية، وتلاعبوا بخلفائها، واستقدموا الآلاف من بني جنسهم، إلى أن كوّنوا دولتهم السلجوقية التركية، ولم يتركوا للخلفاء إلا الاسم. وبعد انقسام الدولة السلجوقية وانهارها وقيام الدولة الخوارزمية ظهر التشار، وتحولت شعوب وقبائل تركية بمجموعها إلى أسرى، مثل الخطا، والخوارزمية، والقفجاق، وغيرهم، "فبيعت ذراريمهم، وجلبهم التجار إلى الآفاق، فسبق منهم إلى ديار مصر والشام في آخر الدولة الأيوبية مجموع من الشبان، وأواسط الفتيان، فاشتراهم ملوك بني أيوب بأنفس الأثنيان، ليتجملوا بهم في الموكب، ويعتضدوا بهم في الكتائب"⁽¹⁾.

ومنذ بدايات الدولة الأيوبية اهتم ملوكها بشراء الممالك، والاختصاص بالنابه والقوي منهم، فبعد موت أسد الدين شيركوه ظهرت ممالكه - الأسدية - على الساحة، وكذلك - الصلاحية - ممالك الناصر صلاح الدين. وكان الصراع بين الأسدية والصلاحية قد امتد حتى على منصب السلطنة الأيوبية، فتأييد فئة منهم أو عدمه هو الذي يقرر من سيكون الملك هنا، أو السلطان هناك. وقد تابع العادل سياسة أخيه الناصر صلاح الدين بالاستكثار من الممالك، وتسليمهم أهم المناصب، وكذلك تبعه أبناؤه الكامل والأشرف والمُعظم⁽²⁾. ولما استتب أمر السلطنة للملك الصالح أيوب

السلجوقية اعتقادهم بأنه لا يمكن للفرس ولا للعرب أن يخلصوا في خدمة الأتراك، فاعتمدوا على وفاء الممالك، الذين تربوا ونشؤوا عندهم⁽¹⁾. فمع أن الأيوبيين مقاتلين أكراداً، كان من الممكن أن يعتمدوا على بني جنسهم، لكنهم اعتمدوا كذلك على التركمان المتواجدين بكثرة في الجيش منذ أيام الدولة السلجوقية والدولة الزنكية، كما أنهم بالغوا في شراء الممالك الأتراك واقتنائهم، وكوّنوا منهم فرقاً عسكرية، وارتقى منهم لمناصب القيادة والإمارة كل من له أهلية، أو شجاعة.

ويُفسر ابن خلدون سبب اعتماد الدول على الممالك، ويعدهم نعمة ساقها الله لإنقاذ الدين والدولة، فيقول: "حتى إذا استغرقت الدولة في الحضارة والترف، ولبتت أثواب البلاء والعجز، ... بما أخذ أهلها عند الاستغراق في التمتع والتشاغل باللذات... من تكاسل المهتم عن المناصرة.. فكان من لطف الله - سبحانه - أن تدارك الإيمان... بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية.. أمراء حامية"⁽²⁾. فالممالك - برأي ابن خلدون، المؤرخ وواضع علم العمران البشري - هم تلبية لحاجة ماسة في الدولة، وتعويض لنقص خطير في المجتمع. ثم يعطي ابن خلدون رأيه في نظام الرقيق الإسلامي ومعاملة الرقيق، فيقول: "يُجلبون من دار الحرب إلى دار الإسلام، في مقادة الرق الذي يكمن اللطف في طيه... ثم يخرج بهم التجار إلى مصر أرسالاً كقطعان، فيستعرضهم أهل الملك، ويتنافسون في أثمانهم... لا لقصد الاستعباد، إنما هو إكثاف للعصبية.... يُنزلونهم في عُرف الملك، ويأخذونهم بالتربية، ثم يعرضونهم على الرمي والثقافة، وركض الخيل والمطاعنة، حتى تشتد منهم السواعد. فإن بلغوا إلى هذا الحد، ضاعفوا أرزاقهم، ودرجوه في مراتب الدولة، والدولة ترف أغصانها من نضرة الشباب"⁽³⁾.

إن ما يتحدث عنه ابن خلدون لا يدخل تحت وصف الرق إلا من باب التسمية، وكما قال ليس هو باستعباد أبداً، بل هو تبين، طالما القصد منه "إكثاف العصبية". وهو تربية في أعلى المدارس العسكرية والإدارية، تؤهلهم لشغل المناصب في الدولة، حتى قيادة الجيش والوزارة، بل وحتى الملك والسلطنة فيما بعد.

1 - زبدة الفكرة، الدوادار، 2.

2 - زبدة الفكرة، الدوادار، 3، والعبر، ابن خلدون، 442 / 5.

1 - في تاريخ الأيوبيين، أحمد العبادي، 35.

2 - العبر، ابن خلدون، 441 / 5.

3 - العبر، ابن خلدون، 441 / 5.

"استكثر منهم، وبذل فيهم الأموال العظيمة، واعتمد عليهم لما جرّب من نصحتهم وثباتهم حين أسلمه بنو جنسه"⁽¹⁾.

إن نظرة سريعة إلى تركيبة الدولة الأيوبية العرقية - رُبما - تُوضّح لنا أسباب هذا التوجّه نحو اقتناء المماليك الأتراك. فمع أن الدولة الأيوبية كُردية بمُلوكها، وعدد من أمرائها وقادتها، فإن أياً من مُلوكها لم يتصرّف على أساس عرقي أبداً، بل كُلُّ الوقائع تثبت العكس، فهم لم ينفصلوا عن الأتراك والتركمان، الذين شكّلوا العديد الأكبر من أمراء الدولة وجُنُود وقادة الجيش، ولم يتكثّل الأكراد عزقياً في مواجهة أيّ حادثة، حتّى من الحوادث التي عصفت بدولتهم، بل كانوا مُنقسمين على الدوام، حتّى إنّنا بعد عهد السلطان الكامل، لا نلاحظ لهم أيّ وجود عسكري، أو سياسي، باستثناء وجود الأسرة الحاكمة، والتي يُمكن أن نقول عنها في هذه المرحلة إنّها ذات أصول كُردية، وهي مُنقسمة مُتصارعة باستمرار على السُلطة. ورُبما كان توقّف هجرة الأكراد نحو بلاد الشّام وتقلّص هجرة التركمان بشكل كبير إليها، هو ما دفع مُلوك الأيوبية نحو التعويض بواسطة شراء المماليك الأتراك⁽²⁾.

وكان التقسيم الغالب لفرق المماليك العسكرية في الدولة وفقاً لما لكهم، فكانت هناك:

- 1 - المماليك السُلطانية: أو الخاصكية، وهم مماليك السلطان القائم في الحُكم، فهو أستاذهم ومُربيهم، فيلازمونه، ويحمونه، وهم - عادةً - أفضل الرواتب والإقطاعات، ويُرشّحون للإمارات والإدارات، فهم محلّ ثقة السلطان المطلقة.
- 2 - القرانصة: وهم مماليك السلاطين السابقين، ولهم ترتيبهم في ديوان الجيش، ورواتبهم.
- 3 - مماليك الأمراء: حيثُ كان لكلّ أمير فرقته العسكرية الخاصّة من المماليك وفقاً لراتبه، أو حجم إقطاعه.

- 4 - أجناد الحلقة: وكان جزء كبير منهم من المماليك، يُسجّلون في ديوانها، ويتقاضون منه الرواتب، وهم مماليك المُلوك وأمراء سابقين، أو مُتوفّين، احترفوا الجُنْدية⁽³⁾.

1 - زبدة الفكرة، الدّوّادار، 3.
2 - راجع: مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصّليبيّة، د. سهيل زكّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 405.
3 - إن مُعظم معلوماتنا عن تنظيم المماليك الإداري والعسكري في العصر الأيوبي تعود للعصر المملوكي، مع أنّنا نعتقد أنّها اختلفت فيه عن العصر الأيوبي اختلافاً بيّناً.

الصّالِح أيُّوب وفرقة المماليك البحريّة:

جرى السلطان الكامل على سُنّة والده السلطان العادل، وقام بتسمية ابنه الأكبر الصّالِح أيُّوب وليّاً لعهد، وتركه نائباً عنه بمصر، وتوجّه نحو بلاده في الجزيرة⁽¹⁾، عندها؛ ظنّ الصّالِح أيُّوب أن الفرصة قد جاءتته تسعى، وأن عليه أن يُوطّد مُلكه في مصر، فالكامل قد لا يعود إليها لسبب من الأسباب. فكان أوّل ما فعله أن اشترى ألف مملوك، فأصبح القوّة الكُبرى في مصر بغياب والده، ممّا دفع فخر الدّين بن الشّيش الذي ربّته الكامل مع ولده الصّالِح "للخوف على نفسه، ومضى إلى خدمة الكامل"⁽²⁾، وعندما وصلت هذه الأخبار مسامع السلطان الكامل عام 626 هـ 1229 م عاد بشرعة نحو مصر، وأبعد ابنه الصّالِح نحو الشّرق، وولّى عهده إلى ابنه الآخر العادل⁽³⁾. وهنا؛ نلاحظ توجّهاً مُبكراً للناصر أيُّوب لاقتناء أعداد كبيرة من المماليك، والاعتماد عليهم. وعندما توصّل الصّالِح أيُّوب إلى السُلطنة في مصر والشّام، كانت هناك عدّة طوائف من المماليك كان بإمكانه الاعتماد عليها، وخاصّة أن منها من كان سبب مُلكه، فقد قام المماليك الأشرفية⁽⁴⁾ عام 637 هـ 1239 م، بالقبض على الملك العادل بن الكامل، وسجنوه، واستدعوا الصّالِح أيُّوب لملك مصر⁽⁵⁾. ولكننا نجد أن الصّالِح أيُّوب قد نظر للعملية على أنّها عملية غدر من المُمكن أن تتكرّر ضده، فقام بتصفية طوائف المماليك السابقة، ففي عام 638 هـ 1240 م، قبض على زعماء الأشرفية، وصَفّى جماعتهم، "ونادى من أخفى أحداً من الأشرفية نُهب ماله، وأودعوا السّجون"⁽⁶⁾، وكذلك فعل بالأمراء الكاملية⁽⁷⁾. "فقد تحقّق أنّه لا ينتظم مُلكه إلّا بالراحة منهم، والاستبدال بهم"⁽⁸⁾، وأخذ بشراء المماليك، "فاشترى من المماليك التُّرك ما لم يشتر أحد من المُلوك"⁽⁹⁾، حتّى صاروا مُعظم عسكره⁽¹⁰⁾، وبالغ في

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 365، وأخبار الأيوبيين، ابن العميد، 26.

2 - أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 26.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 365.

4 - هم من مماليك الملك الأشرف بن العادل.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 166.

6 - السُّلوك، المقرئ، 1 / 405.

7 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 274، والسُّلوك، المقرئ، 1 / 405.

8 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 274.

9 - كنز الدُّرر، ابن آييك، 7 / 370.

10 - النُّجوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 331.

ذلك⁽¹⁾، ومكّنه القضاء على الأشرية والكاملية وخدم القصر المتحكمين في الدولة من "تقديم ممالكه، مجازاة لهم على ثباتهم في خدمته، ولزومهم حين فارقته الناس"⁽²⁾، فقد تخلى عنه القادة والأمراء والأكراد، وحتى حاشيته، والتحقوا بالصالح إسماعيل عندما استولى على دمشق عام 637 هـ 1240م، مستغلاً غياب أيوب عنها⁽³⁾. وعندما قبض الملك الناصر داود على الصالح أيوب بعد أخذ دمشق منه، سجنه في قلعة الكرك، "فأقام ممالكه فيها حتى خلاص من سجنه، فاجتمعوا عليه، وقد عظمت مكانتهم عنده، وكان من أمره ما كان حتى ملك مصر، فرعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد"⁽⁴⁾، "فأمرهم واحداً بعد واحد، وكلما قطع خبز أمير أعطاه لمملوك من ممالكه، وقدمه، حتى صار أكثر الأمراء من ممالكه لاعتداده عليهم، وثقته بهم"⁽⁵⁾. واستخدم الصالح أيوب ممالكه حرساً ملكياً لأمنه الخاص، "فقد رتب جماعة من الممالك الترك حول دهليزه"⁽⁶⁾، "وذلك لكثرة ما جرب من غدر الأكراد، والخوارزمية، وغيرهم"⁽⁷⁾. ولما اجتمع للصالح أيوب من الممالك ما لم يجتمع لأحد من قبله من الملوك "حتى عاد أكثر جيشه ممالكه"⁽⁸⁾، شرع في بناء قلعة على جزيرة الروضة في بحر النيل، وكانت مُتنزهاً لوالده السلطان الكامل، وأتمها في ثلاث سنين، وانتقل ليسكن بها⁽⁹⁾، ونقل معه ممالكه، وأسكنهم بها على طبقاتهم. فأطلق عليهم اسم البحرية نسبة لسكنهم في بحر النيل. ويُقدّر المقرئ أنهم كانوا دون الألف مملوك⁽¹⁰⁾.

وفي الحقيقة؛ لا نستطيع أن نعد أن هناك سبباً واحداً أو حادثة مُعيّنة هي التي دفعت الصالح أيوب نحو جمع أعداد كبيرة من الممالك، فقبل أن يخوض أي تجربة سياسية أو عسكرية نجد أنه

- 1- العبر، ابن خلدون 5/ 442.
- 2- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 5/ 277.
- 3- المُخْتَصَر، أبو الفداء، 3/ 173 - 175.
- 4- الخطط والآثار، المقرئ، 3/ 90.
- 5- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 277.
- 6- المُخْتَصَر، أبو الفداء، 3/ 179.
- 7- كَنْزُ الدَّرَر، ابن آييك، 7/ 370.
- 8- كَنْزُ الدَّرَر، ابن آييك، 7/ 370.
- 9- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 5/ 278.
- 10- الخطط والآثار، المقرئ، 3/ 90.

بمجرد تولي نيابة مصر عن أبيه بدأ بشراء أعداد كبيرة من الممالك⁽¹⁾، وعندما كان نائباً في الجزيرة اصطنع وحالف فرقة الخوارزمية، وخاضوا معه كل حروبه، حتى تحققت سلطنته في مصر والشام⁽²⁾.

إذن؛ نستطيع القول إن الصالح أيوب - منذ البداية - كانت لديه دوافعه وأسبابه حول اقتناء الممالك، والإكثار منهم، والاعتماد عليهم، ويبدو أنه كان يمتلك نظريته الخاصة حول الاستفادة منهم في مشاريعه السياسية والعسكرية، ورُبما كان أساس تلك النظرية هو قناعته المبكرة بفساد الجهازين السياسي والعسكري ورجاهما في دولة أبيه، ثم تعززت هذه القناعة بتخلي أعوانه عنه بعد أخذ دمشق منه، وأكدها القبض على أخيه الملك العادل من قبل حاشيته ومُحاميه، وإن كان ذلك لمصلحته، لكنه جعله يشعر بخوف حقيقي من أن تتكرر العملية معه، فانهى به الأمر إلى تسليم ممالكه لمُعظم مُرافق الدولة وقيادات الجيش⁽³⁾. وهنا؛ نجد أن ذلك يجعلنا نستحضر دوافع الخليفة العباسي المعتصم بجمع الممالك الأتراك، وتمكينهم من التحكم بالدولة، ولم يكن في سلطنة الصالح أيوب شاعراً كدعبل الخزاعي الذي هجا المعتصم بقوله:

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف وأشناس، وقد عظم الخطب
وكل تركي عليه مهانة فأنت له أم، وأنت له أب⁽⁴⁾

ولكن؛ بالتأكيد، كان شعور الناس في القاهرة أيام الصالح أيوب كشعور الناس في بغداد زمن المعتصم؛ حيث تلقوا من أذى الممالك الأتراك الشيء الكثير، فضجوا، واحتجوا، فبنى المعتصم لممالكه الأتراك مدينة سامراء، ونقلهم إليها⁽⁵⁾، وللأسباب نفسها، بنى الصالح أيوب قلعة الروضة، وأسكن ممالكه الأتراك بها، فكانت كسامراء مدينة عسكرية.

- 1- أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 26.
- 2- راجع: العلاقات مع فرقة الخوارزمية في هذا الكتاب.
- 3- راجع كتاب: قيام دولة الممالك الأولى في مصر والشام، أحمد مختار العبادي، 94.
- 4- تاريخ الخلفاء، الشيوطي، 310.
- 5- تاريخ الأمم والملوك، الطبري، 9/ 18، وتاريخ الخلفاء، الشيوطي، 311.

توفي الصالح أيوب عام 647 هـ 1207م، في ظروف سياسية وعسكرية غاية في الخطورة، فالفرنج يحتلون دمياط ثغر الديار المصرية، ويضغظون بقوة عسكرية كبيرة تجاه القاهرة، لكن الأمل كان بعدد من الرجال مثل فخر الدين بن الشيخ، الذي تولى قيادة الجيش، وابن أبي علي نائب القاهرة، وقوة عسكرية متأججة لم تختبر بعد في قتال حقيقي؛ هي مجموعة المماليك البحرية.

المماليك البحرية في معركة المنصورة:

شكلت هذه المعركة الحد الفاصل بين الهزيمة والنصر للمسلمين في حربهم ضد الهجوم الفرنجي على مصر، وكان أبطاها - بالفعل - المماليك البحرية، مماليك الصالح أيوب. فقد هاجم الفرنج معسكر المسلمين في بلدة المنصورة، "ولم يشعر المسلمون المقيمون بالخيام إلا والفرنج معهم، وكبسوا عليهم، وتفرق المسلمون، وكادت تكون كسرة... ثم أغاث الله المسلمين بطائفة من المماليك الصالحة المعروفين بالبحرية... وحملوا على الفرنج حملة منكرة، فبددوا شملهم"⁽¹⁾. وربما كان استشهاد قائد الجيش فخر الدين بن الشيخ في تلك المعركة، قد أفسح المجال لتلمع أسماء قادة جُدد من مُقدّمي المماليك البحرية، فقد برز اسم بيرس البندقداري، الذي قاد الهجوم المعاكس ضد الفرنج، وتسبب بكتبهم الكبرى في المنصورة.

إن نصر معركة المنصورة الذي حققه المماليك البحرية سيكون له دور كبير في شعورهم بأنهم قوة كبرى تسيطر على الجيش بكامله، وأن دورهم قد حان ليبدلوا بدلوهم في تقرير مصير السلطنة والوزارة، بعد موت السلطان، واستشهاد قائد الجيش، وتوليهم إدارة دفة المعركة مع الفرنج.

إن قوة المماليك البحرية وانتصاراتهم تُعيدنا - مرة أخرى - إلى مقارنتهم ببني جنسهم مماليك المعتصم، الذين حققوا له انتصارات عظيمة، وجعلوه يُفكر بتحقيق ما عجز عنه أسلافه من خلفاء بني العباس. فقد قام المعتصم مع مماليكه الأتراك بغزو الروم، وأنكى بهم "نكابة عظيمة لم يُسمع بمثلها ل خليفة"، كذلك فكر بالسّير إلى الأندلس لاسترجاعها من الأمويين⁽²⁾.

1 - كنز الدرر، ابن آبيك، 7 / 376.

2 - تاريخ الخلفاء، السُّيوطي، 223.

المبحث الثاني

المماليك وآخر سلاطين الأيوبيين في مصر

توفي الصالح أيوب والسلطنة تمرّ بمحنة قاسية، فالفرنج - بعد احتلالهم لدمياط - يضغظون على قوات الصالح، وهم مُصمّمون على الزحف نحو القاهرة. وفي هذه الأوقات العصيبة تكون البلاد والجيش بحاجة ماسة إلى زعيم قوي الشخصية، مهاب الجانب، بقدر ما هو محبوب. ومع أن الصالح قد طال مرضه، ولا بُدَّ أنه توقع الموت، فلم يُوص بخليفة له، ويبدو أن ابنه الوحيد المُعظم ثوران شاه⁽¹⁾ كان لا يتمتع بثقته، بل ربّما كان على غاية الاستياء منه، فتركه شبه مُتفّي في حصن كيفا، وكأنّه يعيد ما فعله الكامل معه بنفيه إلى بلاد الشرق. أمّا بقية أهله من آل أيوب؛ فلم يُجرب منهم إلا الإساءة والغدر، وخاصة ما جرى له منهم في أخذ دمشق منه، وفي سجنه في الكرك. فعندما أحسّ أيوب بدنو خطر الموت منه، عند اضطراره للسفر مريضاً إلى الشام عام 645 هـ 1247م، ترك وصية من أغرب الوصايا، فقد استدعى حُسام الدين بن أبي علي نائبه في القاهرة، وقال له: "إني مسافر، وأخاف أن يعرض لي موت، وأخي العادل بقلعة مصر، فيأخذ البلاد، فإن حدث لي في سفري هذا مرض، فأعدمه، وولدي ثوران شاه لا يصلح للملك، فإن بلغك موتي، فلا تُسلم البلاد لأحد من أهلي، بل سلمها إلى الخليفة المُستعصم"⁽²⁾. إنَّها وصية انتقام من كُلِّ أهله، من أخيه العادل لقتله، حتّى لا يتمتع بالحياة، أو بالحُكم من بعده، ومن ابنه، ومن أهله، ونستطيع أن نلاحظ هنا بأن أيوب لم يدرك أنّه زرع قوة جديدة في الدولة هي التي ستُقرّر من سيخلفه، ولن تلتفت إلى وصيته أبداً، وكأنّه لا يعرف أن الخليفة المُستعصم أضعف من أن يتسلم إحدى قرى العراق من أمير صغير، فكيف يتسلم مصر على ما فيها من القوى والطامعين؟! هذا؛ إن كانت هذه الوصية حقيقية.

ولكن المؤكّد في الأمر أن الصالح أيوب لم يؤهّل خليفة له يتولّى السلطنة من بعده كما فعل السلطان العادل بأبنائه، وكما فعل السلطان الكامل بالعادل الثاني.

1 - ثوران شاه: اسم تركي من مقطعين، توران: الشرق، وشاه: ملك، (شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 50).

2 - مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 375.

قبيل وفاة الصالح أيوب كانت القوى الظاهرة في سلطنته موزعة ما بين ابن أبي علي نائب القاهرة، وفخر الدين بن الشيخ قائد العسكر، ولكن؛ بعد موته، ظهرت قوى جديدة على الساحة، فجارتها السابقة، التي أصبحت زوجته، ثم أرملة، شجر الدر، دخلت - بقوة - حلبة الصراع على السلطة، مدعومة بقوة تطل على الساحة لأول مرة هي قوة المماليك البحرية، وشجر الدر تعد منهم. وكان بديهاً في تلك الظروف العصبية للدولة أنه ليس من المصلحة إظهار التنافس على الحكم، فمن يتصدى لهذا الموقع سيكون أول الأهداف لبقية القوى، ومع أنه لم يتم تداول علني، أو اتفاق مبرم بين الأطراف، فقد كان هناك إجماع على استدعاء ثوران شاه، وتوليته السلطنة.

ثوران شاه في مصر:

وصل ثوران شاه إلى مصر، ومعه حاشية صغيرة، لم يحسن انتقاءها أبداً لمرافقته إلى كرسي السلطنة، فهي قد تلبق بأمير حصن صغير في أقصى البلاد، لكنها غير مؤهلة، وغير قادرة على مساندة سلطان دولة كبيرة تمر بظروف صعبة جداً⁽¹⁾.

ولما وصل ثوران شاه المعسكر تسلّم صلاحيات والده كاملة، وإضافة إلى عدم تأهيله، أو خبرته السابقة، كان مصاباً بمرض عصبي، وتتابه حركات غير إرادية، "فيتحرك كتفه الأيمن مع نصف وجهه، وكثيراً ما يولع بلحيته"⁽²⁾، ويبدو أنه كان به خفة، وعدم تعقل، أو قدرة على إدراك أغوار السياسة، فقد جاء برغبة الجميع كحل مؤقت للموقف المتأزم، وجاء لا يملك إلا حقّ الوراثة، مقابل شخصيات تملك حقّ الحكم الحقيقي للدولة بقوة الأمر الواقع، فلم يدرك كل هذا.

ومع أن الفرنج قد تكفلوا بإزاحة أكبر العوائق أمام حكم ثوران شاه بقتلهم لفخر الدين بن الشيخ، لكن؛ بقيت أمامه عقبات لا يستهان بها، وهي تتمثل بشجر الدر زوج أبيه، وخلفها المماليك الصالحية، وكان ثوران شاه قد شعر بالخطر الداهم من قبل شجر الدر والمماليك بعد وصوله مباشرة، فجعلهم همه وإهتمامه، وأخذ يهددهم، ويتوعددهم⁽³⁾، لكنه - على أي حال - لم يقدر هذا الخطر حقّ قدره.

1 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 180.

2 - شفاء القلوب، أحمد الحنبلي، 427.

3 - أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 38، وعقد الجمان، العيني، 1 / 23.

وكما اتفق الجميع على استدعاء ثوران شاه لتوليته السلطنة، اتفق الجميع - بعد شهر واحد - على قتله، والتخلص منه⁽¹⁾، وقد تؤيد ابن بيبس الدواذر بقوله: "أساء ثوران شاه مع ممالك والده التدبير، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه"، ولكننا لا تؤيده عندما يتابع فيقول: "ولعله - لو أنصفهم - لم تمتد أيدي النواب إليه"⁽²⁾، فالمماليك البحرية، الطائفة العسكرية الأكثر شباباً، والمنظمة بشكل جيد جداً، كانوا سيقتلون أي شخص يستلم السلطة، فقد شعر مقدّمو المماليك بقدرتهم العسكرية بعد اختبار المنصورة، وبقدرتهم على قيادة الجيش والبلاد، فاعتقدوا بأحقّيتهم بالحكم، وأهليتهم له، فبيبرس البندقداري كان قائد قوة الفرسان، وهو صاحب مآثرة المنصورة، وأقضي قائد الجيش العام، الذي تصدى للقوات الرئيسية للملك لويس، وألحق به خسائر فادحة بعد معركة المنصورة، وكل ذلك بعد وفاة أيوب، وقبيل وصول ابنه ثوران شاه. إن ما أظهره المماليك البحرية من قوة وجلد في هذه المعارك دفعت المؤرخ ابن واصل ليلقبهم بدواوية الإسلام، تشبيهاً بفرقة الدواية، أشرس الفرق المقاتلة لفرنج الساحل الشامي.

كان إلحاح ثوران شاه على شجر الدر، ومطالبتها بأموال أبيه وجواهره، فاتحة الشر بالنسبة إليه، فهذا العمل ضدّ أرملة السلطان، مهما كانت دوافعه، قد أساء كثيراً لثوران شاه، وألب الناس ضده، وخاصة المماليك الصالحية، وأدخل سلطنة ثوران شاه في حيز الخطر الحقيقي. ولكن؛ هل كانت مطالبته بالمال والمجوهرات لحاجة فعلية؛ لدعم الأعمال الحربية مثلاً؟ أم أنها كانت مجرد مضايقة شجر الدر؟! ومهما كانت الأسباب، فقد أدركت جدية الأمر، ممّا جعلها تهرب منه إلى القدس⁽³⁾. ربّما كان ثوران شاه يحتاج - فعلاً - للمال الذي احتجته شجر الدر، فقد كان من غير المعقول أن يتجنّى عليها، وخاصة أنها الساعية الكبرى لاستقدامه من الشرق، وتوليته.

1 - النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 370.

2 - زبدة الفكرة، الدواذر، 3.

3 - النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 370.

والمُهم في الأمر أن عدااء المماليك لثورانشاه لم يكن بسبب شَجَر الدَّر فقط، فمن المعروف أن ولاء المماليك - غالباً - ينتقل بعد وفاة أستاذهم إلى ابنه، وهذا ما بدا للوهلة الأولى، فقد ذهب أقطاي الأكبر⁽¹⁾ بنفسه إلى حصن كيفا لاستقدام ثورانشاه⁽²⁾، وفي الطريق؛ وعده ثورانشاه بأن يُقطعه الإسكندرية، ولما لم يُنفذ ذلك، نار غَضَبُ أقطاي عليه، فأخذ ثورانشاه يُهدده، ويتوَعَّده بحَبْسِه في الجبِّ، فكتم له الشَّرَّ⁽³⁾. وإذا أردنا أن نفتش على عذر لثورانشاه وعدم تنفيذ وعده لأقطاي، فربما نجد ضيق الوقت، وانشغاله بحرب الفرنج، وربما كانت البداية إلحاح أقطاي، وتجاهل ثورانشاه.

ولم يكتف ثورانشاه بإثارة عدااء أقطاي، بل قام بعمل أخرق آخر؛ حيث عزل ابن أبي علي عن نيابة القاهرة⁽⁴⁾، ففقد بذلك الشخص الوحيد الذي كان من الممكن أن يثق به، والثقل المرجح الذي كان قد يؤثّر كثيراً في صراعه القادم مع ممالك أبيه، الذين قرروا الإسراع في قتله قبل خُرُوج الفرنج من دمياط، فقد قدر المماليك أنه لو تمَّ النصر، وانتهت العمليات العسكرية، فيمكن لثورانشاه عندها التمكن منهم، وربما القضاء عليهم.

فلم يتقرب ثورانشاه للمماليك أبيه، ولم يُكرمهم كما كانوا يتوقعون منه بعد مساعدتهم له في تولي السلطنة، وبعد تحقيقهم النصر على الفرنج، بل على العكس، قَرَّب حاشيته التي رافقته من حصن كيفا، ولأهم المناصب، وعزل ممالك أبيه، ثم أخذ يتهددهم، فاتفقوا على قتله⁽⁵⁾. لكن؛ ألم يشعر ثورانشاه - بعد كُلِّ ما فعله مع شَجَر الدَّر والمماليك - بالخطر من ناحيتهم؟ إن عدم احترازه يدلُّ على عدم شعوره بالخطر، فلو كان يُقدِّر خطر المماليك حقَّ قدره، لاحتز منهم، وخاصَّة مع وجود طوائف عسكرية أخرى كان بإمكانه استمالتهم، لكنَّه لم يفعل. كما كان بإمكانه أن يعيد خطوة جدّه

1 - أقطاي الجمدار الصالح، كبير المماليك الصالحية ومُقدِّمهم (دول الإسلام الشريفة البهية، القدسي، 25)، - ترجمته في: دَيْل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 188، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 190، والوافي بالوفيات، الصفدي، 9 / 317، وكنز الدرر، ابن أبيك، 8 / 24، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 255.

2 - الإعلام والتبيين، الحريري، 97.

3 - دَيْل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 185.

4 - دَيْل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 185، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 427.

5 - أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 38 وعقد الجمان، العيني، 1 / 23.

الكامل بالهرب من المعسكر، وإفشال مؤامرة المماليك، كما أفضل جدّه مؤامرة ابن المشطوب، ولكنَّه - أيضاً - لم يفعل، حتَّى هاجمه المماليك، وقتلوه، دون أن تمتد يد واحدة لمساعدته.

ومرّة أخرى؛ يُذكرنا قتل ممالك الصَّالح أئوب الأتراك لابنه ثورانشاه بقتل ممالك المعتمد الأتراك لابنه المتوكل سنة 247 هـ - 861 م⁽¹⁾، لكنَّ العمليتين المتشابهتين ستكون لهما نتائج مختلفة، فالمماليك الأتراك في بغداد، مع أنهم سيطروا - تماماً - على الحُكْم، لكنَّهم فضَّلوا القيام به خلف واجهة الخلفاء، فتلاعبوا بهم، يُقيمونهم في الخلافة، ويعزلونهم، ثم يقتلونهم، ويسملونهم كما يُريدون.

أمَّا في مصر، فبعد قتلهم لابن أستاذهم؛ قاموا بانقلاب عسكري كامل، وتولَّوا السُّلطة مباشرة عبر تقلد أحد قادتهم لمنصب السُّلطان، وأسَّسوا - بذلك - دولة جديدة، ونظاماً جديداً.

1 - تاريخ الخلفاء، السيوطي، 323، وتاريخ الأمم والملوك، الطبري، 9 / 227.

المبحث الثالث

الانقلاب العسكري للمماليك وتوليهم السلطة

كان فخر الدين بن الشيخ يُدرك - تماماً - أن أيام السلطان أيوب معدودة بسبب مرضه⁽¹⁾، وأنه لا خليفة مُحتمَل له من أهل بيته، وهذا ما جعله يُفكر بالوُصول إلى السلطة، إضافة إلى تمكُّنه من السيطرة الكاملة على مُعظم فرق الجيش، واستئثاره لشَجَر الدُرّ جارية السلطان وزوجته.

أما مَنْ يقفون ضدَّ مُحطَّطاته؛ فقد كان أبرزهم ابن أبي علي نائب السلطان في القاهرة، فقد كان كَلَّ منها يترصد الآخر، ويخشى انفرادَه بالسلطة. أما فرقة المماليك البحريَّة، وهم حرس السلطان وقُوَّاته الخاصَّة؛ فلم يكن من المُمكن التكهُّن بموقفهم بعد وفاة السلطان، ولذلك؛ دخل فخر الدين في لعبة استدعاء ثورانِشاه من الشَّرق⁽²⁾، ليخلف والده، استرضاءً لهم، على أمل أن يتمَّ استيلاؤه على السلطة مرحلياً. لكنَّ واقعة المنصورة لم تمهله ليتمَّ ما دبر، ومع ذلك؛ فقد استمرت الخطَّة بدونه، لدُخول أطراف جديدة فيها، كان أبرزها شَجَر الدُرّ، التي تكفَّلت بالغطاء السياسي للانقلاب، وقُوَّة المماليك البحريَّة، الذين كُونوا القُوَّة العسكريَّة له، بواسطة مُباشرة، وبواسطة فرق المماليك الأخرى، وبقية الجُند عن طريق الاتفاق المُباشر معهم، أو عن طريق سكوهم على ما يجري لعدم اهتمامهم، أو أملاً باستغلال الطُّروف الناشئة. فكلُّ طرف كانت له حساباته الخاصَّة، لكنَّها كُلُّها صبَّتْ ضدَّ مصلحة ثورانِشاه، الذي جعل من نفسه هدفاً سهلاً بعدم أهليَّته للقيادة، وعدم تقديره لقُوَّة خصومه، واستهتاره بهم، ولكن؛ حتَّى بدون كُلِّ ذلك، فما كان ليتغيَّر من الأمر شيء، فظُرُوف القتال مع الفرنج وتوزُّع السلطات وتشكيلة قوى الجيش القديمة والجديدة كُلُّها كانت تُحتمُّ قيام تحرُّك سياسي وعسكري كبير ضدَّ السلطة المركزيَّة، وتُشير إلى أنه قد حان أوانه، واكتملت أركانه، فهناك قيم جديدة، ومفاهيم جديدة، وتكتلات وولاءات جديدة، إنَّه انقلاب بكلِّ نواحي الحياة، حتَّى إنَّه بدا أن كُلَّ التغيرات قد تمَّت في الدولة، ولم يبقَ سوى رأس السلطة، فلو لم يمت أيوب لهبَّت العاصفة في وجهه، وكادت أن تهبَّ لولا مرضه الشديد، فواجهها ابنه الذي سرَّع بهبوبها، لعدم

1 - السُّلوك، المقرئ، 1 / 439.
2 - تحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2 / 146.

درايته بالأوضاع المستجدة في مصر، ويتحمَّل والده أيوب جزءاً كبيراً من هذه النهاية المأسوية التي تعرَّض لها، فقد تركه منبوذاً في أقصى الشَّرق، بعيداً عن أغوار السياسة ومشاكل السُّلطنة، ورُبَّما لهذا لم يعهد له بولاية العهد.

اغتيال السلطان والاستيلاء على السلطة:

لقد قرَّر المماليك البحريَّة قتل ابن أستاذهم لعدَّة أسباب، لكن؛ كُلُّها يُمكن أن لا تُعبر عن الحقيقة في اتِّخاذهم لهذا القرار، وخاصَّة أنَّهم مُحامته وحرَّسه كما هو مفروض، وهذا أقلَّ واجباتهم تجاه ابن أستاذهم وسلطانهم. والغريب في الأمر أنَّهم هاجموا علناً، وفي دهليزه ومجلسه، فقد دخل بيرس، الذي ظهر مؤخَّراً في معركة المنصورة، مع عدد من البحريَّة، وضربه بالسيف، فتلقَّاه ثورانِشاه بيده، فقطع أصابعه، فارتبكوا، وهربوا⁽¹⁾. إنَّها رهبة السلطان، والغريب في الأمر أن يُهاجم السلطان في مُعسكره، وضمن جنده وحرَّاسه بهذه السُّهولة، والأغرب من ذلك أن ثورانِشاه بعد هرب المُهاجمين لم يتحصَّن، ولم يهرب، ولم يتخذ أيَّ إجراء، ولكنَّنا لا ندرى هل حاول، ولم يتمكن؟! أم كان كخروف الأضحىَّة، الذي يعرف الجميع مصيره، ويوافق الجميع على ذبحه؟!.

وعاد إليه البحريَّة يقودهم مُقدِّمهم أقطاي، فأجهز عليه من بدأ بضربه أولاً، وهو يبصر، "ضربه البندقداري بالسيف على عاتقه، فوقع قطعَتين"⁽²⁾، وهُنا؛ نميل لتأكيد رواية جوافيل الذي شاهد عملية الاغتيال بنفسه، وقال: إنَّ مَنْ قَتَلَ السلطان هُم حرَّسه الشخصي، وقد قُدِّر عددهم بخمسمائة فارس⁽³⁾، وهذا يوضِّح الأمر، فليسيطرهم على مقرَّ القيادة انفرادوا بالسلطان، وقتلوه دون أيِّ مُقاومة. ويُضيف جوافيل: "إنَّ فارس الدِّين أقطاي شطره بسيفه، واستخرج قلبه من جسده"، وحمله إلى لويس طالباً مكافأته⁽⁴⁾، وغالباً؛ فهذه إحدى مبالغات جوافيل. والشخص الوحيد الذي حاول التدخُّل لحماية ثورانِشاه هو رسول الخليفة نجم الدِّين البادرائي⁽⁵⁾، الذي استفزع أن يُقتَلَ

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 180، وذيل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكَّار، 20 / 364.

2 - ذيل الروضتين، أبو شامة، 185.

3 - سيرة القديس لويس، جين جوافيل، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكَّار، 36 / 133 - 135.

4 - سيرة القديس لويس، جين جوافيل، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكَّار، 36 / 135.

5 - البادرائي: (594هـ - 1197م + 655هـ - 1257م)، هو نجم الدِّين عبد الله أبو مُحَمَّد، يُنسب إلى بادراء من قُرى أصفهان، ترسَّل عن الخليفة مرَّات عدَّة، وولي قضاء العراق في آخر أيامه. راجع ترجمته في: لبَّ اللباب، السُّيوطي، مادة: بادراء وطبقات الشافعية، السبكي، 5 / 113.

سُلطان المسلمين بهذه الطريقة، ويبدو أن صوت البادراني كان من الضعيف؛ بحيث أن تهديداً بسيطاً من الممالك البَحْرِيَّة "بإخراق حُرمة الخلافة" (1) كان كافياً لإسكاته.

وإن دَلَّ هذا التَّصَدِّي العنيف لرسول الخليفة على شيء، فهو يدلُّ على عدم احترام كامل من قِبَل الممالك للشرعية، فهو عدم اعتراف ضمني بها، أو جهل بموقعها، وبما تُمثله، فلا الشرعية الأثيوبيَّة كان لها قيمة عندهم عندما قتلوا السُلطان الشرعي، ولا شرعية الخلافة وهي الشرعية الكُبرى عندما هَدَدُوا رسول الخليفة ومُثله بالقتل، إنَّها رُوح جديدة ومفاهيم جديدة لعصر بدا أنَّه يبدأ بهذه الأحداث الجسام.

نتائج مقتل ثورانشاه في الشَّام:

1- في الكَرْك: كان الملك المُغيث فتح الدِّين عُمر بن الملك العادل بن السُلطان الكامل مسجوناً في قلعة الشوبك، وكان نائب الكَرْك والشوبك الأمير بدر الدِّين لُؤْلُؤ الصَّواري الصالحي، فقام النائب بعد مقتل ثورانشاه بإطلاق المُغيث، وسلَّمه قلعَتَي الكَرْك والشوبك (2)، وكانتا تتبعان لسلطان مصر.

2- في الصَّيبِبة (3): استغلَّ الملك السعيد حسن بن عُثمان بن السُلطان العادل بن أيُّوب (4)، ظُروف اختلال السُّلطة بعد مقتل ثورانشاه، وهرب من القاهرة، وعاد إلى الصَّيبِبة سنة 648 هـ، وكان قد ملكها بعد موت أخيه أيُّوب بن عُثمان، ثُمَّ تنازل عنها للصَّالح أيُّوب، مُقابل إقطاع في مصر (5).

1- دَبِيل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 185، - إخراق حرمة الخلافة: المقصود بها خرق حرمة الخلافة من خلال التعدي على رسول الخليفة، أو قتله، وليس كما فهمها د. أحمد مختار العبادي بالدعوة لخلافة أخرى كالمُوحَّدين. (تاريخ الأثيوبيين، 94)، ونرجَّح أن هذا شيء بعيد جداً عن تفكير الممالك في ذلك الوقت.

2- المختصر، أبو الفداء، 3 / 182

3- الصَّيبِبة: حصن بناه الملك العزيز عُثمان بن العادل بن أيُّوب وهو قلعة بانياس. (ترجمته في: مرآة الزَّمان، ابن الجوزي، 8 / 847 - البداية والنهاية، ابن كثير 13 / 137 وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 320 والتَّجُوم الرَّاهِرة، ابن تغري

بردي، 6 / 281 والدارس، النعمي، 1 / 549 وشذرات الذهب، ابن العباد، 5 / 136.

4- ترجمته في: دَبِيل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 207، والسُّلُوك، المقرئ، 1 / 441، وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 360، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 13 / 225، وشذرات الذهب، ابن العباد، 5 / 292، وترويح القُلُوب، الزبيدي، 71.

5- المختصر، أبو الفداء، 3 / 182.

3- في دمشق: بعد مقتل ثورانشاه كاتب أمراء البَحْرِيَّة في مصر أمراء دمشق لموافقتهم وأتباعهم (1)، فلم يُجيبوهم (2)، فقد كانت القيصرية (3) أكبر قُوَّة مملوكية عسكرية في دمشق، ولم يكتفوا بعدم مُوافقة البَحْرِيَّة، بل أرسلوا إلى الناصر يُوُسُف الثاني صاحب حلب وحصن يطلبون منه الحُضور لتسليمه دمشق، وأيدهم - بذلك - جمال الدِّين بن يغمور نائب دمشق، واعتقلوا جماعة من أمراء البَحْرِيَّة في دمشق (4)، ويبدو أنَّهم كانوا قَلَّة فيها؛ بحيث لم يتمكنوا من المقاومة، وتبع ذلك قبض البَحْرِيَّة على مَنْ كان من القيصرية بمصر.

وإذا حاولنا استقراء أسباب خُروج دمشق على بَحْرِيَّة القاهرة، نجد أن أهمَّ الأسباب هو التنافر والتحاسد بين طوائف الممالك، وخاصَّة لعلَّة الجنسية، فالبَحْرِيَّة أترك، بينما القيصرية أكراد، إضافة إلى أن البَحْرِيَّة في مصر قُوَّة مُسيطرَة بيدها كُلُّ المناصب الهامَّة من أيَّام الصَّالح أيُّوب، ويملكون القُوَّة العسكريَّة الأكثر تنظيمًا وفعاليَّة، بينما تعيش دمشق حالة من توازن قوى بين طوائف عدَّة من الممالك، وغيرهم، فكان من مصلحة أمراء دمشق استمرار الحُكم الأثيوبي، لذلك؛ استدعوا الناصر يُوُسُف من حلب، الذي وجد أن القسم الأوَّل من مشروعه وهو مُلك الشَّام مُوحَّدة قد تحقَّق بِيسر وسُهولة، فأخذ يستعدُّ لتحقيق القسم الثاني، وهو ملك مصر، وكان يُدرك مدى المخاطر، والصُّعوبة في ذلك، ولكنَّه كان مدفوعاً بهاجس إعادة الأجداد الأثيوبيَّة، ورُبَّما كان لاسمه تأثير في ذلك، فأخذ يُقلِّد جَدَّه وسميَّه السُلطان صلاح الدِّين، الذي لم يكن يملك من مزاياه إلاَّ الاسم، لكن؛ ممَّا لا يُنكر له أنَّه أعاد توحيد الشَّام من جديد.

ورُبَّما للظروف القاسية المحيطة بالبيت الأثيوبي التي أخذت تُهدِّده بالزوال، فقد التفَّ بنو أيُّوب جميعاً حول الناصر يُوُسُف الثاني سُلطاناً للبيت، وطالبوا باسمه مُثلاً للشرعية الأثيوبيَّة بِحُكم مصر، وإقصاء الممالك عنها.

1- دَبِيل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 185.

2- المختصر، أبو الفداء، 3 / 182.

3- القيصرية: ممالك أكراد، من قلعة قيصر، وهي بين الموصل وخراسان. راجع: لب الباب، السُّبُوطي، 112.

4- المختصر، أبو الفداء، 3 / 183

وكان من مُجمل ما شَنَّه الأيوبيون على المماليك في مصر ضمن حريمهم الإعلامية ضدهم، أن المماليك قد أطلقوا لويس ملك فرنسا الأسير طمعاً بالفدية⁽¹⁾، ولكن؛ ما لا يمكن لأحد نُكرانه هو اتفاق المماليك مع لويس بعد إطلاق سراحه لنصرتهم ضدَّ الملك النَّاصر مُقابل تسليمه القُدس⁽²⁾.

المرحلة الانتقالية (مرحلة شَجَر الدَّر):

مع أن السُّلطة أصبحت فعلياً بأيدي المماليك بعد قتلهم لثوران شاه، ولعدم وجود مُطالب قوي بالعرش، فقد كانوا في حالة من الإرباك، لأن هذا التحوُّل الحادَّ لأبد له من مُبررات شرعية، ولأبد له من إخراج قانوني يُراعي المظاهر على الأقل، فبرزت شَجَر الدَّر زوجة السُّلطان الأيوبي المتوفى، وهي أم ابنه خليل الذي مات صغيراً، ومن هُنا؛ استمدت شرعيَّتها، فَتَسَمَّت والدة خليل، وبه وقَّعت الكتُب⁽³⁾، وهي - في الوقت نفسه - جارية من طبقة المماليك، وخاصَّة أنَّها كانت المُدبِّرة لملكة زوجها، وبالفعل؛ فقد قادت الدولة بكفاءة عالية مُنذُ موته وحتى إعلان وفاته رسمياً⁽⁴⁾.

فقرَّر المماليك رَفَع شَجَر الدَّر إلى سُدَّة السُّلطنة، لتكون الرأس السِّياسي للدولة، لما تحمله من شرعية، ولكونها من المماليك. وقد بدت شرعيَّتها ضعيفة جدّاً خاصَّة كونها امرأة، وتمَّ تَفادي الأمر بتعيين عزَّ الدين آيبك - وهو من مُقدِّمي البُخريَّة⁽⁵⁾ - قائداً للجيش - مُقدِّم العسْكر - على أن يتزوَّج بشَجَر الدَّر.

وإذا تساءلنا عن سبب عدم تقدُّم أقطاي كبير البُخريَّة أو بيبرس بطل المنصورة، فإن الأحداث القادمة ستحمل الإجابة، وتجعلنا نعتقد أن أقطاي كان يطمح بمنصب السُّلطنة، وقد أصبح - فعلاً - السُّلطان غير المتَّوج، قبل أن يُقتل غدرًا⁽⁶⁾، أمَّا بيبرس البندقداري؛ فلا بُدَّ أنَّه كان يُدرك أن دوره لم يحنَّ بعد، وأن عليه أن يتعلَّم الكثير قبل أن يصل إلى السُّلطنة، وقد وصلها فعلاً،

1- المُدوان الصليبي، جوزيف نسيم يُوسف، 3 / 143.

2- راجع نص الاتفاقية: المُدوان الصليبي على الشَّام، جوزيف نسيم يُوسف، 177.

3- المُختصر، أبو الفداء، 3 / 182.

4- دُول الإسلام الشريفة، القدسي، 25.

5- آيبك: الأمير عزَّ الدين آيبك الجاشنكير التركماني الصالحي من مُقدِّمي البُخريَّة، وأوَّل مَنْ تملَّك من الطائفة التُركيَّة. زبدة الفكرة، الدَّوادار، 3، وعقد الجمان، العيني، 34، - والجاشنكير: هو الذي يتذوَّق الطعام والشراب قبل السُّلطان، وهو لفظ فارسي من مقطعين. راجع كتاب: صُبح الأعشى، القلقشندي، 5 / 460.

6- زبدة الفكرة، الدَّوادار، 10.

وكأنَّه كان يُخَطِّط للأمر من قبل، يقول ابن تغري بردي: "تسَوَّف إلى السُّلطنة عدَّة أمراء، فخيف من شرِّهم، ومال الناس إلى آيبك المذكور، وهو من أواسط الأمراء، ولم يكن من أعيانهم... وقالوا: هذا متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته"⁽¹⁾.

لم يطل عهد شَجَر الدَّر أكثر من ثمانين يوماً في دست المملكة، فلاعتراضات على ولاية امرأة للمُسلمين كانت كثيرة، والمشاكل التي تعرَّضت لها الدولة كبيرة، وأعداؤها في الشَّام النَّاصر والمُغيث يستعدُّون أهلها ضدَّ المماليك في مصر، وعلى رأس كُلِّ هؤلاء الخليفة العبَّاسي المُستعصم، الذي اعترض على ولاية امرأة، فاضطرَّ المماليك البُخريَّة أن يطلبوا من شَجَر الدَّر التنازل عن السُّلطنة إلى زوجها آيبك ليُرضوا الخليفة، وهو الشرعية الكُبرى الضرورية لهم في تلك الظُّروف⁽²⁾.

لقد كانت ولاية شَجَر الدَّر قنطرة عبرت عليها السُّلطنة من بني أئوب إلى المماليك، علماً أن هذه العادات لوراثية العرش عبر امرأة لم يعرفها العرب المُسلمون، وهُنا؛ يجب أن نلاحظ أنَّها تمَّت وفقاً لعادات غربية، ربَّما تتوافق مع العادات القديمة لشعوب التُرك، أو أنَّهم اقتبسوها عن الفرنجة، الذين طال الاحتكاك بهم.

ولكن؛ حتَّى يتسلَّم آيبك العرش، فمع أنَّه رجل تبقى هُناك مُشكلة، فهو مملوك، وهذا شيء جديد لم تعتده الناس بعد.

1- النُجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 4 / 7.

2- بدائع الزهور، ابن إياس، 1 / 278، وراجع مناقشة ذلك في: مملكة حلب الأيوبيَّة، كمال بدور، 168.

المبحث الرابع

الردّ الأيوبي على انقلاب المماليك

استجذت أُمُور هامة هددت الدولة المملوكية الوليدة، فقد استولى الناصر صلاح الدين الثاني ملك حلب على الشام، والتفّ حوله البيت الأيوبي، ورفض الناصر سياسة الأمر الواقع، وأخذ يطالب باسم الشرعية بحق البيت الأيوبي في ملك مصر، ممّا شكّل خطراً حقيقياً على المماليك البحريّة، الذين لجؤوا إلى حيلة قديمة، فقد تنصّل آيبك من السلطنة⁽¹⁾، ورفعوا لمنصب السلطنة صبيّاً صغيراً من بني أيّوب⁽²⁾، هو موسى بن الناصر يوسف بن أنسز بن الكامل، ولقبوه الملك الأشرف، وخطبوا له على المنابر، وسكّوا العملة باسمه، وعيّن آيبك نفسه أتابكاً له، ومقدّماً على العسكر⁽³⁾، وما كُئِلُ ذلك إلّا ليُطْلوا ادّعاء الناصر يوسف بحقه الشرعي بحكم مصر.

ولكن الأُمُور العسكريّة تعقّدت، وبدأت الحلقة تضيق حول البحريّة، فقد تقدّم عسكر الناصر يوسف من دمشق، واحتلوا غزّة، الموقع المتقدّم لمصر، وبوابة الشام، ففرّ مَنْ كان بها من عسكر مصر عائدين، وعسكروا في الصالحية⁽⁴⁾، وأعلنوا طاعة الملك المغنيث صاحب الكرك، وخطبوا له.

إنّه دليل واضح على اختلاف طوائف المماليك، واحتجاج على تفرد آيبك والبحريّة بالسلطة، وعملياً، هو هُجُوم مُزدوج لبني أيّوب باتجاه مصر لطرد البحريّة، فطرف منه هُجُوم الناصر العسكري، والطرف الآخر انضمام فرقة من الجيش المصري إلى المغنيث، وهي في قلب مصر. عندها؛ شعر البحريّة بالخطر يُحدّق بهم، فأعلنوا أن البلاد للخليفة المستعصم، ونادوا - بذلك - في القاهرة وبلاد مصر⁽⁵⁾.

1- تاريخ الخلفاء، السيوطي، 418.
2- كان عمره ست سنوات في: السلوك، المقرئزي، 1/ 367، - وثماني سنوات في: تاريخ الخلفاء، السيوطي، 418، -
وعشر سنوات في: النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 5 / 7.
3- السلوك، المقرئزي، 1/ 367، وبدائع الزهور، ابن إياس، 1/ 1 / 287، والمختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 234.
4- الصالحية: بليدة شرق القاهرة على طريق الشام.
5- المختصر، أبو الفداء، 3 / 183.

إنّها عودة لوصية الصّالح أيّوب تناسوها عندما تمكّنوا من الأمر، وتذكّروها عندما كادت الأُمُور تفلت من أيديهم، وسيعودون لنسيانها قريباً، وبالوقت نفسه؛ تحرّك البحريّة عسكريّاً، فقد شكّلوا قوّة فرسان كبيرة بقيادة أقطاي، أنهت أمر مُتمرّدي الصالحية، وطردت قوّات الناصر من غزّة⁽¹⁾، ممّا أثبت نيّة البحريّة على المقاومة، وعدم الاستسلام بسهولة.

ولكن انتصار المماليك على حامية غزّة، واستردادهم لها، لم يفتّ بعضد الناصر يوسف الثاني، فقد حزم أمره، وقرّر التحرك نحو مصر، ويبدو أنّه أجرى تقويماً للموقف العام، فقدّر موقعه من الأحداث التي تمر بها مصر، ولا بُدَّ أنّه لاحظ كثير من المعوقات أمام مشروعه، منها:

1- أن البحريّة قوّة عسكريّة لا يُستهان بها، وخاصّة بعد هُجُوم أقطاي على غزّة، وامتلاكهم لقادة عسكريين لامعين.

2- تسرّ البحريّة خلف شرعية الأشرف موسى الأيوبي.

3- محاولة كسبهم للخليفة بإزاحة شجر الدرّ عن السلطنة، ومُناداتهم بأنّ بلاد مصر للخليفة، وأنّ المعزّ آيبك نائبه فيها.

4- أفقَدَ البحريّة الناصر يوسف مؤيِّديه في مصر، بعد القبض على كُئِلِ موال له فيها.

ولكن؛ بالمقابل، كانت تلوح أمام الناصر كثير من المغريات تدفعه نحو مصر، منها:

1- أن الشرعية الأيوبيّة - التي انقلب عليها المماليك البحريّة - تُحوّله الحقّ في حُكم مصر.

2- علاقاته الجيدة مع الخليفة العبّاسي، والذي قدّر أنّه لن ينخدع بمحاولة المماليك لاسترضائه.

3- امتلاكه قوّة عسكريّة رُبّما لم تجتمع في الشام من عقود كثيرة، إضافة إلى وُجُود قائّد جيشه لؤلؤ الأميني، الذي كان محلّ ثقة كبيرة في مجال قيادة الجيوش، وتحقيق النصر.

4- اجتماع مع الناصر يوسف كافّة أمراء ومُلوّك البيت الأيوبي، في إجماع لتأييد سلطنته، وهذا لم يحصل - من قبل - إلّا نادراً.

5- أن الأشرف موسى - الذي أقامه البحريّة في مصر - ما هو إلّا صبي لا يتجاوز السادسة من عمره، وهو غطاء شرعي شفاف لا ينخدع أحداً.

1- السلوك، المقرئزي، 1/ 369، وذيل المختصر، ابن الوردي، 2/ 268، وعقد الجمان، العيني، 18 / 320.

ولكن؛ في الحقيقة، كانت هناك أمور كثيرة لم يلحظها الناصر، وستُفاجئه بها الأحداث المتلاحقة خلال غزوه لمصر، وربما سيكون من أهمها ظهور ما يُشبه العصبية المملوكية بشكل عام، وعصبية مملوكية تركية بشكل خاص.

سار الناصر بجيوشه من دمشق قاصداً مصر ومعه آل بيته، فهي حرب البيت الأيوبي ضد مُغتصبين ناكرين للجميل، ولحق التربية، ولم يتخلف عنه سوى المُغيث، الذي استولى على الكرك والشوبك، وأصبحت له مشاريعه الخاصة.

وتولّى قيادة جيش الشام شمس الدين لؤلؤ الأميني مُدبر المملكة، والذي كان من أكبر الداعين للهجوم على مصر، والذي كان يستهزئ بقوّات المماليك، ويقول: إنّه يستطيع أخذ مصر بيأتي امرأة⁽¹⁾.

بعد وصول أخبار تحرك الناصر نحو مصر، اجتمع قادة البحريّة، وقرروا التصدي للهجوم الناصر، وتولّى آيبك مهمات القيادة العسكرية بحكم موقعه، وكانت استعداداته قد تضمّنت - إضافة إلى تعبئة قوّات مصر - استخدام عرب الصعيد، مُحاولاً الاستفادة منهم في المعركة، كذلك لجأ إلى الحزب النُفسي ضدّ الناصر، مُحاولاً الإيقاع بينه وبين إسماعيل، أقوى شخصيّات بني أيّوب في الحملة، فأطلق ولديّ إسماعيل، وكانا في سجن القاهرة، وأحسن إليهما، وأشاع أنّه اتّفق مع أبيهما.

وحدثت المعركة المتوقّعة، ولكن؛ عكس كلّ التوقّعات كانت أحداثها، فقد صدّم جيش الناصر جيش المماليك بقوّة، جعلتهم ينهزمون نحو القاهرة، وخُيّل للجميع أن النصر قد تمّ، فانطلقت قوّة الجيش الشامي الأساسية بقيادة جمال الدين بن يغمور تطارد جيش مصر حتّى أبواب القاهرة؛ حيثُ نصب السراشق السلطانية، وانتظر وصول الناصر ليدخل عاصمة السلطنة، وصادف ذلك يوم جمعة، فخطب الأئمة في مساجد مصر ومسجد القلعة باسم الملك الناصر، ولكن الملك الناصر بقي في مكانه مُرابطاً، ومعه الفقهاء والقضاة⁽²⁾، ولشُغوره بعزّة النصر، فقد نشر أعلامه وسناجقه⁽³⁾.

1 - عقد الجمان، العيني، 39 / 1.

2 - يقول أبو الفداء عنهم: جماعة يسيرة من المُتعمّنين. (المختصر، 3 / 184).

3 - عقد الجمان، العيني، 39 / 1.

ولكن؛ حدث ما لم يكن بحسبان أحد، فقد صادف مُرور المعز آيبك سلطان المماليك ومعه قائد جيشه ومُقدّم البحريّة فارس الدين أقطاي مع بضع مئات من فرسان البحريّة، فشاهدوا سناجق الناصر، وليس معه إلّا حرسه الخاص، وهم المماليك العزيزية⁽¹⁾، ولا ندري مَنْ منهم اتّصل بمن، المُهمّ بالأمر أن الاتّصال بين العزيزية والبحريّة قد تمّ، وباع العزيزية ابن أستاذهم الناصر، وانضمّوا للبحريّة، فلم يجد الناصر أمامه إلّا الفرار نحو الشام؛ لينجو بجلده⁽²⁾. يقول جوانفيل، ولا ندري دقّة مصادره: إن السلطان عاد إلى الشام مجروحاً في رأسه وفي يده⁽³⁾.

بذلك أصبح آيبك والبحريّة في حالة جيّدة من القوّة، فقد استردّوا أنفاسهم، ودعموا بالعزيزية، وأجبروا الناصر على الفرار، فاندفع آيبك مع قوّاته بأنحاء فرقة من جيش الناصر كان يقودها مُقدّم الجيش لؤلؤ الأميني، فهزمهم، وأسر لؤلؤاً، وضرب عنقه على الفور، وكذلك فعل بضياء الدين القيمري أحد مُقدّمي القيمرية، الذين سلّموا دمشق للناصر⁽⁴⁾.

هذه المعركة الغريبة بمُجرياتها تستحقّ التوقّف مع بعض أحداثها، وطرح بعض التساؤلات: 1 - لماذا توقّفت القوّة الرئيسية للجيش الشامي، التي هزمت البحريّة، وطاردتها حتّى العبّاسيّة، ولم تدخل القاهرة، وتُنتهي أمر البحريّة نهائياً؟! ولو دخلوا القاهرة "لما بقي مع آيبك مَنْ يُقاتلهم"⁽⁵⁾.

ولا نجد لهم مُبرراً إلّا أن تكون قد وصلتهم أنباء هروب الناصر نحو الشام، فاختلّفت آراؤهم، وخافوا دُخول القاهرة، علماً أنّه من المشكوك فيه أن تصلهم الأخبار بهذه السّريّة.

2 - لماذا رابط الناصر في الكراع عند أرض المعركة، ولم يتحرّك خلف جيشه في مطاردته للمهزومين؟! وهنا؛ لا نجد تفسيراً إلّا التردّد والخوف، فربّما فضّل البقاء على حُدود الصحراء للهرب وقت الحاجة، أو دُخول مصر بعد استتباب الأمر فيها نهائياً.

1 - العزيزية: نسبة إلى العزيز مُحمّد بن غازي، فهم مماليك والد الناصر يُوسف.

2 - عقد الجمان، العيني، 40 / 1.

3 - سيرة القديس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكّار، 36 / 197.

4 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 185.

5 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 185.

3 - لماذا انضمَّ العزيزية للبحرية، وتركوا ابن أستاذهم ومربيهم وصاحب الفضل عليهم؟! يجتهد المقرزي فيجيب عن هذا السؤال بقوله: "كان مع الناصر جمع كبير من ممالك أبيه العزيز، وهم أتراك يميلون للبحرية لعلَّ الجنسية"⁽¹⁾.
أما نتائج المعركة؛ فإن أولها كان تثبت حُكم الممالك لمصر، وتاليها كان توالي الخسائر على الناصر، فكان حاله مثل حال الزرافة التي خرجت تطلب قرنين، فعادت بلا أذنين، فبعد عودته للشام مهزوماً، ثار عليه الملك المغيث، واحتلَّ نابلس في خطوة بدت وكأنها مطالبة بإعادة مملكة الناصر داود في الكرك، وكان المغيث عدَّ نفسه وريثاً شرعياً لها.

المبحث الخامس صراع المماليك على الحكم مشروع آيبك:

مع أن الصعاب قد عاجلت عزَّ الدين آيبك، لكنَّه كان يسير في مشروعه للحُكم على خُطى الملوك والسلاطين الأيوبيين، فقد تربَّى في مدرستهم، وعندما بدأ حُكم آيبك بالاستقرار في مصر بعد هزيمة الناصر، أخذ يستفحل أمر فارس الدين أقطاي، الذي التفَّت حوله البحرية، وكثر أتباعه، وأخذ يتصرَّف كأنَّه السلطان، ثمَّ أراد أن يدعم مركزه بغطاء شرعي لا يملكه السلطان آيبك نفسه، ورُبَّما كانت هذه الخطوة الأخيرة بتقديره قبل أن يزيع السلطان، ويتولَّى عرش المملكة، فقد أرسل أقطاي يخطب ابنة الملك المظفر الأيوبي من أخيها الملك المنصور صاحب حماة، الذي وافق على الخطبة، ورُبَّما كان ذلك تدبيراً أيوياً لتشجيع أقطاي ضدَّ آيبك. عندها؛ طلب أقطاي من آيبك أن يُفرد له مكاناً في قلعة الجبل، ليسكن به مع عروسه⁽¹⁾، والقلعة مقرُّ السلطان ورمزه، ولم يجد آيبك - وهو يرى الملك ينسلُّ من بين أصابعه - سوى الغدر وسيلة للخلاص من أقطاي، فدعاه إلى القلعة، وهناك؛ رتبَّ آيبك من اغتاله عام 652 هـ ولما بلغ الخبر البحرية "أجمعوا أمرهم على التوجُّه إلى الشام"، ففرَّ أمراؤهم الكبار قاصدين الناصر في دمشق⁽²⁾، واستنَّ آيبك سنَّة القتل في الصراع على السُلطة بين المماليك، والتي سيدوق طعمها هو وكثير من سلاطين المماليك من بعده.

انتهى عام 648 هـ 1250م، بأحداثه الجسام، وحاول الناصر يُوسف أن يتجاوز هزيمته في ذلك العام أمام المماليك المستولين على مصر، ففي مطلع عام 649 هـ 1251م، أرسل الناصر فرقة من عسكره إلى غزة، فأعادت السيطرة عليها، واعتقد المماليك أنَّها مُقدِّمة حملة جديدة للناصر على مصر، فخرجوا بجيوشهم، وعسكروا في السائح⁽³⁾. وهنا؛ تحرَّك الخليفة المستعصم، فأرسل رسوله البادراني إلى الملك الناصر صاحب الشام، يطلب منه مُصالحة المعزَّ آيبك، وأن يتَّفقا على حرب التَّار⁽⁴⁾.

1 - السلوك، المقرزي، 1 / 390.

2 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 12 - 13، وأخبار الأيوبيين، ابن العميد، 42.

3 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 186.

4 - طبقات الشافعية، السبكي، 5 / 113.

إذن؛ فالخليفة لم يتحرك حتى دفعه خطر التتار إلى ذلك دفعاً، فالصراع بين ملوك الأطراف كان - دوماً - لمصلحة الخليفة؛ لأنه يُضعف المتصارعين، أما الآن؛ فهو يُريد لهم أقوىاء لدغمه ضدَّ خطر قضى على كُُلِّ القوى الإسلامية في الشرق، ولم يبقَ للخليفة من دعم يُفكر فيه سوى الشام ومصر. وافق الناصر يُوسُف على القسم الأول من طلب الخليفة، وهو الصلح مع آيبك، وبالتأكيد؛ لم يُفكر كثيراً لا هو ولا آيبك من بعده في القسم الثاني، وهو نجدة الخليفة ضدَّ التتار، ويبدو أن الناصر قد وَجَدَ في الصلح الذي عرضه الخليفة حلاً سهلاً لمشكلة مُواجهته مع المماليك في مصر، التي كانت تزداد صُعوبة في كُلِّ يوم، فالمماليك اتَّصلوا بالملك لويس، أسيرهم السابق، وكان لا يزال في فلسطين، وطلبوا دعمه ضدَّ الناصر، مُقابل تسهيلات كبيرة يُقدِّمونها له في اتفاقية الصلح. كما كان الناصر يعيش في حالة رهاب حقيقي من مجموعات المماليك التي تُؤلَّف قسماً كبيراً من جيشه، وذلك بعد خيانة العزيزية، وهم أقربهم إليه بعد مماليكه. ففي عام 650 هـ - 1252 م، أرسل الناصر يُوسُف رسولاً خاصاً من قبله، هو النظام بن المولى لمُرافقة البادرائي رسول الخليفة إلى مصر لعرض شروط الصلح على آيبك، الذي استقبل الرُّسل، ووافق بسرعة على الصلح⁽¹⁾، فدوافع آيبك للصلح - أيضاً - كانت كثيرة، منها:

- 1 - عدم اطمئنانه للاتفاق مع لويس، الذي اكتشف أنه يبتزُّه للحصول على أكبر قدر من التنازلات، دون أن يكون قادراً على تقديم أيِّ مُساعدة.
- 2 - قدَّر أن اتِّصاله بلويس قد أثار الشُّعور المعادي ضدَّ المماليك في كُلِّ العالم الإسلامي.
- 3 - كما أدرك أن الصلح مع الناصر بسعي الخليفة هو اعتراف من الشرعية الصُغرى - الأيوبيَّة، والشرعية الكبُرى - الخلافة - بحُكم المماليك لمصر.

وتمَّ الصلح على قاعدة اقتسام البلاد؛ بحيث يكون للمصريين في الشام غزاة والقدس وكُلِّ ما هو جنوبيها، وللناصر يُوسُف نابلس وكُلِّ ما هو شاميها، وعادت الرُّسل من مصر في عام 651 هـ - 1253 م، ومعهم أسرى معركة الكراع من أمراء الأيوبيَّة وقادة الناصر⁽²⁾. ويبدو أن إطلاق الأسرى

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 232.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 232، والتَّجُوم الرَّاهِة، ابن تغري بردي، 7 / 10، والسُّلُوك، المقرئ، 1 / 385، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 186، وعقد الجمان، العيني، 18 / 339، وشفاء القلوب، الحنبلي، 15 / 4، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2 / 274.

كان أهم نتائج هذا الصلح، إن لم نقل إنَّه كان كُلُّها، فقد استمرَّ العداء بين الطرفين، وفي عام 654 هـ - 1256 م، كان الصراع بين الناصر يُوسُف صاحب الشام والمُعزَّ آيبك المُستولي على حُكم مصر على أشده، عندها؛ احتاج الناصر إلى دعم شرعية الخلافة لتأييد حقِّه وحقِّ البيت الأيوبي لمُواجهة آيبك، الذي يعدُّه دخيلاً تسلَّط على الحُكم، فأرسل الناصر إلى الخليفة مع رسوله المؤرِّخ ابن العديم يطلب منه خلعة، وقد حمل الرسول معه "تقدمة جليلة"¹. وفهم آيبك مقصد الناصر من الخلعة، فعَدَّ نفسه لا يقلُّ عنه بشيء، وأرسل سنقر الأقرع، وهو أحد كبار أمراء المماليك²، يحمل هدية لا تقلُّ عن هدية الناصر، ولكنَّه لم يطلب خلعه لنفسه، بل طالب بتعطيل خلعة الناصر، فحار الخليفة الضعيف في أمره، وبالتأكيد؛ لم تكن أشخاص الملوك المتنازعين هي التي تُهمُّه، فأمامه في الشرق التتار بجحافلهم، وليس وراءه في الغرب سوى الناصر في الشام وآيبك في مصر، فطلب الخليفة من ابن العديم الاعتذار للناصر، وأعطاه سَكِيناً مقبضها من الحجارة الكريمة ليقدِّمها إليه قائلاً: "إنَّها" علامة منِّي في أن له خلعه عندي في وقت آخر"، وعاد ابن العديم بدون خلعة³. ومع أن آيبك قد فاز في الصراع مع الناصر عند الخليفة، لكنَّه لم يفز في الصراع مع القَدَر، ففي عام 655 هـ - 1257 م، قُتل في أكثر الأماكن أماناً له، فقد قيل إنَّ زوجته شَجَرَ الدُرِّ قد قتلتُه، فأُزيح بذلك من أمام الخليفة العائق الذي يمنعه من إرسال الخلعة للملك الناصر، وكسبه إلى صفِّه، في وقت حرج، فسارع الخليفة المُستعصم بإرسال الخلعة والطَّوق والتقليد، كما جرت العادة تماماً إلى الملك الناصر، وقد وصل رسول الخليفة في العام نفسه 655 هـ - 1257 م، الذي قُتل فيه آيبك، ولكن؛ دون أن يترتَّب على ذلك فائدة تُذكر للطرفين.

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 191.
2 - سنقر الأقرع: كان مملوكاً للمُظفَّر غازي صاحب ميَّافارقين (المُختصر، أبو الفداء، 3 / 191).
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 191.

المبحث السادس

الصراع العسكري بين المماليك والسلطنة الأيوبية

المماليك البحرية في الشام:

استقبل الملك الناصر في دمشق عام 652 هـ - 1254 م، أمراء البحرية⁽¹⁾ الفارزين، الذين حرّضوه لأخذ مصر، مع أنه لم يكن بحاجة إلى هذا التحريض ليتحرك معهم⁽²⁾، فقاد جيشه من جديد، وعسكر في غور الأردن، وأرسل طلائعه بقيادة المعظم ثورانشاه بن صلاح الدين، فاحتلوا غزة⁽³⁾. وبرز آيبك مع قواته إلى العباسية⁽⁴⁾، ومع كل ما بين الرجلين، فقد أرسل آيبك إلى الملك الناصر ينصحه قائلاً: "لا تركن إلى البحرية ما يحجيء منهم خير"، فلم يلتفت له⁽⁵⁾، وطالبه برّد البلاد التي أخذها في فلسطين بالاتفاق مع رسول الخليفة، فوافق آيبك. وما هذه الموافقة إلا إقرار بالأمر الواقع، فعسكر الناصر كانت حول القدس والبحرية في غزة، وقد قام الملك الناصر بإقطاع تلك البلاد إلى البحرية⁽⁶⁾، ليجعلهم بمواجهة عدوهم المشترك آيبك، وليدافعوا عن هذه المناطق المكشوفة التي يصعب عليه الدفاع عنها.

وكان آيبك يقيم مع قواته في معسكر قرب العباسية منذ أن تحرك الناصر وجيوشه من الشام، ومعه فرقة المماليك العزيمية، التي انضمت إلى قواته، بعد أن خانوا الملك الناصر، وكانوا سبب هزيمته في الكراع، ويبدو أن العزيمية قد شعروا بمقدرةهم على التلاعب بمصير الملوك، فأخذوا يُدبرون للقبض على المعز آيبك، وشعر بتدبيرهم، فاحترس منهم، واستعدّ لهم، ولما تأكدوا من

افتضاح أمر غدرهم بآيبك، هربوا على عجل من محيّمهم في العباسية، فصادر آيبك كل ما تركوه⁽¹⁾، وقبض على بعضهم، فقتل منهم، وسجن الآخرين⁽²⁾. وكان هذا بمثابة الإعلان أنه لن يكون هناك أمان لسلطان أو ملك مع وجود طوائف عسكرية قوية، وأنه لا ولاء لهذه الطوائف إلا ولاء الخضوع للقوة، أو ولاء الطمع بالمكاسب.

ونلاحظ هنا أن الناصر يوسف لم يستفد مطلقاً من أحداث هامة جرت في مصر، وكان من الممكن أن يوظفها بقليل من الدعم لمصلحته وضدّ حكم المماليك، ومنها:

1 - تحرك العزيمية ضدّ آيبك في معسكر العباسية، وتحاولتهم القبض عليه، ولكن هذه الحركة لم تكن بتنسيق مع الناصر يوسف، وربما جاءت عرضاً لتنسجم مع رغباته⁽³⁾، ولذلك لم يستفد منها، كما أنه لعدم التنسيق جرى التمرد في ظروف كانت لمصلحة آيبك؛ حيث تمكّن من القضاء عليها بسهولة. بينما كان تمردهم على الناصر في معركة الكراع في توقيت قاتل، أدّى إلى تغيير مجرى المعركة تماماً⁽⁴⁾.

2 - قام الشريف حصن الدين بن ثعلب زعيم الأعراب في صعيد مصر عام 651 هـ - 1253 م، بثورة ضدّ حكم آيبك، وتزامن معها عصيان والي الصعيد آيبك الأفرم الذي دعم تحرك ثعلب، ومع أن الشريف ثعلب استنجد بالناصر يوسف، لكنّه لم يتدخل⁽⁵⁾. وكان من الممكن أن يستغلّ الناصر تلك الثورة أفضل استغلال⁽⁶⁾.

3 - كذلك لم يستغلّ الناصر صراع آيبك مع مقدّم البحرية أقطاي، الذي كان يُنازع آيبك السلطة، ويتطاول عليه، ويمنعه من الانفراد بالحكم، مع تقرب أقطاي للبيت الأيوبي، وخطبته لبنت المظفر أخت المنصور صاحب حماة الأيوبي⁽⁷⁾. والغريب في الأمر هنا أن آيبك كاتب الناصر يوسف في

1 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 190.

2 - السلوك، المقرئ، 1 / 396، والنجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 7 / 30.

3 - يُقال بأن تحرك العزيمية كان بإيعاز من الملك الناصر. (المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 235).

4 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 190، والسلوك، المقرئ، 1 / 396، والنجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 7 / 30.

5 - البيان والإعراب، المقرئ، 144، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 190.

6 - ويعلّل العبادي عدم نجاح الناصر مع طلب مساعدة ثعلب بوجود رسول الخليفة لديه طالباً الصلح مع المصريين.

(في تاريخ الأيوبيين، أحمد مختار العبادي، 118).

7 - السلوك، المقرئ، 1 / 388، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 190، وأخبار الأيوبيين، ابن العميد، 42.

1 - كان ضمن أمراء البحرية الفارزين إلى دمشق: بيارس البندقداري، وبلبان الرشيد، وأزدمر السيفي، وسنقر الأشقر، وقلاوون الألفي، وسنقر الرومي، وبدر الدين يسري، وسيف الدين المستعري. (المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 235).

2 - المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 235.

3 - المختصر، أبو الفداء، 3 / 190.

4 - المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 235.

5 - المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 235.

6 - السلوك، المقرئ، 1 / 292، ونهاية الأرب، النويري، 29 / 434.

أمر أقطاي، وطلب رأيه، لكنَّ النَّاصر لم يتدخل في الصراع بين الماليك⁽¹⁾، رُبَّما لعدم تفضيله أيٍّ منهم على الآخر، مع أن هذا ليس من السياسة في شيء.

الخليفة العباسي يسعى في الصلح:

كان أكثر الناس قلقاً لصراع النَّاصر مع ماليك مصر هو الخليفة العباسي المستعصم بالله، فالتار يكتسحون العراق، وطلاتهم اقتربت من بغداد، ولم يبق من قُوَّة في العالم الإسلامي يُمكن أن تدعم الخليفة سوى الشَّام ومصر، فأعاد الخليفة تسيير رسوله نجم الدِّين البادراني لإعادة الصلح، وتثبيتته بين النَّاصر يُوسُف والمُعزَّ أيك، وكانت الشُّروط الجديدة للصلح أن يكون الشَّام بأكمله للنَّاصر، ومصر لآيبك⁽²⁾، ويُضيف المقرئ بنداً آخر هو أن لا يُؤوي النَّاصر يُوسُف الماليك البَحْرِيَّة الفارَّين في الشَّام⁽³⁾. ونعتقد أن هذا البند كان مُهمَّاً جداً لآيبك في اتفاقية الصلح، وبدليل النتائج نرى أنَّه - رُبَّما - كان أوَّل البُتود، فالبَحْرِيَّة هم أكثر ما يخشاه آيبك على مُلكه، وهو يدرك أنَّهم سيستمرُّون بالتحريض عليه، ومن أجل تمرير هذا البند الذي لم يكن ليقبله النَّاصر يُوسُف بسهولة، فالبَحْرِيَّة ورقة رابحة بيده ضدَّ آيبك، من أجل ذلك؛ وافق آيبك أن تكون الشَّام بأكملها للنَّاصر يُوسُف. وكان محرراً للنَّاصر تنفيذ هذا البند من اتفاقه مع آيبك، الذي ينصُّ صراحةً على طُرد البَحْرِيَّة من الشَّام، فحاول أن يخلق سبباً، فأشاع أنَّه نقل إليه أنَّهم يريدون أن يفتكوا به⁽⁴⁾. إنَّه سبب مُقنع اختاره النَّاصر، فسُمعة الماليك تجعل من السهل تصديق تبدُّل ولائهم بهذه السَّعة، لكنَّ هل كان - فعلاً - بإمكان البَحْرِيَّة الفتك بالنَّاصر، بالرَّغم من احترازه وحيطته؟! وإذا كان ذلك مُمكنًا، فلمصلحة مَنْ؟! بل، وأين مصلحتهم في ذلك؟! فالناصر أكبر شخصية مُؤهلة لتنفيذ انتقامهم من آيبك، ولابدَّ أنَّهم ما كانوا ليفرطوا به بتلك السَّهولة⁽⁵⁾.

بعد أن أشاع النَّاصر كشفه لمؤامرة البَحْرِيَّة، طلب منهم مُغادرة دمشق، ولكنَّ إلى أين؟ لم يبقَ إلاَّ مكان واحد لالتجائهم إليه، مع أنَّه أضعف من أن يُحقِّق لهم الآمال بالعودة مُنتصرين إلى مصر، إنَّه الملك المُغيث عُمر صاحب الكرك الجديد. فغادر البَحْرِيَّة دمشق إلى غزَّة، وراسلوا المُغيث، وانتصروا له. ويبدو أن النَّاصر شعر بالخوف فعلاً من البَحْرِيَّة، ورُبَّما لم يكن بحسبان أن ينضمُّوا للمُغيث، فأراد إدراكهم قبل وُصُولهم إلى هدفهم، فأرسل خلفهم فرقة من جيشه إلى غزَّة، فكمن لهم البَحْرِيَّة، وهزمهم، ثُمَّ أمدَّ النَّاصر جيشه، وأعاد الكرك، فهزموا البَحْرِيَّة، واضطُّروهم للهرب نحو الكرك إلى الملك المُغيث، الذي استقبلهم أحسن استقبال، وفرَّق فيهم الأموال الجليلية⁽¹⁾. وفي الحقيقة؛ أَحَسَّن المُغيث انتهاز هذه الفرصة، فالبَحْرِيَّة أداة جيِّدة يُمكنه استخدامها لتحقيق مشاريعه التوسُّعية، هذه المشاريع التي لم يخلُ من وضعها أيُّ من مُلوك آل اثيوب، وكانت حُطط البَحْرِيَّة والمُغيث بغاية التطابق، فالطرفان هدفهما مصر. جهَّز المُغيث البَحْرِيَّة بما يلزمهم، وتحرك بجيشه معهم، وساروا إلى مصر عبر غزَّة، فتصدَّى لهم آيبك بجُيُوش مصر، وألحق بهم هزيمة كبيرة⁽²⁾، "فهرب المُغيث إلى الكرك في أسوأ حال، ونُهبَت أثقاله ودهليزته"⁽³⁾، وأثناء عودة البَحْرِيَّة مُنهزمين من مصر عام 656 هـ- 1258 م، لم يفتنهم المُجُوم على غزَّة، وكانت فيها قُوات النَّاصر يُوسُف، الذي عدَّه البَحْرِيَّة في مصافِّ أعدائهم، ولما تصدَّى لهم قائد الحامية الشَّاميَّة الأمير مجيد الدِّين بن أبي ذكرى هزموه، وأسروه، "وقوي أمر البَحْرِيَّة، وأكثروا العيث، والفساد"⁽⁴⁾.

وأثناء تحرك البَحْرِيَّة في جنوب الشَّام، صادفوا في غور الأردن فرقة الشهرزورية⁽⁵⁾، التي كانت قد هربت من العراق تحت ضغط التَّار، فاتفقوا معهم، ونزَّوج بيبس البندقداري أحد مُقدِّمي البَحْرِيَّة امرأة منهم⁽⁶⁾، وذلك لتوثيق الاتفاق بالمصاهرة، فالبَحْرِيَّة بحاجة إلى قوى داعمة. وهذا التحالف - إضافة إلى مُهاجمة حامية غزَّة - حرَّك مخاوف النَّاصر يُوسُف، فسَيَّر عساكره نحوهم،

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 193.

2 - السُّلوك، المقرئ، 1 / 500.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 195.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 197.

5 - الشهرزورية: فرقة من الأكراد نسبة إلى بلدة شهرزور، (راجع: مُعجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: شهرزور)، هربوا من العراق بعد غزو التَّار، فانضمُّوا للنَّاصر في الشَّام، ثُمَّ عَمَّردوا عليه.

6 - المختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 255.

1 - النُّجُوم الزَّاهرة، ابن تغري بردي، 7 / 11.

2 - النُّجُوم الزَّاهرة، ابن تغري بردي، 7 / 33، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1 / 12.

3 - السُّلوك، المقرئ، 1 / 500.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 192.

5 - يقول المقرئ: إن سبب مُغادرة البَحْرِيَّة لدمشق هو: وُصُول الخبر بأنَّ الملك النَّاصر قد طلب نجدة التَّار لاسترجاع مصر من الماليك، وأنَّهم قد سَيَّروا إليه عشرين ألف فارس (السُّلوك، المقرئ، 1 / 500).

فَهَزَمَتِ الْبَحْرِيَّةُ عَسْكَرَ الشَّامِ، فَرَكِبَ النَّاصِرُ بِنَفْسِهِ، وَبِكَامِلِ ثَقْلِ جَيْشِهِ إِلَيْهِمْ، فَهَرَبَتِ الْبَحْرِيَّةُ إِلَى الْكَرْكِ، وَالشَّهْرُ زَوْرِيَّةٌ إِلَى مِصْرَ⁽¹⁾. وَيَبْدُو أَنَّ النَّاصِرَ أَرَادَ حَسْمَ الْمَوْقِفِ نَهَائِيًّا مَعَ الْبَحْرِيَّةِ، فَتَابَعَ تَحْرُكَهُ يَدْعُمُهُ جَيْشٌ حَمَاةٌ بِقِيَادَةِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ، فَوَصَلُوا الْكَرْكَ، وَشَدَّدُوا الْحَصَارَ عَلَيْهَا، فَخَافَ مَلِكُهَا الْمُغِيثُ، مَعَ مِثْنَةِ خُصُومِ الْكَرْكِ، وَقُوَّةِ أَسْوَارِهَا، وَأَرَادَ حَلَّ الْقَضِيَّةِ سَلْمِيًّا مَعَ النَّاصِرِ، فَطَلَبَ الصَّلَاحَ، وَوَأْفَقَ النَّاصِرُ عَلَى شَرْطِ أَنْ يُسَلِّمَهُ الْبَحْرِيَّةُ، فَالْبَحْرِيَّةُ هُمْ مَا يُرِيدُهُ النَّاصِرُ الْآنَ، وَأَمْرُ الْمُغِيثِ يُمَكِّنُ أَنْ يُؤَجَّلَ، فَحَصَارُهُ غَيْرُ مَضْمُونِ النَّتَائِجِ. وَبَلَا تَرَدُّدٍ؛ وَأَفَقَ الْمُغِيثُ عَلَى تَسْلِيمِ خُلَفَاءِ الْأَمْسِ⁽²⁾، فَقَدْ أَصْبَحَتِ الْبَحْرِيَّةُ وَرَقَةً خَاسِرَةً بِيَدِ الْمُغِيثِ، الَّذِي جَرَّبَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَلَمْ يُفْلَحُوا، بَلْ رُبَّمَا عَدَّهُمْ سَبَبًا لِتَوْرِيضِهِ فِي الْمُجُومِ عَلَى مِصْرَ، وَمَا تَلَا ذَلِكَ مِنْ خَسَائِرٍ فَادِحَةٍ تَكْبِدُهَا. فِي هَذِهِ الْأَنْثَاءِ؛ شَعَرَ بِخُطُورَةِ الْمَوْقِفِ أَحَدُ مُقَدِّمِي الْبَحْرِيَّةِ، وَرُبَّمَا كَانَ أَذْكَاهُمْ وَأَكْثَرَهُمْ أَهْلِيَّةً لِلْقِيَادَةِ، وَهُوَ بِيَرَسُ الْبِنْدَقْدَارِيِّ، الَّذِي يَعْرِفُ بَدَقَّةَ أَيْنَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ ظَرْفٍ، فَتَسَلَّلَ مِنْ قَلْعَةِ الْكَرْكِ، وَلَجَأَ إِلَى النَّاصِرِ يُوسُفَ، الَّذِي اسْتَقْبَلَهُ، وَعَفَا عَنْهُ، وَقَبَضَ الْمُغِيثُ عَلَى بَقِيَّةِ الْبَحْرِيَّةِ، وَسَلِّمَهُمْ لِلْنَاصِرِ، الَّذِي اعْتَقَلَهُمْ فِي سَجْنِ قَلْعَةِ حَلَبَ، وَبَقُوا فِيهِ، حَتَّى فَتَحَ التَّتَارُ حَلَبَ، وَأَخَذُوهُمْ مِنْهَا⁽³⁾.

وبعد أن استقرَّ أمرُ المعزِّ آيبك في حُكْمِ مِصْرَ نَتِيجَةً لَصُلْحِهِ مَعَ النَّاصِرِ يُوسُفَ، وَالتَّخْلُصِ مِنْ أَقْطَايِ الْبَحْرِيَّةِ، قَامَ عَامَ 652 هـ بِعَزْلِ الْأَشْرَفِ السُّلْطَانِ الْأَيْبِيِّ الصَّغِيرِ، الَّذِي كَانَ "آخِرَ مَنْ خَطَبَ لَهُ مِنْ بَيْتِ أَيُّوبَ بِمِصْرَ"⁽⁴⁾، وَأَعْلَنَ آيبُكُ نَفْسَهُ سُلْطَانًا عَلَى الْبِلَادِ، وَهِيَ الْخُطْوَةُ الْأَهَمُّ فِي مَشْرُوعِهِ السِّيَاسِيِّ. وَمَعَ كُلِّ هَذِهِ الْقُوَّةِ الَّتِي شَعَرَ بِهَا آيبُكُ، فَقَدْ كَانَ الْبَيْتُ الْأَيْبِيُّ يُؤَزِّقُهُ، رُبَّمَا لِشُعُورِهِ كَمَمْلُوكٍ سَابِقٍ لَهُمْ، وَهَذَا مَا تُفَسِّرُهُ رَدُودُ أَفْعَالِهِ الْمُنَاقِضَةِ نَحْوَ الْأَيْبِيَّةِ، فَبَعْدَ أَنْ أَنْهَى كُلَّ سُلْطَانٍ لَهُمْ فِي أَرْضِ مِصْرَ، أَرَادَ أَنْ يُزِيلَ كُلَّ رَمُوزِهِمْ مِنْهَا، فَأَعْفَى حُسَامَ الدِّينِ بَنِ أَبِي عَلِيٍّ الْهَذْبَانِي⁽⁵⁾ مِنْ مِهَامَتِهِ، وَنَزَعَ إِقْطَاعَهُ، وَاسْمَحَ لَهُ بِالسَّفَرِ إِلَى الشَّامِ⁽⁶⁾، فَاسْتَقْبَلَهُ النَّاصِرُ يُوسُفَ، وَخَلَعَ

عَلَيْهِ⁽¹⁾، وَأَعْطَاهُ إِمْرَةً خَمْسَمِائَةِ فَارَسٍ⁽²⁾. وَلَكِنْ؛ وَبَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ فَآيبُكُ لَا زَالَ يَشْعُرُ بِعَدَمِ شَرْعِيَّةِ حُكْمِهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَلْجَأَ لَطَرِيقَةٍ أُخْرَى يَسْتَمْدُّ بِهَا بَعْضَ الشَّرْعِيَّةِ، فَقَرَّرَ أَنْ يَخْطُبَ ابْنَةَ بَدْرِ الدِّينِ لَوْلُؤُ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ وَوَرِثِ الْبَيْتِ الْأَتَابِكِيِّ، وَابْنَةَ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ صَاحِبِ حِمَاةِ سَلِيلِ الْبَيْتِ الْأَيْبِيِّ وَالْعَائِلَةِ النُّقُوتِيَّةِ الشَّهِيرَةِ فِيهِ⁽³⁾، إِنْ تَدْعِيْمُ الْحُكْمِ بِالْمُصَاهَرَةِ عَادَةً شَائِعَةً، وَكَانَتْ مُتَّبَعَةً لَدَى الْبَيْتِ الْأَيْبِيِّ. وَلَكِنْ هَذِهِ الْمُصَاهَرَةُ بِالْجُمْلَةِ لَمْ تَفْهَمْهَا شَجَرُ الدَّرِّ زَوْجَةُ آيبُكُ عَلَى حَقِيقَتِهَا السِّيَاسِيَّةِ، وَعَدَّتْهَا خِيَانَةً صَرِيحَةً لَهَا، وَعَدَمَ وَفَاءٍ يُقَدِّمُهُ مُقَابِلَ السُّلْطَانَةِ الَّتِي قَدَّمَتْهَا لَهُ، فَقَتَلَتْهُ لَيْلًا هِيَ وَجَوَارِيهَا، وَأَظْهَرَتْ أَنَّهَا مَاتَتْ.

ومع أن رواية القتل تُجْمَعُ عَلَيْهَا مُعْظَمُ الْمَصَادِرِ، وَلَكِنَّهُ يَحْتَقُّ لَنَا أَنْ نَسْأَلَ: أَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ آيبُكُ قَدْ مَاتَ فَعَلًا بِشَكْلِ طَبِيعِيٍّ؟ فَهَذَا عِلْمِيًّا وَارِدٌ، وَخَاصَّةً فِي ظُرُوفِ الضُّغُوطِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي كَانَ يَعْيشُهَا سُلْطَانُ الْمَمَالِكِ دَاخِلِيًّا وَخَارِجِيًّا، وَيُؤَيِّدُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْمُؤَرِّخُ أَبُو شَامَةَ، وَهُوَ مُعَاوَرٌ لِلْحَادِثَةِ، يَقُولُ: "ثُمَّ مَاتَ هَذَا التُّرْكْمَانِيُّ بِدَارِهِ بَغْتَةً، وَلَا يُعْلَمُ سَبَبُ مَوْتِهِ، وَتَعْصَّبَ أَصْحَابُهُ لِإِقَامَةِ ابْنِهِ مَقَامِهِ، وَلَقَّبُوهُ بِالْمَلِكِ الْمَنْصُورِ نُورَ الدِّينِ عَلِيٍّ، وَاتَّهَمُوا زَوْجَةَ التُّرْكْمَانِيِّ أَنَّهَا قَتَلَتْهُ، فَأَعْدَمُوهَا"⁽⁴⁾. وَهُنَا؛ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُرْجِّحَ، لَكِنَّ الْمَوْتَ الطَّبِيعِيَّ يَبْقَى اِحْتِمَالًا قَائِمًا، خَاصَّةً وَأَنْ كُلَّ مَا أَخَذَهُ أَصْحَابُ آيبُكُ وَمَمَالِكُهُ الْمَعْزِيَّةُ⁽⁵⁾ مِنْ دَلَائِلَ عَلَى أَنَّهُ قُتِلَ "أَنَّهُمْ فَارَقُوهُ بِالْعَشِيِّ سَلِيمًا، وَأَلْقَوْهُ فِي الصَّبَاحِ عَدِيًّا"⁽⁶⁾، وَهَذَا لَيْسَ بِالْدَّلِيلِ الْقَاطِعِ، فَالْمَوْتُ الْمُفَاجِئُ كَثِيرُ الْحُدُوثِ، وَلَا يَحْتَاجُ لِمَرَضٍ يَسْبِقُهُ، لَكِنَّهَا الْمُفَاجِئَةُ لِأَصْحَابِهِ، وَسَيَادَةُ عَقْلِيَّةِ التَّأَمُّرِ وَالْغَدْرِ، وَتَفْسِيرُ كُلِّ الْأُمُورِ عَلَى أُسَاسِهَا، سَاهَمَتْ بِإِلْصَاقِ التُّهْمَةِ - الَّتِي لَا نَدْرِي مَدَى صَحَّتِهَا - بِشَجَرِ الدَّرِّ، نَمَّا تَسَبَّبَ بِقَتْلِهَا عَلَى أَشْبَعِ صُورَةٍ.

وبعد مقتل سُلْطَانِ الْمَمَالِكِ الْمَلِكِ الْمُعَزِّ عَزَّ الدِّينِ آيبُكُ وَزَوْجَتَهُ شَجَرَةَ الدَّرِّ سَنَةَ 655 هـ 1257 م، أَقَامَ مَمَالِكُ آيبُكُ الْمَعْزِيَّةِ نُورَ الدِّينِ عَلِيٍّ بَنِ أَسْتَادِهِمْ آيبُكُ مَكَانَهُ⁽⁷⁾، وَكَانَ عَمْرُهُ خَمْسَ

1- المختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 232.

2- كنز الدرر، ابن آيبك، 8 / 23.

3- زبدة الفكرة، الدوادار، 19، وعقد الجمان، العيني، 1 / 118.

4- ذيل الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكار، 20 / 387.

5- المعزية: هم مماليك الملك المعز عز الدين آيبك، سلطنوا ابنه علي بعد مقتله، وأصبح مقدّمهم المظفر قطز أتابكاً له.

6- زبدة الفكرة، الدوادار، 24.

7- المختصر، أبو الفداء، 3 / 192.

1- زبدة الفكرة، الدوادار، 34.

2- شفاء القلوب، الزبيدي، 433، وزبدة الفكرة، الدوادار، 9 / 55.

3- شفاء القلوب، الزبيدي، 433، والمختصر، أبو الفداء، 3 / 198.

4- المختصر، أبو الفداء، 3 / 190.

5- ترجمته في: ذيل مرآة الزمان، اليونيني، 1 / 384.

6- المختصر، أبو الفداء، 3 / 186.

عشرة سنة، واستمرَّ بالسُّلْطَنَة، حتَّى خلعهُ الْمُظْفَر قُطْر⁽¹⁾، مُتَذَرِّعاً بِخَطَرِ التَّنَّارِ، وأنَّ التَّصَدِّي لَهُمْ يَحْتَاجُ إِلَى سُلْطَانٍ قَوِيٍّ قَادِرٍ.

كَانَتْ كُلُّ تِلْكَ الْحُرُوبِ وَالْمُؤَامَرَاتِ وَالْقَتْلِ وَالْإِغْتِيَالَاتِ بَيْنَ الْحُكَّامِ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ مُتَزَامَةً مَعَ هُجُومِ التَّنَّارِ عَلَى الْعِرَاقِ، وَحَصَارِهِمْ لِبَغْدَادِ بِقَوَى هَائِلَةٍ، كَانَ يَسْبِقُهَا - دَائِماً - شُمْعَةٌ سَيِّئَةٌ تُبَشِّرُ بِأَبْشَعِ أَنْوَاعِ الْقَتْلِ الْجَمَاعِيِّ وَالْحَرْقِ وَالْدمَارِ، وَكَأَنَّ مَا كَانَ يَجْرِي فِي الْعِرَاقِ لَا عِلَاقَةَ لَهُ مُطْلَقاً بِحُكَّامِ مِصْرَ وَالشَّامِ، فَالْخَلِيفَةُ مُحَاصِرٌ فِي بَغْدَادِ، يَسْتَعِثُّ، فَلَا يُغَاثُ، لَقَدْ جَاءَ الْيَوْمَ الَّذِي جَعَلَ التَّنَّارَ فِيهِ الْخَلِيفَةَ الْمُسْتَعَصِمَ يُسَدِّدُ مَا سَلَفَ مِنْهُ وَمِنْ أَبَائِهِ بِحَقِّ بِلَادِ الْأَطْرَافِ، الَّتِي هَاجَمَهَا الْغَزَاةُ، فَلَمْ يُحَرِّكْ الْخُلَفَاءُ سِوَى رُسُلِهِمْ وَخَلْعِهِمْ وَأَمْنِيَّاتِهِمِ الطَّيِّبَةِ. وَلَكِنْ سَقُوطُ بَغْدَادِ عَامَ 658 هـ - 1260 م، بِيَدِ التَّنَّارِ كَانَ الصَّرِخَةُ الْأَخِيرَةُ الَّتِي أَرَعَبَتِ النَّاصِرَ، وَأَشْعَرَتْهُ بِمَصِيرِهِ الْمُرْتَقِبِ، فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ التَّنَّارَ فِي حِسَابَاتِ التَّنَّارِ، وَلَيْسَ أَمَامَهُ إِلَّا مِصْرُ، وَفِيهَا أَعْدَاؤُهُ الْمَمَالِيكُ، وَبِالتَّأَكُّدِ؛ كَانَ ذَلِكَ يُسَبِّبُ لَهُ خَيْرَةً قَاتِلَةً.

خَرَجَ النَّاصِرُ لِيُعَسِّكَرَ بِجَيْشِهِ فِي بَرْزَةِ، وَمَعَهُ الْمَنْصُورُ صَاحِبُ حِمَاةٍ، وَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ تَمَكَّنَ النَّاصِرُ مِنْ فَعْلِهِ مُوَاجَهَةِ خَطَرِ التَّنَّارِ، الَّذِينَ اكْتَسَحُوا الْعِرَاقَ، وَتَغْلَغَلُوا فِي الْجَزِيرَةِ، وَرُبَّمَا وَجَدَ لِنَفْسِهِ عَذْرًا بِأَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَسْكَرِيًّا عَلَى مُوَاجَهَةِ التَّنَّارِ، وَلَكِنَّ السُّؤَالَ الْمُهِّمَ هُنَا: أَلَمْ يَفْكَرْ بِالْإِتِّفَاقِ وَالتَّحَالُفِ مَعَ الْمَمَالِيكِ فِي مِصْرَ - وَلَوْ مُؤَقَّتاً - ضِدَّ خَطَرِ مُشْتَرَكِ دَاهِمٍ؟! أَمْ أَنْ كَرِهَهُ لَهُمْ وَحَقَّقَهُ عَلَيْهِمْ جَعَلَاهُ يُضْحِي بِنَفْسِهِ وَبِالنَّاسِ وَبِالْبِلَادِ؟! لَكِنْ؛ وَمِنْ طَرَفٍ آخَرَ، هَلْ كَانَ الْمَمَالِيكُ فِي مِصْرَ مُسْتَعِدِّينَ لِهَذَا التَّعَاوُنِ؟! أَمْ أَنْ حَقَّقَهُمْ عَلَى النَّاصِرِ وَبَنَى أُيُوبُ أَعْمَاهُمْ عَنْ مُلَاحَظَةِ خَطَرِ التَّنَّارِ، وَأَنْ مِصْرَ سَتَكُونُ وَاحِدَةً مِنْ أَهْدَافِهِمُ الْقَرِيبَةِ بَعْدَ الشَّامِ؟!!

وَكَانَ آخِرُ مَا يَحْتَاجُهُ النَّاصِرُ الثَّانِي فِي مُعَسِّكَرِهِ بِبَرْزَةِ هُوَ اكْتِشَافُهُ لِنَاوِيحِ مَمَالِيكِهِ الْخَاصِكِيَّةِ ضِدَّهُ، فَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ، وَتَوَلَّى أَخِيهِ مَكَانَهُ، فَسَارَعَ النَّاصِرُ بِالْمُحَرِّبِ مِنَ الْمُعَسِّكَرِ لِيَلْأَ نَحْوَ قَلْعَةِ دِمَشْقَ، وَتَحَصَّنَ بِهَا، وَلَمَّا عَلِمَ مَمَالِيكِهُ بِهَرَبِهِ، وَافْتِضَاحِ أَمْرِهِمْ، سَارَوْا نَحْوَ غَزَّةَ،

1 - قُطْر: لَفْظٌ مَغُولِيٌّ يَعْنِي الشَّرْسَ، (النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ، ابْنُ تَغْرِي بَرْدِي، 7 / 72)، - رُبَّمَا كَانَ الْاسْمُ مَغُولِيًّا، لَكِنْ؛ مِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ السُّلْطَانَ قُطْرَ تَرْكِي الْجَنْسِيَّةِ، وَهُوَ ثَالِثُ مُلُوكِ التُّرْكِ بِمِصْرَ، وَاسْمُهُ عَمُودُ ابْنِ عَمْدُودٍ، وَيُقَالُ إِنَّهُ قَرِيبٌ جَلَالُ الدِّينِ خَوَارِزْمِ شَاهٍ، وَقَدْ أَسْرَ فِي حُرُوبِ التَّتِ، وَبِيعَ فِي دِمَشْقَ لِلْسُّلْطَانِ الْمُعَزَّيْكِ. (السُّلُوكُ، الْقَرِيزِي، 2 / 435-741).

يُرَافِقُهُمْ بِيَبْرَسَ الْبَنْدَقْدَارِيِّ، الَّذِي أَتَّصَلَ مِنْ هُنَاكَ بِالْمُظْفَرِ قُطْرَ سُلْطَانِ الْمَمَالِيكِ الْجَدِيدِ فِي مِصْرَ، فَدَعَاهُ لِلْعُودَةِ، وَأَكْرَمَهُ⁽¹⁾.

وَأَخِيرًا؛ فَإِنَّا - بِشَكْلِ عَامٍّ - نَسْتَطِيعُ أَنْ نُلَاحِظَ أَنَّهُ بَعْدَمَا أَزْدَادَ اعْتِمَادُ الْأَيُّوبِيِّينَ عَلَى الْمَمَالِيكِ فِي الْجَيْشِ ثُمَّ فِي الْإِدَارَةِ، وَخَاصَّةً فِي عَهْدِ الصَّالِحِ أَيُّوبَ، ثُمَّ تَمَكَّنَ الْمَمَالِيكُ مِنْ تَحْقِيقِ النَّصْرِ عَلَى حِلَّةِ لُؤَيْسَ فِي الْمَنْصُورَةِ عَقِبَ وَفَاةِ أَيُّوبَ، أَصْبَحَتْ كُلُّ الدَّلَائِلِ تُشِيرُ إِلَى تَنَامِي قُوَّةِ الْمَمَالِيكِ إِزَاءَ ضَعْفِ الْقُوَّةِ الْأَيُّوبِيَّةِ، وَخَاصَّةً فِي الْجَيْشِ، فَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَخْذَهُمُ السُّلْطَةُ بِالْقُوَّةِ الَّتِي امْتَلَكُوهَا. وَكَانَتْ الْعِلَاقَاتُ بَيْنَ سُلْطَانَةِ الْمَمَالِيكِ وَبَقَايَا الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ فِي الشَّامِ مُتَوَثِّرَةً عَلَى الدَّوَامِ، وَحَتَّى نَائِبَةُ التَّنَّارِ لَمْ تَكُنْ كَافِيَةً لِنَقْمَتِهِمْ بِتَوْحِيدِ جُهُودِهِمْ ضِدَّ عَدُوٍّ مُشْتَرَكٍ.

سُلْطَانِ الْمَمَالِيكِ الْمُعَاصِرِينَ لِلْحُكْمِ الْأَيُّوبِيِّ فِي الشَّامِ:

1. شَجَرُ الدَّرِّ. أَرْمَلَةُ الصَّالِحِ أَيُّوبَ: (648 هـ - 1250).
2. الْمَلِكُ الْمُعَزَّزُ الدِّينِ أَبِييَك: (864 - 657 هـ - 1250 - 1257 م).
3. الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ ثَوْرُ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ أَبِييَك: (655 - 657 هـ - 7125 - 1259 م).
4. الْمَلِكُ الْمُظْفَرُ سَيْفُ الدِّينِ قُطْرَ: (765 - 658 هـ - 9125 - 1260 م).
5. الْمَلِكُ الظَّاهِرُ رُكْنُ الدِّينِ بِيَبْرَسَ: (865 - 676 هـ - 1260 - 1277 م).

1 - الْمُخْتَصَرُ، أَبُو الْفِدَاءِ، 3 / 200، وَالْمُخْتَارُ مِنْ حَوَادِثِ الزَّمَانِ، ابْنُ الْجَزَوِيِّ، 255.

الفصل الخامس

العلاقات الدبلوماسية لمملكة سلاجقة الروم

المبحث الأول

دولة السلاجقة في بلاد الروم

شكّل السلاجقة واحدة من أكبر الدول الإسلامية، التي نتجت عن تجزئة دولة الخلافة العباسية. وتعود بدايات الدولة السلجوقية إلى دقاق أحد زعماء الأتراك، الذي كان يرأس قبيلة قنق، التي ضمت قبائل الغز بأتحاد قبلي⁽¹⁾، عندما كانوا في نواحي كاشغر. وقام ولده سلجوق بالنزوح إلى إقليم بخارى المسلم؛ حيث اعتنق مع قبيلته الإسلام السني، وأخذ يغزو الترك الكفار. ولما حاول السلطان محمود الغزنوي طرده انتصر عليه، واحتلّ خراسان عام 431 هـ 1039 م، وتابع ابنه طغرل بك التقدم غرباً، حتى استدعاه الخليفة والقادة الأتراك إلى بغداد عام 447 هـ 1055 م، فسيطر عليها، وتحكّم بالخليفة الضعيف القائم بأمر الله، الذي استبدل السيادة البويهية بالسيادة السلجوقية، وهناك؛ اتخذ طغرل بك - لأول مرة - لقب سلطان.

وقد رافق السلاجقة في رحلتهم تلك مجموع هائلة من الأتراك والتركمان، تمكّنت في عهد السلطان ألب أرسلان⁽²⁾، ومن ثمّ؛ في عهد ابنه ملكشاه⁽³⁾، من تشكيل دولتهم الكبرى، التي امتدّت من أفغانستان حتى حدود دولة الروم البيزنطيين غرباً، وحتى عسقلان على حدود مصر جنوباً.

وعندما هزم ألب أرسلان عام 463 هـ 1071 م الجيش البيزنطي، في معركة ملاذكرد، وأسر الإمبراطور⁽⁴⁾، انفتحت آسيا الصغرى بكاملها أمام الأتراك. ولأول مرة؛ تتحرك الحدود التقليدية بين المسلمين والبيزنطيين مئات الأميال إلى الغرب، ويبدأ الأتراك بعملية احتلال واستيطان مستمرة،

1 - زبدة التواريخ، الصدر الكبير، 113.

2 - السلطان ألب أرسلان: حكم عرش السلاجقة في الفترة ما بين السنوات 3106 - 1072 م.

3 - السلطان ملكشاه: حكم عرش السلاجقة في الفترة ما بين السنوات 1072 - 1079 م.

4 - راحة الصُدور، الراوندي، تعريب: إبراهيم الشواربي، 189.

حتى أطبقوا على كامل الأناضول، ومازالوا به حتى اليوم، بفضل قيام الدولة العثمانية⁽¹⁾. ومثل كلّ الممالك الكبرى جاء وقت تجزأت فيه مملكة السلاجقة، فاستقلّ في الأناضول⁽²⁾ ابن عمّ ألب أرسلان، وهو سُليمان بن قنقش بن سلجوق⁽³⁾، الذي احتلّ نيقية⁽⁴⁾ عام 469 هـ 1077 م، وجعل عاصمته في قونية⁽⁵⁾ عام 477 هـ 1084 م. وكان قنقش أرسلان⁽⁶⁾ بن سُليمان هو أول من تصدّى لطلائع حملات الفرنجة في الأناضول عام 489 هـ 1096⁽⁷⁾.

وتوارثت الأسرة الملك في بلاد الروم، حتى كانت وفاة السلطان ملك شاه الثاني⁽⁸⁾ عام 485 هـ 1192 م، فتولّى السلطنة غياث الدين كيخسرو⁽⁹⁾ الأول⁽¹⁰⁾ ابن قنقش أرسلان الثاني، ولكنّه في عام 599 هـ 1203 م، تعرّض للهجوم من قبل أخيه ركن الدين سُليمان، الذي حاصره في قونية، وأخذها منه، فهرب غياث الدين، "وقصد الظاهر غازي صاحب حلب، فلم يجد عنده قبولاً"، وحطّ به الرحال - أخيراً - في القسطنطينية⁽¹¹⁾، فأحسن إليه الإمبراطور البيزنطي، وزوّجه ابنة أحد وجهاء البلاط. ولما استولى الفرنج على القسطنطينية عام 600 هـ 1204 م، هرب كيخسرو إلى قلعة حمية.

1 - تتسبب الدولة العثمانية إلى عثمان بن أرطغرل بن سُليمان، الذي أقام مملكته على أنقاض دولة سلاجقة الروم، واستقلّ في عاصمته يكي شهر، بعد مقتل آخر سلاطينهم بيد التتار عام 699 هـ 1300 م، ثمّ أخذ يتوسّع في الأناضول. راجع كتاب: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، 117 - 118.

2 - الأناضول: مُرتفعات آسيا الصغرى، وهي ما كان يُعرّف في العصر الأيوبي باسم بلاد الروم، ونسبة إليها سُمي السلاجقة: سلاجقة الروم، وأحياناً؛ الروم.

3 - حول حياة هذا السلطان راجع كتاب: The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 43.

4 - نيقية: مدينة في آسيا الصغرى قرب القسطنطينية.

5 - قونية: مدينة وسط الأناضول، جنوب أنقرة، يقول ياقوت: من أعظم مُدُن الإسلام بالروم، وبها قبر أفلاطون، مُعجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: قونية، والشهير فيها - الآن - قبر الصوفي والشاعر المولى جلال الدين الرومي، صاحب الطريقة المولوية.

6 - حول حياة السلطان قنقش أرسلان - Kilq Arslan راجع:

The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 50

7 - راجع كتاب: بلاد الترك في العصور الوسطى، زبيدة عطا، دار الفكر العربي، القاهرة / بلا.

8 - ملك شاه الثاني: سلطان سلاجقة الروم، حكم في الفترة ما بين السنوات 1188 - 1192 م. - راجع سلسلة نسب ملوك سلاجقة الروم في الملاحق.

9 - كيخسرو: اسم فارسي من مقطعين: كيا - خسرو.

10 - حول حياة السلطان Keyh Usrev راجع:

The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 67

11 - اسمها القديم بيزنطة، بنى المدينة الجديدة الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير، ودشّنها عام 330 م، فدُعيت باسمه.

وَتُوْفِي رُكْنُ الدِّينِ سُلَيْمَانُ الثَّانِي عام 599 هـ 1203 م، فخلفه ابنه قليج أرسلان الثالث، ولكن الأتراك الأوج - وهم مُعظم قبائل تلك البلاد - لم يقبلوا به، واستدعوا غياث الدين، فدخل قونية عام 600 هـ 1204 م، واستقرَّ بها سلطاناً لأتراك الأناضول، أو سلاجقة الرُّوم⁽¹⁾.

وفي هذه الفترة التي كانت تسود فيها أجواء الجهاد ضدَّ الفرنجة، ومُحاولات استنهاض همم المسلمين للدفاع عن مُقدساتهم في فلسطين، نلاحظ عدم وجود أيِّ فكرة لدى سلاجقة الرُّوم تخصُّ التضامن الإسلامي، علماً أنَّهم كانوا - وقتها - قليلي الانشغال بمُحاربة البيزنطيين⁽²⁾، وسنلاحظ أنَّه لن يكون للدِّين أيُّ أثرٍ بعلاقاتهم السياسيَّة، أو بتحركاتهم العسكريَّة، التي بُنيت - أصلاً - على الجهاد ضدَّ البيزنطيين، واستخلاص الأرض منهم، وإعمارها بالأتراك، بل على العكس من ذلك؛ إذ نجد أن وضعهم على الحدود البيزنطيَّة أخذ يسوده السلام، ومُنذُ تولَّى كيخسرو السُلطنة، ومع كُلِّ مشاكله مع أبناء البيت السلجوقي، نراه يلتفت للتدخل بقرَّة وفاعلية باتجاه الجنوب الشرقي صوب الجزيرة، ومناطق السيطرة الأيوبيَّة.

فما هي دوافع كيخسرو في هذا الاتجاه؟! يعتقد بعضهم أن حالة الانقسام والتشردم في الجزيرة، ووجود أعداد كبيرة من الأتراك والتركمان فيها، هي من أقوى دوافعه⁽³⁾، ويعتقد آخرون بوجود أطماع اقتصاديَّة لكيخسرو في سُهول الجزيرة الخصبة، وللوصول إلى نهر الفُرات كشریان مواصلات⁽⁴⁾. ولكن؛ قبل أن نُقرِّر يجب أن نلاحظ أن العنصر التركي كان ينتشر في الجزيرة، وفي مساحات واسعة حولها، وصحيح أن إمارات الجزيرة مُتفرقة، لكنَّ حُصونها منيعة، وتنظم مُعظمها في أحلاف عسكريَّة قويَّة، كما أن المناطق السهلية قليلة في الجزيرة العليا، ونهر الفُرات في أعاليه لا يصلح للملاحة. لكننا نعتقد أن اندفاع كيخسرو بمُخططاته التوسعية تجاه الجزيرة، ومن ثمَّ؛ حلب، ورُبَّما الشَّام بأكملها، كان بدوافع أخرى، مهَّدت لها علاقة الوفاق والتقارب مع الإمبراطور

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 200، راجع:

The Seljuks, Rice, P. 43.50.

2 - الشُّرُق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 242.

3 - الشُّرُق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 233.

4 - السياسة الأمنيَّة، نورة باذياب، 671 - 675.

البيزنطي في نيقية، الذي لم يُشكِّل مهدداً لدولة السلاجقة، بقدر ما كان درعاً لها أمام دولة اللاتين في القسطنطينيَّة⁽¹⁾، التي حرصت على تحقيق نوع من السلام بينها وبين سلطنة السلاجقة⁽²⁾.

أمَّا الدافع الأكبر لكيخسرو؛ فقد تجلَّى بسعيه لتحقيق حالة من التوازن في مملكته، بإقامة جناح شرقي لها يوازن به الجناح الغربي في آسيا الصُغرى، سُكَّانياً وعقائدياً وجغرافياً، وإنَّ عجز كيخسرو وخلفاؤه عن تنفيذ هذا المُخطَّط، فقد نفَّذته الدولة العُثمانيَّة، التي خلفت دولة سلاجقة الرُّوم بعد عقود من الزمن.

وهذا يُفسِّر لنا السياسة المُتأرجحة ما بين السُّلم والحَرْب والتحالف والمُجوم التي اتَّبعتها دولة سلاجقة الرُّوم مع الممالك الأيوبيَّة وممالك الجزيرة عامَّة من جهة، ومع الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة وإمارات الفرنج ودولة الأرمن من جهة أخرى.

1-Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 275 + 664

2-Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 122

المبحث الثاني

بداية العلاقات الأيوبيّة مع سلاجقة الروم

عندما كان السلطان صلاح الدين يؤحد مصر والشام، ويركز اهتمامه على محاربة الفرنج وتحرير الأرض، كان سلطان سلاجقة الروم في الأناضول، قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان⁽¹⁾، يؤزغ مملكته على بنيه العشرة، "فقوي كل منهم في ثغره، واستقلّ بأمره، ودبّ في طبعه حبّ الاستيلاء والاستبداد، ومدّ عينيه إلى ما في يد صاحبه من البلاد"⁽²⁾.

كان أكبر هؤلاء الأبناء قُطب الدِّين ملكشاه، وهو صاحب سيواس، "فهاجم قونيه عاصمة أبيه، وقتل أمراءه، وأبقاه معه كالمعتقل، واستكتبه أنه وليَّ عهده، والقائم بالسُّلْطَنَة معه، ومن بعده، وذهب لحصار أخيه سُلطان شاه في قيسارية، فتمكَّن الأب من الفرار إلى غياث الدِّين كيخسرو صاحب برغلو، فجمع له، وحشد، وسار معه إلى قونيه، فدخلها، ثُمَّ مات، فتولَّى غياث الدِّين فيها"⁽³⁾.

ويبدو أن أبناء البيت السلجوقي - أثناء صراعهم - قد طلبوا تدخُّل السُلطان صلاح الدِّين،

فأرسل قاضي العسكر ابن الفَرَّاش يتوسط بين السلطان قلعج أرسلان وأولاده، فتردّد يُسفر بينهم سنة، وعاد⁽⁴⁾. وبعد وفاة صلاح الدّين؛ كان يلوح في أفق الشّام أن ابنه الظّاهر غازي صاحب حلب سيُشكّل أكبر قوّة أيّوبية شمالية، وفي عهده؛ تطابقت السياستان الحلبية والسلجوقية، وغلب على علاقتها التحالف والتعاون. وعندما هدّد ليون ملك الأرمن أمن مملكة السلاجقة، بقوّته العسكريّة وحُصونه المنيعة، والأهمّ من ذلك تمكّنه من فتح ميناء بحري على التّوسّط لاستقطاب التجارة العالميّة⁽⁵⁾، قدّم الظّاهر غازي نجدة عسكريّة قويّة، فيها عدد من كبار أمراء حلب، دعمت الجيش السلجوقيّ في هُجومه على مملكة الأرمن⁽⁶⁾.

1 - قال ابن الأثير في أحداث عام 600 هـ: "ثَوِّي رُكْنَ الدِّينِ سُلَيْمَانَ بْنَ قَلِجٍ أَرْسَلَانُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ قَلِجٍ أَرْسَلَانُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ قَلْتَمِشَ بْنِ سَلْجُوقِ صَاحِبِ الرُّومِ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَ أَنْفَرَةَ مِنْ أَخِيهِ، وَقَتْلَهُ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى وَلَدِهِ قَلِجٍ أَرْسَلَانُ بْنُ سُلَيْمَانَ، وَكَانَ صَغِيرًا". (الكامل في التاريخ، 12/ 195).

2 - الفتح القسبي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زگار، 13/ 426، - راجع التفاصيل في: بلاد الترك في العصور الوسطى، زبيدة عطا، 103.

3- الفتح القسبي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 13/426.

4- الفَتْحُ الْقِسِّي، العماد الأصْفَهَانِي، الموسوعة الشاملة، د. سُهَيْل زَكَّار، 13 / 428.

5 - هو ميناء إياس على البحر الأبيض المتوسط، وكانت أهم أسباب الهجمات السلجوقية ضد مملكة الأرمن هي أسباب اقتصادية، فالتنافس على اجتذاب خطوط التجارة بينهما كان على أشده. (السياسة الأمنية، نورة باذياب، 667).

6- مُفَرِّجُ الْكَرْبِ، ابن واصل، 3/ 187، والمُخْتَصِر، أبو الفداء، 3/ 111، وذيل المُختَصِر، ابن الوردي، 2/ 188، وكُنْزُ الدَّرر، ابن أبيك، 7/ 112.

وإزاء هذا التحالف سارع ليون ملك الأرمن - الذي لم يكن غريباً عن معرفة تورّع القوى السياسية في المنطقة، وتناقضاتها - فاتصل بالملك العادل صاحب القوة الأيوبية الأكبر، فوجد العادل بهذا الطلب إقراراً بقوته، وبفاعليتها على مختلف الساحات، فأجاب، وراسل كيخسرو، الذي لبى طلب العادل، وعقد الصلح مع ليون بشروط يستفيد منها كل الأطراف⁽¹⁾، وعلى ما يبدو؛ كانت تلبية كيخسرو لطلب العادل توافق مصالحه، فقد حصل على كل ما يريده من مملكة الأرمن، فلم يكن في نيته القضاء عليها، وهذه سياسة عامة سنراه يطبقها مع الإمارات والممالك المجاورة؛ إذ يكفي منها بالتبعية، ودفع الجزية، وربما يُفضّلها على الاحتلال المباشر.

كما أن مصلحة الظاهر غازي في تحقيق حالة سلم مُستقر مع مملكة أنطاكية، لتردّي أوضاعها الداخليّة والعسكريّة، وحتى يتفرّغ لمُخطّطات عمّه العادل، قد انعكست على نتائج الحملة المُشتركة السلجوقية الحلبية ضدّ الأرمن، ونراها واضحة في أحد شروط المُعاهدة معهم؛ وهو: ردّ الأرمن حصن بغراس للدّاوِيّة، وأن لا يتعرّضوا لأنطاكية⁽²⁾. وإذا تمكّن كيخسرو من تسوية كلّ المشاكل مع إمبراطور القسطنطينيّة اللاتيني هنري دي فلاندرز، فإنّه - على ما يبدو - اضطرّ أن يخوض معركة مع ثيودور لارسكارس⁽³⁾ الإمبراطور البيزنطي في نيقية، فانتصر كيخسرو، ولكنّه قُتل أثناء مطاردة المنهزمين⁽⁴⁾. فخلفه أولاده الثلاثة: قلعج أرسلان (Kilij Arslan) أخذ السُلطنة، وعزّ الدّين كيكاوس (Kay-Kä'ūs) في ملطية، وعلاء الدّين كَيْقْبَاذ (Kubādh - Kay) في نوكات⁽⁶⁾، وسُرعان ما تفرّغوا للصراع على التركة، ممّا أربك سياسة الظاهر، الذي كان يعتمد على تحالفه مع مملكة السلاجقة بشكل أساسي، فحاول التدخّل للصُلح بينهما، لكنّ جُهوده كانت بلا جدوى⁽⁷⁾.

1- زُبْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 629.

2- زبدة الحلب، ابن العديم، 2/ 629، - ونجد أن ابن العديم هو المصدر الوحيد الذي ذكر شروط هذه المعاهدة.

3- تدعو المصادر العربيّة هذا الإمبراطور باسم الأشكري، تعريباً للقبه لاسكارس.

4 - Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 1211

5- علاء الدين قيقباز الأول: (616 - 634 هـ - 1219 - 1236 م)، وقيباز اسم فارسي من مقطعين: كيا - قباد، وقد ورد الاسم لدى معظم المؤرخين العرب بالذال المعجمة، على عادة العرب بقلب كُـل دال فارسية إلى ذال مُعجمة، لذلك؛ أَثَرَتْ رَسْمُهُ بهذا الشكل. وهو أُلْع سلاطين سلاجقة الرُّوم، قال عنه ابن العربي: "كان ممتازاً بين ملوك زمانه بمنظره المخيف، وذكائه المفرط، وشخصه النقي المنزه عن كل الأهواء الرديئة، خلافاً لملوك العرب المعتادين الانغماس فيها". (تاريخ الزمان، ترجمة: إسحق أرملة، 283).

6 - Pre Ottoman, Clud Cahen, p 121

7- مُفَرَّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 3/ 217.

وفي عام 613 هـ 1216م، أثناء اشتداد تخوف الظاهر غازي من عمه العادل، الذي سيطر على مصر ودمشق، وانفرد بأكبر قوة أيوبية، راسل الظاهر كيكائوس بن كيخسرو، فأجابه، وخرج بنفسه يقود الجيش إلى أطراف الجزيرة، ليذهب بحملة مشتركة ضد ملك الأرمن، الذي احتل أنطاكية، وهو - في الوقت نفسه - حليف للعادل، "فندم الظاهر، ورأى أن حفظ بيته أولى، وأن اتفاقه مع عمه أجل"⁽¹⁾، فما الذي جعل الظاهر يندم؟! هل هو الخوف من وقوعه تحت سلطة كيكائوس؟! أم شعر بأنه يخالف غريباً ضد سلطان البيت الأيوبي؟!

وفي الحقيقة نجد أن أقرب الاحتمالات إلى فكر الظاهر غازي هو الهاجس الذي كان يُسيطر على كُُلِّ ملوك الأيوبيين وأمرائهم، وله وجهان: الوجه الأول، حُبُّ التملك والسلطة والوصول إلى السلطنة العظمى إن أمكن، والوجه الثاني، الحفاظ على وحدة البيت الأيوبي، الذي يرون فيه - بالنتيجة - نوعاً من الحماية والأمن المشترك. فراسل الظاهر عمه العادل يستميله، ويطلب منه أن يحلف له ولوليّ عهده.

وكان كيكائوس يحثُّ الظاهر على الخروج، فضاق صدرُ الظاهر، قرأ في عمه العادل لم يصل بعد، فإن خرج يكون قد أفسد ما بينه وبين عمه، وإن رجع عن عزمه يُفسد ما بينه وبين كيكائوس. "وحاول الاعتذار للرومي بوجه جميل، ولشدّة فكره مرض، ومات"⁽²⁾، فلاحَت الفرصة لكيكائوس لاستغلال الظروف الناجمة عن وفاة الظاهر غازي صاحب حلب، ومنها:

- 1- وجود طفل صغير بالحكم في حلب.
- 2- معارضة بعض أمراء حلب لأتابكية طغرل ملك حلب الطفل.
- 3- حقد كيكائوس على الظاهر غازي، فقد عدّه مسؤولاً عن توريثه بالخروج بحملة عسكرية ضدّ الأرمن، ثمّ تخلّى عنه، والتجأ لحلف عمه العادل.
- 5- انشغال الملك العادل بهجوم الفرنج على دمياط، وجهده في تسيير النجيدات من الشام إلى مصر.

1- زُبْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 637.

2- زُبْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 637.

6- وجود مَنْ يُحبّد أتابكية الملك الأفضل لابن أخيه الظاهر من أمراء حلب، والأفضل في طاعته كيكائوس، ويخطب له⁽¹⁾.

"لما مات الظاهر، وتولّى ابنه العزيز وهو طفل، وقع الطمع في بلاده، وحسّن بعضهم للملك الغالب عزّ الدين كيكائوس بن كيخسرو سلطان الروم قصد حلب، وتملّكها، وقالوا: المصلحة أن تستعين بالأفضل، فإنّه في طاعتك، ويخطب لك، والناس مائلون إليه"⁽²⁾.

استدعى كيكائوس الأفضل من سُمّيساط، وأكرمه، وأقنعه أن يسير معه، ويكتب أمراء حلب ليأخذها له، ويأخذ كيكائوس بلاد الأشرف. وكاتب كيكائوس علم الدين قيصر مُتولي قلعة دريساك، فسار إليه، وجاهر بالعصيان، ووافقه الصالح الأرتقي صاحب آمد، وكذلك نزل إليه نجم الدين الطنبغا الظاهري من بهسنا، وكان قد عصي بها⁽³⁾.

وسار كيكائوس والأفضل فأخذوا رعبان، وسُلّمت للأفضل، ثمّ حاصر كيكائوس قلعة بهسنا⁽⁴⁾، ولما أخذت تلّ باشر، وهي من مملكة حلب، احتفظ بها كيكائوس لنفسه، "فنفر الأفضل، وقال: هذا أول الغدر، ونفرت أهل البلاد، فقد كانوا فرحين بمملكة الأفضل، فلما رأوا ذلك خافوا"⁽⁵⁾.

ولما تحقّق الأفضل من سوء نية عزّ الدين كيكائوس "أشار عليه بقصد البلاد، وتأخير حلب، لمُروَر الزّمان في غير فائدة، لئلا يتحصّل مقصودة"⁽⁶⁾. وبالفعل؛ فإنّه خلال الوقت الذي أضاعه كيكائوس، أمام منبج وغيرها، وصلت النجيدات إلى حلب، ووصلها الملك الأشرف موسى بقوّاته

1- زُبْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 644، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 309.

2- مُفَرَّجُ الْكَرُوب، ابن واصل، 3/ 263.

3- مُفَرَّجُ الْكَرُوب، ابن واصل، 3/ 265 - 266، - الطنبغا: هي التّون بفا، لفظة تركية تعني الثور الذهبي، وهو من أمراء الظاهر غازي، زوّجه إحدى سراريه، وولاه قلعة بهسنا، فاتفق مع كيكائوس، ونزل إليه ليُسَلِّمَ القلعة، فتسلّمت زوجته القلعة، وعصيت بها، فعذبّه كيكائوس أمام القلعة، ثمّ قتله، ولم تُسَلِّمَ إليه، وبعد هزيمة كيكائوس؛ تسلّمت نوابُ العزيز القلعة، وأنعم على زوجة الطنبغا وأولادها بإقطاع أعزاز (أخبار الأيوبيين ابن العميد، 10).

4- يقول ابن العميد إن الذي نزل على قلعة بهسنا هو كَيْقْبَاز (أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 10)، وهذا وهم.

5- مُفَرَّجُ الْكَرُوب، ابن واصل، 3/ 263.

6- مُفَرَّجُ الْكَرُوب، ابن واصل، 3/ 266.

التي كان يُهاجم بها أرض الفرنج، عند صافيتا وقلعة الحصن، ليمنعهم من إنجاد الفرنجة النازلين على دمياط⁽¹⁾.

إن حَرَكة كيكائوس في هذا التوقيت الصعب بالنسبة للأيوبيّة، عام 615 هـ - 1218م؛ حيثُ الفرنج يدهمون دمياط، رُبّما تكون هي التي دفعت المؤرّخ أبو شامة لاثّهام كيكائوس بتحريض الفرنج على غزو دمياط⁽²⁾، فأثناء نزول الفرنج على دمياط، واستنفار الكامل، وطلبه النجدة من مُلوك الشّام، والعاذل في مرج الصفر يجمع العساكر، "ورد الخبر بحركة الملك الغالب كيكائوس السلجوقي سلطان الروم إلى البلاد الشّاميّة"⁽³⁾، ومّا لا شكّ فيه أن كيكائوس عرف بغزو الفرنج، واستغلّ الفرصة، ولم يُحرّكه أيّ وازع ديني لمساعدة الأيوبيّة، أو حتّى للوقوف على الحياد، بل نجد أنّه هجم يُريد اقتسام الغنيمة. "وكان كيكائوس يُريد الملك لنفسه، ويجعل الأفضل ذريعة للتوصّل إليه"⁽⁴⁾. ثمّ سار كيكائوس، وفتح منبج، وأمام هذا المُجُوم استنجد طغرل أتابك حلب بالعاذل، الذي رغم اهتمامه الكبير بنجدة ابنه الكامل ضدّ الفرنج في مصر، فإنّه أوعز لابنه الأشرف بالتحرك لانجاء حلب، وانضمّ إليه مانع ابن حديثة أمير العرب.

"فلما سمع عزّ الدّين كيكائوس بذلك، وكان بمنبج، ولّى منهزمًا، وقد ملأ الرعب قلبه، ورحل الأشرف متبعًا له، يتخطّف أطراف عسكره، فأخذ تلّ باشر، ورعبان، وتلّ خالد، وبُرج الرصاص، وأعطى الجميع لابن أخته الملك العزيز"⁽⁵⁾. "وسير كيكائوس ألف فارس هم نخبة عسكره، فوقع عليهم العرب، واستباحوهم قتلاً وأسرًا، فهرب كيكائوس"⁽⁶⁾. وبعد أن استردّ الملك الأشرف كلّ البلاد عاد دُون أن يستثمر انتصاره، وذلك لوصول خبر موت أبيه السُلطان العادل⁽⁷⁾.

1- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 3/ 265.

2- أبو شامة، دّيل الرّوضتين، 112.

3- السُّلوك، المقرئزي، 1/ 309.

4- رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 2/ 644.

5- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 3/ 267.

6- رُبْدَة الحلب، ابن العديم، 2/ 645.

7- بغية الطلب، ابن العديم، 1/ 105، ومُفرّج الكُروب، ابن واصل، 3/ 263، والمنصوري، ابن نظيف، 74.

وفي الحقيقة؛ نستطيع أن نستنتج أنّه كان هناك أكثر من سبب لعودة الأشرف عن مطاردة كيكائوس بعد هزيمته، وليس موت العادل فقط، منها:

1- لم تكن الهزيمة كاملة لكيكائوس، فمُقدّمة جيشه - فقط - هي التي هُزمت، ورُبّما تكون صورة الرّعب التي صوّر بها بعض المؤرّخين تراجّع كيكائوس مُبالغاً فيها، فالأشرف لم يجرؤ على الاصطدام بجيش كيكائوس، الذي لم تمسه الهزيمة، بل كان يقوم بأعمال عسكريّة محدودة خلف خطّ تراجع كيكائوس، بأنّ يتخطّف المتخلّفين، وأطراف العسكر.

2- الأخبار الواردة من مصر عن أخذ الفرنج لدمياط؛ الثغر الاستراتيجي لمصر، وإمكانية تقدّمهم داخل البلاد المصريّة، ورُبّما للشّام، ولا أدري ما هو سند المؤرّخ الدمشقي أبو شامة، أو مصادره، عندما اتّهم كيكائوس بأنّه "هو الذي أطمع الفرنج في دمياط"⁽¹⁾.

وفي عام 611 هـ - 1214 م، عوّض عزّ الدّين كيكائوس تراجعهُ عن الجزيرة وحلب بظفره بعدوّه القديم الأشكري⁽²⁾ قاتل أبيه غياث الدّين كيخسرو، فقد أمسك به جماعة من التّركان أثناء خُروجه للصّيد، وحلوه إلى كيكائوس، فقضى نفسه بأموال طائلة، "وتسليم قلاع وبلاد لم يملكها المسلمون قبل ذلك قطّ"⁽³⁾.

1- دّيل الرّوضتين، أبو شامة، 113 - وقد وهمت د. باذياب؛ حيثُ اعتقدت أن أبو شامة اتّهم كيقيّباذ، السياسة الأمنيّة للسُلطان كيقيّباذ، د. نوره باذياب، 681)، بينما هو - في الحقيقة - قد اتّهم كيكائوس، مع أن نصّ أبي شامة واضح؛ إذ يقول في أحداث عام 615 هـ: "وكانت وفاة كيكائوس في شوال، وهو الذي أطمع الفرنج في دمياط". راجع: السياسة الأمنيّة للسُلطان السلجوقي علاء الدّين كيقيّباذ الأوّل، وأثرها على التّقدم الاقتصادي لبلاده، د. نوره عبد الله باذياب، مجلّة المؤرّخ العربي، العدد الثامن، المجلّد الأوّل، مارس 2000، اتّحاد المؤرّخين، القاهرة.

2- الأشكري: أو الأشكري هو يثودور لاسكاريس، ثاني أباطرة البيزنطيين في نيقية، وقد أسّس هذه الدّولة الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر عام 1204م 600 هـ، عندما استولى اللاتين على القسطنطينيّة في الحملة الرابعة، وخلفه يثودور الأوّل لاسكاريس (4120 - 1222). وتمكّن خلفه ميخائيل الثامن عام 1261م، من العودة إلى القسطنطينيّة، وطرد اللاتين منها.

3- مُفرّج الكُروب، ابن واصل، 3/ 225.

المبحث الثالث

العلاقات في عهد السلطان كيُقباز

تبدلت سياسة سلاجقة الروم تجاه الأيوبيين بعدما مات كيكافوس عام 615 هـ 1218⁽¹⁾، وخلفه أخوه علاء الدين كيُقباز⁽²⁾، الذي راسل الملك الأشرف، واتفق معه⁽³⁾، ضمن سياسة حلّ المشاكل مع الأقباء، والتفرغ للضعفاء. فقد حلّ كيُقباز مشاكله مع الأشرف، ومع عمّه طغرل شاه⁽⁴⁾ صاحب أرزن الروم⁽⁵⁾، وعُدل عن سياسة سلفه ذات الميول للتوسّع جنوباً نحو حلب، ومدّ أنظاره شرقاً نحو أملاك الأراتقة في آمد. ورُبّما كان الدافع الكبير وراء سياسة كيُقباز هو خوفه من الخطر الخوارزمي، فجلال الدين منكبرتي يكتسح ممالك الشرق، ويتقدّم غرباً، وقد مدّ نفوذه نحو الجزيرة وأطراف الأناضول بتحالفه مع الملك المسعود بن الصالح الأرتقي صاحب آمد، ضمن حلف ضمّ المعظم بدمشق، ومظفر الدين في إربل⁽⁶⁾.

وصادت تلك السياسة هوى في نفس الأشرف، الذي كان في ذروة صراعه مع أخيه المعظم وحلفائه، وفي عام 623 هـ 1226م، طلب الأشرف من كيُقباز أن يقصد آمد، فوجّه إليها جيشه، وفتح بعض الحصون حولها، ثم اضطّر صاحبها الصالح الأرتقي أن يتخلّى عن حلفائه، ويلتجئ للملك الأشرف، الذي طلب من كيُقباز الكفّ عن آمد، وردّ ما أخذ من حصونها، ولكن علاء الدين كيُقباز "امتنع، وقال: ما كنتُ نائباً للأشرف بأمرني مرّة، وينهاني في أخرى"⁽⁷⁾، وأراد الأشرف أن يحفظ ماء وجهه مع صاحب آمد، فأرسل إليه نجدة عسكرية لمساعدته في فكّ حصار جيش علاء

1 - دُيَل الروصّتين، أبو شامة، 113.

2 - 634 - 616 هـ / 1219 - 1236 م.

3 - زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2 / 650.

4 - مُنَيْتُ الدِّين طغرل شاه بن قلع أرسلان.

5 - أرزن الروم: بلدة من أرمينية أهلها أرمن، وهي - الآن - ولاية ونواح واسعة كثيرة الخيرات. (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: أرزن الروم)، وهي آخر حدّ بلاد الروم من جهة الشرق. (كتاب الجغرافية، المغربي، 187)، وبها منبع الفرات من شرقيها وشمالها. (تقويم البلدان، أبو الفداء، 385)، ويُقال لها: (Erzurum) أو أرضروم؛ راجع: Pre Ottoman, Clud Cahen, p 125.

6 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 202 - 203.

7 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 203.

الدِّين عن قلعة الكختين، ومع ذلك؛ انتصر جيش علاء الدِّين، واستولى عسكر الروم على الكختين⁽¹⁾، ولم يستطع الأشرف أن يفعل أكثر من ذلك، فمعظم عساكره قد توجّهت نحو حمص؛ نجدة لها من هُجوم المعظم⁽²⁾.

ويبدو أن الأشرف لم يردّ أن يُوسّع الفجوة مع كيُقباز، في وقت لا ينقصه فيه الأعداء، فعاد إلى حرّان محاولاً تهدئة الأمور مع كيُقباز، ورُبّما لم يكن كيُقباز نفسه يرغب بفتح جبهة مع الأيوبيين، مع أنّه يُدرك ضعفهم، فتجاوز الأشرف، وتوجّه إلى سلطان البيت الأيوبي الملك الكامل مباشرة. ففي عام 623 هـ 1226م، قدّم رسول كيُقباز بهدية جليلة إلى الملك الكامل⁽³⁾، ونستطيع أن نعدّها تعبيراً عن حسن النية، ومدّ جسور الصداقة مع الملك الكامل والأيوبيين عموماً، خاصّة؛ بعد تحقيق نصر دميّاط. وقد استمرت السياسة السلمية التي اتّبعتها كيُقباز، حتّى أدّت إلى قيام سلّم قلماً شهدت المنطقة مثيلاً له، ويدلنا عليه تجمع رُسل الخليفة، ورُسل الملك الأشرف، ورُسل الملك المعظم، ورُسل الملك المُجاهد، ورُسل أتابك حلب عام 624 هـ 1227م، في وقت واحد، في بلاط علاء الدِّين كيُقباز⁽⁴⁾. ورُبّما كان من أحد أهمّ أسباب هذا السِّلْم هو الخطر الخوارزمي الذي يلوح في الشرق، ولتأكيد حالة السِّلْم هذه تدخل كيُقباز حتّى بين مُلوك البيت الأيوبي، محاولاً منع الخلافات بينهم، فعندما تحرّك المعظم نحو حمص في عام 624 هـ 1227م، بعد اتّفاقه مع جلال الدِّين الخوارزمي ومظفر الدِّين كوكبوري، أرسل كيُقباز رسولاً عالي المستوى هو المهمندار⁽⁵⁾ نجم الدِّين إلى الملك المُجاهد يحمل جواب رسالة كان المُجاهد قد أرسلها إلى كيُقباز، ويبدو أنّه - بعد الاتّفاق السّابق عنده - أرسل المُجاهد يُخبره بتحريك المعظم ضده، فأوفد المهمندار إلى الملك المعظم، وخلال مُروره في حمص نحو دمشق "اجتمع به السُّلطان الملك المُجاهد في جواب رسالته، وفاوضه، وقال: قد وصلت من صاحبي في قضاء شغلِكَ مع المعظم، وإزالة اعتراضه على جميع مالك"، وصادف وُصُوله تحرّك

1 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 203.

2 - مُفَرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 179.

3 - السُّلُوك، المقرئ، 3 / 344.

4 - المنصوري، ابن نظيف، 143.

5 - المهمندار: هو من يتلقّى رُسل السُّلطان الواردة، ويُنزله في دار الضيافة (صُبح الأعشى، القلقشندي، 5 / 459).

طلائع المعظم نحو حماة، وتصدى المجاهد لها، وردّها خاسرة⁽¹⁾. وكما كان لعلاء الدين كيقباز مخططاته السياسية والعسكرية الخارجية كانت له - في الوقت نفسه - مخططاته ضمن البيت السلجوقي في الأناضول، ففي عام 625 هـ 1228م، استولى كيقباز على أرزنكان⁽²⁾، ثم بدأ يحضّر للهجوم على أرزن الروم، وبها ابن عمه طغرل شاه بن قلع أرسلان، الذي خاف وأعلن تبعيته للملك الأشرف، واستنجد بنائب الأشرف في خلاط. فسار الأمير حسام الدين بن أبي علي نائب خلاط بعساكره، التي كان قد جمعها تحسباً لحركة كيقباز، فقد كان يُدرك أن الهدف الثاني لكيقباز بعد أرزن هو خلاط، فتعاس كيقباز عن قصده، وفشلت مخططاته⁽³⁾.

وفي عام 625 هـ 1228م، اتفق الملك الأشرف والسلطان الكامل على أخذ دمشق من ابن أخيهما داود بن المعظم، ولما تمّ لها الأمر، تسلمها الملك الأشرف مقابل عدّة مناطق من الجزيرة تسلمها السلطان الكامل، فدخل الكامل - بذلك - ميدان السياسة الجزرية، وأعقب هذا الدخول السياسي تحرك عسكري، كان له نتائج كبيرة على سلطنة الأيوبيين، وعلاقاتهم ببعضهم البعض. وأبعدت تلك التسوية الملك الأشرف عن ميدان الجزيرة، وجعلتها آخر اهتماماته، وقربت الكامل من حدود سلطنة سلاجقة الروم، ومهدت لعلاقة تحالف بينه وبين كيقباز، ثم أعقب التحالف قيام أكبر حملة أيوية على بلاد سلاجقة الروم.

فبعد دخول الملك الكامل عالم الجزيرة، عام 626 هـ 1229م، قام صاحب ماردين بإعلان خروجه عن طاعة كيقباز، وخطب للسلطان الكامل في بلاده، وضرب السكّة باسمه⁽⁴⁾. وفي الوقت نفسه كان رسول حسام الدين صاحب أرزن الروم يُرسل هداياه للأشرف، ويعتذر عن تحالفه مع

1- المنصوري، ابن نظيف، 146.
2- أرزنجان: بلدة طيبة مشهورة، كثيرة الخيرات والأهل، من بلاد أرمينية قريبة من أرزن الروم، وغالب أهلها أرمن.
(مُعجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: أرزنجان)، وهي تقع على ضفة الفرات اليمنى. (تقويم البلدان، أبو الفداء، 385)، كان يحكمها بنو منكوجك، وهم أسرة تركمانية، كوّنّت إمارة لها غرب الفرات في أرزنجان وعدّة بلدات حولها، حكمها فخر الدين بهرام شاه، ثم خلفه ابنه علاء الدين داود شاه، وظلّوا يخضعون لسلطنة سلاجقة الروم، حتى احتلّ كيقباز بلادهم في عهد داود، الذي كان عالماً بالطب والفلك، بعيداً عن أمور السياسة والحزب. راجع: ابن بيسي، مختصر سلجوقي نامة، تعريب: محمد السعيد جمال الدين، 143، و.

Pre Ottoman, Clud Cahen. p 126

3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480 - 479.

4- المنصوري، ابن نظيف، 188.

كيقباز⁽¹⁾. إن هذه المواقف المترددة وغير المستقرّة للضعفاء في تحالفهم مع الأقوياء كانت تهدف لكسب أكبر قدر من الوقت في الحكم، بعيداً عن خطر الاجتياح، فلم تكن لمعظم الأمراء في الجزيرة سياسة ثابتة، ولا ولاء دائم، حتّى مع أقرب الأقرباء، وهنا ينطبق القول: لا عدو دائم، ولا صديق دائم، في السياسة، وإنما مصلحة دائمة.

ولكن؛ إن استطاعت هذه السياسة المتقلّبة مع القوى الكبرى أن تمنح الضعفاء بعض الوقت، فلن تتمكن من منحهم كلّ الوقت، في عام 627 هـ 1230م، انضمّ صاحب أرزن ديار بكر - في آخر تقلّباته السياسيّة - للقوة الوافدة الجديدة المتمثلة بجلال الدين الخوارزمي، أثناء غزوه للجزيرة، ولما هُزم الخوارزمي، وهرب، قام الأشرف موسى بمحاصرة أرزن الروم، وفتحها، وأخذ صاحبها، وسلّمه إلى ابن عمه كيقباز، فبقي مسجوناً عنده حتّى مات في سجنه، وسلّم الأشرف أرزن وجميع بلادها إلى نواب كيقباز⁽²⁾.

التحالف الأيوبي السلجوقي:

وعندما داهم الخطر الخوارزمي الجزيرة عام 627 هـ 1230م، اضطرّ الملك الكامل وعلاء الدين كيقباز لتوثيق تحالفهما لمواجهة، فأرسل كيقباز من أخذ يمين الكامل على التحالف والمصافاة والنصرة، وكذلك أرسل السلطان الكامل رسوليّه: الشهاب أحمد⁽³⁾، وجمال الدين أبا القاسم عبد الرحمن السكندري⁽⁴⁾، فحلّفا كيقباز للكامل. وأرسل كيقباز يخبر الكامل أنّه وجّه "خمسة عشر ألف فارس إلى أرزنجان، وعشرة آلاف إلى ملطية⁽⁵⁾، وأنّه حيثُ يأمره الكامل، فطاب قلبُ الكامل بذلك، وكان مُهتّماً من أمر الخوارزمي"⁽⁶⁾، فقد هاجم جلال الدين مدينة خلاط، واحتلّها عام 627 هـ 1230م، وكانت تتبع للملك الأشرف موسى.

1- المنصوري، ابن نظيف، 175.

2- مُفرّج الكرب، ابن واصل، 4/ 300، وكنز الدرر، ابن أيبك، 7/ 299.

3- الشهاب أحمد: من المقرّبين للملك الكامل، تُوفي عام 634 هـ - 1236م.

4- الجمال السكندري: تُوفي عام 651 - 1253م.

5- ملطية: من بلاد الروم مشهورة مذكورة، وهي تُتأخّم الشام (مُعجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: ملطية).

وراجع: التعريف بالمصطلح الشريف، ابن فضل الله العمري، 437، وكتاب الجغرافية، المغربي، 219.

6- المنصوري، ابن نظيف، 195 - 196.

كان الكامل بحران، وعندما نزل إلى الرقة بلغه فيها أخذ جلال الدين الخوارزمي خلطاً، وبلغ ذلك الأشرف وهو بدمشق، فخرج على وجهه، حتى أتى الرقة، فوصلهم رسول كَيْقَبَاز ومعه نص الرسالة التي وجهها إلى جلال الدين الخوارزمي، وهي كما دونها ابن نظيف في تاريخه ضمن أحداث عام 627 هـ قال: "أورد الكامل كيمار رسالة الرومي التي كان سيرها إلى الخوارزمي إلى الكامل الأشرف، وهي أنه قال له:

المولى من بيت كبير، ومازلتم ماشين الحال إلى أن غير والدك نيتك، وخط على نفسه، وآل به الحال إلى ما آل، والآن؛ قد فضلت هؤلاء بيت أيوب، وتجنبت عليهم، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصل من سنين، ولهم الإحسان إلى الجند والرعايا والمجاورين، ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد والقوة، وأنت، فلا أموال، ولا رجال، ولا قوة، وبلادك خربة، ونحن نعرف حالك أكثر منك، ولا نظن أني عدوهم، لا، والله، بل صديقهم، ونسبهم، بما بيننا من الأهلية، والمصاهرة، واختلاط الدم، ولعمري مُعز الدين، منهم الأولاد، ولي منهم الأولاد، ولا شك جرى بيننا قضية عاتبتهم عليها، وعدنا إلى ما كنا عليه، فلا تعتقد غير هذا، والمصلحة عندي نصحك، فتصالحهم، وتعتد بهم أصدقاء، فنحن نعرف ما وراءك من الأعداء، يُعينونك على عدوك، ويقع الاتفاق، وشأنك وشأن الكرج، وغيرهم، وهذا نصحي لك، فلا تغتر بمن يُكاتبك، ويخلف لك، فكله زور، وتدفع للأوقات، وقد - والله - قلت جميع ما يلزمني عقلاً وشرعاً. فكان الجواب أن قال لرسولي: عُد إلى صاحبك، والجواب يصل مع قاصدي"⁽¹⁾.

ونلاحظ على رسالة كَيْقَبَاز للخوارزمي ما يلي:

- 1- أنها إحدى الرسائل السياسية القليلة التي تحتوي موضوعاً بهذه الأهمية، ووصلت إلينا، أو أنه بسبب الترجمة وصل إلينا فحواها، من خلال مؤرخ كان ما يزال - وقتها - يشغل منصب كاتب ووزير الملك الحافظ بن العادل⁽²⁾، الذي كان حاضراً مع أخوته الكامل والأشرف أثناء تسليم الرسالة⁽³⁾.
- 2- بعد أن تستعرض الرسالة واقع البيت الخوارزمي، وتعدد مآثر البيت الأيوبي، وعراقته، يُحدد كَيْقَبَاز موقفه السياسي من الأيوبيين، ونستشف أنه يملك خطأً استراتيجياً بعيد النظر من خلال وصفه لهذه العلاقة، ولكنه - للأسف - تراجع عنها بعد سنوات قليلة، واشتبك مع الأيوبيين.

1- المنصوري، ابن نظيف، 719 - 198.

2- المنصوري، ابن نظيف، 174.

3- المنصوري، ابن نظيف، 197.

3- الأهمية القصوى لهذه الرسالة تتجلى باقتراح كَيْقَبَاز على الخوارزمي صداقة الأيوبيين، لتشكيل حلف يستطيع أن يقف وراء الخوارزمي في مقاومته للتتار، وبالتأكيد؛ يكون كَيْقَبَاز فيه طالما هو الذي اقترحه.

4- يُنبئ كَيْقَبَاز جلال الدين أن هناك أعداء خارج الدولة الإسلامية، بإمكانه التوسّع نحوهم، كالكرج، وغيرهم، بينما لم يتقيد كَيْقَبَاز نفسه بذلك، فقد هاجم ممتلكات الأيوبيين، وأمامه البيزنطيون، والكرج.

5- نلاحظ إدراك كَيْقَبَاز الواقع السياسي لأمراء الجزيرة والشام، وصغارهم، لتأمرهم، وتحريضهم الأعداء على بعضهم البعض، وحلفائهم الأيوبيين الباطلة. ويُنبئ جلال الدين لعدم الاغترار بأقوالهم، والاعتماد على أكاذيبهم، وسيعود كَيْقَبَاز بنفسه للعب السياسة معهم، بطريقتهم التي انتقدها، وكأنه لا يعرفهم. ويبدو أن كَيْقَبَاز قد أدرك أن الخوارزمي لن يقبل بما نصحه به، لذلك وجه مباشرة رسالة خاصة إلى الملك الأشرف يقول فيها:

"تحضر إلى عندي، لتتفق على هذا الذي أضرّ بالبلاد، وأهلك العباد، فعندي المال والرجال"، فشاور الملك الأشرف أخاه السلطان الكامل على ذلك، فوافق⁽¹⁾، ورد الأشرف في جوابه قائلاً لرسول كَيْقَبَاز: "أنا أصل بنفسني جريدة إلى خدمته"⁽²⁾. وفعلاً؛ اجتمعاً بسواس "وبالغ الأشرف في خدمة الرومي؛ بحيث أنه كان يبوس له الأرض، فما يخدمه الرومي على ذلك، وتعاضم عنهم الرومي تعاضماً زائداً بحماقته"⁽³⁾. إن هذا التذلل من الأشرف والتكبر من كَيْقَبَاز يدلنا على الحالة العسكرية المتردية للأشرف أمام هُجُوم الخوارزمي، وعظيم حاجته لدعم كَيْقَبَاز، الذي أدرك ذلك، واستغله غاية الاستغلال. لكن؛ بما أن الأمور بخواتيمها، فقد سار الأشرف وكَيْقَبَاز بقواتهما "إلى جهة خلط، والتقى الفريقان، فولى الخوارزميون وجلال الدين منهزمين"⁽⁴⁾، وتمكّن الأشرف - نتيجة هذا النصر - من استعادة خلط.

1- كنز الدرر، ابن أيبك، 7/ 299.

2- المنصوري، ابن نظيف، 203.

3- المنصوري، ابن نظيف، 205.

4- المختصر، أبو شامة، 3/ 146.

الصراع العسكري بين الأيوبيَّة والسلاجقة:

أدى التحالف بين الأشرف ومعه الأيوبيَّة وبين كَيْقْبَاز وسلاجقة الرُّوم إلى تحقيق نصر لم يكن ليحلُم به أيُّ طرف مُنفرد منهما، وستكون هذه الحَرْب المشتركة سبباً لحرب قادمة بينهما، فبعد أن اطلعُ أمراء جند الشَّام - أثناء توافدهم إلى سيواس في بلاد سلاجقة الرُّوم - على قُوَّة السلاجقة، وحصانة معاقلم، استضعفوها، ووصفوا ذلك للسلطان الكامل، الذي وافق ذلك مُحطَّطاته السياسيَّة والعسكريَّة⁽¹⁾، خاصَّة؛ بعد أن عقد اتِّفاقه مع الإمبراطور فريدريك الثاني، وأمن جبهة فرنج الشَّام، وأخذ دمشق، واستتبَّ الأمر له في الشَّام والجزيرة. وفي الوقت نفسه؛ يبدو أن كَيْقْبَاز كانت له حساباته الخاصَّة لتقييم الوضع العسكري، فقد شجَّعه زوال الخطر الخوارزمي وملاحقة التَّار لجلال الدِّين، ورُبَّما أراد كَيْقْبَاز امتحان قُوَّة الخوَارزميَّة الذين استخدمهم بعد هزيمة جلال الدِّين، واستغلال غياب الأشرف عن ساحة الجزيرة، وانشغاله بملاذَّه في دمشق⁽²⁾. وكما هو مُتوقَّع، فالصدام بين السلطان الكامل، بعد امتداد أملاكه إلى الجزيرة، وبين كَيْقْبَاز الرُّومي، بدأ مُبكرًا؛ لأنَّ كلاً منهما كان يعتقد أن قُوَّة الآخر خطر مُباشر عليه. فالكامل يعدُّ كَيْقْبَاز قُوَّة خارجية غريبة عن الجزيرة، يجب إبعادها، وكذلك كَيْقْبَاز كان يعدُّ الكامل قُوَّة غريبة عن المنطقة، مجالها مصر، وتواجدها في الجزيرة غير مرغوب فيه.

ولمَّا سنحت الأسبابُ المباشرة للصدام، لم يتوانَ الفريقان عن استغلالها، ففي عام 629 هـ بعد أن فتح الكامل أمدَّ أخذ يتسلَّم القلاع التي حولها، فأفسد عليه كَيْقْبَاز قلعتي كرفازاك وكرر، فغضب الكامل عليه، وطلب وساطة الأشرف، باعتباره حليفاً لكَيْقْبَاز، فما نفعت وساطته. وازداد حنق الكامل على كَيْقْبَاز لمنع التَّركمان من القُدوم إلى أراضيهِ لبيع مُنتجاتهم من الأغنام والغلال⁽³⁾، ويبدو أن هذا التحرك للتَّركمان كان له مردود اقتصادي كبير على المنطقة.

وتطوَّرت الأمور العسكريَّة بشكل خطير عندما هاجم كَيْقْبَاز عام 630 هـ 1233م، بلدة خِلاط، واحتلَّها، وقام بعمارتها، ونقل إليها الفلَّاحين، وزرعها⁽¹⁾، وهذا فعل من يرغب بالاحتفاظ بها. فبدأ القلق في الجزيرة، وخاصَّة بعد أن أخذ كَيْقْبَاز عدداً من القلاع والمناطق ما بين خِلاط وأمد، وحاصر حَرَان والرُّها والرَّقَّة، واستولى على مناطق واسعة في الجزيرة⁽²⁾، وكان عند كَيْقْبَاز عدد من أمراء العسكِر الشاميِّين الفارين، يدلُّونه على المواقع، ويدعمونه بالرأي⁽³⁾، إضافة إلى أن تحركه العسكري كان بمُشاركة فعَّالة من حليفه صاحب ماردين⁽⁴⁾.

وخاف صاحب خرترت من أطماع كَيْقْبَاز، فأرسل إلى نائب الملك الكامل في أمد الخادم صواب العادلي يطلب تحسين العلاقة بينهما⁽⁵⁾. أمَّا الملك الأشرف، صاحب خِلاط وصاحب القُوَّة الأيوبيَّة الأكبر في الجزيرة، الذي كان بعيداً عن الساحة الجزيرة، يُقيم في دمشق، ينعم بجنتائها وثمارها؛ فعلى ما يبدو شعر بضعفه أمام كَيْقْبَاز، وأدرك أن الأمر سيكون أكبر من استطاعة قُوَّاته إذا حصل صدام عسكري مُباشر، حتَّى بعد إنجاده بقُوَّات من مصر سيكون النجاح غير مضمون، ولكن؛ يبدو أنَّه قدَّر الخطر السلجوقي حقَّ قدره، ولا بدَّ من أنَّه راسل السلطانَ الكامل، وشرح له الحال، وخوَّفه من كَيْقْبَاز، حتَّى قرَّر الكامل التوجُّه بقُوَّاته إلى الشَّام، ومنها نحو الجزيرة.

كان التحركُ السياسي لكَيْقْبَاز يواكب تحركه العسكري، ولا يقلُّ عنه أهميَّة، فنجد أنَّه أرسل عام 631 هـ 1233م، رسولاً إلى الملك المُجاهد في حمص⁽⁶⁾، ومع أن المُجاهد هو الأكثر قابلية للتفاوض معه لتفصيل الحلف الأيوبي، لأنَّه الأبعد في القُربى بين الأخوة أبناء العادل، ولأنَّ تطلُّعاته لا تخفى على أحد، ولكن؛ هل هو الوحيد الذي راسله كَيْقْبَاز؟ لا نعتقد ذلك، فغالباً كان له تحرك سياسي نشط، وأنَّ رُسُلَه توجَّهت إلى أكثر من أمير وملك أيوبي، ولكن التاريخ لم يُرزق بمُؤرَّخ من داخل قُصورهم يُدوِّن ما حدث كما فعل ابن نظيف الكاتب في بلاط الملك المُجاهد. ومع أنَّنا لم نعرف

1 - المنصوري، ابن نظيف، 255.

2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 147.

3 - المنصوري، ابن نظيف، 255.

4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 147.

5 - المنصوري، ابن نظيف، 262.

6 - المنصوري، ابن نظيف، 259.

1 - مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 74/5، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 314، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 234/2.

2 - المُختصر، أبو شامة، 3/154.

3 - المنصوري، ابن نظيف، 240 - 242.

ردَّ الملك المُجاهد على كَيْقُبَاذ، فإنَّنا نستطيع أن نتوقَّع أنَّه راوغ، وردَّه بلطف، فقد تحرَّك السُّلطان الكامل نحو الشَّام، وطلب من مُلوكه وأمرائه موافاته بقوَّاتهم للتصدِّي لكَيْقُبَاذ، ولم يتأخَّر الملك المُجاهد عن الالتحاق به.

تمكَّن السُّلطان الكامل في حملته تلك من تحقيق أوسع تحالف سياسي عرفته الممالك الأيوبيَّة، وجمع أكبر قُوَّة عسكريَّة لها مُنذُ موت السُّلطان صلاح الدِّين⁽¹⁾، وقد تميَّزت النجداث بحُضور المُلوك والأُمراء بأنفسهم مع قُوَّاتهم، فاجتمع في عسكره ستَّة عشر ملكاً⁽²⁾، ما عدا العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب، الذي وجد نفسه في موقف لا يُحسد عليه، فقد كان مُحرجاً بين حليفه الرُّومي كَيْقُبَاذ وسُلطان الأيوبيَّة الكامل، فأرسل كَيْقُبَاذ للعزيز يقول: "أنا راض منك بأن تمُدَّ بالأجناد والأموال، على أن لا تنزل إليه أبداً"⁽³⁾، ويبدو أنَّ الكامل - أيضاً - رضي منه بذلك، فأعفاه من النُّزول بنفسه⁽⁴⁾، فأرضى العزيز القوَّتين المتحاربتين، ولم يخسر أيّاً منهما، فكلاهما مُقدَّر لموقفه.

وبعد تجمُّع الجيُوش، اتَّضح أن السُّلطان الكامل قد اتَّخذ من هُجوم كَيْقُبَاذ على خلاط ذريعة لتنفيذ مُحطَّطاته السِّياسية والعسكرية، التي كانت تنقسم إلى قسمين:

- الأوَّل: توحيد البيت الأيوبي، والاستفادة من قُوَّاته المُجمَّعة لإلحاق هزيمة شاملة وكاملة بسلاجقة الرُّوم، وأخذ بلادهم.

- الثَّاني: بعد تحقيق النصر، الانتفاذ للمُلوك والأُمراء الأيوبيَّة، والخلاص منهم، ومن مؤامراتهم وخلافاتهم بضربة واحدة، عن طريق نزعهم عن ولاياتهم في الشَّام والجزيرة، وإقطاعهم بلاد سلاجقة الرُّوم⁽⁵⁾.

- 1- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 75 / 5.
- 2- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 673 / 2.
- 3- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 673 / 2.
- 4- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 673 / 2.
- 5- السُّلُوك، المقرئ، 288 / 2.
- 6- الدربند: هو الممرَّ الجبلي الضيق، الذي يخترق جبال طوروس، ويؤدِّي إلى داخل بلاد الأناضول.
- 7- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 674 / 2.

جدّاً⁽¹⁾، وأحسَّ الكامل بتخاذل حُلَفائه، وفساد نِيَّاتهم، وكثرة الغلاء في سوق العسْكر، وامتناع الدربند⁽²⁾، وكلَّها نقاط في غير صالحه، وقد تُودي به إلى كارثة، فانتقل من موضعه على النهر الأزرق⁽³⁾، إلى أطراف بَهْسَنَّا على بُحيرة أنزيت، فوصل إليه صاحب خربت، وهو من المُلوك الأرتقية، وأشار عليه بالدُّخول إلى بلاد الرُّوم من جهته، فأمر السُّلطان الكامل صاحب حماة الملك المُظفَّر، وهو ثقته الوحيد، أن يمضي بميمنة الجيش⁽⁴⁾، على أن يتبعهم ببقية العسْكر. فتحرَّك الملك المُظفَّر ومعه عدد من الأُمراء، فوصلوا خربت كقُوَّة استطاع مُتقدِّمة للجيش، الكامل، لكن؛ لا ندري كيف كشف كَيْقُبَاذ أمرهم، فكان بانتظارهم اثنا عشر ألف فارس سلجوقي، اضطرَّوهم - بعد الهزيمة - إلى اللُّجوء إلى قلعة خربت، وسُرعان ما وصل كَيْقُبَاذ بنفسه، وحاصرهم في القلعة مُدَّة أربعة وعشرين يوماً، ولمَّا يش الملك المُظفَّر من نجدة السُّلطان الكامل، طلب الأمان، فأمنه كَيْقُبَاذ، ونزل إليه المُظفَّر، فأطلقه، واحتلَّ كَيْقُبَاذ قلعة خربت، مع ما حولها من القلاع⁽⁵⁾.

لقد أمضى الملك المُظفَّر قرابة الشهر مُحاصراً في خربت، ولم يتحرَّك السُّلطان الكامل لفكِّ الحصار عنه، وبالتأكيد؛ كان الكامل يعلم بما آك إليه الأمر في خربت. إن عدم تحرُّك السُّلطان الكامل بكُلِّ ما معه من قُوَّات وحُلفاء وجند لإنقاذ المُظفَّر لا يُفسِّره سوى أمر واحد، وهو خوفه من حُلَفائه الذين معه أكثر من خوفه من عدوِّه، فالمعركة مع كَيْقُبَاذ غير مضمونة، وولاء الحُلَفاء من مُلوك الأيوبيَّة مشكوك فيه، بل ويخشى أشدَّ الخشية منه، فقد يستغلُّون مجريات المعركة، أو نتائجها، إن لم تكن مرضية للإمساك به، خاصَّة وثقته الوحيد الملك المُظفَّر مُحاصراً بعيداً، والكامل وحده بين أخوة وأبناء عم، ولكنَّهم مُتفقون عليه، مُعادون له في الباطن، فلذلك ترك المُظفَّر يُواجه مصيره بنفسه، أو ضحَّى به مُكرهاً، وعاد الكامل بشبه هزيمة، بعد أن دخل الشتاء، وانكشف له فساد نوايا حُلَفائه الأيوبيِّين، فسارع نحو مصر⁽⁶⁾ كاتماً غيظه⁽⁷⁾.

- 1- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 77 / 5.
- 2- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 78 / 5.
- 3- رُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 674 / 2، - النهر الأزرق: وهو في أوائل بلد الرُّوم، ويسير مُقابل الدربند.
- 4- وهي قُوَّات حماة، وُفِّدوا للتقليد العسكري الأيوبي المتبع مُنذُ أيام تقي الدِّين والسُّلطان صلاح الدِّين.
- 5- ذيل مرآة الزَّمان، اليوناني، 131 / 1، ورُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 674 / 2، ومُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 79 - 81.
- 6- المُختصر، أبو الفداء، 154 / 3، ورُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 676 / 2.
- 7- السُّلُوك، المقرئ، 288 / 2.

لقد كان الملك المُجاهد هو الساعي لتفريق الكلمة عن السلطان الكامل، وهو الذي أبلغ مُلوك الأيوبيّة بنيّة الكامل نقل إقطاعاتهم إلى بلاد السلاجقة، إن ملكها⁽¹⁾، فهو صاحب مشروع الحذر من قوّة الكامل، بل والداعي للتحالف ضده، والجميع بمن فيهم الكامل كان يدرك أن ما تمّ كان بفعل المُجاهد⁽²⁾، فقد كان له عدّة دوافع ذاتية للقيام بهذا العمل، فهو يعتقد أن السلطنة كانت من حقه، وأن أيّ تحالف للأيوبيّة ضدّ أيّ أحد سيكون هو ضحيّته المحتملة الثانية، لكن؛ ألا يمكن أن يكون له دوافع خارجية، مثلاً؛ اتصال كَيْقَبَاز به، وطلبه منه الخُروج على الحلف، أو شقه إن أمكن؟! فنحن نعرف أن كَيْقَبَاز أرسل للملك المُجاهد رسولاً استقبله المُجاهد في حمص عام 631 هـ - 1234 م⁽³⁾. وعلى كلّ الأحوال؛ صبّت جُهود الملك المُجاهد في مصلحة كَيْقَبَاز في الدرجة الأولى، الذي اشتدّ طمعه لفشل الحملة الكبُرَى عليه، ولتألب المُلوك على السلطان الكامل⁽⁴⁾.

وبعد انقضاء الشتاء جاء ردّ كَيْقَبَاز، فخرج بجُيُوشه إلى الجزيرة، "فاستولى على حرّان والرّها والسويدية وقطينا، أخذها ممّن كان بها من النّوّاب مخامرة، أو باعوها له بيعاً"⁽⁵⁾، واستولى على الرقة، وسبى أهل البلاد مثل الكُفّار⁽⁶⁾، وفعل بالجزيرة ما لا تفعله التّتر⁽⁷⁾، إنّه حنق كَيْقَبَاز على التحالف الأيوبيّ ضده، فالسبي في المناطق المُهاجمة لم يكن معروفاً إلّا من غير المُسلمين، مثل: الكرج، والفرنج، والبيزنطيين، أمّا حُكّام المُسلمين؛ فيتنازعون على ملكية الأرض والقلاع والمدن فقط، وتكون الرعية تبعاً لمن غلب.

ولما بلغ السلطان الكامل والملك الأشرف ما فعله كَيْقَبَاز في ممالكهما توجّه الكامل بجُيُوشه من مصر عام 633 هـ - 1236 م، نحو الجزيرة، والتقى بالأشرف ومعه العساكر الشّاميّة، فأخذوا حرّان والرّها والسويداء عنوة بالسيف، وتسلموا قطينا صلحاً، وهدموا قلعة الرّها والسويداء، فاستردّ الكامل كلّ ما أخذه الرّومي⁽⁸⁾.

- 1- السُّلوك، المقرئ، 2/ 288.
- 2- المُختصر، أبو الفداء، 3/ 158، والفوائد الجلية، الأجدد حسين بن داود، 217.
- 3- المنصوري، ابن نظيف، 259.
- 4- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 98.
- 5- كنز الدرر، ابن أبيك، 7/ 315.
- 6- زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.
- 7- البداية والنهاية، ابن كثير، 13/ 135.
- 8- كنز الدرر، ابن أبيك، 7/ 315، وزُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.

ونلاحظ هنا عدّة أمور، منها: أن السلطنة الأيوبيّة في الجزيرة أصبحت مرتعنة بوجُود المُلوك أنفسهم، وبوجُود الجُيُوش الكثيفة معهم، فلا النّوّاب ولا الحاميات الأيوبيّة يُضمن ولاؤها للملك في غيابه عن الساحة، فكلّ ما استولى عليه الرّومي من الأملاك الأيوبيّة في الجزيرة أخذه بالاتّفاق مع نّوّاب الأيوبيّة، بينما نجد أن استرداد الكامل لتلك المواقع كان بالسيف، فالحاميات والنّوّاب الرّوم قاتلوا بضرّاءة، بينما غادرها كَيْقَبَاز مع القوّة الرئيسيّة من جيشه إلى المرتفعات والدروب عند تخوم بلاده، فهو يعرف أنّه غير قادر على مُواجهة مُباشرة مع بني أيّوب. كما أن الموقف الرّسمي للملوك الأيوبيّة لم يتغيّر تجاه السلطان الكامل، وإن تغيّرت نيّاتهم، فقد اضطُروا للتحرك مع السلطان الكامل في حملته الجديدة، فكان معه حليفه الوفي الملك المُظفر صاحب حماة، ورافقه أخوه الملك الأشرف مُوسى، والملك المُجاهد مع ما في نفوسهم عليه⁽¹⁾. وردّاً على ما قام به كَيْقَبَاز، من سبي وغيره من الأعمال غير المتعارف عليها في الحُرُوب بين مُلوك المنطقة، فقد أمسك الكامل بجند الحاميات والنّوّاب الذين تركهم كَيْقَبَاز، "وأمر بحملهم مُقيّدين في محابر"⁽²⁾ على الجمال أسارى إلى مصر، واستقبح الناس هذه الفعلة منه ولم يجر له ولا لأحد من أهل بيته مثلها، وإنّا حمله إن كان ممتلئاً غيظاً على علاء الدّين⁽³⁾، فالردّ غير المعتاد من قبل كَيْقَبَاز استدعى ردّاً عليه من قبل الكامل.

في عام 634 هـ - 1237 م، وبعد وفاة الملك العزيز صاحب حلب ظهر على الساحة الشماليّة لحلب أمير تركماني اسمه قنغر، يمتلك قوّة عسكريّة كبيرة، مكّنته من الإغارة على أراضي مملكة حلب، وهزيمة جيشها، الذي تصدّى له، "فتخوّف أمراء حلب أن يكون ذلك بأمر الرّومي، فأرسلوا له، فأنكر، وأمره برّد ما أخذ، فردّ بعضه، وانكفّ عن العيث والفساد"⁽⁴⁾. ومع أن عدداً كبيراً من الأمراء التّركمان وغير التّركمان في ذلك الوقت كان لهم أتباع، وأحياناً؛ بعض القوّة الفاعلة، لكنّ هذه القوّة غير العادية لقنغر - التي هزمت جيش حلب - لم تكن لتظهر على أطراف مملكة السلاجقة في ظلّ واحد من أقوى مُلوكها، بدون دعم مُباشر من الملك نفسه، ولم تكن هذه القوّة

- 1- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 109.
- 2- جمع محارة، تُصنّع من الخشب، وتُحمّل على الجمال ليركب عليها المسافر، وهي شقّتان، على كلّ جانب من الجنبتين شقّ، يُسمّى محارة وتُسَمّى شخصاً واحداً. (قاموس الصناعات الشّاميّة، مُحَمَّد سعيد القاسمي، 420).
- 3- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 110.
- 4- زُبْدَةُ الحَلَب، ابن العديم، 2/ 680 - 681.

المبحث الرابع

العلاقات في عهد السلطان كيخسرو

في عام 634 هـ 1237م، توفي علاء الدين كيقباز سلطان سلاجقة الروم بمدينة قيصريّة، ويُخبرنا ابن العديم خبر الشاهد العيان أن أتابك حلب طغرل أوفده باسم الملك الناصر بن العزيز يُعزّي غياث الدين كيخسرو بأبيه كيقباز، "ولتجديد الأيمان عليه على القاعدة التي كانت مع أبيه، فحلفته على ذلك"⁽¹⁾، فحلب - كما يبدو - حريصة كل الحرص على تحالفها مع مملكة سلاجقة الروم، وبالمقابل؛ نجد كيخسرو يُريد توثيق العلاقة مع حلب بأكثر من التحالف، فسلك طريق المصاهرة، وطلب يد أخت الملك الناصر ابنة الملك العزيز، على أن يُزوِّج أخته للملك الناصر، وتمّ العقد على يد المؤرخ ابن العديم، الذي قام بنفسه بإجراء العقد على أخت كيخسرو وكيلاً للملك الناصر⁽²⁾. واستفادت حلب من هذا الحلف بمُساعدة فعّالة، قدّمها لها كيخسرو للتصدّي لفرقة الخوارزمية، التي هدّدت حلب والجزيرة⁽³⁾.

ولم يكن السلطان الكامل بأقل حرصاً من مملكة حلب على طلب ود كيخسرو، فاعتُمت فرصة وفاة والده كيقباز، وأرسل "الفقيه أفضل الدين محمد الخونجي إلى بلاد الروم يُعزّي غياث الدين بأبيه علاء الدين كيقباز المتوفّى، وسيّر معه ذهباً برسم الصدقة، وثياب أطلس برسم أغشية الضريح، وكان ذلك استجلاًباً منه له، ليخرجه عن الأشرف"⁽⁴⁾. فمملكة سلاجقة الروم هي - الآن - القوّة الأكبر على تخوم الممالك الأيوبيّة، وأفراد البيت الأيوبي كلّ منهم له الرغبة بكسبها إلى جانبه، ولكن؛ ليست رغبتهم هي المهمّة، فالمهمّ هو حسابات السلطان الرومي الجديد، ومع رغبة من منهم تتوافق. لم يمض كثير وقت حتّى أخذ كيخسرو يستغل ظروف حلب أكبر استغلال، فبعد كلّ مُقدّمات التحالف والمودة والمصاهرة أرسل في العام نفسه 634 هـ 1237م، عزّ الدين قاضي مدينة

1- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 682.

2- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 686.

3- مُفَرَّجُ الْكَرُوب، ابن واصل، 5 / 183، السُّلُوك، المقرئزي، 1 / 272، كنز الدرر، ابن أبيك، 7 / 330، عقد الجمان، العيني، 18 / 208.

4- كنز الدرر، ابن أبيك، 7 / 319.

- مها بلغت - لتجاوز بقتال جيش مملكة قويّة مثل حلب، هي - بالوقت نفسه - حليفة لمملكة الروم، بدون توجيه ملك الروم نفسه. فإذا كان يُريد - بذلك - من حلب؟ ويبدو لنا أن كيقباز كانت له عدّة أهداف من وراء هُجوم قنغر:

1- تُشكّل هذه الإغارة قوّة استطلاع عسكريّة، اختبرت قوّة جيش حلب، وهزيمته تبين ضعفه، وعدم تشكيكه أيّ تهديد عسكري.

2- بعد موت العزيز لأبّد من الضغط على أمراء حلب، الذين قد يكون لبعضهم آراء لا تصبّ في مصلحة الوفاق مع مملكة الروم.

3- إنّها رسالة واضحة الحروف، قرئت بسهولة من قبل أمراء حلب، فأرسلوا بسرعة إلى كيقباز، يُذكّرونه بالعُهود، ليكفّ عنهم قنغر، فكفّه، وردّ بعض الأسلاب، وأخذ بعضها كأجر لعمله.

4 - أدّت هذه العملية إلى كلّ ما يرغب به كيقباز، فقد سيرّ له طغرل أتابك ملكها الصغير الناصر الثاني "رسولاً في الباطن، وهو أُوحد الدين قاضي خلّاط، فاستحلفه على الموالاة للناصر، والدّبّ عن بلاده، ودفع من يقصدها. فبذل الرومي من نفسه الموافقة والنصرة للملك الناصر، وكفّ من يقصد بلاده بأذى"⁽¹⁾.

إن ما تمّ في الحقيقة هو وضع حلب تحت وصاية وحماية مملكة سلاجقة الروم، ولكن؛ إذا تساءلنا: الحماية بمن؟ وهل لحلب أعداء يُخشى منهم؟! نجد أن كلّ الدلائل تُشير إلى أبناء العادل، السلطان الكامل والملك الأشرف أصحاب الممالك القويّة في مصر والشّام، إنّهُ الخوف القديم من والدهم العادل يتجدّد في كلّ لحظة ضعف تمرّ بها مملكة حلب، ويصبّ ذلك الآن في صالح مملكة سلاجقة الروم القوّة المُجاورة الأكبر.

ونتيجة للعداء الذي استفحل بين السلطان الكامل والملك الأشرف سعى الأشرف لتشكيل حلف شاميّ كبير ضدّ الكامل، انضمّ إليه كلّ الملوك الأيوبيّة في الشّام، ووسّع الأشرف الحلف، فأتصل بعلاء الدين كيقباز عدوهم القديم، وأتفق معه على التحالف ضدّ أخيه السلطان الكامل⁽²⁾.

1- زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 681.

2- المختصر، أبو الفداء، 3 / 167.

دوقات إلى حلب، وكان جيشها مُقيماً على حصار مدينة حماة، فطلب إقامة الخطبة وضرب السكّة في مملكة حلب باسم كيخسرو، ولم يكن أمام أنابك حلب طفريل وأمرائها إلا الموافقة⁽¹⁾، وبذلك؛ أعلنت تبعية حلب رسمياً لمملكة سلاجقة الروم. ومع كُلّ ذلك تبقى تبعية اسمية، لكنّها كانت كافية وذات معان كبيرة للملوك سلاجقة الروم، وخاصّة ما تعنيه من انفراد حلب عن سلطنة الأيوبيين، فالسلطان الكامل بعيد في مصر، والملك الأشرف يتمتع بمناخ دمشق، والقوّة الأكبر في شمال الشّام والجزيرة هي قوّة سلاجقة الروم.

بعد أن وقع الخلاف ما بين الملك الأشرف وأخيه الملك الكامل في عام 635 هـ 1238 م، سعى الملك الأشرف لإقامة تحالف شامي ضدّ السلطان الكامل، وحصره في مصر، ثمّ فكّر في توسيع الحلف، فضمّ إليه كيخسرو صاحب الروم، فكان التحالف الشّامي - الرومي ضدّ الكامل. وسيُتضح لنا معنى خوف حلب والتّجاء أمرائها إلى الرومي من خلال الأحداث التّالية، فبعد موت الأشرف، في السنة نفسها 635 هـ 1238 م، تولى مملكته بوصيّة منه الصّالح إسماعيل، الذي قام بتجديد التحالف الشّامي، والتحالف الشّامي الرومي، وراسل كيخسرو، وأكّد على التحالف بينهما⁽²⁾. لكنّ إسماعيل سرعان ما فقد دمشق، فقد احتلّها السلطان الكامل، الذي كانت خطوته التّالية ضدّ حمص، ثمّ حلب، عندها؛ طلبت حلب النجدة، فأمدّها الرومي بفرقة من أجّل عساكره، وعرض إرسال المزيد، وكاتب كيخسرو السلطان الكامل لثنيه عن قصد حلب، فرفض، ونجت حلب بأيسر السّبيل؛ إذ مات الملك الكامل وهو بهمّ بالمسير إلى حمص عام 635 هـ 1238 م. وفي المقابل؛ فقد اضطرّ كيخسرو عام 640 هـ 1243 م أن يطلب النجدة من حلب لصدّ قوّة التّتار المتقدّمة نحو بلاده، فأرسلوا له نجدة يقودها ناصح الدّين الفارسي، شاركت معه في المعركة ضدّ التّتار، فهزموا، وطلب كيخسرو الأمان من التّتار، فأمنوه⁽³⁾.

1 - زُبَيْدَةُ الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 690.

2 - الْمُخْتَصَر، أبو الفداء، 3 / 160.

3 - ذَيْلُ الْمُخْتَصَر، ابن الوردي، 2 / 252، وأخبار الأيوبيين، ابن العميد، 32، ومختصر تاريخ الدول، ابن العربي، 440، ومُفْرَجُ الْكَرُوب، ابن واصل، 5 / 327.

ولم يكتف كيخسرو بصيغة التحالف مع الملك الصّالح إسماعيل، بل أرسل عام 638 هـ 1241 م، إليه يطلب إقامة الخطبة على منابر دمشق، "فخطب له، وكان يوماً مشهوداً، وحضر رُشَلُ الروم"⁽¹⁾، واستمرّت الخطبة لسلطان سلاجقة الروم كيخسرو حتّى عام 640 هـ؛ حيث أُبطلت خطبته من دمشق، وخطب فيها للصّالح أيّوب⁽²⁾.

وتنفيذاً لمطامع السلاجقة القديمة في الجزيرة استغلّ كيخسرو الثّاني وجوده في التحالف الموجّه ضدّ السلطان الكامل، وأرسل عساكره إلى آمد، فحاصروها، وكان بها المعظّم ثوران شاه بن الصّالح أيّوب بن الكامل، فأنجده أبوه بفرقة الخوّارزمية، الذين طردهم كيخسرو من خدمته، فالتجّؤوا إلى أيّوب، وبعد مُناوشات بسيطة، انهزم عسكر الروم عن آمد⁽³⁾. ولمّا فشل أيّوب في حملته على مصر، وفَقَدَ دمشق عام 637 هـ 1240 م، وتخلّت عنه الخوّارزمية، استغلّ كيخسرو ذلك، ووجّه قوّاته نحو آمد، وتشدّد في حصارها، فهرب منها ثوران شاه بن الصّالح أيّوب نحو حصن كيفا، وتسلمّ عسكر الروم آمد⁽⁴⁾. لقد حقّق كيخسرو الثّاني الحلم القديم لأجداده بامتلاك آمد، واستخلاصها من حُكْم الأيوبيين. ولكن؛ لن يدوم هذا الحال، فقد عادت آمد إلى الحُكْم الأيوبي عام 655 هـ 1257 م؛ حيث وجّه الملك الكامل مُحمّد بن المُظفّر صاحب مَيّافارقين قوّاته، ومعه نجدة من الملك السعيد صاحب ماردين، فهزموا عسكر الروم، واستولوا على آمد، ولكنّ قَدَر هذه البلدة⁽⁵⁾ أعاد الروم إليها من جديد، ففي عام 657 هـ 1259 م، عندما نزل عليها هُولاكو، وتسلمّها من نائب الملك الكامل، قام بتسليمها إلى أولاد كيخسرو الثّاني عزّ الدّين ورُكن الدّين، ووضع معهم نواب التّتار⁽⁶⁾.

إن أهمّ ما يلاحظ على العلاقات السّياسيّة والعسكريّة بين سلطنة سلاجقة الروم والممالك الأيوبيّة أن العلاقات السّلمية بينهما كانت تسود كلّما لاح خطر في الأفق، وأن التحالف بينهما كان يتمّ

1 - السُّلُوك، المقرئزي، 1 / 409.

2 - السُّلُوك، المقرئزي، 1 / 415.

3 - مُفْرَجُ الْكَرُوب، ابن واصل، 5 / 190.

4 - كَنْزُ الدَّرر، ابن أيك، 7 / 343.

5 - الأَعْلَاقُ الْخَطِيرَةُ، ابن شدّاد، 3 / 2 / 524.

6 - الأَعْلَاقُ الْخَطِيرَةُ، ابن شدّاد، 3 / 2 / 526.

في حال وقوع الخطر، وخاصة الخطر الذي يخشى منه السلاجقة، كما كانت الحال في التحالف ضد جلال الدين منكبرتي، والتحالف والتعاون العسكري ضد التتار، فيما عدا ذلك، فالعلاقات - على الغالب - علاقات مناورات سياسية، حتى تسنح الفرصة، فينقض السلاجقة على الممتلكات الأيوبية، كما فعل السلاجقة باحتلال خلاط، وغيرها، أو تتحرك الجيوش الأيوبية ضد سلطنة السلاجقة تحاول احتلال بلادهم، كما فعل السلطان الكامل الأيوبي.

وبالرغم من أن الدين الإسلامي يجمع بين سلاجقة الروم والأيوبيين، فإن السلاجقة لم يدعموا جهاد الأيوبيين ضد الفرنجة، بل على العكس، حاولوا استغلال هجمات الفرنجة لاحتلال مواقع لهم في بعض الممالك الأيوبية، حتى إنه اتهم بعض سلاطين السلاجقة بأنهم أطمعوا الفرنج لأخذ أرض المسلمين في مصر⁽¹⁾.

وبالتالي؛ لم نلاحظ أنه كان للدين أي أثر في العلاقات بين السلطنتين.

وفي النتيجة؛ نستطيع القول بأن سلاجقة الروم لم يساهموا بقيام جبهة تضامن إسلامي ضد الفرنجة، ولم يشاركوا الأيوبيين في الجهاد ضد أعداء الدين المشترك، ولم يلاحظ على تحركاتهم السياسية والعسكرية أنها مدفوعة بأي أثر ديني، مع أن دولتهم - أصلاً - قامت للجهاد ضد البيزنطيين، بل على العكس من ذلك، فقد مد سلاطينهم أعينهم للسيطرة على الجزيرة الشامية، وربما - من خلالها - على الشام، تاركين جهاد البيزنطيين خلفهم، ولا ندري إن كان ذلك لصعوبة التقدم على تلك الجبهة؟ أم لموازنة الجناح الأناضولي للدولة بجناح شامي؟

وكانت لسلطنة السلاجقة علاقات سياسية متميزة مع مملكة حلب الأيوبية، فهي الجار المباشر لهم، وقد بدأت تلك العلاقات بمحاولة السلاجقة احتلال حلب، وانتهت بمعاهدات ومساعدات عسكرية ومصاهرات بينهما. أما علاقة السلاجقة ببقية الممالك الأيوبية؛ فقد بدأت عدائية؛ حيث تم تبادل الهجمات العسكرية. بعد ذلك؛ تحسنت العلاقات بين السلاجقة والأيوبية؛ بحيث أدت للتحالف بينهما ضد الخطر الخوارزمي.

1 - يقول أبو شامة إن كَيْقُبَاذ هو الذي أطمع الفرنج في دمياط، (ذيل الروضتين، 113).

بعض سلاطين سلاجقة الروم

- سُليمان بن قتلмыш بن سلجوق: 471 - 479 هـ 1077 - 1086 م.

1 - قلیج أرسلان بن سُليمان: 485 - 500 هـ 1092 - 1107 م.

2 - ملك شاه بن قلیج أرسلان: 500 - 510 هـ 1107 - 1116 م.

3 - مسعود بن قلیج أرسلان: 510 - 551 هـ 1116 - 1156 م.

4 - قلیج أرسلان الثاني: 551 - 584 هـ 1156 - 1188 م.

5 - ملك شاه الثاني: 584 - 588 هـ 1188 - 1192 م.

6 - كيخسر الأول بن قلیج أرسلان الثاني: 588 - 596 هـ 1192 - 1200 م.

7 - سُليمان الثاني بن قلیج أرسلان: 596 - 599 هـ 1200 - 1203 م.

8 - قلیج أرسلان الثالث بن سُليمان: 599 - 600 هـ 1203 - 1204 م.

9 - كيكافوس الأول: 607 - 616 هـ 1210 - 1219 م.

10 - كَيْقُبَاذ الأول: 616 - 633 هـ 1219 - 1236 م.

11 - كيخسر و الأول / ثانية: 600 - 607 هـ 1204 - 1210 م.

12 - كيكافوس بن كيخسر و: 607 - 616 هـ 1210 - 1219 م.

13 - كَيْقُبَاذ بن كيخسر و: 616 - 633 هـ 1219 - 1236 م.

14 - كيخسر و الثاني بن كَيْقُبَاذ: 633 - 644 هـ 1236 - 1246 م.

15 - كيكافوس الثاني بن كيخسر و الثاني: 644 - 655 هـ 1246 - 1257 م.

الفصل السادس

العلاقات الدُولِيَّة للمملكة الخَوَارزَمِيَّة

المبحث الأول

الدولة الخَوَارزَمِيَّة، وبداية العلاقات مع الممالك الأيُوبِيَّة الدولة الخَوَارزَمِيَّة:

بينما كانت الممالك الأيُوبِيَّة في مطلع القرن السَّابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، تتصارع على التَّفُوز، وأعداؤهم التقليديون فرنج الساحل الشَّامي قد دخلوا في مرحلة سكون لانشغال أُوْرْبَة عنهم بمشكلاتها الداخليَّة، وكان أقصى ما يطمحون إليه هُدنة مع جيرانهم المسلمين، تُتيح لهم التفرُّغ لجمع الثروات، وصلت من بلاد الشَّرْق إلى حُدود الجزيرة قُوة عسكريَّة جديدة هي جيش الخَوَارزَمِيَّة.

ينتسب الخوارزميُّون إلى خوارزم⁽¹⁾ وهو اسم للدولة والأرض، ومنه أُطلق على مُلوكتهم اسم خوارزم شاه. ينتمي الخوارزميُّون إلى الجنس التركي، الذي غلب على مُعظم أجزاء آسيا الوُسْطَى⁽²⁾، وفي وُجُوْههم أثر التُّرك، وفي طباعهم أخلاق التُّرك⁽³⁾.

ينتسب مُلوكت خوارزم إلى أنوشتكين، وهو مملوك تركي للأمير السلجوقي بلباك، اشتراه من بلاد الغور في أفغانستان⁽¹⁾، وقَدَّمه للسُّلطان ملكشاه، فأصبح ساقياً عنده⁽²⁾، وترقَّى في خدمته، حتَّى أصبح شحنة لخوارزم⁽³⁾.

وفي عام 490 هـ 1097م، أرسل أنوشتكين ابنه قُطب الدِّين مُحَمَّد إلى مدينة مرو لتلقِّي العلم، فاتَّصل هناك بحاكم خراسان السلجوقي، الذي عيَّنه والياً على خوارزم، ولقَّبه خوارزمشاه⁽⁴⁾، ثُمَّ أقرَّه في عمله الأمير سنجر السلجوقي⁽⁵⁾، فتمكَّن مُحَمَّد من تثبيت مُلكه، وتأسيس الأسرة الخَوَارزَمِيَّة الحاكمة⁽⁶⁾.

وبعد موت قُطب الدِّين عام 521 هـ 1127م، خلفه ابنه أنسر، الذي خرج عام 530 هـ 1136م، عن طاعة السلاجقة، وخاض صراعاً طويلاً مع سنجر، انتهى بخُضُوعه إليه، وطلب العفو منه، فوافق، وأعادته إلى بلاده⁽⁷⁾.

وبعد وفاة أنسر، خلفه ابنه إيل أرسلان⁽⁸⁾، الذي أنهى - عملياً - سُلطان السلاجقة على العراق⁽⁹⁾. وتُوِّفِّي إيل أرسلان عام 589 هـ 1193م، فخلفه أخوه علاء الدِّين تكش، الذي خاض عدَّة معارك مع الخطا⁽¹⁰⁾، وطالب سُلطان الخَوَارزَمِيَّة أن يكون له ما كان لسلاطين السلاجقة من سُلطة في بغداد⁽¹¹⁾.

1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 10 / 267.

2- مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 322.

3- تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحَمَّد ألتنوحي، 1 / 255.

4- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 10 / 267.

5- حبيب السير، خواندمير، 2 / 629.

6- عُرِفَتْ هذه الأسرة باسم خوارزمشاه، وقد حكمت ما بين 490 هـ - 627 هـ - 1097م - 1230م.

7- نهاية الأَرَب، النويري، 26 / 385.

8- أحداث التاريخ الإسلامي، ترماني، 3 / 398.

9- راحة الصُّدُور، الراوندي، تعريب: إبراهيم الشواربي، 513.

10- الخطا: أقوام من العَرَق التركي، موطنهم سهوب أواسط آسيا، وكانوا بدواً يسكنون الخيام.

11- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 63.

1- خوارزم: أرض شاسعة خصبة على نهر جيحون - أمودريا - وهي مُوزَّعة - اليوم - بين جمهوريَّتي تركمانستان وأوزبكستان، ونسبة إليها أطلق العَرَب اسمَ بحر خوارزم على بُحيرة آرال. ويقول ياقوت الحموي: إن خوارزم اسم تركي يعني لحم وحطب. (مُعْجَم البُلدان، ياقوت الحموي، مادة: خوارزم)، ويعترض الدُّكْتُور إحسان حقِّي في تحقيقه لكتاب الدولة العلية العُثمانيَّة على معنى التسمية، ويقول إن الأصحَّ أنَّها تعني أكل الحَرْب؛ أي: المستميت في الحَرْب. (الدولة العلية العُثمانيَّة، مُحَمَّد فريد، تحقيق: إحسان حقِّي، ح / 3، ص / 61).

2- الأتراك الخوارزميُّون، صبري سليم، 13.

3- مُعْجَم البُلدان، ياقوت الحموي، مادة: خوارزم، وراجع: آثار البلاد، القزويني، 520.

ويعتقد عباس إقبال أن رد فعل الخليفة الناصر كان باستعداد الغوريين عليه، وأن تحالف الخليفة مع جلال الدين الحسن الثالث صاحب قلاع الإسماعيلية كان موجهاً ضده⁽¹⁾. وكان لتكش ولدان، الأول: غياث الدين، وقد استولى على عراق العجم، وكرمان وفارس⁽²⁾، والثاني: جلال الدين منكبرتي⁽³⁾، وهو الابن الأكبر لتكش⁽⁴⁾، والذي احتل غزنه عاصمة الدولة الغورية عام 613 هـ - 1216 م⁽⁵⁾، وأسقط اسم الخليفة العباسي من الخطبة والسكة بفتوى عدم أهليته، وعين بدلاً عنه أحد أبناء الحسين بن علي خليفة للمسلمين⁽⁶⁾. وهناك إشارات إلى أن الخليفة العباسي اتخذ أسوأ رد فعل ضد منكبرتي؛ حيث يعتقد البعض أن الخليفة الناصر راسل جنكيز خان، وحثه على التحرك غرباً نحو بلاد الإسلام؛ للقضاء على الخوارزمي⁽⁷⁾.

بداية العلاقات الأيوبية بالدولة الخوارزمية:

كان أول احتكاك دبلوماسي على مستوى عالٍ بين دولة الخوارزمية ودولة الملك العادل الأيوبي قد جرى عام 615 هـ؛ حيث وصل رسول خوارزم شاه إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر، ومع أن ظروف العادل لم تكن عادية، فالفرنج يضغطون عليه في فلسطين، ثم نزلوا على دمياط ثغر مصر، ومع ذلك؛ فقد بعث بجواب رسالة الخوارزمي مع جمال الدين محمد الدولي خطيب الجامع الأموي بدمشق، ومعه قاضي العسكر نجم الدين ابن علي الحنفي، وقد وصلا همدان،

1 - تاريخ إيران، عباس إقبال، تعريب: محمد علاء منصور، 332.

2 - مفترج الكروب، ابن واصل، 4/ 136.

3 - منكبرتي: تعني هبة السماء، أو مبعوث السماء (Heaven sent) انظر: History of Bokhara, Vambery. P, 134

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 105/ 10.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 105/ 10، ونهاية الأرب، النويري، 27/ 214.

6 - ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، 4/ 2/ 1085.

7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 440، ومفترج الكروب، ابن واصل، 4/ 39، وراجع مناقشة ذلك في: مبحث العلاقات مع دولة الخلافة من هذا الكتاب.

فوجدا الخوارزمي قد واجه هزيمة قاسية أمام التتار، فساروا إلى قرب بخارى، واجتمعا بولده جلال الدين⁽¹⁾، وأثناء الاجتماع؛ أخبرهما جلال الدين ب وفاة الملك العادل⁽²⁾.

ومع أن رسالة خوارزم شاه للعادل بقيت سرية، وتشتت أمر الدولة الخوارزمية بالهجوم الصاعق للتتار عليها، ثم مات محمد خوارزم شاه، فإن أحداً لم يذكر فحوى الرسالة، أو غاية الخوارزمي من إرسالها، لكننا نستطيع أن نقدر ذلك، فالخوارزمي كان - وقتها - يخوض صراعاً مريراً مع الخليفة، ويطلبه بنفوذ السلاجقة على الخلافة باعتباره وريثهم، وإن كان بشكل غير شرعي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد كان خلفه في الشرق جحافل التتار، وقد جرب قدراتهم القتالية، ومثابرتهم.

ولذا؛ نعتقد أن مراسلته مع العادل كانت لتأمين عمق استراتيجي له في صراعاته المتعددة، ومما يؤكد ذلك أن ابنه جلال الدين منكبرتي - بعد هزائمه المتوالية أمام التتار - لجأ إلى الجزيرة الشامية، ودخلها غازياً أولاً، ثم لاجئاً ثانياً.

ولكن خوارزم شاه - ربّما - لم يكن يعرف بأن حال العادل ليست بأفضل من حاله، فالفرنج يهاجمون من فلسطين، وهو يتراجع أمامهم نحو دمشق، ثم نزلوا في ثغر الديار المصرية دمياط، وهذا ما أهدم لدرجة الموت، وكان ذلك بعد أيام قليلة من مقابلة رسول الخوارزمي، وتسيير رسوليّه إليه، اللذين - بالتأكيد - حملا النوايا الطيبة لا غير. لكن؛ مع انعدام النتائج المباشرة لهذا الاتصال الدبلوماسي الأول، فقد ترتّب عليه - على ما يبدو - نتائج بعيدة وعلاقات متناقضة ما بين سلم وحرب بين جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزم شاه وبين الأشرف بن العادل والمُعظم بن العادل فيما بعد. وخاصة عندما تحرك منكبرتي غرباً، ربّما مدفوعاً بضغط التتار، فاحتل أصفهان،

1 - النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 223.

2 - ذيل الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، 20/ 210.

واستولى على خوزستان، وهي للخليفة العباسي الناصر، ثم زحف نحو بغداد محاولاً احتلالها¹،
"وَفَعَلَ أَشْنَعُ مَا يَفْعَلُهُ النَّتَرُ"⁽²⁾.

ثم ترددت رُسُل جلال الدين، السلطان الجديد للدولة الخوارزمية، إلى الملك الأشرف بن
العاذل، وإلى معظم ملوك الأيوبيين في الشام⁽³⁾.

وفي عام 621 هـ 1224م، كانت العلاقات بين الممالك الأيوبية تعاني من أزمة حادة وانقسام
شديد، فقد اتفق الملك الكامل صاحب مصر مع أخيه الملك الأشرف صاحب الجزيرة على أخيهما
الملك المعظم صاحب دمشق، وضغطاً عليه، مما اضطره للتفكير بحليف قوي، وكانت أخبار
انتصارات جلال الدين منكبرتي وتقدمه السريع نحو العراق تُدَوِّي في المنطقة، فاعتقد المعظم أنه وجد
به الحل لمشاكله مع إخوته.

وعندما كان منكبرتي في أذربيجان بعث إليه المعظم محتسب دمشق صدر الدين البكري⁽⁴⁾،
ورتب معه "رجلاً صوفياً من خانقاه السمساطي يُقال له الملق"⁽⁵⁾، وربما لم يكن المعظم واثقاً من
استجابة منكبرتي له، وقبوله التحالف معه، فلم يُرسل له وزيراً، ولا قاضياً، بل أرسل المحتسب مع
الصوفية، واخترع له قصة لتمويه سفارته، فقد كان الجراد يغزو أطراف دمشق، فأعلن أنهم
سيذهبون إلى أذربيجان لإحضار ماء من عين فيها، فتتبع الماء طيور السممر التي تصل دمشق معه،
وتلتهم الجراد. ومع أن الجو العام كان يسمح بتصديق هكذا رواية، فإن الأمر لم يخف على المهتمين،
الذين أدركوا أن المقصود هو الاتصال بمنكبرتي المتواجد في أذربيجان. وعاد رسول المعظم يحمل
أفضل الأخبار له، فقد وعده منكبرتي بالتحالف والدعم، وأرسل له خلعة وقرساً، وفرح المعظم

بذلك، ولبس الخلعة، وركب الفرس يشق شوارع دمشق، وكان إذا حلف يحلف برأس السلطان
جلال الدين⁽¹⁾. "وهذه كانت أول علاقة بين الخوارزمي جلال الدين وبين البيت الأيوبي"⁽²⁾.

وفي عام 622 هـ 1225م، تقدم منكبرتي باتجاه بغداد، وفتح دقوقا القريبة منها، وكتب إلى
حليفه المعظم يقول: "تحضر أنت ومن عاهدي، واتفق معي، حتى نقصد الخليفة، فإنه كان السبب في
هلاك أبي ومجيء الكفار إلى البلاد"، فرد المعظم: "أنا معك على كُـلِّ أحد، إلا الخليفة، فإنه إمام
المسلمين"⁽³⁾. ويبدو أن الخليفة استشعر الخطر من زحف الخوارزمي، وأراد أن يفت بعضه، ويبعد
عنه خلفاءه؛ وأتهم المعظم، فأرسل إليه عام 623 هـ 1226م، تحيي الدين بن الجوزي رسولاً،
وإرسال هذه الشخصية الهامة يدل على أهمية المهمة بالنسبة للخليفة، فقال ابن الجوزي للمعظم في
رسالته: "المصلحة الرجوع عن هذا الخارجي إلى إخوانك، وتصلح بينك وبينهم"، قال المعظم: "إذا
رجعت عن الخوارزمي، وقصدي إخواني، تُنجدونني؟ قال: نعم"، فرد المعظم: "ما لكم عادة
تُجدون أحداً"⁽⁴⁾. وفي هذه الأثناء؛ كانت "الرُسُل لا تنقطع بين المعظم وخوارزم شاه جلال
الدين"⁽⁵⁾، وعندما تأكد الملك الكامل من تحالف أخيه المعظم مع جلال الدين منكبرتي "خاف من
ذلك، وكاتب الإمبراطور ملك الفرنج، في أن يقدم إلى عكا؛ ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه"⁽⁶⁾.
إن صراع الأخوة أبناء العادل نتيجة لجوئهم للتحالف مع الغرباء أودى بالمنطقة لتكون مجال مطامع
ملوك الشرق والغرب، فمنكبرتي الخوارزمي والإمبراطور فريدريك الثاني الفرنجي سيجدان
فرصتهما المناسبة للمطالبة بحقوقهم في الجزيرة والشام نتيجة وعود أبناء العادل المختلفين
المتنازعين، الذين ضحوا بالبلاد من أجل ضرب بعضهم البعض، فمنكبرتي أخذ خلاط وعدة بلاد
أخرى في الجزيرة، وفريدريك أخذ القدس، مما سيؤدي إلى نتائج مستقبلية، غاية في الخطورة.

1- مرآة الجنان، اليافعي، 43.

2- المختصر، أبو الفداء، 3 / 43 - 36.

3- دُيَلِّ الرُّوضَتَيْنِ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20 / 277.

4- دُيَلِّ الرُّوضَتَيْنِ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20 / 284.

5- المختصر، أبو الفداء، 3 / 137.

6- المختصر، أبو الفداء، 3 / 713 - 138.

1- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4 / 136.

2- السُّلُوكُ، المقرئ، 1 / 215.

3- المنصوري، ابن نظيف، 150.

4- دُيَلِّ الرُّوضَتَيْنِ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20 / 253.

5- دُيَلِّ الرُّوضَتَيْنِ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 20 / 273.

المبحث الثاني

العلاقات بين الملك الأشرف وجلال الدين منكبرتي

بشكل مفاجئ؛ ساد السلام بين جلال الدين منكبرتي وبين الخليفة المستنصر، فاعترف منكبرتي بشرعية الخليفة، وخطب له على منابر دولته⁽¹⁾. وكان منكبرتي - في الحقيقة - مضطراً لهذا الصلح؛ بسبب ضغط التتار الشديد عليه، ولعدم تقبل أهل خراسان والعراق لحكم الخوارزمية، فهم يعدونهم خارجين على السلاجقة، غصاة للخليفة⁽²⁾، إضافة إلى عصيان أحد أمراء منكبرتي، الذي اضطر للسير نحوه باتجاه الشرق، قبل أن يستفحل أمره⁽³⁾، كل ذلك أجبر منكبرتي على ترك مشاريعه في العراق ضد الخليفة. أما المشاريع الأهم، التي اضطر لتركها أيضاً، فهي مشاريعه في الجزيرة والشام؛ حيث كان يأمل أن يمد نفوذه إليها بالتعاون مع خلفائه هناك. وكان منكبرتي قد اتفق مع الملك المعظم صاحب دمشق، ومظفر الدين صاحب إربل، وصاحب آمد، وأمير كيفا، ووزعوا الأهداف التي يجب مهاجمتها، فكان لمظفر الدين الهجومي على الموصل، واحتلالها، وللمعظم الهجومي على حمص وحماة، واحتلالها، أما جلال الدين منكبرتي؛ فيقصد مدينة خلاط، ويحتلها، وبذلك يضربون الملك الأشرف صاحب خلاط وخلفاءه أصحاب الموصل وحماة وحمص⁽⁴⁾. وفي الحقيقة؛ كان جلال الدين منكبرتي هو الذي يملك القوة الضاربة للحلف، فلما اضطر للعودة نحو بلاده الشرقية انحل الحلف، ولم يترتب أي نتيجة عن التحرك العسكري لخلفائه في الشام والجزيرة، مع أن مظفر الدين هاجم الموصل، والمعظم هاجم حمص وحماة، لكن غياب الخوارزمي وتحرك الأشرف السريع مع حليفه كيقباز كفلاً بإفشال الهجومين، وانسحاب صاحب آمد وصاحب كيفا من الحلف، وعودتهما لولاء الأشرف⁽⁵⁾.

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 280.

2 - تاريخ التتار، عباس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 129.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 187.

4 - مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ، ابن واصل، 4/ 176.

5 - حول تضارب مواقف الأميرين الأرتقيين صاحب آمد وصاحب كيفا، راجع: (الإمارات الأرتقية، عباد الدين خليل، 179 - 181).

وبعد صلح منكبرتي مع الخليفة لم يبق أمامه مجال للحركة إلا باتجاه الشمال، نحو بلاد الكرج، وبالتأكيد؛ كان منكبرتي يدرك أنه سيكون وجهاً لوجه - بعد هجومه على الكرج - مع مملكة سلاجقة الروم، ومع الممالك الأيوبية في الجزيرة، لذلك؛ أوفد القاضي مجير الدين عمر ابن سعد الخوارزمي رسولا إلى علاء الدين كيقباز سلطان سلاجقة الروم، ومن ثم؛ إلى ملوك الشام، يخبرهم بنية السلطان جلال الدين بالجهاد ضد الكرج، ويطلب منهم العون والمساعدة ضد أعداء الإسلام⁽¹⁾. ويبدو أن كل الملوك الذين خاطبهم رسول منكبرتي كان لهم الرأي نفسه، والتساؤل نفسه: متى كان منكبرتي يهتم بالإسلام وجهاد أعدائه؟! وربما كانت أجوبتهم دبلوماسية لرسوله، لكن؛ في الواقع، لم يترتب أي نتائج ملموسة على مبادرة منكبرتي هذه، وغالباً كان يتوقع ذلك، فقد أسرع بالزحف إلى بلاد الكرج، واستولى على عاصمتهم تفليس⁽²⁾، وأصبح - بذلك - على حدود الجزيرة الشامية، وعلى احتكاك مباشر بالممالك الأيوبية فيها. ويبدو أنه "قد عزم على قصد بلاد الشام، لكن؛ صرفه الله عنها"⁽³⁾، وفي الحقيقة؛ انصرف منكبرتي عن غزو الجزيرة والشام لأن جيوش التتار كانت قد اقتحمت بلاده الشرقية.

وبعد فتح جلال الدين منكبرتي عاصمة الكرج تفليس، ترك بها حامية قوية بقيادة وزيره شرف الملك، فقلت عليهم الميرة، فخرجوا عام 623 هـ 1226 م، من تفليس نحو أرزن الروم، فنهبوا منطقتها، وأخذوا من الغنائم الشيء الكثير، وكان طريق عودتهم على أطراف خلاط، فاعترضهم نائب الأشرف فيها الحاجب حسام الدين علي، وأوقع بهم، واسترد كل ما نهبوه. فخاف الوزير شرف الملك، وأرسل إلى جلال الدين يحثه على العودة، ويحذره مغبة التأخير للانتقام من الحاجب علي. فعاد جلال الدين نحو خلاط، وحاصرها، واحتل الرض، ونهبته عساكر الخوارزمية. لكن أهل خلاط استماتوا في القتال، ووقف الحاجب علي يُقاتل أمامهم، حتى ردوهم، ثم اشتد البرد، ونزل الثلج، فرحل جلال الدين عن خلاط⁽⁴⁾.

1 - تاريخ التتار، عباس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 144.

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 211.

3 - السلوك، المقرئ، 1/ 339.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 455 - 461.

وكان جلال الدين منكبرتي عندما احتلَّ أذربيجان قد تزوج زوجة ملكها السابق أوزبك، وهي ابنة السلطان السلجوقي طغرل، وكانت مُتَحَكِّمة في البلاد خلال عهد زوجها أوزبك، فأهلها جلال الدين، ونزع منها صلاحياتها السابقة، وندب للنيابة عنه في خوي⁽¹⁾ شرف الدين الباخريزي، الذي أراد التحكُّم بينت طغرل، "ونزل بدارها، واستخرج دفائنهما، وخزائنها، وطلبت اللحاق بالسلطان، فأبى"⁽²⁾، فتقمت عليه، واتَّفقت مع أهل مدينتها خوي، واتَّصلوا بنائب الملك الأشرف في خلّاط الحاجب حُسام الدين علي، واستدعوه ليتسلَّم البلاد. "وكان شرف الملك معتقداً بخُلُوء الجوّ، فورد الخبر بقُرب الحاجب بالعساكر الشَّاميّة، فوُلّي صوب تبريز، وخلّى أذربيجان، فوصل الحاجب علي"⁽³⁾، وملك خوي وما جاورها من الحُصُون والبُلدان، وذلك في عام 624 هـ 1227م، وقويت شوكتة هناك، ولو أقام في أذربيجان لملكها بالكامل، لكنّه قرَّر العودة إلى خلّاط، واصطحب معه زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل⁽⁴⁾.

وكان ردُّ الخوارزمي سريعاً، فبعد عودة الحاجب علي من خوي، قام شرف الملك الباخريزي وزير ونائب السلطان جلال الدين بالهجوم على قلعة شميران⁽⁵⁾ التي كانت للملك الأشرف، وحاصرها⁽⁶⁾. ويُخبرنا صاحب سيرة منكبرتي عمّا جرى في هذا الحصار، فيقول: "فإذ بأصوات الكوسات⁽⁷⁾، وإذ بأعلام صفر وراءها أعلام حمر، فوُلّي شرفُ الملك منهزماً، وترك مُعسكره. وسار الطلب وراء شرف الملك... ثُمَّ أنجد السلطانُ شرفَ الملك... وسار يطلب الحاجب علي، فالتقيا، وهُزم الحاجب، وقُتل تاجُ المُلوک بن العادل، وغنم شرف الملك مُعسكرهم، وسير الغارات"⁽⁸⁾. مع تعادل القوّتين، من حيثُ نتائج الوقائع، فإنَّ القوّة الأيوبيّة هي الأفضل، فالحاجب عليّ هو نائب

1 - خوي: بلد مشهور من أعمال أذربيجان. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادّة: خوي).

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 825 - 259.

3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 260.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 471.

5 - شميران: قال ياقوت: شميران بلد في أرمينية، وشميرام حصن بأرمينية، (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، 3/ 365).

6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 269.

7 - الكوسات: صنجات نحاس، (صُبِح الأعشى، القلقشندي، 4/ 9-13)، - النقارات: طبول صغيرة (صُبِح الأعشى، القلقشندي، 3/ 475).

8 - سيرة منكبرتي، النسوي، 270 - 275.

للأشرف، وبدون دعم مُباشر من سيّده، تمكَّن من تحقيق انتصارات كبيرة بالنسبة لإمكاناته العسكريّة ولموقعه السِّياسي، بينما كانت القوى الخوارزميّة تحتاج لدعم السلطان المُباشر، أو لقسم من جيشه، لتُحقِّق أيّ انتصار، وما ذلك إلّا لأن الدولة الخوارزميّة تُقاتل في أراضٍ شبه مُعادية، حتّى في المناطق التي تُسيطر عليها، وهي دولة مُجهدة استنزفها التُّنار، وطاش حجر سلطانها.

وبعد هذه الصراعات الجانبية بين الباخريزي نائب جلال الدين، والحاجب علي نائب الأشرف كان لا بُدَّ من تصعيد الموقف، وخاصّة عندما لمس جلال الدين هدوءاً ملحوظاً على جبهته مع التُّنار، فقاد جُيُوشه، وتوجّه نحو الجزيرة. وكانت أوّل بُلدان الجزيرة التي احتلّها منكبرتي هي ماردین، وعندما دخلها، دَوَّت أخبار قُوّته الوحشية وأفعاله التي لم يفعلها إلّا التُّنار، في كل أنحاء الشَّام⁽¹⁾، وامتدَّت أطماعه نحو الجزيرة كلّها، ورُبّما الشَّام من بعدها، لما لمسه من ضعف القوى الأيوبيّة فيها، وتفرَّق كلمتهم، ومُخالفة المُعظَّم له ضدَّ أخُوّيه الكامل والأشرف، وخاصّة أن الأشرف قد أزال بيدّيه شوكة طالما وقفت في حلق أطباع منكبرتي بعزله الحاجب علي عن خلّاط، واعتقاله فيها.

ومما شجّع منكبرتي أكثر على اقتحام الجزيرة وُجُود أمراء فيها، كاتبوه، وحالفوه، مثل صاحب سر ماري، وصاحب أرزن الرُّوم، اللّذين قدّما له النجدة العسكريّة، وأمّدها بما يلزم من المُعدّات والمؤن⁽²⁾، عندما حاصر مدينة خلّاط.

ألقي جلالُ الدين منكبرتي الحصار على مدينة خلّاط، وهي للملك الأشرف، فقاومت حامية المدينة حصارَ الخوارزمي لفترة طويلة نسبياً⁽³⁾، دُونَ أن يتحرَّك صاحبها الملك الأشرف، الذي رُبّما كان مشغولاً بأُمُور دمشق، أو أنّه كان يأمل بفشل الحصار، أو بفكّه عن طريق التحرُّك السِّياسي، فقد أنزل نائب خلّاط عزّ الدين آيبك رسولاً إلى جلال الدين يبذل له الخُضُوع والطاعة، ويُخبره أن الملك الأشرف "ما أمره بالقبض على الحاجب إلّا لإساءته الأدب مع السلطان، والتخطّي إلى بلاده من غير أمر صدر إليه، وها هو قد ولّاني خلّاط مأموراً بطاعة السلطان، وأتباع مُرادِه". وبالعِرض رسول عزّ

1 - السُّلُوك، المقرئزي، 1/ 339.

2 - المنصوري، ابن نطف، 83، وتاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحَمَّد التونجي، 2/ 84.

3 - قاومت مدينة خلّاط حصارَ الخوارزمي عشرة أشهر. (تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحَمَّد التونجي، 2/ 78).

الدِّين آيبك بمُلاطفة السُّلطان، فلم يلتفت إلى كُلِّ ذلك، وقال له: "إن أردتَ مرضاتي، فابعث إليَّ الحاجبَ علياً"، ولَمَّا عاد الرسول إلى عزِّ الدِّين، قام بقتل الحاجب عليّ مباشرة⁽¹⁾.

ونحنُ نعرف أن الحاجب علي عندما حقَّق انتصاراته على الخَوَارِزْمِيَّة، وأحضر بنت طغرل زوجة الخوارزمي ابتهج الأشرَف، وعدَّ ذلك من انتصاراته. وما قاله رسول عزِّ الدِّين نائب خِلاط المُحاصرة حول اعتقال الحاجب علي هو استغلال لظرف اعتقاله، وقد أدرك الخوارزمي ذلك، فلم يهتم كثيراً، وطلب الحاجب علي، ولكن؛ هل كان يرمي من طلبه الانتقام منه بنفسه؟! أم كان يعرف أن طلبه سيؤدِّي إلى قتله؟!

كذلك ورد إلى جلال الدِّين منكبرتي - وهو على حصار خِلاط - رسولان من ديوان الخليفة المُتصر، وطلباً فكَّ الحصار، فلم يوافق جلال الدِّين، "واستنكر ذلك، وقد حان فتحها، فقالا: نخاف أن تعجز عنها، وترحل، فبإشارة الديوان يكون الأمر أفضل"⁽²⁾. ورُبَّما استرضاء للخليفة، الذي كان جلال الدِّين يحرص - في ظُروفه تلك - على عدم إغضابه، ولكي يُمَرَّر عدم استجابته لطلب الخليفة، أرسل إليه يسأله أن يُنعم عليه بلباس الفُتوة. وكان الخليفة مُهتماً بنشر تنظيم الفُتوة، وخاصَّة بين المُلوكة، فتسلَّم طلب جلال الدِّين منكبرتي نقيب الفُتوة في دار الخلافة جلال الدِّين عبد الله بن المُختار، فرغَّب الخليفة بذلك، فأجابه، وسارت الرُّسل بأنحاء منكبرتي، ومعهم "التشاريف والخلع، فوصلوا والخوارزمي على أخلاط، مُحاصراً لها، فألبسوه الفُتوة، وتشاريف الخلافة" عام 626 هـ 1229 م⁽³⁾. ونسي الخليفة أمر خِلاط بالكامل، فالأمر سيَّان إن كانت مع الأشرَف، أو كانت مع الخوارزمي، والمُهمُّ عنده أنه زاد عدد المُلوكة الذين ألبسهم سراويل الفُتوة، وهي عنوان الطاعة له، أمَّا الخوارزمي؛ فلا الخليفة، ولا نظام الفُتوة، كانا يعنيان له أكثر من مواقف، يُريد أن يُوجِّهها لصالح مشاريعه السِّياسية والعسكريَّة.

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 299.

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 307.

3 - كنز الدرر، ابن آيبك، 296 / 7.

وبعد مُقاومة ضارية وصبر طويل أظهرته مدينة خِلاط، تأمر بعض الأمراء مع منكبرتي، وساعدوه على دُخول المدينة⁽¹⁾، عام 627 هـ⁽²⁾. ويُقال إن مَنْ تأمر على تسليم خِلاط للخوارزمي هو: ابن مُحسن دلدرم⁽³⁾، ورفيقه⁽⁴⁾. ولُحقن منكبرتي من المُقاومة التي أبدتها خِلاط "فعل بأهلها ما يفعلُه التتر"⁽⁵⁾، "فقتل مَنْ وجده من أهل البلد، وخربها، وسبى الحرِيم، واسترقَّ الأولاد، ونهب الأموال، وجرى على أهلها ما لم يُسمع بمثله"⁽⁶⁾. وقام جلال الدِّين بالقبض على مُجير الدِّين يعقوب وتقي الدِّين عبَّاس شقيقَي الأشرَف، وأعدم عزِّ الدِّين آيبك نائب الأشرَف في خِلاط؛ إذ سلَّمه لمملوك للحاجب علي ليقبله انتقاماً لأستاذه. كما أخذ زوجة الأشرَف ابنة إيفاني ملك الكرج "وكان أبوها قد زوَّجها للملك الأوحَد بعد أسره أمام خِلاط، وبعد موت الأوحَد تزوَّجها أخوه الملك الأشرَف، وضمَّها منكبرتي إلى حريمه انتقاماً لأخذ الحاجب علي زوجته من خوي⁽⁷⁾، ودخل بها جلال الدِّين تلك الليلة⁽⁸⁾.

وبعد أن استقرَّ منكبرتي في خِلاط لم ينسَ الخليفة، فقام بتسيير تقي الدِّين عبَّاس بن العادل وشقيق الأشرَف، في قيوده إلى بغداد هدية إلى الخليفة. وفي بغداد؛ أزيلت عنه القيود، وأكرمه الخليفة، وبقي عنده حتَّى كُسِر الخوارزمي⁽⁹⁾.

إن كُلَّ ما قام به منكبرتي في خِلاط ليدلَّ على أكثر من الوحشية والتهوُّر، إنَّه دليل على عدم امتلاكه لعقلية القائد السِّياسي، أو رجل الدولة، ربَّما كانت تلك الوحشية قد تولَّدت في نفسه نتيجة لكلِّ الظُروف التي عاشها، وخاصَّة في كفاحه المرير ضدَّ التتار. أمَّا هديَّته للخليفة؛ ففيها مسحة من الاستخفاف ببني أيوب، أكثر ممَّا فيها تقدير للخليفة.

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 487.

2 - دُيْل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَار، 20 / 309.

3 - دلدرم: اسم تركي أصله: بيلدرم؛ أي البرق.

4 - المنصوري، ابن نظيف، 85.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 146.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 487.

7 - تاريخ التتار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 158.

8 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحَمَّد ألتونجي، 2 / 79.

9 - المنصوري، ابن نظيف، 200.

المبحث الثالث

العلاقات الخوارزمية مع قوى الجزيرة الشامية

عندما دخل جلال الدين خوارزم شاه إلى عالم الجزيرة الشامية، بما يمثله جيشه من قوة كبرى، أدى ذلك إلى إعادة تشكيل التكتلات السياسية والعسكرية التي كانت سائدة قبل وصول الخوارزمي، ولاح في الأفق انقسام أصحاب القوى في الجزيرة الشامية بين حلفين كبيرين، هما:

أ. حلفاء الخوارزمي:

1. ركن الدين جيهان شاه بن طغرل: صاحب أرزن الروم، وابن عم علاء الدين كيقباز⁽¹⁾، وقد كانت بينه وبين قيقباز عداوة مستحكمة، مما جعل علاء الدين يخاف من هذا التحالف⁽²⁾، وقد حضر ركن الدين جيهان شاه بنفسه إلى عند جلال الدين وهو مُحاصر خِلاط، وأمدّه بعساكره، وبالمعدات اللازمة للحصار⁽³⁾. وبعد دُخول جلال الدين خِلاط جاء إليه جيهان شاه، وأعلمه "بأنفاق ملوك الشام والروم عليه، وقال: الرأي مُبادرهم قبل أن يجتمعوا، فصوّب السلطان رأيه"⁽⁴⁾.

2. حُسام الدين خضر الأصيلي⁽⁵⁾: صاحب سر ماري، وكان حُسام الدين يتلاعب على حبال السياسة، فيظهر لجلال الدين أنه معه، ومن جملة أتباعه، وكذلك يفعل مع الأشرف⁽⁶⁾. وعندما حاصر جلال الدين خِلاط قدم إليه بنفسه، وبجندته، ومعه آلات لدعم الحصار، فأكرمه الخوارزمي بعد فتحه خِلاط، وأعطاه بلدة أرجيش، والأل⁽⁷⁾. وكان حُسام الدين يعتقد أنه - بذلك - سيحفظ إمارته من الطرفين المتنازعين، وبالتأكيد؛ فإن حُسام الدين كان يُبرّر لنفسه ذلك بضعفه أمام القوى الكبيرة المتصارعة حوله، ولكنه لم يُفكر بأن أمره سينكشف لها معاً، فقد أرسل الحاجب علي نائب

الأشرف في خِلاط كتاب صاحب سر ماري حُسام الدين وطيه كتاب وزير الخوارزمي الواصل إليه، ولابد أن حُسام الدين بنفسه هو الذي سلّم الكتاب للحاجب علي برهاناً على مودته، ويُؤكّد فيه وزير الخوارزمي شرف الملك⁽¹⁾: بأن جلال الدين "لا شك ولا شبهة في تصميم عزمه المبارك على فتح بلاد الأرمن والشام"⁽²⁾. وأرفق معها رسالة منكبرتي نفسه؛ حيث يُؤكّد عزمه على غزو الأرمن والشام لولا إعاقة الفتن الداخلية في بلاده⁽³⁾، وأنه حالما ينتهي منها سيتوجّه نحو الأرمن والشام⁽⁴⁾.

كذلك أرسل صاحب سر ماري ابنه إلى عند الملك الحافظ، وهو نائب الأشرف في الجزيرة، فأكرمه الحافظ، لكن؛ عندما حضر الأشرف لاسترداد خِلاط من الخوارزمي، قبض على حُسام الدين خضر، وعلى ابنه، وحملهم إلى دمشق⁽⁵⁾، وذلك جزاءً لتحالفه مع الخوارزمي. بعد ذلك؛ حاول جلال الدين منكبرتي أن يتودّد إلى السلطان علاء الدين كيقباز، فأرسل له رسولا يحمل هدايا قيّمة، فلم يأبه له الرومي، فابن عمّه صاحب أرزن الروم عند الخوارزمي، وهو لا يأمن منه. كما يبدو أنه كان يعرف أن الخوارزمي لا يحفل بحلف، ولا بمؤالاة إلا وفقاً لمصلحته.

ب. الأيوبيّة وحلفاؤهم:

كان أكبر ملوك الأيوبيّة وهو السلطان الكامل "مُهمّناً من أمر الخوارزمي"⁽⁶⁾، الذي دخل عالم الجزيرة بقوة بعد احتلاله لمدينة خِلاط، فقد أشرف على الشام، وقوّته لا تخفى على أحد، لذلك؛ ركّز الكاملُ جُهوده من أجل التحالف مع الرومي علاء الدين ضدّ الخوارزمي⁽⁷⁾، وكان هذا رأي الملك الأشرف، وهو المعني بالأمر، فخلاط من أملاكه، وكانت القوة المعادلة للخوارزمي هي قوة الرومي علاء الدين كيقباز سلطان سلاجقة الروم، فرغب الكامل بالتحالف معه، آملاً منه النجدة في صراع مُرتقب ضدّ الخوارزمي⁽⁸⁾. أمّا كيقباز؛ فإنه كان مُهمّناً لأمر الخوارزمي رئيساً أكثر من الأيوبيّة، فقد أزعجه دُخول

1 - شرف الملك: خواجا جيهان علي بن أبي القاسم، توفّي عام 628 هـ 1231 م.

2 - راجع نصّ الرسالة في: المنصوري، ابن نظيف، 169.

3 - راجع نصّ الرسالة في: المنصوري، ابن نظيف، 170.

4 - المنصوري، ابن نظيف، 172.

5 - المنصوري، ابن نظيف، 219.

6 - المنصوري، ابن نظيف، 196.

7 - المنصوري، ابن نظيف، 196.

8 - التّجويد الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 273.

1 - تاريخ التّار، عبّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 159، وسيرة منكبرتي، النسوي، 329.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 489، ومُفَرّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 298.

3 - المنصوري، ابن نظيف، 185.

4 - سيرة منكبرتي، النسوي، 329.

5 - المنصوري، ابن نظيف، 219.

6 - المنصوري، ابن نظيف، 666.

7 - الأل: بلدة بالجزيرة. (معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: الأل)

الخوارزمي مسرح الجزيرة، وأخذ خلاط، وهي مفتاح بلاده، لذلك عدّ أن تحالفه مع الأيوبيّة، بغض النظر عن كُُلّ المواقف السابقة، أمر مصيري بالنسبة إليه، فقد "خاف أن يأخذ بلاده"⁽¹⁾.

وفي عام 627 هـ 1230 م، أرسل الرومي رسوله إلى الملك الكامل، الذي كان مُقيماً في الرقّة، يُخلِّفه على التعااهد والتعاقد. وبالمقابل؛ أرسل الملك الكامل كُلاً من: الشهاب أحمد⁽²⁾، والجمال الكندري⁽³⁾، لتحليف الرومي⁽⁴⁾. والغريب في الأمر هو تضارب الأخبار عن موقف علاء الدّين كَيْقَبَاذ من جلال الدّين منكبرتي ومن بني أيّوب، ويبدو من هذه الأخبار أن الرومي لم يكن قد حزم أمره بعد، وأنّه يُلاطف الطرفين، ويتودّد لهما على السواء، فقد أورد النسوي أنّه قد وصلت للسلطان جلال الدّين رسالة من علاء الدّين كَيْقَبَاذ صاحب الروم يغريه بمُعَاذَة بني أيّوب، ويعده بالمُساعدة عليهم، ويقول فيها: "إنّه كان اشتغل في سنته تلك بمن يتاخذه من الكفّرة، ففتح لهم عدّة حُصُون، كما أن السلطان اشتغل بالتّار، فردّهم على أعقابهم، ولم يبق - الآن - إلّا صرف الهمم إلى هؤلاء الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية"، وبالغ في ذكر الصفات السيئة لبني أيّوب حتّى قال: "ورجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"⁽⁵⁾. وفي الحقيقة؛ إن صحت هذه الرسالة، فهي تحريض شديد من الرومي، وإغراء واضح له لقتال الأيوبيّة، وذمّ لهم بلغ حدّه الأقصى باعتبار قتالهم هو الجهاد الأكبر، فَمَنْ يُقاتلهم يُثاب أكثر ممّن يُقاتل التّار، أو الفرنج، على حدّ قول الرومي. وفي الوقت نفسه؛ يصل إلى الرقّة الكمال كيمار رسول علاء الدّين كَيْقَبَاذ صاحب الروم يحمل صورة عن الرسالة التي كان قد سبّرها إلى جلال الدّين الخوارزمي، وسلّمت الرسالة بمحضر من الملوك الأيوبيّة: الكامل، والأشرف، والحافظ، ولديهم رسول الخليفة محيي الدّين بن الجوزي، ومّا جاء في الرسالة: "لقد تجنّيت على بيت أيّوب، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصّل من سنين... ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد... وأنت، فلا أموال، ولا رجال، وبلادك خربة... ولا تظنّ أني عدوّهم، لا؛ والله،

بل صديقهم ونسيبهم بما بيننا من الأهلية والمصاهرة"⁽¹⁾. إزاء هذين النّصّين يحار الباحث في أيّهما كان الرومي صادقاً؟ ربّما في كليهما، فلكلّ واحد كتّب ما يُرضيه، وما يُحقّق له مصالحه الشخصية عند مُتلقي الرسالة في الوقت نفسه. وربّما كان موقف الرومي المُعادي للأيوبيّة قبل أن يأخذ الخوارزمي خلاط، فقدّم عرضه للخوارزمي، ويبدو أن عرضه لم يلق أذناً صاغية من الخوارزمي، ولم يلتفت إليه، لذلك؛ عندما احتلّ خلاط عدّ أن الخطر قد أصبح على بابه، فاندفع الرومي نحو الأيوبيّة ليتحالف معهم. وألحّ الرومي في طلب الملك الأشرف الذي كان في دمشق "حتّى قيل إنّه في يوم واحد وصل إلى الكامل والأشرف منه خمسة رُسل"⁽²⁾، فتشكّلت نواة الحلف المُواجه لحلف جلال الدّين الخوارزمي من الملك الكامل صاحب مصر وأخيه الملك الأشرف صاحب دمشق، ولكلّ منهما مُدُن وبلاد في الجزيرة تتبع إليه، وأتفق معهم حلفاؤهم التقليديون: صاحب الموصل مُظفّر الدّين، والممالك الأيوبيّة في حلب، وحماة، وحمص.

وكان طلب كَيْقَبَاذ من الأشرف: أن "تحضر إلى عندي، لتتفق على هذا الذي أضرّ بالبلاد، وأهلك العباد، فعندي المال والرجال"⁽³⁾. لقد كان الرومي يُدرك تماماً أنّه غير قادر على مُواجهة الخوارزمي بقوّاته الخاصّة، ولذلك ألحّ على التحالف مع بني أيّوب، وخاصّة الملك الأشرف، فهو يعرف إمكاناته العسكريّة وقدرته القياديّة. ومع أن الاتّفاق يصبّ في مصلحة الأشرف تماماً، فقد شاور أخاه الكامل، فقال الكامل: إن في الاتّفاق مع الرومي مصلحة لنا، وأخذ الكامل معه سبعة آلاف فارس، وغادر الرقّة إلى مصر⁽⁴⁾. فلماذا غادر الكامل ساحة المعركة المُتوقّعة؟ ولماذا ابتعد إلى مصر؟! مكتفياً بإسداء النّصح لأخيه الأشرف بالاتّفاق مع الرومي، هل هي ثقة بأخيه؟! أم عدم اكتراث؟! يبدو أن تقييم موقف الكامل ليس بالأمر السهل، فانسحاب الكامل بجنّده نحو مصر لا بدّ أنّه لأمر عظيم تراءى له، أو أنّها غاية المصلحة الضيّقة؛ حيث سار إلى مصر ليكون في قاعدة سلطته بعيداً عن النتائج، التي قد لا تكون في مصلحة الأيوبيّة في الشّام.

- 1 - المنصوري، ابن نظيف، 198.
- 2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 489.
- 3 - كنز الدرر، ابن أبيك، 7 / 299.
- 4 - كنز الدرر، ابن أبيك، 7 / 299.

- 1 - مُفَرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 291.
- 2 - شهاب الدّين: هو أحد المُقرّين من الملك الكامل، توفّي عام 634 هـ 1236 م.
- 3 - جمال الدّين أبو القاسم عبد الرحمن الكندري، فقيه ومُدَرِّس في مدرسة الشافعية بمصر، توفّي 651 هـ 1283 م. (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 185).
- 4 - المنصوري، ابن نظيف، 195.
- 5 - سيرة منكبرتي، النسوي، 278.

وإذا حاولنا أن نُفَشِّح على تبرير لحركة الكامل بالانسحاب، فربما نقول إنه اطمئن بعدما أرسل الرومي يُخبره: "أنه سير خمسة عشر ألف فارس إلى أذربيجان، وعشرة آلاف إلى ملطية، وإنه حيث يأمره الكامل، فطاب قلب الكامل بذلك" (1). على كل الأحوال؛ سار الأشرف إلى حرّان بسبعمئة فارس، وأقام بها ينتظر وصول عساكر الشّام ليلتحق بحليفه الرومي (2)، ووصلت النجيدات إلى الأشرف في حرّان؛ حيث بلغ عدد فرسان الأشرف خمسة آلاف فارس، ومنهم عسكر دمشق، والجزيرة، وحلب، وحماة، وكان يقود عسكر حمص الملك المنصور إبراهيم بن المجهّد (3). فسار الأشرف من حرّان بجموعه، والتقى بحليفه الرومي مع عسكره قرب سيواس، وسارا نحو خلاط (4).

معركة ياصجمن 627 هـ:

جمع الأشرف عسكر الجزيرة والشّام، فكان معه بخدود خمسة آلاف فارس "من الشجعان، وكلّ منهم قد جرّب الحزب، ومقدّمهم أمير من أمراء عسكر حلب يقال له عزّ الدين عمر بن علي الهكاري، من الشجاعة في الدرجة العليا، وله الأوصاف الجميلة" (5). وكان مع علاء الدين كيقيباذ حوالي عشرين ألفاً من المقاتلين (6). وفي أثناء الاستعدادات؛ حضر إلى منكبرتي ركن الدين جيهان شاه صاحب أرزن الروم، وأعلمه "باتّفاق ملوك الشّام والروم عليه، وقال: الرأي مُبادرهم قبل أن يجتمعوا، فصوّب السلطان رأيه، واتفقا... منتظرين حركة العسكرين أيهما تحرك أولاً، ساقا إليه قبل اتّصاله بصاحبه" (7). وللحقيقة؛ فهذه خطة جيّدة، وكان من الممكن أن تؤدي إلى اختلاف جذري في نتيجة المعركة، لكن؛ "مرّض السلطان مرضاً شديداً، وسقط على الفراش، وتواترت كُتُب رُكن الدين مُحَرّضة على المعركة، والسلطان في شغل عنها، وبعد أن خفّ عنه المرض ساق، وبعض عساكره في الشّرق وبعضها في حصار بعض القلاع" (8). إن الأيام التي أمضاها السلطان جلال الدين مريضاً

- 1- المنصور، ابن نظيف، 195.
- 2- كنز الدرر، ابن آبيك، 299 / 7.
- 3- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 298 / 4.
- 4- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 489 / 12.
- 5- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 489 / 12.
- 6- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 298 / 4.
- 7- سيرة منكبرتي، النسوي، 329.
- 8- سيرة منكبرتي، النسوي، 330.

كانت أياماً ذهبية للحلفاء، فقد أكملوا استعداداتهم، والتقى الجيشان بسيواس، وما إن سمعوا بحركة الخوارزمي حتّى تحرّكوا، والتقوا بعسكره في مرج ياصجمن (1)، وأطلّت العساكر الأيوبيّة والرّومية عليهم في المرج وهم مُعسكرين، بينما جيش الحلفاء بأنهم أهبة واستعداد، وكان الرومي هو الدبندار (2)، وقوّات الرّوم تُشكّل الميمنة والميسرة، أمّا القوّات الأيوبيّة؛ فهي بقيادة الأشرف، وتُشكّل القلب، وكلّ منهم له بعض الأجنحة، فكان صاحب خربت الأرتقي من أجنحة الرومي، "وكان مع الرومي من الخلائق ما طبق الأرض، وملأها من التُّركمان، والأرمن، والفرنّج، والمسلمين، وغيرهم". والملك المنصور صاحب حمص كان من أجنحة الأشرف، "وقد عمل عملاً عظيماً هو وأصحابه، وفقد جماعة منهم دُون باقي جميع السلاطين"، أمّا عسكر حلب؛ فكان في وسط القلب. وكانت العربان قد حضرت مع الأشرف، وهي لكونها قوّات خفيفة جدّاً، فهي التي تبدأ المطاردة، ويسوق خلفها باقي العسكر (3). والتقى الجمعان "فانكسرت الخوارزميّة، ووقع منهم في واد خلق كثير، فهلكوا" (4)، "وولّى جلال الدين منهنماً، وتفرّقت عساكره، وتمزّقت" (5). وقبض كيقيباذ على ابن عمّه، ركن الدين جيهان شاه بن أرطغرل صاحب أرزن الروم، وسجنه (6)، ويُقال إنه قتله (7).

ويشرح لنا الجويني مجريات هذه المعركة الغربية، مُبرّراً هزيمة جلال الدين منكبرتي أمام تحالف الأشرف وكيقيباذ برواية لا تفتقد إلى التماسك، يقول: "كان جلال الدين قد دهمه المرض، فبرز من محنته، وامتنى جواده، ولأن صحّته مازالت واهنة لم يُحسن التمسك بزمام جواده، فانطلق الجواد على غير هُدى، فقالت الخاصّة: يجب أن ينال السلطان راحته، فعادت الرايات، وحين رأت صُفوف الميمنة والميسرة ذلك ظنّوا أن السلطان انهزم، فتراجعوا، بينما ظلّ جيش الخصوم هذا التراجع حيلة

- 1- ياصجمن: هو من أعمال أذربيجان، ذكره ابن الأثير باسم: باسي حمار، (الكامل في التاريخ، 490 / 12).
- 2- الدبندار: الذي يضرب الطبل (صُبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 13)، ونستنتج من السياق أنّها تعني القائد العام، الذي يتحرّك الجميع بأمره.
- 3- المنصور، ابن نظيف، 206 - 209.
- 4- دُيَل الرّوضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكّار، 309 / 20.
- 5- مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 298 / 4، - يروي ابن واصل حادثة تدلّ على اختلال عقل جلال الدين بعد هزيمته. (مُفَرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 298 / 4).
- 6- تاريخ التّار، عبّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 159، والمنصور، ابن نظيف، 212.
- 7- سيرة منكبرتي، النسوي، 331.

نتائج المعركة:

بعد المعركة مباشرة تحرك الأشرف نحو خِلاط، فاسترجعها⁽¹⁾، عام 628 هـ 1231 م⁽²⁾، وهي خراب يباب⁽³⁾. والغريب في الأمر أن جميع الأطراف المتحاربة المنتصرة: علاء الدين كَيْقَبَازَ الرُّومي، والأشرف مُوسَى الأيوبي، والمهزومة: جلال الدين منكبرتي الخوارزمي، جميعهم مالوا للصُّلح، وبدؤوا بمفاوضات ومراسلات للاتفاق فيما بينهم، والتحالف على أن يبقى بيد كلٍّ منهم ما يملكه من البلاد، ولا يتعرّض أحدهم لما بيد الآخر⁽⁴⁾، فما هي دوافع هذا الصُّلح بالنسبة لكلِّ الأطراف؟

1 - بالنسبة لجلال الدين منكبرتي، كان وضعه لا يحتمل مثل هذه الهزيمة، وإن لم تكن حاسمة، "فقد ضعف جلال الدين، وقويت عليه التَّار" (5)، لذلك؛ مال للصُّلح، وهو من مصلحته بالدرجة الأولى.

2 - أمّا بالنسبة للأشرف؛ فإن بوادر خلافه مع أخيه الكامل كانت قد بدأت فعلاً، ولابدَّ إن انسحاب الكامل، وعدم دعمه للأشرف في معركة مصيرية مع الخوارزمي كان بداية ذلك الخلاف.

3 - أمّا علاء الدين كَيْقَبَازَ؛ فالمعركة ضدَّ الخوارزمي بالنسبة إليه كانت معركة وقائية، لإبعاده عن حُدوده، كما أن له محاولات سابقة للتحالف مع الخوارزمي، وحتى إنه سعى لتوجُّهها ضدَّ بني أيُّوب.

ويقول النسوي صاحب سيرة منكبرتي: إن الأشرف هو الذي ابتداءً بطلب الصُّلح والتحالف مع جلال الدين، وإنه وسَّطَ شرفَ الملك وزير جلال الدين في إتمامه، وأرسل له يقول: "إن سُلطانك سُلطان المسلمين، وسندهم، والحجاب دونهم، فهلا ترغبه في جمع الكلمة... وأنا ضامن السُلطان من جهة كَيْقَبَازَ، وأخي الكامل"، وتردَّدت الرُّسلُ بينهم، حتى وافق السُلطان جلال الدين على الصُّلح⁽⁶⁾.

بينما يقول ابن نَظيف: إن الملك الأشرف أرسل لجلال الدين يطلب حسن مُعاملة الأسرى، فردَّ عليه منكبرتي بطلب الصُّلح، وقال من مجلَّة رسالته: "فإن اخترتُم الصُّلح، بسم الله"⁽⁷⁾. ويتابع

1 - مُفَرَّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 299.

2 - دَبِيلُ الرُّوسَتَيْن، أبو شامة، 159.

3 - المُختَصَر، أبو الفداء، 3 / 147.

4 - المُختَصَر، أبو الفداء، 3 / 147، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 491.

5 - المُختَصَر، أبو الفداء، 3 / 146.

6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 333.

7 - المنصوري، ابن نَظيف، 215.

من السُلطان، ليسوقهم إلى الصحراء، فلم يلحقوا به⁽¹⁾، ولو ساق الرُّومي والأشرف خلف الخوارزمي لتمكَّنوا من إبادة قُوَّاته، "بل ظنُّوا أن له عدَّةً أمكنة، لأنَّه انكسر من غير قتال أقالوا: هذه خديعة، ما نثق بكسرتة"⁽²⁾، ونستدلُّ من ذلك أنَّها كانت معركة غير حاسمة، ولم يتمَّ فيها قتال حقيقي، أدَّت ظُرُوف مرض منكبرتي إلى تراجع جيشه، دون استثمار عسكري لهذا التراجع من قِبَل الأشرف وحليفه كَيْقَبَازَ، ممَّا مكَّن الخوارزمي من إعادة جمع قُوَّاته، ثُمَّ سار إلى خِلاط، ومنها إلى أذربيجان⁽³⁾. ويقول ابن نَظيف: إنَّه بعد هزيمة الخوارزمي هُمَّ الأشرف عبُور بلاد المعجم وراءه، وظلَّ - تارةً - يُقدِّم، وتارةً يُججم⁽⁴⁾. ولكن؛ في الحقيقة، حتَّى لو كانت نتيجة المعركة حاسمة تماماً، وهزيمة الخوارزمي كاملة، ما كان الأشرف ليُقدِّم على هذه الخطوة لأسباب كثيرة، منها:

1 - عندما احتلَّ الحاجب على بلاد أذربيجان لم يتمكَّن من الإقامة فيها طويلاً، بل غادرها مُسرَّعاً، مع أنَّه قدمها بموافقة أهلها.

2 - لم يكن الرُّومي ليسمح بهذا التوسُّع للأشرف، ممَّا يعني قُوَّة كُبرى قُرب حُدوده، وبالتالي؛ لن يدعمه، إذا لم يمنعه أصلاً من دُخُول بلاد الشَّرق.

3 - تتشكَّل قوَى الأشرف العسكرية، إضافةً إلى قُوَّاته، من عساكر الممالك الأيوبيَّة: حلب، وحمص، وحماة، وغيرها، ولا يُمكن أن تسير هذه القُوَّات بهذه الحملة لُبَّعد قواعدها، ولحاجتها لأوامر جديدة.

4 - إنَّ الأشرف يعرف جيِّداً ما يواجهه الخوارزمي من متاعب من أهل البلاد، وأهمُّ من ذلك من التَّار المتحفِّزين في الشَّرق.

5 - أمّا إذا كان المقصود بعبُور الأشرف هو حملة للمطاردة فقط؛ فهي غير مأمونة الجوانب، وفائدتها العسكرية قليلة.

ولكلِّ ذلك نعتقد أن ما فكَّر به الأشرف هو مُجرَّد أقوال تُخدم الحَرْب المعنوية، ويؤيِّد ما نذهب إليه محاولة الأشرف المباشرة للصُّلح مع الخوارزمي.

1 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد التَّونجي، 2 / 84.

2 - المنصوري، ابن نَظيف، 211.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 490، - وقيل بأنَّ الخوارزمي تابع مسيره إلى خوي. (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 491).

4 - المنصوري، ابن نَظيف، 214.

ابن نظيف: بأنَّ الأشرف قد ردَّ عليه برسالة جاء فيها: "بلادنا قد خربت، فضِّلحنا على أيِّ شيء يكون؟ فإنَّ أردتَ ذلك، فانزل عن هذه البلاد"⁽¹⁾، وهذا يؤكِّد أن جميع الأطراف كانت ترى في الصِّلح مصلحة لها، وخاصَّة أن خطر التَّار - وهو خطر أكبر - قد أخذ يقترب من الساحة، والجميع على يقين بأنَّهم سيواجهونه.

وفي عام 627 هـ - 1230 م، أخذ خواجا جيهان وزير جلال الدِّين منكبرتي المبادرة، وطلب رسولا يصل إليه من عند الأشرف والرُّومي ليتباحث معه. فسَيروا إليه المظفَّر غازي، فتباحث معه، وعاد معه رسول، فأمر الأشرفُ العساكرَ والملوكَ وعسكرَ الرُّومي أن يلبسوا، ويتجملوا، وأن يقف بيد يديهِ أكابرُ الأمراء، ثُمَّ أحضر الرسولَ فسمع رسالته، وصرفه، "وأتفق الرأي على إرسال الجواب مع الحكيم سعد الدِّين"⁽²⁾ لأنَّه يعرف بالعجمي"⁽³⁾، والمُهمُّ في الأمر أن المباحثات بينهما أثمرت. وفي عام 628 هـ - 1231 م، سار الملك الأشرف إلى خِلاط ليُقابل فيها رُسُلَ جلال الدِّين، إنَّها لفته ذات مغزى كبير أن يستقبل الأشرف رُسُلَ الخوارزمي في بلد كانوا قد احتلُّوه، واسترجعه الأشرف منهم، ممَّا سيُسكِّل ضغطاً نفسياً على رُسُل الخوارزمي لمصلحة الأشرف. وفعلاً؛ وصل إلى خِلاط وفدُ الخَوَارزمية، يرأسه الوزير خواجا جيهان، وبرفقته الحكيم سعد الدِّين رسول الأشرف، وحلف لهم الأشرف على الاتِّفاق⁽⁴⁾.

وتسارعت الأحداث؛ فبشكل مُفاجئ، وصل إلى جلال الدِّين منكبرتي خبرُ عبور القائد التتاري جورماغون نوين لنهر أموية⁽⁵⁾، فالتار قد سمعوا بهزيمة "وكان الملاعين لما بلغهم عود السُّلطان من الرُّوم بجمْع مُفرِّق، وشمل مُبدد مُمزَّق، اغتنموا ضعفه، وطلبوه"⁽⁶⁾، وقيل: بأنَّ مُقدِّم

الإساعيلىَّة في الموت هو مَنْ أطلعهم على حال جلال الدِّين، وطلب منهم الهُجُوم عليه"⁽¹⁾. ولم يجد جلال أمامه من حلٍّ سوى الاستنجاد بالأشرف والرُّومي وملوك الجزيرة والخليفة.

استنجاد جلال الدِّين بالأشرف:

عندما أيقن جلال الدِّين منكبرتي بسوء موقفه أمام التَّار، وأن المعارك القادمة ستُحدِّد وُجُوده، ووُجُود دولته، وأنَّه غير مُستعد لها، بدأ يُطلق صيحات الاستغاثة وهو شبه مُنأَكَّد من عدم جدواها. كانت القوى التي يُمكن أن تدعم جلال الدِّين في ذلك الوقت محدودة وبعيدة نسبياً، وبعضها غير قادر، أو غير مُهتمِّ بتقديم المساعدة، أو أنَّه ناقم عليه.

فصاحب الرُّوم علاء الدِّين كَيْقُبَاذ كان مُعادياً لجلال الدِّين، لأنَّه "جرَّد ستة آلاف فارس، فأغاروا على خربت وازريجان وملطية، لما كان ينقم على علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، وتحريشه إياه بكُتُبهِ المتتابعة بخلاط، ثُمَّ ميَّله عنه إلى الأشرف"⁽²⁾. ومع كُلِّ ذلك؛ فقد أرسل جلال الدِّين إلى كَيْقُبَاذ يطلب نجده، فلم يرده عليه⁽³⁾، وكذلك كاتَبَ الخليفة العبَّاسي المتنصر بالله في بغداد⁽⁴⁾، ولكن الخليفة، رغم تحسُّن علاقته بجلال الدِّين، فلا يُمكن أن يكون قد نسي تجريد جلال الدِّين الحملات ضده، وحتَّى إذا رغب بإنجاده فهو غير قادر، وإذا أنجده فعلاً، فنجدته لن تكون ذات جدوى، لضعف حال الخليفة.

وفي الحقيقة؛ كان الملك الوحيد القادر على تقديم نجدة تستطيع أن تدعم جلال الدِّين بشكل جدِّي هو الملك الأشرف بإمداد من أيُّوبية الشَّام وأخيه الكامل في مصر. لذلك قام جلال الدِّين بإرسال مُجير الدِّين يعقوب بن الملك العادل، "وكان قد أسره عندما احتلَّ خِلاط"، إلى أخيه الأشرف، وحمله رسالة تتضمَّن الاستغاثة الأخيرة من دولة مَقْضي عليها، ومَلِك انتهى أمره، وقال له:

- 1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، حوادث عام 628، وجامع التواريخ - تاريخ هولاكو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 44.
- 2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372.
- 3 - ابن العربي، تاريخ مُختصر الدُّول، 340، وتاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد التونجي، 2 / 86.
- 4 - تاريخ التَّار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 161.

- 1 - المنصوري، ابن نظيف، 216.
- 2 - الطبيب سعد الدِّين بن عبد العزيز بن الموفَّق ت عام 644 هـ - 1246 م، راجع ترجمته في: طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، 3 / 314.
- 3 - المنصوري، ابن نظيف، 222، - يُعرَف بالعجمي: أي يتكلَّم اللُّغة الفارسية.
- 4 - المنصوري، ابن نظيف، 224.
- 5 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد التونجي، 2 / 85، وتاريخ مُختصر الدُّول، ابن العربي، 430.
- 6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 348.

"أعلمه أن الشُّرق طار شراره... وليس يرُدُّهم إلَّا اجتماع الأُمَّة، واتِّفاق الكلمة، وهيهات: هل من راق، وقد بلغت التراق"⁽¹⁾.

ويبدو أن جلال الدِّين كان مُتأكِّداً من عدم جدوى الاستنجاد بأحد، وأنَّه ترضية لخواطر بعض قادته قام بذلك، يقول البَسْوي: "وأجمعوا على الاستنجاد بالملك الأشرف موسى على التَّار، وكان جماعة من الجبناء يُشيرون على السُّلطان بذلك، وهو مُحالفهم باطناً، والسُّلطان يُتابع رُسُلَهُ للملك الأشرف مُستنجداً، والعقل يُنكر ذلك مُستبعداً، وهيهات، إن الضَّغينة إذا تمكَّنت من القُلُوب تلبث، ورُبَّما تُورَث، إن المستعين على العدوُّ بذِي ثائرة كالمستجير من الرمضاء بالنار"⁽²⁾. وحتى لا يُضطرَّ الأشرف إلى مُواجهة الرُّسل، فقد ترك الشَّام، وتوجَّه إلى مصر، يفرِّج بها، ويتسلَّى، ولم يسمح رجاله لرُّسل جلال الدِّين بالوُصول إلى دمشق، فمكث الرُّسل بحَيِّرة من أمرهم، ولكن موقف الأشرف كان قد وضع لهم، فأرسل مُختَصَّ الدِّين - أكبر رُّسل جلال الدِّين - رسالةً إليه، يُبلغه اليأس من نجدة الأشرف له، وأن الأشرف لن يرجع من مصر حتى ينجلي موقف جلال الدِّين مع التَّار، وأنهى رسالته بقوله: "فليُنظر السُّلطان في شغله غير مُنتظر جواب رُسُلِهِ"⁽³⁾. عند ذلك؛ يش جلال الدِّين من نجدة الأشرف، وكَلَّف البَسْوي بالترُّسل إلى مُلُوك الجزيرة الأخرين، لطلب حُضورهم مع عساكرهم، ويُخبرنا البَسْوي عن هذه المهمَّة، فيقول: "فأرسلني إلى الملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بن العادل، أَسْتَحْضِرُهُ بنفسه وعسكره، ومَنْ حوله من المُلُوك مثل صاحِبِي آمَد وماردين، وقال: عند حُضورهم لا حاجة لنجدة الملك الأشرف. وقال لي: قُلْ للمُظفَّر، هَلُمَّ لي مُساعداً..."⁽⁴⁾. ويبدو أن هذا الطلب - أيضاً - قام به جلال الدِّين بدُون قناعة بفائدته، يقول البَسْوي: "ولمَّا خلا المجلس قال لي: نحنُ لا نَشْكُ في هؤلاء، أبداً؛ لم يُنجدونا، ولا تنفع الشكوى إلى غير راحم، إن هؤلاء - يعني التُّرك من أُمرائه - يُطمعون أنفسهم فيما لا يكون، تسويلاً بكواذب الظنون، وقد شَوَّشوا علينا بهذا الطمع وجه تدبيرنا، فاخترتُك لهذه الرسالة، لترجع من المبعوث إليه باليأس، الذي لا رجاء بعده،

ولا تَأْمِيل عنده"⁽¹⁾، وهذا دليل على حالة اليأس القاتل التي وصل إليها جلال الدِّين، والتي ستؤدِّي إلى فشله الكامل.

ومع ذلك؛ فقد سافر البَسْوي إلى الملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بن الملك العادل في مَيَّافارقين، فاعتذر له بقلَّة عسكره، وأنَّه نائب لإخوته، وحذَّره من صاحِبِي آمَد وماردين، وطلب منه اختبارهما؛ ليعلم نفاقهما. وكان آخر الحوار بينهما أن قال البَسْوي للمُظفَّر: "لأبْد من حالتين؛ إمَّا للسُّلطان، وإمَّا عليه، وأيُّ منهما كانت تعقبكما ندامة، فإن كانت للسُّلطان وقعدتُم عن نصرته، فإن بذلتُم خزائن الأرض لمرضاته لم تنفع، وإن كانت عليه، فستذكرونه حين تلبون بمُجاورة التَّار، فردَّ المُظفَّر: كلام لا أشكُّ في صحَّته، ولكنني محكوم علي"⁽²⁾. إنَّها - إذن - السياسة الأثويَّة غير المعلنة، والتي تقضي بترك جلَّ الدِّين لمصيره أمام التَّار، انتقاماً من مواقفه السابقة ضدهم ومن أخذه لخلاط، وخوفاً من مطامعه ببلادهم. ولكنهم لم يُقدِّروا مدى قصر نظر تلك السياسة، التي ستنعكس عليهم بالويل والثبور، ولو بعد حين، فهل - فعلاً - كان مُلُوك الأثويَّة الأشرف والكامل لا يُقدِّرون خطر التَّار حقَّ قدره؟! أم أن معلوماتهم عن التَّار وخُططهم كانت قليلة أو مُضلَّلة؟! مهما تكن الأسباب فإن بني أيُّوب قد دفعوا ثمن ذلك الموقف غالباً جدًّا، فقد أنهى التَّار حُكمهم ودولتهم إلى الأبد.

آخر المعارك:

بعد حساب دقيق للموقف السِّياسي أجراه جلال الدِّين تبيَّن له أن لا أحد سيتقدَّم لنجده، وبتقييم الموقف العسكري استنتج أنَّه غير قادر على مُواجهة التَّار، وتأكَّد أنَّهم مُتجهون نحوه، ويقصدونه بالتحديد، فسار بمَنْ معه من العسَّكر نحو الجزيرة، ولمَّا اقترب من خلاط، أرسل إلى نائب الملك الأشرف فيها: "ما جئنا للحرب، ولا للأذى، وإنما خوف هذا العدوِّ حملنا على قصد بلادكم"⁽³⁾، ورُبَّما أمل جلال الدِّين أن يضع مُلُوك بني أيُّوب ونُوابهم تحت الأمر الواقع، بنقل معركته مع التَّار إلى ديارهم، ولكنَّه - نتيجة لخوفه وتحركه على شكل هارب، وليس بشكل قائد يتحرَّك في أرض معركة - أهمل الاستطلاع والكائن والحراسة، فبينما كان مُعسكراً عن أطراف آمَد

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372 - 373.

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 337 - 374.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 498.

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 355.

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 370 - 371.

3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372.

4 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372.

"كيس التتر جلال الدين ليلاً، فهرب في نفر يسير من أصحابه، ونهب التتر المعسكر، وقتلوا من ظفروا به، والباقي ولوا منهزمين، وتمزقوا كل ممزق"⁽¹⁾، وسار جلال الدين هارباً باتجاه ميافارقين، فوصل إلى قرية صادفه فيها رجل كردي، فقتله انتقاماً لمقتل أبيه وأخيه من قبل عسكر جلال الدين⁽²⁾، ولما علم الملك المظفر شهاب الدين غازي بذلك طلب الكردي، فقتله⁽³⁾، ودفن جثة جلال الدين، وأخفى قبره⁽⁴⁾، إنه الجميل الوحيد الذي قدمه بنو أيوب إلى جلال الدين؛ حيث إنهم لم يرغبوا بحمايته، أو أنهم عجزوا عن حمايته حياً، فحموه ميتاً من انتقام شنيع كان سيقوم به التتار، وتمثيل بشع بجثته، لولا مبادرة المظفر بإخفائها.

وتفرق من نجا من عسكر جلال الدين في كل وجه من وجوه الأرض نحو نصيبين، والموصل، وسنجار، وإربل، وغيرها، "فتخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردي والبدوي"⁽⁵⁾، وقصد الجزء الأكبر من فلول الجيش بلاد سلاجقة الروم، فاستخدمهم علاء الدين كيغباز، وضمهم إلى جيشه⁽⁶⁾، وتوجه خال جلال الدين مع جماعة من الجيش إلى ميافارقين، فاستقبلهم شهاب الدين غازي، أما زوجة جلال الدين وحاشيته وخدمه، ومعهم بعض العسكر، فمضوا إلى حران، فأمّنهم الأمير صواب نائب الملك الكامل فيها، ثم غدر بهم⁽⁷⁾، فأخذ ما لهم، وسلاحهم، ودوابهم⁽⁸⁾. فهل كان هذا انتقام بني أيوب؟ أم أنه كل ما استطاعوا تقديمه لذكرى السلطان جلال الدين منكبرتي.

الخوارزمية ونظرية السد في وجه التتار:

ردّد كثير من المؤرخين أن الدولة الخوارزمية كانت سداً في وجه التتار، يمنعهم من التقدم غرباً باتجاه قلب الدولة الإسلامية، حتى إن بعضهم قد وهم، ولم يميّز بين الدولة الخوارزمية وبين

فرقة الخوارزمية، التي عاثت فساداً في الجزيرة والشام، وتأسف للقضاء عليهم، وعدّ ذلك تهديداً للسد، الذي كان قائماً في وجه التتار. وقد وردت هذه الفكرة في رسائل جلال الدين منكبرتي إلى ملوك الإسلام، عندما استنجدهم على التتار، بأنه يستطيع إذا أنجدوه أن يقيم بهم سداً في وجه التتار، فمن جملة ما عرض عليهم قوله: "فإن وليت استحالت عليكم مناهضته، وإني أستطيع أن أجعل بكم سدّاً الإسكندر"⁽¹⁾. وقد ذكرت الفكرة ذاتها، لكن؛ كان جلال الدين هو نفسه السد بين المسلمين وبين التتار، "وإنه إذا ارتفع هو من بين يعجزون عن مقاومتهم، وإنه كسد الإسكندر يمنعهم عنهم"⁽²⁾، وردّد هذه الفكرة عديد من المؤرخين، فابن واصل - مثلاً - يقول في معرض حديثه عن جلال الدين: "وكان سداً بيننا وبين التتار، فبهلاكه؛ تمكنت التتار من العراق والروم والجزيرة، والتطرق إلى الشام"⁽³⁾، ونسب ابن كثير في ترجمته لجلال الدين منكبرتي إلى الملك الأشرف قوله: "هو سدّ بيننا وبين التتار، كما أن السدّ بيننا وبين يأجوج ومأجوج"⁽⁴⁾، مع أنه من المستبعد صدور هذا القول عن الأشرف، نظراً لموقفه من جلال الدين قبل هجوم التتار الأخير عليه، وبعده. ويروي ابن تغري بردي: "إنه لما قتل جلال الدين منكبرتي" دخل جماعة على الملك الأشرف يهتفونه بموته، فقال: تهتفوني به، وفرحون!! سوف ترون غيّه، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل السدّ الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج. فكان كما قال الأشرف"⁽⁵⁾. وهنا - أيضاً - هي أقوال مستبعدة عن الأشرف بدليل مواقفه السابقة لمقتل جلال الدين، واللاحقة، وغالباً؛ هي أقوال تردّدت، ونُسبت إليه بعد هجوم التتار على الشام، ثم تسرّبت إلى كتابات المؤرخين.

ويحتمل أن فكرة السدّ الخوارزمي في وجه التتار لم يكن مصدرها جلال الدين، ولم يُفكر بها، وربما كانت من أفكار كتّاب ما بعد الاجتياح التتاري للشام، فقد نشر البسوي معظم رسائل جلال

1- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4/ 321، وراجع تفاصيل الحادثة في: سيرة منكبرتي، النسوي، 378.

2- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4/ 321.

3- ابن العميد، أخبار الأيوبيين، 18، وكنز الدرر، ابن آبيك، 7/ 303.

4- سيرة منكبرتي، النسوي، 383.

5- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 498.

6- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4/ 325.

7- ابن نظيف، المنصوري، 157، وكنز الدرر، ابن آبيك، 7/ 302.

8- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 498.

1- تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: محمد التونجي، 2/ 85.

2- تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، 431.

3- مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ، ابن واصل، 4/ 323.

4- البداية والنهاية، ابن كثير، 9/ 13.

5- النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 276.

الدِّين، التي يستنجد بها مُلوك الإسلام، ولا نجد بها أي إشارة لفكرة السِّد⁽¹⁾، والبسوي المؤرِّخ هو المُستشار والكاتب الخاص لجلال الدِّين منكبرتي، كذلك لا نجد إشارة لفكرة السِّد عند ابن نظيف، فهو مُعاصر للأحداث، مُطَّلِع عليها، وقد أورد مقتطفات من رسائل جلال الدِّين تخلو من هذه الفكرة⁽²⁾. ويبدو من نصوص رسائل جلال الدِّين أنَّها كانت شفهيَّة، ولم تكن مكتوبة، فعندما أراد جلال الدِّين أن يُبلغ الأشرف بخطورة الوضع أمام التَّار أحضر مُجِير الدِّين يعقوب بن العادل، "فأوصى إليه أن يمضي إلى الملك الأشرف، وليُعلمه...."⁽³⁾، وهذا يوضِّح أن الرسالة كانت شفهيَّة، ويؤكد ذلك نصُّ ابن نظيف؛ حيث يقول: "لما تحقَّق الخوارزمي قصد التَّار له أطلق مُجِير الدِّين بن الملك العادل، وقال له: نفسك لك، فتعرَّف أخاك الأشرف بالتَّار"⁽⁴⁾.

والرسائل الشفوية يُمكن أن تُنقل، وتتناقل، بأشكال مُتعدِّدة، فبأحسن الأحوال قد تكون فكرة السِّد وردت عَرَضاً في إحداها.

أمَّا فكرة السِّد الخوارزمي بوجه التَّار بحدِّ ذاتها؛ فنرى أنَّها معكوسة تماماً، فالخوارزمية - مُنذُ قيام دولتهم - قد حطَّموها السِّد الحقيقي الذي كان يُمكن أن يردَّ التَّار، أو أن يصمد بوجههم، وذلك من خلال ما يلي:

- 1 - كان السُّلطان مُحَمَّد خوارزم شاه مُحارباً قديراً، لكنَّه لم يهتم بسياسة المُلك وإصلاح أمر الرعية، كان مُستبدّاً بِحُكمه، مُتعصِّباً لرأيه، لا يهتمُّ إلا توسيع دولته.
- 2 - أغلبية الجيش الخوارزمي كانت من مُرتزقة الأتراك من عشائر القفجاق ومنقلي، لا يجمعهم تنظيم سليم، وهدفهم المُفضَّل هو الغارات والنهب.
- 3 - قضاء خوارزمشاه على دولة الخطا - القراخانيين - التي كانت حاجزاً أمام التَّار⁽⁵⁾.

1 - راجع: سيرة منكبرتي، النسوي، 834 - 373.

2 - المنصوري، ابن نظيف، 277.

3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 355.

4 - المنصوري، ابن نظيف، 722 - 228.

5 - عندما اتَّجه خوارزمشاه إلى الخطا قال له الحكماء: إنَّا سمعنا من آبائنا أن وراء جيش الخطا عشاً للنحل، وهو جيش ياجوج، وكانوا يقصدون به جيش التَّار، فلا تستقرَّ عش النحل هذا. إلا أن طمع السيطرة على العالم أصمَّ أذان السُّلطان عن هذه النصائح، فمضى، وهزم خان الخطا، واستولى على بلاده. (مجمع الأنساب، مُحَمَّد بن علي شيبانكاره أي، 314).

4 - خُرُوج جلال الدِّين على الخليفة، وحملته الفاشلة عليه.

5 - قسوة جلال الدِّين الفائقة، وسلوكه الدموي.

6 - الخوف والتردُّد المسيطران عليه، ممَّا كان يمنعه من اتِّخاذ قرارات سريعة ومُناسبة.

7 - ظُلم الخوارزميين لرعاياهم، واستنزافهم اقتصادياً لتمويل خُرُوبهم التوسُّعية، إضافة إلى أن رعاياهم يعدُّونهم مُغتصبين للمُلك، خارجين على شرعية الخليفة، ممَّا دفع كثيراً من القبائل والجماعات للانضمام إلى التَّار⁽¹⁾.

8 - لم يُبقِ الخوارزمية على أي مملكة، أو مُلك مُستقل، من كاشغر حتَّى العراق، فلم يعد في كُلِّ تلك البلاد مَنْ له القدرة على مُواجهة التَّار، يقول ابن الأثير: "إن هؤلاء التَّار إنَّما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع، وسبب عدمه أن خوارزمشاه مُحَمَّد كان قد استولى على البلاد، وقتل مُلوكها، وأفناها، وبقي هو - وحده - سُلطان البلاد، فلمَّا انهزم منهم لم يبقَ مَنْ يمنعهم، ولا مَنْ يحميها"⁽²⁾.

9 - يُؤكِّد كاتب مُتأخِّر هو ابن عرب شاه فكرة تحطيم الخوارزمية للسِّد، الذي كان في وجه التَّار، ليحول بينهم وبين الدولة العربيَّة الإسلاميَّة، يقول: "أمَّا أخبار السُّلطان قُطب الدِّين⁽³⁾؛ فإنَّه تملَّك عراقي العرب والعجم، واستولى على غالب الممالك بالقهر، ورفع ما بين ممالكه وبين ممالك جنكزخان من التَّار المسلمين قراجغتاي وعُباد الأوثان، واسترقَّهم قهراً وقسراً، فكانوا شُعوباً وقبائل يخرج منهم سبعون ألف مُقاتل⁽⁴⁾، وكان هؤلاء التَّار مناهزين ببلاد أنزار، وهي حدُّ ممالك السُّلطان، وهم سدَّ عظيم بين المسلمين وبين جنكزخان، فغزاهم السُّلطان، وأبادهم، فارتفع السِّد من البين، وانهدم الفاصل بين الجانبين، واتَّصلت المملكتان، ودقَّت في مملكة السُّلطان قُطب الدِّين البشائر. وكان في نيسابور من أكابر الصدور شخصان من العُلَّماء، فاجتمعا، وأقاما العزاء، فشُتلا عن موجب هذا البكاء، وإنها الناس في فتوح وهناء، فقالا: أنتم تعدُّون هذا التَّلم فتحاً، وتتصوِّرون هذا الفساد صلحاً، وإنها هو مبدأ الخُرُوج، وتسليط العُلُوج، وفتح سدِّ ياجوج وماجوج، ونحن نُقيم

1 - راجع حول كُلِّ تلك الأسباب: تاريخ التَّار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 126 - 129.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 361 / 12.

3 - قُطب الدِّين: السُّلطان قُطب الدِّين مُحَمَّد بن أنوشكين مؤسِّس الدولة الخوارزميَّة، وأوَّل مَنْ لُقِّب خوارزمشاه.

4 - الذي قضى على هؤلاء هو السُّلطان علاء الدِّين تكش بن قُطب الدِّين، والمقصود هنا هو شعب الخطا.

العزاء على الإسلام والمسلمين"⁽¹⁾. وهنا - أيضاً - نعتقد بأن هذا الاستنتاج كان متأخراً، وقد تمت صياغته على طريقة الحكايات لاستخلاص العبر، وما يهتُنَّا فيه هو إدراك الرأي العام الشعبي لدور الدولة الخوارزمية في فتح طريق التتار.

ولكن؛ للحقيقة، فإن الدولة الخوارزمية لم تخرج في علاقاتها السياسية، أو العسكرية، لا في الحزب، ولا في السلم، عن رُوح العلاقات التي كانت سائدة في عصرها، ولا نستطيع أن نلقي باللوم في أي شيء حصل إلا على العصر بأكمله، وعلى كُلِّ مَنْ عاش فيه، فهذه أخلاقيات العصر، ومنها كان سلوك مَنْ عاش فيه. وقد بدأت العلاقات بين الدولة الخوارزمية والسلطنة الأيوبية منذ أيام الملك العادل، ولما دفع التتار الخوارزمية نحو الغرب دخلوا معترك الصراع على النفوذ في الجزيرة الشامية. وخاصة؛ عندما تحالف الملك المعظم بن العادل مع جلال الدين منكبرتي سلطان الخوارزمية ضد أخويه، وانعكس ذلك على العلاقات الأيوبية مع الخليفة العباسي، الذي كان في حرب مع جلال الدين، ممَّا جعل الخليفة يتدخل مع المعظم لمنع تحالفه مع عدوه جلال الدين، وجعل الكامل يردُّ على هذا الحلف بالتحالف مع الإمبراطور فريدريك، هذا التحالف الذي نتج عنه انتكاسة كبرى في سياسة الجهاد الأيوبية بتسليم الملك الكامل مدينة القدس إلى فريدريك.

انتهى الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني؛ وهو بعنوان:

العلاقات الآسيوية الأوروبية

1 - فاكهة الخلفاء، ابن عرب شاه، 486 - 487.

لمحة إلى المؤلف

د. مُنذر مُحمَّد الحايك:

- دُكتوراه في تاريخ العرب والإسلام.
- عضو دائم في اللجان العلمية، ومُنسَّق لأعمال المؤتمرات التاريخية والأثرية في جامعة البعث.
- رئيس سابق للجمعية التاريخية السورية.
- أستاذ مادة التاريخ في كُلية الآداب، جامعة البعث (1992-2002).
- باحث مُشارك في العديد من المؤتمرات الدولية في الجامعات السورية والعربية.
- له أكثر من عشر مؤلفات في التاريخ، والآثار، والتراث الشعبي.
- نشر عشرات البحوث التاريخية، والأثرية، والاجتماعية في المجلات العربية المتخصصة.
- حصل على كثير من شهادات التقدير من عدَّة جامعات، ومراكز دراسات، وهيئات ثقافية سورية، وعربية، وأجنبية؛ تقديرًا لنشاطاته الثقافية، ومشاركاته العلمية.

حقيقة الحال: إنَّ العمل الذي أقدم له ، وأعدّه مُنذر الحايك. من أهمِّ ما كتب بالعربية حديثاً حول الحروب الصليبية. وأشهد أنه عالج جوانب هذه الحروب بنجاح، ودقّة، ولولا أنه تملّك في ذهنه - بوضوح - صورة جميع جوانب هذا الموضوع لما حالفه النجاح.

لقد أوضح - منذ البداية - أنَّ قيام الإسلام، ونجاح حركة الفتوحات الكبرى ، قسم عالم البحر المتوسط الى عالمين متصارعين: واحد مُسلم، وآخر مسيحي. وفي العالم المسيحي: كان للكنيسة الكاثوليكية نفوذها الكبير، لذلك استجاب الأوروبيون لنداء البابا، فحملوا الصليب، وتوجّهوا - على شكل أمواج بشرية - يريدون المقدس.

إنَّ العمل الذي قام به باحثنا، والذي أقدم له اليوم، يفتح آفاقاً جديدة للبحث والتقصّي، وشكل لديّ بارقة أمل في أنَّ الضعف اللامحدود الذي ألم بدراسات التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق، سوف يجري تداركه في حمص، وربّما في حلب، وهذا الضعف المأساوي مرّده إلى أنَّ المعيدين - الذين جرى تعيينهم في العقدين الماضيين لم يخضعوا لمعايير الانتقاء الأكاديمي، وهذا - بالفضل - أمر مُحزن، لا بُدَّ من إيجاد حلٍّ له. الذي أتيت به أن يكون العمل الذي أنجزه الباحث الدكتور مُنذر الحايك - والذي أقدم له - بدايةً لمزيد من الأبحاث في ميدان الحروب الصليبية، والميادين الأخرى في تاريخ العرب والإسلام. له أتمنى التوفيق والنجاح، والحمد لله، أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على نبيّه المصطفى، وعلى آله وصحبه، وسلّم.

أ. د. سهيل زكّاز

AL - AWA'EL